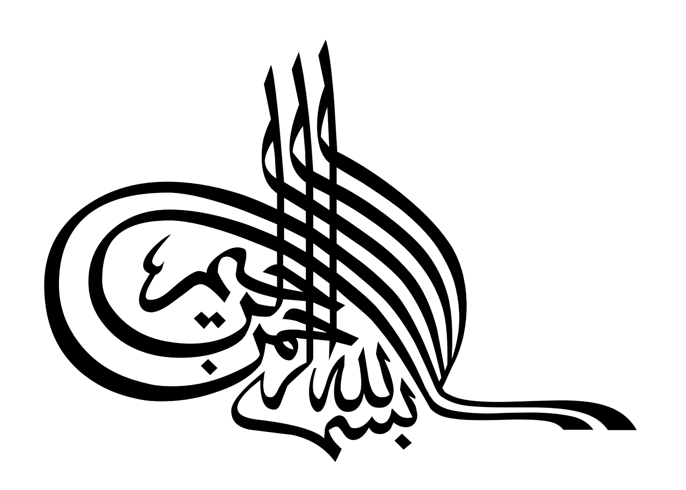
أحسن القصص

في ضوء التفسير الكبير

للمصلح الموعود

ميرزا بشير الدين محمود أحمد رضي الله عنه
الخليفة الثاني للمسيح الموعود
ميرزا غلام أحمد القادياني عليه السلام

إعداد وتجميع غسان النقيب



أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلي على رسوله الكريم وعلى عبده المسيح الموعود

بفضل الله ورحمته، هو الناصر

المقدمة:

هذا الكتاب هو قصص قرآنية اقتبست من مجلدات التفسير الكبير للمصلح الموعود ميرزا بشير الدين محمود أحمد ﷺ الخليفة الثاني للمسيح الموعود ؑ.

إن العلوم القرآنية دائمة التجدد، وفي كل زمن من الأزمنة يظهر الله ﷻ مفاهيم ومعاني متجددة لهذا الكلام الإلهي العظيم، ويرسل مجدديه إلى العالم لتقديم النبوءات والمفاهيم المتجددة للناس جميعًا، وهذا من عظمة وجود القرآن منذ عهد رسولنا ﷺ وحتى الآن وإلى آخر الزمان.

وهذه القصص القرآنية التي جُمعت في هذا الكتاب، تتيح للقارئ الكريم أن يفهم أعمال الأنبياء ومهماتهم بطريقة واضحة لا لبس فيها؛ إذ تنفي المفاهيم الخاطئة الشائعة بين المسلمين عن الإعجاز الخرافي المنسوب إلى الرسل.

ولا عجب أن تزول هذه الشائعات ويترّه الأنبياء ومن أرسلهم وتمحى الشبهات عندما نعلم أن صاحب هذا التفسير الذي اقتبسنا منه هو المصلح الموعود ؓ الذي فند ما نُسب إليهم بغير حق من أقاويل وأفعال.

لقد اتسم أسلوب المصلح الموعود ؓ في تناول هذه المواضع بالسلاسة والمنطقية المدعمة بالحجة والبراهين التي تجعل القلب يرقص فرحا بقراءتها فتترل تحليلاته

واستنتاجاته على العقل بردا وسلاما وتثلج صدور العلماء والبسطاء. عسى الله أن يهدي الناس جميعًا على فهم وقبول هذا الشرح العظيم.

ننوه للقارئ الكريم أن ما كُتب بخط مائل فما هو من النص الأصلي للتفسير الكبير، وإنما أضيف للضرورة توضيحا، ومثله بعض العناوين الجانبية وذكر الآية القرآنية المعنية بالتفسير على رأس بعض الفقرات.

أخص بالشكر الأخ وسام البراقي على جهوده التي بذلها في تدقيق الكتاب وإبداء الملحوظات التي كانت في محلها، وندعو له بالتوفيق وجزاه الله.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

غسان خالد النقيب

فهرس الكتاب:

قصة خلق الإنسان

- بداية الخلق:

إن آدم عليه السلام هو الحلقة الأولى من سلسلة النظام الإنساني، بدأ الله به نزول الوحي السماوي إلى الناس حسبما ورد في القرآن الكريم. وأود أن أكشف الغطاء عن أن آدم المذكور في هذه الآية لم يكن أبا البشر الذي بدأ به خلق الإنسان، فالقرآن الكريم لا يصدق هذا الزعم، ولا يقول بأن الله تعالى خلق آدم دفعة واحدة، ثم خلق زوجه حواء من ضلعه، بل إن ذلك القول مأخوذ من التوراة وغيرها من الكتب، وعزوه إلى الإسلام افتراء عليه. جاء في التوراة: "وقال الله: نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا، فَيَتَسَلَّطُونَ عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ، وَعَلَى كُلِّ الأَرْضِ، وَعَلَى جَمِيعِ الدَّبَّابَاتِ الَّتِي تَدبُّ عَلَى الأَرْضِ. فَخَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ. عَلَى صُورَةِ اللهِ خَلَقَهُ. ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُمْ. وَبَارَكَهُمُ اللهُ وَقَالَ لَهُمْ: أَثْمِرُوا وَاكْثُرُوا وَامْلأُوا الأَرْضَ.. وَغَرَسَ الرَّبُّ الإِلهُ جَنَّةً فِي عَدْنٍ شَرْقًا، وَوَضَعَ هُنَاكَ آدَمَ الَّذِي جَبَلَهُ.. وَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ: لَيْسَ جَيِّدًا أَنْ يَكُونَ آدَمُ وَحْدَهُ، فَأَصْنَعَ لَهُ مُعِينًا نَظِيرَهُ.. فأَوْقَعَ الرَّبُّ الإِلهُ سُبَاتًا عَلَى آدَمَ فَنَامَ، فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلاَعِهِ وَمَلأَ مَكَانَهَا لَحْمًا. وَبَنَى الرَّبُّ الإِلهُ الضِّلْعَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ. فَقَالَ آدَمُ: هذِهِ الآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي. هذِهِ تُدْعَى امْرَأَةً لأَنَّهَا مِنِ امْرِءٍ أُخِذَتْ (سِفْرُ التَّكْوِينِ، ١ و٢).

وتقول الكتب الهندوسية إن خلق الإنسان تم بصورة زوجية، إما بانشطار الإله إلى شطرين عند البعض، أو بانقسام (براهما) عند الآخرين، ومنه انتشر النوع الإنساني.

إن قصص خلق الإنسان هذه جاءت بأسلوب المجاز، ويبدو أن الكتّاب المتأخرين ألحقوا بها زيادات هنا وهناك من عند أنفسهم فجاءت بهذه الصورة الأسطورية. ولكن هناك تشابها بين مختلف القصص الواردة في كتب الهندوسية، وتتفق في خطوطها العامة.

أما القرآن فقد اختار طريقا بديعا لكشف أسرار خلق هذا الكون وإزالة الستار عن حقائقه الغامضة يختلف عن سائر هذه الآراء. يتبين من تعاليم القرآن أن سنّة الارتقاء والتطور جارية في العالمين الروحاني والمادي دون مراء، وأن العالم المادي قد بلغ منتهى أوج كماله بعد تطورات ارتقائية طويلة، وكذلك وصل العالم الروحاني إلى قمة كماله بعد أن طوى مراحل الارتقاء الطويلة. ولكن القرآن الكريم لا يسلّم بأن الإنسان كان آخر حلقة من سلسلة الارتقاء في الحيوانات المختلفة، وإنما يقول بأن التطور الإنساني مستقل بنفسه ومنفصل عن غيره من التطورات، وأنه ليس مجرد مظهر صادف التطور الحيواني، ويتبين ذلك من قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّه وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَات طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا * وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ (نوح: ١٤-١٩).

يتبين من هذه الآية ما يلي:

تدل كلمة ﴿أطوارا﴾ على:

أن خلق الإنسان قطع أحوالا وحدودا ومراحل عديدة قبل أن يكتمل. أن خلق الإنسان بدأ قبل خلق السماوات والأرض، وأن مراحله الأخيرة كانت من الأرض بعد ذلك؛ أي أن مراحل الخلق الإنساني بدأت على صورة ما حينما كانت السماء والأرض مجرد دخان، ثم تطورت هذه الصورة فيما بعد إلى أن اكتملت صورة الإنسان على الأرض بعد خلق السماوات والأرض.

أنه بعد أن تجمعت المادة الدخانية وتكونت منها السماوات والأرض، دخلت مرحلة جديدة في خلق الإنسان، فبرز فيها وجوده من بطن الأرض إلى ظهرها كمثل

النبات الضعيف الذي لا يتحرك ويستمد غذاءه من رطوبتها، ثم أخذ يتحول شيئا فشيئا إلى صورة وجود متحرك.

أن ما يجري على الإنسان بعد موته لدليل على صدق ما يقرره القرآن بهذا الشأن. فالجسد يتحول إلى تراب، الأمر الذي يشهد على أن بدء الخلق كان من الطين. ثم يقول: إن موت الإنسان وتحوله إلى التراب لا يعني أن جميع أجزائه تفنى وتفقد الحياة، بل يُبقي الله تعالى منه تلك الحالة المتطورة الدائمة بعد خلقه من الطين، والتي يعيدها إليه ببعثة أُخرى يحاسب فيها الإنسان على أعماله.

ومجمل القول إن خلق الإنسان بحسب تعليم القرآن، لم يكن دفعة واحدة ولا في وقت واحد، بل إنه تعالى أسس بنيان خلقه منذ بدأ خلق النظام الكوني، ثم أنبته من الأرض نباتا متطور النشوء في مختلف الأزمان، وأعطاه الصورة الإنسانية، ووهب له العقل والشعور.

ويذكر القرآن أن للإنسان حالة أُخرى سابقة لتلك، وهي التي لم يوجد فيها حتى ولا جرثومته البدائية أو ذراته الأولى. فيقول: ﴿أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ (مريم: ٦٨). وفي هذه الآية يقرر أن الله تعالى مؤلِّف مادة الخلق الإنساني بعد أن خلقها من عدم.

وآيات القرآن الكريم تتناول موضوع الخلق مشيرة إلى مراحله المتعددة، مثلا:

- ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ (فاطر: ١٢).
- ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ (السجدة: ٨).
- ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾ (الفرقان: ٥٥).
- ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: ٣١).
- ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ (السجدة: ٩).

ويتبين من هذه الآيات أن المرحلة الأولى لخلق الإنسان كانت دور نشأته من الطين، ثم لما تطورت نشأته بهذا الطريق أخذت ذريته تتناسل من ماء مهين: ﴿مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى﴾ (القيامة: ٣٨).

ويتضح أيضًا أن دور نشوء الإنسان من الطين يختلف عن دور تناسله من الماء المهين. ثم إن القرآن فيما تحكيه آياته يبين لنا أن خلق الإنسان لم يكن بنشأة متطورة من الحيوانات الأخرى، بل إن الجرثومة الإنسانية منذ بدء الخلق كانت مستقلة بذاتها، مختصة لتكون بصورة الإنسان، فالله تعالى يقول في الآية إن ذرية الإنسان أخذت في التناسل بعد أن صار الإنسان بشرا سويا، ولكن التسليم بنظرية (دارون) يستلزم الإقرار بأن الإنسان كان يتناسل عن طريق الحيوانات حتى قبل أن يبلغ مبلغ البشرية. وهناك آية أخرى تدلنا على كيفية الإنسان قبل أن يكون بشرا: قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ (الإنْسان: ٢)، أي أن الإنسان في هذا الدور من حياته لم يكن قد نشأت فيه القدرة الفكرية، و لم يكن عندئذ كائنا ناطقا عاقلا، وإنما كان كائنا منطويا على قوة كامنة للتقدم والتطور. ثم تقول الآية التالية لها: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ﴾ (الإنْسان: ٣). وفي هذا إشارة إلى أن تناسل الإنسان بطريق النطفة بدأ بعد أن ظهر بصورة الكائن الحي، وكانت نطفته هذه أمشاجا، أي خليطا من القوى المتنوعة التي تميز النطفة الإنسانية عن نطفة سائر الحيوانات. ونطف الحيوانات الأخرى ليست بأمشاج، أي أنها ليست خليطا من قوى مختلفة، لذلك فليست الحيوانات قادرة على اختيار طرق مختلفة. ولكن البشر الذين خُلقوا من نطفة أمشاج فهم مختلفون في أمزجتهم، وقادرون على الاختلاف في اختيار الطرق. أما القرد فيتمتع اليوم أيضا بالقوى نفسها التي كان يتمتع بها قبل آلاف السنين، وكذلك الأسد وسائر الحيوانات الأخرى. ولكن ذرية الإنسان المخلوق من "نطفة أمشاج" اختلفوا عن آبائهم في أفعالهم وقواهم، فأصبحوا قادرين على التقدم المستمر في العلوم والفنون. وكأن في كلمة "نطفة أمشاج" إشارة إلى كون الإنسان حيوانا ناطقا. وتكتمل الآية بقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (الإنْسان: ٣). وهاتان الصفتان تدلان على المبالغة والكمال، وهما ميزتان تختصان بالإنسان دون سائر الحيوانات. الحيوان يسمع ولكنه ليس سميعا، لأنه لا يعقل أو يفكر فيما يسمع. وهو يبصر، ولكنه ليس بصيرا، لأنه لا

يتفكر فيما يرى ولا يعمل عقله فيه. وهكذا فإن آدم كان أول مظهر لتلك القوى المودعة في النطفة الأمشاج التي تجلت في الصفتين: السميع والبصير. ولا يراد بالآيات السابقة النفي المطلق لوجود البشر قبل آدم، بل إنها تدل على أن الجنس البشري كان موجودا قبله، ولكن لم يتصف أحد منهم بهاتين الصفتين غير آدم عليه السلام لأن قواهم لم تتطور إلى حد يؤهلهم لسماع كلام الله تعالى والنظر في آياته ومظاهر قدرته، فلذلك لم ينزل عليهم عندئذ الوحي السماوي، ولم يظهر الله لهم آياته الخاصة بالشريعة. ولما ترقى الإنسان وتقدم في نشأته حتى صار (سميعا بصيرا)؛ اصطفاه الله لكلامه، وشرفه بوحيه. وقد ورد في القرآن الكريم ما يوضح المراد بهاتين الصفتين من أنهما تدلان على النظر الفكري والفهم لآيات الله وتدبرها؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ (هود: ٢٤-٢٥).

مما سبق من الآيات يتبين أن خلق البشر، كما يقدمه القرآن الكريم، لم يكن دفعة واحدة، ولم يبدأ بخلق آدم عليه السلام بل إن آدم كان أول مظهر لحالة الكمال البشري التي استحق بها أن يدعى إنسانًا حقيقيا جديرا بحمل الشريعة. وبذلك جاز أن يكون آدم أبا البشر من الناحية الروحية، لأنه المبتدأ للعالم الروحاني، وكان أول إنسان تشرف بالوحي الإلهي، ولكنه ليس بالمحتم أن يكون أبا للبشر من الناحية الجسمانية، بل من الممكن أن يوجد عندئذ بعض بني نوع الإنسان من نسل أُناس آخرين من البشر، منهم من آمن بآدم ومنهم من لم يؤمن به في حياته، ولكنهم ما زالوا يدخلون في نطاق المطالبين بالإيمان به. وإذا تأملنا بعض آيات القرآن التي تتناول خلق آدم لتبين لنا أن النوع الإنساني لم يبدأ به، وأن كثيرين من البشر كانوا موجودين في عصره.

فخلق الإنسان لا يشير إلى خلق آدم بذاته كما زعم بعض الناس، وإنما المراد به خلق البشر البدائي.

إن ترتيب خلق الإنسان كما يلي:

- خلق الإنسان أولا من طين.
- ثم استمرار نسله بالنطفة المنوية.
- ثم تمام اكتمال القوى الإنسانية فيه.
- ثم بعد ذلك نزول الوحي الإلهي عليه.

هل آدم أول البشر؟

فآدم الذي تشرّف بكلام الله تعالى كان من ذريّة الناس الذين خُلقوا من النطفة، وليس من الذين تطوروا من خلق الطين كحلقة أُولى للبشرية. وثمة آيات أُخرى تدل على أن آدم عليه السلام لم يكن أول إنسان ظهر في الوجود، بل كان في عصره كثير من الناس غيره. ففي سورتنا يقول الله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ (البقرة: ٣٦). ويصح من الناحية اللغوية أن يكون المراد بالزوج الأصحاب والجماعة، وبمعنى ذلك أن بني نوعه أيضا كانوا موجودين من قبله. ثم قال عز وجل بعد هذه الآية: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (البقرة: ٣٧) وهنا الخطاب للجماعة، وبعدها قال: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٣٩). وقال أيضا: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى﴾ (طه: ١٢٤). وخطاب آدم هنا يراد به جماعة آدم وجماعة الشيطان، وهما الجمع.

وأذكر في هذه المناسبة حوارا جرى بين مؤسس الجماعة الأحمدية وبين مُنجّم أسترالي حول مسألة خلق آدم. وقد زار هذه المنجّم عدة مدن في الهند والتقى معه في لاهور حيث دار بينهما هذا الحوار:

سؤال: ورد في التوراة أن آدم أو الإنسان الأول ظهر في أرض جيحون وسيحون، وقطن هناك، فهل هؤلاء المقيمون في أميركا وأستراليا وغيرها هم أيضا من أبنائه؟

جواب: لسنا نقول بذلك، ولا نتبع التوراة في هذه القضية فنقول بما تدعيه من أن الدنيا بدأت بخلق آدم منذ ستة أو سبعة آلاف عام، و لم يكن قبل ذلك شيء، فكأن الله عز وجل كان متعطلا. كما أننا لا ندعي أن بني نوع الإنسان الذي يقطنون اليوم في مختلف أنحاء الأرض هم أولاد آدم هذا الأخير، بل إننا نعتقد بأن بني الإنسان كانوا موجودين قبله كما يتبين من كلمات القرآن الحكيم ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ﴾ (البقرة: ٣١). فلا يمكن لنا الجزم بأن سكان أستراليا وأميركا من أولاد آدم هذا، ومن الجائز أن يكون بعض الأوادم الآخرين. وأشير بهذا الصدد إلى كشف عجيب رآه الشيخ محي الدين بن عربي، وهو شخصية إسلامية بارزة، فقد قال: "أراني الحق تعالى فيما يراه النائم.. وأنا أطوف بالكعبة مع قوم من الناس لا أعرفهم بوجوههم، فأنشدونا بيتين نسيت أحدهما وأذكر الثاني وهو:

لقد طفنا كما طفتم سنينا بهذا البيت طرًا أجمعينا

فتعجبت من ذلك. وتسمى لي أحدهم باسم لا أذكره، ثم قال لي: أنا من أجدادك. قلت: كم لك منذ مت؟ فقال: لي بضع وأربعون ألف سنة. فقلت له: فما لآدم هذا القدر من السنين؟! فقال لي: عن أي آدم تقول، عن هذا الأقرب إليك عن غيره؟ فتذكرت حديثا لرسول الله ﷺ أن الله خلق مائة ألف آدم، وقلت: قد يكون ذلك الجد الذي نسبني إليه من أُولئك". (كتاب الفتوحات المكية،ج٣، الفصل الخامس في المنازلات، باب ٣٠٩).

يفهم من هذا الكشف أن آدم الموحى إليه، والذي ينتسب إليه بنو آدم اليوم، لم يكن آدم الأول، بل إنه آخر الآوادم. وكذلك يظهر منه أن كلمة "آدم" قد تستعمل كصفة أيضا بمعنى الجد الأكبر، وأن الوجود البشري ما زال مستمرا منذ أقدم العصور، وأن الدور المذكور في الأحاديث النبوية الشريفة، والمحدد بسبعة آلاف سنة، إنما أريد به دور آدم الأخير فقط وليس أدوار البشرية جمعاء.

ورب سائل يقول: إذا كان الجيل البشري موجودا قبل آدم المذكور، وأنه تتابعت ولادته عن نطفة، فلماذا إذن يقول القرآن الحكيم بأن الخلق من زوجين؟ ولماذا قيل في الحديث النبوي أن المرأة قد خلقت من ضلع أعوج؟

والجواب على ذلك أن الآيات المتضمنة لهذا الموضوع لا تذكر آدم بتاتا، بل إنها تصرح بأن الله تعالى خلق الإنسان من نفس واحدة وجعل منها زوجها فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾ (النساء: ٢).

١- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٠).

٢- ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (الزمر: ٧).

ولا يراد بالنفس الواحدة هنا البشر الأول أو آدم عليه السلام وإنما يراد بها أن الأفراد والآحاد تنشأ منهم الأمم الكبرى، وأن الأجيال إذا اقتفت آثار آبائهم صاروا مثلهم؛ إنْ كفارا فكفارا، وإن مؤمنين فمؤمنين.

أما قوله تعالى: ﴿جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ فيعني أنه تعالى خلق زوجها من نوعها ليكون الزوجان متجانسين يؤثر أحدهما في الآخر.

ولا ينخدعن أحد بحديث الرسول ﷺ: (استوصوا بالنساء خيرا فإن المرأة خُلقت من ضلع) "صحيح مسلم كتاب الرضاعة، باب الوصية بالنساء". فالحديث لا يختص بزوج آدم، بل يخص جميع نساء العالم، وهيئة ولادة النساء معلومة مشهودة، ولا يريد الحديث المعنى الظاهري للضلع، بل إن المراد به: (فإنهن خلقن من ضلع استعارة للمعوج، أي خلقن خلقا فيه الاعوجاج) "كتاب مجمع بحار الأنوار، ج١، للشيخ محمد الطاهر".

والخلاصة أن الآيات السابقة والحديث المذكور لا يدلان على أن آدم الذي جعله الله خليفة كان هو أول البشر، أو أن زوجته خلقت من جسمه، ولكن الآيات

تتناول جميع بني الإنسان كقاعدة كلية شاملة لجميع هذا النوع رجالا كانوا أو نساء.

لقد اختلف المفسرون في تفسير قولـــه تعالى: ﴿مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ (الحجر: ٢٦)، أما المراد من الآية أن الله تعالى أخبر الملائكة أنني سأخلق بشرًا من تراب مصوِّت، أي من حمأ قد أُفرِغَ على شكل معين؛ بمعنى أن الإنسان خُلق من ترابٍ ممزوجٍ بالماء، موضوعٍ في قالب معين، فارغٍ باطنُه، يُحدث صوتًا عند الضرب.

وقد أُشيرَ في هذه الجملة إلى عدة أمور هي:

الأول: أن الإنسان مخلوق من التراب.

والثاني: أنه قد رُكّب تركيبًا خاصًا بحيث إنه يشعُر في داخله بفراغ.

والثالث: أنه يُحدث الصوت عند الضرب، بمعنى أنه قادر على تلبية النداء الإلهي، مثل الإناء الأجوف الذي إذا ضُرب رجّع الصوت. ذلك أن الله تعالى حينما يضرب الإنسانَ أي يختبره فإنه لو كان صالحًا سليم الباطن يستجيب له ويلبّي نداءَه ﷻ. وهذا هو ما يميّز الإنسان عن سائر المخلوقات الأُخرى. أعني أن الإنسان صالح لقبول الاختبار الإلهي ولاستجابة ندائه.

أما الصورة التي خُلق عليها الإنسان في البداية والتي تشير إليها كلمة ﴿حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ فلم يحدّدها القرآن الكريم، ومن الممكن أن تكون تلك الصورة البدائية غيرَ مرئية كليةً بالعين المجردة. ومهما يكن من أمر فإن تلك الصورة الإنسانية الترابية الأولى كانت منذ البداية صلصالاً، بمعنى أنها كانت صالحة لأن يختبرها الله فتستجيب له ﷻ.

لقد اتضح من ذلك أن القرآن الكريم يسلّم بتطور الخَلق الإنساني، ولكنه تطورٌ مخطَّط مدروس منذ البداية، وليس تطورًا عشوائيًّا حدث صدفة.

يخبرنا القرآن أن خلق الإنسان تم بالتدريج مرحلةً فمرحلة، ولكنه لا يسلّم بأن الخلية الحياتية التي قدِّر لها أن تصبح إنسانًا كانت في أي وقت شيئًا غير إنسان، بل

إنه يؤكد أن تلك الخلية، منذ أن خُلقت وبأية صورة خُلقت، كانت مزودة بقدرة على أن تصبح إنسانًا وأن تتلقى الإلهام. إنها في كل مراحل خلقها كانت متجهةً إلى غاية محددة مخططة، وليس كما تقول نظرية دارون أن بعض أجزائها لم تزل تتفرع عنها في حالتها الناقصة، بينما لم تزل بعض أجزائها الصالحة في التطور والتقدم منفصلة.

لقد فسّر المفسرون عمومًا كلمة "مسنون" بمعنى "مُنتِن"، بينما فسّرتُها بمعنى مصوَّر، ذلك لأن العلامّة أبا حيان قال في تفسيره: "وقال غيرُه إن "المسنون" من أَسَنَ الماءُ: إذا تغيَّرَ. ولا يصحّ لاختلاف المادتين" (البحر المحيط، تحت هذه الآية). فما دامت كلمة "السَّنّ" تعني أيضًا إقرار العمل، والتصوير، وتشحيذ الشيء وصقله، وعمل الفخّارِ، فيجب أن نقول إن المسنون بمعنى المتغير المنتن مجاز، وأن معناه الحقيقي هو الشيء المعمول على صورة معينة أو المركَّب تركيبًا يُحدث فيه الصوت.

هذه الآية تمثّل ردًّا على الذين يستغربون من ظاهرة الوحي الإلهي قائلين: كيف يمكن أن يكلّم الله البشرَ؟ فيردّ الله عليهم: ليس غريبًا أن يكلم الله ﷻ البشرَ، وإنما الغريب ألا يكلّمهم. ذلك أن الإنسان مجبول، منذ بداية خلقه، على تلقي الوحي من عند الله تعالى، وأنه ﷻ قد حدد غاية خلق الإنسان أن يصل إلى الكمال، فيتشرف بوحيه ﷻ. فلا تقولوا: كيف تلقى محمد ﷺ الوحي من الله تعالى، أو كيف يمكن أن يتشرف أتباعُه بالإلهام في المستقبل لحماية الوحي النازل عليه ﷺ، بل الحري أن تتعجبوا على حالتكم، لأنــكم -رغم كونكم مخلوقين من صلصال- لا تزالون محرومين من نعمة الوحي الإلهي، فيجب أن تهتموا بإصلاح أنفسكم.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (الحجر: ٢٦)، وأما الآن فبدأ الحديث عن خلق آدم. فهل هذا الأسلوب محض صدفة، يا تُرى؟ إن دراسة القرآن الكريم تكشف لنا أنه كلما تناول موضوعَ خَلْق آدم تحدث قبله دائمًا عما هو ذو صلة بالحشر أو البعث بعد الموت.

وهذا يدل صراحةً على أن بين الموضوعين صلة وثيقة، وهي كالآتي:

أولاً: إن قضية حشر الأجساد والجزاء منوطةٌ تمامًا بخلق آدم. ذلك أنه لو لم يكن هناك كائن عاقل قادر حر في أعماله لما كانت هناك من إمكانية للحشر والثواب والعقاب. فالحيوانات مثلاً لا تعمل وفق أية شريعة، لأنها لا تملك عقلاً، وبالتالي لا تستحق أي ثواب أو عقاب، ومن ثم لا تحتاج إلى أي حشر حقيقي. كذلك الملائكة لا تستحق أي جزاء على أفعالها، لأنها لا تملك حرية ولا إرادة، وإنما جُبلتْ على فعل الخير فحسب، كما صرّح الله بذلك قائلا: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (النحل: ٥١). أما الشيطان فهو أيضًا لا يستوجب العقاب، لأنه يؤدّي واجبه، شأنه شأن الأشياء الرديئة الأُخرى التي لا تستوجب العقاب لأنها رديئة في حد ذاتها. وأما الشياطين من الناس فلا جرم أنهم يستحقّون العقاب على أعمالهم، لأن الحشر لن يقوم إلا لحساب الإنسان- هذا الكائن الذي يملك الإرادة والحرية في أعماله. فثبت أن خلق الإنسان هو السبب لوقوع الحشر، ومن أجل ذلك كلما تحدث القرآن عن خلق آدم ذكَر قبله الحشر، وذلك تدليلاً على أن الخلق الإنساني يتطلب حشرًا، وأن الحشر يقتضي نزول شريعة، إذ لا منطق في أن يعاقَب أو يثاب أحد على عمله من دون أن تقام عليه الحجة.

وثانيًا: إن خلق الإنسان دليل على وجود الحشر وإليكم بعض الأدلة على ذلك:

١- لقد اكتمل خلق الإنسان عبر عملية التطور من أدنى حالات الخلق. وهذا يشكل دليلاً على وجود دار الجزاء، إذ لو أن الإنسان خُلق على هذه الخلقة الكاملة مرة واحدة لأمكن القول بأنه خُلق صدفة، شأنه شأن الأشياء الأُخرى التي أيضًا خُلقت بالصدفة نتيجة التغيرات الطبيعية. ولكن كون الإنسان قد تطورَ من أدنى حالات الخلق مرورًا بكثير من المراحل والتقلبات، ثم توقّفَ تطوره بعد اكتمال خلقه في الصورة الحالية و لم يصبح مخلوقًا آخر، كل هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الخلق الإنساني تم بحسب تخطيط معين، وأن الإنسان هو الغاية من خلق الكون كله.

٢- هناك قوتان في الدنيا: قوة الخير وقوة الشر، والإنسان مزود بكلتيهما وقادر على التصرف بأيتهما شاء، مما يدل أنه خُلق ليحكم الدنيا؛ فلزم أن تكون نتيجة حياته أكثرَ من عمله، وهذا لا يتحقق إلا بوجود يوم الحشر والجزاء.

٣- الرقي المادي متوقف على اتباع السنن الطبيعية، لا على المُثل الأخلاقية والروحانية، ولكننا نجد أن الأخلاق النبيلة والأحوال الروحانية تشكّل الجزء الأكبر من كيان الإنسان؛ فلا يمكن إذًا أن يكون الرقي المادي هو الغاية التي يصبو إليها الإنسان، بل لا بد من مكان آخر ينال فيه الإنسان الجزاءَ على ما يقدّمه من تضحيات أخلاقية وروحانية.

أما قولــه تعالى ﴿مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ (الحجر: ٢٧). فبيّن فيه أن الإنسان مخلوق من الماء والتراب، لأن الحمأ يعني خليطًا من الماء والتراب. وقد ذكر الله ﷻ كل واحد من هذين العنصرين منفصلاً في أماكن أُخرى، فقال في موضع: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأنبياء: ٣١)، وقال في موضع آخر: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: ٦٠).

وأما في سورة الحجر فقال: ﴿مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ (الحجر: ٢٧ أي خلقنا الإنسان من خليط الماء والتراب الذي أُفرِغ في صورة معينة ليكون قادرًا على إحداث الصوت. فكلمة (صلصال) تشير صراحةً إلى قوة النطق التي يمتاز بها الإنسان عن سائر الحيوانات الأخرى، وكأنه قال: إن الكائنات الحية كلها مخلوقة من ﴿حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾، ولكن الإنسان تغلب عليه الصفة الصلصالية، ومن أجل ذلك نجد الحديث الشريف يسمّي الناسَ: (الحمير الصالّة)، وهي كلمة مشابهة للصلصال.

هذا، وإن كلمة (صلصال) تشير أيضًا إلى أن نطق الإنسان متوقف على إرادة الله ﷿، لأن لفظ (صل) أو (صلصل) يدل على صوت يحدُث بالضرب. وهذه هي حقيقة الإنسان تمامًا، إذ لا يصدر عنه الصوت الذي هو مخلوق من أجله ما لم يضربه الله تعالى، بمعنى أنه تعالى يشرّفه بكلامه ﷿ بعد اختباره بإلقائه في المحن والمصائب.

وقولـــه تعالى ﴿ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُون﴾ لا يعني أن الإنسان خُلق من تراب لا حياة فيه. كلا، إنما المراد منه البيان أن المادة الحيوانية لا يمكن أن تتطور بدون الجسم، والجسم يتكون من التراب؛ وإنما استُخدم هذا التعبير ليعرف الإنسان كيف كانت بدايته.

علمًا أن ادعاء العلماء بأن المادة الحيوانية لا تتولد إلا من حيوان لزعمٌ يفتقر إلى البحث والتحقيق؛ ذلك أن دليلهم الوحيد هو مشاهدهم الحالية؛ ولكن من البديهي أن هناك بونًا شاسعًا جدًّا بين الظروف السائدة الآن وبين ما كان عليه الكون لدى خلق هذه المادة الحيوانية الأُولى. ثم إن هؤلاء العلماء أنفسهم يعترفون بأن المادة الحيوانية الأولى نفسها لم تزل تتطور حتى أصبحت في وقت من الأوقات إنسانًا، بيد أن هذا لا يحدث الآن؛ مما يوضح أن هناك تفاوتًا كبيرًا جدًّا بين الظروف الحالية وبين ما كان عليه الكون عند بداية خلقه. كانت الأحوال آنذاك مواتيةً جدًّا لخلق الحياة بسرعة هائلة، ولكن الأمر ليس كذلك الآن. فمن المحتمل أن تكون الذرات الخالية من أي حياة تنقلب عندئذ إلى ذرات حية بسبب بعض التقلبات، ولكن الظروف لم تعد كذلك بعد أن اكتسبت الأرض الكمال.

إذًا فليس من العلم في شيء أن يقيس هؤلاء الظروفَ المتفاوتة المختلفة بمقياس واحد.

فالحق أن هذه الآية تشير فقط إلى تلك المرحلة من الخلق الإنساني التي تطورت فيها قواه الحيوانية وزُوِّد بالقوى الإنسانية التي ميّزته عن الحيوانات الأُخرى، وهي المرحلة الصلصالية للحمأ المسنون، التي زُوِّد فيها الإنسان بصلاحية تلقّي الوحي. أو أن الآية مجرد إشارة إلى تلك المرحلة من خلقه حين دبّت فيه الحياة.

ولو قيل: لماذا نسلّم بأن هذه الآية تشير إلى بداية المرحلة الإنسانية أو الحيوانية من الخلق البشري، ولماذا لا نقول إنما تعني أن الله تعالى بدأ خلق البشر بأن صنع تمثالاً من الطين ونفَخ فيه الروح، فصار إنسانًا؟ فالجواب أن القرآن الكريم نفسه ينفي كون هذه الآية تتحدث عن بداية الخلق الإنساني، والدليل على ذلك هو قول الله

تعالى ﴿وَمِنْ آياتِه أَنْ خَلَقَكم مِن تُرَاب ثم إذا أنتم بَشَرٌ تَنتشِرُونَ﴾ (الروم:٢١). فهناك تعارض في الظاهر بين هذه الآية وبين التي نقوم بتفسيرها، لأن هذه تذكر خلق الإنسان من تراب، بينما الآية التي نقوم بتفسيرها تعلن عن خلق الإنسان من صلصال من حمأ مسنون. فثبت أن الله تعالى قد أشار بكلمة (تراب) في سورة الروم إلى المرحلة البدائية من الخلق الإنساني، بينما في سورة الحجر لم يذكر الله ﷻ المرحلة الأولى الترابية، وإنما اكتفى بذكر المرحلة التالية لها باستخدام كلمة ﴿حمأ مسنون﴾.

هذا، ونجد في موضع آخر فرقًا أكبر حيث يقول الله تعالى ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكم مِن تُراب ثم مِن نُطْفة﴾ (فاطر: ١٢)، فهنا حذَف ذكر الحلقة الثانية أي الصلصالية من الخلق الإنساني، مكتفيًا بذكر الحلقة الأولى الترابية، ومشيرًا إلى حلقة أُخرى وهي مرحلة النطفة.

كما نجد في مكان آخر ذكرًا مختلفًا عن ذلك أيضًا حيث يعلن الله ﷻ ﴿هو الذي خَلَقَكم مِن تُراب ثم مِنْ نُطفة ثم مِن عَلَقة ثم يُخرِجُكم طفلا﴾ (غافر: ٦٨). فبيّن أن الإنسان لم يُخلَق من النطفة فجأة، وإنما صار من النطفة علقةً، ثم طفلاً.

ولكن في موضع آخر أضاف الله ﷻ إلى الحلقات التالية للنطفة حلقة أخرى إذ قال ﴿يا أيها الناس إنْ كنتم في رَيب من البَعْث فإنّا خَلَقْناكم من تُراب ثم من نُطْفة ثم من عَلَقة ثم من مُضْغة مُخلَّقة وغيرِ مُخلَّقة﴾ (الحج: ٦) أي أن الإنسان لم يُخلَق من العَلَقة مباشرةً، بل تحوّلت العلقة إلى المضغة التي مرّت بمرحلتين أيضًا: المضغة الكاملة وغير الكاملة.

ثم في سورة المؤمنون ذكر الله ﷻ حلقات إضافية أخرى فقال ﴿ولقد خَلَقْنا الإنسانَ من سُلالة من طين * ثم جَعَلْناه نُطْفةً في قَرارٍ مَكين * ثم خلَقْنا النطفةَ عَلَقةً فخلَقْنا العَلَقةَ مُضْغةً فخَلَقْنا المضغةَ عِظامًا فكسَونا العِظامَ لَحْمًا ثم أَنشَأْناه خَلْقًا آخَرَ فتَبارَكَ اللهُ أحسنُ الخالقين﴾ (الآيات: ١٣- ١٥).

فهنا ذكر ثلاث حلقات إضافية تكون بعد المضغة: خلقُ العظام، ثم تغطيتها باللحم، ثم خلقٌ آخر حيث تدبّ الحياة في هذه المواد غير الحية في الظاهر.

ندرك بالتدبر في هذه الآيات أن القرآن الكريم لا يذكر أحيانًا بعض الحلقات من الخلق الإنساني، مما يبطل ظن العامة أن الله صنَع تمثالاً من الطين، ونفخ فيه الروح، فصار إنسانًا. الحق أن القرآن الكريم يعلّمنا أن الخَلق الإنساني اكتمل مرورًا بمراحل مختلفة، وأن كلمة "التراب" لا تقصد إلا الإشارة إلى أن بداية الخلق الإنساني كان من التراب. وهذا أمر ثابت مؤكد، لأن الإنسان ما زال إلى اليوم يستمد غذاءه من التراب نفسه، وإنما يؤخذ غذاء أي شيء مما صُنع منه، وإلا لن يكون غذاءً مناسبًا له. فمثلاً إذا تآكل الحديد فلا يتم تلحيمه إلا بقطعة حديدية، لأن أي شيء آخر لن يقوم مقامه. فبما أن غذاء الإنسان إنما يتركب من عناصر التراب فلا شك أنه خُلق أيضًا من العناصر التي تركَّبَ منها التراب. والإنسان آخر حلقة متطورة من حلقات خلق هذا الكون، و لم يأت من الخارج.

والخلاصة:

١- أن خلق آدم، كما أخبر القرآن الكريمن لم يتم دفعة واحدة، بل إن الجزئيات الدقيقة تطورت في نشوئها، ومرت بمراحل عديدة مختلفة إلى أن تحولت للصورة الإنسانية.

٢- أن مكونات الإنسان منذ بدايتها في أبسط صورها كانت مهيئة لتكون في النهاية ذلك الكائن البشري، وليس كما زعم الفلاسفة نتيجة تطور مصادف في الحيوانات المختلفة.

٣- أن الوجود البشري الأول لم يكن يتلقى الوحي السماوي، ولكن جيلا من سلالته التي خلقت من النطفة هو الذي وصل إلى حد من الكمال أهّله لتلقي الوحي، وأول من حاز هذا المقام الجليل هو مَن أسماه القرآن الكريم: آدم.

٤- أنه كان قبل آدم، وفي زمنه، كثيرا من بني جنسه. وقد اختار الله تعالى آدم ليكون خليفة يجمع شملهم بنظام وهداية سماوية، وأن معاصريه هؤلاء معه في تلك الجنة الأرضية التي عاش فيها، وأنهم أُخرجوا منها أيضا معه.

مفهوم الجن:

وأما قولـــه تعالى في الآية ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ (الحجر: ٢٨). فيعني أن أُولئك البشر -الذين نسمّيهم هنا الجن- كانوا ذوي طبائع نارية، بمعنى أنهم كانوا يستشيطون غضبًا بسرعة، ولا يطيعون النظام بسهولة. وبالفعل هكذا كانت حالة البشر قبل آدم عليه السلام. لقد كان آدم أولَّ إنسان حقق الكمال في الأخلاق والمدَنية، ولذلك صار أولَّ إنسان تلقى الوحي الذي هو ذو صلة وثيقة بالأخلاق والحضارة. فالذين تبعوا هذا الداعي إلى النظام والمدَنية بحيث قضوا على أهوائهم النفسانية، ورسموا نقوشَ طاعة الله على ألواح قلوبهم، فسُمّوا أصحاب الطبائع الطينية، لأن الطين يقبل التشكل والنقش. وأما الذين آثروا الحرية الفردية على طاعة النظام والقانون فسُمّوا أصحاب الطبائع النارية، بمعنى أنهم تمردوا مثل شعلة النار التي تأبى أن يسيطر عليها أحد. وبما أنهم كانوا يبيتون مختفين تحت سطح الأرض فلذلك سُمّوا بالجن أيضًا.

ولو قيل: كيف تقول إن الجن هنا يعني أصحاب الطبائع النارية من البشر مع أن الله يعلن هنا صراحة: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾، أي أن الجن قد خُلقوا من النار؟ فالجواب أن الله عز وجل يعلن أيضًا في موضع آخر: ﴿خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ (الأنبياء: ٣٨)، ومعناه حرفيًّا: أنه خُلِقَ من العجلة. وقد قال أصحاب البصيرة النافذة من المفسرين: معناه أن الإنسان مطبوع على العجلة، أي يتعجل في طلب كثير من الأشياء التي تضره، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً﴾ (الإسراء: ١٢). وتقول العرب للذي يكثُر منه الشيءُ: خُلِقْتَ منه، وكما تقول: خُلقتَ مِن تَعَبٍ، وخُلِقْتَ مِن غَضَبٍ، تريد المبالغة في وصفه بذلك. (فتح البيان، والبغوي).

وكذلك يقول الله تعالى في موضع آخر: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ (الروم: ٥٥)، أي أن الإنسان عند ولادته يكون ضعيفًا ويحتاج إلى مساعدة الآخرين. ولا أحد يفسر كلمة "الضعف" هنا بأنها مادة كالتراب أو الخشب يُخلق منها الإنسان!

وقبل إنهاء تعليقي هذا أود أن أضيف أن كثيرًا من الأسلاف يتفقون معي -على الأقل- في أنه لا وجود للجن الذين يمكن أن يقابلوا الناس ويركبوهم ويعطّلوا عقولهم ويسخّروهم في بعض الأعمال، كما تزعم العامة. فقد كتب العلامة أبو حيان: "قال الجبائي: هذه الآية تدل على بطلان قول من زعم أن الشيطان والجن يمكنهم صرع الناس وإزالة عقولهم، كما تقول العامة، وربما نسبوا ذلك إلى السحرة. قال: وذلك خلاف ما نص الله تعالى عليه." (البحر المحيط، سورة الحِجر، قوله تعالى: إلا عبادَك منهم المخلَصين).

ولو قيل: إن بعضا من الأسلاف قد ذكروا رؤية الجن، فالجواب أن ما رأوه كان من قبيل الكشوف التي تعني رؤية بعض المشاهد في عالم المجاز والتمثيل، وهذا ليس بأمر مستبعَد. ولكن لما حكى هؤلاء كشوفَهم للناس حسب العامة منهم هذه الكائنات التمثيلية كائنات حقيقية، مغترّين بما كان شائعًا بينهم من عقائد خاطئة عن الجن، وكذلك بسبب ورود هذه الكلمة في القرآن الكريم.

غير أن ما فهمتُ بناء على كثير من الأدلة القرآنية هو أن عقيدة عامة الناس عن الجن التي تقول بأنهم يتصلون بالبشر ويعملون لهم المستحيل فهي ليست إلا ضربًا من الوهم، أو من قبيل شعوذة بعض السحرة، التي لا يستطيع العامة أن يعرفوا مصدرها، فيعزونها إلى الجن. إنني ملمٌّ بهذا العلم وأعرف الكثير من الحيل التي يلجأ إليها هؤلاء المشعوذون.

غير أنني لا أنكر أن الإنسان ربما كان في البداية كائنًا ناريًّا، ثم بتأثير التقلبات الجوية والزمنية تطوَّرَ إلى كائن طيني، بمعنى أنه بعد هذا التحول كان أساس خَلقه على ما تُنتجه الأرض؛ وكان آدم سيدًا لأوائل هذه الكائنات. وهذا ليس بأمر مستبعَد، بل إن علم الجيولوجيا أيضًا يؤكد أن الأرض في بدايتها كانت كرة نارية ملتهبة، وأن قشرتها الترابية خُلقت فيما بعد. فلا يُستبعد أن تكون بداية خلق الإنسان من النار قبل المرحلة الترابية من خلقه. ولكن كل هذه الأمور لا تخرج عن حد التخمين، ويستحيل الجزم بها، لذلك لا أكتب عنها أكثر.

مفهوم الشيطان:

الحق أن الإنسان ما دام قد مُنح القدرة على عمل الخير والشر كليهما فكان لزامًا أن يُخلَق أيضًا ما يحفزه عليهما، ولأجل ذلك خلق الله ﷻ هذين الحافزين أي الملائكة والشيطان حتى قبل خلق الإنسان. فأمر الملائكة أن تحفز الإنسان على الخير وأن ترتب النتائج وفق أعماله، بينما سمح للشيطان أن يحاول دعوةَ الإنسان إلى الشر ما استطاع إليه سبيلاً.

ولما بعث الله آدمَ كان في هذه الدنيا -إلى جانب أتباع آدم- أُناسٌ آخرون لم يخضعوا للنظام الذي أتى به، وقد سمى الله ﷻ رئيسَ الفئة المتمردة على آدم بالشيطان أو إبليس لأن ذلك الرئيس ظلٌّ للشيطان الحقيقي. وما وقع بين آدم والرئيس المتمرد من أحداث في فترة طويلة ذكره الله ﷻ على شكل حوار موجز.

وليكن معلومًا أن الشيطان -الذي خُلق كحافز على الشر والذي هو غير مرئي كالملائكة- لا يأتي الناسَ بنفسه في صورة متجسدة ليحدّثهم ويؤذيهم، بل الحق أن الذين تتسبَّب سيئاتهم في زلّة أقدامهم عن درجة الصلاح هم الذين يصبحون أظلالاً للشيطان، وأعمالهم هي التي تُنسب إلى الشيطان. كذلك كل الحوافز الأُخرى على المعصية أيضًا تسمَّى شيطانًا، حيث ورد في الحديث: "قال رسول الله ﷺ: لَيْسَ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنْ الشَّيَاطِينِ قَالُوا وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ نَعَمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ" (مسند أحمد، ج١، مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب عن النبي ﷺ) فلا يأمرني إلا بالخير. أي لقد أحرزت الكمال في التقوى لذلك فإن الأُمور التي تدفع بالناس إلى المعصية تزيدني أنا صلاحًا. وليس المراد من قوله ﷺ أن لكل إنسان شيطانًا مستقلا، وأن الشيطان الذي وكِّل به ﷺ قد صار مسلمًا. لو كان هذا هو المعنى فلماذا كان النبي ﷺ يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم. مما يعني أن الشيطان الحقيقي كان على حالته لم يتغير منه شيء، ولكن ما ينوب عن الشيطان من أفكار ورغبات كان قد أسلم وأذعن للنبي ﷺ، وأما من كان يمثّل الشيطانَ من البشر كأبي جهل وغيره فلم يُسلموا بل ما برحوا على شرهم ومكرهم.

وأما الزعم أن ذلك الكائن غير المرئي الذي يسمى شيطانًا هو الذي خرج بنفسه متجسدًا لمعارضة آدم فهو زعم باطل بداهةً، ومخالف للواقع والتجربة. فإننا نعرف من القرآن الكريم أن الشيطان أتى آدمَ وزوجتَه وتحدَّث معهما لإغوائهما. فلو كان ذلك الذي أتاهما هو الكائن نفسه الذي يحث على المعصية فلم لا يستطيع الآن أبناءُ آدم رؤيةَ ذلك الشيطان بتلك العين التي رآه آدمُ بها؟ و لم لا يستطيعون الحديثَ مع الشيطان بذلك اللسان الذي تحدث به آدم معه؟ و لم لا يأتي ذلك الشيطان الناسَ لإغوائهم الآن أيضًا؟ خاصة أن القرآن الكريم لا يقول أبدًا بأن جسد آدم كان مختلفًا عن أجساد أبنائه اليوم حتى يقال بأن آدم استطاع بذلك الجسد رؤيةَ الشيطان وحوارَه، ولكن أبناءه لا يستطيعون ذلك لاختلاف أجسادهم عن أبيهم. فما دام الأبناء أيضًا يملكون اليوم الأجسادَ والقدراتِ نفسها التي تمتع بها أبوهم آدم، وما دام الشيطان هو هو لم يتغير، فيجب أن يراه مئات الآلاف من البشر اليوم، ويجب أن يقابِل هو بجسده كلَّ الصالحين من بني آدم، سعيًا منه لإغوائهم. ولكن لا نجد بين البشر آلافًا ولا مئات بل ولا عشرات ممن يشهدون على أنهم مروا بمثل هذا الاختبار سواء في حالة الكشف أو الرؤيا، اللهم إلا ما نجد في القصص والأساطير التي لا ينهض على صدقها دليل ولا برهان. ولكن الشيطان الذي أتحدث عنه فإنه ما زال إلى اليوم يعرقل طريق كل نبي بالطريقة نفسها التي لجأ إليها في زمن آدم، ويأبى ويستكبر كما أبى واستكبر أمام آدم، بل هذا هو دأبه مع كل الصالحين في كل زمان ومكان.

أجاب رأسُ الفئة المعارضة لآدم: إن آدم كائن ذليل حقير لذلك لا يعاف الطاعة والانقياد، ويرى هو وأتباعه تقليد الآخرين مفخرةً، ولكني لست ذليلاً حقيرًا مثلهم إذ خلقتَني مطبوعًا على الحرية والإباء، فكيف يمكن لي أن أرضى بطاعته.

هذه العبارة أيضًا هي من قبيل المجاز والتمثيل، إذ تعني أن العدو الأكبر لآدم وأتباعَه حسبِوا النظام الذي جاء به آدم منافيًا لحرية الضمير ورأوا في اتّباعه إهانةً لهم، فرفضوا الخضوع له، ظانين أنهم أحسن نظامًا وأمثل طريقًا مما يدعو إليه آدم.

وقد عُبّر عن هذا المفهوم هنا بمصطلح الخِلقة الطينية والخِلقة النارية.

لقد ذكر الله ﷻ من قبل أن عباده الذين يُخلِصهم ويختارهم لا يملك عليهم الشيطان أي سلطة ولا تصرف، وأما الآن فأخبر الله تعالى كيف يصبح العباد مخلَصين حيث قال: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ (الحجر: ٤٢) أي أن من واجبي أن أهديهم إلى سبيلي، وسوف أدلّهم على سبيلي بالوحي والإلهام، فيصِلون إليّ رأسًا، ولا يمكن أن ينحرفوا عن سبيلي إلى سبيل الشيطان المردود.

لقد بين الله تعالى هنا أنه لا يكون هدفًا للانحراف عن صراط الله المستقيم إلا الذي ما يزال في طور البحث عنه ﷻ، ولكن الذي يكون قد وصل إلى الله ﷻ ووجده فإنما يسعى للمزيد من قربه تعالى، ومن المحال أن يُغويه الشيطان ويُضلّه، إذ كيف يمكن لإنسان أن ينكر ما شاهده بأم عينه وما جرّبه بنفسه؟

وفي هذا إيماءة إلى أن الفطرة الإنسانية نقية طاهرة، حيث بين الله تعالى أنه لا يَضلّ عن الصراط السوي إلا من يُنجّس بنفسه فطرته النقية ويتبع خطوات الشيطان. ولقد أوضح الله ﷻ هذا المعنى في مكان آخر من القرآن الكريم بقوله ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ١١) أي لا يَهلك إلا من يُفسد نفسه الطاهرة ويدفنها تحت تراب المعاصي.

قصة آدم عليه السلام

آدم خليفة الله في الأرض:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة: ٣١).

يرى بعض المفسرين أن الخليفة المذكور هنا هو آدم عليه السلام، سماه الله خليفة لأنه قدر له أن يكون نبيا منفذا لأحكام الله تعالى. وإني أرى هذا الرأي، ولكني لا اتفق مع من قال بأن الملائكة كانوا سكان الأرض قبل آدم؛ لأنه لا سند لذلك. وكذلك لا أتفق مع القول بأن الجن من غير البشر هم السكان السابقون، فهو قول واهٍ وزعم لا دليل عليه. وتسمية آدم خليفة لكونه جاء بعد الملائكة أو الجن باطل، وسبب واه، إذ إن الخليفة يصلح لأن يطلق على كل شيء مخلوق لأنه يخلف مخلوقا جاء قبله، والحال أنه لا يملك أحد تحديد بداية الخلق.

بعد أن أشار القرآن إلى اصطفاء المصطفى ﷺ وبعثته إلى الناس بالقرآن الكريم الذي لا ريب فيه، وهدى للمتقين، من عند الله تعالى، ذكر اصطفاء الله تعالى لآدم، فدلَّ بذلك على أن نزول الوحي السماوي وبعث الأنبياء ليس من البدع، بل إنه سنّة مطردة منذ خلق الإنسان على هذه البسيطة، ولا يزال مستمرا دون انقطاع، وأن آدم هو الإنسان الأول، ومعه بدأ نزول الوحي السماوي، وأن الله تعالى لم يترك الإنسان مهملا مضيعا أبدا، بل ما زال قائما على هدايته منذ البداية.

وبذكر قصة آدم مع الملائكة يقدم القرآن درسا مفيدا للناس فيما يتعلق بالوحي والنبوة، وهما من أُمور الغيب. فقد أشار الله تعالى بتساؤل الملائكة إلى حقيقة أن

الناس عادة، قبل بعث نبي، لا يدركون الحاجة إلى الوحي وإرسال نبي إلى أن يبعثه الله، فيتم رسالته، ويظهر للناس مدى حاجتهم إليه، وذلك بسبب ما يحدث من تطورات تدفعهم إلى الاعتراف بأنه لولا ظهوره لظلت الدنيا محرومة من تطور نافع. إن تساؤل الملائكة يشير إلى أنه حتى أمثال الملائكة لا يستطيعون إدراك حقيقة ذلك التطور العظيم الذي يحدث في الدنيا بعد بعث نبي من الأنبياء، فما بالك بالأشرار والسفلة من الناس. فمن لوازم الحكمة ألا يخالف المرء أمرًا قبل وقوعه إذا لم يمكن له الإيمان به، بل عليه أن ينتظر ذلك المبعوث حتى يتم عمله، فإن يك صادقا تحقق صدقه بعمله، وإن يك كاذبا تبين كذبه بعمله.

وذِكرُ الملائكة في هذا الوضع إشارة إلى دورهم في مهمة المبعوث السماوي. يخبرنا القرآن الكريم، وسائر الأديان تؤيده في ذلك، أن تدبير أمر هذا العالم يتم بإذن الله تعالى بواسطة الملائكة، فهم مأمورون بإتمام الأعمال المختلفة. فهناك ملائكة لتنفيذ أوامر الموت، وملائكة موكلة بالكواكب وحركاتها، وملائكة لتدبير الأمطار والرياح. وفي الأمر الإلهي للملائكة بجعل آدم خليفة ثم السجود له إشارة إلى أن الملائكة مكلفون بتأييد آدم في مهمته كخليفة أو نبي، ولذلك فإن فلاح النبي في مهمته أمر حتمي إذ تسانده الملائكة المدبرون لنظام هذا العالم. ونرى في حياة الأنبياء من الشواهد ما يدل على هذه الحقيقة. ففي نجاة نوح من الطوفان، وسلامة إبراهيم من النيران، واجتياز موسى البحر وهلاك فرعون؛ ونجاة عيسى من الصليب، وانتصار "رام شندر جي" رغم إحداق أعدائه به، وغلبة "كرشن جي" على أعدائه الجبابرة، وتغلب "زردشت" على أعدائه الأشداء، وفوق كل ذلك كله وأعظم منه، مبارزة الرسول ﷺ لجميع العرب وهو وحيد منفرد، وانتصاره عليهم جميعا بصورة خارقة. في كل تلك الحوادث معجزات بينات لا يمكن إنكارها إلا من قبل العميان المعاندين، ودلالة على صدق هذه الحقيقة، وتذكير للناس بأن الملائكة الذين أُمروا بمساندة آدم مأمورون أيضا بمساندة محمد ﷺ في مهمته، وأنهم سوف يحدثون تطورات حاسمة يترتب عليها الانتصار النهائي لرسول الله ﷺ على الرغم من كل العداء.

وتشير الآية أيضا إلى أن آدم خلق على هذه الأرض وكانت مهمته في هذه الدنيا، وعلى هذه الأرض ذاتها، وذلك بخلاف ما يزعم البعض من أن آدم أُدخل الجنة التي يدخلها الصالحون بعد موتهم. ومما يدعوا للتعجب أن الله عز وجل يقول ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ﴾ (البقرة: ٣١)، ومع ذلك يصر البعض على دخول آدم في الجنة الموعودة في الآخرة. وقد قال بعضهم بأن الله خلق آدم أولا على الأرض ثم أدخله الجنة، ولكن الآية لا تسيغ هذا القول، لأنها صريحة في جعل الخليفة في هذه الأرض. ومن البيّن أنه يستخلف في الأرض من أجل هدف وغاية، ولا يتحقق ذلك بدخول آدم في الجنة.

وآيات القرآن الأخرى تدحض هذا الزعم فمثلا: يقول تعالى عن الجنة الموعودة بأنها ﴿لاَ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ﴾ (الطور: ٢٤)، ولكن الجنة التي دخلها آدم معه الشيطان، وحرضه على معصية الله تعالى. ثم يصف الله الجنة بقوله ﴿لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ (الحجر: ٤٩)، لكن آدم أُخرج من الجنة. وكذلك يقول عن الجنة ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ (فصلت: ٣٢)، ولكن آدم أُخرج من الجنة بسبب اقترابه من الشجرة. وجاء في وصف جنة الآخرة ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ (الزمر: ٧٥)، ولكن آدم أُمر بألا يقرب الشجرة.

تبين مما سبق أن جنة آدم عليه السلام كانت على هذه الأرض، لأنه كان خليفة لأهل هذه الأرض، فكان محتما بقاؤه فيها حتى الموت.

وقد اعترض بعض الناس على قوله ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ﴾ (البقرة: ٣١)، فقالوا:

١- لقد استشار الله تعالى الملائكة، فهل هو عز وجلّ بحاجة إلى الاستشارة؟

٢- ارتاب الملائكة في حكم الله تعالى بقولهم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ (البقرة: ٣١)؛ فهل لهم حق الاعتراض على حكم الله تعالى؟

٣- لقد تحقق قول الملائكة وأُفسدت ذرية آدم في الأرض.

وقبل أن أُجيب على هذه الأسئلة ينبغي أن نفهم معنى كلمة "قال". إن هذه الكلمة التي ترددت في الآية لا يعني أن الله عز وجل قد دعا الملائكة والناس إلى مجلس، ثم وجه الخطاب إلى الملائكة؛ وإنما المراد منها التعبير عن المتصور في النفس قبل الإبراز باللفظ. وقد ورد هذا الأسلوب في القرآن كما في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ (المجادلة: ٩). وهي أيضا تدل على لسان الحال كما جاء في القرآن الكريم: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصلت: ١٢).

فليس من الضروري أن يكون القول الوارد في الآية الكريمة قد تم بصورة ظاهرة، وإنما أُريد بهذا الحوار تصوير لما جرى على لسان حال كل شيء من الاستجابة لحكم الله تعالى.

وإذن فإن ما تحكيه آيتنا من قول إما مناقشة بلسان الحال، أو أنه تصوير للوحي السماوي الذي أُنزل على الملائكة، وهذا ما أُرجّحه. وكل ما قال الله تعالى للملائكة إعلان بقراره تعالى لا يمُتُّ إلى الاستشارة بصلة لأن سياق الآية وألفاظها لم تذكر الاستشارة لا صراحة ولا ضمنيًّا، فالآية تقول: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيْفَةً﴾، فليت شعري! من أين استخرج المعترضون معنى الاستشارة؟ إن الله تعالى أخبر ملائكته بالأمر كي ينشط كل واحد منهم في نطاق عمله لمناصرة آدم ؈، ويدرك الأمر الموجه له ويتفهم نواحيه الغامضة. فإذا استفسر عن شيء منها فليس ذلك عن اعتراض، وإنما استزادة في العلم. ولا أدلَّ على براءة الملائكة من تهمة الاعتراض من قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ (البقرة: ٣١).

ومن زاوية أُخرى يمكننا أن نأخذ هذه العبارة كتساؤل شبيه بالاعتراض. ذلك أن آدم كما كان نائبًا لله تعالى، كذلك كان هناك أُناس شبيهون بالملائكة يجوز تسميتهم ملائكة. فيمكن أن يكون قد خطر ببال هؤلاء أنهم ما داموا يعبدون الله عز وجل بقدر ما أُوتوا من العقل فأي حاجة هناك لبعث إنسان بالشريعة؟ وفي ضوء هذا المعنى تعدُّ هذه العبارة ردًّا على ما خطر ببال هؤلاء من اعتراض. فكلما يبعث

الله نبيًّا فإن أصحاب الصلاح في الظاهر يفكرون بهذا الأسلوب نفسه. فمن كان منهم ذا تقوى حقيقية يفطن لخطئه، ويؤمن بإمام زمانه، وأما الذين تنقصهم التقوى الحقيقية الكاملة فتزل قدمهم، ويخرجون من صفوف الملائكة إلى صفوف الأبالسة.

هذا المشهد يتكرر في زمن كل نبي. ففي زمن النبي ﷺ أيضا نجد شخصا اسمه زيد، وكان يدّعي أنه يتبع ملة إبراهيم حنيفا، ويدعو العرب قبل بعثة النبي إلى عدم الإشراك بالله تعالى. ومرة أثناء الأكل مع النبي، رفض الأكل معه بحجة أنه لا يأكل مع المشركين. فأجابه النبي ﷺ بأنه لم يقع في الإشراك بالله قط. وبعد فترة عندما ادعى النبي ﷺ بأنه بُعث رسولا من الله تعالى لم يوفق هذا الرجل إلى التصديق به، وإنما قال: لو كان الله باعثا نبيا لبعثني أنا الذي حاربت الشرك طيلة الحياة. (البخاري، كتاب المناقب، مناقب الأنصار؛ وسيرة ابن هشام).

فانظروا كيف أن هذا الرجل الذي كان قبل بعثة النبي ﷺ بمثابة ملَك من الملائكة بين العرب، رفض أن يؤمن به ﷺ، وحسِب بعثته عبثا. وأمثال هؤلاء يوجدون في عصر كل نبي، ورغم أنهم يكونون فيما يظهر ظلالا للملائكة، إلا أنهم يدخلون في الأبالسة بالاعتراض على بعث إمام زمانهم.

أما المسألة الأخيرة من حيث تحقق قول الملائكة وعدم تحقق قول الله تعالى فهي أيضا ناشئة عن تفكير قاصر، فالله تبارك وتعالى لم يقل بنفي الفساد وسفك الدماء، بل إن مفهوم سفك الدماء والفساد متضمن في إعلان بعث "خليفة". يقول الله صحيح أن بعث آدم كخليفة يعني أن أفعال الناس سوف تقاس بمقياس الشريعة وسوف تعد بعضها فسادا وسفكا للدماء، ولكنه مع ذلك سيحقق غاية عظيمة لا يمكن أن يحققها أحد من سائر المخلوقات. ويؤكد هذا قوله تعالى ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣١) حيث لم يخطّئهم في دعواهم، بل قال: هناك شيء أعرفه ولا تعرفونه. وهكذا وجد الملائكة الجواب على سؤالهم كما تحقق ما أخبرهم الله به.

ورب سائل عن قوله: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ (البقرة: ٣١)؛ أهذا يتصل بآدم، أم ببعض من بُعث إليهم، أم بذرية آدم المقبلة؟

والجواب على ذلك أن هذه الجملة تتصل بهؤلاء الثلاثة جميعا. أما علاقتها بآدم فلأنه أول الأنبياء، وعلى يده جاءت الشريعة قيدًا على الإنسان. ومن البيّن أن من يتولى أمر تطبيق النظام قد يعمد أحيانا إلى سجن بعض الأفراد، وقتل المجرمين منهم توطيدًا لدعائم النظام، وقد يفرض الضرائب عند الضرورة. وهذه التصرفات قد تبدو ببادىء النظر نوعا من الفساد عند من لا يعرف مصالح النظام، وعندئذ يتساءل متحيرا: كيف يجوز الاستيلاء على أموال الناس بالإكراه؟ وكيف يسجن الأحرار ويقتل الأحياء؟ ولكن لا يمكن أن يقوم بتثبيت قواعد الأمن من دون فرض الضرائب وسجن المجرمين وقتل القاتلين.

وأما علاقة ذلك القول بمن بعث إليهم آدم وبذريته المقبلة، فذلك لأن حدود الشريعة هي التي تميز المسيء من المحسن، والمذنب من البريء. إن الحيوان يفترس ويقتل ويلدغ ولا يعد مفسدا، لأنه محروم من العقل الذي يفرق بين الخير والشر، ولا يخضع لحدود الشريعة.

وهكذا كان البشر قبل آدم، فإذا بلغ الإنسان من العقل مبلغا يؤهله لاتباع الشريعة؛ كان عندئذ التمييز بين المفسد والمصلح، وأصبح منذ ذلك الوقت مطالبا على لسان آدم ألا يعتدي على حق غيره ولا يفسد في الأرض، وأصبح الحاكم المنفذ للشريعة مسئولا عن إعطاء كل ذي حق حقه. ومن خالف الشريعة فهو المفسد أو سافك الدماء، الأمر الذي لم يكن معروفًا قبل الشريعة.

وقصارى القول: إن سؤال الملائكة يعني أن حالة البشر سوف تتغير بعد نزول الشريعة وتعيين خليفة، وعندئذ سيكون منهم المفسدون وسفاكو الدماء طبقا لهذه الشريعة، وما كانوا من قبل الشريعة يدانون على مثل هذه الأفعال. فاستفسارهم هذا في محله ويحتاجون شرحه وبيانه. ولم تكن الحكمة الإلهية ترمي إلى إدانة الإنسان ووصمه بالإجرام، وإنما كان الفكر الإنساني قد بلغ عندئذ من التقدم والدنو من الكمال بحيث تترك أفعاله هذه أثرًا سيئًا في قلبه، فلذلك أراد الله تعالى أن ينزل على

البشر وحيه، فيصطفي آدم من بينهم خليفة ليقود البشرية إلى مكانتها المرموقة، ويسعى إلى تلك المثل العليا التي أصبح الإنسان مستأهلا لها.

وهنا نقطة جديرة بالذكر؛ فكل ما قاله عز وجل عند استخلاف آدم قول صحيح تماما. وتساؤل الملائكة أيضا تساؤل صائب. والاختلاف بينهما إنما هو من ناحية وجهة النظر فقط. فالله تعالى كان يرى من استخلاف آدم تجليا عظيما لظهور سيدنا ومولانا محمد ﷺ. فآدم هو المرحلة الأولى لوضع البشرية على طريق الكمال الذي يصل إلى ذروته في شخص خاتم النبيين ﷺ، بينما كانت الملائكة تخشى على البشرية من أجل مظاهر الشر المصطبغة بصبغة أبي جهل وأمثاله.

إن تأسيس الخلافة سيكون مدعاة لإنزال العقاب بطائفة معدودة من المفسدين والقاتلين، ولكن هناك طائفة أُخرى قدر لها أن تتفوق على الملائكة أنفسهم، وتنال محبة الله والقرب منه. وهذه الطائفة الناجحة هي الغاية من خلق هذا المجتمع الإنساني المنظم. ولوجود هذه الطبقة الممتازة من البشر، لا يجرؤ أحد على الإدعاء بفشل النظام البشري، بل إن كل واحد من أفراد هذه الفئة العليا لجدير بأن يُخلق هذا النظام من أجله. وأعلاهم شأنا وأحقهم بذلك هو محمد ﷺ، الذي خاطبه الله تعالى فقال له: "لولاك لما خلقتُ الأفلاك".

فلما قال تعالى: إني أعلم ما لا تعلمون من المصالح العظيمة في خلق آدم أيقنوا بأنه هو الحق. ثم أراد الله تعالى أن يبين ذلك للأجيال المقبلة من بني آدم.

تعليم آدم الأسماء كلها:

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ٣٢).

لقد اختلف المفسرون في الأسماء التي عُلِّمها آدم. فقال البعض إنها أسماء الأشياء مثل كوب وقدر، بمعنى أنه علمه اللغة (الدر المنثور). وزاد عليه البعض أنه علمه كل اللغات (فتح البيان)، ولكن هذا المعنى خلاف للعقل والنقل كلية. وقال آخرون إنه

علّمه أسماء أولاده (الدر المنثور). ولكن إذا رجعنا إلى القرآن نفسه عرفنا بسهولة حقيقة هذه الأسماء.

لا شك أن الإنسان عندما شرع في التمدن كان بحاجة إلى لغة، ولا بد أن الله تعالى علَّم آدم لغة ما، ولكن القرآن الكريم يخبرنا أن ثمة أسماء خاصة يجب على الإنسان أن يتعلمها ليكمل له دينه وخلقه، ولا يمكن أن يعلمها إلا الله جل وعلا. يقول الكتاب الكريم: ﴿وَلِلَّه الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِه سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٨١).

يتبين من هذه الآية الكريمة أمران:

الأول: أن الوسيلة الوحيدة لمعرفة الله تعالى والاتصال به هي أن يعلم الإنسان أسماءه، أي صفاته، علما صحيحا.

والثاني: أن العلم الصحيح بهذه الأسماء لا يتأتى إلا بتعليم من الله تعالى، وأن محاولة إدراكها بالاجتهاد الشخصي يوقع المرء في الخطأ. ولما كان آدم عليه السلام قد بُعث لتأسيس الدين، وتعزيز علاقة المخلوق بالخالق جل وعلا، فلذلك كان من اللازم أن يتعلم من الله تعالى الصفات الإلهية، ويعرفها بأسمائها كي تعرف أُمته إلهها وتتصل به. وإذا لم يتعلم آدم تلك الأسماء خيف عليه وعلى أمته من الإلحاد والانحراف عن الدين.

ويتبين من الآيات التالية أن الأسماء التي علمها الله تعالى آدمَ لم تكن معروفة للملائكة تمام المعرفة. والأسماء التي لا يعرفها بكاملها جميع الملائكة فردا فردا إنما هي الصفات الإلهية، لأن الملائكة كما وصفهم القرآن الكريم ﴿يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (النحل: ٥١)، فهم يعرفون ما يؤمرون بفعله، أما ما سوى ذلك فأنى لهم معرفته؟

نعم، لا يعلم الصفات الإلهية علما كاملا إلا الإنسان، وليس الملائكة من هذا العلم الكامل في شيء. إنهم يعلمون من الصفات ما يتصل بنطاق عملهم فحسب، ولكل منهم عمل محدد لا يتجاوزه، فهو يعرف صفة واحدة أو بعض الصفات. أما الإنسان، فكما يؤكد القرآن الكريم، يعلم الأسماء كلها.

إن الله زود الإنسان بقدرات تؤهله بأن يتحلى بتلك الصفات، إنه يصلح للاتصاف بالصفات الإلهية، فيكون رحيمًا، غفّارًا، قهّارًا، جبّارًا، شكورًا. ولكن الملائكة لا تصلح لأن تجمع كل تلك الصفات في واحد منها.

ويرى بعض المفسرين أن الآية تشير إلى معنى تعليم اللغة أو اللسان. وأرى أن الآية تتضمن هذا المعنى أيضا، لأن اللغة ضرورية لتأسيس مجتمع متمدن. ويبدو أن الله تعالى علم آدم مبادئ اللغة التي تأسست عليها اللغات.

وبالتدبر في معنى الآية يتبين لنا أن تلك اللغة هي اللسان العربي؛ فالآية تصرح أن آدم عليه السلام تعلم الأسماء عن طريق مسمياتها، بمعنى أن أساس اللغة التي تعلمها قام على علاقة بين الأسماء والمسميات، أي أن كل شيء سُمِّي باسمه بناء على خواصه، فلم تكن الأسماء بدون سبب يربطها بمسمياتها.

وهذه الميزة مختصة باللغة العربية دون سائر اللغات؛ لأن الأسماء فيها تفيد التعرف على الشيء، ولو غيرنا أسماء مسميات ما حدث خلل ما. ففي اللغة العربية كلمة "خبز" وهو اسم ذو معنى إذ إن مادة "خ ب ز" تدل على الصنع والانتفاخ. فمثلا بزخ: نفخ صدره وأبرزه، خزب: سمن بدون مرض أو عيب، خبز: صنع شيئا بضرب الكفين بسرعة. فالخبز شيء صنعته الأيدي بسرعة، وهو أيضا منتفخ. وهذه الكلمة تصوير حقيقي لهذا الطعام. والآن، لو استبدلنا بكلمة "خبز" كلمًة أُخرى ما أفادت هذا المعنى.

ولا أعني بذلك أن سيدنا آدم تعلم اللغة العربية بشكلها الحالي، أو أنها لم تتطور بعد آدم عليه السلام وإنما أعني أن أُصول تلك اللغة هي التي تطورت وتوسعت وقامت عليها اللغة العربية فيما بعد.

فالمراد بتعليم اللغة أن الله تعالى علم آدم لغة مبنية على حكمة، إذ إنها متناسقة في ربطها بين المبنى والمعنى، أي أن كل كلمة فيها ذات معنى تعبر عنه، أو بعبارة أُخرى، إن الله العليم الخبير علم آدم اللغة العربية التي صارت فيما بعد أُمًّا لسائر اللغات.

راجع كتاب "منن الرحمان" لمؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية، الذي بيّن فيه بالبيان الرائع كيف أن اللغة العربية هي أم الألسنة.

وقوله "كلها" لا يراد منه جميع الصفات الظاهرة في كل الأزمان، وإنما ما يتصل منها بعصر آدم من الصفات. ومن الممكن أن تكون مستوعبة لكل الصفات، ويكون معنى الآية في هذه الحالة أن الله تعالى أودع في آدم وذريته كفاءة لإدراك كل الصفات؛ فكأن تعليم الأسماء لآدم كان بالقوة وبالإجمال، أي تزويده بالقدرة على الإدراك وبصفة عامة وليس بالفعل وبالتفصيل. وإن كان التعليم بالفعل والتفصيل قد بلغ ذروة كماله بوجود سيدنا ومولانا محمد ﷺ.

وكذلك ليس المراد بتعليم أسماء اللغة تعليم كل أسمائها وموادها، بل المراد به تعليم مبادئ اللغة التي تطورت فيما بعد بصورة اللغة العربية المتكاملة.

وفي قوله ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ﴾ (البقرة: ٣٢).. لا يعود ضمير الغائب (هم) على الأسماء. لأن الضمير لجمع المذكر العاقل وكلمة (الأسماء) مؤنثة ومؤكدة بكلمة (كلها)؛ وتبين من ذلك أن الضمير راجع إلى المسمّيْن بهذه الأسماء دون الأسماء نفسها. ولا يلزم من قوله (عرضهم) أن يكون العرض بصورة مادية، فمن الممكن أن يكون بصورة كشف المظاهر المقبلة للأسماء، وبخاصة إذا كان الضمير (هم) راجعا على ذرية آدم في المستقبل.

كذلك قد يكون المعروضون على الملائكة هم أُولئك الأعوان والأنصار الذين وهبهم الله لآدم بعد أن تعلم الأسماء وتولى الخلافة، والذين كانوا مظاهر لصفات الله المختلفة. ويكون المعنى أن الله تعالى عرضهم على الملائكة بعد أن أثمرت فيهم تربية آدم وتعاليمه، وأصبحوا مظاهر للصفات الإلهية، وسأل الملائكة: أخبروني عن صفات هؤلاء إذا كان رأيكم السابق في البشر صادقا. إن هؤلاء أبناء الصلاح والسلام، ولا يمكن أن يصدر عنهم فساد أو سفك دماء. أمّا أعداء آدم وحاسدوه فهم على عكس أولئك الأوفياء، وليس آدم مسئولا عنهم.

والحق أن بعثة كل نبي كانت مقرونة بسفك دماء وهياج فتن، لكن ذلك لم يكن ناشئا عن أعمال الأنبياء وأتباعهم، و لم يكن بهم رغبة في ذلك ولا يرضونه، بل كان يحدث على عكس إرادتهم وبسبب شرور أعدائهم.

فالفساد الذي يظهر ليس من فعل الأنبياء، وإنما هم مخرجوه من صدور الفاسدين دفينا في أعماقهم، ويكونون عاملا قويا في إخراج الخبائث الباطنية لاجتثاثها من نفوس الأشرار.

ويتبين من معاني الآية أن الله تعالى يطلع الأنبياء على شيء من مواهب أتباعهم والأنبياء المبعوثون من بعدهم. فنرى جليا أن سنة الله مع من بعثوا بعد آدم من الأنبياء أنهم ما زالوا ينبئون ببعثة نبي أو أنبياء يأتون من بعدهم، أما سيدنا ومولانا محمد ﷺ الذي جمع الله فيه الكمالات كلها فقد أخبر ببعثته كل نبي. وكذلك بالنظر في حياة الأنبياء نجد أنهم ينكشف لهم أحوال خاصة أتباعهم بصورة إجمالية، ولذلك نرى أنه لم يخطئ نبي قط في اختيار أصحابه واصطفاء أنصاره، أي لم تجتمع أغلبيتهم على الخطأ بتاتا. ويا ليت إخواننا الشيعة أدركوا هذه الحقيقة فكفُّوا عن معاداة الخلفاء الراشدين.

التعليم بعرض الأشياء:

يظن البعض أن تعليم الصغار في مدارس وروضات الأطفال حيث يتبع أسلوب خاص للتعليم، فلا يعلمون الأطفال عن طريق حفظ ما في الكتب، بل يكون ذلك بتعليم أسماء الأشياء بعرضها عليهم مما يساعدهم على حفظها دونما ضغط على أذهانهم وذاكرتهم. أقول يحسب البعض أن هذا الأسلوب من مستحدثات أوروبا، ولكن القرآن الكريم يقدم في هذه الآية الوجيزة هذا الأسلوب التعليمي تقديما رائعا. إن الله تعالى لم يعلم آدم بحفظ الأسماء عن ظهر الغيب، بل علّمها إياه بعرض مسمياتها الملموسة المشهودة عليه، وتعيين خواصها بصورة عملية.

ومن الأمثلة الحديثة للتعليم الإلهي ما جرى مع مؤسس الحركة الإسلامية الأحمدية في هذا العصر، إنه لم يتعلم في مدرسة من المدارس، ومع ذلك لما بدأ في تأليف

الكتب باللغة العربية امتثالا لأمر الله تعالى، علّمه الله في ليلة واحدة أربعين ألف مادة من اللغة العربية، فقام بعدها يتحدى العلماء في كل العالم بأن يأتوا بمثل هذه الكتب في بلاغتها وما تحتويه من أدق المعاني. تحداهم جميعا أو آحادا، ولكن لم يكن لأحد أن يأتي لها بمثيل حتى اليوم، رغم كثرة توزيعها وقتئذ في البلاد العربية. ومثل هذا الإعجاز ليس إلا ثمرة لإعجاز القرآن الكريم وتصديقا له.

تمدُّن آدم:

ولما كان آدم عليه السلام هو أول من جعله الله تعالى خليفة في هذه الأرض، كي يقيم التمدّن الإنساني، وهو الهدف الحقيقي من بعثته واستخلافه، كان من المناسب هنا أن نذكر المبادئ التي تأسس عليها تمدن آدم:

١- نظام الزواج: إذ شُرِع لأتباعه ما لم يكن قد عرفوه من قبل علاقة شرعية محددة بين الرجل والمرأة طبقا لأمر الله تعالى: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ (البقرة: ٣٦).

٢- نظام التحليل والتحريم: فقد بدأ الأمر بالعمل طبقا لبعض الأحكام والنهي عن بعض الأعمال كما قال تعالى: ﴿وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ (البقرة: ٣٦).

٣- نظام التعاون على تهيئة وسائل الطعام والشراب للجميع.

٤- نظام الكساء.

٥- نظام السكن.

ويجمع هذه النظم الثلاثة الأخيرة قول الله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى* وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى﴾ (طه: ١١٩-١٢٠). وليست هذه صورة مفصلة لجنة آدم كما زعم بعضهم خطأ، بل إنها الصورة المرسومة لتمدن آدم والتي دعا إليها المجتمع الإنساني الأول. إن اجتماع الناس يؤدي أحيانا إلى حرمان قسم من الناس من وسائل الغذاء والكساء، فعلى الآخرين الذين يتمتعون بخيرات التمدن أن

يسعوا جهدهم لسدّ هذا الفراغ، ويتعاونوا على إعانة الفقراء والمسنين والعاجزين، ويهيئوا لهم حاجتهم من الغذاء والكساء والخباء.

الخلافة:

يقول الله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣١)

إن كلمة " خليفة " تطلق على المعاني التالية:

١- الذي يخلف عن قوم أو شخص خلا.

٢- الذي ينوب عن حاكم أعلى في حياته لتنفيذ أحكامه ببلد آخر.

٣- الذي يقوم من بعد شخص ليضطلع بسلطاته ويدير أعماله، أو يواصل نسله وولده.

ولكن معنى هذه الكلمة في القرآن الكريم يتردد في ثلاثة استعمالات:

أولاً- الخليفة بمعنى النبي، كما في آيتنا الحالية؛ لأن فضيلة آدم لا تتوقف على مجرد الأبوة لجيل جديد، بل إن فضيلته الكبرى هي تشرفه بالنبوة كما تصرح هذه الآية. وقد وُصف داود عليه السلام بهذه الصفة في قوله تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ (ص: ٢٧).

ثانيًا- الخليفة من يخلف عن قوم هلك من قبل، كما جاء على لسان هود عليه السلام : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ (الأعراف: ٧٠).

ثالثًا- الخليفة الذي يخلف عن نبي ويقتدي بأثره، ويوجه قومه إلى شريعته، ويجمع شمل أمته من الأنبياء كان أو غيرهم؛ كما قال موسى لهارون "عليهما السلام": ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٣).

اعتراض الملائكة على الاستخلاف؟

يتبين من نص ما قاله الملائكة أهم لم يكونوا بسؤالهم يعترضون على الله سبحانه وتعالى، ولا يحتجون باستحقاقهم للخلافة، وإنما كانوا يستفسرون عن الحاجة الداعية إلى تأسيس هذا النظام الجديد مع ما يضمره من خطر سفك الدماء وانتشار الفساد. كان سؤالهم استفهاما عن الحقيقة، وكان الجواب الممكن إما بالنفي الباتّ لإمكان سفك الدماء والفساد بعد الخلافة، أو بإقرار ذلك الإمكان مع تأكيد أهمية هذا النظام لبني نوع الإنسان، وإيضاح أن نفع النظام الجديد أكثر من ضرره.

وكان الوجه الثاني للجواب هو الأصح لنظام الخلافة الإنسانية، وهو الذي صدر الجواب به: إنه لم ينفِ عن النظام إمكانية حدوث شيء من سفك الدماء والفساد، فذلك ممكن على يد بعض الجناة، ولكنه صرح بأن النظام سينتج عنه شخصيات عظيمة متحلية بعديد من صفات الله عز وجل، ولذلك فلا بد من خلق مثل هذه الشخصيات القادرة على إظهار الصفات الإلهية على الأرض، على الرغم من وجود الشخصيات الناقصة أيضا، فذلك أنفع جدا لنظام العالم.

وكان من الممكن أن يكون هذا الوجه من الجواب على قسمين:

- الأول: أن يدعم بالأدلة العقلية.

- الثاني: أن يؤيد بالدليل العلمي، فيظهر مواهب الخليفة الأول وكفاءاته بصورة واقعية، ويكشف للملائكة وجود الكُمَّل من أتباع آدم. ومثل هذا الجواب يكون أقوى تأثيرا وأعظم إقناعا. وهذا ما اختاره الله تعالى إذ علّم آدم صفاته، فأثبت بالاتصاف بها أنه لا يمكن أن يُظهر الصفات الإلهية ظهورا كاملا إلا من يكون مخيرا بين الخير والشر، فيطغى عليه الحب الإلهي فيندفع نحو إنماء قوى الخير في نفسه ليتقرب إلى الله.

ويتبين من قول الملائكة أهم قد اطمأنوا بجواب الله كل الاطمئنان، وأهم اعترفوا بأن علمهم ناقص ومحدود بالنسبة إلى علم الإنسان الموهوب من لدن الله تعالى، وأهم أقرّوا بأن الله تعالى هو وحده العليم الحكيم الذي لا يخلو فعل من أفعاله من الحكمة

الكاملة. وأن الرد المفصل لما جرى لآدم إنما يهدف إلى تحديد الغاية من خلق الكون وتعيين حكمته، ويرمي إلى بيان أن سبب نزول الوحي السماوي في كل زمن إنما هو لتحقيق هذه الغاية.

أما قول الملائكة: ﴿لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾ (البقرة: ٣٣) فليس المراد منه الأمر البديهي من أن علمهم مقصور على ما علمهم الله، وإنما لبيان أن علمهم لا يزداد كازدياد علم الإنسان الذي زوده الله بالقدرة عليه، وأن ما آتاهم الله تعالى من قوى لا يستطيعون بها أن يدركوا شأوَ الإنسان في علومه المتنوعة الجامعة، أي أنهم أيقنوا بأن الإنسان مخلوق لحكمة، وأنه مكلف بعمل لا يستطيعونه، وأن خلق الإنسان لفعلٌ حكيم من أفعال الله عز وجل، وإن كان بعض جنسه سببا لسفك الدماء وإثارة الفتن. ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَاتُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (البقرة: ٣٤).

مع أن الملائكة فهموا على وجه الإجمال الغرض من خلق آدم عليه السلام ولكن استكمالا للدليل أمر الله تعالى آدم ببيان كمالات الخاصة من أُمته أو نسله لكي تتبين الحقيقة عمليا بعد أن اتضحت علميا.

كما ليس المراد من تعليم آدم أن الله أجلسه أمامه يعلمه، وإنما معناه أنه تعالى آتاه علم الصفات الإلهية واللغة وخواص الأشياء إما بالوحي الخفي أو بالوحي الجليِّ أو بكليهما. أما والأمر كذلك فقد انكشف للجميع أن الله تعالى العليم الخبير، هو الأعلم بحاجات الأرض ومقتضياتها لنزول الفضل الإلهي، وهو أعرف لما تتطلب صفاته عز وجل. إنه العليم بما أودع في الملائكة من القوى: ظاهرة يبدونها، وباطنة لا يمكن لهم إظهارها. ومن الخطأ أن يتصور أحد أن الملائكة حاولت إخفاء شيء عن الله تعالى، وإنما يُراد بالكتمان هنا: العجزُ والقصورُ الفطري، إذ إنهم لا يملكون الإرادة والحرية التي يتمتع بها الإنسان ولكنهم يظهرون ما زُوِّدوا به من صفات، ويكتمون ما ليس بوسعهم من صفات.

الملائكة:

وفي الآيات الكريمة جاء ذكر الملائكة، ويحسن بنا أن نذكر هنا ببعض التفصيل، إذ إن الجيل الجديد من الشبان المتأثرين بالفلسفة العصرية بعد أن أخطأوا الطريق إلى معرفة الله تعالى، وتقاصروا عن إدراك وجوده وصفاته عز وجل، ظنوا أن وجود الملائكة باطل لأنه ينافي الألوهية؛ والذين لم تزل بهم عقيدة دينية طمأنوا أنفسهم بقولهم إن الملائكة ليست إلا من قبيل المشاعر الصالحة التي يختلج بها قلب الإنسان.

والواقع أن وجود الملائكة لا يتعارض أبدا مع كمال الألوهية، وأيا كانت الصورة التي اخترتموها من هاتين الصورتين، فإن وجود الملائكة لا يكون مظنة الارتياب والاعتراض. فإذا كان الله تعالى فعّالا منذ الأزل تسألنا: هل كان يتخذ عندئذ وسائط من مخلوقه لأجل القيام بأعماله؟ أي هل كانت هناك سنن طبيعية لوجود هذا الكون عند بدء الخليقة أم كان كل تطوّر يحصل بنفسه دون أي قانون أو سبب كعجائب الشعوذة والسحر؟ ولئن سلّمنا بأن كيان هذا العالم وبنيته تقتضي خضوع كل تطور حادث فيه لقاعدة أو سنّة ما اضطررنا للتسليم بأن الله عز وجل خلق بعض الوسائط لتكوين هذا العالم، وأصدر سننا خاصة سببت وجود هذا العالم بهذه الصورة. فإذا سلمنا بذلك، ولا بد من التسليم، فلا مفر إذن من الإقرار بأن وجود الملائكة أسمى من الاعتراض، لأنه إذا لم يكن اختيار وسيلة ما منافيا لقدرة الله تعالى فإن اختيار وسيلة غيرها لا يُعد أيضا منافيا لقدرته عز وجل. وكذلك إذا اعتقدنا بأن لله عز وجل علاقة فعالة بإدارة هذا العالم اليوم أيضا، فلا داعي إذن إلى الاعتراض على وجود الملائكة. فإن الله تعالى يستعمل النطفة الإنسانية للولادة، ويبرد غليل الإنسان بالماء، وينوّر على العالم بالشمس. وإذا كانت هذه الوسائط لا تنال من قدرته، فكيف يكون توسيطه تعالى للملائكة في إدارة نظام هذا الكون مدعاة إلى المساس بكبريائه وجبروته؟ والحق كما يتبين من القرآن، وتصدقه نواميس القدرة الإلهية، أن الله عز وجل، بقدرته الكاملة أخضع نظام العالم لقانون واسع متشعب. يقول تعالى: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا* وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ (النازعات:

٢٩-٣٠)، وتدلنا هذه الآية على أن النظام السماوي مؤسس على قانون كامل منه ما هو خفي كالليل، ولا يتبين إلا بإمعان النظر وإمعان التدبر؛ ومنه ما هو ظاهر واضح وضوح النهار، ويتبين من الوهلة الأولى. هذان النوعان من نواميس القدرة بيِّنان للناظرين فيهما، فالشمس والقمر مثلا يعرف الناس بعض تأثيراتهما، ولكن بعض أسرارها في غاية الخفاء حتى أن العلماء المتخصصين لا يزالون يبحثون فيها لمعرفة أسرارهما.

إن أول حلقة في سلسة العلل والمعلولات هي الملائكة. فالقول بأن وجودها ينافي القدرة الإلهية وهمٌ أوهى من بيت العنكبوت. فإن العالم كله قائم على آلاف العلل والمعلولات، ولا يقول عاقل بأن هذه القوانين تتعارض مع قدرة الله تعالى، فكيف يكون وجود الملائكة كحلقة أُولى في السلسلة مما ينال مع قوته وسلطانه عز وجل. إذا كان النور سببا لإبصار العين، وذبذبات الهواء علة لحاسة السمع ولا يمس ذلك قدرة الله، فكذلك وجود الملائكة كعلة في إدارة نظام هذا الكون لن ينال شيئا من قدرة الله تعالى.

وكما أن الملائكة هي العلة الأولى لخلق الإنسان، كذلك هي العلة النهائية للاتصال بالله تعالى. ونوجز القول هنا عن الملائكة بأنهم كائنات روحانية، خلقهم الله تعالى كالحلقة الأولى في خلق العالم المادي، وجعلهم المدبرين له. وهم ليسوا عند الله تعالى كأصحاب الحظوة المقربين عند الملوك؛ بل إن الله تعالى أوجدهم سببا مبدئيا وعلة أُولى لإدارة نظام هذا العالم، ولإجراء التطورات والتغيرات الظاهرة في الكون، وهم لا يبرحون قائمين على إحداث التطورات في العالم بإذن الله تعالى، وطبق القواعد التي حددها عز وجل.

إن الذين مروا بتجارب روحية أُتيحت لهم معرفة الملائكة ومشاهدتهم، فقد ورد في الإنجيل نزول الملائكة على بعض الصالحين والصالحات، ونزول جبريل على المسيح الناصري عليه السلام وذكر القرآن الكريم والأحاديث النبوية نـــزول الروح الأمين

جبريل على سيدنا ومولانا محمد المصطفى ﷺ. وفي هذا العصر حظي مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية بهذا الاتصال الملائكي.

كما إنني تشرفت شخصيا ببعض المشاهدات بفضل الله تعالى ورحمته. إن الذين يحسبون الملائكة مجرد قوى كامنة في الإنسان يبنون رأيهم على الوهم والجهل وإنكار تجارب الصادقين، ولكن المرء إذا نال المشاهدة الشخصية لا يمكن له إلا اليقين بحقيقة وجودهم.

حقيقة السجود لآدم:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٣٥).

من المحقق أن السجود بمعنى العبادة لغير الله تعالى يناقض تعاليم القرآن الكريم، وأن الملائكة لا يسجدون لغير الله تعالى أبدا، ولذا فإن المراد من الأمر الإلهي ﴿اسْجُدُواْ لآدَمَ﴾ لا يعني سجود التعبد لآدم، وإنما يعني: اسجدوا لله بسبب استخلافه لآدم، لأن الله تعالى قد أسس هذا النظام الرائع، فكأن الله عز وجل حينما أثبت للملائكة بالدليل العملي أن خلافة آدم لها حكمتها السامية، إذ أُنيط بها الظهور الكامل لصفات الله تعالى، عندئذ أمر الله الملائكة أن يسجدوا له عز وجل سجود حمد على هذه النعمة وذلك كما نرى أن عباد الله الشاكرين يخرون سجدا حينما تتراءى لهم مظاهر قدرة الله تعالى وجبروته.

ونظرًا إلى هذا المعنى، ينبغي على المؤمن أن يخر ساجدا لله كلما نزل عليه فضل الله، لأن ذلك أدعى إلى زيادة نزول أفضاله جل وعلا، ولكن مع الأسف أن كثيرا من الناس بدلا من أن يشكروا، يأخذهم الاستكبار عندما يحظون بنعم الله، ويحسبون ازدهار أعمالهم من آثار نبوغهم وبراعتهم.

والسجود هو الطاعة أيضا، فقوله ﴿اسْجُدُواْ لآدَمَ﴾ يعني أطيعوه وانقادوا له، أي القيام بمصالحه ومصالح أولاده. ومن ناحية هذا المعنى يكون المراد من الأمر بالسجود أن الله عز وجل بعد أن شرف آدم بالخلافة، أمر الملائكة بطاعته، وقال إن آدم اليوم

هو مظهر مرضاتنا في الدنيا، فعليكم أن تساعدوه في مهمته وتعاونوه على إنجاز ما كلف به، وتسخروا له من هذا النظام الكوني ما هو تحت إدارتكم، والذي أنتم حلقة من حلقاته. ﴿فسجدوا﴾ أي فاندفعوا نحو تأييد آدم والعمل على تحقيق عزائمه. فهم العلة الأولى لإدارة نظامه، ولذلك يكون الأمر الصادر إليهم عاما يشمل جميع من يليهم من الأفراد.

ولقد جاء في الحديث النبوي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ "إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ" (صحيح البخاري، كتاب التوحيد) وهذا الحديث يبين تسلسل الأمر الإلهي حتى يصل إلى الناس فيما يتعلق بالأمور التي تخص البشر. فأمر الله تعالى للناس يبدأ بالملائكة، فإذا ما صدر لهؤلاء فقد شمل السلسلة كلها حتى البشر.

إباء إبليس واستكباره:

وقوله تعالى: ﴿أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ بيان لموقف إبليس من السجود لآدم، لقد أبى إبليس لأنه لم ير هذا النظام ملائمًا لنفسه. إنه نظام ناقص في تقديره. فمن مقتضيات الإباء الامتناع عما يحط من شأن المتأبي. إن الناس يرون الحقائق بمنظار أهوائهم ومصالحهم الشخصية، ولا يرونها في ضوء المصالح العامة، فإذا وجدوا فيها إضرارا بمصالحهم العاجلة، نسوا عاقبتهم وأعرضوا عن مصالح عامة الدنيا، واجتهدوا وشمروا لمعاداة الحق.

والاستكبار دافع ثان لإنكار الحق ورفضه. ولقد عبر إبليس عن هذا الاستكبار بقوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (الأعراف ١٣). فزَها بكونه ناري الطبع، وأن آدم طيني الطبع إذ يتشكل في كل القوالب كالعبيد. وهكذا فإن اتباع الحق الذي يورث الإنسان خلق التواضع هو في نظر أعداء الحق معرة ومنقصة. إنه عندهم ينافي المصالح الوطنية والمِلّية ويرون أهل التواضع خونة لبلادهم. إنهم

يتباهون بشراستهم وطبائعهم الشريرة، ويحسبون أنهم بعاداتهم العدوانية قادرون على تشييد مجدهم. إنهم ينخدعون بما يحصلون عليه من إثارة الشر والفتن ولكن ذلك كله لا يحقق المصالح الثابتة الدائمة.

والسبب الثالث للإباء أن يرى المرء ما يُعرض عليه كبيرا ومستحيلا، وقد عبّر عن هذا الأمر في قوله تعالى على لسان الكفار: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ (الفرقان: ٢٢)، فهم يحسبون لقاء الله تعالى أمرا مستحيلا فأبوا أن يصدِّقوه.

والسبب الرابع للإباء أن يعتاد المرء إنكار الحقائق، ويدل على ذلك وصف الله له في قوله: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾. واليوم أيضا نجد أن المنكرين للحقائق يتعرضون لمثل هذه الأوضاع. وليت الناس حاولوا إدراك تلك الحقائق متخلين عن هذه العيوب الأربعة، فعرفوا أن الله تعالى قد فتح لهم في هذه الأيام أبوابا واسعة للتقدم والرقي، وأتاح لانتصار الإسلام وسائلَ عديدة، ولكن قلَّ منهم من يجرؤ على ملاقاة التضحيات وجها لوجه لكي يحظوا فيما بعد بالحياة الخالدة لهم وللإسلام. ولكنهم يبذلون كل جهد لتحقيق المصالح العاجلة وإن كانت مؤقتة زائلة. يا ليت قلوبهم انشرحت وتطهرت من الصدأ!

كيف خُدع آدم وما الفرق بين إبليس والشيطان؟

وجوابنا على ذلك بأن القرآن يفرق بين إبليس والشيطان، فحيثما ذكر الامتناع عن السجود لآدم نسبه إلى إبليس، وحينما ذكر محاولة إغواء آدم أسندها إلى الشيطان. وإليكم بعض الشواهد: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٣٥). ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ (البقرة: ٣٧). ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (الأعراف: ١٢). ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ (الأعراف: ٢١).

واختلاف الكلمتين في كل مرة لا يخلو من حكمة، والقرآن الحكيم يرعى الحكمة في كل كلمة من كلماته، فمن المستحيل أن يكون الاختلاف بين الكلمتين فيه دون حكمة، فلزم أن يكون الممتنع عن السجود غير الذي حاول الإغواء. ولذلك أطلق على الأول اسم: إبليس، وعلى الثاني اسم: الشيطان. أما الجواب الأجدر بالاعتبار، فهو أن القول بخلق الجان من النار لا يعني ولا يستلزم أن يكون إبليس أو الجن قد خلقوا فعلا من النار المادية، وإنما يدل هذا الأسلوب اللغوي العربي على أن إبليس كان مطبوعا على طبائع نارية من التمرد والعصيان.

يرى البعض أن انخداع آدم بكلام إبليس أمر غير معقول؛ فقد حذره الله تعالى منه صراحة، وقال له عز وجل: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ (طه: ١١٨)، بينما ذكر في القرآن في مكان آخر براءة آدم عليه السلام من هذا الظن فيقول: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ (طه: ١١٦).

ويمكن تفسير هذا التعارض الظاهري باعتبار الشيطان الذي خدع آدم غير إبليس الذي حذر الله تعالى آدم منه. إن آدم انخدع بالشيطان و لم يعرف أنه أيضا من أعوان إبليس وأظلاله، فلم يأخذ الحذر منه. فوقع في الخطأ. وهذا ما يؤكده القرآن، فإنه كلما ذكر الكائن الذي امتنع عن السجود سمّاه (إبليس)، وهو الذي حذر الله آدم منه، ولكنه كلما ذكر الذي وسوس لآدم وأخرجه من الجنة سماه (الشيطان). فالقرآن يقرر أن المخرج هو إبليس، والموسوس هو الشيطان.

فإبليس هو الكائن المخالف للملائكة والمحرض على الشر، والشيطان اسم عام يطلق على جميع القوى الشريرة. يمكن أن يطلق على إبليس نفسه، أو على غيره ممن يتبعه، أو ينوب عنه في إغواء الناس وتوجيههم إلى المنكرات، وإغرائهم على مقاومة رسالة الأنبياء. والشيطان على عكس إبليس يطلق أيضا على الأرواح الخبيثة كما يطلق على بني البشر؛ غير أن استعماله في المعنى الأول أكثر من استعماله في وصف الإنسان، كما جاء في وصف المنافقين حيث قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ (البقرة: ١٥). والمراد بالشياطين هنا أئمة الكفر؛ كقوله تعالى ﴿إِنَّمَا

ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُون إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٧٦)؛ وكقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (الأنعام: ١١٣). فهؤلاء كلهم أهل الشر الذين يتزعمون المعارضة والتحريض عليه.

هل خلق الله إبليس ليضل الناس؟

لقد تساءل البعض: هل خلق الله تعالى إبليس كي يضل الناس؟ هل يريد الله سبحانه أن يضلل عباده؟

الواقع أن الأمر على العكس من ذلك؛ فالله عز وجل زوّد الإنسان بالقدرة على الخير والشر، وخلق معه الملائكة وأظلالهم وإبليس وأظلاله أيضا. الفريق الأول يرغب القلوب في الخيرات، والفريق الثاني يغريها على الشرور، فالذي يلبي دعوة الملائكة وأظلالهم استحق الأجر، والذي ينقاد لتحريض إبليس وأوليائه يستحق العقاب. والكمال الإنساني يتطلب أن يكون الإنسان مخيرا بين هاتين الحركتين، لكي يحكم بنفسه ويختار الطريق الذي يقبله، فيستحق بذلك النعم العليا. ولولا تعرضه لمجال الشر لما أمكن أن يكون مستحقا لأعلى النعم وأمثالها.

أجل، لقد أوضح القرآن الكريم أيما إيضاح أنه ليس لإبليس ولا للشيطان أي تصرف في أمر أحد من الناس؛ فهم مخيرون بين اتباعه ومخالفة تحريضه، كما يقول تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (الحجر: ٤٣).

وقصارى القول: أن القرآن الكريم يدلنا على أن حركات إبليس لا تتأسس على دليل أو برهان، ولكنها تقوم على الوعد والوعيد بأُمور مزخرفة كاذبة، كما قال تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ (الإسراء: ٦٥). ولذلك فلا يمكن القول بأن الله قد عمل على أن يضل عباده بخلق إبليس، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. إنما كان يصح ذلك لو أنه عز وعلا قد أعطى

للشيطان سلطانا من عنده، لكن الأدلة كلها تؤيد الملائكة دون إبليس، فمن يتبع إبليس إنما يتبعه باختياره، وهو مسئول بنفسه عما يفعل.

إن الله عز وجل جعل في قوله ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ﴾ إبليس تابعًا للملائكة، الأمر الذي يدل على أن الخير غالب، والشر مغلوب، وعلى أن الملائكة هم المدبرون لنظام هذا الكون، وهم منابع الخير؛ وإبليس ما هو إلا الانحراف عن طريق الخير. وقد صرح القرآن الكريم مرارا بأن الإنسان مفطور على الخير، فقال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ٨-١١). ومعنى ذلك بلفظ آخر، أن الإنسان مفطور على الاستعداد لقبول توجيه الملائكة، وعندما يولد يكون بريئا من تدخل الشيطان، لكن بعدئذ يقتفي هو بنفسه آثار الشيطان فيهلك. وقد وضح ذلك الحديث النبوي: "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه." (البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين.)

الشجرة التي نهي آدم وزوجه أن يقربا ها:

وعن قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ٣٦)؛ قيل إن الشجرة هي القمح أو العنب، أو هي المرأة. وقيل هي شجرة التمييز بين الخير والشر. ومثل هذه المعاني مستبعدة عقلا، لأن الاقتراب من القمح أو العنب لا يجعل المرء ظالما، فكلاهما حلال. بل قال الله لهما: ﴿وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا﴾ (البقرة: ٣٦) أي كلوا حتى تشبعوا من طعام هذه المنطقة. أما المرأة فقد أمر الله تعالى آدم أن يسكن هناك مع امرأته. كما أنه ليس هناك شجرة لمعرفة الخير والشر، وإن كان هناك مثل هذه الشجرة فليس من الظلم أن يميز الإنسان بين الخير والشر، لأن التمييز بين الخير والشر يجعل الإنسان أشرف من الحيوانات الأخرى.

يتبين من القرآن الحكيم أن هذه الشجرة قد تسببت في انكشاف عورة آدم، وفي هذا دليل على أن الشجرة المذكورة ليست شجرة نباتية أرضية حقيقية، وإنما هي شجرة على سبيل المجاز. فإننا لم نر على البسيطة شجرة يؤدي الاقتراب منها أو أكل

ثمارها إلى كشف العورات، كما لا نجد لا في الشريعة الإسلامية ولا في غيرها من الشرائع السابقة شجرة يحرم أكلها شرعا. ويؤكد هذا المعنى أيضا قول القرآن بأن اقتراب آدم وزوجته وأصحابه من تلك الشجرة سيجعلهم من الظالمين، في حين كان من المفروض أن يقول القرآن بأنه سيجعلهم من الآثمين، لأن الظلم قد ورد في القرآن الكريم بمعنى الشرك بالله، أو بمعنى هضم حقوق الغير. وأيضا لو أنها كانت شجرة مادية ملموسة مرئية لكانت مقاربة آدم إياها عصيانا متعمدا، وليس عن خطأ أو نسيان، لكن القرآن الكريم ينص على أن آدم قد نسي و لم يتعمد ذلك، الأمر الذي يدل على أن تلك الشجرة لم تكن مادية، بل كانت شيئا معنويا.

فما هي تلك الشجرة إذن؟ لقد استعيرت كلمة الشجرة في القرآن الحكيم لمعان طيبة ولمعان مكروهة. يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ... وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ (إبراهيم: ٢٥- ٢٧). ومن ناحية هذا المعنى فإن الله تعالى أمر آدم أن يتجنب شجرة المنكرات. أما وقد شبه الله عز وجل نظام الحسنات التي وهبت لآدم بالجنة وكذلك وصف الأُمور المناقضة لهذا النظام بالشجرة التي نهى عن مقاربتها؛ فكأن الله تعالى يخبر آدم ومن معه بأنهم قد أُمروا بالإقامة في جنة الحسنات هذه، بالابتعاد عن الأمور المعاكسة لها لكيلا تضيع منهم تلك الجنة.

وعلى ضوء هذا المعنى يكون من السهل جدا تفهم خطأ آدم في أمر من دقائق الأمور، إذ كان من اليسير أن يخدعه أحد في هذا. فمع أنه من الممكن أن المراد بالشجرة الممنوعة كل تلك المنكرات التي نهى الله تعالى آدم عنها، إلا أن الابتعاد عن الشجرة، في ضوء موضوع هذه الآية، يعني خاصة أخذ الحيطة والحذر من إبليس وذريته، لأنه أقسم بإغواء آدم وذريته. ويؤكد ذلك في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ (طه: ١١٨).

ومما يؤيد هذا المعنى أيضا استعمالنا لكلمة "شجرة" بمعنى "شجرة النسب". فالامتناع عن الشجرة إذن إنما يعني أخذ الحيطة من إبليس وذريته، أي أصحابه

وأعوانه. فإطلاق تسمية "الشجرة" على إبليس استخدام لطيف للغاية، إذ شبّه بذلك إبليس وأعوانه بشجرة محرمة، مكتفيا بذكر جذعها الرئيسي، وهو إبليس، الذي يتفرع منه سائر الأعوان والذراري.

ولا يغيبن عن البال أن محادثة الله عز وجل مع آدم لم تكن كالمحادثات الإنسانية، بل كانت بصورة وحي سماوي مما يتلقاه الأنبياء، وما زال الوحي السماوي محلّى بألوان من الاستعارات والمجازات والتمثيلات العديدة. أمر الله تعالى آدم بأن يقيم فى مكان هو كالجنة راحة ونعمة، ووهب له شريعة تحول هذه الدنيا إلى الجنة، وأنعم عليه بزوج وأصحاب كانوا منقادين له مطيعين، محولين هذه الحياة إلى جنة آمنة، فنظرا لكل هذه النعم الجليلة، أمر الله عز وجل آدم وأصحابه معه بالإقامة في تلك الجنة؛ بينما نهاه عن صفات معاكسة للجنة باستخدام كلمة الشجرة. فاستعمال كلمة "الشجرة" جاء لأجل مناسبتها لكلمة "الجنة". وقد أُشير بذلك إلى الأمور التالية:

أن أصل التعاليم التي تلقاها آدم من ربه هو الحِلّ، أما التحريم فهو لأجل الضرورة.

أن جماعة آدم ستكون هي الغالبة والأكثر عددا، وأن أعداءه سوف يتحولون إلى أقلية، بحيث تكون النسبة بين آدم وجماعته من ناحية، وأعدائه من ناحية أخرى كالنسبة بين جنة كثيرة الأشجار وشجرة مفردة محدودة النطاق.

زلة آدم وإخراجه:

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (البقرة: ٣٧).

والمعنى أن الشيطان أزل قدم آدم عن طريق الشجرة بدون عزم من آدم عليه السلام فكل ما حصل كان بالخداع والمكر من جانب الشيطان.

اذهبوا، فقد وقع العداء بينكم، ولا تحسبُنَّ أن هذا العداء سوف ينتهي هنا، بل سوف يستمر بينكم في المستقبل أيضا، ولسوف يسعى الشيطان لشن هجوم كهذا عند مبعث كل نبي من الله.

وسوف تمكثون في هذه الأرض وتنتفعون من أسباب العيش فيها. فعليكم بالحذر لأنه ليس أمامكم مفر إلا أن تعيشوا مع ذراري الشيطان. ثم إن هذه الحياة ذريعة مؤقتة بغرض التزود للحياة الآخرة، فلا تتغافلوا وتتشاغلوا عن هذا الهدف وتنهمكوا في جمع متاع هذه الحياة الدنيا. وتفيد هذه الآية الكريمة عدة أمور جديرة بالانتباه:

الأمر الأول: أن من مقتضى المجتمع البشري أن يجتمع فيه المؤمن والكافر في مكان واحد ويقيما به معا، وأن العداء بين الخير والشر قائم لا ينفك، فلذلك كان على المؤمنين الصالحين أن لا يألوا جهدا في دفع الشيطان وشروره عن أنفسهم وعن أولادهم، وهذا الأمر بالأهمية بمكان.

فإن الغفلة عنه تؤدي إلى انقضاء عهد الحسنات، وكلما ظن المؤمنون أنهم بمأمن من هجمات الشيطان سادهم دور التدهور والانهيار، وأخذ الشيطان يغلبهم شيئا فشيئا، ألا يا ليت كان هناك قوم يرعون هذا الأمر حق رعايته، فيحطمون رأس الشيطان. كما أن من عادة أهل الصلاح أنهم يُفرطون في حب أولادهم ويثقون بهم أكثر من اللازم، مما يوقع بالأولاد في شراك الشيطان بعد أن كانوا صالحين.

الأمر الثاني: أن الله تعالى قد قضى بأن آدم وذريته سيسكنون هذه الأرض، ولن يغادروها فرارا من هجمات الشيطان، بل عليهم أن يعيشوا فيها معا، يواجه كل منهم الآخر. ولكن للأسف، يزعم بعض المسلمين أن ذرية الشيطان لما هجموا على عيسى بن مريم "عليهما السلام" رفعه الله تعالى إلى السماء، وأبعده عن نطاق الأرض ليحفظه من كيد أعدائه. إن هذا الاعتقاد يناقض هذه الآية مناقضة صريحة، لأن الله تعالى يقول: إن على آدم وذريته أن يعيشوا في هذه الأرض، فهي مستقرهم، أي مكان إقامتهم الدائم الثابت، فكيف يمكن أن يرفع المسيح الناصري إلى السماء؟ لو كان أحد أحق بالرفع إلى السماء عند التعرض لهجمات الأعداء لكان آدم أول

الأنبياء، أو محمد المصطفى ﷺ سيد ولد آدم. إن هؤلاء يعتقدون بأن آدم بعد أن تعرض لهجوم الشيطان طرح من السماء إلى الأرض، ويوقنون بأن محمدا ﷺ اضطر للهجرة من مكة إلى المدينة، ولم يرفعه الله تعالى إلى السماء مع أنه الأحق بذلك والأولى!

الأمر الثالث: أن انخداع آدم بقول الشيطان راجع إلى ظن آدم بأنه مأمور بالابتعاد عن مظهر معين للشيطان، لكن الله تعالى كان يريد أن يبتعد آدم من الشيطان وأتباعه جميعا، ذلك لأن الشيطان إنما هو روح معنوية مثيرة للسيئات، وما كان من الممكن أن يُخدع آدم بصورة جسمانية وبطريق مباشر ولكن أتباعه هم الذين يهيجون حركات الشر، وهم من بني الإنسان، ولذلك تتعذر معرفتهم، لأنهم أحيانا يتظاهرون بالإيمان فيُعتبرون من المسلمين، وبذلك ينجحون في مكائدهم ويصعب تمييزهم؛ هل هم أتباع الشيطان أم هم من المؤمنين الناصحين حقا. إن مظهر الشيطان المذكور في الآية استعمل ذات المكيدة الشيطانية التي أشار إليها القرآن الكريم في قوله: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (الأعراف: ٢٢). ومثل هذا الخداع لا يخالف العقل، وقد يقع الإنسان فيه. وأمثال هؤلاء الشياطين المنافقين كانوا في عهد رسول الله ﷺ أيضا.

ورب متسائل يقول: لو سلمنا بأن الشيطان ظهر لآدم بمظهر مخالف لإبليس، وتظاهر له بالإيمان والإخلاص مما جعل آدم ينخدع به، فكيف يصح ذلك مع أن ما أمر به الشيطان كان معصية لله تعالى، وكيف يقدم آدم على مخالفة أمر الله؟

وجوابنا على ذلك أن الإنسان كما يخدع غيره بتغيير زيه ومظهره كذلك يخدعه بتصوير الحقائق على عكسها، وتقديمها بصورة مزيفة. ويخبرنا القرآن أيضا أن الشيطان اتبع مع آدم المكيدة نفسها؛ فعندما حرّضه على مقاربة الشجرة الممنوعة قال له: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ (الأعراف: ٢١). فكأن الشيطان يقول لسيدنا آدم: يجب أن تفكر في حكمة الامتناع عن الشجرة بدل من التمسك بظاهر نص الأمر الإلهي، إن الله يريد

لك أن تصبح ملكا وتنال خلودا بالامتناع عنها، ويمكن لك تحقيق هذا الغرض نفسه الآن باقترابك منها. فتمسَّك بروح الأمر ولا تتردد في الاقتراب من الشجرة فتحقق المشيئة الإلهية.

وبالنظر في الآيتين السابقتين معا نلاحظ في الأولى أن الشيطان تظاهر أمام آدم بالإيمان وتصديق ما أُمر به آدم من حيث الغرض من الابتعاد عن تلك الشجرة. وفي الآية الثانية ارتدى عباءة الناصح المجتهد وأوهم آدم بأن الظروف قد تغيرت، وأن بوسعه الآن تحقيق الغرض الإلهي نفسه بالاقتراب من الشجرة بدلا من تجنبها؛ فالأولى هو العمل بروح الأمر وليس بنص الكلمات، وما دام الهدف الأصلي متحققا فلا بأس من ذلك.

ويتبين من ذلك أن الخواص فضلا عن العوام يمكن أيضا أن ينخدعوا هكذا في بعض المسائل الدقيقة. ثم إن آدم كان أول الأنبياء، و لم يكن قبله مثل هذه الأحداث حتى تكون له عبرة منها. وربما شاء الله تعالى أن يقع آدم في هذا الخطأ ليكون عبرة لمن بعده. ففي أيامنا هذه ينخدع عامة المسلمين بمثل هذه الاجتهادات الخاطئة رغم وجود هذه العبر في الماضي.

إن قوله تعالى ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ (طه: ١١٦). يدل على أن آدم عليه السلام إنما وقع في خطأ اجتهادي من غير قصد. فإن الله تعالى يخبرنا في سورة الأعراف أن الشيطان قد جاء آدم متنكرًا في عباءة ناصح أمين، وكأن الشيطان ترك العداء الظاهري لآدم وانضم إلى جماعته، وحلف لهم مؤكدًا لهم صدقه وإخلاصه. شأنه شأن المنافقين الذين يخبرنا الله تعالى في القرآن الكريم أنهم يأتون محمدًا ﷺ ويحلفون لـــه قائلين: إنك لرسول الله، والله يعلم إنك لرسوله، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون في أحلافهم؛ فاحْذَرْهم دائمًا. وهذا ما فعل رأس المنافقين في زمن آدم، فجاءه مؤكدًا له إخلاصه وولاءه؛ ففكر آدم أن هذا الشخص كان ذا نزعة إبليسية من قبل، ولكنه قد ترك الآن العداء، فلا حرج في الاتصال به. فكانت نتيجة خطئه الاجتهادي هذا أنه اضطُر للخروج من حالة الأمن والسلام التي كان فيها.

هبوط آدم:

وينخدع بعض الناس بقوله (اهبطوا)، فيقولون إن معناها أن الله تعالى أسقط آدم من السماء على الأرض، ولكن من معاني الهبوط الانتقال من مكان إلى آخر، كما ورد في قوله تعالى حكاية عن بني إسرائيل ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ (البقرة: ٦٢). أي ارتحلوا من هنا إلى بلد آخر.

عندما خدع الشيطان سيدنا آدم وأطلعه الله على زلته دعا الله تعالى مبتهلا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف: ٢٤). ويبدو أن هذا هو الدعاء الذي تلقنه من ربه.

تدل هذه الآية على حقيقة لطيفة، ذلك أن الله تعالى يتفضل على الإنسان فيعلمه الأدعية التي تستدر الرحمة الإلهية. وكثير من الناس يصطنعون أدعية من عند أنفسهم، وقد تتسم بالنقص والانحراف، مما يجعلها تتحول إلى دعاء عليهم. ولا نعني بذلك أن يمتنع الإنسان مطلقا عن الدعاء بكلماته، بل المراد به أن يسعى الإنسان كما سعى آدم عليه السلام للاتصال بالله اتصالا وثيقا لكي يتلقى من الله تعالى الدعاء عندما يتعرض لمشكلة أو مصيبة، ولكي يرث فضل الله تعالى بذلك الدعاء.

﴿قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٣٩).

في قوله تعالى (اهبطوا) بصيغة الجمع دلالة على أن آدم وزوجه لم يكونا وحدهما في الجنة، بل كان معهما أتباع آدم عليه السلام أيضا.

ولقد وعد الله عز وجل بهذه الآية أنه لن يزال يظهر من ذرية آدم دعاة يحملون إلى الناس الهدي الإلهي، ويدعوهم إلى الأعمال الصالحة، وأن من يستجيب لهم ويهتدي سيدخل الجنة في هذه الدنيا أيضا، أي أن قلوبهم ستكون عامرة بالقوة الإيمانية التي تورثهم الطمأنينة في كل حال، فلن يداخل قلوبهم الخوف من المصائب المقبلة، ولا الحزن على ما قد أصابهم من قبل، بل تكون قلوبهم المطمئنة بمثابة الجنة

لهم. ثم إن جنة الآخرة بعد الموت ميراث لهم يجدون فيها من نعيم الله تعالى ما لا يُحصى.

وتدلنا الآية أيضا على أن الوحي الإلهي لم ينقطع بعد آدم، لأن الله تعالى وعد منذ ذلك العهد بأن وحيه لن ينقطع نزوله، وأن المؤمنين به سوف يحظون بفضل الله دون انقطاع.

والذين يتنكبون عن طريق الهدى ولا يؤمنون بالآيات التي جعلها الله تعالى لمعرفته سيقعون في النار، ولن يجدوا طمأنينة القلب وسكينة النفس رغم كثرة النعم التي تحيط بهم، كما ينالون العقاب بعد الموت...

معنى ورق الجنة:

المهم أن الله تعالى لما قال لآدم إن الشيطان عدو لك جاء آدمَ متنكرًا وقال له هل أدلك على شجرة إذا أكلت من ثمرها نلت الحياة الأبدية، وهل أخبرك بمُلك لا يباد أبدًا؟ فاغتر آدم بكلامه المعسول، فأكل هو وجماعته، أو هو وزوجته، من ثمر تلك الشجرة التي قد نهاه الله عن الاقتراب منها، بمعنى أنهم أتوا العمل الذي قد نُهوا عنه. وبما أن ما ارتكبه آدم كان خلافًا لمشيئة الله تعالى فأخذت عواقبه السيئة تظهر على الفور، فأدرك آدم أنه قد ارتكب خطأ فادحًا بمخالفته أمر الله تعالى. حيث يقول الله تعالى ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ (طه: ١٢٢) أي بأكلهما من تلك الشجرة انكشفت عليهما عيوبهما، وظهرت عليهما النتائج السيئة لِفعلتهما، وعلِما أنهما قد وقعا في أمر معيب. فلما أحس آدم بخطئه أخذا يغطيان نفسهما بأوراق الجنة.

ثم يقول الله تعالى إن آدم خالف أمر الله تعالى فوقع في الشقاء. ثم أكرمه الله تعالى حيث إن آدم لما أخذ بتغطية نفسه بورق الجنة هداه الله تعالى إلى طريق يؤدي به وبجماعته إلى الفلاح...

ومن معاني الورق في العربية الزينة، والنسل أيضًا حيث ورد في القواميس: الورقُ جمالُ الدنيا وبهجتُها. ويقال أنت طيّب الورقِ أي طيّب النسلِ (الأقرب). وعليه

فقوله تعالى ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ (طه: ١٢٢) يعني أوّلاً، أن آدم وزوجته أخذا يستران نفسهما بزينة الجنة وجمالها. والبديهي أن زينة الجنة وجمالها سكّانها المؤمنون الطاهرون. وثانيًا: أن آدم أخذ يزيل تأثير خدعة الشيطان من خلال ذريته الطيبة، حتى نجح في ذلك.

لقد ورد هذا الحدث في التوراة كالآتي:

"وَكَانَت الْحَيَّةُ أَحْيَلَ جَمِيعِ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي عَمِلَهَا الرَّبُّ الإلهُ، فَقَالَتْ لِلْمَرْأَةِ: أَحَقًّا قَالَ اللهُ لاَ تَأْكُلاَ مِنْ كُلِّ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟ فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِلْحَيَّةِ: "مِنْ ثَمَرِ شَجَرِ الْجَنَّةِ نَأْكُلُ، وَأَمَّا ثَمَرُ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ فَقَالَ اللهُ: لاَ تَأْكُلاَ مِنْهُ وَلاَ تَمَسَّاهُ لِئَلاَّ تَمُوتَا. فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: لَنْ تَمُوتَا! بَلِ اللهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلاَنِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ. فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلأَكْلِ، وَأَنَّهَا بَهِجَةٌ لِلْعُيُونِ، وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ. فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ، وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا أَيْضًا مَعَهَا فَأَكَلَ. فَانْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُمَا وَعَلِمَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَانِ. فَخَاطَا أَوْرَاقَ تِينٍ وَصَنَعَا لأَنْفُسِهِمَا مَآزِرَ" (سِفْرُ التَّكْوِينِ ٣ : ١-٧)".

لقد استعملت التوراة هنا ورق التين بدلاً من ورق الجنة. فلنرَ الآن هل ورق التين وورق الجنة شيئان أم شيء واحد؟ ونرجع بهذا الصدد إلى علم تعبير الرؤيا حيث ورد: "التِّين في المنام يفسَّر بالصلحاء وأخيار الناس" (تعطير الأنام في تعبير المنام). وهذا هو معنى ورق الجنة أيضًا. فثبت أنه ليس ثمة اختلاف بين القرآن والتوراة بهذا الشأن، فإنهما متفقان على أن الشيطان لما خدع آدم شعر آدم بخطئه، فضم إليه جماعة المؤمنين وأفشل مكائد الشيطان. كان بنية الشيطان أن يهزم آدم بمكيدته، ولكن كيده أدى إلى صحوة جديدة في آدم بدلاً من أن يضره أو يفسده، فأخذ معه جماعة المؤمنين الطيبين وقضى على الفتنة التي أثارها الشيطان. أي أنه تعالى اختاره ونظر إليه نظرة رحمة، وهداه إلى التدبير السليم، فخيّب به آدم خطط الشيطان كلها.

الموعظة والدروس من قصة آدم عليه السلام:

يجب أن تكون قصة آدم عليه السلام موعظة وذكرى لكل واحد من بني آدم، لأن كل إنسان يولد فهو كآدم، ويؤمر الملائكة بمساعدته، لأهم خلقوا كواسطة لتدبير نظام هذا الكون، فتكون كل الأشياء الخاضعة لتدبير الملائكة معاونة للإنسان، وتنفعه في الاستمتاع بحياته. بَيْد أن بعض الأشرار لا يرتاحون لارتياح إخوانهم، فهم كالشيطان يحاولون إخراجهم من تلك الجنة الروحانية التي أورثها كل إنسان منذ ولادته، ويسعون إلى إيذائهم. لكن الذي يخضع لربه كما خضع آدم، ويلجأ إليه عند المصائب ينال النجاح، ويعلو عن متناول الخوف والحزن، أما الذين لا يقتفون آثار آدم. وتزل أقدامهم في الابتلاءات، ويصالحون الشيطان ويعرضون عن هدي رهم، فإهم يصيرون عرضة للآلام فيهلكون.

تطلع الشمس في كل يوم لترى تكرار هذا الحادث في الدنيا، ولكن الإنسان الذي بنفسه واقع في أنواع المعاصي الخطيرة يلوم آدم لماذا اتبع الشيطان؟ مع أن آدم أخطأ و لم يكن له عزم على الخطأ. ومثل هؤلاء المعترضين الذين لا يتورعون عن الاعتراض على آدم لا يدركون أن الشيطان قابع في قلوهم هم.

وتخبرنا الآيات السابقة:

١- أن الوحي الإلهي موجب لشرف الإنسان وفضيلته على سائر الحيوانات. فالأمم التي لا تقدِّر الوحي الإلهي حق قدره فإها مجرمة بتفضيل الحيوانية على الإنسانية، وإها لتعرقل طريق النهضة الحضارية اليوم وتحول دوها في المستقبل أيضا، وأنه لن يدفع عجلة التقدم الحضاري إلا أولئك الذين يلبّون الدعوة السماوية، وإن الذين استجابوا لدعوة محمد ﷺ في هذا العصر هم الذين سيؤسسون أحدث مدنية مجدية. وكذلك تحقق؛ إذ إن أتباع هذه الحركة الروحانية الكبرى أصبحوا طبق سنة الله المستمرة مؤسسين لَمدَنية جديدة عظيمة. إن الحضارة الغربية العصرية، وإن بدت رائعة جدا، إلا أها مقتطفةٌ إلى حد كبير من المدنية الإسلامية، وإن النواحي التي

تختلف فيها مدنية الغرب عن المدنية الإسلامية هي التي سببت الإخلال بالأمن والسلام العالمي.

٢- أنه كلما ظهرت للناس حركة إصلاحية جديدة عارضوها، لأنها تكون في بداية الأمر من العظمة والروعة بحيث يقصر عن إدراك أعماقها وقوة تأثيراتها حتى الصالحون من عباد الله. فكان من اللازم أن يحدث ذلك عند ظهور الإسلام أيضا، وكذلك حدث.

٣- أما الصالحون فلا يلبثون بعدئذ أن يعترفوا بأخطائهم، ويذعنون لعظمتها، ويندفعون إلى تأييدها. أما الأشرار فإنهم يبدأون في مقاومتها، وكذلك جرى للإسلام وسيجري أيضا. وقد رأينا أن صالحي الفطرة من الناس تتابعوا في الدخول في الإسلام أفرادا، وقاموا لمناصرته، غير أن المطبوعين على طبائع إبليس تمسكوا بالتمرد والعصيان.

٤- عندما تخيب المقاومة الجاهرة ضد الجماعات الإلهية، يلجأ الأعداء إلى الدسائس السرية بالدخول فيها نفاقا كما تظاهر الشيطان بالنصيحة لآدم. وكما خاب شيطانُ آدمَ وخسر سيخيب كذلك أعداء الإسلام ويُحبط الله مكائدهم ولن يمسوه بسوء، ولسوف يتقدم الإسلام ويزدهر بالرغم من عداوتهم ومقاومتهم، وسيتجرعون الغصص من عذاب الغيظ الدائم.

٥- إن الهداية السماوية ليست مقصورة على زمن دون زمن، بل إن الله لن يزال يرسل الهداية طبق مقتضى كل عصر. فلو كانت سنة إرسال الهداية محدودة لانسدت أبوابها بمجرد ظهور النبي الأول كما يزعم الهندوس مثلا. فانقطاع الهداية السماوية يخالف مقتضيات العقل ويناقض متطلبات الوحي السماوي أيضا.

٦- إن الذين يؤمنون بالهداية السماوية يحفظهم الله من سيئات أعمالهم السابقة كما حفظ آدم عليه السلام. وبسبب الإيمان بهذا الوعد يصير المؤمن جريئا شجاعا مقداما، لا يخاف العواقب عند الفداء بكل ما يملك، لأنه يوقن بأن الوحي السماوي هو العروة الوثقى التي إذا استمسك بها نجا من جميع الهموم والآلام. فله إحدى

الحسنين: إما القيادة والصدارة إذا كتبت له الحياة، أو الشهادة المريحة في أحضان حب الله تعالى. فمم يخاف؟

ثم يضرب الله لنا مثال آدم، ويقول إنكم من نسله. إنه لم يكن أصغر منكم بل كان أكبر منكم. كان أباكم ومأمورًا من الله تعالى، وكان متحمسًا لطاعته. ولما أنزلنا عليه الأحكام بحسب مقتضى عصره فإنه مع رغبته القلبية في طاعتنا نسي بعضًا منها، أي حصل منه سهو بشأنها. فلِمَ تطلبون منا أوامر يقينية في كل قضية، وأنتم أبناؤه وأدنى منه شأنًا؟ عليكم أن تسعوا للعمل بما أنزلنا من الأحكام، وأما ما لم نترل بشأنه حكمًا معينًا فعليكم بالتدبر والاجتهاد مستعينين بالله تعالى دائمًا بأن يزيدكم علمًا حقًّا نافعًا ينفعكم، لكي نستضيء به ونظل سائرين على الصراط المستقيم.

قصة إدريس عليه السلام

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ (مريم: ٥٧)

إن أكثر المفسرين متفقون على أن إدريس هو أخنوخ الذي هو وَلَدُ سبطِ آدم، وهو جدُّ نوح عليهم السلام أجمعين (فتح البيان، الدر المنثور)؛ واسمه بالإنجليزية Enoch.

ويقول بعضهم إن إدريس هو إلياس. وقد كان السبب الأول الذي حدا بهم إلى اتخاذ هذا الرأي اعتقاد البعض أن إلياس قد رُفع إلى السماء أيضًا. أما السبب الثاني هو أنه كانت هناك نبوءة عن نـــزول إيليا من السماء ثانية قبل ظهور المسيح، فهذا التشابه بين المسيح وإلياس جعلهم يظنون أن إدريس هو إلياس. ولكن أصحاب هذا الرأي قلة. ومما يدل على خطأ هذا الرأي أيضًا أن القرآن قد ذكر إلياس في مواضع أخرى، ومن غير المعقول أن يذكر القرآن إلياس هنا باسم آخر. لو كان النطق بلفظ إلياس صعبًا على العرب لقلنا إن أصحاب هذا الرأي على الحق، ولكن ما دام القرآن الكريم قد استعمل اسم إلياس في مواضع أخرى فمن الخطأ تمامًا اعتبار إدريس هو إلياس، إذ لا دليل على صحة هذا الرأي.

كما أن هناك تشابهًا بينَ أخنوخ وإدريس من حيث المعنى. فأخنوخ يعني في العبرية Dedication أي وقفُ الشيء، أو Instruction أي التعليم والتدريس (الموسوعة التوراتية، مجلد٢: Enoch). أما إدريس فيعني كثير الدراسة والتدريس، إذ هو مشتق من درس. وكأن إدريس يتضمن أيضًا معنى Dedication و Instruction كليهما، لأن المرء إذا عكف على عمل صار ماهرًا فيه، ونذر نفسه لـــه. فترى أن "إدريس" يعني في العربية ما يعني "أخنوخ" في العبرية.

يقول صاحب أقرب الموارد عن إدريس إنه "عَلَمٌ أعجميٌّ". ذلك أن العَلم إذا كان غير منصرف كان أعجميًّا. فلولا أنه عَلَمٌ غير منصرف لكان عربيًّا.

أما ابن السكيت فيرى أنه غير منصرف ولكنه عَلم عربي. وقد تمسك برأيه هذا بشدة وهو يدّعي أن لإدريس معنى في العربية. فهو مشتقّ من الدرس مثل إبليس الذي اشتُقّ من الإبلاس، ويعقوب من العقب، وإسرائيل من الإسرال.

وأقول: إن هناك أسماء أخرى أيضًا -لم يذكرها ابن السكيت- قد اشتُقت من الكلمات العربية مثل إضحاك من الضحك وإسماعيل من السمع.

غير أن رأي ابن السكيت هذا مرفوض عند اللغويين الآخرين، وحجتهم في ذلك أنه لو كان لفظ "إدريس" لفظًا عربيًّا لما كان غير منصرف، فمنعُ صرفه دليل على عجمته، لأن العَلم العربي يكون منصرفًا.

ويرى الأصمعي والقرطبي وصاحب الكشاف أنه يجوز أن يكون معنى "إدريس" في تلك اللغة الأجنبية قريبًا من ذلك، فحسبه ابن السكيت من الدرس خطأً، وظنّه عربيًّا. (تفسير القرطبي)

ولكنني أرى أن كلا الفريقين على الخطأ. لقد أخطأ ابن السكيت حين اعتبر "إدريس" عربيًّا، إذ لو كان عربيًّا لما كان غير منصرف بحسب قواعد اللغة. أما العلماء الآخرون الذين قالوا إن إدريس لفظ أعجميّ ولذلك صار غير منصرف، فهم أيضًا لم يدركوا الحقيقة المبتغاة. ذلك لأن هؤلاء أيضًا يعترفون أن اسمه أخنوخ. إذًا فإدريس ترجمة لـــ "أخنوخ". وما دام هذا الاسم اسمًا مترجَمًا فإنه لم يعد عَلَمًا، وبالتالي لم يعد غير منصرف، لأن الاسم يُمنع من الصرف إذا كان عَلمًا أعجميًّا. إذا كان إدريس ترجمة للفظ "أخنوخ" فقد زالت عنه العَلَمية، ولو كان إدريس عَلمًا فليس هو اسمًا للنبي أَخنوخ، بل هو اسم نبي آخر. أما إذا كان إدريس اسمًا لأخنوخ نفسه فثبت أنه ترجمة لأخنوخ، وبالتالي فإنه يفقد العَلَمية. إذًا فالذين قالوا أن إدريس غير منصرف قد وقعوا في الخطأ يقينًا، إذ ليس هناك سبب ظاهر لاعتباره غير منصرف...

وقصارى القول إنه من الحقائق الثابتة أن إدريس كان اسمًا متداولاً بين العرب قبل الإسلام، وأن هناك تشابهًا بين إدريس وأخنوخ من حيث المفهوم. والسؤال الذي يفرض نفسه هو: لماذا أطلقوا على أخنوخ اسم إدريس؟

قد يرجع ذلك إلى أن بعض الناس يكون لهم اسمان. وقد رأينا عديدًا من الناس الذين دعاهم البعض بغير اسمهم المعروف، ثم تبين عند السؤال أن لهم اسمين. فمن التفسيرات المحتملة أن أخنوخ كان يدعى إدريس أيضًا. ولكن المشكلة أن لا أثر لاسم إدريس في كتب اليهود. نعم، نجد اسم "إدراس" (Esdras) في العهد القديم المعروف بـ "The Apocrypha"، والذي هو شِبْهُ المسلَّم به عند اليهود (The Apocrypha, The American Translation p. xi) ، ولكن الأحداث التي ذكرها القرآن الكريم عن إدريس عليه السلام لا تنطبق على إدراس (Edras)، إنما تنطبق على أخنوخ. فلا يمكننا أن نحلّ هذه المعضلة بقولنا أن إدريس اسم آخر لأخنوخ.

وهناك حل آخر لهذه المعضلة. ذلك أن الناس قد يترجمون اسم الشخص المنتمي لشعب آخر إلى لغتهم بغية التوضيح. وهذا ما حصل بأخنوخ. يبدو أن أحد اليهود قد ذكر اسم أخنوخ عند صديقه العربي، فقال لـه العربي في حيرة: وما هو أخنوخ؟ وكان اليهودي شخصًا ذكيًّا وملمًّا بالعربية -حيث كان اليهود مقيمين حتى في المدينة أيضًا- ففسر لصاحبه معنى أخنوخ، وقال: يمكنك أن تعتبر أن أخنوخ يعني إدريس؛ وبأن العربي الذي سمع هذا الاسم ظن أنه اسم عَلم وأعجمي أيضًا، لأن الذي يذكره أمامه شخص من العجم. لذلك أرى أن هذا هو السبب وراء اعتبار اسم إدريس ممنوعًا من الصرف. شأنه شأن لفظ "وليام William بالإنجليزية الذي يعني صاحب العزم، لأنه في الواقع مركب من كلمتين هما Will ومعناها الإرادة والعزيمة وHelm، ومعناه الخُوذ الحديدي؛ فيكون معنى William بالعربية صاحب العزم الحديدي، أو الذي هو من أولي العزم. فإذا تحدثنا مثلاً عن شخص من

الأشخاص أمام بعض الإنجليز وقلنا لـــه إن ذلك من ذوي العزم، فسَأَلَنا ما هو "ذو العزم"، قلنا لـــه إنه "وليام" بلغتك، وكأننا نترجم للغته اسمَ ذلك الشخص.

فالأمر الواقع عندي أن لفظ حنوك قد تُرجم للعرب بلفظ إدريس، فظنوا أنه عَلَمٌ، ولما كان المترجم من غير العرب ظنوا أن إدريس عَلَم أعجمي. والحقيقة أن العربية والعبرية لغة واحدة، إلا أن العرب واليهود قد نسوا هذه الحقيقة بمرور الأيام، فظن العرب أن العبرية لغة مختلفة تمامًا عن العربية، كما ظن اليهود أن العربية لغة أجنبية، في حين أن العربية هي اللغة الأم، أما العبرية فكانت لغة بعض القبائل العربية. ولا قيمة للاختلاف الموجود بين اللغتين، إذ نرى أنه حتى اللغة الواحدة تختلف من منطقة إلى أخرى لهجةً ونطقًا...

لقد ذُكر اسم حنوك أي إدريس في التوراة في أماكن عديدة حيث جاء في سفر التكوين أن قايين -وهو الذي يسمى في العربية قابيل، وقام بقتل أخيه هابيل- كان له ابن اسمه حنوك. ووُلد لحنوك عيراد، وعيرادُ ولَد مَحُويائيل، ومحويائيلُ ولَد مَتُوشائيل، ومتوشائيلُ ولَد لامَكَ، وولَد لامكُ يابالَ ويُوبالَ مِن زوجة، وتوبالَ قايين من زوجة أخرى (انظر سِفر التكوين ٤: ١٧-٢١).

لقد تبين من هذه الفقرات أن اسم حنوك (أو أخنوخ) كان قد لقي القبول والرواج منذ بداية الإنسانية، حيث وُجد شخصان بهذا الاسم في بضعة أجيال من ذرية آدم عليه السلام؛ أحدُهما حنوك بن قابيل، والثاني حفيد شيث في جيله الخامس، والذي يسمى إدريس أيضًا، وكان هذا جدًّا لنوح عليه السلام.

وبحسب الروايات الإسلامية عن نسب آدم كان النبي الأول هو آدمُ الأبُ، والنبي الثاني هو شيثٌ بن آدم، والنبي الثالث هو حنوك الذي كان حفيدًا لآدم في جيله الخامس، والنبي الرابع هو نوح حفيد حنوك.

أحوال حنوك: لقد ورد في التوراة أن أخنوخ عاش ثلاثمائة وخمسًا وستين سنة. وبعد ولادة ابنه الأول متوشالح، أي في سن الخامس والستين صار أخنوخ مقربًا لدى الله تعالى، وظل في هذا المقام ثلاث مئة عام. ونص العبارة هي: "وَسَارَ أَخْنُوخُ مَعَ

الله بَعْدَ مَا وَلَدَ مَتُوشَالَحَ ثَلاَثَ مِئَةِ سَنَةٍ.. وسَارَ أَخْنُوخُ مَعَ اللهِ، وَلَمْ يُوجَدْ لأَنَّ اللهَ أَخَذَهُ" (التكوين ٥: ٢٢-٢٤).

والمفهوم الجلي لهذه العبارة أن حنوك، أو إدريس، عاش في معية الله، وظل متمتعًا بمعية الله وقربه حتى الموت. ولكن الويل للذين يشددون على التمسك بحرفية الكلام، حيث يرى بعض المعجبين بالخرافات، يهودًا ومسلمين، أن جملة "و لم يوجد لأن الله أخَذه" تعني أنه تعالى قد رفعه إلى السماء. وهكذا صار إدريس، بحسب هؤلاء المسلمين، ضمنَ قائمة المرفوعين إلى السماء التي تضم المسيح الناصري أيضًا.

إذًا فقضية صعوده إلى السماء في سن الثلاث مائة وخمس وستين عامًا لا تثبت من هذه العبارة بشكل من الأشكال.

خلاصة القول إنهم قد فسروا فقرات الكتاب المقدس تفسيرًا غير طبيعي ومنافيًا للسنة الإلهية، فعزوا إلى الله تعالى وإلى الكتاب المقدس المهازل التي لا يقبلها العقل بتاتًا. مع أن المعنى كان بسيطًا واضحًا بأن حنوك ظل مقربًا لدى الله تعالى في حياته وسيكون بعد مماته أيضًا من المقربين.

فثبت أن السير مع الله تعالى لا يعني أبدًا أن الله تعالى مقيم في مكان معين حيث يسير الإنسان معه، كما أن أَخْذَ الله لأحد لا يعني أنه نقله من مكان إلى آخر، وإنما المعنى أنه مات ميتة حسنة، وأنه سيكون بعد موته أيضًا من المقربين لدى الله تعالى.

لقد ذُكر حنوك أو إدريس في العهد الجديد أيضًا، ولكن المسيحيين قد كتبوه فيه حنوق بدل حنوك تظاهرًا بعلمهم. ولكنه غلط، حيث بينتُ من قبل أن أصله، وهو "حنك"، موجود في العربية. ورد في العهد الجديد: بالإِيمَانِ نُقِلَ أَخْنُوخُ لِكَيْ لاَ يَرَى الْمَوْتَ، وَلَمْ يُوجَدْ لأَنَّ اللهَ نَقَلَهُ" (رسالة بولس إلى العبرانيين ١١: ٥).

هذه العبارة توضح جليًّا أن بولس كان متأثرًا بالعقيدة العامة لليهود أن حنوك نجا من الموت لصلاحه، فرُفع إلى السماء. ذلك بالرغم أن هذه العقيدة تتعارض مع المسيحية؛ حيث إن المسيحية إنما ترى أن الموت مآل الإثم، وأن الإثم شيء موروث، وأن جميع بني آدم آثمون، وأن المسيح قد خلّصهم من الإثم الموروث بتقديم الفداء.

ولكن بولس لم يفكر هنا أن حنوك نال النجاة بدون المسيح وصار صالحًا، في حين أن المسيحيين، بل الحواريين أيضًا، لم يقدروا على النجاة من الموت رغم إيمانهم بالفداء والكفارة، وبتعبير آخر لم يستطيعوا أن يكونوا صالحين. فما دام المسيحيون لم يستطيعوا أن ينجوا من الموت رغم إيمانهم بالكفارة.. أي لم يتطهروا من الإثم، بينما نجا حنوك من الموت بدون الإيمان بالمسيح وصار صالحًا؛ فقد ثبت بذلك بكل جلاء أن نظرية الكفارة باطلة تمامًا...

ذكر حنوك في الروايات اليهودية والمسيحية:

إن بعض المصادر اليهودية تقول أن حنوك انحرف عن طريق الصلاح في آخر عمره، فرفعه الله إلى السماء لكيلا يصير فاسقًا فتكون عاقبته وخيمة. كما قيل أيضًا أنه لم يُصعَد إلى السماء، بل مات بالطاعون.

وقد ورد في كتب اليهود أيضًا أن حنوك اخترع علم الكتابة والفلَك والحساب (الموسوعة اليهودية مجلد ٥ نقلا عن سفر يوهاسين Sefer Yuhasin)

لقد وردت في كتب المسلمين أيضًا روايات بأن حنوك اخترع علم الكتابة والفَلك (قصص الأنبياء للنجار، ص٢٨)، ويبدو أنهم قد نقلوها عن اليهود.

كان اسم حنوك قد اندثر تقريبًا في التاريخ اليهودي البدائي، ولكنه صار يُذكَر في كتبهم ثانية بعد بضعة قرون حيث أخذوا فيما بعد ينشرون كتابًا باسم سِفر حنوك. وقد ورد في هذا السفر أن الله تعالى ترك الأرض بسبب ذنوب العباد، ورفَع حنوك إلى السماء، وجعله حافظًا على كنوز السماء، وسيدًا على الملائكة، ورئيسًا على حاشيته المقربين من حول العرش. فهو مطلع على الأسرار كلها، وأن الملائكة تسانده وتؤيده، وأنه وجهُ الله تعالى، وأنه يقوم بتنفيذ أوامر الله تعالى في الكون، ويعلّم المعارف الروحانية، ويأخذ الأرواح إلى مكان الراحة والسكينة، وأنه قد سُمّي أميرَ فمِ الله تعالى، وأميرَ التوراة، وأمير الحكمة، وأمير العقل، وأميرَ العظمة والجبروت. هو الذي نـــزل بالرسالة على موسى؛ وهذا يعني أنه مُنح المنصب الذي يتولاه جبرائيل.

وقد ورد في كتب بعض اليهود الآخرين أنه عندما نـــزل شرع موسى صار حنوك تابعًا لـــه، وإن كان من قبل ملتزمًا فقط بالشرع الذي أتى به نوح والذي كان يشتمل على سبع وصايا فقط. (الموسوعة اليهودية، مجلد٥: Enoch).

أما ما ورد عن حنوك في المصادر المسيحية فقد سبق أن سجلتُ فقرة من رسالة العبرانيين. وقد ذُكر حنوك في مصدرين آخرين مسيحيين أيضًا يُعَدّان من الصحف السماوية عند المسيحيين. يقال أهما قد أُلّفا قبل المسيح ﷺ، ولكن لا أثر لهما إلا عند المسيحيين. وأحد هذين المصدرين هو "صحيفة حنوك" عند الكنيسة الحبشية، أما المصدر الثاني فهو الآخر يُعد "صحيفة حنوك" عند كنيسة Slavonic الروسية. والصحيفة الحبشية ليست سوى مجموعة روايات ناقصة، أما الصحيفة الروسية فهي كتاب مفصل. ويتضح من هاتين الصحيفتين أن حنوك كان يسير في الأرض وفي السماء مع ملائكة الله. ثم عاد إلى أقاربه وأخبرهم بما رآه في السماء، ثم رُفع إلى السماء وهو حي ليستقر هناك. لقد قام حنوك في رحلته إلى السماء بما يلي: ١- اطلع على أسرار السماوات والأرض. ٢- وكُشف عليه النواميس الطبيعية كلها. ٣- رأى أبناء الله – أي ملائكة الله – الذين كانوا قد عوقبوا على ارتكابهم الفاحشة مع بنات البشر. ٤- وشفع لهؤلاء الملائكة الذين كانوا يعاقَبون (الموسوعة اليهودية، مجلد٥: Enoch).

ويرى البعض أن حنوك هو في الواقع اسم إله الشمس، ثم بعد مرور الوقت اعتُبر اسم شخص لأن عمره، كما يقال، كان ٣٦٥ عامًا مثل السنة الشمسية التي تتكون من ٣٦٥ يومًا. (المرجع السابق).

إنه من المستغرب أن هؤلاء الكتاب المسيحيين اعتبروا حنوك إله الشمس بسبب عمره الذي كان ٣٦٥ عامًا، ولكنهم لم يفكروا أن الكتاب المقدس نفسه يعلن أن أبناء حنوك وبناته وأحفاده وحفيداته قد بلغوا من العمر ثمانية أو تسعة وحتى عشرة قرون. فبدلاً من أن يعتبروا هذا الشخص الحقيقي وجودًا خياليًّا بسبب عمره البالغ

٣٦٥ سنة، لم لا يقولون إن هؤلاء أشخاص حقيقيون ولكن أعمارهم خيالية خرافية؟

أما المصادر الإسلامية فقد ذُكر فيها حنوك باسم إدريس، كما بيّنّا من قبل. والحق أن معنى إدريس وحنوك واحد، ولذلك فإن قول المفسرين أنهما شخص واحد قول صائب تمامًا على ما يبدو. كما أن الإشارة التي قام بها القرآن الكريم إلى أحوال إدريس عليه السلام أيضًا تشبه هذا القول.

ورد في الحديث أن النبي ﷺ وجد في معراجه إدريس عليه السلام في السماء الرابعة (ابن كثير). كما تذكر التفاسير، نقلاً عما ورد في الإسرائيليات، أن إدريس عليه السلام صعد إلى السماء الرابعة بواسطة ملاك كان صديقًا لــه، وأن عزرائيل توفاه هنالك في السماء. ولكن بعض المفسرين الآخرين يرون أنه لم يُتوف. فقال مجاهد إن إدريس لم يمت، بل رُفع إلى السماء كما رُفع عيسى. وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنه أن إدريس رُفع إلى السماء السادسة. وعن الحسن أنه أُخذ إلى الجنة. (المرجع السابق، وروح المعاني)

إن هذه الروايات كلها إسرائيليات، أعني ليس منها ما رُوي عن الرسول ﷺ، اللهم إلا الحديث الذي يذكر أنه ﷺ قد رأى في معراجه إدريس في السماء الرابعة. ففيما يتعلق بكتب الروايات الإسلامية فقد ذكر فيها المسلمون كثيرًا من الترهات الموجودة في الإسرائيليات، ولكن فيما يتعلق بالتراث الديني الإسلامي فإن ما ورد في الحديث إنما هو أن إدريس كان في السماء الرابعة. بينما اكتفى القرآن الكريم بقوله إن إدريس كان كثير الصدق ونبيًّا، وأن الله تعالى رفعه إلى مكان عليّ. والحق أن هذا هو كل ما يمكن أن يُعتبر حقًّا من أحوال حنوك، وهذا هو ما ينص عليه سفر التكوين أيضًا حيث ورد فيه أن إدريس كان يسير مع الله تعالى أي أنه كان صالحًا، وأن الله تعالى أخذه إلى مقام عال، أي أنه مات ميتة حسنة، وأن الله تعالى قد بوّأه بعد الموت درجة رفيعة.

وأما ما يروى عن إدريس عليه السلام أنه قد جيء لــه بحصان من السماء، فركبه وصعد إلى السماء، فيُذكر مثلُه تمامًا في الروايات الشائعة بين المسلمين حول المعراج. إذ قد شاع بين المسلمين أن النبي ﷺ قد جيء له بدابة من السماء اسمها البراق، فركبها وصعد في السماء (البخاري: بدء الخلق، باب ذكر الملائكة). والحق أن صعود النبي ﷺ هذا كان من قبيل الكشوف اللطيفة العالية. فالإنسان يمكن أن يصعد إلى السماوات بجسم نوراني، ويرى الله تعالى أيضًا. ولكن هذا الجسد المادي لا يصلح لهذه الأمور، فلا يذهب إلى السماوات العلا، ولا يتمكن من رؤية البارئ تعالى أيضًا. إن محبّي الخرافات يفسرون هذه الأمور الروحانية تفسيرًا ماديًّا، ويقولون أقوالاً سخيفة غير معقولة؛ مما يُضعف إيمان الناس، فيقعون في متاهات الاختلاف بين الدين والعلم. ليت هؤلاء أبقوا الحقيقة على حالها، و لم يجعلوا الدين لعبة ومهزلة!

سيرُ حنوك مع الله تعالى:

أما ما ورد عن حنوك أنه كان يسير مع الله تعالى فقد وردت كلمات مماثلة في حق إسماعيل عليه السلام أيضًا حيث قيل: "وكان الله مع الغلام" (التكوين ٢١: ٢٠). والحق أن هذه الكلمات أقوى معنى من السير مع الله تعالى. ذلك أنها تعني أن الله تعالى كان مع إسماعيل كل حين سواء كان سائرًا أو قائمًا أو قاعدًا أو نائمًا. وهذا هو التشابه الذي بسببه قد ذكر القرآن الكريم إسماعيل وإدريس معًا. لقد ذُكر إدريس في القرآن مرتين: مرة في سورة الأنبياء حيث قال الله تعالى ﴿وإسماعيلَ وإدريسَ وذا الكِفْل كلٌّ من الصابرين﴾ (الأنبياء: ٨٦)، ومرة أخرى في سورة مريم، حيث قال الله تعالى ﴿واذْكُرْ في الكتاب إسماعيلَ إنه كان صادقَ الوعد وكان رسولاً نبيًّا * وكان يأمر أهلَه بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مَرضيًّا * واذْكُرْ في الكتاب إدريسَ إنه كان صِدّيقًا نبيًّا * ورفَعْناه مكانًا عليًّا﴾ (مريم: ٥٥-٥٨).

فبما أنه قد وردت في صحف الله كلمات السير مع الله تعالى في حق هذين النبيين فإن القرآن الكريم أيضًا قد ذكرهما معًا في كل مرة.

وهنا يطرح سؤال نفسه وهو: إذا كان إسماعيل وإدريس يُذكران معًا لوجود هذا التشابه بينهما، فما الحكمة في لفت الأنظار إلى إدريس هنا في سياق الموضوع الذي هو قيد البحث. فإن الله تعالى يبين هنا أن زكريا دعا الله تعالى أن يرزقه بولد، فاستجاب لــه ربه ورزقــه يحيى، الذي كان لا بد من بعثته قبل مجيء المسيح كإرهاص لــه. ثم ذكر الله تعالى المسيح الذي هو المقصود الحقيقي هنا، حيث بين الله تعالى أن عقائد العالم المسيحي حول المسيح خاطئة وباطلة تمامًا، فلم يكن المسيح إلهًا ولا ابن الإله، بل كان حلقة من السلسلة الموسوية. ثم نبّه الله تعالى إلى أن السلسلة الموسوية بدأت نتيجة دعاء إبراهيم؛ فكان الله تعالى قد قطع لإبراهيم وعدين: وعدًا يخص إسماعيل ونسله، وآخر يخص إسحاق ونسله. ومن أجل ذلك قد تحدث الله تعالى بعد ذكر المسيح عن إبراهيم أوّلاً فإسحاق ويعقوب فموسى وهارون؛ ليبين ﷻ أنه قد أنجز وعده مع إبراهيم الخاص برقي بني إسحاق، وقد انتهى تحقيقه عند المسيح. ثم بعد ذلك ذكر الله إسماعيل تنبيهًا لأتباع المسيح إلى وعد الله الخاص بإسماعيل أيضًا، إذ كيف يمكن لله الذي قد أنجز وعده مع بني إسحاق لهذه الفترة الطويلة أن لا يحقق الوعود الخاصة بإسماعيل، الذي كان عظيم الصلاح وصادق الوعد، ومرضي الأعمال عند ربه ﷻ. فكأن الله تعالى يقول كيف لا نفي بوعدنا لمن كان وفيًّا معنا لهذه الدرجة، وكيف يمكن أن تبطل وعودنا في حقه؟ فذكّرهم الله بوعده الخاص بإسماعيل حيث قال ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾.

ومن الملاحظ هنا أن الله تعالى لم يذكر هنا رسولنا الكريم ﷺ، ذلك لأنه مشمول في هذا الوعد الخاص بإسماعيل عليه السلام.

ولكن السؤال الذي نناقشه الآن هو لماذا ذكر الله تعالى إدريس بعد ذكر إسماعيل في هذا السياق؟ فما الحكمة في ذلك؟

ليكن معلومًا أن الفكرة التي تؤسَّس عليها ألوهية المسيح عليه السلام إنما هي صعوده في السماء، وصعوده في السماء أمر يتفق فيه معظم المسلمين مع النصارى للأسف الشديد، فهم الآخرون يقولون أن المسيح حي، وجالس في السماء. إن النصارى لا

يستدلون على ألوهية المسيح بولادته من غير أب، بل بصعوده في السماء. فيوجد بينهم من يقولون، دون أن يروا في ذلك حرجًا، أن المسيح كان ابنًا ليوسف النجار، وحجتهم أن كون المسيح ابنًا لمريم إذا كان لا يتنافى مع ألوهيته، فكونُه ابنًا ليوسف النجار لا يقدح في ألوهيته شيئًا أيضًا. فثبت أن النصارى لا يؤسسون ألوهية المسيح على ولادته الغريبة وإنما على صعوده في السماء حيًّا. وهي فكرة لم تكن قد أُبطلت ودُحضت بعد، في حين أن الله تعالى قد رد هنا على جميع مطاعن المسيحيين الأخرى. ومن أجل ذلك قد ذكر الله تعالى هنا إدريس، لينبه أن الإنجيل كما ذكر صعود المسيح إلى السماء فقد ذكر صعود إدريس أو حنوك أيضًا إليها، بل بكلمات أروع وأقوى. إذًا فإن إدريس هو الشخص الوحيد الذي عن طريقه يتم الرد على الفكرة التي يبني عليها المسيحيون ألوهية المسيح عليه السلام ألا وهي صعوده في السماء حيًّا. وهذا أمر لا يسلم به الناس في حق أي من أنبياء الله السابقين، لا في حق زكريا ولا يحيى ولا إبراهيم ولا إسحاق ولا يعقوب، ولا موسى، ولا هارون، ولا إسماعيل عليهم السلام، إنما يسلمون به في حق إدريس فقط. ورواياتهم تؤكد صعوده في السماء بشكل أروع وأقوى مما صعد به المسيح في السماء. فلذلك قال الله تعالى هنا ﴿واذكُرْ في الكتاب إدريس إنه كان صدّيقًا نبيًّا * ورفعْناه مكانًا عليًّا﴾.. أي تزعمون أن المسيح صعد إلى السماء، وها نحن نقدم إزاء المسيح مثال إدريس الذي كان أفضل منه بهذا الشأن، فإذا كان هذا الأمر يجعل المسيح شريكًا مع الله تعالى في ألوهيته في زعمكم، فإن إدريس أحق وأولى بأن يصير شريكًا مع الله تعالى.

وفي القرآن الكريم أيضًا لم يقل الله تعالى في المسيح عليه السلام إلا ﴿بل رفَعه اللهُ إليه﴾ (النساء: ١٥٩)، بينما قال عن إدريس عليه السلام ﴿ورفعناه مكانًا عليًّا﴾. ثم إن حديث المعراج أيضًا يذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم قد رأى المسيح عليه السلام في السماء الثانية، بينما رأى إدريس عليه السلام في السماء الرابعة (دلائل النبوة للبيهقي، مجلد٢، باب الدليل على أن النبي صلى الله عليه وسلم عُرج به إلى السماء).. وهذا يعني أن إدريس رُفع إلى مقام أعلى من المسيح

أيضًا. فكأن الله تعالى يقول: إذا كنتم تؤلهون المسيح بناء على هذه الكلمات فلم لا تؤلهون إدريس إذن؟

قصة نوح عليه السلام

إن نوحا عليه السلام كان من أنبياء الله الصادقين والذي أخبر قومه بأنه لهم نذير مبين. ولم يخفِ على الناس تعليمه الحقيقي أبدًا بل يقدم لهم كل ما يؤمر به شاءوا أم أبوا. لذلك فإن إنذاره القوم لا يبعث على القنوط واليأس فيسلمهم للهلاك والدمار بل إنه يزيدهم يقظة وصحوة ونهوضًا. ويخبر القوم عن سبيل النجاة من العذاب، فقال لهم ألا تعبدوا إلا الله وامتنعتم عن الإشراك بالله تعالى. فقالوا له أنه لا فرق بيننا وبينك من حيث المظهر والشكل، فكيف إذًا نعتبرك مختلفًا عنّا في الباطن وأنك صاحب حظوة وزُلفى في البلاط الإلهي، وأنك أُوتيت دوننا قدرات تستطيع بها سماع كلام الله الذي لا نسمعه. فما أنت إلا بشر مثلنا وإنك خالي من القوى الخارقة، وليس هذا فحسب، بل إن أتباعك أسوأ منا حالاً، فأي انقلاب ستحققونه أيها الجهال الأراذل. ويستمرون في احتقارهم لسيدنا نوح فيقولون: أي أننا نسلم جدلاً بأن فيكم من المزايا الباطنة والكفاءات الخفية ما أكسبكم هذه الحظوة عند ربكم، ولكن أخبرونا أما كان حريًّا بكم أن تتمتعوا بالعز والجاه بشكل خارق، لأن الذي يفوق أقرانه خاصة يصبح غالبًا عليهم، ولكنا لا نرى لكم علينا من شرف ولا غلبة. بل نظنكم كاذبين وإننا واثقون تمامًا أنكم كاذبون، إذ لا دليل على ادعائكم بأنكم أهل الحق وأن الله فضّلكم علينا.

فيقول نوح عليه السلام لمعارضيه: افترضوا -ولو للحظة- أنني بالفعل تلقيت من الله البراهين والبينات على صدق دعواي وخصّني ربي برحمة عظيمة منه، ثم لنفترض أن هذه البينات قد نزلت علي نزولاً يحيطه الغموض والإبهام ولذلك لا تستطيعون رؤيتها، فأخبروني كيف نشرحها لكم إذن حتى تفهموها، اللهم إلاّ أن تتدبروا فيها

بأنفسكم. إذ لا بد للإنسان -لإدراك حقيقة ما- أن يُعمل فيها ويتدبرها بأسلوب يساعده عل تفهمها، ولكنكم ترفضونها من أول وهلة كارهين حتى الإصغاء إليها، فأنى لكم أن تفهموها إذن، اللهم إلا أن تُجبَروا على ذلك جبرًا، وهذا لن نفعله معكم أبدًا. لذا يجب على من يبحث عن الحق أن يطهر قلبه من التعصب دائمًا ويتعود على البحث الصادق. ثم بدأ بتبرئة ساحته مما اتهموه به، فقال: إن العاقل لا يقوم بأي عمل إلا لهدف وغاية. فإذا كنتُ -كما تزعمون- مفتريًا من الله تعالى فهل ترون أنني أكسب من هذا الكلام المفترى أي منفعة شخصية؟ إنكم تعلمون جيدًا أنني لا أطالبكم بأي مقابل أو أجر على ما أدعوكم إليه، فما الداعي -والحال هذه- لأن أقوم بالافتراء أصلاً؟.

كان نوح عليه السلام قد أشار فيما سبق إلى انتصار المؤمنين وازدهارهم، ولما كان انتصارهم هذا يتوقف على هلاك الأعداء، الذي سيمهد الطريق لرقيهم، لذلك أدرك هؤلاء الكفار على الفور أنه يتوعَّدهم بالهلاك، فقالوا له: حسنًا دعنا من هذه النقاشات، وأخبرنا صراحة متى موعد هلاكنا الذي تهددنا به إن كنت من الصادقين.

عندما أخبر الله نوحًا بهلاك قومه أمره أيضًا أن يصنع سفينة مستعينًا بأتباعه أو أهل بيته. واستمر الأعداء في النقاش والجدال والسخرية من جانبهم، وتمسك سيدنا نوح بأهداب الصبر، متوكلاً على نصرة الله، إلى أن تفجرت الينابيع بالماء وجرت المياه على وجه الأرض. مع العلم أن الطوفان لم يأت بسبب انفجار العيون الأرضية وحدها، بل كانت الأمطار الغزيرة هي المصدر الحقيقي لمياه الفيضان، كما صرح القرآن بذلك في عدة أماكن منه. لقد نزلت الأمطار بكثرة وغزارة قبل العذاب بحيث غطت المياه كل مكان، وكما يحدث إبان هطول الأمطار بكثرة فإن العيون الأرضية أيضًا تفجرت بالمياه بغزارة، وهذه المياه السماوية والأرضية تسببت معًا في دمار أهل المنطقة. وهذه ظاهرة طبيعية تشاهد بكثرة، لأن هطول الأمطار الغزيرة يتسبب في فوران العيون الأرضية بكثرة، ولا سيما في المناطق الجبلية، حيث يجري الماء في العيون نتيجة ذوبان الثلوج المتراكمة على أعالي الجبال، وإن نزول الأمطار يزيد

الثلوج ذوبانًا، وبالتالي يؤدي إلى زيادة المياه الأرضية. والثابت من القرآن الكريم أن سيدنا نوح عليه السلام كان يسكن في منطقة جبلية، مما يوضح ويؤكد أن موطنهم كان واديًا بين الجبال، وإلا فكيف فكر ابنه في اللجوء إلى جبل من الجبال؟ وعندما رأى ارتفاع المياه ظن أنه سينجو منها بسهولة بالصعود على الجبل.

وأما قوله تعالى ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ (هود: ٤١) فليس المراد منه كلَّ الأحياء الموجودة على الأرض، بل فقط الحيوانات التي كان يربيها نوح في بيته. ذلك أن كلمة (كل) تعني عادة فقط ما يملكه الناس عمومًا، وليس كل موجود على الأرض. وهذا هو المراد هنا بمعنى أن الله تعالى أمر نوحًا أن يأخذ معه في السفينة زوجين من كل حيوان كان بحاجة إليه. وهذا المعنى معقول ومنطقي جدًا، وإلا نضطر للقول غير المعقول بأنه حشد فيها ملايين الحيوانات من الدواجن وحشرات الأرض ووحوش الغاب وغيرها، وأن ضخامة سفينته كانت تساوي ربع الكرة الأرضية تقريبًا! ومما يلفت النظر أنه تعالى قد حثه على أخذ أقل ما يمكن وذلك بدليل قوله تعالى: ﴿زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ مما يؤكد أنه أمر أن يأخذ معه ما لا بد منه، لا أن يحشد فيها حيوانات العالم كلها.

ثم نادى نوح عليه السلام ابنه لينجو ومن معه من المؤمنين من هذا الطوفان العظيم ولكنه رفض وأبى واتخذ طريقا إلى الجبل، هذا ويتضح من الآيات الكريمة أن الأحمق لا ينفك مغمض العين عن الحقائق حتى إلى آخر لحظة، فكان ابنه يرى الطوفان قادمًا ومع ذلك لم يزل يشك في رسالة أبيه. ولا منقذ من الطوفان اليوم إلا الله، ولن ينجو منه إلا من تداركه رحمته تعالى. وفي قوله تعالى ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ﴾ (هود: ٤٤) إشارة لطيفة بأنه عز وجل كان قد حفظ نوحًا من أن يتألم برؤية مشهد غرق ابنه، فجعل بينهما حجابًا من موج مرتفع حين غرقه. ما أشد الأنبياء توقيرًا وتعظيمًا لله عز وجل. لقد ارتكب سيدنا نوح خطأً اجتهاديًا في فهم كلام الله تعالى حيث ظن أن كل فرد من أهله سوف يظفر بالنجاة، ولكن حينما أوشك ابنه على الغرق تضرّع إلى ربه بأسلوب غاية في اللطف والشفافية قائلاً: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ (هود:

٤٦).. أي أنني أتوسل إليك أن تنجيه وفق ما وعدتني به. ولكن كانت الظروف الظاهرة تقضي بعدم نجاته. قال ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ (هود: ٤٦).. أي لو غرق فلن يقدح ذلك في وعدك، بل سيبقى وعدك حقًا كما هو ويكون قرارك صائبًا في كل حال. ما أبلغه من كلام حيث ذُكرت الحقيقة في كلمات موجزة للغاية. يقول عز من قائل: إننا لم نقصد بكلمة ﴿أهلك﴾ كلَّ من في بيتك، وإنما قصدنا المؤمنين فقط، لأن أهلك الحقيقيين مَن هم على صلة بالله عز وجلّ. وإن ابنك ليس من أهلك لأنه لم يزل يعمل عملاً غير صالح أي أنه كان يرتكب أعمالاً غير صالحة منافية للتقوى. وباعتبار أنك حامل أمانة كلام الله تعالى، فعليك أن تكون أكثر حذرًا في المستقبل وتتدبر في كل جانب محتمل من كلامه. ويبدو من قوله تعالى ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ (هود: ٤٧) أن أعمال الابن كانت خافية على أبيه، فنهاه الله عن السؤال كيلا يُهتك سترُ ابنه ويُفتضح أمره، لأن الجواب عليه كان يتطلب الكشف عن عيوبه ومعاصيه كشفًا تفصيليًا. فما أن سمع سيدنا نوح الَتِلِيْ قول الله تعالى حتى قام واعترف بخطئه ورجع عن موقفه، وليس هذا فحسب، بل تضرع إليه تعالى قائلاً: يا رب سأسعى جاهدًا أن لا أعود لمثله أبدًا، ولكني لا أقدر على فعل شيء بدون معونتك، فأعنّي على أن لا أقع في مثل هذا أبدًا.

...إنه ليس صحيحًا أن طوفان نوح قد شمل الدنيا كلها، كما أنه ليس صحيحًا أيضًا أن كل هذه القصص من البلدان المختلفة تشير إلى أكثر من طوفان، بل الحق أن الطوفان واحد، و لم يُغطّ إلا منطقة واحدة من الأرض فقط. وبما أن نوحًا الَتِلِيْ كان أولَ إنسان في مرحلة الحضارة الإنسانية الأولى وأن ذريته وذرية أتباعه قد انتشروا بعد الطوفان في بلدان شتى وتغلبوا على أهلها الأصليين بسبب تفوقهم الحضاري، لذا كانوا هم الخالدين الباقين، أو أن الأقوام المغلوبة اتبعت دينهم وتحضّرت بحضارتهم، وهكذا ذاعت قصة الطوفان في هذه البلدان أيضًا. وبعد مرور زمن طويل عندما لم يبقَ لهؤلاء المستوطنين الجدد من قوم نوح أيةُ علاقة بموطنهم الأصلي القديم، وصار الوطن الجديد هو وطنهم الحقيقي، أدخلوا في حكاية الطوفان أسماء الأماكن

والشخصيات المحلية المتعارف عليها في الوطن الجديد، وهكذا اكتسب الحادث الحقيقي الواحد للطوفان طابعَ أحداث عديدة.

قصة هود ﷺ

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ (الشعراء: ١٢٤-١٣٠)

إن سيدنا هود ﷺ عبّر عن غنى نفسه وبُعده عن اتّباع الشهوات، وعن تواضعه واحتياجه إلى فضل الله جلّ شأنه. وهذا هو المقام الذي يتبوأه أهل الله تعالى. فإنهم يستغنون عن الدنيا استغناء كاملاً، ومن ناحية أُخرى يخرّون على عتبة الله متواضعين خاشعين بحيث لا أحد يبدو أكثر منهم فقرًا وضعفًا. وقد نصح قومه بالتوبة إلى الله عز وجل وتصديقه، فإن صدّقت هذه الأمة نبيها لا تنهض نهوضًا روحانيًا فقط، بل إنها تحقق رقيًا ماديًا أيضًا وتنال حياة جديدة. ورغم إتيانهم عملاً شنيعًا كالشرك الذي لا يستند إلى دليل ولا برهان - يطالبون سيدنا هودًا بأن يأتي بالبرهان على دعواه، مع أنهم هم كانوا أصحاب الدعوى وليس هو، وما أشد إهانتهم واحتقارهم لرسولهم إذ يقولون له ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ (هود: ٥٤). إنها كلمة صغيرة، ولكنها مليئة جدًا بمرارة الازدراء والاستخفاف، حيث يقولون: من أنت وما قيمتك حتى نترك آلهتنا من أجلك؟ وبما أنك لا تؤمن بآلهتنا فإنها قد انتقمت منك وأفسدت عقلك. فرد عليهم سيدنا هود وقال: إن كنتم تزعمون أن أحدًا من آلهتكم سخط عليّ لإساءتي إليهم وصبّ عليّ غضبه بإفساد عقلي، فها إني أقولها علنًا بأنني أعادي آلهتكم جميعًا، وأكرههم كراهة شديدة، وأتبرأ منها تمامًا، فإن كانوا يملكون في الحقيقة شيئًا مما تعزونه إليهم من قدرات وصفات فلينتقموا مني وليفعلوا بي ما

يشاءون. وبما أنكم لم تنتفعوا مما قدمت لكم من براهين عقلية، فالآن أقدم لكم شهادة عملية من الله على صدقي، متضرعًا إليه عزّ وجل أن يُنزل الآن آياته التي تفصل بين الحق والباطل. وإن كل واحد منكم خاضع لسلطان الله وغلبته، وتعيشون بمحض رحمته وعفوه، وإلا ما كنتم تستحقون العيش بالنظر إلى أعمالكم. وبما أن الله ربي وربكم أيضًا، فكيف أخافكم ما دمتم عبيدًا لسيدي، لأن من يتخذه السيد صديقًا له لا يستطيع عبيده أن يضرّوه بشيء. وإن من يسير على الطريق السوي هو الذي يصل إلى ربه، بينما يتخبط المشرك هنا وهناك، فأنّى له الوصال بالله تعالى. إنكم تريدون إبادتي، ولكن ربي قادم لنجدتي على صراط مستقيم، أي على أقرب طريق، حيث إن الطريق المستقيم يكون أقرب الطرق وأسرعها. وقد أبلغتكم رسالة ربي التي لصالحكم أنتم، فإذا رفضتموها، فسوف تؤمن بها أمة أُخرى لا محالة، وتنتفع بها وتحقق الازدهار والغلبة، ولن تضيع رسالة الله في أي حال، لأنه إذا أراد شيئًا نفّذه وحفظه. كما أنه لن يدع أعمالكم دون حساب ومؤاخذة، بل هي محفوظة لديه، ولا جرم أنه سوف يحاسبكم عليها. وهكذا عندما حلّ العذاب إقامة للحجة على المسرفين، ثارت رحمة الله بالمؤمنين بشكل غير عادي، ونجاهم من العذاب رغم عيشهم بين الكفار في بلد واحد. أي نجاهم بفضل خاص وفق سنته تعالى الخاصة، لا بحسب سنتنا العامة. وهكذا كان العذاب المؤلم الشديد للغاية والذي لا يستطيع أحد الفرار منه.

فهذه أحوال عاد الأمة العظيمة القوية، الذين استكبروا ومالوا إلى الشر وكفروا بالحق تعنتًا وعنادًا، ولم ينتصحوا لمن أتاهم برسالة خير وصلاح لهم، وإنما اتبعوا أصحاب النفوذ والمنعة من بينهم ممن كانوا يلجأون إلى الإكراه والعنف مثيرين الفتنة والفساد في البلاد مدّعين -مع ذلك- بأنهم حملة لواء الحرية في الرأي والعقيدة. وبما أنهم كانوا على ذلك الحال بعيدين عن الله وهم في الدنيا، وهكذا سيكونون يوم القيامة أيضًا إذ سيُحرمون من رؤية الله وقربه جلّ شأنه. فانظروا ما أقبح ما فعلته عاد، حيث رفضوا قول من ربّاهم وخلقهم، مع أن الشريف يطيع من يحسن إليه.

ولكن المؤسف أن هؤلاء القوم قد عقُّوا مَن أخذهم إلى هذه الدرجة السامية، وهكذا فإنهم لم ينكروا الجميل فحسب بل ارتكبوا حماقة كبرى، لأن الذي كان قد رفعهم لقادر تمامًا على أن يضعهم ويحطهم إلى أسفل سافلين. وهذا ما حدث بهم بالضبط، فهلكوا وبادوا عقابًا على معارضتهم لنبيهم هود.

كان قوم عاد الذين بُعث إليهم هود عليه السلام مولعين بفن البناء والعمارة ولعًا خاصا، لأن أساس حضارتهم كان قائمًا على علم الهندسة والكيمياء والفلك. كان مؤسسو هذه الحضارة يرون أن الله تعالى جعل في العالم المادي الشمسَ والقمر والنجوم، فلا بد من تقليد هذا النظام للرقي، فعلى الناس أن يفكروا في النظام الشمسي ويطّلعوا على أسراره وغوامضه، ويعملوا بحسبه. كما أن الحضارة الآرية والرومانية والفارسية قد تركت تأثيرًا عميقًا على العالم المتمدن، وأقامت نظامًا جديدًا مكان النظم القديمة، كذلك قد تركت هذه الحركة البابلية التي كان مؤسسوها من قوم عاد أثرًا عميقًا على ثقافة العالم وحضارته. ومع أن مؤسّسي الحضارة البابلية فقدوا السيطرة السياسية على المنطقة بعد فترة من الزمن، وحلّت محلّها شعوب أخرى، إلا أن الشعوب الغالبة عليها لم تتمكن من التحرر من الفلسفة البابلية. وبما أن هذه الحضارة موغلة في القدم فلا نجد من آثارها اليوم إلا قليلاً، بيد أن ما اكتُشف من آثارها يؤكد صدق القرآن وعظمته.

لقد وضع أساسَ هذه الحضارة البابلية قومُ عاد، وقد نالوا من الغلبة والمنعة في زمنهم ما لم يتمتع به أي قوم من الأقوام العربية. وكان مِن حملة لواء الحضارة البابلية شعبانِ: عادٌ الأولى، وهم الذين أسسوها، وقومُ ثمود الذين كانوا فرعًا من عاد وخلفوهم. وتتحدث هذه الآيات القرآنية عن عاد الأولى، حيث أخبر الله تعالى أن هودًا خاطب قومه عادًا الذين كانوا أقوى قوة في عصرهم وقال: تبنون على كل جبلٍ عمارات فخمة ومصانع كبيرة ومعامل كيميائية ضخمة، ظانين أنكم ستخلدون بها إلى الأبد؛ شأنهم شأن أوروبا وروسيا اليوم الذين يظنون أن حضارتهم ستبقى للأبد.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾، أي لقد بلغتم من القوة والمنعة أنكم حين تتغلبون على بلد تدمرون حضارته تدميرًا، وتقومون بترويج حضارتكم ومدنيتكم مكانها، ذلك أن الجبار هو من يجعل نفسه رفيعًا وغيره وضيعًا.

ومن الممكن أيضًا أن نستنبط من هذه الجملة أنهم اخترعوا في زمنهم آلات حربية مدمرة. وقد استنتج بعض المؤرخين برؤية المباني التي بنوها في الجبال أنهم كانوا قد تمكنوا من اختراع البارود والمتفجرات في ذلك العصر. وعليه فالمراد من هذه الجملة أنكم تخترعون آلات حربية مدمرة تبيدون بها الأقوام الأخرى، وتروّجون في بلادهم حضارتكم ومدنيتكم.

مجمل القول إن الحضارة البابلية قد ركزت على بناء العمارات واختراع آلات الحرب وإقامة المراصد بوجه خاص. وإن ما ورد في التوراة عن الدولة البابلية يصدّق بيان القرآن الكريم حيث جاء فيها:

"وقالوا: هَلُمَّ نَبْنِ لأَنْفُسنَا مَدينَةً وَبُرْجًا رَأْسُهُ بالسَّمَاء. وَنَصْنَعُ لأَنْفُسنَا اسْمًا لئلاَّ نَتَبَدَّدَ عَلَى وَجْه كُلِّ الأَرْضِ، وَقَالَ الرَّبُّ: هُوَذَا شَعْبٌ وَاحدٌ وَلسَانٌ وَاحدٌ لجَميعهمْ، وَهذَا ابْتدَاؤُهُمْ بالْعَمَلِ. وَالآنَ لاَ يَمْتَنعُ عَلَيْهمْ كُلُّ مَا يَنْوُونَ أَنْ يَعْمَلُوهُ. هَلُمَّ نَنْزِلْ وَنُبَلْبِلْ هُنَاكَ لِسَانَهُمْ حَتَّى لاَ يَسْمَعَ بَعْضُهُمْ لِسَانَ بَعْضٍ (سِفْرُ التَّكْوِينِ ١١ : ٦-٧)."

هذه الفقرة تؤكد أن قوم عاد كانوا بارعين في بناء العمارات العالية بحسب التاريخ اليهودي، إذ قيل إن اختلاف ألسنة الناس راجع إلى كون أهل بابل بدأوا في بناء عمارة عالية لتكون علامة لهم، وكيلا يتشتتوا ولا يتفرقوا، ولكن الله تعالى أراد تشتيتهم، فجعل اختلافًا في ألسنتهم، فزالت وحدتهم وذهبت ريحهم، ولم يستطيعوا رفع هذا البناء.

إن ما ذكرته التوراة هنا من سبب وراء اختلاف ألسنة الناس في العالم إنما هو قصة فارغة فحسب، بيد أن هذه الفقرة تشكّل شهادة تاريخية على أن أهل بابل كانت لهم يد طولى في بناء المباني الشاهقة، فكانوا يبنون عمارات عالية يخيل للرائي

إليها أنها تحتكّ بالسماء. وبالفعل نجد في الجزيرة العربية حتى اليوم مباني قديمة عالية وضخمة. وقد رأيت بأم عيني في اليمن -عندما توقفت هناك خلال سفري إلى أوروبا- مباني عالية جدًا مبنية على تلال عالية على بعد عدة أميال من مدينة عدن، وكان بها حياض ويقول الناس إنها مما بناه قوم عاد.

لم يزل الأوروبيون ينكرون وجود قوم عاد أصلاً، زاعمين أنه لم يوجد في التاريخ قوم بهذا الاسم، ولكنهم عثروا على آثار قوم عاد قبل نحو نصف قرن من الزمان، فأخذوا يعترفون بوجودهم. بل لقد قال المؤرخ المسيحي الشهير "جرجي زيدان" في كتابه "العرب قبل الإسلام": لم تقدر مئات الصفحات من كتب المؤرخين أن تُمِدّ الناس بالمعلومات التي قدّمها القرآن الكريم عن قوم عاد في كلمات وجيزة.

يخبرنا القرآن الكريم أن عادًا خلوا بعد قوم نوح عليه السلام مباشرة حيث قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ (الأعراف:٧٠)، ولذلك قد تحدّث القرآن الكريم في هذه السورة أوّلاً عن موسى عليه السلام الذي كانت نبوءاته تنبئ عن بعثة محمد رسول الله ﷺ. ثم تحدَّثَ عن إبراهيم عليه السلام الذي بدأت منه السلسلة الموسوية. ثم تحدث عن نوح لأن إبراهيم كان تابعًا لشريعة نوح، حيث قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ (الصافات:٨٤)، ولذلك ذكر الله بعد إبراهيم مؤسسَ شريعته. ثم بعد نوح عليه السلام ذكر الله تعالى هودًا الذي بُعث إلى قوم عاد، لأن عادًا خلفوا قوم نوح.

يحذر هود عليه السلام قومه بأنكم تبنون عمارات شاهقة على التلال المرتفعة، وتدمرون الشعوب الأخرى ظلمًا لتخلد حضارتكم، ولكن كل هذا عبث، لأن الله تعالى سيقضي عليكم رغم وجود آثاركم الظاهرة، ولن يُكتب الخلود إلا للتقوى. إنكم تبنون مصانع ومراصد ظانّين أنها تخلّدكم، وتظلمون الضعفاء مغترّين برقيكم المادي، ولكن لن تنفعكم هذه العزة الزائفة ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾؛ أي إذا كنتم تريدون الخلود فعليكم بتقوى الله وطاعتي.

ثم يقول هود ﷺ: ﴿وَاتَّقُوا الَّذي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الشعراء: ١٣٣-١٣٦)، أي أن هذا العلم الذي تزدهرون بسببه إنما هو هبة ربانية، وأن كل الأسباب التي تستعينون بها أيضًا عطاء رباني، وكذلك الأنعام والأولاد والبساتين والعيون، فإذا لم ترجعوا إلى الله تعالى فسوف ننـــزعها منكم في نهاية المطاف.

لما نصحهم هود ﷺ بالعودة إلى الله تعالى قالوا: سواء علينا أوَعظتنا أم لم تعظنا لن نؤمن بك، إذ لم يزل البعض منذ قديم الزمان يعظون الآخرين قائلين: لا تجمعوا أموالا طائلة، ولا تزهوا بثرواتكم، مع ذلك لم يحصل شيء بل لا يزال الناس مستمرين في أعمالهم الدنيوية. سنبني المصانع ونجمع الأموال ولن يصيبنا زوال، لذا فسواء دعوتنا إلى ما تريد أم لم تدعُ فلن نرضى بما تقول...

مجمل القول إن عادًا لم يُصغوا لنصائح نبيِّهم هود ﷺ، وكذّبوه، فأهلكهم الله تعالى.

ثم يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (الشعراء: ٩-١٠) .. أي أن عادًا أرادوا أن يخلفوا وراءهم أثرهم الخالد من خلال العمارات الضخمة، ولكنا تركنا لهم أثرًا خالدًا من خلال تدمير مدنهم. بيد أن هذه الآية ما كانت لتنفعهم إذ كانوا قد هلكوا وبادوا وصاروا آية عبرة لمن بعده.

قصة صالح عليه السلام

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ* قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ* قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ (النمل: ٤٦-٤٨)... يخبر الله تعالى هنا أن نبيه صالحًا عليه السلام دعا قومه ثمود إلى التوحيد، فأخذوا يجادلونه مثيرين الفتنة، بدلاً من أن يلبوا نداءه، إذ صاروا فريقين: فريق آمن به وفريق كفر.

الواقع أن ثمود خلفوا عادًا. لقد أتى هؤلاء من جنوب الجزيرة العربية وانتشروا في جميع مناطقها الشمالية، فصارت لهم صلات بالأمم المؤمنة بالتوحيد. فقد كتب أبو إسماعيل مؤلف "فتوح الشام" أن ثمود كانوا منتشرين من بُصرى -وهي مدينة سورية- إلى "عدن" التي كانت عاصمتهم. لما اضطروا للهجرة في زمن قوة قوم حِمير وقوم "سبأ" خرجوا من جنوب الجزيرة إلى شمالها، فأتوا أوّلاً إلى الحجاز ثم تهامة ثم الحِجر (أرض القرآن، ص١٨٨). فمن كان منهم متأثرًا بعقيدة التوحيد آمن بصالح عليه السلام، أما الذين كانوا بعيدين عن عقيدة التوحيد فعارضوه معارضة شديدة. فلما نصحهم صالح عليه السلام لم يتعظوا بل قالوا يا صالح إننا نتشاءم منك، ونرى أن هذه الفُرقة الحاصلة بين القوم بسبب تعاليمك ستؤدي بنا إلى الدمار. لم يدرك هؤلاء الجاهلون أن صالحًا إنما جاء ليُحييهم وليُخرجهم من الحضيض إلى القمة، بل لما رأى المعارضون أن تعليم صالح قد جعل القوم مختلفين، وأن بعضهم قد بدأ يشعر بالفعل أنهم يسلكون طريقًا خاطئًا ولا بد لهم من إصلاح أحوالهم والانتهاء عن سوء أعمالهم، فأخذوا يقولون له لم يحدث هذا الخلاف والفرقة بين القوم إلا بسبب

نحوستك، فلولاك لم يتشتت شملنا. مع أن الواقع أن الموتى لا يقدرون على إحداث أي انقلاب في الدنيا وإن كانوا مئات الآلاف، إنما تقع الثورة بواسطة الأحياء مهما كان عددهم قليلاً. كان قوم ثمود أمواتًا قبل بعثة صالح عليه السلام فأراد الله تعالى إصلاحهم على يد نبيه، ولكنهم عوضًا عن أن يشكروا الله تعالى على ذلك أخذوا يقولون لنبيهم: ويلك قد فرّقتَ شمل القوم وقضيت على وحدهم. وذلك كما حصل مع النبي ﷺ أيضًا، حيث بعثه الله تعالى لإقامة وحدانيته في العالم ولكن الكافرين اتهموه بأنه قد شتت شمل القوم وقضى على وحدهم...

وهذا ما فعل أعداء صالح عليه السلام أيضًا إذ قالوا له: إن كل البلايا إنما تنــزل بسبب شؤمك ونحسك. فأجابهم صالح عليه السلام: إنما نحسكم وشؤمكم بيد الله تعالى، وإذا تحديتم عذابه فسيعاقبكم به حتمًا، أما إذا سألتم فضله فسيُنــزله عليكم أيضًا. ولكني أخاف عليكم عذابه لأنكم قد تركتم الدين الحق.

وكان في المدينة التي بعث الله فيها صالحًا عليه السلام تسعةٌ من أئمة الكفر، وكانوا يفسدون في الأرض ليلاً ونهارًا جاهدين لكي يُفشلوا صالحًا عليه السلام في إشاعة توحيد الله تعالى. ولو أنهم استغلّوا مكانتهم المرموقة في أعمال الخير وهداية الناس لازدادوا عزًّا وشرفًا، ولكنهم سلكوا طريق الهلاك والدمار. فتشاوروا فيما بينهم وقالوا تعالوا نحلف بالله أنّا سنُغير على صالح وأهله بالليل ونقتلهم جميعًا، وإذا جاء ورثته يطالبون بدمه نقول لهم لم نشهد قتلهم وإنا لصادقون. يقول الله تعالى: لقد نسجوا هذا الخطة لقتل صالح عليه السلام ولكنهم نسوا أن هناك إلهًا في السماء يحفظ نبيَّه. فمكروا مكرهم، ومكر الله مكرًا ضدهم دون أن ينتبهوا لمكرنا، فظنوا مغترّين بمكرهم أنهم سينجحون في قتل صالح، ولم يدروا أن ملك السماء غالب على مكرهم. وبالفعل ترون أنّا أهلكنا أولئك التسعة وقومهم صغارًا وكبارًا كلهم، سواءً الذين كانوا متورطين في مؤامرة قتله أو الذين كانوا متعاطفين معهم، وجعلناهم هدفًا للعذاب ودمرناهم أجمعين، فترون ديارهم خربة وبيوتهم متهدمة لا يسكنها أحد، بل أصبحت عبرة لمن

يعتبر، وآية عظيمة لقوم يعقلون. أما الذين آمنوا بصالح وعاشوا بالصلاح والورع فأنجيناهم من العذاب وأمددناهم بأسباب الرقي والتقدم.

أما قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ هنا فهو تحذير بأن التسعة من ثمود كما خططوا لقتل صالح، كذلك سيتآمر تسعة من أئمة الكفر على محمد ﷺ أيضًا، فيقرّرون أن يقتله فتيان من جميع القبائل معًا. ولكن الله تعالى كما خيّب أعداء صالح في خطّتهم كذلك سيُحبط خطة أئمة الكفر ضد محمد ﷺ. وكما أنه تعالى نجّى صالحًا عليه السلام والذين آمنوا معه من العذاب، وأخذهم إلى مكان محفوظ، كذلك سيُخرج اللهُ النبي ﷺ وأصحابه من بين الأعداء ويذهب بهم إلى المدينة حيث يفتح عليهم أبواب النجاح والانتصار.

وكل من هو مُلمّ بالتاريخ يعلم جيدًا كيف تحققت هذه النبوءة القرآنية حرفيًا. فكما كان في زمن صالح عليه السلام تسعة هم رأس الفساد، كذلك كان في زمن النبي ﷺ تسعة من أئمة الكفر وهم: أبو جهل الذي كان أهل مكة يسمونه أبا الحكم وكان رأس المفسدين المعاندين، وأبو لهب، وأمية بن خلف، والنضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وعتبة، وشيبة...

يخبرنا الله تعالى أن قوم ثمود جاءوا بعد قوم عاد، فبعث الله فيهم نبيه صالحًا عليه السلام، فنصحهم بتقوى الله موضحًا لهم أنه لا يريد منهم على ذلك أجرًا، وإنما أجره على الله تعالى. وقال لهم: إن الرقي المادي الذي تفرحون به لن يدوم، ولن يبقى ما تملكون من بساتين وعيون وزروع ونخيل ذات طلع متداخل بعضها في بعض. إنكم تنحتون من الجبال بيوتًا وتتباهون بذلك، ولكن هذا ليس سبيل العزة أبدًا، إنما العزة في تقوى الله تعالى. فاتقوا الله وأطيعوني ولا تتبعوا الذين يتجاوزون الحدود، ويفسدون في الأرض ولا يصلحون.

يتضح من القرآن الكريم أن قوم ثمود خلفوا قوم عاد، قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ (الأعراف:٧٥). ويقول أبو إسماعيل في كتابه "فتوح

الشام" إن قوم ثمود كانوا منتشرين ما بين المدينة السورية "بُصرى" إلى "عدن" في اليمن، وكانوا حاكمين على هذه المنطقة.

وقد جاء ذكر ثمود في التواريخ اليونانية أيضًا حيث ورد فيها أن زمنهم كان قريبًا من زمن المسيح ، وكان مركزهم "الحِجْر" التي كانت عاصمة لهم -وكانت الحِجر تقع بين المدينة المنورة وتبوك- وكانت لهم قوة ومنعة في هذه المنطقة.

ويتضح من قوله تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ (الشعراء: ١٤٧-١٤٩). أن بلاد قوم ثمود كانت بلاد عيون وبساتين وزروع ونخل جيدة. وأما قوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ (الشعراء: ١٥٠)، فيوضح أن القوم كانوا يجيدون النحت. وبالفعل تكشف آثارهم أنهم كانوا يحفرون الجبال، ويقيمون داخلها مدنًا وقرى. وكانوا ينحتون في الجبال قصورًا غريبة. ولكن هذا لا يعني أنهم كانوا يعيشون في الجبال فقط، ولم تكن لهم بيوت أخرى، وإنما هو إشارة إلى مبانيهم الخاصة الدالة على حضارتهم الراقية. كما أن حفر البيوت في الجبال تمثّل إشارة إلى أن القوم كانوا يقضون جزءًا من السنة في الجبال للاستجمام والاصطياف مطمئنين ولم يكن أحد يجرؤ على شنّ غارة على بلادهم.

لما وعظهم صالح قالوا: يا صالح إننا نرى أن أحدًا يُطعِمك، أي أنك تتلقى الرشوة من قبل بعض أعدائنا لتتآمر علينا.

لقد أُثير هذا الاعتراض ضد كل نبي في كل عصر، فمثلاً اتهم الكافرون نبينا ﷺ بأن قومًا آخرين يعينونه، وقد اتهم المعارضون مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية أيضًا بأن الإنجليز أعطوه المال وأقاموه لمحاربة المسلمين.

أما قولهم: ﴿مَا أَنْتَ إلا بَشَرٌ مِثْلُنَا...﴾ فيعني أنه لا فضل لك علينا، إذ لست إلا بشرًا كأي واحد منا. فإذا كان لك علينا فضل، وإذا كنت صادقًا في دعواك، فأْتنا بما عندك من آية. فأجابهم صالح : حسنًا، هذه ناقتي قد جعلها الله تعالى آية لاختباركم. عندما تجتمعون على الماء تعيثون الفساد، ولكن من الآن فصاعدًا

ستكون لناقتي نوبة لشرب الماء وتكون لكم ولأنعامكم نوبة في وقت آخر، فلا تتعرضوا لناقتي بأذى وإلا فسوف يأخذكم عذاب يوم عظيم. ولكنهم قطعوا قوائم الناقة ثم أصبحوا نادمين.

يقول المفسرون في تفسير هذه الآيات إن ناقة صالح الطَّيْلا كانت ذات مزايا خصوصية، بل قد نسج بعضهم حولها قصصًا غريبة، حيث يقولون إن القوم أتوا صالحًا وقالوا: لن نؤمن لك حتى تخلق ناقة من الجبل. فدعا الله تعالى، فخرجت الناقة من الجبل بل ولدت مِن توِّها ولدًا بحجمها (الدر المنثور: سورة الأعراف، قوله تعالى: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيبًا... إلى قوله تعالى: ولكن لا تحبون الناصحين﴾). وكل هذه القصص ترهات لا علاقة لها بالقرآن الكريم. فإن القرآن الكريم لا يعدّ ولادة هذه الناقة آية إنما يعدّ حُريتها في التنقل هنا وهناك آيةً حيث حذرهم صالح الطَّيْلا أنهم لو آذوا ناقته لأخذهم العذاب. وليس ذلك لأن الناقة في حد ذاتها كانت ذات أهمية، بل لأن صالحًا الطَّيْلا كان يخرج عليها في البلاد في رحلاته التبليغية. لم يكن في ذلك الزمن سيارة ولا قطار ولا طائرة، وكانت الناقة هي الوسيلة الوحيدة للسفر، فكان صالح الطَّيْلا يخرج على ناقته للدعوة والتبليغ، وكان معارضوه غير راضين بجهوده التبليغية، فكان من المحتم أن يعيقوا رحلاته ويمنعوه من التنقل من هنا إلى هناك من أجل التبليغ. فلما تجاوزوا الحد في شرورهم جعل الله تعالى الناقة آية لهم، وقال لهم دعوها تتنقل بصالح حيثما شاء ولا تُعيقوا جهوده التبليغية، وإلا سيأخذكم العذاب. فحسبوا تحذيره ضربًا من الخبل والجنون، وازدادوا بغيًا وطغيانًا، وقطعوا قوائم الناقة. وكأنهم قد تحدّوا الله تعالى وقالوا لن نسمح لصالح برفع اسمه تعالى في أرضنا. فلما أرادوا إغلاق أبواب بلادهم في وجه الله تعالى أغلقَ أبوابها في وجوههم، وضربهم بسيف قهره وعذابه. لا شك أنهم عندما رأوا العذاب أصبحوا نادمين، ولكن كان ذلك بعد فوات الأوان.

ثم يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ٩)، أي أن في هذه الواقعة آية عظيمة تمثّل درسًا هامًّا للناس بأن الذين يعيقون طريق

الجماعات الإلهية ويمنعونها عن الدعوة والتبليغ ورفعِ اسم الله تعالى يصبحون عرضةً لسخط الله وقهره. بيد أن هذا الدرس كان عبرة فقط للذين أتوا فيما بعد، أما قوم صالح فأكثرهم لم يؤمنوا به، بيد أنهم قد أكدوا بهلاكهم كون الله تعالى عزيزًا ورحيمًا. لقد أرادوا أن يكون صالح من المغلوبين، ولكن الغلبة كانت لله ولرسوله. لقد أرادوا أن تفشل جهوده الدعوية، فلا ينتشر اسم الله ورسوله في الأرض، ولكن الله الرحيم بارك في جهود نبيه، فتكونت بأنفاسه القدسية جماعةٌ أشعل أفرادها قناديل نور الله في صدورهم، فصاروا هداةً للإنسانية الضالة إلى الحق.

لقد خاطب الله تعالى هذه الأمة بأنكم كنتم أمة متردية وحقيرة في أعين الناس، فنهض بكم الله من الحضيض، وحقق لكم الغلبة والحكم على الآخرين وفوض إليكم نشر الأخلاق النبيلة والآداب الفاضلة. فيجب أن تسألوا الله الغفران على تقصيراتكم لدى أداء هذا الواجب، وأن تتذكروا أن كل شيء راجع إلى أصله، وأن على الإنسان أن يتذكر دائمًا أنه ضعيف الخلق حقير الشأن أساسًا، وأن رقيه إنما يتوقف على فضل الله تعالى، فعليه أن يرجع ويتوب إلى الله دومًا، ليترل عليه فضله ورحمته مجددًا، أما إذا قطع صلته عن خالقه وربه زلّت قدمه بعد ثبوتها، وتردّى إلى حالته البدائية من الضعف والهوان والحقارة. فإن رفضتم رسالته فإنه قادر على عقابكم فورًا، لأن جنوده قريبة سريعة لا تتأخر.

وهنا قام قوم صالح ﷷ بالشكوى منه قائلين: لقد كنا نعقد عليك آمالاً جسامًا لما حباك الله به من فطنة وذكاء وقدرات وكفاءات. فكنا نتوقع أن تكون مصدر قوة ونفع لقومك، ولكنك بدأت تعمل على هلاكهم. ولم يدرك هؤلاء أن آمالهم في صالح كانت قد تحققت فعلاً، حيث أصبح مصدر خير وبركة لقومه، ولكن لم يتحقق ما كان مرجوًا في أنفسهم هم حيث حُرموا من المساهمة في الحملة الإصلاحية التي بدأها صالح لخير قومه. فما أشبه الليلة بالبارحة! لقد كان المسلمون ينتظرون منذ قرون رجلاً موعودًا لهم من السماء، فلما جاءهم بالحق أعرضوا عن ندائه ولم يغيروا ما بأنفسهم، بينما أخذت تؤمن به أقوام أخرى وتنتفع ببركاته.

ثم بدأ هؤلاء القوم يحاجون رسولهم ويقولون: أتمنعنا من أن نعبد كما عبد آباؤنا. فقال لهم سيدنا صالح: تقولون لي بأن تعاليمك تثير في قلوبنا شتى الوساوس والشبهات، وأنك لو لم تدعُنا إليها لاخترناك سيدًا علينا! فهلا أخبرتموني أنني لو كنت في الحقيقة من عند الله تعالى فماذا سأجني من زعامتكم بترك رسالته جل جلاله. أفلا تزيدني صداقتكم وبالاً وسيادتك خسرانًا!

كانت ولا تزال ناقة صالح عليه السلام مرتعًا يجول فيه خيال الناس. وقد جمع حولها المفسرون من الأساطير والخرافات أصنافًا وألوانًا حتى قال بعضهم بأن الكفار عندما طالبوه بآية صدقه خلق على الفور ناقة من بطن الجبل، وكانت حاملاً، فولدت فور خروجها من الجبل. لقد جمعوا في تفاسيرهم ما سمعوه من خرافات دون أن ينتبهوا إلى تأثيرها الخطير في قلوب السذج من الناس.

الحقيقة أن القرآن الكريم لا يقول بخلق الناقة هكذا كمعجزة، بل يصرّح أن لها الحق في ورود الماء في يومها المحدد، كما لكم الحق أن تستقوا في يومكم المحدد أيضًا. وتبين آيات الله تعالى أن الناقة لم تُخلق كمعجزة، وإنما حرمتها التي جُعلت معجزةً، حيث أنذر صالح بالعذاب كلّ من يتعرض لها بالسوء. وقد كان من عادة ملوك العرب وغيرهم أن يطلقوا بعض الماشية هكذا حرة تأكل وترتع في حرث الناس حيث تشاء وذلك كعلامة على قوتهم وسلطانهم، معلنين بين القوم أن من تعرض لها بسوء أهلكناه. ووفق هذه العادة الشائعة سرّح سيدنا صالح عليه السلام ناقته بأمر من عند الله تعالى، جاعلاً حريتها علامة على سلطته السماوية، معلنًا لهم أن لا يمسّوها بسوء، وإلا فسيكون هذا بمثابة خروجهم على حكومة السماء، وسوف يحل بهم العذاب. ومع ذلك فلم يكن سيدنا صالح يقلّد هؤلاء الطغاة إذ لم يقل بأن ناقتي سوف ترعى في أي أرض وفي أي حرث، بل قال: ﴿فذَروها تأكلْ في أرض الله﴾، أي سترعى في الأرض التي لا يملكها أحد، وهي ما لا يكدح أحد في زراعتها، وإنما هي خالية من الزرع، تنبت العشب والكلأ بما يترل عليها من ماء السماء. وذروني أتحرك عليها بحرية في أسفاري التبليغية ولا تمنعوني من أن أنتقل عليها من مكان إلى آخر لأداء

واجباتي الدينية. فيبدو أن القوم كانوا يحولون دون رحلاته التبليغية ولا يدعونه يتحرك بحرية هنا وهناك، فنهاهم الله عن ذلك قائلاً: دعوا ناقته تذهب به حيث يشاء لتبليغ رسالة ربه. ولكنهم قتلوا الناقة، أو بتعبير آخر، أخبروه عمليًا أنهم لم يسمحوا له بالتبليغ في بلدهم بهذه الحرية. فأخذهم العذاب الذي دمّرهم تدميرًا.

ويتعجب بعضهم ويقول: كيف يجوز إبادة أمة بأسرها على قتل ناقة واحدة؟! ذلك أن قتلهم الناقة كان بمثابة تمّردهم على الله تعالى وأنهم لن يدَعوا رسوله صالحًا براحة في أي مكان، وسوف يمنعونه من تبليغ رسالات الله بالقضاء على كل وسيلة يتخذها للقيام بمهامه التبليغية. وهذا كان دليلاً على عدائهم وتمردهم الشديدين، ولا يمكن أن تنجو من العقاب أمة قد أصبحت مجرمة في حق الله تعالى بعد أن أنكرت رسالته. وهكذا بعد أن قتلوا الناقة جاءهم العذاب، ولا شك أن العذاب في حد ذاته يسبب الخزي وأيَّ خزي، ولكنه تعالى قد بيّن بزيادة كلمة ﴿من خزيِ يومئذٍ﴾ أن عذابهم كان يحتوي على عناصر الخزي والذل بشكل خاص. ولقد وصف عذابهم هنا بالصيحة، كما الصاعقة والطاغية تعني أيضًا العذاب، فإن كان القوم قد دُمّروا بالزلزال فكل هذه الأوصاف ملائمة وصحيحة تمامًا.

قصة إبراهيم عليه السلام

يقول الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥٩).

حوار إبراهيم مع الملك الكافر:

يقول المفسرون عن هذه الآية إنها تتحدث عن نقاش كان بين إبراهيم وبين الملك الكافر نمرود حول وجود الله تعالى. قال إبراهيم: ربي الذي يُحيي ويميت؛ وقال الملك: أنا أيضا أحيي وأميت؛ ودعا ببعض السجناء المحكوم عليهم بالإعدام فعفا عن بعضهم وأعدم البعض. وعندما رأى إبراهيم أن دليله الأول لم ينفع، فكر في دليل آخر فقال: ربي الذي يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب. فبُهت الذي كفر. وتغلب إبراهيم عليه (الدر المنثور).

ولكنني أرى أن هذا التفسير غير صحيح، لأن الاثنين -حسب هذا التفسير- سكتا وبُهتا؛ بُهت إبراهيم في المسألة الأولى، وبُهت نمرود في المسألة الثانية. ولذلك لا أرضى بهذا التأويل. وما دام الملك كذابا وجريئا لدرجة أنه يعتبر نفسه إلها، فكان من الممكن أن يرد على الحجة الثانية لإبراهيم قائلا: أنا الذي آتي بالشمس من المشرق، فقل لإلهك أن يأت بها من المغرب. ولكنه لم يقل ذلك؛ ويحكي القرآن أنه بُهت وسكت. وهذا يدل بصراحة على أن المراد غير ما قاله المفسرون. وإلا فإن الناس لا يكفون عن البحث عند الجدال. وإنما يستمرون فيه حول أمور لا جدوى

منها، حتى إنهم لا يزالون يجادلون إلى اليوم هل الإنسان موجود أم لا! ولكن هذا الملك صمت، مما يعني أن هناك موضوعا آخر سكت عنه، وقال: لو أجبتُ عنه لوقعتُ في مشكلة أخرى فلا بد لي من السكوت.

ثم إن العقل يؤكد صحة ما قاله القرآن، أولا: لأن البحث يستمر من الأدنى إلى الأعلى، فكان لا بد أن يكون النقاش أولا عن الموت والحياة، ثم يتطرق إلى الشمس، وثانيا: إن سكوت نمرود يدل على أن الحديث عن الشمس كان في آخر الأمر. وثالثا: إنما جيء بإبراهيم إلى نمرود في جريمة كسر الأصنام، ويبدو أن ادعاء نمرود بالألوهية جاء في معرض النقاش، وإلا يكون الكلام بدون ترابط. القرآن يقول أن النقاش كان يدور حول ربِّه، أي ربه الواحد الأحد، وأثناء النقاش قال الملك: سأقتلك وأدمرك لأني أنا الحاكم، فقال إبراهيم: إن الله تعالى هو الذي يملك الحياة والموت. قال: لا، أنا أملك الحياة والموت. فأسرع إبراهيم وأوقعه في ورطة بحسب عقيدته وقال: فالشمس -هي أكبر الآلهة عندك- عبث إذن. فبُهت الذي كفر.

هناك بعض الفروق بين الأسماء المذكورة في هذا الحادث، ولكن تبين جليا مما ورد -في كتب اليهود- أن القرآن الكريم يشير إلى الحادث نفسه، ويؤكد ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿ألم تر﴾ فالله يشير بهذه الكلمة إلى حادث له وجود وأثر. إلا أن هناك تقديما وتأخيرا في ذكر بعض الأحداث في البيان اليهودي كما هو المعتاد عندهم.

وقد جاء في التلمود أن هذا الحوار بين إبراهيم ونمرود كان قبل أن يقيم إبراهيم في كنعان. وأرى أن قول إبراهيم لنمرود ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ (البقرة: ٢٥٩) لا يعني الموت والحياة في الظاهر، وإنما يعني النجاح والفشل، والعزة والذلة، والعمران والدمار. لقد وعده الله بأرض كنعان وبازدهار أولاده، لذلك قال إبراهيم ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيت﴾ أي هو سبحانه متصف بصفتي الإحياء والإماتة، يعز من يشاء ويذل من يشاء، ويجعل النجاح لمن يشاء والفشل لمن يشاء، ويكتب الغلبة لمن يشاء ويلحق الهزيمة بمن يشاء. فقال الملك ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ (البقرة: ٢٥٩) أي في يدي هذا الخيار أيضا، أعز من أشاء وأذل من أشاء. وكما ذُكر سابقا أنهم

كانوا يعتبرون الشمس أكبر آلهتهم، وكان الملك نفسه يعبدها، لذلك رد عليه إبراهيم بأن لله قانونا يحكم الشمس، فيأتي بها من المشرق، فإذا كنت تملك نفع الدنيا وضرها، فها هي الشمس بازغة أمامك تسير نحو الغرب، فأرجعها من الغرب إلى الشرق، ليكون ذلك دليلا على قدرتك على التصرف في أمور العالم وفي الشمس أيضا. أي إذا كنت أنت الذي تملك زمام هذا العالم نفعا وضرا، فماذا تفعل الشمس إذن؟ وإذا كانت الشمس تنفع وتضر الناس فدعواك بأنك تملك التصرف في العالم باطلة. وكما يذكر التاريخ فإن نمرود بُهت عندئذ ولم يُحرْ جوابا، لأنه لو أجاب فإما أن يقول: إنني لا أملك النفع والضر، ولكن الشمس هي التي تملك ازدهار الناس وانحطاطهم. ولو قال ذلك لبطلت دعواه، وإما أن يقول: أنا الذي أتصرف في نفع الناس وضرهم لا الشمس؛ فيثور قومه على هذا القول، لأنهم يعبدونها، وهو أيضا كان يعبدها. ولهذا قال القرآن الكريم ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ (البقرة: ٢٥٩).

وبهذا الحادث دلّل ربنا سبحانه على صدق قوله ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (البقرة: ٢٥٨) وبيَّن كيف أنه عز وجل ينجي عباده من المشاكل، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم من الفشل إلى النجاح.

كيف يحيي الله الموتى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦١).

يقول الله تعالى: تذكَّرْ عندما قال إبراهيم: يا رب، أرني كيف تحيي الموتى. فقال: أو لم تؤمن؟ قال: بلا، أي أؤمن إيمانا كاملا أن الله يحيي الموتى، وهو قادر على ذلك ولا شك أبدا. ولنتذكر أن أداة (بلى) سواء سبقها نفي أو إثبات، فهي تفيد الإثبات. أما (نعم) فتفيد الإثبات والنفي. فلو أجاب إبراهيم هنا بنعم، لكان المعنى لا أؤمن، أو نعم أؤمن، ولكن بقوله (بلى) أزال كل شبهة للنفي، وبيّن أنه مؤمن حقا. وبعد ذلك قال (ولكن ليطمئن قلبي)؛ فاستدرك بحرف (لكن) أي أنني أؤمن بقدرتك

على إحياء الموتى، كل ما في الأمر أني أريد شيئا زائدا، أريد أن يطمئن قلبي بأن الله سوف يحيي قومي بصفة خاصة. ومثال ذلك أن يكون هناك مريض، وهو يؤمن أن الله قادر على شفاء المرضى، ولكنه لن يطمئن أن الله سوف يشفيه هو أيضا ما لم يخبره الله بذلك، أو مثلا: يعرف الجميع أن الناس يشبعون بعد الجوع، ولكن هل هذا العلم يجعل أحد الجائعين يستيقن أنه سينال طعاما وأنه نفسه سوف يشبع؟ فالإيمان يتعلق بأمر غيبي مختفٍ عن نظر المؤمن، ويدل على يقينه الكامل بحدوث ذلك الشيء أو إمكانية حدوثه. أما الاطمئنان فإنه يأتي مقابل الشك أو مقابل الكرب والاضطراب. في الآية هنا لا يراد بالاطمئنان ذلك الذي يكون مقابل الشك، وإنما الذي يكون مقابل الكرب والاضطراب، ذلك لأن إيمانه ثابت مما قاله آنفا. كان إبراهيم مؤمنا بأن الله قادر على إحياء الموتى، ولكنه كان يريد أن يزول اضطرابه ويطمئن أن الله سوف يتجلى بقدرة الإحياء على قومه، ويحييهم مرة أخرى من فضله.

فقال الله له: خذ أربعة من الطير، وعامِلْها بتودد حتى تألفك، ثم ضعْ جزءا منها على كل جبل، ثم ادعها فتسرع إليك. واعلم أن الله غالب وذو حكمة.

يقول المفسرون إن الله تعالى أمر إبراهيم أن يأخذ أربعة من الطير ويفرم لحمها، ثم يضمه إليه، ثم يوزعه على الجبال. ولكن هذا المعنى خطأ ومخالف للأسلوب العربي. ذلك أنه لا معنى لأن يفرم المرء الطيور ويضم لحمها إليه. فالمعنى الصحيح هو أمِلْهُن إليك وألِّف بينها وبينك. كما ورد في المفردات والأقرب.

ويستدل البعض بكلمة (جزءا) على أن المراد هو فرم لحم الطير، ثم يأخذ جزءا من هذا اللحم المفروم ويجعله على الجبال؛ وهذا أيضا خطأ. فليس المراد جزءا من لحم الطيور، وإنما المراد جزء من هذه الطيور الأربعة، أي واحد منها، بمعنى: ضعْ كل واحد من هذه الطيور على جبل. ونظير ذلك في القرآن الكريم: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ* لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ (الحجر: ٤٤-٤٥). أي أن لكل باب من أبواب جهنم جزءا من هؤلاء الكفار. لا يفسر أحد

كلمة جزء هنا أن يفرم لحم الكفار ويخلطه ويُؤخذ جزء منه إلى كل باب من أبواب جهنم، بل أجمع المفسرون على أن بعضا من هؤلاء الكفار يدخلون من باب، والبعض الآخر من باب ثان، وهكذا (روح البيان). فقد بيّنت هذه الآية معنى (جزء) ووضحت أن الجزء من جماعة فردٌ أو عدد من أفرادها. وفي آيتنا هذه ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا﴾ لا يعني جزءا من اللحم المفروم؛ بل المراد: ضع طائرا منها على جبل، وثانيا على جبل ثان وهكذا.

لو أخذنا بالمعنى الظاهري لكان محلا لاعتراضات كثيرة. أولها: ما علاقة إحياء الموتى باستمالة الطيور؟ ثانيا: لماذا أربعة طيور؟ ألا يكفي واحد لتحقيق الغرض؟ ثالثا: ما الفائدة من وضعها على الجبال؟ ألا يكفي أن توضع في أي مكان آخر؟

الحقيقة أنه لا يمكن أخذ الكلام هنا حرفيا، وإنما له مدلول مجازي. لقد دعا إبراهيم: يا رب، لقد عهدتَ إليَّ بمهمة إحياء الموتى، فحقِّق لي هذه المهمة، وأرِني كيف تنفخ الروح في قومي. لقد أصبحت شيخا كبيرا، والمهمة ضخمة. فقال الله: ما دمنا قد وعدناك فلسوف يتحقق هذا الوعد. قال إبراهيم: أعلمُ أن هذا سوف يتحقق، ولكن أسألك على سبيل الاطمئنان، كيف تتغير هذه الأحوال غير المواتية؟ قال الله: عليك بتربية أربعة من أولادك، ليلبوا نداءك، ويكملوا مهمتك في إحياء القوم. وهؤلاء الطيور الأربعة الروحانيون هم: إسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السلام. لقد تمت تربية اثنين منهم على يد إبراهيم مباشرة، وتربية اثنين بطريق غير مباشر، والمراد من وضعهم على الجبل أن يربيهم في مستوى رفيع. وفي هذا أيضا إشارة إلى أنهم ذوو درجات عالية، ويبلغون الذُّرى في الروحانية. والمراد من وضع كل واحد منهم على جبل منفصل أن هذا الإحياء لأمته سوف يتم على فترات أربعة منفصلة، وبذلك كشف الله له صورة للإحياء القومي الذي كان سيتم قريبا من بعده. كما أشير فيه أيضا إلى أربعة أدوار من الرقي تأتي على قوم إبراهيم على المدى البعيد.

باختصار قال إبراهيم عليه السلام: ربِّ أرني كيف تحيي الموتى؟ فقال الله: ألم تؤمن بقدرتي؟ قال بلى، ولكن ليطمئن قلبي، أي إني أرى أنك تحيي الموتى، فلا أملك إلا الإقرار بذلك، ولكن قلبي يريد أن تتحقق آيتك هذه في نفسي، فتُظهر قدرتك هذه في حق أولادي أيضا، فقال الله: ستموت أمتك أربع مرات، وسوف نحييها أربع مرات. وبالفعل تم هذا، فأولا في زمن موسى عليه السلام رُفع نداء إبراهيم على لسان موسى. فتم إحياء هذا الميت لأول مرة. ثم رُفع هذا النداء في زمن عيسى عليه السلام، وأُحيِيَ هذا الميت. ثم في زمن رسولنا محمد ﷺ رُفع هذا النداء الإبراهيمي وقام قومه من الموت إلى الحياة. وفي المرة الرابعة في زمن الإمام المهدي رفع هذا النداء وأعيدت الحياة إلى هذا الميت. نادى إبراهيم ذريته أربع مرات، واجتمعوا حوله أربع مرات. الطير الأول الذي ناداه إبراهيم ونال بذلك اطمئنان القلب هو قوم موسى، والطير الثاني هو أمة عيسى، والطير الثالث هو جماعة محمد ذات المظهر الجلالي المحمدي، والطير الرابع هو الجماعة الإسلامية الأحمدية ذات المظهر الجمالي الأحمدي. وهكذا أراح الله قلب إبراهيم. فقال: نعم، إن ربي يحيي الموتى.

وقوله (بلى، ولكن ليطمئن قلبي) إنما يعني أن لساني وعقلي وفكري وحواسي ومشاهدتي تقر بأنك تحيي الموتى، فكل يوم أرى أنك تحييهم، ولكن إذا لم يهتدِ أولادي فلن يطمئن قلبي، ولاطمئنان قلبي أسألك آية تتحقق في أولادي. فقال الله له: سوف نحيي أولادك أربع مرات، ونتفضل عليهم بأفضال خاصة أربع مرات. ولقد تحقق هذا الوعد في هذه الأدوار الأربعة، وأنزل الله أفضالا خاصة على أولاد إبراهيم، وأحياهم حياة روحانية.

فهذا نبأ للزمن البعيد والقريب كليهما بإحياء قوم إبراهيم، وقد تحقق النبأ في وقته بكل روعة، وتبين للناس أن الله عزيز حكيم.

طاعة إبراهيم لأوامر الله تعالى:

يقول الله تعالى: تذكروا عندما أردنا أن نبرز الخير والتقوى في إبراهيم، ليطلع إبراهيم على كفاءات روحية خفية فيه. أمره الله بعض الأوامر لإظهار كفاءاته فأطاع إبراهيم ما أمر الله به، وهكذا علم الناس أن الكفاءات والطاقات العالية للطاعة في إبراهيم هي نادرة المثال ولا توجد في أحد. فمثلا أمره الله أن يذبح ابنه البِكر في سبيله، وعندما استعد للعمل بهذا الأمر ظاهرا قال الله له: ليس هذا هو مرادنا، بل مرادنا غير ذلك. ثم ظهرت إرادة الله هذه حين أمره أن يترك هاجر وإسماعيل في واد غير ذي زرع. فذهب بهما إلى هناك وتركهما، وهكذا نجح في هذا الامتحان، وعرف العالم أن إبراهيم يلبي كل ما يأمره الله به مهما كان هذا الأمر في بادئ النظر مروعا ومخيفا.

قيل هنا ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ (البقرة: ١٢٥)، و"كلمات" صيغة جمع تدل على الكثرة، مع أن المشهور عنه حادث واحد، وهو حادث الإقدام على ذبح ابنه. ولكن التلمود يكتب أن إبراهيم قد ابتُلي عشر مرات (التلمود Babylonian Talmud, V1p108).

وفي قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ (البقرة: ١٢٥)، لا يراد بالإمامة النبوة، لأن إبراهيم كان قد نال النبوة من قبل. وإنما المراد أنه سيكون نموذجا وأسوة للعالم، وسوف يتبعه الناس بكثرة. وكلمة (للناس) تشير إلى مجموعة كبيرة من الناس.

والحق أن هذا وعد لإبراهيم يتعلق بالمستقبل، وإلا لم يكن معه في ذلك الزمن إلا قليل من الناس. انظروا اليوم فإنه يعتبر إماما ومقتدى في معظم العالم، ويذكره الناس بكل تقدير واحترام، كل نبي يكون أسوة لقومه لا شك، ولكن لا يكون كل نبي أسوة للعالم كله، ولكن إبراهيم هو الوحيد بين الأنبياء السابقين (عليهم السلام) الذي يذكر بين الأقوام بالتبجيل والاحترام. خذوا مثلا المسيحيين، فإنهم لا يحترمون موسى كما يحترمون إبراهيم، ويذكرون سيدنا عيسى بوجه خاص بالتبجيل لأنهم يعدّونه من ذرية إبراهيم، وإلا فإنهم لا يتورعون عن اتهام الأنبياء الآخرين بالسرقة

والخيانة (يوحنا ١٠:٨). ولكنهم يحترمون إبراهيم كثيرا، وهذا هو معنى (إني جاعلك للناس إماما)، أي سنجعلك بحيث يقتدي الناس بأقوالك وأفعالك.

ثم انظروا إلى الحج الذي هو منسك بارز بين العبادات الإسلامية. هذا الحج أقامه إبراهيم، وعن طريق الحج يذكره العالم إلى اليوم. كذلك إنه يذكر عند تقديم الأضاحي. إننا من الأمة المحمدية ومع ذلك فإننا نذكر تضحية إبراهيم عند كل عيد للأضحية. ولكن ليس في الإسلام أي يوم معين لموسى وعيسى يُذَكِّرنا بفعلهما ويجدد ذكراهما، ولكن لإبراهيم ولذكراه يوم خاص عند المسلمين أيضًا.

صحيح أن إبراهيم أعطي الإمامة بعد النبوة، ولكن السؤال هنا هو: هل الإمام من حيث معناه اللغوي يعني منصبا يتلقاه الإنسان بعد النبوة؟ إذا كانت الإمامة منصبا يتلقاه بعد النبوة وكانت أرفع من النبوة، فلا بد لنا من التسليم بأن بعض الأنبياء لا ضرورة لطاعتهم لأن اللغة تعلمنا أن الإمام هو المؤتم به والذي يطاع، وأن إبراهيم لم يكن من الضروري أن يطيعه الناس قبل أن ينال منصب الإمامة وإن كان نبيا. وهذا غير صحيح، لأن الله يقول ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (النساء: ٦٥). وهذا يدل على أن الله قد فرض على الناس طاعة كل نبي بمجرد أن يصبح نبيا. وبناء على ذلك لم تبق الإمامة منصبا منفصلا عن النبوة، وإنما صارت الإمامة صفة لازمة للنبي.

ولكن الله يقول عن إبراهيم ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: ١٣٢). هذا الأمر صدر إليه بعد النبوة، وعندما قال إبراهيم: أسلمت، أشاد الله بإسلامه كثيرا. مع أنه عندما قالت الأعراب (آمنا) قال الله لهؤلاء المدعين بالإيمان: لا تقولوا آمنا بل قولوا أسلمنا، لأن الإيمان لم يدخل إلى الآن في قلوبكم. وكأن إسلامهم دون الإيمان.

إذن فليست الإمامة وحدها أرفع درجة من النبوة، وإنما الإمامة التي ينالها النبي بعد النبوة شأنها شأن الإسلام فلا يكون إسلام كل شخص أسمى درجة من النبوة، وإنما يكون ذلك الإسلام الذي يصل إليه النبي بعد نيل النبوة أسمى درجة من النبوة.

فكل شيء يتحدد بدائرته المستقلة. هناك إسلام هو أدنى من الإيمان، وهناك إسلام يناله الإنسان بعد الإيمان، وهناك إسلام يناله الإنسان بعد نيل النبوة أيضًا.

الوعد الإلهي لإبراهيم:

الحقيقة أن قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ (البقرة: ١٢٥) يعني أن يا إبراهيم، أنت نبي لقومك ولاشك، ولكنك ما دمت قد نجحت في هذه الاختبارات كلها و لم تتزلزل قدمك، بل لَبَّيْتَ أوامري بكل شجاعة، وأسكنت زوجتك وابنك في برية ليس فيها قطرة من الماء ولا قشة من الكلأ، وتقبلت الموت لنفسك ولأهلك، لذلك سوف أنعم عليك، وأجعل حدثك هذا نموذجا للعالم كله إلى يوم القيامة. كلما نلقِّن الناس الثبات في ميادين الابتلاء والاختبار سنقدم وقائع موقفك هذا مثالا ليتأسوا به. سوف نجعل حدث حياتك الجليل هذا نبراسا للسائرين في هذا السبيل، ونموذجا وقدوة للناس إلى يوم القيامة

وقوله تعالى ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ١٢٥). عندما قُطع لإبراهيم الوعد عن مستقبله، فكر أني ما دمت سأكون نموذجا للناس من بعدي، فيجب أن يكون هناك سبيل لهداية ذريتي، فقال: إلهي، أسألك أن تستُر أولادي أيضًا بيد رحمتك. فقال تعالى: حسنا، ولكن عهدي هذا لن يصل إلى الظالمين. ولا يعني ذلك أن كل ذريته ستكون ظالمة، وإنما يعني أن الأولاد على قسمين: قسم يكون ظالما، وقسم يكون مسلما مطيعا. ونفى الله وعده عن الأولاد الظالمين، وأقر استمرار النعمة في أولاده المطيعين.

و(عهدي) يمكن أن يُفسّر بطريقين؛ الأول: العهد بمعنى المعهود، أي أن هذا الشيء الذي أعدك به لن يناله الظالمون، والثاني: أنني لا أقطع أي عهد للظالمين، وإنما أقطعه لغير الظالمين، أي الأمة التي تكون ظالمة في مجموعها سوف أنــزع منها سلسلة النبوة.

يتبين من هذه الآية أولا: أن الله وعد إبراهيم أنه سوف يجعله إماما، وثانيا: أن إبراهيم التمس من الله تعالى أن يُوسع هذا الوعد لأولاده أيضًا، فوعده بذلك وعدا

مشروطا، وقال له إن بعض أولادك سوف يتمتعون بهذا العهد، ممن لم يحرموا أنفسهم من هذه النعمة بسبب ظلمهم القومي. فما دام بنو إسرائيل مستحقين وفّى الله معهم هذا العهد، وعندما أصبحوا كقوم غير جديرين بالوفاء لهم بنعمة هذا العهد نقله الله منهم إلى الفرع الثاني من أولاد إبراهيم - وهم بنو إسماعيل.

وأرى أن الأمر نفسه قد ذكر في هذا المكان بأن منصب الإمامة لن يناله بنو إسحاق، لأنهم كجماعة صاروا ظالمين. نعم سيناله بنو إسماعيل لأنهم كجماعة لن يكونوا ظالمين، بل سوف يكون في كل زمن أناس يؤمنون بنـــزول وحي الله فيهم، ولأجل ذلك جُعل النبي ﷺ إماما لكل العالم. ومن بين أمته قد وُهب هذا المنصب والمقام في هذا الزمن لسيدنا المهدي والمسيح الموعود.

الكعبة المشرفة ومقام إبراهيم عليه السلام:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (البقرة: ١٢٦)

البيت هو اسم للكعبة المشرفة. ويقال لها البيت لأنها تتضمن كل خواص البيت. ومثال ذلك قولنا: زيد الرجل، والمراد أن زيدا يحمل كل الخصال التي يمكن أن توجد في شخص عاقل. فما هي خصوصيات البيت؟

أولا — يحفظ من السرقة والنهب،

ثانيا – مكان إقامة دائمة،

ثالثا — يحفظ مال الإنسان ومتاعه،

رابعا — يجمع الأقارب والأعزاء،

خامسا — مكان آمن إذا دخله الإنسان نجا من المصائب.

ولو تدبرنا في هذه الخصوصيات الخمس لوجدناها متوفرة في الكعبة المشرفة، فهي تستحق في الواقع أن تسمّى بيتا. فلو أخذنا معنى الحفاظة - فإن الناس يدمرون القلاع الحصينة ويفنون سكان المدن الكبيرة، ولكن الكعبة المشرفة تتميز بأن الله

تعالى وعد بحفظها على الدوام. كل من أراد أن يهاجمها شلّ الله يده أو كسرها. وما حدث لأبرهة مثال باق للأبد على ذلك.

وقبل أن يهاجم جيش أبرهة الكعبة تفشى فيهم مرض الجُدري، وبدأوا يموتون كالكلاب الضالة، وأخيرا دبت فيهم الفوضى والخوف وتراجعوا عن حصار الكعبة بعد أن مات ألوف في الوديان تائهين.

فتعني كلمة (البيت) أن الناس سوف يتمتعون فيه بالحماية الحقيقية. إنه بيت الله الذي لا يمكن أن يفلح أي عدو في الهجوم عليه.

والميزة الثانية للبيت أنه مكان إقامة دائمة، وبهذا المعنى فإن بيت الله هو الذي يستحق أن يسمى بيتا، لأن الحياة الأبدية إنما تُنال في بيت الله. والذين لا يذهبون إلى بيت الله تعالى لا حياة لهم، ولا قيمة لحياتهم. أما البيت الدنيوي فيقول الله عنه: (متاع قليل) وأما عن بيته فيقول ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي* وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر: ٣٠-٣١).. أي عندما يصبح الإنسان عبدا صادقا لله تعالى، ويصبح المسجد بيتا له فإنه يدخل الجنة. فهذا هو البيت الذي يمكن أن يُمتّع الإنسان بحياة أبدية.

والميزة الثالثة للبيت أنه مكان لادّخار الأموال والأمتعة. وهذا البيت فيه ذخائر البركات الروحانية، وهو الذي يحفظها. أما الذخائر الأخرى مهما كانت غالية وقيِّمة فإنها تضيع، ولكن الوقت الذي يبذله الإنسان في عبادة الله تعالى فلا يضيع، بل كل لحظة يقضيها في ذكر الله وعبادته يحولها الله إلى آلاف النعم الروحانية، ويحفظها ذخيرة ويمتّع عبده بها.

والميزة الرابعة للبيت أنه مكان لاجتماع الأقارب كلهم. وهذه الخصوصية موجودة أيضًا في الكعبة المشرفة بصورة كاملة؛ لأن مسلمي العالم أجمع يجتمعون هناك كل عام للحج، ويزيدون إيمانهم بالاجتماع مع إخوانهم.

ثم إن الكعبة المشرفة مكان لاجتماع الناس بشكل آخر. فالمكان الذي سيجتمع فيه الإنسان مع أقاربه وأحبائه هو الجنة، والمسجد ظل للجنة يجتمع فيه المسلمون خمس مرات يوميا، ويسجدون أمام ربهم، ويطلعون على أخبار بعضهم.

والميزة الخامسة للبيت أن الإنسان يتمتع فيه بالأمن عموما. وهذا أيضًا يتيسر في الكعبة المشرفة، لأن الأمن إنما يتيسر للإنسان فقط إذا انمحت كل النـــزاعات. والكعبة المشرفة هي المكان الوحيد الذي لكونه مركزا للتوحيد يمكن أن يكون ذريعة لاتحاد العالم كله وجمعهم حول مركز واحد.

فالكعبة المشرفة هي البيت الحقيقي والكامل في الواقع، إذ تتمتع بكل الخصوصيات التي ينبغي أن تكون في البيت.

وقوله تعالى (مثابة للناس وأمنا)؛ المثابة هي مكان اجتماع الناس بعد تفرقهم. لقد ذكر هنا بأن بيت الله قد أقيم لكي يجمع العالم كله على مركز واحد، وعن طريق هذا البيت يجتمع مرة أخرى كل أولئك الذين تفرقوا، بمعنى أن هذا البيت متعلق بدين عالمي، إنه سوف يكون سببا لتوحيد العالم كله. والكعبة المشرفة وحدها التي تحمل خصوصية أنها جامعة لأمم العالم كلها على مركز واحد، فقد أعلن النبي ﷺ بأنه قد بعث للعالمين (الأعراف: ١٥٩)، ثم أعلن أنه سوف يُجمع على يده كل الأمم والجماعات المتفرقة في دين واحد. وانظروا كيف تحقق هذا النبأ بطريقة عجيبة ومدهشة. منذا الذي يمكن أن ينبئه بجمع الناس هكذا إلا الله تعالى؟ أما الذي قُدّر للنبي ﷺ في مستقبل الأيام فإنه أكثر من ذلك كثيرا؛ فقد أعلن سيدنا المهدي والمسيح الموعود أن الله تعالى سوف يجمع عن طريقه الأمم كلها، وسوف يأتي وقت يصبح فيه الأشرار كالمنبوذين. فقد قال (لقد خطط الشيطان لإهلاك آدم واستئصاله، وطلب من الله المهلة فأمهله إلى يوم الوقت المعلوم. وبسبب هذه المهلة لم يقضِ عليه أي نبي. أما الوقت الذي حُدِّد لقتله وهلاكه فهو أن يقتل على يد المسيح الموعود. كان ينطلق في الأرض كاللصوص وقطاع الطرق ولكن حان هلاكه الآن. إلى اليوم كان هناك قلة من الأخيار وكثرة من الأشرار، ولكن سوف يهلك الشيطان ويكثر الأخيار، أما الأشرار فسوف يصبحون أذلة كالمنبوذين وعِبرة للآخرين) (جريدة الحكم، مجلد٥، عدد ٣٤، ١٩٠١/٩/١٧).

أرى أن زمن تحقق هذا النبأ القرآني بصورة كاملة هو زمن المهدي والمسيح الموعود، لأنه في شخصه اجتمع بنو إسحاق وبنو إسماعيل. فنرى أن هذا النبأ يتحقق بالفعل بعد ثلاثة عشر قرنا، ويقبل الإسلام ويدخل في الأحمدية أهل أوروبا وأمريكا وأفريقيا وأستراليا والهند والصين وجاوا وسومطرة والإيرانيون والمغول والأفغان والراجبوت والباتان وغيرهم وغيرهم، فلا يوجد ملة ولا مذهب إلا ويدخل أهلها في الإسلام عن طريق الأحمدية، ويتحقق صدق هذا النبأ القرآني بأننا جعلنا هذا البيت جامعا للناس المتفرقين.

ومن حيث إعطاء الأمن للآخرين فإن الكعبة تختص بذلك بطريقة لا مثيل لها في الدنيا. كل شيء في الحرم يتمتع بالأمن حتى الحيوان حرام صيده. بل إن قطع الأشجار حرام، إلا الإذْخر وهو نوع من العشب والكلأ. ويتمتع الإنسان بالأمن لأن القتال والحرب محرمان في حدود الحرم (البخاري: فضل الحرم). هذا بالإضافة ما ينعم به الإنسان من حفظ الله بسبب التقوى والروحانية.

ومقام إبراهيم موضع خاص عند الكعبة، أُمر المسلمون بأداء ركعتين نفلا فيه بعد الطواف بالبيت. ويبدو أن إبراهيم بعد أن فرغ من بناء الكعبة صلى في هذا المكان صلاة شكر لله، وإحياء لهذه السنة الإبراهيمية أمر الله المسلمين بأداء ركعتين هناك. إن الناس يظنون خطأ أن المراد من (مقام إبراهيم) موضع مادي، مع أن المقام الحقيقي لإبراهيم هو مقام الإخلاص والتقوى والاستسلام الذي كان يتمتع به، والذي عن طريقه رأى ربه. وكأنه يقول: عليكم أن تحبوا الله كما أحب إبراهيم ربه، وتضحوا في سبيل الله كما فعل، وتشتركوا في فعل الخيرات بالإخلاص والحب والتقوى والإنابة نفسها التي كان يتمتع بها إبراهيم. لو فعلتم ذلك لنلتم مقامه.

لقد قال الله من قبل إننا جعلنا بيت الله مثابة وأمنا للناس، ولكنه لم يذكر من الذي بنى هذا البيت. ويبدو من هذه الآية أن إبراهيم هو الذي أرسى الأساس لبيت الله، ولكن هذا غير صحيح، لأن الله تعالى لم يقل هنا (وإذ يضع إبراهيم القواعد)

وإنما قال (وإذ يرفع إبراهيم القواعد)، وهذا يدل على أن بيت الله كان موجودا من قبل، ولكنه قد تهدم، ورفع إبراهيم هذا الأساس بإذن الله، وأقامه من جديد.

وكذلك ورد في الأدعية التي دعا بها إبراهيم ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ (إبراهيم: ٣٨). وكلمة (عند بيتك المحرم) تبيِّن أن بيت الله الحرام كان موجودا هناك من قبل، لأن هذا الدعاء صدر من سيدنا إبراهيم عندما كان ابنه إسماعيل طفلا صغيرا جاء به مع أمه هاجر وأسكنهما هناك، وأطلع الله إبراهيم بالوحي على هذا المكان وأخبره أن هذا هو أول بيت بُني لله تعالى.

وتؤكد الأحاديث أيضًا وجود آثار لبيت الله قبل قدوم إبراهيم إلى هذا المكان، فقد ورد أنه لما ترك إبراهيم هاجر وإسماعيل هناك قالت (يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟ قالت له ذلك مرارا، وجعل لا يلتفت إليها. فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيِّعنا. ثم رجعت، فانطلق إبراهيم إذ كان عند الثنية -حيث لا يرونه- استقبل بوجهه البيتَ ثم رفع يداه ودعا بهؤلاء الدعوات (البخاري، كتاب الأنبياء).

عظيم التضحية وشدة التواضع والتذلل لله ﷻ:

أما قوله تعالى ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٨) فاعلم أن من شأن الأنبياء وعظمتهم أنهم -إلى جانب العمل والسعي- يشتغلون بالدعاء. الناس يعملون قليلا ويتفاخرون، ويقولون ضحينا بكذا وكذا؛ ولكن انظروا إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام فإنه أولا استعد لذبح ابنه البِكر، ثم عندما كبر ابنه أخذه إلى برية لا طعام فيها ولا ماء، ثم إنه رضي بموته من خلال بناء الكعبة وإبقائه في جوارها إلى الأبد. وأقول موته للأبد لأنه كان من الممكن أن يغادر إسماعيل هذا المكان إلى مكان آخر بعد رجوع إبراهيم من هناك، ولكن بناء البيت الحرام قيَّد إسماعيل عليه السلام هناك فلا يبرحه. وكأن كل لبنة من الكعبة المشرفة كانت تقول بلسان حالها لإسماعيل عليه السلام: الآن سوف تقضي كل حياتك في هذا البرية.

ما أعظم تضحية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام! ولكن لاحِظوا تذللهما لله تعالى إذ يبتهلان بعد ذلك (ربنا تقبل منا)؛ يا رب جئناك بهدية متواضعة، فتغاضَ عن تقصيرنا، وتقبَّلْها بفضلك ورحمتك. انظروا كيف يتضرعان ويتوسلان لله تعالى ليتقبل هديتهما! فكلمة (تَقَبَّل) من باب التفعُّل الذي يُستخدم تعبيرا عن التكلف والتأكيد. فكأنهما يقولان: يا رب، تقبل تضحيتنا هذه بمحض رحمتك، مع أنها كانت تضحية عظيمة بحيث لا نجد لها نظيرا في العالم. كان الأب يضحي بابنه، والابن بأبيه، وكانت كل لبنة من الكعبة المشرفة تقيدهما بتلك البرية التي لا ماء فيها ولا كلأ، بل إن إبراهيم بنفسه كان يدفِن في بناء هذا البيت عواطفه وأحاسيسه، ومع ذلك يدعو ويبتهل إلى ربه قائلا: يا رب إن هذه الهدية لا تليق بالقبول عندك، ولكن نتوسل إليك أن تتقبلها برحمتك وفضلك.

ما أعظم هذا التذلل الذي أبداه إبراهيم! والحقيقة أن حالة القلب هذه هي التي ترفع قدر الإنسان، وإلا فكل إنسان يضع اللبنات ويبني العمارة. ولكن إذا كان هناك قلب إبراهيمي عندئذ تتيسر هذه النعمة التي يسرها الله لإبراهيم (عليه السلام).

هذه هي الروح التي تحلّى بها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. وهما يرفعان قواعد بيت الله قائلين (ربنا تقبل منا): إننا شيدنا هذا البيت خالصا لتوحيدك ومحبتك، فتقبل هذا منا بفضلك، واجعله مكان ذِكر وبركة للأبد، (إنك أنت السميع العليم) تسمع ضراعتنا الحارة، وتعلم أحوالنا، فإذا قررت أن يبقى هذا البيت للأبد خاصا لذكرك فمنذا الذي يمكنه أن يغيّر قرار

العهد إلى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بتطهير البيت:

وقوله تعالى ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (البقرة: ١٢٦). يخبر الله هنا ما هو مقام إبراهيم. عهد إلى فلان يعني نصحه نصيحة مؤكدة، وأوصاه مرارا وأكد له. فالمعنى أننا أكدنا أيما تأكيد عليهما (أن طهِّرا بيتي)؛ قوما بتطهير بيتي وحمايته من العيوب والخراب. (للطائفين) الذين يطوفون حوله، أو الذين يزورونه مرة بعد أخرى، (والعاكفين) الذين يعتكفون

فيه أو الذين يقفون حياتهم لمجاورته، (والركع السجود) الذين يؤمنون دائما بتوحيد الله ويبقون مستعدين لتوطيد التوحيد، ويقضون حياتهم في طاعته والانقياد له، أو الذين يركعون ويسجدون. فالركوع والسجود هنا ظاهري وروحاني أيضًا.

وقد يشير قوله تعالى (طهرا بيتي) إلى أنه سيأتي زمن سوف يضع الناس الأصنام في بيت الله، فمن واجبكم أن تطهروا هذا البيت منها وتلقوها خارجه. وبحسب هذه الوصية طهر الرسول ﷺ بيت الله وأخرج منه أصناما بلغت ٣٦٠ صنما (السيرة النبوية لابن هشام، فتح مكة).

الرسل الذين بشروا بهلاك قوم لوط عليه السلام:

مَن هم هؤلاء الرسل الذين أخبروا إبراهيم بهلاك قوم لوط عليهما السلام؟ يرى بعض المفسرين أنهم أُناس، بينما هم ملائكة عند الآخرين. وأرى أنهم بشر سُمّوا ملائكة لصلاحهم، كما وُصف سيدنا يوسف ملكًا في القرآن الكريم. ولو قيل: لماذا لم يزفّ الله البشرى لإبراهيم مباشرة دون واسطة هؤلاء الرسل؟ فالجواب أنه قد جرت سُنّة الله فيما يتعلق بالأنبياء "أن المرء يَرى ويُرى له" بمعنى أنه تعالى يخبر المؤمن بمشيئته بطريق مباشر وأيضًا بواسطة الآخرين. وبما أن هؤلاء الرسل كانوا متجهين إلى لوط بهدف خاص، وكان عليهم أن يمروا على إبراهيم أيضًا ليخبروه بالعذاب، فلذا زفّ الله بواسطتهم البشرى لإبراهيم حتى تخفّ صدمته بخبر العذاب. وبما أن إبراهيم ولوطًا عليهما السلام كانا غريبين في المنطقة، إذ كانا قد هاجرا إليها من بلاد أُخرى، فمن الممكن تمامًا أن يكون الله تعالى قد أوحى إلى بعض صلحاء تلك البلاد يخبرهم بهلاك القوم، لكي يأخذوا لوطًا إلى مكان محفوظ قبل حلول واقتراب موعد العذاب، حيث أن لوط قد تلقى من الله تعالى نبأ هلاك القوم من قبل وكان قد أنذرهم منه.

فما أن وصل الضيوف بيت إبراهيم حتى قام لتوّه فذبح عجلاً وقدمه إليهم شواءً طيّبًا، دون أن يسألهم ما إذا كانوا قد تناولوا الطعام، أو ماذا سيأكلون؟ الآن أم بعد قليل؟ ولكنه عندما وجدهم لا يأكلون أدرك على الفور أن وراءهم هدفًا لم ينتبه

إليه، لأهم لو كانوا مسافرين عاديين لقبلوا ضيافته، فإن المسافر في مثل هذه البرية لا يستطيع العيش بدون الاستجابة لمثل هذه الدعوة. وقد قلق في نفسه أن يكون قد قصّر في إكرام ضيوفه مما كرّه إليهم أكل طعامه. ولكنه لم يبد قلقه بلسانه، إذ ليس من اللباقة أن يقول أحد لضيفه: هل قصّرت في ضيافتك، لأن هذا قول محرج. ولكن هؤلاء أيضًا لاحظوا قلق إبراهيم وحيرته من أمارات وجهه، فهدّأوا من روعه قائلين: لا تقلق، فإننا لم نترك الطعام لتقصير منك في ضيافتنا، وإنما جئناك حاملين خبر العذاب لقوم لوط لذلك لا نرى من اللائق أن نأكل بهذه المناسبة...

وقد بدا على سيدنا إبراهيم الخوف ولكن ليس على نفسه، وإنما على قوم لوط ﷺ، ومثل هذا الخوف لا يقدح في شأن النبي، بل هو على عظيم تقواه وسمو أخلاقه. فأول ما سمع إبراهيم نبأ هلاك القوم أصابه الفزع وتحير في أمره، ولكنه لما تلقى البشارة من الله بأنه سوف يعوّضه بأُمّة أفضل من الأشرار الهالكين خفّ همه وهدأ باله برؤية هذه المحبة الإلهية، فتشجع وبدأ يتوسل إليه عز وجل مسترحمًا لقوم لوط.

ما أكثر ما كان إبراهيم حظوة لدى الله، فإنه تعالى لم يقل له: اسكت فإنني لن أسمع لدعائك، بل قال له في لطف: دعك يا إبراهيم من هذا السؤال، فقد حان الآن ميعاد ربّك وقد جف القلم، ولا رادَّ لقضاء الله.

... لما لاحَظَ الضيوف آثار القلق لدى إبراهيم زفّوا إليه البشرى الخاصة به وقالوا: إن الخبر المحزن الذي أتينا به لا يخصك، بل نبشّرك بولادة غلام عليم.

ولا جرم أن هؤلاء الضيوف أو أحدًا منهم قد تلقى وحيًا حول ما سيحدث مع إبراهيم ولوط عليهما السلام، ولا غرابة في ذلك، إذ هكذا جرت سنة الله تعالى فيما يتعلق بالأنباء، فقد قال النبي ﷺ "يراها المؤمن أو تُرى لـــه" (الترمذي: الرؤيا) بمعنى أنه ﷻ يخبر المؤمنَ بمشيئته ﷻ مباشرةً وبواسطة الآخرين أيضًا.

وعندي أن إبراهيم ولوطًا كانا غريبين في تلك المنطقة إذ هاجرا إليها من العراق، حيث ورد في التوراة أنهما كانا من سكان قرية للكلدانيين اسمها أُور (تكوين ١١:

٢٨ و٣١). وبعد ما اشتدت المعارضة وحاول قومه إحراقه في النار التي جعلها الله ﷻ برْدًا وسلامًا عليه، قام إبراهيم بالهجرة إلى أرض كنعان حيث يخبرنا سبحانه وتعالى: ﴿ونَجَّيْناه ولوطًا إلى الأرضِ التي بارَكْنا فيها لِلعالَمين﴾ (الأنبياء: ٧٢)، أي نجّاه الله إلى أرض كنعان التي تسمى اليوم فلسطين حيث توجد أماكن مقدسة لليهود مثل أورشليم وغيرها. (راجع أيضًا تكوين ١٢: ٥)

وكانت تلك المنطقة شبه غريبة للوط لأنه قد أتاها قبل فترة قصيرة، وكان خروجه من بين أهلها المجرمين سوف يعرّضه لكثير من الصعوبة والعناء؛ فأوحى الله إلى هؤلاء الضيوف -الذين كانوا على ما يبدو من سكان المنطقة نفسها- أن يقوموا بتهدئة خاطر لوط وأن يشيروا عليه بالمكان المناسب الذي سيهاجر إليه.

وأما قول الضيوف لإبراهيم ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ ففيه تأكيد وتسلية من الله تعالى لإبراهيم عليه السلام الذي كان رقيق القلب جدًّا حيث يخبرنا الله تعالى ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (التوبة: ١١٤). ذلك أن خبر هلاك القوم كان سيمثّل صدمةً فاجعة لإبراهيم، فتخفيفًا من صدمته زفّ الله لــه البشرى بولد عليم بواسطة هؤلاء الضيوف. فكأنه تعالى أنــزل السكينة على قلب إبراهيم وقال: إذا كنا سنُهلِك قومًا فاسدين من جهة، فإننا من جهة أخرى نرسي الأساس لأمة صالحة أيضًا.

ولما كان العلم الحقيقي إنما يحصل بالنبوة فقد تنطوي كلمة ﴿غلام عليم﴾ على البشارة بكون هذا الغلام أي إسحاق نبيًّا أيضًا. قال لــه الضيوف: لم نبشرك عن فراغ؛ إذ لا حقَّ لنا كبشر أن ندلي بنبأ كهذا، إنما البشرى من الله تعالى، ونزفّها إليك بما مَنَحَنا الله من حق؛ أو المعنى أننا نزفّها إليك بناء على أوامره التي آتانا إياها نظرًا إلى الظروف السائدة، فلا تقنُطْ من رحمة الله.

وقولهم: ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾ يدل على أن هؤلاء الضيوف كانوا بشرًا وكانوا غير مطلعين على درجة إبراهيم في التوكل على الله. لو كانوا ملائكة لما خاطبوا إبراهيم بمثل هذه الكلمات لأن الملائكة كانت تعرف جيدًا مقام إبراهيم في التوكل على الله تعالى.

لما سمع إبراهيم قولَهم ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِين﴾ ردّ عليهم بنبرة قوية: هل تظنونني ضعيف الإيمان. إنه لا ييئس من رحمة الله إلا أهل الضلال؟ إنني واثق برحمة ربي الثقة كلها، إنما أقصد من سؤالي أن أعرف: هل هذه البشرى من قبيل ثرثرة المنجمين، أم أن الله تعالى هو الذي أخبركم بها بالوحي. أما وقد كشفتم حقيقة الأمر فلم يبق لديّ الآن أدنى شك في صحة البشرى.

لاحظوا الغيرة الإيمانية عند إبراهيم عليه السلام. فهو مضياف لدرجة أنه ما لبث أن ذبح عجلاً وقدّمه لضيوفه شواءً لذيذًا، وحين وجدهم لا يأكلون خاف أن يكون قد فرّط في ضيافتهم، ولكن لما قال له الضيوف ﴿فلا تَكُنْ من القانطين﴾ ثارت غيرته الإيمانية، فأجابهم من فوره ﴿ومَن يَقنَطُ من رحمة ربِّه إلا الضالّون﴾؟ أي أن المؤمن لا ييئس من رحمة الله أبدًا. هكذا يغار أنبياء الله عز وجل على إيمانهم ودينهم. فكم هو حريّ بكل مؤمن أن يبدي الغيرة من أجل إيمانه متأسيًا بأسوة هؤلاء الكرام! لو كان هناك شخص آخر مكان إبراهيم لقال لأولئك الضيوف: كيف أصدّقكم وقد غزاني المشيب، ووهنت عظامي واضمحلت قوتي. ولكن إبراهيم يقول: إذا كان الخبر من البشر فأرى فحصه واجبًا، وأما إذا كان من عند الله تعالى فإني أصدّقه بالرغم مما أصابني من وهن وضعف.

عندما تبين لإبراهيم أنهم لم يجدوا في ضيافته أي تقصير كما لم يأتوا له بأي خبر مخيف أدرك من فوره أنهم جاءوه بهدف آخر، إذ لو كان قصدهم زفَّ البشرى إليه فحسب لما أصابهم هذا الذعر والحزن؛ فلا شك أنهم يحملون خبرًا آخر أكثرَ خطورة، ولا يمكن أن يكون خبرًا سارًّا وإلا لما عافَوا الطعام. ولذلك سألهم ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾؟ (الذاريات: ٣٢) أراكم مذعورين قلقين؛ وهذا يعني أنكم لم تأتوا لتبشروني بالمولود فقط، إنما وراءكم أمر آخر أكثر خطورة.

إن هذا الاستدلال من إبراهيم عليه السلام أيضًا يدل بكل وضوح على أنه كان يعتبر الضيوف بشرًا، ومن أجل ذلك نجده لا يطمئن رغم تلقيه بشارة الابن على لسانهم، بل يستنتج من امتناعهم عن الأكل أنهم قد جاءوا بخبر محزن. فلو أن إبراهيم اعتبرهم

ملائكة بسبب البشرى التي زفّوها إليه لما اندهش على امتناعهم عن الأكل، ولما سألهم: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُون﴾، أي ما هو هدفهم الحقيقي إذن؟ ذلك أن إبراهيم لم ينتبه إلى أن وراءهم أمرًا خطيرًا آخر إلا بشيء واحد، هو امتناعهم عن تناول الطعام رغم كونهم بشرًا. فقال لهم: أراكم محزونين ولأجل ذلك لا تأكلون. فأجابوه قائلين: الأمر هكذا، فإننا قد أُرسلنا بخبر نزول العذاب على قوم مجرمين.

ويبدو أن الله أخبر هؤلاء الضيوف أو بعضهم عن نجاة آل لوط بواسطة الإلهام أو الرؤيا، ولكن لم ينكشف لصاحب الرؤيا مصير زوجة لوط انكشافًا واضحًا، غير أنه فهم منها أن زوجة لوط أيضًا من الهالكين، ولذلك لم يؤكد هؤلاء على هلاكها وإنما اكتفوا بقولهم بأنها بحسب تقديرنا لن تنجو من العذاب. وقد قالوا ذلك تعظيمًا لله ﷻ، أو تخفيفًا من وطأة الصدمة التي ستصيب إبراهيم عليه السلام. ولم يكن قولهم هذا كذبًا منهم، فإن الله تعالى يلغي أنباء العذاب أحيانًا. فمن المحتمل أن يكون هؤلاء قد فكّروا لعل الله تعالى سينجي زوجة لوط لدعائه وابتهاله، فلم يجزموا بعذابها.

لماذا دعا إبراهيم عليه السلام أن يجنبه الله تعالى عبادة الأصنام؟

... قد يتساءل الإنسان هنا قائلاً: هل كان بإمكان إبراهيم أن يقع في الشرك حتى يدعو ربه قائلاً: ﴿واجنُبني وبنيّ أن نعبد الأصنام﴾؟

والجواب: أن قوى الإنسان وقدراته نوعان؛ منها ما يتعلق بخَلقه وبنيته مثل الرأس وغيره، فلا يمكن أن يدعو في شأنها ويقول مثلاً: يا رب لا تَدَعْ رأسي يتحول إلى رأسين، إذ لا تبديل لمثل هذا الخلق. ولكن هناك نوعًا آخر من قدرات الإنسان المكتسبة أو الموهوبة، بمعنى أن الإنسان يمكن أن يطور قواه هذه بالجهد والتمرين، أو يعطيه الله إياها فضلاً وهبةً، ليميزه عن غيره من البشر. وبما أن مثل هذه المواهب معرّضة للانحطاط والزوال لذلك كان على الإنسان أن يستمر في الابتهال إلى الله كي يساعده في المحافظة عليها، رغم وعد الله له بذلك، فإن ابتهاله هذا يمثّل اعترافًا منه بأن هذه النعَم أو المواهب ليست ملكًا له، بل هي إنعام وهبة من الله الكريم. وبناءً على هذا المبدأ نفسه لا يبرح الأنبياء في الدعاء والابتهال لكي يمنّ الله عليهم

بالنعم المنوطة بالنبوة، ومثالُه هذا الدعاء من إبراهيم ﷺ أو دعاء النبي ﷺ: ﴿قل ربِّ زدني علمًا﴾. وانطلاقًا من المبدأ نفسه يقوم الأنبياء عليهم السلام بالاستغفار والتوبة، فينخدع الذين لا يعرفون هذا المبدأ ويظنون خطأً أن الأنبياء أيضًا يقعون في الفواحش والمعاصي فيقومون بالاستغفار والتوبة. والحق أن استغفارهم وابتهالهم إنما يعني أن يمكّنهم الله تعالى من الحفاظ على مقام الطهارة والعصمة الذي يتبوّأونه كهبة من الله تعالى، لأن الحفاظ على هذا المقام السامي أيضًا لا يتم إلا بفضلٍ خاص من الله ﷻ. ومن أجل ذلك ذكّرنا القرآن مرة بعد أُخرى بقوله ﴿وعلى الله فليتوكلِ المتوكلون﴾ (إبراهيم: ١٣). أي أنه يجب على الإنسان رغم رقيّه وتفوقه على الآخرين، أن يستعين بالله تعالى دائمًا، إذ لم يحرز هذا الرقي إلا بفضل الله ورحمته. وإذا فعل ذلك ضَمِنَ هدايته وهداية الآخرين.

ما أروعه من مشهد لحب الله تعالى. فسيدنا إبراهيم يقول عن أولاده: يا ربِّ سأعتبرهم أولادي ما داموا مُجتنبين الشرك وإلا فلا.

لقد وضّح هنا إبراهيم ﷺ أن سخط الآباء على الأولاد لا يعني أن يصبحوا قساة القلوب نحوهم، بل الطريق الأمثل هو أن يعاقبوا الأولاد في الظاهر بينما يجب أن يدعوا لهم من الصميم بالهداية، ولا يبرحوا ساعين لإصلاحهم، لا أن يتمنوا هلاكهم.

يؤكد هنا سيدنا إبراهيم لله تعالى خلوص نيته في ترك ذريته في تلك البرية لكي يستدرَّ بهذا الطريق فضلَ الله ورحمته. وذلك أن الله تعالى ينظر إلى النيّات ولا يضيع أي عمل قام به إنسان بخلوص النية. فيتضرع إبراهيم إلى الله بقوله: إلهي، لقد تركتُ أولادي هنا لخدمة بيتك ولعمرانه. لقد تركتهم عند بيتك المحرم ليعبدوك ويذكروك دائمًا. وقد تركتهم في هذه البرية على علمي بأنه لا يتيسر فيها أي شيء من المـُتع المادية. فيا ربِّ، ارحمْ ضراعتي وتقبَّلْ ابتهالي، وحقِّقْ لي الهدف الذي أتركهم من أجله هنا. فاجعلْ قلوب الناس تميل إليهم شوقًا ومحبة وتستمع لنصحهم وتنصاع، وأن ينجح أولادي في إقامة عبادتك في هذه البرية. وأرجوك، يا ربِّ، أن تتولى

رعايتهم من الناحية المادية أيضًا، فإني أتركهم في برية أعرف أنه لا زرع فيها ولا خضرة، ومع ذلك أتوسل إليك أن تمدهم ليس بالرزق العادي فحسب، بل بأجود أنواع الثمار، كي يدركوا أن من يضحي في سبيلك فإنك لا تضيعه أبدًا بل تكفل حاجاته المادية أيضًا.

انظروا إلى التأثير العميق الواسع لدعاء سيدنا إبراهيم، كيف أن العالم الإسلامي اليوم كلَّه يقف فداء لاسم مكة المكرمة، وكيف أن القلوب تهفو إلى الكتاب الذي نزل فيها بكل إجلال وإكرام. بل لقد أتاح الله ببعث الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام الآن مزيدًا من الوسائل والفرص لنشر هذه التعاليم المباركة.

رؤيا إبراهيم في ذبح ابنه:

وأرى أن الرؤيا التي رأى فيها إبراهيم أنه يذبح ابنه إسماعيل، كان تأويلها أن يترك ابنه في وادٍ غير ذي زرع، إذ إن تركه إياه في مثل هذا المكان كان بمثابة ذبح له ولا ريب.

لم يستطع سيدنا إبراهيم فهم الرؤيا بمفهومها الصحيح تأثرًا بالتقليد الشائع في ذلك الزمن، إذ كان الناس يقدّمون حينئذٍ قرابين إنسانية، فظنّ إبراهيم أن الله يريد منه ذبح ابنه ذبحًا ماديًّا. ولم يخبره الله تعالى بتأويل الرؤيا الصحيح لكي يلغي على يد إبراهيم تقليد الذبائح الإنسانية هذا. فلما استعد فعلاً لذبح ابنه كي يحقق الرؤيا تحقيقًا حرفيًّا، أوحى الله إليه أنْ يا إبراهيم قد صدَّقتَ الرؤيا وخرجتَ ناجحًا من الاختبار، فيجب من الآن أن لا يُقتل أيُّ إنسان قربانًا لله على هذا النحو، اللهم إلا الذي يُقتل في الحرب أو في القصاص. وأعلن أنه يجب أن يأخذ القربان الإنساني من الآن طابعًا معنويًّا.

فلا تقدّموا لله لحومكم ودماءكم، بل ضحُّوا في سبيله بوقتكم وعلمكم ومالكم لتنالوا به قربه سبحانه وتعالى. فاذبَحْ الآن يا إبراهيم كبشًا من الأكباش دفعًا للبلاء، وجهِّزْ نفسك للتضحية بابنك بطريق آخر وهو أشق وأشد من هذا الطريق.

لقد بيّن الله تعالى هنا أن إبراهيم ترك ابنه في تلك البرية معتبرًا إيّاه عملاً صالحًا

وبنيّة صالحة جدًا. وهكذا فإن هذه الآية تمثل ردًّا ضمنيًّا على ما اتهمت به التوراة إبراهيم عليه السلام. فقد ورد فيها أن إبراهيم أخرج ابنه إسماعيل وزوجته هاجر من البيت وتركهما في تلك البرية النائية إرضاءً لزوجته سارة (التكوين ٣١: ٨-١٢). ومعنى ذلك أن هذا النبي العظيم ظَلَمَ بعض الأبرياء إرضاءً لزوجته. ولكن القرآن يخطِّئ التوراة في ذلك مبرّئًا ساحة إبراهيم من هذا الاتهام بلسانه عليه السلام، إذ يسجل دعاءه هذا الذي يقول فيه: يا ربِّ، إنك تعلم نيتي وأنا أترك زوجتي وابني في هذه البرية. إنني لا أتركهما هنا لغرض دنيوي، وإنما أريد به كسب رضوانك فقط.

توضّح لنا هذه الآية قوة إيمان إبراهيم عليه السلام. فإنه يترك ابنه البكر في البرية التي يصعب وصول الماء والطعام إليها، وهكذا يدمِّر مستقبل ابنه في نظر أهل الدنيا، ولكن يقينه بوعد الله قوي وراسخ لدرجة أنه يتجه إلى شكره تعالى إذْ وَهَبَ له على الكِبَر إسماعيل وإسحاق استجابة لتضرعاته فيهما. وكأنّ إبراهيم ما كان يريد من الله الأولاد حتى في سن الشيخوخة إلا إذا كانوا سيضحون بأرواحهم في سبيل الله تعالى، وتوطيد دينه في العالم. والحق أنه لا يحظى بمثل هذا الإيمان والفداء والإخلاص إلا ذو حظ عظيم كإبراهيم وأمثاله. اللهم صلِّ عليهم وارفع درجاتهم.

المشابهة بين إبراهيم عليه السلام ومحمد ﷺ:

ونجد هنا مماثلة غريبة بين رسول الله ﷺ وإبراهيم عليه السلام. فكان والده ﷺ قد توفي قبل ولادته، وكان والد إبراهيم أيضًا قد توفي قبل مولده. وكلاهما قد رباه عمه. وكان عم كل واحد منهما مشركًا، وكلاهما دعا عمه المشرك إلى التوحيد. لقد قال لإبراهيم عمُّه وقومُه إنا نعبد هذه الأصنام لأننا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون، وبالمثل لما دعا رسول الله ﷺ عمه أبا طالب إلى الإسلام قال لــه عمّه: يا ابن أخي، إني أعلم أن ما تقوله حق، ولكني لو اتبعتك لقال قومي إن هذا قد ترك دين آبائه (السيرة النبوية لابن هشام). ثم إن إبراهيم قال لكبار قومه هل تتبعون آباءكم ولو كانوا لا يعملون شيئًا وكانوا من الضالين، وهذا ما قاله نبينا ﷺ أيضًا لكبار قومه.

... كان كل واحد من هذين النبيَّين مستمسكًا بالتوحيد بكل قوة، فكان كلاهما يؤمنان على وجه البصيرة بأن الله تعالى هو خالق السماوات والأرض. ثم إن إبراهيم عليه السلام قد كسر الأصنام، ولكنه كسرها عندما رجع قومه إلى بيوتهم، أما النبي ﷺ فأيضًا قد كسر الأوثان، ولكنه كسرها في وضح النهار حين كان الناس كلهم مجتمعين حول الكعبة. كانت بيده المباركة عصا يضرب بها الأصنام ويلقيها على الأرض، وما كان لأحد أن يقول أفٍّ على ذلك (السيرة الحلبية). لا شك أن إبراهيم عليه السلام كان عظيمًا، ولكن شتان بينه وبين حبيبي محمد! اللهم صلِّ وسلِّمْ وبارِكْ على محمد عددَ كل ذرة في السماء والأرض بل أكثر.

وهنا أيضًا نجد شَبهًا كبيرًا بين محمد رسول الله ﷺ وإبراهيم عليه السلام. لقد قال قوم إبراهيم عليه السلام ﴿حرِّقوه وانصروا آلهتَكم﴾، وهذا يعني أنهم ظنوا أنه لا يزال أمامهم طريق مفتوح لنصرة آلهتهم. أما قوم النبي ﷺ فقد قرروا بأن يسجنوه أو يقتلوه أو ينفوه من الوطن. قال الله تعالى مشيرًا إلى ذلك ﴿وإذ يمكُر بك الذين كفَروا ليُثبتوك أو يقتُلوك أو يُخرجوك ويمكُرون ويمكر اللهُ واللهُ خيرُ الماكرين﴾ (الأنفال: ٣١). وبالفعل قد أوقد أهل مكة نار الحرب ضد الرسول ﷺ طيلة عشر سنوات، ومع ذلك فشلوا. وصارت نيران الحرب التي أوقدوها لحرق الرسول ﷺ سببًا في رقيّه ونجاحه، وفي النهاية دخل محمد رسول الله ﷺ في مكة فاتحًا، حتى إن ألد أعدائه أيضًا جاءوه يبايعون على يده ﷺ... فترى كيف جعل انتصار محمد رسول الله ﷺ المشركين يائسين تمامًا، بينما ما زال أعداء إبراهيم عليه السلام يقولون تعالوا وانصروا آلهتكم.

كسر إبراهيم عليه السلام للأصنام:

يقول المفسرون أن شخصًا من قوم إبراهيم عليه السلام سمع قوله، وقيل سمعه قوم من ضعفائهم ممن كانوا يسيرون في آخر الناس يوم خرجوا إلى العيد (روح المعاني). والحقيقة أن القوم لما لم يقبلوا قول إبراهيم عليه السلام رغم ما ساق لـــهم من الأدلة والبراهين، أراد إبراهيم أن يكشف عليهم شناعة أوثانهم بصورة عملية وهي في حد

ذاتها برهان ذو تأثير أقوى. فكسر الأصنام كلها قطعًا إلا أكبرها، آملاً أن يهديهم ذلك إلى الله تعالى. فاستشاط قومه غضبًا وقالوا من فعل هذا بآلهتنا؟ إنه جدُّ ظالم. فقال لهم الذين تحاوروا مع إبراهيم من قبل: سمعنا فتى يذكرهم يقال لـــه إبراهيم. و﴿يذكرهم﴾ يعني يذكر آلهتهم بسوء ويعيبها، بدليل قوله تعالى في هذه السورة نفسها ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٧). فقال كبراء قوم إبراهيم احشروا الناس كلهم حتى يشهد ضد إبراهيم من رآه يفعل هذا بآلهتنا، لكي يتأكد أن هذا الفعل لم يصدر إلا عمن ينكر عبادة الأصنام، أو حتى يقرروا عقابه، أو حتى يشاهدوا عقابه. ثم قالوا لإبراهيم عليه السلام: أأنت فعلتَ هذا بآلهتنا؟ قال: ﴿بل فَعَله﴾ أي قد فعله فاعل، إذ لا يمكن أن يحصل هذا بدون أن يفعله أحد! ﴿كبيرُهم هذا﴾ أي لم تسألونني عن هذا؟ ها هو أكبر أصنامكم واقف إزاءكم، فاسْألوا صاحبكم هذا. ولا بد أن يردّ عليكم إن كانت أصنامكم قادرة على الكلام أصلاً.

علمًا أن لقوله تعالى ﴿بل فعَله﴾ مفهومان: أولهما: "بل فعله فاعلٌ"، وعليه فلا يكون لفظ ﴿بل﴾ هنا للإضراب، وإنما للتصديق، أي أن فاعلاً قد فعله حتمًا. والثابت من علامة الوقف في المصحف في هذا المقام أن الجملة التالية منفصلة حيث قال إبراهيم لماذا توجّهون هذا السؤال إليّ أنا؟ اسألوا كبير أصنامكم هذا.

والمفهوم الثاني هو أن يكون ﴿بل فعَله﴾ تعريضًا من إبراهيم عليه السلام كما كان دأبه، وكأنه قال: كيف يمكن أن أفعله أنا، بل فعله كبيرهم هذا؟ وكان يقصد: لم تسألوني هذا السؤال؟ إذا كنتُ لم أفعله فهل فعله كبير الأصنام هذا؟

فأصابهم خجل كبير لما سمعوا هذا الجواب، وقالوا متلاومين فيما بينهم إنكم أنتم الظالمون. ثم لما أمعنوا النظر أكثر خجلوا أكثر، ولكنهم عادوا إلى سيرتهم الشريرة وقالوا لإبراهيم: ألا تعلم أن هؤلاء لا ينطقون؟ فرد عليهم وقال: هل تعبدون من دون الله أصنامًا لا تنفعكم ولا تضركم شيئًا؟

كيف يكسر إبراهيم عليه السلام الأصنام وهي ملك غيره؟

ولا بد من التوضيح هنا أن المعبد الذي كسر فيه إبراهيم عليه السلام الأصنام كان ملكًا لعائلته، ولولا ذلك لما جاز لــه كسر أصنام الآخرين. لقد كان معبدًا عائليًّا لإبراهيم عليه السلام، وقد ورثه من الآباء، ولكنه لما كان إبراهيم يكره الشرك منذ نعومة أظفاره فكسر الأصنام في هذا المعبد الذي كان يدرّ على عائلته بدخل كبير، كما كان مدعاة لعزتهم وشهرتهم. فلما كسرها ثارت ضجة في كل البلاد، ورُفع الأمر إلى الملِك. وكان جزاؤه، وفق عرف البلاد وقوانين الملِك، حرق المجرم. وكان من التقاليد القديمة إحراق كل من يسيء إلى الأصنام، لأن الإساءة إليها كانت تُعَدّ في الزمن القديم ردّةً جزاؤها الإحراق أو الرجم. فمثلاً لما نشأت فرقة البروتستانت بين المسيحيين في أوروبا أُحرقَ أتباعها بتهمة الارتداد. أما في آسيا فكانوا يُقتلون رشقًا بالأحجار. فكان إبراهيم عليه السلام على علم أن عقوبة كسر الأصنام هي الحرق، ولكن الله تعالى أراد أن يُري آية. فلما أوقدوا النار في النهاية، وألقوا فيها إبراهيم عليه السلام، هطلت الأمطار في تلك اللحظة نفسها وأخمدت النار، فخرج منها إبراهيم سالمًا معافى. وبما أن عبدة الأوثان يتّبعون الأوهام كثيرًا، فلما خمدت النار بالأمطار، ظنوا أن هذه هي المشيئة الإلهية، فخافوا وخلّوا سبيل إبراهيم عليه السلام.

المفهوم الصحيح للصلاة الإبراهيمية:

يقول الله تعالى إننا وهبنا لإبراهيم إسحاقَ ويعقوب هبةً وإنعامًا. وقد قطع الله الوعد لمحمد رسول الله ﷺ أيضًا وعدًا مماثلاً، فعلّم المسلمين دعاء: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد. أي يا رب، أَنزِلْ فضلك على محمد وأولاده الروحانيين القادمين كما تفضلت على إبراهيم وعلى أولاده إنك حميد مجيد.

يعترض البعض لجهله ويقول ما دامت درجة محمد ﷺ أعظم كثيرًا من درجة إبراهيم، فمن المهازل أن نؤمر بأن ندعو لمن هو أعظم درجة بأن يعطى ما أُعطيَ من هو أدنى منه درجة، وأن لا ندعو بهذا الدعاء مرة، بل نستمر في ترديده إلى يوم

القيامة! إن هذا الدعاء يماثل دعاء من يقول رب اجعل المدير الأعلى لشرطة البلاد ناظر محطة شرطة القرية!

فليكن معلومًا بهذا الشأن أن القرآن الكريم قد ذكر قسمين من محاسن إبراهيم عليه السلام. أولهما المحاسن الذاتية مثل كونه عليه السلام أوّاهًا، منيبًا، صدّيقًا ومن المقربين. ولا جرم أن محمدًا رسول الله ﷺ أسمى درجة من إبراهيم عليه السلام في هذه المزايا والمحاسن، وإلا فكيف صار خاتمَ النبيين وسيدَ وُلْدِ آدم. فالمقام المحمدي أعلى وأعظم من المقام الإبراهيمي يقينًا. ولكن، بالإضافة إلى هذه المحاسن الذاتية لإبراهيم عليه السلام، نجد أن القرآن الكريم قد ذكر له ميزة أُخرى، وهي تلك التي تجلت في شكل الإنعام القومي. وبيانها أن إبراهيم عليه السلام دعا ربه وقال ﴿ربَّنا واجعلْنا مسلمَين لك ومن ذريتنا أُمّةً مسلمةً لك﴾ (البقرة: ١٢٩)، أي يا رب، اجعلنا مطيعين لك صادقين، وأَخرِجْ من نسلنا أُمّة تحظى برضوانك وتتبع سبل مرضاتك. فاستجاب الله دعاءه حيث قال ﴿وجعلنا في ذريته النبوةَ والكتابَ﴾ (العنكبوت: ٢٨). وهذا يعني أن الله تعالى أعطى إبراهيم أكثر مما سأل. لذا فإننا حين ندعو الله تعالى في الصلاة الإبراهيمية ونقول يا رب أَمطِرْ أفضالَك على محمد ﷺ كما تفضلت على إبراهيم، فكأننا نقول يا رب عامِلْ محمدًا مثل المعاملة التي عاملتَ بها إبراهيم. لقد وهبتَ إبراهيم عليه السلام أكثر مما سألك، فيا رب آت محمدًا ﷺ كذلك أكثر مما سألك. ومن الواضح أن إبراهيم قد دعا الله تعالى وفق عرفانه، وأن محمدًا ﷺ قد دعاه تعالى بحسب عرفانه هو، بل الحق أن محمدًا ﷺ قد دعا الله تعالى بأدعية لم يدع بها الأنبياء كلهم معًا في رأيي. ولما كان من المسلم به أن محمدًا ﷺ كان أكثر عرفانًا من إبراهيم عليه السلام، فلا بد أن تكون أدعيته ﷺ أفضل من أدعية إبراهيم، وبالتالي لا بد أن يكون ما يُعطَى النبي ﷺ أفضل وأكثر مما أُعطيَه إبراهيم عليه السلام.

إذًا فقد عُلّمنا في الصلاة الإبراهيمية لرفع درجات النبي ﷺ ورقي أمته دعاءً يبلغ من الجامعية والشمول بحيث لا يمكن تصور دعاء أفضل منه، حيث أُمرنا أن نقول يا رب أَنزِلْ على محمد رحمةً هي أفضل مما أنزلتَه على ذرية إبراهيم بواسطته، أي أنك

كما أعطيت إبراهيم أكثر مما سأل كذلك أعطِ محمدًا من الجوائز والصلات أكثر مما سأل. وبما أن أدعية النبي ﷺ هي أفضل من أدعية إبراهيم من حيث سعة فيوضها وبركاتها، فلا بد أن يكون النبي ﷺ أكثر نوالاً للجوائز والصلات من إبراهيم الطَّيِّلاً. الحق أن الناس قد وقعوا في الخطأ لورود كلمة "كما صليتَ" في هذا الدعاء، مع أن "ما" هنا مصدرية، والمعنى يا رب صلِّ على محمد كصلاتك على إبراهيم. فلو قيل "صلِّ على محمد بقدر صلاتك على إبراهيم" بدلاً من " كما صليتَ على إبراهيم" لصحَّ ما يزعمون، ولكن الله تعالى لا يتحدث هنا عن المقدار والكمية، وإنما عن القسم والنوعية، والمراد يا رب هَبْ محمدًا ﷺ وأولاده من البركة نفسها التي وهبتَها إبراهيم الطَّيِّلاً وأولاده. ولم تكن تلك البركة إلا أن الله تعالى أعطى إبراهيم أكثر مما سأله. وهكذا فقد عُلِّمنا بأن ندعو الله تعالى أن يا رب أَمطِرْ على محمد رسول الله ﷺ وأُمته من عطائك وكرمك أكثر مما سألك.

إن المسيحية هي أكبر فتنة ضد الإسلام في هذه الأيام، وإنها تدعي بأن عيسى كان من أولاد إبراهيم (متى ١: ١٧)؛ وعليه فكأننا قد عُلِّمنا في الصلاة الإبراهيمية دعاء يقول: يا رب إن كل هذا الرقي والتقدم الذي يحرزه العالم المسيحي إنما هو نتيجة لوعدك مع إبراهيم الطَّيِّلاً، فنتوسل إليك يا رب أن أَنزِلْ على نسل إسماعيل- أي محمد رسول الله ﷺ وأتباعه- مِن أفضالك أكثر مما أنزلتَ على الفرع الآخر من الشجرة الإبراهيمية أي على نسل إسحاق. فالآن لو نزع الله تعالى بركاته من ذلك الفرع وأجراها في نسل إسماعيل لماتت المسيحية في ليلة وضحاها. فثبت أن الصلاة الإبراهيمية دعاء عظيم عُلِّمناه لرقي الإسلام والمسلمين. ثم إنه دعاء يشمل كل مسلم من كل قطر ومنطقة من العالم. وهذا يعني أنه لا يخرج عن هذا الدعاء الكامل الشامل السيد ﷺ ولا أي فرد من أمته.

الحق أن القوة التي تتمتع بها الشعوب الأوروبية إنما ترجع إلى ما قطع الله تعالى مع إبراهيم من وعود لنسل إسحاق، ولو أن الله تعالى بدأ تحقيق وعوده الخاصة بنسل إسماعيل لقُضي على المسيحية كما قُضي على عهد حزقيال وإرميا وإشعياء ويحيى

وغيرهم من الأنبياء -عليهم السلام- ببعثة محمد رسول الله ﷺ، ولنال الإسلام من المجد والشوكة ما لا يمكن أن يخطر ببال المسلمين.

قصة لوط عليه السلام

يقول الله تعالى إن قوم لوط كذّبوا المرسلين، وهذا إشارة إلى أن لوطًا عليه السلام كان -ككل نبي- ممثلاً عن الرسل كافة، وكان إنكاره بمثابة إنكارهم جميعًا.

قال لوط عليه السلام لقومه لقد جئتكم من الله تعالى كرسول أمين، فاتقوا الله وأطيعوني لتحظوا بالنجاة. ولا أسألكم على ذلك أجرًا، إنما أجري على الله رب العالمين. لقد جئتكم لأعظكم بترك السيئات والعمل بأحكام الله تعالى. وإن من أفظع سيئاتكم أنكم تمارسون الشذوذ مع الذكور، معرضين عما شرع الله لكم من علاقات بين الرجل والمرأة إشباعًا للرغبة الجنسية ولخلق المودة والألفة. وتصرُّفكم هذا دليل على أنكم تخالفون الفطرة الإنسانية.

فتضايقَ القوم وهدّدوا نبيهم قائلين: لئن لم تنته، يا لوط، سوف نطردك من أرضنا. فقال: افعلوا ما شئتم، فإنني أكره أعمالكم السيئة كراهة شديدة، وأدعو الله تعالى أن يُنجيني وأهلي منها.

لقد علّمنا الله تعالى هنا درسين: أوّلهما أن الدعاء للنجاة من العمل السيء أهمّ من الدعاء للنجاة من العذاب. وثانيهما: أن على المرء أن يكره الأعمال السيئة دائمًا وليس أن يكره صاحبها ويعاديه. هذا الأمر هامّ جدًّا لإصلاح الأخلاق، وقد ركز عليه الإسلام تركيزًا خاصًّا وفرّق بين السيئة ومرتكبها. إنه أمرنا أن نقضي على السيئة، ولكنه لم يقل أن نقضي على مرتكبها، وإنما جعل بين الأمرين حدًا فاصلاً، ونهانا عن تجاوز هذا الحد. يقول الله تعالى: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ (المائدة: ٣)، أي ينبغي ألا يُعميكم عداء قوم فلا تُنصفوهم وتظلموهم. كلا، بل من واجبكم أن تلتزموا

بالعدل والإنصاف في حقهم أيضًا، وإلا فتسقطون من مقام التقوى. ويقول الله تعالى أيضًا: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ (الممتحنة: ٩). إذًا فالإسلام يوصينا أنكم إذا رأيتم من فرد أو قوم ما يتنافى مع الصلاح والورع فعليكم أن تكرهوا فعله هذا، ولكن يجب أن لا يمنعكم هذا من إسداء المعروف إليه، إذ لو ماتت هذه العاطفة فيكم أصبحتم غافلين عن إصلاحه أيضًا. وكان لوط عليه السلام متحلّيًا بهذا الخلق العظيم، فقال لقومه إني أسعى جاهدًا لإصلاحكم ولكني أكره أعمالكم السيئة كراهة شديدة، حتى إني أدعو الله سبحانه وتعالى أن يحفظني وأهلي، الماديين منهم والروحانيين، من سيئاتكم.

الغريب أن القرآن الكريم قد أثنى على سموّ أخلاق لوط عليه السلام حيث قال الله عز وجل عنه: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ (الأنبياء: ٧٦)، ولكن التوراة تتهمه بتهمة شنيعة للغاية بأنه زنى بابنتيه (التكوين ١٩: ٣٠-٣٨)، بل تزعم التوراة أن إحداهما ولدتْ، نتيجة لهذه العلاقة غير الشرعية، ابنًا اسمه "موآب" الذي صار أبًا لقبيلة "الموآبيين"، بينما ولدت الأخرى ولدًا اسمه "بن عمي" الذي كان أبًا لقبيلة "بني عمّون". وكأن التوراة تتهم لوطًا عليه السلام وابنتيه بالزنى من ناحية، ومن ناحية أخرى تقول إن الله سبحانه وتعالى أنعم على هذين الابنين غير الشرعيين للوط بفضل كبير وبركة عظيمة فأخرج منهما ذرية كثيرة حتى صار كل واحد منهما مؤسس قبيلة كبيرة! هل من الممكن، يا ترى، أن يبارك الله سبحانه وتعالى في نسل لوط هذه البركة العظيمة لو كان كما وصمته التوراة؟ كلا، بل الحق أن أحد بيانَي التوراة المذكورَين أعلاه يمثّل شهادة عَملية من الله سبحانه وتعالى على بطلان هذه التهمة البشعة. ثم إن القرآن الكريم الذي نـــزل ككتاب مبين جاء وصرح أن لوطًا كان من عباد الله المقربين وكان منـــزهًا عن جميع السيئات والمنكرات التي كان قومه منغمسين فيها، بل كان يدعو الله سبحانه وتعالى أن يعينه ويحميه وأهله مما يعمل قومه من المساوئ والمنكرات.

فاستجاب الله سبحانه وتعالى دعاء لوط عليه السلام ونجّاه وأهله، إلا زوجته العجوز التي حل بها العذاب إذ كانت من الغابرين. وأن الغبر يعني الحقد أيضًا، وعليه فقوله سبحانه وتعالى: ﴿إلا

عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ يعني أن زوجة لوط الطَّيْكِلاْ كانت تضمر الحقد تجاه تعاليمه وتعاديه، فلما جاء العذاب كانت من الهالكين. تقول التوراة من جهة إن زوجته كانت من الناجين، بل تقول إن الملائكة أمسكوا بيد لوط وزوجته وابنتيه وأخرجوهم من المدينة لأن الله ﷻ تفضَّل عليه (التكوين١٩: ١٦)، ومن جهة أخرى تقول التوراة إن زوجته نظرت إلى الوراء أثناء خروجها من القرية فصارت عمودَ ملحٍ (التكوين ١٩: ٢٦).

وأقول أوّلاً: فيما يتعلق بتحوُّل إنسان حي إلى عمود مِلح نتيجة نظره إلى الوراء فهو أمرٌ لا يقبله عاقل إلا أصحاب التوراة. وثانيًا: إذا كان الله ﷻ يريد إنقاذ زوجة لوط من العذاب فلماذا حوّلها إلى عمود ملح؟ وثالثًا: ما دام الله ﷻ كان يعلم أن زوجة لوط ستهلك بعد خروجها من القرية بعدة خطوات فلماذا أخرجها من القرية أصلاً؟ إن هذه البيانات المتناقضة تدل صراحة على أن الأيدي البشرية قد عبثت بالتوراة مما جعل روايتها لا تصلح للثقة والاعتبار، وإنما الحق ما بيّنه القرآن الكريم بأن زوجة لوط الطَّيْكِلاْ كانت من معارضيه، ولذلك لما جاء العذاب أهلكها أيضًا. يقول الله ﷻ في مكان آخر من القرآن الكريم: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً﴾ (الحِجر: ٧٥)، أي جاء زلزال عنيف جعَل الأرض الحجرية تتطاير إلى السماء ثم تسقط عليهم. إذًا فنـــزل عليهم مطر الحجارة التي أهلكتهم بدلاً من أن ينـــزل عليهم الماء مطرًا. وهذه الظاهرة تُشاهَد عند الزلازل العنيفة جدًا، حيث تتطاير قطع الأرض إلى السماء، ثم تسقط ثانية. لقد كانت هذه أيضًا آية، ولكنها كانت لمن بعدهم، أما قوم لوط الطَّيْكِلاْ فلم يؤمنوا.

يتضح من التوراة أن لوطًا كان ابن هاران الذي كان أخًا لإبراهيم الطَّيْكِلاْ، وكان من مدينة "أُور"، وهاجرَ مع إبراهيم إلى فلسطين، ثم هاجر من عند إبراهيم، واستوطن في قرية "سدوم". (تكوين ١١: ٢٧، ٣١، تكوين: ١٣: ١٢)

... يبدو من قوله تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ أن الحضارة كانت مزدهرة في زمن لوط الطَّيْكِلاْ، وكان قومه متجاسرين على ارتكاب الفواحش في

المجالس غير مستنكرين إياها، شأن أهل أوروبا وأميريكا الذين قد انتشرت فيهم الخلاعة والمجون على نطاق واسع، فلا يرون عيبًا في عناق النساء وتقبيلهن في الأماكن العامة وارتكاب الزنا في الحدائق العامة. لم يرتدع قوم لوط ﷺ عن تصرفاتهم رغم نصحه، بل تحدّوه وقالوا: ائتنا بالعذاب إن كنت من الصادقين. فلم يجد لوط بدًا من أن يدعو الله تعالى ويقول ربِّ انصرْني على هؤلاء القوم المفسدين.

وصول الرسل إلى قرية لوط ﷺ:

عندما وصل الرسل إلى قرية لوط ﷺ دعاهم إلى بيته، ولكنهم لم يقبلوا دعوته، كيلا يشقوا عليه ويسببوا الحرج. ولكنه ألحّ عليهم فأصرّوا على الإنكار، فاستاء من ذلك وتضايق، وهذا ما يذكره الله هنا، ليكشف لنا ما كان يتحلى به نبيه من خُلُق إكرام الضيف، وليس في ذلك -كما ظن البعض- أدنى إشارة إلى بخله وسوء خلقه.

لما وصلت رسل رب العالمين إلى لوط تضايقَ برؤيتهم لأن قومه كانوا قد نهوه عن استضافة الغرباء، حيث ورد في القرآن الكريم في مكان آخر قول معارضي لوط: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (الحجر: ٧١)، أي ألم نمنعك من إحضار المسافرين الغرباء إلى بيتك؟ ذلك أن المدن في ذلك الزمن كانت صغيرة وبعيدة بعضها عن بعض، وكان الناس يخافون إحضار المسافرين الأجانب مخافة أن يتآمروا عليهم فينهبوهم. وحيث إن أهل سدوم كانوا قُطاع طرق وكانوا يرون أن الآخرين أيضًا صعاليك مثلهم، فكانوا لا يسمحون للمسافرين الغرباء بالإقامة بينهم، خشية أن يفتحوا المدينة ليلاً فيُفاجئهم العدو بالهجوم. وكان لوط ﷺ إنسانًا مضيافًا، فكان يأتي بالمسافرين إلى بيته مخافة أن يتعرضوا للنهب إذا باتوا في الخارج، وكان قومه ينهونه عن ذلك؛ فلما جاء بالرسل ثار قومه غضبًا وأتوه مسرعين، فتأذى لوط بسبب ضيوفه وخاف أن يُخزيه قومه أمامهم، فقال له الرسل: ﴿لا تَخَفْ﴾، أي لا داعي للخوف الآن لأن الله تعالى قد قرر هلاكهم. ولكن كان طبيعيًا أن يحزن لوط ﷺ بهلاك قومه، فطمأنوه وقالوا له: ﴿وَلا تَحْزَنْ﴾، أي لا حاجة للقلق على

هلاكهم لأن الله تعالى لن يضيع بذرة الخير، بل سينجيك وأهلك جميعًا من العذاب إلا امرأتك، وبالتالي ستنمو هذه البذرة وسيخضَرّ زرع الخير والصلاح في الدنيا.

وقد نسب الرسل إنقاذ لوط عليه السلام من العذاب إلى أنفسهم فقالوا: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾، وذلك لأنهم كانوا قد أُرسلوا إلى لوط من عند الله تعالى ليأخذوه وأهلَه إلى مكان آمن من العذاب.

ثم نسبوا إهلاك قوم لوط أيضًا إلى أنفسهم، فقالوا: ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، أو قولهم في مكان آخر: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ (الذاريات: ٣٣-٣٥) لا يعني أنهم سيُنـزلون العذاب، وإنما يعني إخبارهم بخبر العذاب بناءً على وحي الله تعالى وبأن لوطًا ومعظم أهل بيته سينجون من العذاب، بينما يهلك أعداؤه. أما العذاب فلم يُنـزله عليهم إلا الله تعالى كما صرح في قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ (هود: ٨٣-٨٤)، كما نسب تعالى هذا العذاب إلى نفسه في هذه السورة فقال: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الآية: ٣٦). فهذه الآية صريحة في أن الله تعالى هو الذي أنـزل عليهم العذاب، أما الرسل فلم يُنـزلوا العذاب وإنما جاءوا ليخبروا لوطًا بقرب نـزول العذاب على قومه. لو كان الرسل هم الذين أنـزلوا العذاب لما قال الله تعالى إنا تركنا من خلال هذا العذاب آية بينة لقوم يعقلون، لأن الرسل لو كانوا أنـزلوا العذاب فهم الذين تركوا هذه الآية وليس الله تعالى. فثبت أن قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ وما شابهه من الآيات لا يعني أن الرسل أنـزلوا العذاب، بل المراد أنهم أتوا بخبر العذاب على أهل تلك القرية، أما العذاب فلم يُنـزله إلا الله تعالى.

لماذا استبشر قوم لوط عليه السلام بقدوم الضيوف إليه؟

إن لوطًا عليه السلام خاف على الرسل أن يتعرض لهم قومه بمكروه، لأنهم كانوا أشرارًا بالعموم. ولا نعني بالشر هنا شرًّا جنسيًا كما زعم بعض المفسرين، إذ قالوا بأن الرسل كانوا ملائكة تمثّلوا للقوم على صور فتيانٍ مُرْد ذوي جمال وبهاء، وعندما رآهم قوم لوط أعربوا عن سرورهم وجاءوا مسرعين لفعل الفاحشة بهم. لكن هذا الظن باطل كليةً، لأن الله تعالى قد وضح الأمر في موضع آخر من القرآن الكريم حيث يحكي قولهم للوط ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أي ألم نمنعك من اصطحاب الأجانب إلى قريتنا. فلو كانوا فرحين بمقدمهم وهم يضمرون الفاحشة بهم لكانوا قد ألحّوا عليه بإحضار المسافرين إلى القرية بكثرة، ولكنهم على النقيض من ذلك يقولون له في غضب: ألم نمنعك من إحضار الغرباء. ولو قيل: لقد ورد في مكان من القرآن الكريم ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، أي جاءه قومه فرحين بقدوم الأجانب لأن الفرصة قد سنحت لفعل الفاحشة بهم، فالجواب: إنهم لم يفرحوا بنية الفاحشة بهؤلاء الضيوف، وإنما فرحوا لأنهم وجدوا في ذلك حجة يبررون بها معاقبة لوط، حيث قالوا: اليوم قد وقع هذا في قبضتنا وسوف نسوي الحساب معه.

معنى قول لوط عليه السلام: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾

وكان سيدنا لوط يكرم الضيوف عملاً بسنة الأنبياء عليهم السلام، فكان يستضيف المسافرين في بيته خَشية أن يسلبهم القوم إذا باتوا في الخارج. وكان قومه ينهونه عن ذلك، فعندما جاءه الرسل هذه المرة استشاطوا غضبًا لمخالفة أوامرهم، وفرحوا واستبشروا أنهم وجدوا فرصة لمعاقبته ولحل القضية نهائيًا. ولما كان لوط يعرف سوء معاملتهم للضيوف الأجانب خاف أن يسيئوا إليهم، فقال لقومه مهدئًا ثورتهم: إن بناتي هؤلاء اللاتي يعشن بين ظهرانيكم هم أطهر شهادة على براءة ساحتي، أي لا تتعرضوا للضيوف لأنكم إذا طردتموهم هكذا مهانين فسوف تجلبون عليكم الفضيحة والعار أمام الآخرين، وأما خوفكم من أنني أتآمر عليكم مع الأعداء فلا داعي لذلك، لأن بناتي هؤلاء يشكلن ضمانًا يجب أن يُطمئنكم -مع العلم أنه

كانت للوط بنتان متزوجتان بين القوم- إذ تستطيعون بكل سهولة أن تنتقموا مني بمعاقبتهما، دون أن تُفتضحوا أمام العالم.

وقد هرَأَ بعض المفسرين وقالوا بأن سيدنا لوطًا ﷺ كان قد قدم للقوم بنتين له ليشبعوا بهما رغبتهم الجنسية ولا يتعرضوا للضيوف، وقد كتبوا هذا متأثرين بما ورد في التوراة. ولكن هذا المعنى باطل تمامًا ولا يليق بشخص رذيلٍ دَعْكَ أن يصدر عن نبي من أنبياء الله الكرام، وهم أكثر الناس غيرة وحمية. الواقع أنه لا يقترح مثل هذا الاقتراح حتى من يرتكبون الفواحش عمومًا. فلا ريب أن هؤلاء المفسرين قد وقعوا في الخطأ بسبب تأثرهم بالتوراة. لأن القرآن الكريم لا يقول أبدًا بأنه قدم بناته لهم من أجل أن يفعلوا بهن الفاحشة، وإنما حاول بذلك تهدئة أهل قريته قائلاً: ما دام عيالي وأولادي يعيشون بينكم وتحت حكمكم فكيف ساغ لكم أن تسيئوا بي الظن وتعتبروني عدوًا لكم يريد التآمر مع الأعداء. فافهموا قصدي واعملوا بنصحي، فهذا خير لكم، ولا تفضحوا أنفسكم بإهانة الضيوف. ولو سلمنا جدلاً أنه كانت له بنات عذارى إلى جانب المتزوجات فلا تنحل المشكلة أيضًا، إذ ليس من المعقول أن يأتيه أهل المدينة طامعين في ضيوفه الرجال للفاحشة فيقول لهم لوط: حسنًا، فليتزوج بعضكم بناتي هؤلاء! ولما كان سيدنا لوط شيخًا كبيرًا فقد يكون قوله هذا مجازًا، حيث اعتبر زوجات المعارضين كبناته فقال: إن بناتي هؤلاء -أي زوجاتكم- خير لكم وأطهر، فلماذا تعرضون عن الطريق السليم وتقعون في الفاحشة.

لماذا قال قوم لوط ﷺ: ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾

عندما قال لهم لوط ﷺ إن بناتي اللاتي هن تحتكم لضمان كاف لبراءتي، فكأنما اعتبرهن رهائن عند القوم، ولكن كانت العادة الشائعة لدى هؤلاء الناس أنهم ما كانوا يرضون برهائن إناث بل بالرهائن الذكور من أولاد العدو، ولذلك ردوا عليه: لا نقبل الرهائن الإناث، وأنت تعلم جيدًا أن قصدنا من ذلك أن نمتنع عن إحضار الضيوف الأجانب إلى القرية، فقولك، احتجزوا بناتي بينكم ولا تؤذوا ضيوفي قول مرفوض. يقول بعض المفسرين بأن قولهم ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أيضًا يشكل

دليلاً على أن لوطًا عليه السلام عرض عليهم بناته للفاحشة أو للزواج. ولكن الحقيقة أن هذه الآية تبطل زعمهم، إذ كيف يتوقع من قوم بلغوا هذا الحد في ارتكاب الفاحشة أن يفرقوا بين ما يحق لهم وما لا يحق في الأمور الجنسية الشهوانية، فقولهم ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ إنما يشير إلى عاداتهم من أخذ الرهائن الذكور، وليس إلى ما ذهب إليه هؤلاء المفسرون.

وهنا قال لوط عليه السلام ياليت كانت بي قوة حتى أمنعكم من ارتكاب المعاصي، ولكن ليس لي عليكم سلطان، اللهم إلا أن ألوذ بربي وأطلب منه أن يترل بكم العذاب، ولكني أؤجل هذا حتى يهتدي منكم من كان الهدى من نصيبه. غير أن القوم عندما لم يرضوا بالتماسه الحار المخلص دعا عليهم بإذن من الله تعالى. ولما علم الرسل أن لوطًا يريد أن يبتهل إلى الله لهلاك القوم كشفوا له غرض قدومهم الذي كانوا يخفونه عنه، وأخبروه بأنهم قد أتوا من عند الله للغرض نفسه أي لنخبرك أن الله تعالى قد قضى بهلاك هؤلاء القوم، ولقد أُرسلنا لنخرجك وأهلك -عدا زوجتك- من بين القوم، قبل العذاب الذي سيحل بهم في الصباح ويهلكهم عن بكرة أبيهم. فلما جاء أمر الله أهلك القوم بزلزال عنيف مدمّر، لأن الزلزال الشديد يؤدي إلى قلب سطح الأرض، وتطاير الأحجار التي تتساقط على الأرض كالمطر. والمراد من قوله (مُسَوَّمَة) أي أنه تعالى كان قد قدّر منذ الأزل أن تتسبب هذه الأحجار في دمار هذا القوم.

خروج لوط عليه السلام بأهله وحلول العذاب بقومه:

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ (الحجر: ٦٦)

الإسراء يعني الخروج في أي وقت من الليل، غير أن الأقرب إلى القياس أن الرسل أشاروا على لوط عليه السلام بالخروج في آخر الليل، وتدعم ذلك كلمة ﴿مصبحين﴾ الواردة في الآية التالية. وإذا كان هذا هو المراد فكلمة ﴿بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ تكون شرحًا لآخر الليل. وكانت الحكمة في اختيار هذا الموعد هي ألا يستطيع العدو

مطاردهم. ذلك أن العذاب كان سيحل على القوم بعد رحيل قافلة المؤمنين من القرية في آخر الليل مباشرة، فما كان بإمكان أهل القرية، وقد حلّ بهم العذاب، مطاردةُ القافلة المؤمنة وإن علموا بهروبها.

وأما قوله تعالى للوط ﴿واتَّبِعْ أدبارَهم﴾ فهو دليل على عظيم رحمة الله ﷻ. ذلك أن الحماية الحقيقية من العذاب إنما تكون للنبي فقط، فما كان العذاب لينــزل بالقرية ما لم يصل سيدنا لوط إلى مأمنه، لذلك نصحه الرسل أن يكون وراء القافلة المؤمنة حتى يضمن نجاةَ كل فرد منها.

هذه الآية تشكل دليلاً قاطعًا على إيمان بضعة أفراد من أهل القرية بلوط ؊، وإن كان عددهم ضئيلاً جدًّا. تزعم التوراة أنه ؊ لم يخرج من القرية إلا مع بنتَين لــه فقط لا غير (تكوين ١٩: ١٦)، ولكن القرآن الكريم يخبرنا أنه قيل للوط: ﴿واتَّبِعْ أدبارَهم﴾، والواضح أن ضمير (هم) يُستخدم لثلاثة أو أكثر من الرجال، أو لمجموعة من الذكور والإناث، إذ من عادة العرب أنهم في حالة وجود الجنسين في مجموعة يكتفون باستخدام ضمير المذكر للجنسين (انظُرْ سورة النور الآية ١٣). فلو لم يكن أحد من رجال القرية قد آمن بلوط و لم يخرج معه إلا بنتان له للزم أن يقال: (أدبارهما)، أو إذا كانت مع بنتَي لوط نسوةٌ أُخَر لقيل: (أدبارهن)، ولكن يستحيل أن يقال من أجل بنتيه: ﴿وَاتَّبِعْ أدبارَهم﴾؛ مما يؤكد بشكل حاسم أن القافلة المؤمنة المهاجرة من القرية كانت تتضمن رجالاً مؤمنين إلى جانب لوط وبنتيه، ولهذه المجموعة من الذكور والإناث استخدم القرآن الكريم ضميرَ المذكر (هم).

بل ورد في التوراة نفسها في موضع آخر ما يؤيد موقف القرآن الكريم، حيث تقول إن الرسل لما انصرفوا عن إبراهيم تقدم إلى الرب قائلاً: أتُهلِك البارَّ مع الأثيم؟ عسى أن يكون خمسون بارًّا في المدينة؟ أفتُهلِك المكان ولا تصفَحُ عنه من أجل الخمسين بارًّا الذين فيه؟ فقال الرب: إنْ وجدتُ خمسين بارًّا في القرية إني أصفح عنها كلِّها من أجلهم. و لم يزل إبراهيم ينقص العددَ متوسلاً إلى ربه من أجل نجاة القرية حتى قال: عسى أن يوجد فيها عشرةٌ من الأبرار؟ فقال الله ﷻ: لن أُهلكها

من أجل العشرة أيضًا. وعندها لزم إبراهيم الصمت حيث أدرك أنه لا يوجد فيها حتى عشرة من الصلحاء (تكوين ١٨: ٢٢ - ٣٢).

وهذا يوضّح أن إبراهيم الطَّيْـلا كان على علم بإيمانِ بعض أهل القرية؛ إذ كان يعيش على مسافة غير بعيدة من قرية قوم لوط، ولا جرم أن أخبارها كانت تصله من حين لآخر؛ فكيف يمكن أن يبتهل هكذا إلى ربه لنجاة القرية لو كان يعلم أنه لا يوجد فيها ولا مؤمن واحد. فثبت أنه كان يعلم بالتأكيد أن في القرية بعض المؤمنين وأن عددهم قليل جدًّا، ولأجل ذلك توسل إلى الله تعالى في البداية من أجل الخمسين، ثم ظل ينقص العددَ حتى ترك الدعاء عندما بلغ عددَ العشرة. وهذا يعني أن المؤمنين بلوط الطَّيْـلا كانوا أقل من العشرة. ولما كان ضمير (هم) يُستخدم لثلاثة وأكثر فيبدو أن عددهم كان ما بين الثلاثة ودون العشرة. وأما قوله تعالى ﴿ولا يلتفتْ منكم أحدٌ﴾ فليس نهيًا عن الالتفات الظاهري، بل المراد ألا يكترثوا بالكفار ولْيَدَعوهم يهلَكوا بالعذاب.

وأما قول التوراة عن امرأة لوط بأنها "نظرتْ من ورائه فصارتْ عمودَ ملح" (تكوين ١٩: ٢٦)، فلا أعلّق عليه بل أتركه لعقول اليهود والنصارى لتحكم فيه كيفما تشاء. إلا أنني أود أن أوضح هنا أن القرآن الكريم يعلن أن زوجة لوط لم تغادر القرية معه أصلاً، بل كانت من الغابرين. وإن براءة القرآن الكريم من مثل هذه الخرافات الواردة في التوراة وخُلُوَّه منها يشكّل برهانًا ساطعًا على أنه كلام الله حقًّا. أليس غريبًا أن التوراة التي هي أقرب زمنًا من القرآن إلى هذا الحادث تسجله بهذا الأسلوب الخرافي، بينما نجد بيان القرآن الكريم خاليًا من هذه الخرافة؟ وأما قوله تعالى ﴿وَامْضُوا حيث تُؤمَرون﴾ فأيضًا يؤيد ما قلت من قبل من أن هؤلاء الضيوف الرسل كانوا من البشر الذين أخبرهم الله ﷻ بالإلهام باقتراب موعد العذاب، وأرسلهم إلى سيدنا لوط ليدلّوه على المكان الذي يهاجر إليه بعد مغادرة القرية. فيبدو أنهم بعد أن وصفوا للوط الطَّيْـلا معالم المنطقة التي سيهاجر إليها تركوه في بيته ليستقبلوه هناك في مهجره الذي قدره الله له.

قصة يوسف عليه السلام

إن الناس كانوا مختلفين في حادث يوسف عليه السلام قبل نزول القرآن الكريم، وإلا لما أعلن: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ (يوسف: ٤) أي نحن الذين سوف نكشف الحقيقة، ونحكي الحادث دون زيادة أو نقصان، فنفصل بين المختلفين فيه. ولكن المستشرقين لم يفكروا في هذا الاختلاف السائد قبل نزول القرآن الكريم ليدركوا أن الحادث كان قد صار عرضة للاختلاف والتشويه قبل ذلك، مما حدا بهم للطعن في القرآن الكريم عندما وجدوا بيانه مخالفًا لما ورد في التوراة في هذا الصدد. مما يعني أنَّ الذي أنزل القرآن كان على علم بأنه سيأتي زمان سوف يبسط بعض الجهال ألسنتهم في بيان القرآن الكريم.

واعلم أن قوله تعالى بأننا نحن الذين نسرد لك هذا الحادث سردًا صحيحًا لأننا أوحينا إليك هذا القرآن، يتضمن نبأً عن وقوع حادث مماثل له في حياة الرسول ﷺ، إذ لا نجد أية علاقة بين نزول القرآن وبين حادث يوسف اللهّم إلا إذا اعتبرناه نبأً عما سيحدث مع الرسول الكريم، مما إذا تحقق حدا بالناس أن يصدقوا وحي القرآن وأن يصدقوا حامله محمدًا رسول الله ﷺ.

وأما قوله تعالى ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (يوسف: ٤) فله مفهومان:

- الأول: أنك كنت تجهل هذه القصة، لأن أحداثها لم ترد من قبل مجتمعة في أي مصدر لا في التوراة ولا في التلمود، وإنما كانت وردت متفرقة في أماكن شتى.

- الثاني: أنك ما كنت تعلم أن هذا سيحدث معك كما لم يكن يوسف يعلم أنه سيحدث معه ما حدث.

الفوارق بين القرآن الكريم والتوراة في قصة يوسف العَلِيْكِلاً:

لقد تعرّض بعض الكتاب المسيحيين للقرآن الكريم بالنقد فيما يتعلق بحادثة يوسف الطَّيْكِلاً، لذلك سوف أوضح أولاً بأول الفوارق بين ما ورد في التوراة وما ورد في القرآن الكريم في هذا الشأن.

الفارق الأول: هو أن التوراة تناولت هذا الحادث بذكر نسب يوسف الطَّيْكِلاً، ولكن القرآن الكريم استهله بذكر الرؤيا التي كانت النقطة المركزية في حياة يوسف ومحورًا لكل ما جرى له من أحداث، دون أن يخوض في ذكر نسبه وغير ذلك مما يخص المؤرخين.

وبغض النظر عن فروق أُخرى بين بيان المصدرين فإن هناك بونًا شاسعًا بينهما في شأن تناولهما لهذه الحادثة، وإننا لو وضعنا هذا الأمر أمام أي من المعلقين المحايدين فسوف يحكم لصالح القرآن الكريم نظرًا لبراعة استهلاله للحادث، إذ إن رؤيا يوسف هي التي كانت العامل الأساسي لنجاحه الطَّيْكِلاً، وهي التي غيرت مجرى حياته تمامًا، وجعلت إخوته أعداءً له، وتحقيقًا لتلك الرؤيا جاء الله بهم إلى مصر وألقى بهم على قدميه مرغمين. ولو أردنا تعيين ذلك الجانب من حياته الذي كان درسًا وعبرة للآخرين فلن نجد أي شيء أفضل من رؤياه هذه.

والفارق الثاني: بين المصدرين هو أن القرآن الكريم قد قدّم ذكر الأحد عشر كوكبًا على ذكر الشمس في بيان الرؤيا، ولكن التوراة فعلت العكس، فقد ورد فيها: "فقال إني حلمت حلمًا أيضًا، وإذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكبًا ساجدة لي. وقصَّه على أبيه وإخوته". (التكوين ٣٧:٩ و١٠).

وهذا الاختلاف أيضًا يكشف فضل القرآن الكريم على التوراة، لأن كليهما متفق على أن المراد من الكواكب إخوته ومن الشمس والقمر أبواه، وأن أول من التقى به وخضع له أدبًا واحترامًا -بعد أن أكرمه الله في مصر- هم إخوته، أما أبواه فقد

التحقا به فيما بعد. فالترتيب الذي راعاه القرآن في بيان الرؤيا هو الصواب، وأما الترتيب الذي راعته التوراة فإنه خاطىء ومستغرب. ولا شك في أن الله تعالى قد أرى يوسف أولاً أولئك الأشخاص من أسرته الذين قُدّر لهم أن يقابلوه أولاً، ثم أراه أولئك الذين قُدّر لهم مقابلته فيما بعد.

أما السجود المذكور في قوله تعالى: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (يوسف: ٥) فإنه لا يعني أنهم سيسجدون له حقيقة، بل المراد هو أنهم سيصبحون خاضعين وتابعين له. وهذا ما حصل بالضبط إذ حضر إليه في مصر إخوته وأبواه واستوطنوا عنده حيث كان يتقلد منصب الوزارة، وهكذا أصبح هؤلاء الناس تابعين له يعيشون تحت لوائه.

وقد ورد في تفسير "روح المعاني" بأن طاعة الوالدين والإخوة ليوسف ليس بأمر ذي بال فلذا علينا أن نعبّرَ الشمس بالملك والقمر بالوزير والكواكب بعلية القوم.

ولكن هذا المعنى باطلٌ، لأن ملك مصر لم يكن تابعًا ليوسف بل كان يوسف خاضعًا لقوانين بلده كما صرح بذلك القرآن في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ (الآية: ٧٧). أي ما كان ليوسف أن يحتجز أخاه عنده وفق القانون الملكي. ثم إن الملك مهما كان احترامه لوزيرٍ من وزرائه كبيرًا فلا يمكن أن يعبَّر عن تقديره له بكلمة السجود، لأنه لا يحترمه عن طاعة وخضوع وإنما عطفًا ولطفًا منه.

وحيث إن السجود المادي تمثيلٌ لكمال الطاعة لذلك لن يطلَق السجود هنا ولو مجازًا إلاّ على صور مختلفة للطاعة. والواقع أن طاعة الأبوين والإخوة أمرٌ عظيم أيضًا، لأن الآباء لا يكونون عمومًا مطيعين للأولاد. ولكن الأمر في حادثة يوسف عجيب جدًا. لقد أخبره الله بالرؤيا وهو صغير أنه سيأتي يوم سوف يدخل فيه أبواه في طاعته. مع العلم أن يوسف كان يبلغ حينئذ أحد عشر أو إثني عشر عامًا، وكان أبوه قد تجاوز الخمسين. ومن ذا الذي يستطيع أن يضمن -طول هذه المدة- أنه سيعيش ويحقق رقيًا، وأن أبويه وإخوته الأحد عشر سيبقون أيضًا أحياء ويصبحون طائعين له طول هذه الفترة. إذًا فتحقُّق الرؤيا في هذه الظروف ليس بأمر عادي أبدًا.

وجه المماثلة بين يوسف عليه السلام والنبي الكريم ﷺ:

المماثلة الأولى: كيفية نزول الوحي الأول. فكما حدث ليوسف كذلك نزل أول وحي على النبي ﷺ وهو في "غار حراء"، وقد حمل هذا الوحي أنباءً تخبره بأنه سوف يتفوق ويتغلب عليهم جميعًا إذ قال الله له ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ٤-٦). أي اقرأ هذا الكلام الذي أنزله الله عليك أكرمُ مَن في الوجود، بمعنى أن الله الأكرم سوف يجعلك أنت أيضًا أكرم مخلوق في الأرض، وسوف يعلّمهم بواسطتك ما لم يعلمه أحدًا من الأولين، بمعنى أنك سوف تصبح أشرف كائن في الأولين وفي الآخرين، لأنك سوف تُعطى ما لم يعطَ الأنبياء الأولون. وكأنه تعالى يقول للرسول: ستكون سيدًا لإخوتك أي لقومك وكذلك لآبائك الروحانيين أي الأنبياء السابقين، وذلك كما قال النبي ﷺ: "أنا سيد وُلْد آدم" (ابن ماجة، الزهد)، وأعلن: "لو كان موسى وعيسى حيَّين لما وَسِعهما إلاَّ اتباعي" (ابن كثير، الآية: وإذ أخذ الله ميثاق النبيين). وبالاختصار لقد أُخبر النبي ﷺ لدى أول وحي تلقاه أنه سوف يصير سيدًا مطاعًا لإخوته ولآبائه القدامى.

المماثلة الثانية: لقد حكى يوسف رؤياه لأبيه عليهما السلام، كذلك ذكر النبي ﷺ بمشورة من زوجته رضي الله عنها حادثَ بدء نزول الوحي لشخص صالح من أسرتها هو ورقة بن نوفل (البخاري، بدء الوحي).

هنا أيضًا نجد اختلافًا بين بيان المصدرين، فالقرآن يصرّح أن سيدنا يوسف قد قصّ رؤياه على والده أولاً، فنهاه أن يقصها على إخوته قائلاً: ﴿لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾ (يوسف: ٦)، ولكن التوراة تقول بأنه يقُصّها على إخوته قبل أبيه. (التكوين ٣٧:٩).

وبيان القرآن هو الحق والصواب كما تشهد بذلك التوراة نفسها إذ ورد فيها أن يوسف كان قد رأى رؤيا أُخرى قبل هذه ورواها لإخوته فبدأوا يبغضونه حيث

قيل: (وحلم يوسف حُلمًا وأخبر إخوته. فازدادوا أيضًا بغضًا له) (التكوين ٣٧:٩). وورد فيها أيضًا (فقال له إخوته لعلك تملك علينا مُلكًا أم تتسلط علينا تسلطًا. وازدادوا أيضًا بغضًا له من أجل أحلامه ومن أجل كلامه) (التكوين ٣٧:٨).

فهل يعقل بعد ظهور هذه الكراهية من إخوته أن يحكيَ لهم يوسف رؤياه الثانية التي كانت مشابهة لرؤياه الأولى في فحواها قبل أن يحكيها لأبيه؟ كلا بل إن المنطق السليم يفرض أن يخفي رؤياه الثانية لما رآه منهم في المرة الأولى، وأن يحكيها لأبيه. فبيان القرآن الكريم أقرب إلى العقل والصواب وذلك بشهادة التوراة نفسها.

وأما قول سيدنا يعقوب عليه السلام لابنه ﴿لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾ فقد ذكر القرآن الكريم نفسه سبب هذا النهي حيث قال: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ (يوسف: ٦)، يعني أنهم سوف يدركون بذلك أن لك مستقبلاً باهرًا، فيحسدونك ويبغضونك، ناسين أن لا خيار للإنسان في شأن الرؤيا، وسيحاولون القضاء عليك. وهذا ما تؤكده التوراة أيضًا بأنهم كانوا ناقمين عليه نتيجة أحلامه ورؤياه.

المماثلة الثالثة: وهي كما أن يوسف عندما قصّ رؤياه على أبيه يعقوب عليهما السلام أنذره بأنه سيواجه عداءً من قِبل إخوته، كذلك لما قصّ النبي ﷺ حادث الوحي الأول على ورقة بن نوفل أخبره قائلاً: "ياليتني فيها جَذَعًا، ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك"؛ أي ليتني كنت شابًا قويًا أساعدك. وحينما سأله النبي ﷺ في حيرة: (أوَ مُخرجِيَّ هُمْ) أي هل قومي حقًا سيطردونني من بلدي؟ أجابه ورقة: "لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئت به إلاّ عوديَ" (البخاري، الوحي).

وأما قوله تعالى ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ فله مفهومان؛ الأول: سوف يحقق الله تعالى لك ما رأيت في الرؤيا من بشارة. والثاني: سوف يهب لك مَلَكَةً تعرف بها تأويل الرؤيا.

أما قوله تعالى ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ فالمراد من إتمام النعمة هو التشريف بالنبوة، فبشره الله بذلك أنه سوف يهب له أيضًا النبوة وهكذا يكرم آل يعقوب؛ بمعنى أنهم سوف ينالون نصيبًا من النبوة بالإيمان بيوسف.

هنا أيضًا يختلف القرآن مع التوراة، فإنه يقول: إن سيدنا يعقوب فرح برؤيا ابنه وأيقن بصدقها وصحتها. ولكن التوراة تقول إنه زجره على رؤياه حيث جاء فيها: (فَانْتَهَرَهُ أَبُوهُ وَقَالَ لَهُ: «مَا هذَا الْحُلْمُ الَّذي حَلُمْتَ؟ هَلْ نَأْتي أَنَا وَأُمُّكَ وَإخْوَتُكَ لِنَسْجُدَ لَكَ إلَى الأَرْضِ؟» فَحَسَدَهُ إِخْوَتُهُ، وَأَمَّا أَبُوهُ فَحَفِظَ الأَمْرَ. (سِفْرُ التَّكْوِينِ ٣٧ : ١٠-١١).

ولا جرم أن بيان التوراة مخالف للعقل، لأن أي إنسان ذي عقل سليم لا يزجر أحدًا على ما يراه في المنام، لأن الحلم أو الرؤيا ليس في خيار أحد. نعم، يمكن أن يزجر الإنسان أحدًا إذا كان يظن أن الشخص كاذب و لم يرَ أيّة رؤيا، ولكن التوراة تقول بأن يعقوب زجره قائلاً: ما هذه الرؤيا التي رأيت، مما يعني أنه يعتبره كاذبًا. إذن فادعاؤهما بأن أباه زجره على الرؤيا أمر غير منطقي، وكل عاقل سوف يصدق القرآن في بيانه حتمًا.

المماثلة الرابعة: يتضح من هذه الآية أن سيدنا يعقوب أيقن أن ما رآه ابنه كان رؤيا رحمانية وآمن بها واعتبرها شرفًا ومكرمة لشعبه، وهذا ما حدث للنبي ﷺ حيث صدّقه ورقة بن نوفل عند سماع حادث الوحي الأول واعتبره مدعاة عزٍ وشرف لقومه قائلاً: "هذا الناموس (أي الوحي) الذي نزّل الله على موسى" (البخاري، الوحي).

وكان في هذا الحادث آيات للذين يسعون لفهم صدق النبي ﷺ. وكأنه تعالى ينبيء هنا أن هذا الرسول أيضًا سوف يتعرض لما مرّ به يوسف عليه السلام من ظروف ومحن. فالآية دليل على أن القرآن لا يحكي حادث يوسف كقصة تاريخية، وإنما يسرده ليزوّد الباحثين عن صدق محمد رسول الله ﷺ بالبراهين الدالة على صدقه.

المماثلة الخامسة: لقد واجه النبي ﷺ الموقف نفسه في عدة أشكال، فمثلاً كان لسيدنا عمر رضي الله عنه عمّ اسمه زيد بن عمر بن نفيل، وكان قد تعلّم التوحيد من علماء اليهود، وكان يقوم بالوعظ ضد الوثنيين. وعندما سئل عن دعوى النبي ﷺ قال: أنا

الذي كنت أحارب الشرك في مواعظي وخطبي، فكنت أنا أحق بالنبوة (البخاري، المناقب؛ والسيرة لابن هشام).

وقد أثار اليهود والنصارى هذا الاعتراض نفسه ضد النبي ﷺ إذ زعموا أنهم حملة دين الله وأحقُّ بنعمة النبوة. أي لماذا لم ينزله الله على زعيم من زعماء مكة أو الطائف. وكأنهم احترقوا غيظًا وحسدًا إذ كيف أن الله اختار هذا الشخص الضعيف من بيننا لهذا الفضل والشرف؟ وقال إخوة يوسف نحن الذين نكدح ونكسب للأسرة فلماذا يؤثر أبونا يوسف وأخاه علينا، وإنه من واجب أبينا أن يحبنا نحن لما نقوم به من جهود وأعمال من أجل الأسرة ولكنه يحنو على يوسف الذي لا يحرك ساكنًا، وهذا من أبينا خطأ كبير. وقولهم هذا يدل على أنهم كانوا ناقمين عليه غاية النقمة.

لقد كان إخوته يخططون لارتكاب جريمة شنيعة، ولكنهم كانوا أبناء لنبي من الأنبياء وكان لصحبته تأثير فيهم لذلك كانوا يشعرون في قرارة نفوسهم بالخوف من غشيان المعصية، ودفعًا لهذا الخوف خدعوا أنفسهم قائلين: هلموا نقتله الآن وسوف نتوب فيما بعد.

وهنا أيضًا نجد اختلافًا بين التوراة والقرآن، إذ يقول القرآن إن إخوته تشاوروا أولا، وبعد المشورة احتالوا على أبيهم ليأخذوه معهم خارج البيت وينتقموا منه. ولكن التوراة تزعم أنهم كانوا خارج البيت ورأوه وهو قادم إليهم، فاستعدوا فورًا لقتله حيث جاء فيها: "فلما أبصروه من بعيد قبل ما اقترب إليهم احتالوا له ليُميتوه. فقال بعضهم لبعض هو ذا صاحب الأحلام قادمٌ. فالآن هلمّ نقتله ونطرحه في إحدى الآبار ونقول: وحش رديء أكله. فنرى ماذا تكون أحلامه". (التكوين ٣٧: ١٨-٢٠).

المماثلة السادسة: وهي تتمثل في مؤامرة القتل. يقول الله تعالى عن تآمر الكفار على قتل النبي ﷺ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (الأنفال: ٣١). قوله (ليثبتوك) يعني

ليأسروك ويقيدوك. فكما أن أخوة يوسف ؑ خططوا لقتله أو إلقائه في أرض نائية، كذلك كان تخطيط المشركين ضد المصطفى ﷺ. وإذا كنتم لا ترضون إلاّ بمخالفته في كل حال فلا تقتلوه؛ بل فكروا في مكيدة أُخرى نطرده بها من البيت.

المماثلة السابعة: كما أن بعض إخوته عارضوا قتله كذلك خالف بعضٌ من الكفار المتآمرين قتلَ النبي ﷺ، بل إن بعضهم ضغطوا على الآخرين بحيث اضطر هؤلاء أخيرًا لنقض المعاهدة التي أبرموها لقتله ﷺ وأتباعه عن طريق التجويع والفاقة (السيرة لابن هشام).

ورد في التوراة: "ومضى إخوته ليرعوا غنم أبيهم عند شكيم. فقال إسرائيل ليوسف أليس إخوتك يرعون عند شكيم. فتعال فأُرسلك إليهم. فقال له ها أنذا" (التكوين ٣٧:١٢-١٣). أي أن أباه هو الذي حضّه على الذهاب إلى إخوته في المرعى.

ولكن القرآن الكريم يخبرنا أن إخوته تآمروا على قتله، ثم استأذنوا أباهم ليرسله معهم إلى الخارج. وكان يعقوب ؑ على علم بسيرة أبنائه السيئة وبما كانوا يكنونه ضد يوسف من عداء وشر. والتوراة أيضًا تؤكد ذلك: "فلما رأى إخوته أن أباهم أحبه أكثر من جميع إخوته أبغضوه و لم يستطيعوا أن يكلموه بسلامٍ". (التكوين ٣٧:٤). فكان من المستحيل -والحال هذه- أن يرسله أبوه بنفسه إلى الإخوة. فلا شك إذًا في صحة بيان القرآن وخطأ بيان التوراة.

ويبدو من المشهد الذي ترسمه هذه الآية أن يوسف ؑ كان عندئذ قد بلغ من العمر حوالي أحد عشر عامًا أو إثني عَشَرَ، لأن ما قاله إخوته لا يقال إلاّ عن طفل في هذه السن. ولكن التوراة تزعم أنه كان قد بلغ سبع عشرةَ سنةً (التكوين ٣٧:٢). وهذا خطأ كما سنثبت ذلك بعد قليل.

فقال إخوته لأبيهم أرسله معنا ليلعب ويلهو، ويبدو أنهم كانوا حرّاثين أيضًا، ولكن التوراة تزعم أنهم كانوا رعاة. والحق أن بيان القرآن هو الحق والصواب، وهذا ما يتأكد من التوراة نفسها، إذ تذكر الرؤيا الأولى الواردة في التوراة أن يوسف رأى

فيها أنه وإخوته يصنعون حزمًا من الكلأ (التكوين ٣٧:٧). ولكن الطفل الصغير الذي لم يسمح له بالخروج من البيت إلا قليلا و لم يعش في المدينة وإنما في البرية مع أهله منقطعًا عن باقي العالم، لا يمكن أن يرى في الرؤيا مشهدًا كهذا لا عهد له به من قبل في الحياة. فالرؤيا الأولى أيضًا تؤكد صحة بيان القرآن بأنهم كانوا حرّاثين أيضًا. وفي قولهم ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (يوسف: ١٣) دليل آخر على أن يوسف كان صغير السن عندئذ، وإلاّ فإن الشاب المترعرع في البرية والبالغ سبع عشرة سنة، لا يكون بحاجة إلى حماية الآخرين على هذا النحو.

قال يعقوب بأن مجرد التفكير في خروجه معكم يؤلمني، لأني أخاف أن يأكله ذئب وأنتم في غفلة عنه. وقوله هذا يشكل دليلاً آخر على كون يوسف عليه السلام حينئذ صغير السن. كما يبدو أن أباه كان قد تلقى بوحي الله إشارات تنبهه إلى مؤامرتهم هذه، ولذلك امتنع عن إرساله معهم بالحجة نفسها التي كان إخوته سيلجأون إليها في ما بعد تبريرًا لغيابه.

قولهم (وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب) يشكل برهانا آخر على أن يوسف عليه السلام كان صغيرًا عندئذ، لأن شابًا في سن السابعة أو الثامنة عشرة يستطيع الاشتراك في أية لعبة شاء. كما أن الذئب الواحد لا يهاجم شابًا بيده سلاح، اللهم إلا أن يكون هناك قطيع من الذئاب، ولكن لا توجد في أرض فلسطين منطقة فيها الذئاب على شكل قطعان.

وقولهم (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) يبين أنهم ما كانوا مجرمين متعودين على ارتكاب الجرائم، وإلاّ لم يتفوهوا بهذه الكلمة التي هتكت سرّهم، لأن المجرمين بطبيعتهم لا يكشفون عن جرائمهم بمثل هذه الكلمات، أما هؤلاء فقد تفوهوا -رغمًا عنهم- بكلمة كشفت عن جريمتهم.

يتضح من التوراة أن يعقوب عندما رأى قميص يوسف عليه السلام أيقن بموته حيث جاء فيها: "فتحققه وقال: قميص ابني. وحش رديءٌ أكله. افتُرس يوسف افتراسًا" (التكوين٣٧ : ٣٣). ولكن القرآن الكريم يعارض هذا الرأي ويقول: إن

أباه اعتبر قضية قميصه خدعةً منهم واستعان بالله على ما يقولون، مما يؤكد أنه كان يأمل أن يكون يوسف حيًا، وإلاّ فلا معنى لقوله (والله المستعان على ما تصفون).

والحق أن التوراة نفسها تؤيد موقف القرآن، حيث جاء في موضع آخر منها أن يوسف عليه السلام عندما أوقف أخاه عنده في مصر، تقدم إليه يهوذا وقال: "قال لنا عبدك أبي: أنتم تعلمون أن امرأتي ولدت لي اثنين. فخرج الواحد من عندي وقلت: إنما هو قد افتُرس افتراسًا. و لم أنظره إلى الآن" (التكوين ٤٤ : ٢٧، ٢٨).

فيتضح من قول يعقوب عليه السلام: "و لم أنظره إلى الآن" أنه كان يوقن بأن يوسف لايزال حيًا، ولو كان موقنًا بموته -كما تذكر التوراة هنا بأنه افتُرس- لصار قوله هذا: "لم أنظره" عبثًا ولغوًا. إذن لا شك في صحة بيان القرآن الكريم.

المماثلة الثامنة: إن إلقاء يوسف عليه السلام في البئر يشكل أيضا تشابهًا آخر بينه وبين النبي ﷺ. فعندما اضطر نبينا للهجرة نتيجة مضايقات الكفار بمكة، وطاردوه احتبأ في "غار ثور" وهو أيضًا شبيهٌ بالبئر. والفارق الوحيد هو أن يوسف أُلقي في البئر بيد إخوته، أما النبي ﷺ فاختبأ بنفسه في الغار (السيرة لابن هشام).

وقد تشبه حادثة إلقائه في البئر ما حدث للنبي ﷺ في شعب أبي طالب حيث أُلقي في ذلك الشعب ليبقى فيه محاصرًا لحوالي ثلاث سنوات.

المماثلة التاسعة: لقد أُخبر يوسف عليه السلام بمصير إخوته قبل وقوعه، كذلك بشّر الله جل جلاله النبي ﷺ بأن إخوته (أي قومه) سوف يضطرون للمثول أمامه أذلاء صاغرين في يوم من الأيام. وهذه البشارة مذكورة في قول الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ (القصص: ٨٦)، أي أن الإله الذي أنزل عليك القرآن للعمل به سوف يعود بك حتمًا إلى البلد التي هي مرجع الخلائق ومعاد الناس، بمعنى أنك سوف ترجع إليها فاتحًا بعد أن طُردت منها.

المماثلة العاشرة: فكما أن إخوة يوسف قد ادّعوا هلاكه كذبًا كذلك زعم الكفار قتل الرسول ﷺ في موقعة أُحد عندما أعلن أبو سفيان :إنا قتلنا محمدًا. حتى إنهم نشروا هذه الإشاعة في مكة (السيرة لابن هشام). لكن الفرق الوحيد هو أن

إخوة يوسف عزوا قتله إلى الذئب، وأما هؤلاء فقد ادعوا قتله ﷺ بأيديهم.

انظروا كيف يعامل الله عباده بكل وفاء. لقد ألقى هؤلاء يوسف في البئر عند البرية، ولكن الله تعالى جاء لنجدته على الفور حيث مرَّ ركب من هناك، فبعثوا ساقيهم طلبًا للماء، فجاء الله به إلى البئر نفسها التي أُلقي فيها يوسف ؑ. ويبدو من قوله تعالى ﴿وأسرُّوه بضاعةً﴾ أنهم رأوا في يوسف إمارات النبل والسُؤدد فلذا اعتبروه متاعًا غاليًا.

عندما عرف إخوته أن أصحاب القافلة قد أخرجوه من البئر جاءوهم وقالوا لهم إنه عبد لنا قد أبق، وباعوه لهم. والتوراة تقول إن إخوته باعوه بعشرين درهمًا (التكوين ٣٧: ٢٨). وبيَّن القرآن أنهم لم يبيعوه لأهل الركب رغبةً في المال وإنما ليتظاهروا أنه مملوك لهم.

يبدو أن إخوته خافوا أنهم إذا لم يتدخلوا في تحريره منهم لربما يساورهم الشك في أمره وربما يوصلونه إلى البيت مرة أخرى، فتَظَاهَروا لهم أن يوسف عبد لهم لا يصلح لشيء ويريدون التخلص منه بأي ثمن.

والشراء يعني الاشتراء أيضًا، وعليه، فقد يرجع ضمير الجمع في (شروه) إلى أهل القافلة أي أنهم اشتروه من إخوته بدراهم معدودة.

وهنا أيضًا تختلف التوراة عن القرآن إذ تزعم أن إخوته هم الذين أخرجوه من البئر حيث تقول بأنهم بعد إلقائه فيها جلسوا يأكلون، فلاحت لهم قافلة من الإسماعيليين، فاتفقوا على بيعه لهم، فأخرجوه منها وباعوه لهم بعشرين درهمًا (التكوين ٣٧ :٢٨).

ولكن القرآن يخبر أن القافلة هي التي أخرجته منها. ويكفي لإبطال زعم التوراة أن نذكر أن هناك تعارضًا صارخًا فيها حتى في بضع جمل وردت عن الحادثة. ففي الجملتين رقم ٢٥ و٢٧ ذكرت أن الركب كان من الإسماعيليين، ثم في الجملة التالية زعمت أنه كان من المديانيين، ثم عادت فقالت في آخر الجملة نفسها أنهم الإسماعيليون. مع أن هناك بونًا شاسعًا بين القبيلتين. فالكتاب الذي يخطئ ويتعثر بهذا

الشكل في أربع جمل كيف يمكن اعتباره حاكمًا ومهيمنًا على القرآن الكريم؟ كما أن التلمود أيضًا يؤكد صحة بيان القرآن مائة بالمائةَ (الموسوعة اليهودية كلمة Joseph).

لما وصل الركب إلى مصر باعوا يوسف بثمن لا بأس به. تقول الكتب اليهودية بأن الذي اشتراه في مصر اسمه "فوطي فار"، وكان رئيس الحرس الملكي. وكان هذا المنصب يُعتبر في القديم أكبر منصب في البلاط الملكي.

وهذا الذي اشتراه من مصر أدرك برؤية ملامحه نبله وشرفه، فنصح زوجته أن لا تعامله كالخدم الآخرين بل أن تعامله بإكرام، فربما ننتفع به في يوم من الأيام، أو نتخذه ابنًا لنا إذا وجدناه ولدًا غير عادي.

هناك حذفٌ بعد قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾ (يوسف: ٢٢)، والتقدير: "وكذلك مكّنّا ليوسف في الأرض لنكرمه ولنعلمه تأويل الأحاديث". أي أننا بوأنا يوسف بيتَ رئيس الحرس لنكرمه من جهة، ولنزيده علمًا في الروحانيات بإيقاعه في المحن والاختبارات، لأن هذا ضروريّ للرقي الروحاني. وبالفعل، فقد قدّر الله ليوسف عليه السلام أن يقع في الخصومة مع امرأة العزيز ليمر بمجاهدات روحانية خاصة.

يوسف عليه السلام وامرأة العزيز:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾

ليس المراد منه أنه تَشرَّف بالنبوة بمجرد أن بلغ شبابه، بل إنه من أسلوب القرآن أنه يترك أحيانًا أحداث الفترة المتوسطة جانبًا بذكر النتيجة فقط. توضّح هذه الآية أن سيدنا يوسف عليه السلام لم يقع في شَرَك امرأة العزيز، فباطلٌ قول بعض المفسرين بأنه

كان على وشك أن يقع فريسة لإغرائها (الطبري).

أما قوله تعالى ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ (يوسف: ٢٤) فالمراد من (ربي) هو الله تعالى. وقد أخطأ من قال بأن المراد منه رئيس الحرس الذي كان سيدنا يوسف في بيته (تفسير القرطبي). مما لا شك فيه أن العزيز كان قد أكرم مثوى يوسف وهيأ له إقامةً محترمة، ولكن وصول سيدنا يوسف إليه وتفكير العزيز في تكريمه أيضًا لم يكن إلاّ بفضل الله تعالى. فلا حق لنا أن نسيء الظّن في إنسان كريم كيوسف فنتوهم أنه نسب نجاحه في ترك المعصية إلى الناس لا إلى أفضال الله تعالى. الحق أن كل ما ناله إنما ناله بحسب بشارات من الله تعالى، فلا شك أنه نَسَبَ ورعه وتقواه إلى فضل الله تعالى، إذ كان يرى في ارتكاب المعصية نكرانًا للنعم الإلهية.

وكما سبق فإن كلمة "الهمّ" تعني: عقد الإنسان العزم على فعل شيء، وإن لم يستطع تنفيذه لسبب من الأسباب. فالآية تعني أن زوجة العزيز أرادت أمرًا بيوسف ولكنها لم تقدر على تنفيذه، كذلك أراد يوسف أمرًا لامرأة العزيز ولكنه لم يستطع تنفيذه هو أيضًا.

يرى بعض المفسرين أن المراد من الآية أن كل واحد منهما أراد ارتكاب الفاحشة (الدر المنثور). ولكن هذا الرأي باطل تمامًا حيث أن امرأة العزيز احتالت لصرف يوسف عمّا في نفسه ولكنه لم يتأثر بمكائدها، بل ذكر ربه خشية، وحذّر المرأة من العواقب.

إذن فلا يمكن أبدًا أن يراد من قوله تعالى ﴿وهمّ بها﴾ أنه أراد بها سوءًا. فإن إرادة كل إنسان تفسَّر بحسب حالته، فالمراد من "هم بها" أنها كانت عازمة على أن تنحرف به إلى الشر، وأما هو فكان يريد لها أن تهتدي إلى الخير، بيد أنَّ الاثنين لم يفلحا فيما أرادا، إذ لم يقبل هو ما بغتهُ من سوء ولم تقبل هي ما أراد بها من خير.

البرهان الذي رآه يوسف عليه السلام:

أما قوله تعالى ﴿لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ (يوسف: ٢٥) فليس بمتعلق بقوله ﴿وهمّ بها﴾، بل هو جملة منفصلة مستقلة، وجوابها محذوف. والمراد من هذه الجملة

أن يوسف رأى البراهين والآيات من الله تعالى في الماضي، ولولاها لما وجد هذه العزيمة والتصميم على مقاومة الشر. فمثلاً لم ينصح المرأة بالكفّ عن السوء بل بقيَ صامتًا، ولكنه قد رأى آيات الله فلم يكن يُتوقع منه إلاّ أن يصدها عن ارتكاب المعصية، ولكنها -لسوء حظها- لم تقبل نصيحته وأصرت على الفاحشة.

وقد اختلف المفسرون بمعنى البرهان الذي رآه يوسف، فمنهم من يرى أن يوسف أيضًا كان قد رضي بالإثم واستعد لارتكابه، فطلبت منه امرأة العزيز إلقاء رداء على صنم في بيتها لأنها كانت تشعر بالخجل منه، فتنبه يوسف وعاد إلى الصواب وقال: "أنا أحق بالخجل والحياء من ربي الذي يعلم ويرى"(الدر المنثور). بينما قال الآخرون إنه رأى في السقف عبارةً تقول: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ (الإسراء: ٣٣). وكأن القرآن كان قد تم نزوله حينئذ! ويرى غيرهم أنه رأى يدًا مكتوبًا عليها قول الله تعالى ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ (الانْفطار: ١١-١٢). ويزعم البعض أنه رأى صورة أبيه يعقوب عليه السلام وهو يعض أنامله، فرجع عمّا نواه. (ابن كثير).

والحق أن كل هذه المزاعم باطلة لا أساس لها من الصحة. وإنما يعني ﴿بُرْهَانَ رَبِّه﴾ تلك الآيات والبراهين التي كشفها الله ليوسف عليه السلام في الماضي؛ ومنها رؤياه التي بشره الله بها عن مستقبل باهر، والوحي الذي تلقاه وهو في البئر يبشره بالنجاة منها وبأنه سوف يحقق رقيًا غير عادي بحيث سيضطر إخوته في يوم من الأيام للمثول أمامه خاضعين. وأيُّ شك في أن الذي كان يهيئه الله لمثل هذه الإنجازات العظيمة لا يمكن أن يهينه ويخزيه هكذا أمام امرأة مشركة.

قوله تعالى ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ (يوسف: ٢٥) يعني أولاً أننا إنما أريناه الآيات والبراهين لكي نكفّه عن المساوئ والفواحش. والحق أن هذا هو الهدف الذي يحققه الله بإظهار الآيات والبراهين على عباده الأخيار. فكيف يمكن أن لا يتحقق هذا الغرض الإلهي في قضية يوسف بل تنقلب النتيجة تماما.

والمعنى الثاني، أن هذا الحادث وقع لكي ينجيه الله تعالى من صحبة هذه المرأة

الشريرة. فمن الحقائق التي لا يحوم حولها الشك أن العيش في صحبة الأشرار يؤثر سلبيًا في عقل الإنسان وأفكاره. ولو أن امرأة العزيز لم تبدِ نيتها الشريرة بهذا الطريق لبقي يوسف في صحبة هذه المرأة وزميلاتها الفاسدات الأخلاق. فلم يرد الله أن يعيش يوسف في صحبتهن، فكشف عن نواياها الشريرة على الفور، وفصل بينه وبينهن بإرساله إلى السجن حيث ينقطع كليةً إلى عبادة الله تعالى على انفراد.

المماثلة الحادية عشرة: كما أن امرأة العزيز حاولت صرف يوسف عن الصراط المستقيم، كذلك سعى أعداء النبي ﷺ لصرفه عن دينه بشتى الإغراءات. فقد سجل التاريخ أن وفدًا من قريش جاءوه ﷺ ووعدوه أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكة، أو يزوّجوه من أراد من النساء وأن يجعلوه سيدًا عليهم شريطة أن لا يذكر آلهتهم بسوء. فردّ عليهم النبي ﷺ بمقولته الخالدة: "والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر لما تركته حتى يُظهره الله تعالى أو أهلك دونه". (السيرة لابن هشام).

وهناك مشابهة أُخرى بين النبيين الكريمين وهي: كما أن الناس قالوا في تفسير بعض الآيات القرآنية عن يوسف عليه السلام بأنه كان قد مال إلى السيئة قليلا، كذلك زعموا في تفسير آيات من القرآن أن النبي ﷺ كان قد مال إلى الكفار قليلاً. فالحق أن القرآن لم يقصد أبدًا في هذه الآية ما ذهب إليه المفسرون.

شق قميص يوسف عليه السلام:

لما رأى سيدنا يوسف أن نُصْحَه لا ينفعها شيئًا، فكّر أنه لو بقي عندها مدة أطول فقد يعرّضه هذا للاتهام، فحاول الفرار من هناك. ولكن امرأة العزيز حاولت إيقافه ممسكة بثوبه من الخلف، فشقته شقًا مستطيلاً. وتزامن ذلك مع حضور زوجها إلى البيت، فحاولت إخفاء جريمتها بأن اتّهمت يوسف البريء بالاعتداء عليها، ثم لم تلبث أن اقترحت بنفسها عقابه بأن يُسجَن أو يعذَّب عذابًا أليمًا.

يبدو من كلمة (واستبقا الباب) أن سيدنا يوسف أسرع إلى الباب ليفتحه ويفر

منها، ولكن امرأة العزيز بادرت إلى الباب لتمنعه من فتحه. فلو كانت هي التي تريد الفرار لما أخذت بمؤخر قميصه. فلاشك أنها جرّته من قميصه لتدفعه عن الطريق وَلتقف هي أمام الباب حتى لا يستطيع فتحه، ولكنها فشلت في هذه المحاولة.

هنا أيضًا يعارض القرآن التوراة في بيانها، فقد جاء فيها أن يوسف فرّ تاركًا ثيابه عند المرأة (التكوين ٣٩: ١٣). ولو أخذنا بعين الاعتبار أن العبرانيين ما كان لباسهم عندئذ إلاّ قميصًا طويلاً واحدًا على العموم، فهذا يعني أن يوسف فرّ من عندها عاريًا، وهو أمر مكروه للغاية لا يتوقع صدوره عن إنسان كيوسف عليه السلام. فلا ريب أن بيان القرآن هو الأقرب إلى العقل والمنطق، إذ لم يفر من عندها تاركًا ثيابه وراءه وإنما انشق قميصه من الخلف.

إنّ ما فعله يوسف هو الذي يليق بمقام عباد الله الأخيار، فإنه رغم كونه مظلومًا لم يبادئ الحديث عمّا حدث بل حاول ستر خطيئة المرأة، ولكنها لما اتهمته بالإثم كذبًا اضطر لبيان الواقع، وأخبر زوجها قائلاً: لم أُفكر أبدًا في الخطيئة وإنما هي التي كانت تحاول إغرائي بها بل وإرغامي عليها.

ثمّ إن الله بنفسه هيّأ ظروفًا برأت ساحة يوسف، حيث قام شاهد من أهلها يشهد لصالحه إذ نبَّه أنه لو كان يوسف هو الذي نوى بها الشر لكان هناك احتمال أكبر أن يتمزق قميصه من الأمام، ولكن قميصه قد تمزَّق من الخلف وهذا دليل واضح أن هذا المسكين كان يريد الفرار منها وأنها هي التي كانت تريد إيقافه ومنعه من الهروب.

وحيث إن القرآن لم يذكر من قبل حادثة تمزُّق القميص، يبدو أن هذا الشاهد هو أول من رأى القميص ممزقًا من الخلف، ولكنه لم يصرح بذلك خوفًا من غضب تلك المرأة، وإنما تحدث بأُسلوب وكأنه يبين قاعدة عامة لمعرفة الحقيقة في مثل هذه الظروف.

يبدو أن هذا من كلام العزيز. فعندما نبّهه الشاهد إلى فحص القميص ووجده ممزقًا من الخلف أدرك الحقيقة.

إن كيدكن عظيم:

قال البعض بأن قوله تعالى ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ (يوسف: ٢٩) يعني أن النسوة بطبعهن يملن إلى المكر والكيد بوجه خاص.

مما لاشك فيه أن النسوة بسبب تعرضهن للظلم والعدوان مِنَ الرجال عمومًا يَكُنّ أشدَّ مكرًا من الرجال وأمهَرَ منهم في التمويه والتعتيم، ولكن هذه العادة ترجع إلى هضم حقوقهن بأيدي الرجال. ومن أجل ذلك لا نجد هذه العادة في نساء الشعوب أو العائلات التي تؤدَّى فيها حقوق النساء كاملة، بَل نجد على النقيض من ذلك أن الرجال في الأمم المقهورة بأيدي الظالمين يلجأون أيضًا إلى المكر والخداع. فهذه العادة ليست خاصة بالنسوة فقط، وإنما هي نتاج الظلم وهي قائمة لدى الجنسين على حد سواء.

كما يجب أن نعلم أن عبارة (إن كيدكن عظيم) ليست قرارًا سماويًا وإنما هي من قول العزيز، وقوله ليس بحجة علينا. لقد تفوّه به غاضبًا، والذين لا يملكون أنفسهم عند الغضب يتفوّهون بمثل هذا الكلام، سواء كانوا من النسوة أو الرجال. إننا نرى دائمًا أنَّ كل جنس يرمي الجنس الآخر بشتى النقائص والعيوب. فمن اعتبرها قاعدة عامة أو حقيقة ثابتة فقد ساق دليلاً على جهله وقلة إدراكه فحسب. إذ لا أحد يقصد من مثل هذه الأقوال أن المخاطَب أوجميع أفراد الجنس الآخر مخطئون. فمن حمل مثل هذه الأفكار الخاطئة عن جنس النساء الذي خرجت منه سيدات فاضلات عظيمات مثل مريم وخديجة وعائشة رضوان الله عليهن، فلا شك أنه لا يهين إلاّ نفسه.

وهنا نجد اختلافًا آخر بين ما ورد في القرآن وما ورد في التوراة، فإنها تذكر أن العزيز صدّق زوجته في قولها، وعَدَّ سيدَنا يوسف مجرمًا وغضب عليه. (التكوين ١٩:٣٩ و٢٠). ولكنها سرعان ما تعود لتؤيد القرآن بقولها: فدفع رئيس بيت السجن إلى يد يوسف جميع الأسرى الذين في بيت السجن. وكل ما كانوا يعملون هناك كان هو العامل (التكوين ٢٢:٣٩).

وعندما شاع خبر الحادث بين أقارب العزيز وسمعته بعض النسوة اللاتي كن صديقات لامرأته فيما يبدو، بدأن في نشر الخبر علنًا. ولكنهن -بغية التشهير بها- أَذَعْنَ الخبر بحيث يتوهم الناس وكأن الغرام بينهما لا يزال مستمرًا. وهكذا قدّمن الحادث بشكلٍ مشوّهٍ يوهم السامع وكأن سيدنا يوسف أيضا كان متورطًا في المعصية.

عرفت امرأة العزيز أن النسوة يتحدثنَ عنها بأسلوبٍ يبدو طيبًا ولكنهن في الواقع يَبْغِين التشهير بها، حيث يوهمن الناس وكأن الفاحشةً قد ارتُكبت فعلاً، رغم إعلان أهلها بأن الأمر ليس كذلك، وأدركت بأنهن يحسبن أن الغرام بينهما لا يزال قائمًا مستمرًا، مع أَن كل ما في الأمر أن بوادر الغرام قد ظهرت من امرأة العزيز، ولكن الأمر لم يتعدّ ذلك. فلكي تزيل "زليخا" هذه الأوهام والشبهات من أذهانهن، دعتهن إلى الطعام. فرتبت الموائد ووضعت سكينًا أمام كل واحدة منهن -ويتضح من ذلك أن استخدام السكاكين لتناول الطعام عادة قديمة، مثلما يرتبون اليوم السكاكين على الموائد قبل إحضار الأطباق- ثم أمرت امرأة العزيز يوسفَ أن يضع أمامهن الطعام. فلما رأينه أدركن من ملامح وجهه الكريم أنه ليس من صنف البشر الذين يأتون الفواحش. واعترفن بعظمته وطهارته، وبخطأ ظنهن فيه، وببراءته من التورط في الإثم مع المرأة.

معنى قطع أيديهن:

وأما قوله تعالى ﴿قطّعن أيديهن﴾ فيمكن تفسيره بطريقين. الأول: أن ما رأينه من عظيم نبله وشرفه وبراءته بَهَرَهن لدرجة أنهن انهمكن في مشاهدة هذا المحيّا حتى إن بعضهن جرحن أيديهن بالسكاكين.

والثاني: أن هذا تعبير عن شدة الحيرة والدهشة بمعنى أنهن قمن بعضّ أناملهن من روعة المشهد وقلن: كيف خطر لنا أن نظن أن هذا المَلَك الكريم يمكن أن يقترب من الفاحشة. وعض الأنامل يدلّ كذلك على الندم. وقد جاء هنا بكلمة (أيدي) بدل (أنامل) بحسب عادتهم في ذكر الكل مكان البعض.

ولقد ورد في التلمود أنها وضعت أمامهن البرتقال، وأمرت يوسف بالقيام بخدمتهن، فانهمكن في رؤية وجهه الجميل منبهراتٍ فجرحن أيديهن.

أما الجملة (إنْ هذا إلاّ ملَك كريم) فتعني أنهن عندما رأينه أقررن بعظمته وورعه، ولم يلبثن أن قلن إنه ملَك كريم. وهذا يعني أنه يمكن إطلاق كلمة "المَلَك" على البشر مجازًا.

لقد ذكرنا من قبل أن النسوة تحدثن بأسلوب يوهم بأن الفاحشة قد ارتُكبت فعلاً. ودفعًا لهذا الوهم قامت امرأة العزيز بدعوتهن إلى الوليمة. والظاهر أن هذه الفعلة يستحيل ارتكابها ما لم يرض بها الرجل، فلذا عرَّفت هذه المرأة صديقاتها بيوسف عليه السلام ليعترفن بأفواههن بأنه أسمى من الوقوع في هذه الرذيلة. ثم بيّنت لهن واقع الأمر قائلةً: لقد حاولت إيقاعه في شَرَكي ولكنه امتنع عما أريد منه. وكما هو بادٍ من حديثها فإنهن كنّ صديقات سوء، ولذلك بعد أن برّأت ساحته من الفاحشة أكّدت لهن نيتها الشريرة نحوه قائلة: إنه إذا لم يخضع لرغبتي فسوف أرغمه على السجن وأذيقه الخزي والهوان.

والغريب أن المفسرين يقولون بأن يوسف مال إلى ارتكاب المعصية ولكن المرأة التي كانت محور الحادث والتي رأت في رفضه لرغبتها إهانة لها، نجدها تعلن أنه لم يقع في مكيدتها بالرغم من محاولتها المضنية، بل استعصم وسلِم.

ومن عجائب القدر أن المرأة هددته بالذل والهوان بإلقائه في غياهب السجن، ولكن السجن نفسه أصبح سببًا في عزة يوسف وشرفه، إذ جعله الله تعالى من خلال دخوله السجن مقربًا للملك، ووزيرًا للمال. وهكذا تحقق ما هددته به، كما أنجز الله وعده معه، ليبين أن كل شيء في قبضته وقدرته، فلو شاء لخَلَقَ من أسباب الخزي والذل دواعيَ العز والشرف. لقد أكد الله في الآية السابقة براءة يوسف بلسان امرأة العزيز، وهنا أكدها بلسان يوسف نفسه وهو يبتهل إلى ربه قائلاً: يا ربِّ إن لم تردَّ عني مكرهن فسوف أميل إليهن. مما يعني أنه لم يكن قد مال إليهن من قبل هذا، ناهيك أن يرتكب الفاحشة معها. أوليس غريبًا أن المرأة نفسها تعلن أنه لم يمل إليها،

كما يؤكد ذلك يوسف بلسانه أيضًا، ثم إن النسوة اللاتي رأينه شهدْنَ أن صدور المعصية من مثل هذا الملَك الكريم أمر مستحيل، ويأتي المفسرون بعد الحادث بآلاف السنين لكي يعلنوا أن يوسف كان قد مال إلى ارتكاب الفاحشة أولاً، ولكنه تنبه فيما بعد وتاب!

دخول يوسف ﷺ السجن:

﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ (يوسف: ٣٤)

لقد ذكرنا إلى الآن عديدًا من المشابهات بين سيدنا يوسف والرسول الكريم عليهما السلام، ولكن هذه الآية توضح الفارق بين النبيين الكريمين، وتبين فضل النبي وعظمته ﷺ. ذلك أن سيدنا يوسف يستغيث الله تعالى بأن ينقذه من تلك المصيبة بإلقائه في المصيبة الأُخرى، ولكن من سنّة الرسول الكريم محمد ﷺ أنه كان يسأل ربه العافية والخير دائمًا، لأنه عزّ وجل قادر على ردّ المصيبة بإعطاء النعمة.

أي أن الله تعالى خيّب آمالهن الشريرة في يوسف وجعلهن يَيْأَسْن منه، كما زاد قلبه قوة وثباتًا.

لم يكن دخوله السجن استجابة لدعائه، لأن الدعاء لدخول السجن لم يكن حلاً حقيقيًا لما هو فيه، وقد ذكرت الآية السابقة أن الله تعالى صرفَ عنه كيدهن استجابة لدعائه. لا شك أن يوسف ﷺ كان قد دعا ربّه أن يُدخله السجن، ولكن الله تعالى استجاب لدعائه بأن دفع بَلاءَه بطريق آخر أفضل دون أن يُدخله السجن. ثم إنه بعد مرور فترة من الزمن طرأت ظروف مختلفة أدت إلى دخوله السجن، كما يصرح الله تعالى ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ (يوسف: ٣٦). وأرى أن المراد من الآيات المذكورة هنا هو الفضيحة المتزايدة التي تعرضت لها امرأة العزيز، فرأوا من الأنسب أن يسجنوه ليتوهم الناس أن يوسف هو الجاني وأن امرأة العزيز بريئة، وذلك محاولةً منهم لاستعادة ما فقدته هذه المرأة من عزة واحترام.

تقول التوراة بأن العزيز سجن سيدنا يوسف أول ما نشب الخصام (التكوين ٣٩: ١٩). ولكن القرآن الكريم يعارض التوراة في زعمها هذا ويرى أنه سُجن فيما بعد.

وكما سبق أن بينتُ فإن بيان التوراة مرفوض حتى بناءً على ما ورد فيها في أماكن أُخرى، فمثلاً قد جاء فيها: "فسخط فرعون على خَصِيَّيه رئيسِ السقاة ورئيسِ الخَبّازين، فوضعهما في حبس بيت رئيسِ الشُّرَط في بيتِ السجن المكانِ الذي كان يوسف محبوساً فيه. فأقام رئيس الشرط يوسفَ عندهما" (التكوين٤٠: ٢-٤). فثبت جليًا أن العزيز كان يرى يوسف عليه السلام صادقًا في قوله حول الحادث، وأنه لم يسجنه في بداية الأمر، وإنما اضطر لسجنه فيما بعد لبعض المصالح الأُخرى.

قوله تعالى ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ (يوسف: ٣٧)، لا يعني بالضرورة أنهما دخلا السجن في نفس اليوم أو الوقت الذي دخل فيه يوسف. نعم، لا بدّ أن يكونا قد أُسكنا في السجن في المكان الذي كان يسكنه يوسف عليه السلام. وهذا ما تؤكده التوراة أيضًا، حيث جاء فيها: فسخط فرعون على خصيّيه رئيس السقاة ورئيس الخبازين؛ فوضعهما في حبس بيت رئيس الشرط في بيتِ السجن، المكانِ الذي كان يوسف محبوسًا فيه. فأقام رئيس الشرط يوسف عندهما (التكوين٤٠: ٢).

المماثلة الثانية عشرة: هنا أيضًا نجد تشابهًا بين سيدنا يوسف وبين نبينا المصطفى عليهما السلام، إذ إن سيدنا يوسف عليه السلام -كما يبدو- كان لا يجد فرصةً لدعوتهما إلى الله فلذا وَجَدَ في سؤالهما إيّاه فرصةً سانحةً للتبليغ مدركًا أنهما لا بد أن يصغيا إلى حديثه انتظارًا لسماع تأويل الأحلام.

هكذا كان يفعل رسولنا الكريم ﷺ، ففي بداية دعوته عندما أراد تبليغ الرسالة و لم يسمعه أعيان مكة. دعاهم لمأدبة طعامٍ، وبعد أن فرغوا من الطعام أراد دعوتهم إلى الإسلام، ولكنهم لم يستمعوا له، وخرجوا من عنده. فأقام لهم مأدبة أُخرى، ولكنه في هذه المرة أخذ حيطته وشرح لهم دعواه قبل إحضار الطعام، فاضطروا للإصغاء إليه وهم في انتظار الطعام. فهذه الآية تبين لنا سنّة أنبياء الله عليهم السلام في مجال تبليغ الدعوة، وعلينا أن نتأسّى بها دائمًا في وعظنا حتى نتمكن من قول ما نريد من حيث لا نثقل على الناس.

من الذي نسي ذكر ربه؟ يوسف عليه السلام أم الفتى؟

يقول الله تعالى: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ * وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ (يوسف: ٤٢-٤٣).

لقد فسّر البعض قوله تعالى ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾، بأن الشيطان أنسى يوسف أن يذكر ربّه عز وجل أي أن يقول: إن شاء الله. والحق أنه لم يكن هناك من داعٍ ليقول يوسف: إن شاء الله، كما لم يحدث منه هذا التقصير. بل قد جاءت كلمة (رب) في قوله: "ذكر ربه" بمعنى الملك كما جاءت أيضًا في قوله: (عند ربك). فلا داعي لأخذ كلمة (رب) هنا بمعنى الرب عز وجل، لنستدل بذلك أنَّ يوسف عليه السلام تغافل عن ذكر الله عز وجل، بل المعنى الواضح البسيط هو أن هذا الفتى الناجي من السجن أنساه الشيطان ذكر يوسف عند سيده، أي الملك، بمعنى أنه بسبب الأعمال الشيطانية مثل شرب الخمر وتوزيعها زال عن الفتى التأثيرُ الطيب الذي تركته فيه صُحبةُ يوسف عليه السلام، فلم يفكر في يوسف ولم يذكره عند الملك كما وصّاه بذلك. فبالرغم من هذا المعنى الواضح للآية، الذي يبرئُ ساحة يوسف من مثل هذا التقصير، لا داعي أن نأخذ بأي معنًى آخر يسيء إليه عليه السلام.

رؤيا الملك:

﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ (يوسف: ٤٧)

يبدو أن فرعون كان موقنًا إلى حد بعيد بصدق الرؤيا التي رآها، ولذلك لم يكتف بسؤالهم عن تأويلها، بل قال: أخبروني ماذا تقترحون عليّ فعله إن كنتم تفهمون. وهذا يعني أن الله تعالى أراه الرؤيا بوضوح وهيبة بحيث تركت في قلبه وقعًا عظيمًا جعله يصدقها ويسعى للنجاة من عواقبها المنذرة، إذ لولا هذا التأثير العميق

للرؤيا في قلبه لما ذكرها لحاشيته، وبالتالي لم تتهيأ الأسباب للإفراج عن يوسف الطَيْكِلا. قالوا إنها أحلام مختلطة، فيها الحق وفيها الباطل، ومشوبة بشوائب حديث النفس، ولا يمكن اعتبارها من الله بشكل كامل، ولا نستطيع تعبيرَ مثل هذه الأحلام إذ لا يمكن الجزم في حكمها. والمراد أننا لا نقدر على تأويل هذه الأحلام التي قد اختلط فيها الحق بالباطل.

فعندما لم يقدر هؤلاء على تأويل حلمه، وتهرّبوا من الإجابة عن سؤاله بقولهم: إنها أضغاث أحلام، تذكَّرَ هذا الفتى قصة ما رآه هو وصاحبه في السجن من أحلام، وقال في نفسه: إن أحلامنا أيضًا كانت تبدو أضغاث الأحلام، ولكن يوسف ذكر لها تأويلاً معقولاً تحقق فيما بعد تمامًا، فلربما يذكر يوسف تعبيرًا لرؤيا الملك أيضًا. فاستأذن حاشيةَ الملك أن يرسلوه إلى يوسف ليعرف منه التأويل. ولا غرابة في سؤال الملك حاشيتَه عن تأويل الرؤيا، إذ كان للكهّان ورجالات الدين عندئذ نفوذا في البلاد وحظوة في البلاط.

ويجب أن نتذكر هنا أمرًا لطيفًا: لا شك أن النجاح كان حليفًا لكلٍّ من سيدنا يوسف الطَيْكِلا والنبي ﷺ، ولكن هناك فارقًا أيضًا. كان نجاح سيدنا يوسف مقدّرًا بواسطة الآخرين لذلك قدّر الله أن يرى الملك تلك الرؤيا التي كانت سببًا في رقي يوسف الطَيْكِلا، وأما النبي ﷺ فقد أراد الله له أن ينال الرّقيّ بطريق مباشر من لدنه تعالى، فلذا بشّره الله بالفوز عن طريق الوحي مباشرة ولم يرضَ الله له أن يستعين بالناس وهو يرقى سُلَّم التقدّم والازدهار.

المماثلة الثالثة عشرة: وهي أن الله تعالى كما نبّأ في زمن يوسف الطَيْكِلا بوقوع القحط والمجاعة لسبع سنين، كذلك أخبر النبي ﷺ بسنين كسِني يوسف، حيث جاء في الحديث الشريف عن عبد الله بن مسعود: "كان هذا لأن قريشًا لما استعصوا على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسِني يوسف. فأصابهم قحطٌ وجَهدٌ حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجَهد. فأنزل الله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ﴾(الدخان: ١١-

١٢) قال: فأُتي رسول الله ﷺ فقيل: يا رسول الله، استسقِ الله لِمُضَرَ فإنها قد هلكت... فاستسقى فسُقُوا (البخاري، التفسير، سورة الدخان).

تفسير رؤيا الملك:

المراد من قوله: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ (يوسف: ٤٨)، أنه لا مناص لكم من أن تزرعوا هذه السنين السبع بجد وتعب دون انقطاع حتى توفروا الغلال لسِني المجاعة والجفاف. أما إذا قصّرتم في الجهد أو تهاونتم في أخذ الحيطة في الاستهلاك، فلن تقدروا على تحمل وطأة المجاعة.

كما أخبرهم سيدنا يوسف عليه السلام كيف يحفظون الغلال فقال: إذا تركتم القمح في سنابله كان أدعى لحمايته من الديدان والسوس. ولعله عليه السلام توصل إلى هذه الحيلة مما ورد في رؤيا الملك نفسها، حيث فكّر أن رؤيته السنابل مع البقرات ربما تتضمّن إشارةً إلى حفظ الحبوب في سنابلها. أي ثم تأتي أيام القحط تَستَهلكون فيها كل ما ادخرتموه من حبوب وغلال إلا قليلاً. وقوله ﴿إلاّ قليلاً مما تحصنون﴾ يعني أنكم ستضطرون حتمًا لتوفير بعض الغلال. وهذا الاضطرار يتمثل في توفير بعض الحبوب، إبقاءً على البذر للمرة القادمة، أو خوفًا من أن تمتد المجاعة مدة أطول.

الإفراج عن يوسف عليه السلام:

أراد الملك الإفراج عن يوسف عليه السلام بعد ما رأى أن الكهنة الذين هم على دينه قد فشلوا في تفسير رؤياه، بينما أتى سيدنا يوسف بتأويل رائع مقرون بعلاج للمصيبة التي تنتظرهم، كما سمع الملك من ساقيه أنه سبق أن تحقق ما ذكره يوسف من تعبير لما رآه هو وصاحبه في السجن من أحلام. ولكن حمية يوسف أبت أن يخرج من السجن إلاّ بعد أن تُبرَّأ ساحته مما رُمي به. ويبدو أنه عليه السلام فكّر في نفسه أنه لو خرج منه دون أن تُعلن براءته من التهمة فلربما يثير البعض القضية نفسها أمام الملك في المستقبل، فيصدّقهم. فالأفضل أن تُرفع إليه القضية الآن لكي يتحرى فيها ويطمئن، حتى لا يستغلها أحد للتآمر عليه فيما بعد.

خياران أمام يوسف عليه السلام:

أود أن أذكر هنا كلمة حكمة لا يتذكرها الناس عمومًا، ألا وهي أن اعتبار العمل حسنًا أو سيئًا يتوقف على اختلاف وجهات النظر. فأحيانًا يكون هناك أمران متعارضان تمامًا فيما يبدو، ولكن باختلاف زاوية النظر إلى كل منهما ينقلب هذان الأمران إلى حسنتين أو سيئتين. وما فعله سيدنا يوسف عليه السلام أيضًا يندرج تحت هذا القبيل من الأفعال. فعندما دعاه الملك كان أمامه خِياران اثنان فقط: إما أن يخرج من السجن دون تردد، أو أن يُثبت براءته أولاً ثم يخرج. وهذان أمران متعارضان في الظاهر، ولكن يمكن اعتبار كل واحد منهما حسنًا أو سيئًا بتغيير زاوية النظر إليه.

ذلك أنه عليه السلام لو امتنع عن الخروج من السجن بسبب الغطرسة والزَهْو قائلاً: لن أخرج منه ما لم يعترف القوم بخطئهم لعُدَّ عمله هذا معصيةً.

كذلك لو أنه خرج من السجن على الفور مؤْثراً راحةَ نفسه على مصلحة دينية، لكان هذا إثمًا. ولكن الواقع أنه عليه السلام لم يرفض الخروج من السجن استكبارًا وتعاليًا، وإنما سببه -كما ذكره هو نفسه- ألاّ يتوهم سيده أنه خانه في أهله أثناء غيابه. هكذا فإن نيته الطيبة جعلت رفضه من أفضل الأعمال الصالحة.

ولكن هناك زاوية نظر أُخرى تجعل خروجه الفوري من السجن من أفضل الأعمال، وهي النظر إلى أهمية أداء الواجب. ذلك أن النبي مأمور أن يبلغ الناس رسالة الله، ومهمّته هذه تفرض عليه أن يضحي في سبيل ذلك بكل غالٍ ورخيص حتى بكرامته وشرفه. أما لو بقي النبي مسجونًا فإما أنه لن يقدر على تبليغ رسالة الله أو أن نطاق دعوته يكون محدودًا وضيقًا جدًا. فلو نظر سيدنا يوسف من هذا المنظور وخرج من السجن دون تبرئة ساحته من التهمة، مُؤْثرًا أداء واجبه على الحفاظ على كرامته وشرفه، لكان ذلك تضحية عظيمة منه. ومن هذه الزاوية نظر الرسول الكريم ﷺ إلى حادث يوسف عليه السلام حيث فَضَّل الخيار الثاني قائلا: "لو لبثتُ في السجن ما لبث يوسف لأجبتُ الداعي". (البخاري، الأنبياء) وفي رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه: "لأسرعتُ الإجابة وما ابتغيت العذرَ"(مسند أحمد، ج٢، ص٣٤٦).

وكل عاقل يدرك أن ما يفضّله النبي ﷺ هو الأفضل، إذ لا جرم أن محافظة الإنسان على كرامته وشرفه عملٌ حسنٌ عظيم، ولكنه لو ضحّى به لوجه الله تعالى، معرِّضًا نفسه للاتهام والطعن، بغيةَ تبليغ رسالة الله، أو لتحقيق مصلحة دينيةٍ أو قوميّة لكان أفضل من أن يهتم أولاً بالمحافظة على شرفه وكرامته، ولو بنيّة طيبةٍ.

الآن حصحص الحق:

يبدو أن الملك عندما سمع التفسير الذي ذكره سيدنا يوسف عليه السلام أيقن على الفور بطهارته وورعه، وأدرك -حتى من قبل الفحص والتحري- أن التهمة الموجهة إليه باطلة، ولذلك خاطب النسوة وقال: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِه﴾ (يوسف: ٥٢). كما يتضح من الآية أنهن اشتركن فيما بعد مع امرأة العزيز للتآمر على يوسف ليقع في فخها، لأن قول الملك هذا يوحي بأن خبر الحادث كان قد بلغه. ولكن الأكيد أن النساء لم يراودنه لأنفسهن وإنما لامرأة العزيز. فربما قالت له النساء: عليك بالرضوخ لرغبتها وإلا سوف تلقيك هي وراء قضبان السجن. أمّا لو كن يحاولن مراودته لأنفسهن لكان القرآن صرَّح بذلك.

ويبدو من قول الملك أن هذا الحادث كان جزءًا من الحادث السالف نفسه، وأن النسوة أدركن عندما خاطبهن الملك بهذا الأسلوب أنه سوف يؤيد يوسف في موقفه، وأن إخفاء الحق أكثرَ من ذلك سوف يعرّضهن للخطر، فأتين بالحق، ولكن بكلمات تبرئ ساحة يوسف وفي الوقت نفسه لا تعرِّض امرأة العزيز لأي اتهام. أما هي فأصابها الفزع وأدركت أن الفضيحة موشكة، وأنهن سوف يكشفن سرها الآن، فعليها أن تبادر بالاعتراف بجريمتها هي بنفسها لتنجوَ من العقاب الذي قد ينزله الملك بها، فقالت دون أن يسألها الملك: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِه وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾. أما قوله تعالى ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ (يوسف: ٥٣)

فقد اختلف المفسرون في تعيين صاحب هذا القول فَنَسَبَهُ البعض إلى امرأة العزيز، حيث قالت: لم أخن يوسف في غيابه. ولكن هذه الكلمة لا يمكن أن تتفوه بها تلك

المرأة، لأنها كانت قد خانت بالفعل، ولذلك أؤيد من قال إن هذا من كلام يوسف، والمعنى: لم أخدعه و لم أخفِ عنه شيئًا، إذ كان من المحتم أن تُرفع القضية إلى الملك في يوم من الأيام، فيظن أني خدعته، بإخفاء حقيقة أمري عنه لأتبوأ هذا المنصب.

وقد يكون الضمير في (ليعلم) عائدًا على الملك، والضمير في(لم أخنهُ) عائدًا على العزيز، والمراد: ليعلم الملك أني لم أغدر بالعزيز الذى أحسن إليّ، لكي لا يظن أن هذا الذي قد غدر بمن أحسن إليه ربما يغدر بي أيضًا. ويبدو أن الله تعالى أخبر يوسف عليه السلام بالوحي أنه سوف يتقلد منصبًا عند الملك، فلذلك قام بتبرئة ساحته من الخيانة لكي لا يتهمه أحد بها أثناء وزارته للملك...

لقد وجّه الملك بقوله هذا تأنيبًا لطيفًا للعزيز الذي كان يوسف في بيته، وكأنه يقول له: لِمَ لَم تُقدِّر هذا الشخص العظيم حق التقدير، فالآن سوف أقربه مني لينال حقه من التقدير والتكريم.

وكان هذا التقدير من الملك قبل اللقاء بيوسف، ولكنه عندما اجتمع به أُعجب به أكثر من ذي قبل، فقال له: ستحظى بمنزلة خاصة في بلاطي.

كما طمأنه بقوله: ﴿أمين﴾ أي أنني لم أشُّك قط في أمانتك، كما سنثق بك كل الثقة في المستقبل أيضًا.

هل طالب يوسف عليه السلام بمنصب؟

لقد ورد في التوراة أن الملك قال ليوسف: أنه سَيَهَب له كل شيء إلاّ كرسيه وتاجه، وأعطاه المركب التالي لمركبه، وأعلن في البلاد: أنه الحاكم الثاني عليها. (التكوين٤١: ٤٠).

فكّر سيدنا يوسف عليه السلام أنه إذا صار رئيس وزراء الملك فسوف يقع في المشاكل كلّ يوم، وكذلك إذا توّلى غيرُه منصب وزارة المالية فقد يحسده هذا ويفسد الأمور الاقتصادية للبلاد عمدًا ليلقي باللائمة على يوسف ويقول: كان تعبير يوسف لرؤيا الملك باطلاً، ولذلك كلِّه أعرب يوسف للملك عن رغبته في أن يباشر بنفسه الإشراف على اقتصاد البلاد وخزينتها.

وهنا درسٌ يمكن أن نتلقنه من قول يوسف هذا، ألا وهو أنه إذا قام أحد بدراسة وتخطيط مشروع من المشاريع وكان أهلاً لتنفيذه فهو الأحق والأفضل للإشراف عليه ويجب أن يُعهدَ تنفيذُه إليه.

لقد اعترض البعض قائلاً: ليس من المستحب أن يطلب الإنسان منصبًا من المناصب، فلماذا طلب سيدنا يوسف هذا المنصب؟ والجواب أنه لم يسأل منصبًا في الواقع، وإنما تنازل عمّا استحقه لأن الملك كان يريد أن يقلّدَه منصب الوزارة العظمى، ولكنه اعتذر قائلاً: أوَدُّ أن تسمح لي بالإشراف على ما يتعلق بالمجاعة التي تهددنا.

المماثلة الرابعة عشرة: كما أن إخوة يوسف عليه السلام بدأوا يحسدونه على ما كان يرى من مستقبل باهر عظيم، فطردوه من البيت ليُذل ويُخزى، ولكنّ الله أكرمه إكرامًا عظيمًا، كذلك قام الأعداء بطرد النبي ﷺ من وطنه ليرى الخزيَ والهوان، ولكن الله تعالى زاده في المدينة عزًّا وشرفًا.

إلا أنَّ هناك فارقًا، وهو أن العزة التي نالها سيدنا يوسف عليه السلام لم تكن بطريق مباشر بل بواسطة الملك، أما النبي ﷺ فكرّمه الله تكريمًا مباشرًا، إذ آتاه حكومة مستقلة وجعله ملكًا على العرب. وهذا الفرق نفسه يوجد بين النبيين الكريمَين - عليهما السلام - مكانةً ومقامًا.

المماثلة الخامسة عشرة: فكما أن إخوة يوسف عليه السلام لم يصدّقوا ما ناله من عز وشرف، كذلك انبهر قوم النبي ﷺ مما حقّقه من رقي وازدهار. فعندما بَعث النبي ﷺ الرسائل إلى الملوك وصلت رسالته إلى هرقل الإمبراطور الرومي بالشام، فتحيّر من قراءتها وسأل حاشيته: من هذا الذي يخاطبني بهذه الشجاعة؟ قالوا: هذا رجل من العرب يزعم أنه نبي. فأمرهم بالتحري عن أحوال النبي ﷺ. وتزامن ذلك مع وجود أبي سفيان بالشام في ركب من تجار قريش، فأُحضر هو وأصحابه إلى مجلس الملك. وعندما عرف هرقل أن أبا سفيان زعيمهم قرّبه إليه وقال مخاطبًا أصحابه: إني سائل هذا عن ذلك الرجل، فإن كَذَبَني فكذّبوه على الفور. ثم سأله عن النبي ﷺ عدة

أسئلة هامة، ولا يزال حوارهما يمثّل آية عظيمة خالدة على صدقه ﷺ. ومما سأله: هل كان أحدٌ من آبائه ملكًا حتى يقال: رجل يطلب مُلك أبيه؟ قال أبو سفيان: لا. قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا. قال: فهل يغدر عهدًا؟ قال: لا، ولكننا في مدة (أي فترة هدنة وصلح) لا ندري ما هو فاعـــل فيها -ويقول أبو سفيان: هذا كل ما استطعت أن أدسّه ضد النبي ﷺ في حديثي مخافة أن يكذّبني أصحابي- فقال: أأشرافُ الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. فقال هرقل: فإن كان ما تقوله حقًا فسيملك موضعَ قدميَّ هاتين. ذلك أنه كانت في الكتب السماوية أنباء بأن خاتم النبيين ﷺ سوف يفتح بلاد الشام. فحينما قال هذا: ارتفعت الأصوات عنده وكثر الصخب.

فخرجَ أبو سفيان من عنده وقال لأصحابه متعجبًا: لقد أَمِرَ أَمرُ ابنِ أبي كبشةَ! إنه يخافه ملكُ بني الأصفر (البخاري، الوحي). أي لم نعرف عظمة محمد إلا الآن، فهو أعز وأكرم مما كنا نتصوره.

وأبوكبشة كان رجلاً من خزاعة خالف قريشًا في عبادة الأوثان، وبدأ في عبادة النجوم، وكانوا ينسبون النبي ﷺ إلى أبي كبشة احتقارًا وازدراءً، حيث ترك دين آبائه، وكأنه ﷺ كان ابنًا روحانيًا لأبي كبشة.

وبالاختصار لم يصحُ هؤلاء القرشيون من سباقم إلا بعدما رأوا ما رأوه في الشام، وبدونه ما كانوا ليفطنوا -وهم في مكة- للمكانة السامية التي كان النبي ﷺ حائزًا عليها. أما هو فكان يعرف قدرهم وحقيقتهم.

تقول التوراة بأن يوسف عليه السلام ظن أن إخوته جواسيس وهدّدهم قائلا: "أحضِروا أخاكم الصغير إليّ فأعرف أنكم لستم جواسيس بل أنتم أمناء" (التكوين ٤٢: ٣٤). ولكن القرآن يخبرنا أنه عاملهم معاملةً طيبةً وشجعهم على الحضور بأخيهم في المرة القادمة.

من الممكن أن يوسف عندما وجّه إليهم أسئلة كثيرة عن أبيه وأفراد العائلة الآخرين ليطمئن عليهم، ظنّ إخوته أنه يشك فيهم ويعتبرهم جواسيس، وإلاّ فلا

يليق بنبي أن يتّهمهم بالجاسوسية وقد عرف أنهم إخوته، لأن هذا نوعٌ من الكذب. فالرأي عندي أن التوراة قد نقلت الظن الناشئ في نفوس إخوته، وليس الأمر الواقع. ثم إنه من غير المعقول أن يعتبرهم يوسف جواسيس إذا لم يُحضروا أخاهم الصغير.

إن السيئة الواحدة تولِّد سيئات أُخرى. فعندما اتبع إخوة يوسف سبيل الإثم فَسُدَت أفكارهم وقبُح حديثهم. انظروا إلى جسارتهم الوقحة إذ قالوا: ﴿سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ (يوسف: ٦٢)، وكأنَّ يعقوب لم يكن أبًا لهم، فعقدوا العزم على خداعه وتسفيهه حتى يرسل معهم ابنه الصغير.

تمسك يوسف عليه السلام بأهداب الصبر امتثالاً لأمر الله، مقاومًا الرقة الشديدة التي أخذت بمجامع قلبه برؤية إخوته بطبيعة الحال، إلاّ أن حبه الفطري دفعه ليُسدي إليهم معروفًا عند مغادرتهم، فردّ إليهم الثمن الذي دفعوه للصفقة.

وهذا لا يعني أنه عليه السلام خان في أموال الخزينة الملكية. كلاّ، فقد كان سيدنا يوسف يتقلد منصب الوزارة، ولا يصعب على الوزير أن يردّ إليهم مالهم ويدفع الثمن من جيبه نيابةً عنهم.

هذا الحادث يكشف لنا أمرًا هامًا هو أن إصلاح الناس إنما يتأتّى بمعاملة تكون ما بين الخوف والرجاء. فإنه عليه السلام خوَّفهم أولاً، والآن حبّبهم إليه بهذه الهديّة لكي يرجعوا إليه في كل حال.

المماثلة السادسة عشرة: لقد كان يوسف عليه السلام تواقًا للقاء إخوته مرة أخرى رغم كونهم أعداءً له، كذلك كان النبي ﷺ حيث خاطبه الله تعالى وقال: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ٤). فعلى الرغم من علمه بما يكنّ له أهل مكة من عداءٍ شديد فإنه لم يُرد هلاكهم، بل كان يتمنى دائمًا وبكل شدة وقوة أن ينضموا إليه مؤمنين. سبحان الله! كان إخوته إلى ذلك الوقت مغرورين بقوتهم وأنانيتهم وما كانوا يتجهون إلى الله تعالى رغم ما ظهر لهم من ضعف أنفسهم. هكذا يصبح مَن يضعف فيه الإحساس بعظمة الدين، فإما أنه يبقى فريسة لوحش الكبرياء والغرور أو يركن إلى اليأس كليةً، ولا يسلك الطريق الوسط الذي لا كِبْر

فيه ولا قنوط. كان إخوة يوسف إلى ذلك الوقت مصابين بهذا المرض، إذ يدل قولهم (مُنع منا الكيل) على يأسهم البالغ، بينما يكشف قولهم (وإنا له لحافظون) عن غرورهم بقوّتهم.

هنا ينبههم سيدنا يعقوب عليه السلام أن يوقنوا الآن على الأقل بأن حماية الله هي الحماية الحقيقيّة، فهو الذي يطهر باطن الإنسان من الأفكار النجسة وظاهرَه من الأعمال السيئة، وهو الذي يغفر له ما تقدم من ذنبه.

كما يوضّح لهم يعقوب أنه لم يرسل يوسف معهم من قبل عن ثقة بهم، ولن يبعث الآن أخاه معهم معتمدًا عليهم، وإنما أرسله بأمر من الله ومتوكلاً عليه، وإن رأيه فيهم لم يتغير شيئًا. وها هو الآن أيضًا سيرسل أخاه إيمانًا منه أن هذه هي المشيئة الإلهية وهو المستعان وعليه التكلان.

نجد هنا تشابهًا بين بنيامين والنبي ﷺ، فكما أن يعقوب عليه السلام أخذ من أبنائه موثقًا لحماية أخيهم بنيامين، كذلك فعل سيدنا العباس رضي الله عنه عندما جاء أهل المدينة يريدون اصطحاب النبي ﷺ إلى ديارهم، فأخذ منهم عهدًا أن يحموه بأموالهم ونفوسهم. وعندما آتوه العهد هاجر إليهم النبي الكريم ﷺ. (السيرة لابن هشام، أمر العقبة الثانية).

حين أخبر إخوة يوسف أباهم عن أحوال مصر ممّا يبعث على الخوف وقالوا إن القوم اعتبرونا جواسيس، نصحهم أبوهم أن يدخلوا مصر واحدًا واحدًا لا مجتمعين، كيلا يعتبرهم القوم أجانب ولا يشتبهوا في أمرهم. ولكنه عليه السلام أضاف أنني لا أملك لكم شيئًا إذا كان الله تعالى قد كتب عليكم محنة وابتلاء.

وقد يعني بقوله هذا: لا تدخلوا على يوسف إلا من أبواب متفرقة. ومعنى ذلك أن الله تعالى كان قد كشف لسيدنا يعقوب عليه السلام حقيقة الحال، فلجأ حضرته إلى هذه الحيلة لكي يتمكن سيدنا يوسف من مقابلة أخيه بنيامين على انفراد حتى يحكي له أحوال الأسرة في الوطن.

ونبّه بقوله ﴿عليه توكلت﴾ أن ثقتي الحقيقية هي بالله لا بمكيدتي هذه ولا

حيلتي. ذلك لكي يلقّن أبناءه -الذين اعتمدوا دائمًا على مكائدهم- درسًا، أن أنبياء الله يعتمدون على النصرة الإلهية فقط، مع أنهم يكونون أكثَرَ أهلِ الدنيا فِطنةً وأوفَرَهم ذكاءً. فما أحوَجَ غيرَهم لأن يتأسّوا بأسوة هؤلاء القوم الكرام.

واعلموا أن التوكل لا يعني امتناع الإنسان عن أخذ الأسباب المادية وإنما المراد منه أن يعتمد على الله تعالى رغم اتخاذ الوسائل والتدابير، موقنًا أنها لن تجدي نفعًا دون نصرته ورحمته ﷻ.

بالرغم من أن يعقوب كان على علم -بناءً على الوحي- بأن ابنه يوسف ؑ لا يزال حيًا يرزق، ولكنه لم يكن يعرف معرفة يَقينيّة أن الوزير المصري المشرف على توزيع الطعام هو يوسف نفسه، ويبدو أنه عندما سمع من أبنائه أن المصريين يظنون أنهم جواسيس لأن هذا الوزير وجّه إليهم أسئلة كثيرة.. اقترح عليهم -دفعًا لمخاوفهم- أن يدخلوا من أبواب متفرقة.

وقد قال البعض بأنّ يعقوب ؑ اقترح عليهم الدخول من أبواب متفرقة لأنه خشي أن تصيبهم عينُ الناس، إذ كانوا ذوي جمال وبهاء (ابن كثير)، لكني لا أراه رأيًا صائبًا. إذ ليس من المعقول أن يشكل انضمام ابن واحد إلى العشرة الآخرين خطرًا عليهم. لماذا لم يتخذ هذا التدبير عندما ذهب العشرة معًا؟ فالرأي عندي هو ما ذكرته من قبل بأنه أَمَرَهم باللجوء إلى هذه الحيلة إما دفعًا لمخاوفهم عن الجاسوسية، أو تمكينًا ليوسف من مقابلة بنيامين على انفراد.

وقوله ﴿إني أنا أخوك فلا تبتئس﴾ معناه كنتَ تظن أن أخاك قد مات، ولكن الأمر ليس كذلك، فها أنا أخوك حي يرزق، فلا داعي للقلق والحزن الآن. وذلك باعتبار أن بنيامين كان جاهلا بالواقع، أما إذا كان سيدنا يعقوب أخبره بالواقع فالمعنى: لا تحزن على إيذائهم إياك، لأن الله تعالى سوف ينجيك الآن منهم.

يمكن تفسير قوله تعالى ﴿جعل السقايةَ في رحل أخيه﴾ بطريقين، الأول: أن يكون يوسف ؑ هو الذي قد وضعها في متاع أخيه عمدًا لفرط محبته له، لكي يستقي بها في سفره. والثاني: أنه وضعها خطأً، كأنْ يكون قد طَلَبَ الماء أثناء حديثه

مع أخيه، فلمّا فرغ من شربه وضع الإناء في وعائه ناسيًا.

من الذي وضع؟ وماذا وضع؟ وبأية نية وضع؟ ثم كيف اتُّهموا بالسرقة؟ هذه كلها أُمور كانت ولا تزال موضع اختلاف بين المفسرين، فقال بعضهم بأن يوسف عليه السلام هو الذي وضع الإناء في وعاء أخيه عمدًا، ثم عاد ورمى إخوته بالسرقة (تفسير الطبري). والحق أن هذا افتراء خطير على سيدنا يوسف عليه السلام إذ كيف يُتوقع من يوسف الذي يبدي هذه المحبة الشديدة نحو أخيه، أن يلجأ إلى الأسلوب المشين استبقاءً لأخيه عنده لبعض الوقت، فيضع الإناء في رحله عمدًا، ثم يتهمه بالسرقة ليترك في جبينه وصمة عار للأبد. فلا شك أن هذا ظلم وبهتان ونسبته إلى يوسف كفرٌ. إذ لا يُتوقع هذا حتى من أي إنسان شريف، دعك من أن يرتكبه نبي من أنبياء الله العظام عليهم السلام.

الواقع أن هذه أفكار يهودية مصدرها التوراة التي جاءت فيها القصة على هذا المنوال، فتقبلها المفسّرون السذّج دون أي تمحيص وتدقيق.

ربما كان الصُواع ليوسف، فقالوا: ﴿صُواع الملك﴾ تملقًا ليوسف، كما يفعل المتسولون عندنا، حيث ينادون علية القوم: أيها السيد، أيها الملك؛ أو كان الموظفون يستخدمون الأواني الملكية في هذه الأعمال. فجاز لهم أن يقولوا: نقصد صواع الملك.

ويبدو أن الإناء كان ثمينًا، ولذلك قال المنادي: ولمن جاء به ﴿حمل بعير﴾، لأن مثل هذه الجائزة لا تكون إلاّ على الأواني الذهبية والفضية.

ولا داعي لأن يقول أحد: كيف كان يستخدم يوسف أواني ذهبية أو فضية، وهو أمر منهيّ عنه. ذلك أن النهي عن استعمال الأواني الذهبية والفضية خاص بالشرع الإسلامي، ولكن اليهود لم ينهوا عنه، كما لم يكن الفراعنة يكرهون استخدامه.

الحق أن المشكلة تنحل تلقائيًا بالتدبر في القرآن الكريم نفسه، حيث يتضح من القرآن أن يوسف عليه السلام وضع بنفسه السقاية أي إناء شرب الماء في متاع أخيه. كما

يتضح منه أيضًا أنهم فقدوا صُواعًا -أي إناء تكال به الأشياء- ثم عثروا عليه في متاع أخيه أيضًا. وما كان وضع الإناء في متاع أخيه بحادث يستحق الذكر في القرآن لو لم يكن وراءه هدف وغاية. الرأي عندي أن يوسف عليه السلام وضعَ السقاية في وعاء أخيه عن عمد تعبيرًا عن حبه الشديد له. ويبدو أن الصُواع أي "الإناء الملكي" أيضًا كان في يده وقتئذ، فوضعه في وعاء أخيه ناسيًا. وعندما فقد العمّالُ الصواع ظنوا أن أحدًا سرقه، فبدأوا يبحثون عنه في أمتعة القافلة كلها بما فيها إخوة يوسف. ولكن الذي قام بالتفتيش فتح وعاء أخيه بنيامين في آخر الأمر، نظرًا لما يبديه يوسف نحوه من حب وحفاوة، فعثروا على السقاية في متاعه. فأدرك يوسف على الفور أين وقع الخطأ. ولكنه لزم الصمت إلى حين مغادرة إخوته، موقنًا بأن كلَّ ما حدث كان من تدبير الله تعالى، وهكذا بقي أخوه بنيامين عنده.

لقد تمثل هذا الكيد الإلهي في قول إخوته في حماس ودون رويّة: ﴿جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ (يوسف: ٧٦).. أي عقاب هذه الجريمة أن تحبسوا عندكم من تجدون الصُواع في رحله، ولو أنهم قالوا بدلاً من ذلك أن تأخذوا من سرقه فلربما ما استطاع يوسف استبقاء أخيه عنده، لأنه لو أبقاه عنده بعد قولهم هذا لعرّضه حتمًا لتهمة السرقة. ولكنهم قد أتاحوا بقولهم هذا ليوسف فرصة لِيُبقي أخاه عنده دون تعريضه لأية تهمة...

إن قوله تعالى ﴿كذلك كِدنا ليوسف﴾ يؤكد أن هذا كان تدبيرًا خاصًا من الله تعالى، ومع ذلك نجد بعضَ المفسرين مصرّين على اتهام يوسف عليه السلام بالكذب والخداع. والحق أن كل هذا كان تخطيطًا إلهيًا خاصًا، حيث جعل يوسفَ يترك "الصواع" في وعاء أخيه ناسيًا، ثم جعل إخوته يقولون متحمسين دونما رويّة: ﴿جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾، وهكذا اضطرهم ليتركوا بنيامين وراءهم عند يوسف. وبعد ما غادر إخوته يكون سيدنا يوسف قد أخبر عماله بالحقيقة، وهكذا ظهرت براءة بنيامين أمام القوم، فبقي عند يوسف دون أن يجد إخوته فرصة للاعتراض على استبقائه عنده.

وأما قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ (يوسف: ٧٧) فاعلم أن (في) هنا سببية، ونظيره الحديث الشريف الذى يقول: "دخلت امرأة النارَ في هرة ربطتها فلم تطعمها و لم تدعْها تأكل من خشاش الأرض" .(البخارى، بدء الخلق).. أي دخلت هذه المرأة النار بسبب قطة، فمعنى الآية ما كان يوسف ليأخذ منهم أخاه بموجب القانون الملكي، ولكن الله تعالى مكّنه من ذلك دون أن يخالف يوسف قانون الملك.

هنا درس وهو أن الإنسان إذا عاش في بلد ما فعليه أن يطيع قوانين ملِكه أو حاكمه. فكان يوسف عليه السلام نبيًا، ولكنه عاش مطيعا قوانين فرعون، بل هناك أكثر من ذلك إذ يقول الله تعالى: إنه ما كان يليق بيوسف أن يأخذ أخاه منهم بالقوة مخالفا بذلك قانون البلد. مما يعنى أن عيش النبي مطيعا لقانون حكومة أو ملِك لا يتنافى مع مكانته الروحانية، وإنما العكس هو الصحيح.

ولكن للأسف أن المسلمين عامة مصابون في هذه الأيام بتفكير مريض حيث يعتقدون أن طاعة ملك أو حاكم غير مسلم حرامٌ. والحقيقة أن نزعة الغدر هذه والتفكير الخائن كهذا قد ألحقت بالمسلمين أضرارا فادحة وقضت على عنصر الأمانة فيهم. لا شك أن من حق المسلمين أن يسعوا للتقدم والازدهار، ولكن لا بخداع وغدر بل بصدق وأمانة. حينما يقيم أحد في بلد ما فإنه بعمله هذا يعاهد على العيش مطيعا لحاكمه، ومن فكّر بعد ذلك في الغدر بالحاكم فقد انحرف بعيدا عن جادة الحق والعدل، وسوف يدمر هذا التفكير أخلاقه وأعماله، لأنه يعرف في قرارة نفسه أنه منافق. وأرى أن الجبن السائد لدى مسلمي اليوم ناشئ إلى حد كبير من هذا النزعة الفاسدة.

إن الجريمة تشجع حتمًا على المزيد من الجرائم. لقد همَّ إخوة يوسف في البداية بقتله قتلاً ماديًا، أما الآن فيريدون قتله أخلاقيًا. فانظروا كيف يقولون بكل جسارة: إن سرق بنيامين فلا غرابةَ في ذلك فقد سبق أن ارتكب أخوه يوسف نفس الجريمة. ويتضح من قولهم هذا أنهم لم يكونوا قد تابوا توبة صادقة إلى ذلك الحين.

إنه لمما يثير الحيرة والدهشة أن المفسرين شرعوا يبحثون عن سرقة ليوسف مصدقين قول إخوته هذا، بدلاً من رفضه وتكذيبه، حتى كتب بعضهم أنه ﷺ كان يسرق الأشياء من بيت عمته (الدُر المنثور). سبحانك اللهم، إنْ هذا إلا بهتان عظيم! يصعب على المرء تقدير الآلام والمعاناة التي عالجها سيدنا يوسف من قولهم هذا، ولكنه -رغم قدرته عليهم- لزم الصمت، كاظمًا غيظه ومتأسفًا على حالهم.

ما أعظم شأنه وأرفع مكانته. فكم من امرئ يصرعه الغضب مع أنه لا يملك قدرة ولا غلبة على غيره، ولكننا نجد سيدنا يوسف ﷺ رغم مقدرته على عقاب إخوته صبَرَ على ما وجّهوه إليه من تهمة منكرة. هذه هي الأخلاق التي يصل المؤمن المتحلّي بها إلى الدرجات العلى.

يا لقسوة قلوبهم المتحجرة! لقد اتهموا أخاهم من قبل بالسرقة، والآن يحتقرون أخاهم الآخر حيث ينفون صلتهم به، وكأنه ليس أخاهم، ولم يحاولوا أن يتوسلوا له عند العزيز قائلين: أيها العزيز، اغفرْ لأخينا هذا فإن لنا أبًا شيخًا كبيرًا، بل قالوا ﴿إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ (يوسف: ٧٩)، وكأنهم بسبب حماسهم وحميتهم رأوا من العار أن ينتسبوا إلى يعقوب الذي أنجب السارقين كيوسف وبنيامين!

هؤلاء الذين اتهموا يوسف بالسرقة اعترفوا صراحة بجريمتهم المشتركة ضد يوسف على انفراد. سبحان الله، ما أعظم قدرته. فإنه كتب ليوسف رفعةً فاقت تصوراتهم، ففشلوا في معرفته، إذ لو عرفوه لما تجاسروا على هذا الاتهام.

أما (كبيرهم) الذي ذكّرهم بجرائمهم فيبدو أنه كان في قلبه شيء من خشية الله تعالى، إذ يخوّفهم من الغدر بأبيهم، كما يعبّر عن عزيمته على الوفاء بالعهد الذي قطعه مع أبيه حيث قال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾. ربّما قصد بقوله (أو يحكم الله لي) أن يطلق سراح بنيامين بتدبير من الغيب فيرجع به إلى الوطن.

انظروا كيف أن الصدق يشحن صاحبه قوة ويغير نبرة حديثه تمامًا. فإنهم عندما جاءوا أباهم بحديث كذبٍ عن موت يوسف كانوا مترددين في التأكيد على قولهم،

أما الآن فكيف يقصون على أبيهم خبر بنيامين بكل ثقة وشجاعة ليؤكدوا له صدقهم حتى إنهم يقدّمون شهادة الآخرين...

لقد أجابهم يعقوب عليه السلام أن أهواءكم النفسانية قد زينت لكم السيئة. ولم يرد بقوله هذا تكذيبهم في ادعائهم بأن بنيامين قد حُبس، بل يعني أن عداءَكم لبنيامين دفعكم لتصدّقوا ما اتُّهم به من السرقة، كان من واجبكم أن لا تسيئوا به الظن، وتقولوا: إنه لم يسرق شيئًا بل كل ما جرى له كان سببه سوء الفهم.

لقد اختلف المفسرون كثيرًا في تفسير قوله تعالى ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ (يوسف: ٨٥)، حتى قال البعض بأن يعقوب عليه السلام أُصيب بالعمى، إذ غطى البياض عينيه. ثم اختلفوا في سبب بياضهما، فأرجعه بعضهم إلى البكاء طول أربعين بل واحد وثمانين سنة. بينما أرجعه الآخرون إلى تفاقم صدمته بفراق ابنه الثاني (فتح البيان).

والواقع أن كلمة (ابيضت) لا يُعبَّر بها أبدًا عن عمى العينين، وإنما الحق أنهم حمّلوا الكلمة ما لا تحتمله أبدًا. وحجتهم أنه ورد في القواميس معنى مجازيّ للبياض أيضًا حيث يقولون: بيّض السقاية: أفرغه، ومطاوعه ابيضَّ، فالمعنى عندهم أن عينيه جرتا بالدموع الغزيرة حتى فرغتا من البصارة.

ولكننا نقول: ما دامت كلمة (ابيضت) لا تعني العمى، فلماذا لا نأخذ بالمعنى المجازي الآخر وهو قولهم "بيّض السقاء" ملأه بالماء أو اللبن، خاصة وأنهم يطلقون عليهما أي على الماء واللبن كلمة "الأبيضان"، فالمراد من (ابيضّت عيناه) نظرًا إلى هذا المعنى: امتلأت عيناه من الماء أي الدمع. أو نأخذها بمعنى مجازيّ سامٍ آخر للبياض ألا وهو البريق واللمعان. والمراد أنه برقت عيناه من الغم، وحصول البريق فيهما عند الغم أمر طبيعي شريطةَ أن لا تطول فترة الهم. والأدباء يعبّرون عن هذا المعنى باستخدام كلمات كهذه، حيث يقولون لاحت في عينيه بارقة أمل. فالمعنى أن عينيه لمعتا عندما حلت به الفاجعة الجديدة، أو عندما أحسّ بأن الهم قد بلغ منتهاه وأن الفرج موشك وأن رحمة الله قريبة.

الحق أن كلمة (ابيضت عيناه من الحزن) تعبير عن شدة الغم والحزن. فمن فسّرها بما يخالف هذا المعنى الصريح فقد أبعد النجعة، الأمر الذي لا حاجة له بالقرآن الكريم. خاصة وأن الله تعالى يقول بعد ذلك مباشرة ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (يوسف: ٨٥) أي أن يعقوب عليه السلام نجح في ضبط نفسه و لم يستطع الهم أن يصرعه. فكيف نسلم إذن بأن حضرته ضيّع بصره من شدة البكاء. وكيف يكون كظيمًا من يضيع عينيه بالبكاء هكذا. فالواقع أننا ولو سلّمنا جدلاً أن كلمة (ابيضت عيناه) تعني لغةً فقدان البصر من شدة البكاء فلا ينسجم هذا المعنى هنا لوجود كلمة (كظيم).

وبالإضافة إلى ذلك، فقد نقل القرآن قول يعقوب ﴿فصبرٌ جميل﴾.. أي سوف أضرب في الصبر مثالاً جميلاً يحتذى به. فلو كان قد أضاع بصره بالبكاء فكيف جاز له الادعاء بالصبر الجميل؟

ومن المحال أن يحزن أحد من أنبياء الله الكرام على مكروه حزنًا يُشرف به على الهلاك. وإذا كان يعقوب يبكي هكذا بكاءً مستمرًا على الدوام فكيف أدى واجب تبليغ الرسالة. فيجب ألاّ نأخذ حتى من المعاني المجازية للكلمة إلاّ ما يتفق مع المكانة الرفيعة التي كان يحتلها سيدنا يعقوب عليه السلام، ونرفض ما من شأنه أن يحطّ حتى من درجة المؤمن العادي.

أليس عجبًا أن نجد هؤلاء يخوّفون أباهم من هذه الأخطار المتوقعة، ونجد المفسرين يقولون بأن يعقوب عليه السلام كان قد أُصيب بالعمى فعلاً لشدة البكاء وصار كالساقط الرديء من المتاع. والحق أن أنبياء الله الكرام يتمسكون بأهداب الصبر دائمًا، ولا يبدون الفزع والقلق بهذا الشكل. لقد جربنا ذلك بأنفسنا، إذ رأينا بأم أعيننا نبيًا من أنبياء الله عليهم السلام وشاهدنا بأنفسنا حالته في مثل هذه المواقف.*

وهذا يعني أن سيدنا يعقوب عليه السلام كان يعلم -بناءً على الوحي الإلهي- أن يوسف عليه السلام لا يزال حيًّا يرزق، وأنه في مصر، إذ من المحال أن يأمر أبناءه بالعودة

* يشير هنا حضرة المفسر إلى سيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام.

إلى مصر باحثين عن ابن كان يظنه ميتًا بيد ذئب أو بأي طريق آخر.

إن روعة ما أشار به يوسف إلى الأحداث الماضية، وتأكيدَ يعقوب على أبنائه من قبل للبحث عن إخوتهم في مصر، كل ذلك حدا بهؤلاء أن يستنتجوا على الفور بأن هذا هو يوسف. أُنظروا سمو أخلاقه ﵇، فإنه لا يدَعهم يعانون أكثر من ذلك، بل يخرجهم من الشبهات والوساوس بكشف الحقيقة عليهم فورًا. ثم ينصحهم بكل حب ولطف أن يتمسّكوا بالصبر والتقوى، ويخبرهم أن مدّ اليدِ بالسؤال إلى الآخرين ليس هو الطريق السليم للتغلب على المشاكل، وإنما سبيله تقوى الله والصبر.. أي أن يتخذ الإنسان اللهَ سترًا، ويستمر في الكفاح دون اكتراث بالشدائد. يبدو من أسلوب الآية أن سيدنا يوسف ﵇ أحضر أخاه بنيامين عندئذٍ ولذلك قال مخاطبًا إخوته: "أنا يوسف وهذا أخي". لقد تنبّهت الآن فطرتهم السليمةُ من غفوتها، فاعترفوا بصحة رؤياه في الصغر قائلين: لقد تحققت رؤياك أخيرًا حيث فضّلك الله علينا رغم معارضتنا إياك، وكنا نحن المخطئين فيما فعلنا.

لقد قدّم يوسف نموذجًا مثاليًا للأخلاق الفاضلة، إذ لم يلبث أن أعلن العفو عنهم. كان إخوته في بلد غريب حيث لا ناصر لهم ولا معين، وكم من وساوس ومخاوف كانت تساورهم في تلك اللحظات، ولكنه نجّاهم دون تردد من معاناتهم الذهنيّة التي لا تقل وطأةً وإيلامًا من التعذيب البدني. فلم يغفر لهم فحسب، بل أمّلهم أيضًا في مغفرة الله تعالى. إن هذا العمل الوحيد من يوسف ﵇ يبلغ من العظمة والروعة بحيث أنه يستحق به أن يُكتب اسمه بأحرف من نور ويُذكر دائمًا بالخير.

لقد ذُكر هذا الحادث في القرآن والتوراة أيضًا، ولكن يتضح من دراسة المصدرين أن التوراة قصّته لتبيّن فقط كيف وصل أولاد إبراهيم ﵇ إلى مصر، بينما تناول القرآن الكريم هذا الحادث لكي يبرز ما فيه من محاسن ودروس أخلاقية، ولا سيّما ليبين أن أهل الله تعالى لا يخافون المحن والمصائب لأنها تزيد أخلاقهم جلاءً وجمالاً، وأن العدوان عليهم لا يولّد في قلوبهم جحيمًا من البغض والانتقام، بل يحوّلها إلى جنةٍ أشجارها العفو وثمارها السكينة.

المماثلة السابعة عشرة: وكما أن سيدنا يوسف عليه السلام ازداد بعد الهجرة عزًّا وشرفًا، كذلك حقق الله عز وجل للنبي ﷺ الرقي والازدهار بعد هجرته إلى المدينة، حتى إن نفس البلد الذي خرج منه مهاجرًا تحت ستار الليل وقع في يديه بعد أن دخله منتصرًا في وَضَحِ النهار، ومعه عشرة آلاف قُدُّوسي من صحابته الأطهار رضي الله عنهم... يا لروعة المشهد المثير! يُعرَض عليه ﷺ أعداؤه الذين صبّوا عليه وعلى أصحابه من المظالم والمصائب ما تنخلع من هوله القلوب، وذلك لعشرين سنة متتالية. من ذا الذي يغفر بهذه السهولة لمثل هؤلاء الأعداء؟ ولكن النبي ﷺ غفر لهم جميعًا دون تردد كلَّ ما فعلوه من قبل.

لقد قال بعض المفسرين بأن قول يوسف هذا يمثّل لومه على إخوته. ولكني أرى أنه قد عبّر بذلك عن عفوه البالغ، إذ يخبرهم أنكم عندما ذهبتم إلى الوالد بقميصي أول مرة أثرتم سخطه، فخذوا الآن قميصي هذا لتبشّروه وتسرّوه، ولكي يدعوَ لكم ربه طالبًا لكم المغفرة والرحمة. فقد أعلن يوسف عن عفوه عنهم من قبل بقوله: ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾، أما الآن فإنه يرسل قميصه إلى أبيه متوسلاً إليه أن يعفو ويدعو لإخوته.

أما قوله ﴿يأتِ بصيرا﴾ فهو كقولهم: "رجل بصير بكذا أي عالم بحقيقته وخبير بكنهه"، فالمعنى أن إيمان الوالد بحياتي مبنيٌّ فقط على ما أخبره الله بالوحي، فاذهبوا إليه بقميصي هذا ليتحول إيمانه إلى علم اليقين بواقع الأمر.

والآن يتقدم يوسف خطوة أُخرى في الإحسان لإخوته، فيبشرهم بحسن معاملته لهم، ويدعوهم أن يأتوا بأهلهم أجمعين ليتمتعوا معًا بما وهب الله له من نعم وبركات. المراد من ريح يوسف هنا "خَبَرُه". فعندما يأمل المرء في تحقق أمر من الأمور في المستقبل القريب يقول: إنني أجد ريحه، وهذا ما يعنيه سيدنا يعقوب عليه السلام. وبهذا المعنى قال سيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام في بيت شعر له ما تعريبه: إنني لأجد الآن ريح يوسف، وإنني أنتظره وإن فنّدتموني (الخزائن الروحانية ج٢١، البراهين الأحمدية، ج٥، ص١٣١).

بعد أن أُلقي القميص عليه قال: (ألم أقل لكم)، وهذا يوضّح أن ما حدث لم يكن معجزة ليوسف وإنما ليعقوب، وإلاّ لو كانت عيونه قد شُفيت بإلقاء قميصه عليه -كما يزعم بعض المفسرين- لقال: انظروا إلى المعجزة العظيمة لابني حيث شفى قميصه عيوني، ولكنه يقول: انظروا، لقد تحقق قولي بأن يوسف حيّ. فإنما المراد من الجملة -كما قلت من قبل- أنهم عندما وضعوا قميصه أمام يعقوب تحول علمه المبني على الوحي إلى علم يقينيّ واقعي. وكما هي سنّة الأنبياء عليهم السلام فإن يعقوب لم يملِك نفسه من فرط السرور والفرحة، فأخذ في حمد الله تعالى وتسبيحه بأن وحيه قد تحقق.

اعلم أن أم يوسف عليه السلام كانت قد توفيت عندئذ (التكوين٣٥: ١٩)، ومع ذلك نجد أن كلمة (أبويه) قد تكررت هنا كثيرًا. لماذا؟ ذلك ليشير إلى ما كان يبدي سيدنا يوسف من احترام وتبجيل عظيمين تجاه امرأة أبيه عليهما السلام. إن في ذلك لدرسًا عظيمًا للأولاد، هو أن زوجات آبائهم أيضًا بمثابة أمهاتهم، وأن الإسلام لا يفرّق بينهن فيما يتعلق بالاحترام وحسن المعاملة. فعليهم أن يكنّوا لهن على الدوام احترامًا وتقديرًا كما يفعلون مع أمهاتهم الحقيقيات.

أنظروا كم كان يوسف رفيع القدر في الروحانية. فنحن نجد إخوته الكبار لا يستثنون ولا يقولون (إن شاء الله) عند القيام بأي مهمة من المهام، وإنما كانوا يعزون كل عمل إلى أنفسهم، وعلى النقيض نجد يوسف الذي كان بمثابة رئيس الوزراء وعنده المراكب الجاهزة يقول (ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) .. أي لا شك أن الأسباب متاحة ميسرة إلا أنه من الممكن تمامًا أن لا نستطيع دخول البلد إذا لم تكن هذه هي مشيئة الله تعالى.

الحق أن ترديد كلمة (إن شاء الله) بصدقٍ ويقينٍ قبل القيام بأي عمل يلعب دورًا كبيرًا في رقي الإنسان روحانيًا. ذلك أن الماضي من حياته يكون قد فاته وانفلت من يده، وأما الحال فهو قصير الأمد بحيث أنه بمثابة الحد الفاصل بين ماضيه ومستقبله، إذن فالمستقبل وحده هو الفترة الحقيقية التي يمكن أن يستغلها. فإذا قال الإنسان (إن

شاء الله) بصدق عندما ينوي القيام بعمل مستقبلاً فكأنه جعل الله تعالى يشاركه فيما يتوجه إليه من عمل، وبالتالي يحميه الله من تأثير الشيطان وشروره. ومن يفعل ذلك بصدق ووعي فسوف يسعى لتحقيق مطلبه بكل ورع وتقوى. كما أن التعوُّد على قول (إن شاء الله) يساعد الإنسان على ذكر الله والتوكل عليه. وإن هذه هي الأمور التي تُعتبر لبَّ الروحانية وخلاصتها.

المماثلة الثامنة عشرة: فكما أن يوسف عليه السلام دعا ربه قبل أن يدخل بهم البلدة، كذلك كان من سنة النبي ﷺ عند دخوله بلدًا ما أن يدعوَ بهذه الكلمات:

"اللهم ربَّ السماوات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين، فإنا نسألك خيرَ هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرِّ هذه القرية وشرّ أهلها وشر ما فيها. اللهم بارِكْ لنا فيها وارزقنا جناها، وأعِذْنا من وباها، وحبِّبنا إلى أهلها، وحبِّب صالحي أهلها إلينا."

وقوله: ﴿وخرّوا له سُجّدًا﴾. فاعلم أن كل المشتقات من (خرور) تتضمن معنى الصوت، ولذلك قال بعض المفسرين: يقال: خرّ ساجدًا عمّن يقع ساجدًا على الأرض وهو يكثر من ترديد كلمة (سبحان الله، سبحان الله). ولا يقال ذلك إذا قام بمجرد السجود (المفردات). فالمراد من قوله تعالى (خرّوا له سُجَّدًا) أنهم اندفعوا ساجدين على الأرض قائلين (سبحان الله، سبحان الله)، أو أنهم وقعوا ساجدين على الأرض بكل حماس بحيث سُمع لسجودهم صوت.

ولكن هذا لا يعني أنهم سجدوا للملِك أو ليوسف، كما زعم البعض، بل المراد أنهم سجدوا لله تعالى شاكرين على ما حقق ليوسف من رقي وشرف. فكان يوسف سببًا لسجودهم و لم يكن مسجودًا له. إنّنا إذا أمعنّا النظر فيما حدث تَبَيَّن أن هذه الشدائد نفسها مهدّت الطريق لرقيه، كما تسببت في توبة إخوته وطهارتهم. فلم يكن ما فعله الله بيوسف خاليًا من الحكمة أبدًا. لو أن يوسف عليه السلام نال العز دون هذه المصائب ما تجلّت عظمة الوعد الإلهي بهذا الشكل، كما لم يتم تطهير قلوب

إخوته. فكل ما حدث كان وراءه حكمة عظيمة.

هذا هو السجود الحقيقي الذي يحقق لصاحبه الرقي في الروحانية. إن السجود الظاهري سجود مؤقت عابر. وإنما السجود الحقيقي هو أن يركّز الإنسان أنظاره إلى الله دائمًا، سواء في الفرحة أو الترحة، ويصبو إليه قلبه لاهفًا هائمًا. أما بدون هذا فلن يحقق الإنسان أي رقي في الروحانية، ولن يدخل الجنة الدنيوية التي إذا لم يدخلها هنا فسوف يستحيل عليه الدخول في الجنة الأخروية.

لقد بيّن الله هنا أننا لا نسرد قصة يوسف كحكاية مسلية، وإنما تحتوي على أنباء غيبية.. أي أنها أخبار عمّا سيحدث بالنبي ﷺ في حياته المقبلة. ولقد أثبتُّ من قبل في تفسير العديد من الآيات كيف أنه وقعت في حياة النبي أحداثٌ مشابهة لما حدث بيوسف في حياة النبي عليهما السلام.

وأما قوله ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (يوسف: ١٠٣) فالحديث هنا ليس عن إخوة يوسف بل عن إخوة النبي الكريم، إذ الخطاب موجه هنا إليه ﷺ، والمراد: ما كنتَ، يا محمد، لتطلع على ما ينسجه إخوتك أي أهل مكة من مكائد ومؤامرات ضدك ليحقق الله بها المماثلة بينهم وبين إخوة يوسف، فلا شك أنها أخبار جاءتك من الله الذي هو عالم الغيب، وليست وليدة أفكار الإنسان. أي لا شك أنك تسعى جاهدًا لأن يؤمن بك قومك بسرعة، ولكن ليست هذه هي المشيئة الإلهية، وإنما يريد الله أولاً أن يسلكوا المسلك الذي سلكه إخوة يوسف فلا يؤمنوا بك إلا بعد أن تحقق رقيًا غير عادي فيأتوك صاغرين. لقد أخطأ إخوة يوسف حين ظنّوا أنَّ العزّ الذي وُعد به في رؤياه سيؤدي إلى ذلّهم، مع أن رقيه كان سببًا في رقيهم أيضًا، وهذا ما فعله العرب بالنبي ﷺ، وإلى ذلك يشير الله تعالى هنا إذ يقول لنبيه: إن قومك ساخطون مما وعدناك به من عز ورقي، ظانين أن هذا سيؤدي إلى هوانهم، رغم أنك لا تطالبهم بشيء لتحقيق رقيك حتى يظنوا أنك تريد السلطة على حساب ضعفهم وهوانهم. بل العكس، فإنك تقدّم لهم ما يضمن لهم الرقي والشرف لهم وللعالم أجمع. فلا مبرر إذن لأن يسخطوا عليك ويغضبوا.

المماثلة التاسعة عشرة: وهنا أيضًا نجد تشابهًا كبيرًا بين سيدنا يوسف والنبي الكريم - عليهما السلام. لقد أعز يوسف إخوته ولكن عن طريق الملك، وأما الرسول ﷺ فقد آتى إخوته مُلكًا عظيمًا مستقلاً، حيث أن اثنين من أحمائه أبا بكر وعمر -رضي الله عنهما- صارا بمثابة ملِكين لدولةٍ عظيمة. فتبارك الله أحسن الخالقين.

قصة شعيب عليه السلام

لقد بُعث سيدنا شعيب عليه السلام إلى قوم مدين. ومدين أو مديان كان ابنًا لإبراهيم من زوجته قتورة، مع العلم أن الأولاد كانوا يُدْعَون في القديم باسم أبيهم، ولذلك سُمي أولاده أيضًا بمدين. أما عن موقع منطقة مدين فاعلم أن البحر الأحمر ينقسم في الشمال إلى فرعين، أحدهما يتاخم مصر، والثاني يتاخم شبه الجزيرة العربية، وهذا الأخير يسمى خليج العقبة. وكانت مدين تقع قريبًا من خليج العقبة على ستة أو سبعة أميال إلى جانب الجزيرة العربية. كانت القوافل التجارية من العرب تمر بمدين في طريقها إلى مصر. ولا تزال هناك إلى اليوم قرى عديدة باسم مدين، ولكن مدين الأصلية قد اندرست ولا يوجد لها من آثار الآن. كان بنو مدين يسكنون في شمال الحجاز، وكانت هذه المدينة عاصمتهم.

لقد قال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء: ١٠٩-١١٠). فترى أن القرآن الكريم يخبرنا... أن كل واحد من الرسل قال لقومه: ﴿أَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾. وهذا يبين الفرق بين الحكومة الإلهية والحكومة المادية. ذلك لأن الحكام الماديين يأخذون الأجر ممن يأمروهم بطاعتهم، وعلى النقيض نجد كل رسول يقول لقومه أطيعوني وما أسألكم عليه من أجر. مما يدل على أن الطاعة التي نُؤمر بها من قبل الله سبحانه وتعالى ليست طاعة جبرية، بل الحقيقة أن الرسول يكون خادمًا للناس رغم أنه يأمرهم بطاعته. وحيث إن الخادم يأخذ الأجرة على خدمته، فلذلك نجد كل واحد من الرسل يقول هنا لا أسألكم على طاعتي من أجر. أي مع أهم سيطيعونه إلا أنه سيكون خادمًا لهم في حقيقة الأمر. إذًا فطاعتهم عجيبة وخدمته أيضًا عجيبة، حيث

يطيعونه في الظاهر، ولكنه يكون خادمًا لهم في الواقع. إنه يقوم بخدمتهم بكل ما في وسعه ومع ذلك لا يتقاضى أي أجر منهم...

يتضح من الآيات أن قوم شعيب ﷺ كانوا مصابين بمرض الغش والخداع في التجارة على نطاق واسع، بالإضافة إلى الأعمال الوثنية. كانوا يعيشون على أعمال التجارة، فكانوا يغشون فيها إذ كانوا ينقصون في الكيل والوزن، وربما كانوا قد صنعوا موازين ومكاييل مزورة، فإذا أخذوا من الناس استعملوا موازين غير التي كانوا يستخدمونها عندما يعطونهم. ثم إنهم كانوا مهرة في الغش بالتلاعب بكفّة الميزان أيضًا، فكانوا ينهبون الناس كيلاً ووزنًا. فنهاهم شعيب ﷺ عن الغش في التجارة، ولكنهم لم ينتهوا بل ازدادوا غشًا وخداعًا. فلما بلغ السيل الزبى، نـــزلت لإهلاكهم ملائكة السماء...

الواقع أن الجماعات الدينية لا تخلد بالمال بل بالإيمان. لو كان المال هو مدار الخلود فإن اليهود والنصارى والهندوس أكثر مالاً من المسلمين، فلماذا تركهم الله وخذلهم؟ ذلك لأن المال لا علاقة له بالإيمان. لا جرم أن الله ﷻ أيضًا يعطي عباده المال، ولكنه يعطيهم إياه إنعامًا ليساعدوا به الفقراء، أو اختبارًا ليرى كيف ينفقونه. فلو سلِم إيمان المرء رغم توفر المال عنده لكان خيرًا له وبركة، ولكن إذا أضاع المال إيمانه، فأخذ في النصب والاحتيال كالأشرار، ونهب أموال الناس كاللصوص والغشاشين فإن مثل هذا المال يصبح عذابًا ونقمة عليه...

بعد أن نصح شعيب ﷺ قومه بالأمانة في تجارتهم قال: ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (الشعراء: ١٨٤). ويتبين من هذا أن القوم كانت تكثر فيهم حالات القتل والاغتيال والسطو على أموال الناس. كانت بلادهم تقع على الطرق المؤدية إلى الشام ومصر، وكانت القوافل تمر بالقرب منهم، فيبدو أن هؤلاء كانوا ينهبون المسافرين ويقتلون بعضهم. ويدعم هذا القياس أنهم يُسمَّون "أصحاب الأيكة"، أي كانت بأرضهم غابة كبيرة يكثر فيها شجر "السدر" و"الأراك"، ويسهل نهب

المسافرين في مثل هذه الغابة لأنها تهيئ كمينًا سهلاً للصعاليك. فنصحهم شعيب عليه السلام بالأمانة في معاملاتهم وتجاراتهم والامتناع عن السرقة والسطو والنهب.

وأضاف شعيب وقال: عليكم أن تخشوا الله تعالى الذي خلقكم والفئات التي خلت من قبلكم، أي كيف تعملون هذه السيئات وتفتخرون بها؟ ألم تعلموا أن هذه المنكرات هي التي أدت إلى دمار الأمة التي كانت قبلكم، فلم لا تعتبرون بهلاكهم، ولم لا تفكرون في أسباب زوالهم، فتغيّروا ما بأنفسكم؟

...المهم أن الله تعالى قد أخبرنا في سورة الفاتحة أنكم مهما أحرزتم من الرقي كأمة فعليكم أن تضعوا في الحسبان دائمًا أن قدمكم لو زلّت قليلاً لأصبحتم من المغضوب عليهم أو الضالين، وإذا أمسكتم بالله بقوة ودعوتموه باستمرار بأن يُثبّت أقدامكم على الصراط المستقيم فسوف يشملكم بفضله ويحميكم من الزوال والدمار.

والواقع أن شعيبًا عليه السلام قد لفت أنظار قومه إلى هذه الحقيقة نفسها، فذكّرهم وقال ألم تروا كم من قوم خلوا من قبلكم وكانوا أقوى الأمم في عصرهم ولكنهم عصوا الله تعالى فأُهلكوا ودُمروا، فلمَ لا تتقون الله تعالى في حياتكم التي هي أيام معدودة؟ ولِم تلجأون إلى حيل وتدابير غير مشروعة من أجل المتع المادية الفانية؟

فأجاب شعيبًا عليه السلام قومه أن تجاسرك علينا يدل على أن أحدًا يدعمك بالمال لتتآمر علينا وتقضي على قوتنا؛ ذلك أن التسحير يعني تقديم الطعام أيضًا، وهو استعارة عن تقديم المساعدة. فالمراد من قولهم لشعيب عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ أننا قوم تجار وأن منافسينا في التجارة يدعمونك بالمال كرشوة لتنهانا عن الطرق التي تزدهر بها تجارتنا.

ثم قالوا لشعيب عليه السلام: ﴿وَمَا أَنْتَ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ* فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (الشعراء: ١٨٧-١٨٨)، ويعني إسقاط الكسف من السماء أن ينـــزل عليهم مطر شديد يدمر زروعهم وبساتينهم كلها. هذا هو المعيار الذي اقترحوه لمعرفة صدق شعيب عليه السلام. فأجابهم أن ربي أعلم بأعمالكم وسيُعاملكم كما يشاء. فأصروا على تكذيبه، حتى حل بهم ما

اقترحوه وأخذهم عذابُ يوم الظلّة، أي جاءهم الطوفان وهطلت أمطار غزيرة دمرت البلاد، فصار عذابَ يومٍ مخيف. فجعل الله ﷻ بلادهم آية باقية للأجيال التالية.

وليكن معلومًا أن القرآن الكريم قد استعمل لهذا العذاب ثلاث كلمات: ﴿الصيحة﴾ و﴿الرجفة﴾ و﴿الظُّلَّة﴾، فقال الله تعالى في موضع: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ (هود: ٩٥)، وقال تعالى في موضع آخر: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ (العنكبوت: ٣٨). ولكن الله ﷻ لم يصرح في هذين الموضعين أن العذاب الذي حل بهم كان زلزالاً أو آفة أخرى، بينما صرح هنا في سورة الشعراء بلفظ ﴿الظُّلّة﴾ أن العذاب أظلهم على شكل مطر غزير مدمر، فأصبحوا ملتصقين بالأرض في بيوتهم.

علمًا أن لفظ ﴿الصيحة﴾ يُطلق على العذاب وأيضًا على الدمار المفاجئ (الأقرب). وأما ﴿الرجفة﴾ فهي إشارة إلى ذلك المشهد المخيف المرجف للقلوب الذي رأوه جراء سوء أعمالهم، والذي هزّهم من أساسهم، حيث يُقال: "رجَف الإنسان: لم يستقرّ لخوف عرَض له؛ ورجَف الرعد: تردّدتْ هَدْهَدَتُه في السحاب" (الأقرب). وعليه فقد أُشير بهذه الكلمات إلى مطر غزير مدمر سلب راحتهم، ودفعهم إلى عذاب مستمر لا مخرج لهم منه، حيث أصبح كل واحد منهم محصورًا في بيته حتى سقطت عليهم الجدران بسقوفها فأصبحوا في ديارهم جاثمين.

ويتبين لنا من دراسة أحوال سيدنا شعيب في القرآن الكريم أن معارضيه من سكان مدينته كما حدث مع النبي الكريم عليهما السلام، وكان قومه يقومون بالغش والخداع في المعاملات اليومية، إلى جانب أعمالهم الوثنية، ولأجل ذلك نصحهم خاصة ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾. وكانوا ينعمون بالثراء والرخاء ولذلك يقول لهم سيدنا شعيب ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾. وكانوا يقومون بقطع الطرق على الناس ولذلك نصحهم قائلاً ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي

الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾. هذه الكلمات إما تدل على عادهم قتل الناس وشن الغارات أو على كونهم صعاليك يقطعون الطرق. لقد كانوا يسكنون في منطقة كانت مفترق الطرق بين الشام ومصر وشبه الجزيرة. ويبدو أنهم كانوا ينهبون المسافرين المارين بأراضيهم.

...العجيب أن شعيبًا الطَّيِّلاً يعظهم أن لا يأكلوا أموال الآخرين بالباطل، ولكنهم يردون عليه بقولهم: مالك وما نفعل، نحن أحرار في أن نتصرف في أموالنا كما يحلو لنا. وكأنهم لما تأصّل فيهم أكل أموال الآخرين كانوا فقدوا التمييز بين الحلال والحرام لدرجة أنهم لم يدركوا أنهم لا يأكلون أموالهم هم وإنما يمدون أيدهم إلى أموال الآخرين بالباطل.

وهنا رد عليهم سيدنا شعيب الطَّيِّلاً قائلاً: ليست صلاتي التي تأمرني بهذا وإنما هو ربي الذي يأمرني به. فأخبروني يا قوم، لو كنت في الواقع أتلقى وحيًا من الله مقرونًا بأدلة على صدقه، ورزقًا حسنًا من فضله ورحمته، أفلا يحق لي إذًا أن أعظكم وأنهاكم عما أثبتُّ بطلانه بأدلة دامغة؟. وانظروا إلى سلوكي وسيرتي أنا. ألا ترون أنني عامل بما أنصحكم به، وما دام الأمر كذلك فلا شك أنني مخلص فيما أعظكم به. وإذا كنتم تظنون أنني أريد بذلك سلطة وحكمًا عليكم فهو أيضًا ظن باطل، لأن الإنسان يمكن أن يسدي النصح لأحد دون أن يكون سيدًا وحاكمًا عليه، وما دام هذا حقًا مشروعًا لي فسوف أستعمله ما استطعت إلى ذلك سبيلاً. أما النتائج فليست بيدي، وإنما هي في يد الله تعالى، وما علي إلا البلاغ.

ما أروعه وما ألطفه من شرحٍ لمقام النبوة. فكل مأمور من عند الله تعالى بل كل مبلغ وداعية يواجه نفس المشاكل. في البداية يتبرّم الناس من نصحه ووعظه، إذ يعتبرون نصحه نوعًا من الجبر والإكراه. ثم يهدأون قليلاً ويتنازلون ويعتبرونه مساويًا لهم في الدرجة، ويأذنون له أن يقول ما عنده، دون أن يصدقوا قوله. ولكن النبي لا يبدي أي سخط عليهم لا في المرة الأولى ولا في المرة الثانية، وإنما يهتم بأداء واجب التبليغ في الحالتين على سواء، ولا ينظر إلا إلى الله غير مكترث بكل من سواه.

...انظروا إلى ما يكنه النبي من حمية وغيرة في سبيل الله تعالى. لو كان هناك أحد غير شعيب لسُرَّ بكلام هؤلاء ولقال في نفسه: ما أكثر ما في قبيلتي من القوة والمنعة حتى ليهابها القوم فلا يتعرضون لي بسوء، ولربما استغل ذلك وهدد المعارضين بقوله: تعالوا إلى ساحة النزال لتعرفوا ماذا سيصنع بكم قومي. ولكن سيدنا شعيبًا ﷺ لا يُبدي إلا أسفًا وسخطًا على قولهم هذا ويقول بكل حماس وغيرة: هل عشيرتي أكبر وأعز عندكم من الله تعالى، فتهابونها ولا تخافون الله القهار. والعجيب أنكم لا تمسوني بالسوء خوفًا من قومي، بينما لا تردعكم خشية الله عن خداع الناس ونهب أموالهم بالباطل. إن شعيبًا ﷺ لا يكترث حين يُعرب عن الحمية والغيرة في سبيل الله تعالى...بأن عشيرته سوف يعتبرون قوله هذا إهانة لهم وقد يسخطون عليه ويتخلون عنه. كلا، بل تستولي عليه عندئذ فكرة واحدة هي النظر إلى عظمة الله والدفاع عن اسمه العلي الشأن عزّ وعلا.

ثم يحذر شعيب قومه بأنكم تثيرون غضب الله عليكم، عندما تعتبرون رهطي أعزّ من الله تعالى فأخاف أن يسحقكم بعذابه ويدمّر تجارتكم، ويضيع جهودكم ولا يبقي في أيديكم شيئًا.

اعملوا ما يحلو لكم، ولسوف أستمر في العمل بما يليق بمقامي ومنزلتي، وسوف تُبدي النتائج أي الفريقين منا كان عاملاً برضى الله تعالى، وأيُّنا كان يأتي بما يتنافى مع مشيئته عزّ وجل.

إن أنبياء الله تعالى في كل زمان ما فتئوا يلتمسون من أقوامهم أن يفوّضوا الأمر لله تعالى منتظرين حكمه، ولكن الناس دائمًا وأبدًا يأخذون الأمر بيدهم ولا ينتظرون حكم الله، فيعاقَبون. كما أنني أنا الذي يجب أن يصيبه القلق لتأخر حكم الله فينا، وذلك لكوني أنا واصحابي هدفًا لتعذيبكم واضطهادكم، ولكن الغريب أننا صابرون رغم العذاب، وأنتم على ظلمكم قد نفذ صبركم. أفلا ينبغي أن تصبروا معنا حتى يقضي الله بيننا وبينكم؟

قصة موسى عليه السلام

يتبين من القرآن الكريم أن موسى عليه السلام كان من بني إسرائيل، وكان الحلقة الأولى من سلسلة النبوة في بني إسرائيل التي كان عيسى عليه السلام الحلقة الأخيرة منها...

نزول الوحي الكريم:

...واعلم أن ﴿نارًا﴾ في الآية ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ هنا تعني مشهدًا روحانيًّا من الكشف، وليس النار المادية. ذلك لأن الذي يرى النار المادية لا يقول "إني رأيت نارًا"، وإنما يقول "إني رأيت النار". فلو كان موسى عليه السلام قد رأى النار المادية لقال "إني رأيت النار"، ولكنه يقول هنا ﴿نارًا﴾، أي نارًا ما. وفي هذا إشارة أنه كان مشهدًا روحانيًّا، وأن موسى عليه السلام أيضًا لم يفهمها النار المادية المشتعلة من خشب وفحم.

أما قوله ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ (طه: ١١).. فهو إشارة إلى أن التجليات الروحانية نوعان: نوع لا يخص الرائي فقط، بل يخص قومه وأصحابه أيضًا، مثل تجلِّي النبوة أو نــزول الشرع. ونوع آخر منها يخص الرائي فحسب، مثل تجلِّي الولاية. فإن موسى عليه السلام لما رأى ذلك المشهد الروحاني وهو عائد من مدين إلى مصر قال لأهله إني أشعر أن الله تعالى يريد أن يريني تجلّيًا من تجلياته. فإذا كان تجلّيَ النبوة والشرع وأُمرت أن أعلّم الآخرين أيضًا مما عُلّمتُ، فسآتيكم منها بقبس.. أي سآتي بتعليم وهداية لأهلي وقومي؛ وأما إذا كان تجلّيَ الولاية أي خاصًّا بي فقط فسأنال به هديًا لنفسي على الأقل، وأنتفع به ثم أعود إليكم.

من هنا أخذ الله تعالى يسرد بعض وقائع موسى الطَّيْكِلاً، حيث أخبر أولاً كيف شرفه الله تعالى بوحيه وكلامه في أول أمره. لقد وُلد موسى الطَّيْكِلاً في مصر وقضى هناك أوائل عمره. ثم اضطر لبعض الأسباب للهجرة إلى مدين حيث أقام عشر سنوات وتزوج. ثم خرج مع أهله عائدًا إلى مصر، حيث تجلى الله تعالى له على صورة نار.

لقد ورد هذا الحدث في العهد القديم أيضًا، بيد أن هناك اختلافًا بين بيان القرآن الكريم وبيان العهد القديم في بعض التفاصيل، ولا بد من أخذ هذا الاختلاف في الحسبان.

وبيان ذلك أن القرآن الكريم يخبرنا أن وحي الله تعالى نـــزل على موسى وهو راجع من مدين إلى مصر، ولكن العهد القديم يخبر أن واقعة الوحي قد حصلت من قبل، ثم بعدها خرج موسى عائدًا مع أهله وأولاده إلى مصر. حيث ورد: "وَأَمَّا مُوسَى فَكَانَ يَرْعَى غَنَمَ يَثْرُونَ حَمِيهِ كَاهِنِ مِدْيَانَ، فَسَاقَ الْغَنَمَ إِلَى وَرَاءِ الْبَرِّيَّةِ وَجَاءَ إِلَى جَبَلِ اللهِ حُورِيبَ. وَظَهَرَ لَهُ مَلاَكُ الرَّبِّ بِلَهِيبِ نَارٍ مِنْ وَسَطِ عُلَّيْقَةٍ" (الخروج ٣: ١-٢).

ثم ورد بعد ذلك: "فَمَضَى مُوسَى وَرَجَعَ إِلَى يَثْرُونَ حَمِيهِ وَقَالَ لَهُ: أَنَا أَذْهَبُ وَأَرْجعُ إِلَى إِخْوَتِي الَّذِينَ فِي مِصْرَ لأَرَى هَلْ هُمْ بَعْدُ أَحْيَاءٌ. فَقَالَ يَثْرُونُ لِمُوسَى: اذْهَبْ بِسَلاَمٍ. وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى فِي مِدْيَانَ: اذْهَبْ ارْجعْ إِلَى مِصْرَ، لأَنَّهُ قَدْ مَاتَ جَمِيعُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَانُوا يَطْلُبُونَ نَفْسَكَ. فَأَخَذَ مُوسَى امْرَأَتَهُ وَبَنِيهِ وَأَرْكَبَهُمْ عَلَى الْحَمِيرِ وَرَجَعَ إِلَى أَرْضِ مِصْرَ" (الخروج ٤: ١٨-٢٠).

وهذا يعني أن العهد القديم يخبرنا أن موسى الطَّيْكِلاً حين كان بمدين، خرج إلى جبل حوريب وهو يرعى الغنم، وهنالك رأى التجلي الإلهي في أكمة. ثم رجع إلى حميه واستأذنه للعودة إلى مصر، فخرج بأهله وأولاده إلى مصر. ولكن القرآن الكريم يخبرنا أن واقعة التجلي الإلهي حصلت لموسى خلال سفره إلى مصر، حين كان أهله وأولاده أيضًا معه.

وليكن معلومًا بشأن هذا الاختلاف أن الذين درسوا الكتاب المقدس دراسة فاحصة يدركون جيدًا أنه يخطئ كثيرًا في ذكر الأرقام والمواقيت بحيث لا يمكن أن يصدقه أي إنسان عاقل. فمثلا إذا كان عدد الناس في حدث ما آلافًا من حيث التاريخ، ذكره الكتاب المقدس مئات الآلاف. أو إذا كانت المسافة مئات الأميال قال الكتاب المقدس إنها بضعة أميال مثلا. فلا يمكن الاعتماد على بيانه بصورة حتمية يقينية. خذوا مثلاً هذا الحدث نفسه. فإن جبل حوريب الذي قيل أن الله تعالى تجلى على موسى عنده وهو يرعى الغنم، واقع في صحراء سيناء التي تبعد عن مدين بمئات الأميال (انظر قاموس الكتاب، مجلد ٤، ص٣٤١). ولكن الكتاب المقدس يذكر الحدث وكأن المسافة بين المكان الذي أخذ موسى غنمه إليه، والذي نـزل فيه كلام الله عليه، وبين مدين هي ميل أو نصف الميل فقط؛ ثم رجع بعد ذلك إلى حميه، وسافر بعد إذنه إلى مصر مع أهله وأولاده. مع أنـه خلاف للعقل تمـامًا أن يخرج أحد إلى مئـات الأميال يرعى الغنم، ثم يرجع إلى بيته في مساء اليوم نفسه.

فثبت أن بيان الكتاب المقدس مخالف للعقل تمامًا، وأن ما يقوله القرآن هو المتفق مع العقل والمنطق. كما أن بيان الكتاب المقدس يتنافى مع الجغرافيا أيضًا، في حين أن بيان القرآن الكريم مطابق للجغرافيا أيضًا. ذلك أنه ما دامت المسافة بين مدين وحوريب تبلغ مئات الأميال، فمن غير المعقول القول أن موسى ﷺ ذهب يرعى الغنم إلى حوريب.

لما اقترب موسى الطَّيْكِلاً من ذلك الشيء الذي كان نارًا في الظاهر تلقى وحيًا يقول: ﴿يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾. ولا يعني ذلك أن تلك النار كانت ربًّا لموسى، وإنما المراد أن الذي أظهر ذلك التجلي هو رب موسى؛ ذلك لأن النار لا تتكلم، بل إن الله تعالى هو الذي يتكلم.

وقوله تعالى ﴿فاخلَعْ نعلَيك﴾ يعني حرفيًّا: انـزعْ حذاءك، ولكن المراد الحقيقي هو اقطَعْ علاقاتك الدنيوية كلها ابتغاء مرضاة الله تعالى، وكُنْ لـه وحده كلية. ذلك أن النعل في الرؤيا أو الكشف يعني الأقارب والأصحاب كالزوجة والولد

والصديق (تعطير الأنام للنابلسي). ولما كان المشهد الذي رآه موسى عليه السلام كشفًا من الكشوف فأمر الله تعالى موسى بقوله ﴿اخْلَعْ نعليك﴾ أن يقطع صلاته الدنيوية كلها لوجه الله تعالى. ثم قال ﴿إنك بالواد المقدس طُوًى﴾.. أي لأنك قد دخلت الآن في واد لـــه طرفان: فأحد طرفيه متصل بالله وطرفه الآخر متصل بالعباد، أي أن الله تعالى قد شرّفك الآن بالنبوة والرسالة، ومَن تبوأ هذا المقام تبتّلَ عن الدنيا إلى الله تعالى كلية، ووجّه فطرته من الماديات إلى الروحانيات. فمن واجبك الآن أن تقطع كل صلاتك المادية وتتخلى عن كل محبة دنيوية، وتصبح لله تعالى كلية، وتقوّي صلتك به عز وجل.

هذه الآية أيضًا تبين أنه لم يتكلم من النار شيء، بل كان ذلك الكلام وحيًا من الله تعالى، ذلك لأن الله تعالى يوضح هنا لموسى ويقول يا موسى لقد اخترتُك، فأَصْغِ إلى الوحي الذي نوحيه إليك. وعليك أن تؤدي الصلاة بنفسك، كما يجب أن تجعل الآخرين أيضًا يصلّون. وكأن المراد من إقامة الصلاة هو الصلاة بالجماعة. والحق أن الصلاة بالجماعة لا تؤدَّى في أي دين سوى الإسلام، وإن كان الناس يجتمعون في الظاهر للعبادة كما يجتمع النصارى في الكنائس واليهود في الصوامع...

عصى موسى عليه السلام:

ولما قال الله تعالى لموسى ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ قال في نفسه بطبيعة الحال: لماذا يسألني الله تعالى عن العصا، فراح يعدّد منافعها وقال ﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ (طه: ١٩). أي أنني أعتمد على عصاي، وأخبط بها الورق لتتساقط على غنمي، ولي فيها فوائد أخرى. والمراد من اتكاء موسى على العصا أنه يثق بقومه ويستعين بهم في المهمات الدينية.

وأما قوله ﴿وأهشُّ بها على غنمي﴾ فالمراد به الإشراف بواسطتهم على حقوق التوابع. ذلك لأن الغنم لا تكون جزءًا من القوم، وإنما تكون كالتوابع، لذا فما دام العصا تعني القوم فسيعني الهش بالعصا على الغنم أنه يقوم من خلال قومه، برعاية حقوق التوابع ومنافعهم. والحق أن الأنبياء كلهم قد أخذوا التبرعات والصدقات من

قومهم، وأعانوا بها فقراءهم وكذلك فقراء وشرفاء الأمم الأُخرى كالراعي يرعى غنمه. فالقرآن الكريم يأمر المسلمين بالزكاة أيضًا، ومن مصارف الزكاة بحسب القرآن مساعدةُ ذوي الحاجة والغارمين من المسلمين، وكذلك المسافرين أيًّا كان دينهم، وإعانة المؤلَّفة قلوبُهم وهم من أهل الأديان الأخرى يقينًا (التوبة: ٦٠). وهكذا فإن الله تعالى قد طبق كشف موسى هذا على محمد رسول الله ﷺ مئة بالمئة، حيث أوصاه أيضًا بأخذ الزكاة من قومه.. أي بهش الورق بعصاه، ولكنه أوضح له أن هذه الأوراق يجب أن لا تنفع قومك فقط، بل يجب أن تنفع الآخرين أيضًا ممن ليسوا من قومك، والذين هم في حكم الحيوانات.

ولما ألقى موسى عصاه تحولت إلى ثعبان يجري. وبالفعل قد شاهد موسى عليه السلام في حياته أنه ما إنْ ترك رعاية أمته قليلا إلا وصارت سامّةً كالثعبان. فمثلا حين ذهب موسى عليه السلام إلى الجبل لأيام أخذ قومه يعبدون الأصنام في غيابه. وكذلك كلما حصل نقص في رعايته لهم فسدوا.

خاف موسى عليه السلام لما رأى العصا على هيئة الثعبان، فقال الله تعالى لـــه لا تخف، إنه قومك، فأمْسِكْهم جيدًا يعودوا إلى سيرهم الأولى، ويكونوا ذوي نفع عظيم. أي أن قومك لن يفسدوا في حياتك فسادًا أبديًّا، بل كلما تقوم برعايتهم يصلحون أنفسهم.

وبالفعل ترى أن فئة من قومه قد فسدوا في غيابه وأشركوا، ولكنه لما رجع أصلحوا أنفسهم بجهوده ورعايته وتابوا عما فعلوا، فشملهم الله تعالى برحمته وعفوه. وقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم قبول توبتهم فقال ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ (البقرة: ٥٥). وهذا يعني أن ابتعاد موسى عن قومه كان ضارًّا بهم، ولكنه بمجرد أن تولى رعايتهم رجعوا إلى الصواب، يبذلون في سبيل الله تعالى كل غال ورخيص.

يد موسى عليه السلام:

...إن اليد تعني الأخ أيضًا. وإذا توسعنا في هذا المعنى فيمكن أن تعني القوم أيضًا، لأن أفراد القوم يصبحون أعوانًا وأنصارًا مثل اليد. إذًا فكأن الله تعالى قد نبه موسى

بقوله ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ (طه: ٢٣) إلى أن يقرّب إلى نفسه كل مَن يصلح من قومه لمساعدته ويسعى للتقرب إليه، فيصبحون شخصيات نورانية، وتظهر على أيديهم كمالات روحانية عظيمة.

يتضح لنا من القرآن الكريم أن موسى لما ضم يده إلى صدره بأمر الله تعالى صارت يده بيضاء نورانية تمامًا، وأن هذا البياض لم يكن نتيجة مرض أبدًا. الحق أنه كان مشهدًا من الكشوف الروحانية لــه تأويل عظيم. مع أن صيرورة يده بيضــاءَ –حسب التوراة– بسبب مرض الجذام عذاب، في حين أن المناسبة هي ظهور التجلي الإلهي وظهور آية من الله تعالى، ولا مجال فيها أبدًا لنـــزول العذاب على موسى. فبيان الكتاب المقدس هذا باطل بالبداهة. فكيف يمكن لموسى عليه السلام أن يزداد إيمانًا إذا كان قد رأى نفسه قد أصيب بالجذام؟ كلا، بل لا بد أن يصيبه الحزن والخوف بسبب ذلك. ولكن القرآن الكريم يصرح ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ (النمل: ١٣).. أي أن يده صارت بيضاء ولكن لا علاقة لهذا البياض بالجذام أبدًا.

لقد بيّنت من قبل أن هذا كان مشهدًا من الكشوف الروحانية، وكان تأويله أن يضم موسى إلى نفسه ذوي الخير والنفع من قومه. وعليه فستعني الآية أنه حين يضمّهم إلى كنفه وصحبته سيكتمل صلاحهم وخيرهم، ولا يبقى فيهم نقص ولا عيب. ذلك لأن بعض الناس يبدون أهل الصلاح في ظاهرهم، ولكنهم يكونوا فاسدين جدًّا في باطنهم. فالله تعالى يخبر موسى عليه السلام أنه حين يخصهم بقربه وصحبته يصبحون من الروحانيين الكاملين تمامًا. إنما يفسدون إذا كانوا بعيدين عن صحبته وقربه. وهنا يخبر الله تعالى موسى أنه قد أراه هذه الآية ليوقن بأنه تعالى سيري على يده آيات عظيمة أُخرى ينجح بها في مهمته.

حياة بني إسرائيل قبل البعثة:

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِنْ آلِ فِرعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبنَآءَكُم وَيَستَحيُونَ نِسَآءَكُم وَفِي ذَلِكُم بَلآءٌ مِّن رَبِّكُم عَظِيمٌ﴾ (البقرة: ٥٠).

بهذه الآية بدأ الله تعالى يعدد النعم التي لم يزل ينعم بها على بني إسرائيل لمدة طويلة. وأول هذه النعم أن بني إسرائيل كانوا يعيشون تحت حكم الفراعنة في مصر عبيدًا، فأرسل الله عبده موسى وأنجاهم به. لقد صور كتابهم المقدس حياة العبودية التي عاشوها فقال: "ثُمَّ قَامَ مَلِكٌ جَدِيدٌ عَلَى مِصْرَ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ يُوسُفَ. فَقَالَ لِشَعْبِهِ: هُوَذَا بَنُو إِسْرَائِيلَ شَعْبٌ أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ مِنَّا. هَلُمَّ نَحْتَالُ لَهُمْ لِئَلاَّ يَنْمُوا، فَيَكُونَ إِذَا حَدَثَتْ حَرْبٌ أَنَّهُمْ يَنْضَمُّونَ إِلَى أَعْدَائِنَا وَيُحَارِبُونَنَا وَيَصْعَدُونَ مِنَ الأَرْضِ. فَجَعَلُوا عَلَيْهِمْ رُؤَسَاءَ تَسْخِيرٍ لِكَيْ يُذِلُّوهُمْ بِأَثْقَالِهِمْ، فَبَنَوْا لِفِرْعَوْنَ مَدِينَتَيْ مَخَازِنَ: فِيثُومَ، وَرَعَمْسِيسَ. وَلكِنْ بِحَسْبِمَا أَذَلُّوهُمْ هكَذَا نَمَوْا وَامْتَدُّوا. فَاخْتَشَوْا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَاسْتَعْبَدَ الْمِصْرِيُّونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِعُنْفٍ، وَمَرَّرُوا حَيَاتَهُمْ بِعُبُودِيَّةٍ قَاسِيَةٍ فِي الطِّينِ وَاللِّبْنِ وَفِي كُلِّ عَمَلٍ فِي الْحَقْلِ. كُلِّ عَمَلِهِمِ الَّذِي عَمِلُوهُ بِوَاسِطَتِهِمْ عُنْفًا" (خروج ١: ٨ إلى ١٤).

قوله تعالى: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ﴾. كان رعمسيس الثاني الذي ولد موسى في زمنه شديد العداوة لبني إسرائيل. وأمر بقتل أبنائهم خوفًا من ازدهارهم، ولكنه لم يفلح في خطته تمامًا لإشفاق القابلات على المواليد. فأمر أخيرًا أن يطرح في النهر أبناؤهم دون البنات. (خروج ١: ٢٢).

وتوجد مثل هذه الروايات في التلمود. كما ورد في الإنجيل: "فَاحْتَالَ هذَا عَلَى جِنْسِنَا وَأَسَاءَ إِلَى آبَائِنَا، حَتَّى جَعَلُوا أَطْفَالَهُمْ مَنْبُوذِينَ لِكَيْ لاَ يَعِيشُوا (أَعْمَالُ الرُّسُلِ ٧ : ١٩)".

لقد انخدع البعض من كلمة "يذبّحون" في الآية فظنوا أن القرآن يقول بأن المصريين كانوا يخنقون مواليد بني إسرائيل مع أن التاريخ يقول بغير ذلك. وأوقعهم في هذا الوهم كون الخنق من معاني الذبح، وغفلوا عن المعنى الآخر وهو الهلاك. فالمعنى الحقيقي أنهم كانوا يهلكون المواليد بأي طريقة كانت. وقد وضّح القرآن هذا المعنى في موضع آخر حيث قال: ﴿يقتّلون أبناءكم﴾ (الأعراف: ٤٢). وقوله تعالى:

﴿وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي في نجاتكم من هذا الكرب إنعام من الله كبير، إذ ترتبت على هذه النجاة سلسلة من نعم عظيمة أُخرى.

الدعوة والتبليغ والآيات السماوية:

كلما يُبعث نبي من الأنبياء يكذبه الناس لسببين: إما أنهم يعتبرون دعواه أعلى من قدره ومكانته، أو يظنون بأنهم أسمى من أن يتبعوه. وهذا نفس ما حدث لسيدنا موسى عليه السلام. فالبعض ظنوا أن من المستحيل أن يكلم الله عز وجل عبدًا من عباده، بينما احتقره الآخرون ظانين أنهم أعز وأرفع من أن يطيعوا شخصًا كموسى عليه السلام.

والناس الذين يرغبون في الأمور المادية السياسية يحاولون إثارة مشاعر الراغبين في الأمور الدينية ضد المرسل كي يوهموهم بأن ما جاء به هذا النبي إنما هو خداع وتلبيس يريد به إفساد دينهم الذي هم عليه. ويحرضون ضده الراغبين في الأمور المادية والسياسية بأن ما معه ليس بسحر وخداع فحسب، بل خداع خطير سوف يوقع به الفرقة بينكم ويشتت شملكم. فإذا كنتم تريدون خيرًا لشعبكم فتصدوا لهذا المدعي وإلا سوف يحول شعبنا المتحد إلى أحزاب متناحرة متحاربة.

﴿فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ إِنَّ هَـذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (يونس: ٧٧).

منذ بدء الخليقة نجد أعداء الله لا يزالون يلجأون إلى هذه المكيدة الشيطانية التي لم تفقد قوتها في الفتك والتدمير. وإن الذين يلجأون إلى الكذب والخداع لا يقدرون على تحقيق الأهداف المنوطة بأنبياء الله عليهم السلام. إن الأنبياء يأتون لتغيير أحوال الشعب دينيًا وأخلاقيًا ومدنيًا وسياسيًا، إما عاجلاً أو آجلاً. ولما كان معظم الناس يظنون أن ما يتبعه آباؤهم هو الدين الحق، فكأنهم قصدوا بقولهم هذا أنه يريد إغواءنا عن الدين الحق، ولكنهم ذكروا هذا الأمر ذكرًا يحدث هيجانًا عنيفًا في قلوب العامة ضد نبيهم.

لقد رمى هؤلاء الناس نبيًا كريمًا كموسى ﵇ بالسحر والخداع، فحرموا بسبب هذا الاتهام من أن يبحثوا أمره موضوعيًا، وهكذا وقعوا في الفخ الذي نصبوه له حيث بدأوا بأنفسهم يبحثون عن السحرة لمبارزته. ولكن عندما يقف الحق في مواجهة الباطل تنكشف الحقيقة للعيان. فأعمال المفسدين لا تؤول إلا بالفساد والشر، إذ يستحيل أن يأتي أحد بأعمال فاسدة ثم يجني منها خيرًا وصلاحًا. فالله تعالى يشير إلى هذه الحقيقة قائلاً: إننا لا نَدَعُ أعمال المفسدين لتأتي بما يرجون، بل إننا نجعلهم يتقلبون ويغيّرون حالتهم من حين لآخر فلا ينجحون في مراميهم. والله عز وجل ليس بحاجة إلى اللجوء إلى الكذب والخداع لنشر دينه، بل كل شيء خاضع لأمره، ولذلك فإنه ينشر دينه بأمره وقدرته.

كان بنو إسرائيل في صف موسى، فخاف فرعون أن يتعاظم شأنهم ويتفاقم خطرهم فيضعف حكمه ويذهب سلطانه، ولذلك كان يضطهدهم ويعذبهم. ولكن هذا كان غباءً شديدًا منه، لأن العنف والعدوان دونما مبرر يقوّي أسباب التمرد ولا يجدي نفعًا. وقد نصح سيدنا موسى شعبه قائلاً: عليكم أن تثقوا بالله ثقة كاملة، موقنين بأن الذي أنتم بصدد إنجازه هو مطلب سماوي يريد الله تحقيقه.

أمر الله تعالى أتباع موسى ﵇ أن يقيموا متجاورين ليتمكنوا من التعاون والمساعدة فيما بينهم. لأن الفئات الضعيفة تعيش في شكل تجمعات في المدن. ووجه أنظارهم إلى ضرورة الدعاء والعمل بمثابرة، لأن الإقامة تشير إلى معنى الثبات والمداومة. وأخيرًا توجه الله تعالى إلى النبي موسى ﵇ بأن عليك أن ترفع معنويات أتباعك بذكر الأخبار السارّة لهم، لأن اليأس والقنوط هو أكبر الآفات.

لقد وضّح الله جلّ شأنه مسألة دينية هامة تتعلق بالسياسة والحكم، حيث بيّن أنكم مأمورون بطاعة الحاكم أو الملك، ولكنه إذا تدخل في أمور دينكم ولجأ إلى استخدام القسر والجبر عليكم ليردكم عن الحق، فعليكم أن تهاجروا من بلده. أما إذا حال دون هجرتكم فقد صار في عداد الطغاة ويجوز لكم شرعًا محاربته، لأنكم عندئذٍ تكونون على الحق ويكون هو على الباطل، ولن تعتبر مخالفتكم له مخالفة

للحق والقانون. ذلك كما أنه لا يحق لأحد أن يعيش في بلد ما وهو مخالف لقوانين تلك البلاد، كذلك تمامًا لا يحق لحاكم أن يُكره أحدًا على العيش في بلده بالرغم من الخلافات الدينية الحادة القائمة هناك.

عندما نزل السحرة في ساحة المبارزة أبدى موسى كراهية واستغناءً عن مبارزتهم فقال: افعلوا ما أنتم فاعلون، أما أنا فأراه لغوًا وعبثًا. يظن الناس عمومًا أن موسى عليه السلام كان استعد لمبارزتهم فورًا، ولكن هذا خطأ، لأنه كان يدرك جيدًا أنهم سحرة وأن ما يأتون به سيكون لغوًا لا حقيقة فيه، فأبدى كراهيته واستغناءه عن التصدي لهم، ولكنه لم يرفض مواجهتهم على الفور صراحةً ربما لأنه فكر أن الحقيقة سوف تنكشف تلقائيًا لدى المواجهة العملية، وعندها سوف يخبرهم برأيه صراحةً. وهذا ما حصل فعلاً حيث قال لهم عند انكشاف أباطيلهم: ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ﴾ (يونس: ٨٢).

عندما يقف الحق في مواجهة الباطل تنكشف الحقيقة للعيان. فأعمال المفسدين لا تؤول إلا بالفساد والشر، إذ يستحيل أن يأتي أحد بأعمال فاسدة ثم يجني منها خيرًا وصلاحًا. فالله تعالى يشير إلى هذه الحقيقة قائلاً: إننا لا نَدَعُ أعمال المفسدين لتأتي بما يرجون، بل إننا نجعلهم يتقلبون ويغيّرون حالتهم من حين لآخر فلا ينجحون في مراميهم.

لقد علّمنا الله عز وجل هنا درسًا عظيمًا في الأخلاق، ألا وهو: أن صدق الهدف أو صحة المبدأ لا يسمح للإنسان باللجوء إلى طرق غير مشروعة لتحقيقه، بل يجب اتخاذ وسائل مشروعة وفاضلة لتحقيق الهدف مهما كان ساميًا وهامًا. ولكن للأسف أن أكثر الناس يجهلون هذه الحقيقة في عصرنا هذا، وهذا الوباء في انتشار متزايد حيث يستسيغون الكذب لتوطيد الحق. ما قيمة الحق الذي لا يستطيع أن يزدهر وينتصر دون الاستعانة بالكذب والخداع؟...

أما قوله تعالى ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ يمكن أن تعني ما يلي:

١ - يجب أن تعيشوا معًا. ذلك أن البيوت لن تكون متقابلة إلا إذا عاشوا

مجتمعين متجاورين.

٢ – يجب أن تتعاونوا فيما بينكم. ذلك أن الغاية من اتخاذ البيوت المجاورة أن يسهل عليهم مساعدة بعضهم بعضًا.

٣ – يجب أن تبنوا البيوت في جهة واحدة.. أي أن تعيشوا تحت نظام واحد وتعملوا لتحقيق هدف موحّد.

٤ – يجب أن تكون بيوتكم من نوع واحد. وقد أشار بذلك إلى ضرورة علاقة قوية بين الغني والفقير منهم لتحقيق الرقي القومي، وأن يكون للقوم كلهم طابع واحد، وأن يكون كل واحد منهم واقفًا على حال أصحابه، أما إذا عاش أحد في القصر بينما بات أخوهُ في الكوخ دون أن يتفقد ذاك حال هذا فمن الصعب أن ينشأ بينهما ترابط قوي. كما وجّه أنظارهم إلى ضرورة الدعاء والعمل بمثابرة. وباختصار، تعلّم الآية سبعة دروس تستطيع أية أُمة أن تحقق بالعمل بها تقدمًا قوميًا، وهذه الدروس هي: الاجتماع، الوَحدة، التعاون، النظام، الترابط بين الغني والفقير، الدعاء، المثابرة على العمل.

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاة الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ (يونس: ٨٨).

لا تعني الآية أن الله جلّ شأنه آتى آلَ فرعون زينة وأموالاً بهدف أن يقوموا بإضلال الناس، وإنما اللام في (ليضلوا) تدُلُّ على معنى الصيرورة والعاقبة، والمعنى: إنك يا ربِّ، آتيتهم زينة وأموالا، ولكنهم، بدلاً من أن يشكروك عليها، صاروا يُضلُّون الناس. وهذا أسلوب يعبَّر به عن الأسف، حيث يقول: ما أشدَّ شقاوةَ هؤلاء القوم، إذ أصبحوا ناكرين لهذه النعمة الإلهية العظيمة، بل يُضلُّون الآخرين أيضًا!

وهو دعاء عليهم ولا شك، ولكنه في الحقيقة ليس بدعاء سيء، بل هو دعاء خير لهم، لأنه ليس بدعاء شخص غاضب ناقم عليهم، وإنما هو دعاء نبي رحيم مشفق عليهم. يقول فيه موسى عليه السلام: يا رب، لقد أعطيتهم أولادًا وأموالاً، وكان الحري

بهم أن يكونوا لك شاكرين، ولكنهم صاروا لصنيعك ناكرين. وقد تجاوز نكرانهم بحيث إنهم بدأوا يضلون الآخرين، وساءوا لدرجة أن قلوبهم لن تميل إليك إلا برؤية العذاب الأليم. فإنني أتضرع إليك أن تدمّر أموالهم وتعرّضهم لصدمات مؤلمة في أولادهم علّهم يعودون إلى سبيل الهدى، فأت بالعذاب من أجل هدايتهم.

إنه يدعو الله تعالى أن يعذبهم بأولادهم وأموالهم لأنها سبب انحرافهم عن الهدى، فإذا أوذوا فيها رجعوا إلى صوابهم ومالوا إلى الهدى. وإذن، فهذا ليس بدعاء عليهم وإنما هو دعاء لهم، لأنه ليس لضلالهم وإنما لهدايتهم. لا جرم أنه يدعو عليهم بالعذاب، ولكن الذين لا يهتدون إلا بالعذاب يصبح هذا الدعاء رحمةً لهم. ومثاله كأن يطلب أحدُ أقارب المريض من الطبيب أن يبتر عضوه الفاسد كيلا يسري فساده إلى الجسم كله، فلا شك أن طلبه هذا رحمة بالمريض. كذلك كان دعاء موسى الطَّيْكِلاِ في الحقيقة دعاءَ رحمة وشفقة لا دعاءَ عَذاب ونقمة.

وقوله تعالى ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ (يونس: ٨٩)، يعني تعريضهم للصدمات في أولادهم. وهذا يتم بطريقين؛ الأول: أن يصب على أولادهم أنواع المصائب والآلام، والثاني: أن يوفّق أولادهم إلى الإيمان، لأن ترك الأولاد دينَ الآباء وانضمامهم إلى صفوف العدو يمثل صدمة مؤلمة للآباء. وقد حدث هذا في زمن النبي ﷺ، حيث قبِلَ أولاد أعدائه الإسلام...

سمع فرعون من موسى الطَّيْكِلاِ ذكر صفات الله تعالى وبأنه تعالى يُنــزل الوحي أيضًا، فبما أنه كان يجهل هذه الأمور فقال في دهشة: يا موسى، ما هذا الإله الجديد الذي لم نسمع عنه من الأولين قط؟ قال موسى ألا ترى أن الدنيا تدار بنظام واحد، وأن كل مخلوقٍ مزوّدٌ بما يحتاج إليه من الأعضاء، وعالمٌ بطريقة استعمالها منذ لحظة خلقه.

فقال فرعون لموسى ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى﴾ (طه: ٥٢)؟ أي إذا كان الأمر كما تقول فماذا يكون مآل آبائنا الذين كانوا يجهلون هذه الأُمور؟ وقد أراد بذلك استثارة عواطف القوم ضد موسى مستخدمًا نفس السلاح الذي ما زال أعداء

الأنبياء يستخدمونه في كل عصر. إن أهل الباطل يحاولون دائمًا إثارة عواطف القوم ضد أهل الحق، فيقولون لهم مثلاً إذا كنتم صادقين فهل كان آباؤنا كاذبين ومن أهل النار؟ عند ثورة العواطف يغيب عن أنظار القوم كل دليل وبرهان. فمثلاً إذا دعوت إلى التوحيد يهبّ الواحد من المشركين ويقول لقومه انظروا ماذا يقول هذا؟ إنه يقول إن آباءكم كانوا جاهلين حمقى وأغبياء حيث سجدوا للأصنام والأوثان! فمن ذا الذي يصدق أن آباءه كانوا جاهلين؟ إن الكافرين أيضًا يحبون والديهم، فلا يتحملون الطعن فيهم. فحين يُعرض عليهم الشرك بهذا الأسلوب ويقال لهم إن آباءكم كانوا مشركين، ويقول هؤلاء عن آبائكم إنهم كانوا جاهلين وكافرين، فإنهم يثورون ضد دعاة التوحيد قائلين إن هؤلاء يسبون آباءنا، فاقتلوهم، وانهبوهم، واطردوهم من بلدكم؛ فإنا لن نتحمل الإساءة إلى آبائنا. فأعداء الحق يلجأون إلى هذا السلاح الخطير دائمًا، ولكن هذا السلاح لم يفلح في الدنيا أبدًا. بل إن الفطرة السليمة هي التي تتغلب عليه في كل عصر...

بعد أن قال موسى لفرعون إنما الجزاء بيد الله تعالى وحده الذي عنده علم كل شيء، فما يمكنني أن أخبرك عن مصير آبائك، حاول شرح الأمر له أكثر فقال ألا ترى كيف خلق الله الأرض خلقًا يستطيع به الإنسان الانتفاع بها إلى أقصى حد ممكن. ثم إنه تعالى جعل في الأرض سبلاً تمكّن الإنسان من السفر من قطر إلى آخر. وأنزل من السماء ماء تخرج به الأرض نباتها لكي تأكلوا أنتم ودوابكم أيضًا. فلم لا تدركون من هذه الظاهرة أن الله تعالى ينزل من السماء أيضًا الماء الروحاني، أي الوحي، ويخرج به علومًا روحانية شتى لكي ينتفع بها الناس من الطراز الأول، وغيرُهم أيضًا الذين هم كالأنعام كل بحسب قدره وكفاءته.

هنا يذكر الله تعالى مكرًا آخر لفرعون. فإنه لم يقل لموسى إنك تريد الإطاحة بعرشي لكي تتربع عليه أنت، بل عرض الأمر أمام القوم كقضية قومية فقال له: هل جئتنا لتطردنا بمكائدك من بلدنا؟ وهذا يعني أنه أراد إثارة الشعب وإلهاب الحماس فيهم ضد موسى حيث قال إنه يريد طردكم من أرضكم ليستولي على

الحكم. علمًا أن فرعون كان يحكم مصر في ذلك الوقت كما حكم الإنجليز الهند فترة من الزمن، لذلك رأى من الضروري أن يثير السكان الأصليين ضد موسى حتى يضفي على القضية طابعًا قوميًّا.

يبدو أن فرعون كان أكثر عدلاً من أهل مكة وكذلك من المشايخ والقسيسين في هذا العصر. ذلك لأنه حدد بالتشاور مع موسى الطَّيِّلاِ مكانًا للمناظرة لا يكون فيه خطر الشغب على موسى بل يتمتع بكل حقوقه. ولكن المشايخ أو القسيسين عندما يدعون خصمهم للمناظرة يدعونه إلى مكان يكثر فيه أتباعهم، وذلك لكي يثيروا الشغب ضد خصومهم ويوسعوهم ضربًا ولكمًا.

كان موسى الطَّيِّلاِ يريد أن تتم المناظرة في مكان يكون سويًّا للطرفين، لذلك قال ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ (طه: ٦٠).. والمراد من يوم الزينة يوم العيد. وكان ذلك يومًا مقدَّسًا لديهم لا يُعتدى فيه على أحد كأيام الحج المقدسة عند العرب. ثم إنه الطَّيِّلاِ حدد وقت الصباح وهو وقت جيد، إذ يكون الدماغ نشيطًا حينذاك ويستوعب الأُمور بسهولة، أما فيما بعد فيكون متعبًا لكثرة الأشغال، ويصعب عليه التركيز.

إن الأكثرية العظمى من الناس اليوم يرون، لسوء فهمهم، جوازَ استخدام الطرق غير المشروعة بكل أنواعها من أجل تحقيق هدف نبيل. والحق أن محاولة نيل هدف بطرق غير مشروعة تشكل بحد ذاها دليلاً على زيف ذلك المبدأ. هذه هي المكيدة التي لجأ إليها فرعون وأصحابه حيث حرضوا القوم على أن لا يدخروا وسعًا في اللجوء إلى كل مكيدة وخدعة وزيف بهدف التغلب على موسى. عليهم أن يستنـــزفوا كل مكر وتدبير في هذا السبيل بغض النظر عن كونه مشروعًا أم غير مشروع. استعدّ السحرة لمواجهة موسى الطَّيِّلاِ، وبالرغم من أن فرعون كان معهم وبرغم أهم كانوا مصابين بالكبر والغرور إلا أهم قالوا لموسى في أدب: هل أنت ستبدأ أم نحن نبدأ؟ وقد كتب صاحب "مثنوي رومي" أمرًا لطيفًا بهذا الصدد، فقال

إن أدب السحرة هذا هو الذي تداركهم، فإن الله تعالى الذي يعطي الجزيل على عمل بسيط قدّر عملهم هذا، ووفقهم للإيمان. (مثنوي مولوي معنوي ص ١٨٥).

يبدو من قوله تعالى ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ (طه: ٦٧)، أنه كان بداخل حبال السحرة وعصيهم الزئبق أو اللوالب المرنة، فكانت تتحرك نتيجة الضغط عليها. وهناك مخترعات مماثلة لذلك تُستورد من أوروبا في هذه الأيام بكثرة. ويبدو أن مثل هذه الصناعة كانت موجودة في مصر، وهي التي قد استعملها السحرة.

أي لما أحس موسى الخوف أوحى الله إليه أن ليس بداخل هذه الحبال والعصي إلا اللوالب وما شابه ذلك. فاضربها بعصاك بقوة، فتنكسر اللوالب بداخلها وتتوقف هذه عن الحركة. وهكذا سوف تلتهم عصاك حبالهم وثعابينهم التهامًا معنويًّا، أي ستكشف للناس شعوذتهم وخُدعتهم.

إن قوله تعالى ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ ملفت للنظر، حيث يبين أن هزيمة السحرة كانت واضحة جدًّا حتى بدا وكأن قوة غيبية قد نـــزعت الأرض من تحت أقدامهم، فخروا ساجدين. وبما أن هزيمتهم قد جعلتهم يوقنون بأن الله تعالى يؤيد موسى بنصره فما لبثوا أن قالوا ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ (طه: ٧١). لقد قال فرعون من قبل بكل كبرياء وغطرسة إني سأجمع سحرة هم أكثر حذقًا ومهارة من موسى، ولكن لما خر السحرة على قدمي موسى منهزمين استشاط فرعون غضبًا، وقال لهم إخفاءً للعار الذي لحق به، سوف أعاقبكم الآن لأنكم آمنتم من دون إذني.

كان السحرة قبل قليل يتسولون إلى فرعون، أما الآن فقد جعلهم الإيمان شجعانًا حتى إنهم وقفوا في وجه فرعون وقالوا لسنا لنطيعك الآن أبدًا، إنما نطيع أمر الله تعالى فقط. فغاية ما يمكن أن تفعله هو أن تقضي على حياتنا الدنيا. فافعَلْ ما بدا لك، فلا نبالي بذلك أبدًا. إننا مسرورون بأن الله تعالى قد هدانا بفضله إلى الحق، ولن تقدر قوة في الدنيا على ردنا إلى الكفر ثانية.

ويقول الله تعالى في مكان آخر ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (النمل: ١٣).. أي أن معجزة اليد البيضاء كانت من بين تسع آيات أريناها على يد موسى من أجل فرعون وقومه، ولكنهم لم ينتفعوا منها مطلقًا... وهي:

١- معجزة العصا.
٢- معجزة اليد البيضاء
٣- معجزة الطوفان
٤- معجزة الجراد
٥- معجزة القمل
٦- معجزة الضفادع
٧- معجزة الدم
٨- معجزة القحط والمجاعة.
٩- معجزة عبور البحر.

الهجرة من مصر:

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس: ٩٠).

وقوله تعالى (بَغْيًا) يعني أنه ما كان لفرعون أي حق قانوني لاضطهادهم، وقوله (عَدْوًا) يعني أنه لم يعد لديه أي حق أخلاقي كذلك.

وما نطق به فرعون عند الغرق يدل على غاية هوانه وتذلُّله. ذلك أنه لو قال "آمنتُ برب موسى" لا يكون قد تذلّل كثيرًا، لأن موسى عليه السلام كان قد تربى في بيته وكان يحظى لدى القوم بالتقدير والاحترام، ولكنه تاب عند الغرق قائلاً: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ (يونس: ٩١). وكأنما قال: إنني أؤمن برب صانعي اللَّبن هؤلاء، إذ كان يعاملهم باحتقار وازدراء شديدين، مسخِّرًا إياهم في أعمال الطين واللَّبن.

إن الإيمان إنما ينفع في حالات معينة، أما إذا تبين الحق وحصحص فلا قيمة للإيمان عندئذ، لأن الثواب إنما يترتب على ما يبذله الإنسان من جهد وتضحية لأمر ما، أما الأمر الذي لا يكلّف فهمه جهدًا ولا عناء فلا يثاب عليه بشيء.

إن الله تعالى يجزي الإنسان جزاءً حكيمًا. لقد آمن فرعون إيمانًا كان بمثابة قالب بدون روح، فجزاه الله ﷻ بحسب هذا، حيث نجّى بدنه دون الروح، ليصير عبرةً لمن بعده.

أما قوله تعالى ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ (يونس: ٩٣).. فاعلم أن القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الوحيد الذي يذكر نجاة جثة فرعون من الغرق، بينما التوراة لا تذكر شيئًا عن ذلك، ومثلُها كتب التاريخ. ومَن أصدق من الله قيلاً. فاليوم، وبعد مرور ثلاثة آلاف من السنين، قد عُثر على جثة فرعون "منفَتاح" صاحب موسى، وهي محفوظة الآنَ في المتحف المصري بالقاهرة. وقد رأيته بأُم عيني. إنها جثة شخص قصير القامة نحيف الجسم، تعلو وجهه ملامحُ الحَنَقِ والغضب والحمق. ما أبعد الشُقَّة الزَّمَنيّة بيننا وبينه، ومع ذلك فإن الله -جلّ شأنه- لم ينقذ جسمه من الفناء فحسب، بل أبقاه جثةً محفوظة إلى الآن، لتكون عبرة لمن بعده...

بنو إسرائيل وصحراء سيناء:

لما خرج بنو إسرائيل من مصر إلى كنعان اضطروا للمرور بمنطقة قاحلة جدًّا غير مسكونة تتخللها بعض المدن والقرى على مسافات بعيدة. ولا تزال هذه المنطقة هكذا، والمرور بها ليس بأمر هين. لا شك أن القطار يمر بها الآن، وسهل فيها السفر، إلا أن الأمر لم يتغير حتى الآن فيما يتعلق بكونها غير مأهولة لأنها خالية من الأراضي الصالحة للزراعة والإقامة. أرضها عبارة عن البراري التي لا زرع فيها ولا ماء.

بالاختصار، تبلغ صحراء سيناء من الخطورة والوعورة بحيث كان من العسير على الجماعات الكبيرة أيضًا أن تمر بها إلا باتخاذ تدابير استثنائية. أما الإقامة بهذه البرية فكانت أشد صعوبة. فالسؤال الذي يطرح نفسه هنا: أن بني إسرائيل الذين خرجوا من مصر متشردين بائسي الحال، والذين يقال أن عدد رجالهم، البالغين عشرين سنة والصالحين للخدمة العسكرية، قد وصل ست مئة ألف -علمًا أن هذا العدد قد ورد في التوراة (الخروج ١٢: ٣٧)، وهو خطأ بالبداهة، أما القرآن فيقول ﴿وَهُمْ

أُلُوفٌ﴾(البقرة: ٢٤٤)- كيف مروا بهذه البرية، ثم كيف أقاموا فيها قرابة ثمان وثلاثين سنة؟ هذا سؤال لا يزال يحير العالم على مر القرون.

لقد ردت التوراة على هذا التساؤل بأنهم مروا وعاشوا بهذه البرية نتيجة معجزة نـــزول المن وبأن اثنتي عشرة عينًا قد انفجرت دونهم في صخرة حوريب. تقول التوراة إن الله تعالى أعان هؤلاء المقهورين وهيأ لـــهم من فضله أسباب الطعام والشراب.

تعالوا لنرى الآن هل يوجد شيء في برية سيناء ينطبق عليه ما ورد في التوراة من وصف؟

لقد ذكر القرآن والحديث الحقائق التالية عن المن:

أولاً: يقول الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ (البقرة: ٢٤٤).

ثانيًا: يقول الله تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ (البقرة: ٥٨).

ثالثًا: عن سعيد بن زيد ﷺ قال قال رسول الله ﷺ: الكَمْأةُ من المنِّ" (البخاري: التفسير: باب قوله تعالى وظلّلنا عليكم الغمامَ وأنزلنا عليكم المن). وفي رواية أخرى عن أبي هريرة ﷺ "أن ناسًا من أصحاب النبي ﷺ قالوا: الكمأة جُدَرِيُّ الأرض. فقال النبي ﷺ: الكمأة من المنِّ" (الترمذي: أبواب الطب، باب ما جاء في الكمأة).

نعلم من الآيات والأحاديث المذكورة أعلاه ما يلي:

الأول: أن بني إسرائيل لم يخرجوا من مصر وهم ملايين بل كانوا ألوفًا.

الثاني: أن الأشياء التي قد هيأها الله لهم كطعام كانت تمثل غذاء عالي الجودة، و لم تكن من المواد الرديئة غذاءً وطعمًا.

الثالث: أن الأشياء التي تيسرت لهم كطعام لم تكن من نوع واحد، بل كانت أنواعًا شتى والكمأة واحدة منها.

والغريب أن المن مذكور في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع: في سورة البقرة، وسورة الأعراف، وسورة طه؛ وفي جميع هذه الأماكن قال الله تعالى ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ (البقرة: ٥٨)؛ مما يوضح جليًّا أن الله تعالى قال ذلك إبطالاً للظن أن ذلك الطعام كان من نوع واحد، أو مما تملّه الطبائع أو مما هو رديء في قيمته الغذائية.

إن ما فهمتُه في ضوء آيات القرآن والأحاديث المذكورة أعلاه إنما هو أن الله تعالى قد أنبت بفضله ورحمته في دشت سيناء الكمأة والترنجبين وغيرهما من الأشياء التي كانت تنمو بسرعة وتمدّ بني إسرائيل بالغذاء بلا تعب. كما جاءت طيور الزرزور وغيرها بكثرة لأن تلك المنطقة يكثر فيها الجراد، والزرازير تحب مثل هذه المناطق لأنها تأكل الجراد بشهية. وبما أن بني إسرائيل كانوا يجدون هذا الطعام بلا تعب فأطلق الله تعالى عليه اسم المن.. أي الطعام الذي هو منة إلهية بحتة. ولم يكن هذا الغذاء من نوع واحد، بل من أنواع مختلفة. ذلك لأن كلمات الحديث الشريف تدل دلالة واضحة على أن المن كان أنواعًا عديدة بيد أنه وُجدت في كل هذه الأنواع مشابهة، وهي أن بني إسرائيل ما كانوا يحصّلونها كادحين في أعمال الحراثة وما شابه ذلك. ولكن هذه الأغذية وطيور الزرزور التي أتت في البرية بكثرة كانت تصيب البطن بالإمساك، لذا أنبت الله تعالى لهم الترنجبين بكثرة، حيث كان تناوُلُه مع الأغذية الأخرى يحافظ على صحتهم. فمن الحقائق التي لا يحوم حولها الشك أن توفُّر المن هناك بهذه الكثرة في تلك الأيام كان معجزة من المعجزات، ولكن المن في حد ذاته هو من الأشياء المتوفرة في هذه الدنيا، وكان غذاء يمكن تناوله لمدة طويلة. كما خلق الله تعالى معه الترنجبين حتى يزيل الآثار الجانبية للطعام البري الجاف، ويحافظ على صحتهم.

هذا التفسير يرد على جميع الإشكالات والأسئلة مثل: كيف عاشوا على المن لهذه المدة الطويلة؟ وكيف كانوا يحصلون عليه طول السنة؟ وأن طعمه كان كطعم الزيت، وأنه كان يُخبز ويؤكل كأرغفة. ذلك لأن المن لم يكن اسمًا لشيء واحد، بل

هو اسم لمجموعة أشياء كثيرة. كما ليس في هذا التفسير ما يتعارض مع العقل؛ فإن الشعب الذي كان لا بد له من العيش في الصحراء من أجل المكاسب السياسية العليا كان بإمكانه أن يعيش على طير الزرزور وغيرها من الأطعمة. ثم إن عيش هذا الشعب في البرية بسهولة بالعدد الذي ذكره القرآن ليس بالأمر المستحيل.

عبور بني إسرائيل البحر:

...﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ (الشعراء: ٦٤)...

وقوله تعالى إشارة إلى معجزة أظهرها الله لموسى عندما كان يخرج ببني إسرائيل من مصر إلى الشام، وطاردهم فرعون مع جنوده لإعادتهم. وقد ورد في التوراة: "وَمَدَّ مُوسَى يَدَهُ عَلَى الْبَحْرِ، فَأَجْرَى الرَّبُّ الْبَحْرَ بِرِيحٍ شَرْقِيَّةٍ شَدِيدَةٍ كُلَّ اللَّيْلِ، وَجَعَلَ الْبَحْرَ يَابِسَةً وَانْشَقَّ الْمَاءُ. فَدَخَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي وَسَطِ الْبَحْرِ عَلَى الْيَابِسَةِ، وَالْمَاءُ سُورٌ لَهُمْ عَنْ يَمِينِهِمْ وَعَنْ يَسَارِهِمْ. وَتَبِعَهُمُ الْمِصْرِيُّونَ وَدَخَلُوا وَرَاءَهُمْ. جَمِيعُ خَيْلِ فِرْعَوْنَ وَمَرْكَبَاتِهِ وَفُرْسَانِهِ إِلَى وَسَطِ الْبَحْرِ. وَكَانَ فِي هَزِيعِ الصُّبْحِ أَنَّ الرَّبَّ أَشْرَفَ عَلَى عَسْكَرِ الْمِصْرِيِّينَ فِي عَمُودِ النَّارِ وَالسَّحَابِ، وَأَزْعَجَ عَسْكَرَ الْمِصْرِيِّينَ، وَخَلَعَ بَكَرَ مَرْكَبَاتِهِمْ حَتَّى سَاقُوهَا بِثَقْلَةٍ. فَقَالَ الْمِصْرِيُّونَ: نَهْرُبُ مِنْ إِسْرَائِيلَ، لأَنَّ الرَّبَّ يُقَاتِلُ الْمِصْرِيِّينَ عَنْهُمْ.
فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: مُدَّ يَدَكَ عَلَى الْبَحْرِ لِيَرْجِعَ الْمَاءُ عَلَى الْمِصْرِيِّينَ، عَلَى مَرْكَبَاتِهِمْ وَفُرْسَانِهِمْ. فَمَدَّ مُوسَى يَدَهُ عَلَى الْبَحْرِ فَرَجَعَ الْبَحْرُ عِنْدَ إِقْبَالِ الصُّبْحِ إِلَى حَالِهِ الدَّائِمَةِ، وَالْمِصْرِيُّونَ هَارِبُونَ إِلَى لِقَائِهِ. فَدَفَعَ الرَّبُّ الْمِصْرِيِّينَ فِي وَسَطِ الْبَحْرِ. فَرَجَعَ الْمَاءُ وَغَطَّى مَرْكَبَاتِ وَفُرْسَانَ جَمِيعِ جَيْشِ فِرْعَوْنَ الَّذِي دَخَلَ وَرَاءَهُمْ فِي الْبَحْرِ. لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ وَلاَ وَاحِدٌ. ٢٩وَأَمَّا بَنُو إِسْرَائِيلَ فَمَشَوْا عَلَى الْيَابِسَةِ فِي وَسَطِ الْبَحْرِ، وَالْمَاءُ سُورٌ لَهُمْ عَنْ يَمِينِهِمْ وَعَنْ يَسَارِهِمْ. فَخَلَّصَ الرَّبُّ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ إِسْرَائِيلَ مِنْ يَدِ الْمِصْرِيِّينَ. وَنَظَرَ إِسْرَائِيلُ الْمِصْرِيِّينَ أَمْوَاتًا عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ. وَرَأَى

إِسْرَائِيلُ الْفَعْلَ الْعَظِيمَ الَّذِي صَنَعَهُ الرَّبُّ بِالْمِصْرِيِّينَ، فَخَافَ الشَّعْبُ الرَّبَّ وَآمَنُوا بِالرَّبِّ وَبِعَبْدِهِ مُوسَى" (خروج ١٤: ٢١ و٣١).

لقد وردت هذه القصة في القرآن الكريم في مواضع أخرى أيضًا.. فجاء قوله: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾(الشعراء ٦٤)، وجاء أيضًا: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لاَ تَخَافُ دَرَكًا وَلاَ تَخْشَى* فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ* وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾(طه ٧٨-٨٠).

بالجمع بين كل هذه الآيات تبدو تفاصيل الحادثة كما يلي: كان بنو إسرائيل سائرين يريدون الأرض المقدسة. وعندما لحق بهم فرعون بجيشه أصابهم الهلع وظنوا أنهم مدركون. ولكن الله تعالى طمأنهم بأن أوحى إلى موسى أن يضرب البحر بعصاه ففعل. فتراجع الماء على الجانبين وظهر لهم طريق في البحر وتقدموا فيه، وكان الماء يمتد على الجانبين، فيتراءى لهم مرتفعًا كالتلال. وتبعهم فرعون وجنوده يطاردونهم. ولما وصل بنوا إسرائيل إلى الجانب الآخر سالمين تراجع الماء مرة أخرى وأغرق المصريون.

ولفهم هذا الحادث يجب أن نتذكر أن القرآن الكريم يعلمنا بأن كل المعجزات تكون من الله تعالى، ولا دخل و لا تصرف للإنسان فيها. فكان ضرب موسى البحر بعصاه بمثابة علامة لا غير، وليس معناه أنه كان لموسى أو لعصاه أي دخل في تراجع ماء البحر...

والمعجزة في هذا الحادث هي أن الله تعالى أتى ببني إسرائيل إزاء البحر في وقت الجَزْرِ، وما أن رفع موسى يده بالعصا لضرب البحر حتى بدأ الجَزْرِ وتراجع الماء. وعندما دخل فرعون مع جنوده البحر وقعت لهم من العوائق غير العادية أثناء العبور ما قلل سرعتهم كثيرًا، وكانوا لا يزالون في وسط البحر عندما أدركهم المَدَّ فغرقوا...

...انطلق فرعون مطاردًا بني إسرائيل بعد خروجهم من موطنهم بيوم على الأقل، ولذلك سبقوه إلى ساحل البحر حيث كان الجَزْرُ قد بدأ. ثم لما لحوا جيش فرعون قريبًا منهم دخلوا الطريق الخالي من الماء وقطعوا معظمه. ولما وصل فرعون إلى الساحل اندفع بجيشه وراءهم مع مركباته.

وتسببت الأرض الرخوة في تأخير مسيرة فرعون، إذ غاصت مركباته فيه وتعطلت. ولقد استغرق ذلك وقتًا طويلاً تمكن بنوا إسرائيل أثناءه من الخروج من المنطقة، وخلفوا جيش فرعون وراءهم. وفاجأ المد جيش فرعون وزاد في ارتباكه فلم يستطع أن يتقدم أو يتأخر. وفي النهاية أغرق الماء معظم جيشه معه. وبسبب اندفاع الماء خرجت جثثهم على الساحل فيما بعد. وقد أسلفت الرد على من يسأل: إذا كان موسى قد استفاد من ظاهرة المد والجزر، فأين المعجزة؟ وقلت أن المعجزة هي أن الله تعالى أتى به عند ساحل البحر في وقت بداية الجَزْرِ...

الإيمان الضعيف لقوم موسى عليه السلام:

قال الله تعالى لموسى أنت مشتاق للقائنا هذا الشوق الشديد، وأما قومك فإنهم ما إن تركتَهم وجئت إلينا حتى وقعوا في خدعة السامري. فرجع موسى إلى قومه في غضب وأسف شديدين، وقال لهم ألم يعدكم ربكم وعدًا عظيمًا.. ألم يدعُ ربكم نبيكم ليشرفه بكلامه؟ هل كان إيمانكم ضعيفًا لدرجة أنه ضاع في هذه الفترة القصيرة؟ أم أنكم تريدون أن يحل عليكم الغضب من ربكم فنسيتم الله تعالى في هذه الفترة القصيرة، وخالفتم ما عاهدتموني عليه من الطاعة لأوامري؟ قالوا لم نخالف عهدنا برغبتنا، وإنما الواقع أن مجوهرات قوم فرعون كانت قد وُضعتْ علينا عند الخروج من مصر، وكنا قد ألقيناها جانبًا بعد أن غادرتنا، وقد فعل السامري أيضًا مثلما فعلنا، ولكنه أخذها فيما بعد وأذابها وصاغ منها عجلاً لا حياة فيه ويخرج منه صوت لا معنى لـــه. فقال للقوم إن هذا إلهكم وإله موسى في الحقيقة، ولكنه نسيه من شدة شوقه للذهاب إلى الجبل.

يبدو من قولهم أن هذه الحلي والمجوهرات قد أعطاهم المصريون إياها بأنفسهم. ولكن التوراة تقول أن بني إسرائيل استعاروا أواني الذهب والفضة من المصريين، ثم سلبوهم إياها، وأن المصريين أيضًا ما زالوا يعطونهم إياها لأنهم أرادوا خروج هؤلاء من بينهم حتى لا يهلكوا بسببهم. ورد في التوراة: "وَفَعَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِحَسَبِ قَوْلِ مُوسَى. طَلَبُوا مِنَ الْمِصْرِيِّينَ أَمْتِعَةَ فِضَّةٍ وَأَمْتِعَةَ ذَهَبٍ وَثِيَابًا. وَأَعْطَى الرَّبُّ نِعْمَةً لِلشَّعْبِ فِي عُيُونِ الْمِصْرِيِّينَ حَتَّى أَعَارُوهُمْ. فَسَلَبُوا الْمِصْرِيِّينَ" (الخروج ١٢: ٣٥-٣٦).

وكأن التوراة تتهم موسى عليه السلام بأن بني إسرائيل سألوا المصريين حلي الذهب والفضة والثياب وسلبوهم بأمر من موسى. ولكن القرآن الكريم يفنّد ذلك ويقول إنهم لم يطلبوا من المصريين الحلي، بل إن المصريين أنفسهم أعطوهم إياها. والعقل يصدق هذا البيان، لأن النبي لا يكون من الصعاليك واللصوص. ولكن التوراة من جهة تعد موسى عليه السلام نبيًّا، ومن جهة أخرى تعده لصًّا. والحق أن الشهادة الداخلية للتوراة نفسها تبطل هذه التهمة تمامًا...

فهذا هو مثل قوم موسى عليه السلام، حيث قالوا لـــه إننا لم نخالف عهدنا معك برغبتنا، وإنما اضطُررنا لذلك اضطرارًا. لقد وُضع علينا عبءُ حلي قوم فرعون، فرميناه بعيدًا، وكذلك ألقاه السامري؛ ولكنه صاغ فيما بعد من هذه الحلي عجلاً رائعًا لـــه صوت. فلم نتمالك أنفسنا، وأخذنا نعبده. فما ذنبنا في ذلك؟ إن واقعة السامري هذه تكشف لنا حقيقة ما فعله السحرة أيضًا، حيث تدل على شيوع مثل هذه الخدع والشعوذة بينهم، وأنهم كانوا يصنعون اللعب الميكانيكية.

الواقع أن قوم موسى عليه السلام كانوا قادمين من مصر، وكان قوم فرعون يعبدون العجل بكثرة، بل كان أكبر معبد في مصر هو معبد العجل حيث كانوا يضعون فيه عجلاً لا شيّة فيه ولا عيب. فقد ورد أن العجل كان يحتل الصدارة بين قائمة الحيوانات التي كان المصريون يعبدونها. فكلما مات عجلهم المعبود بحثوا عن بديل لـــه. وإذا وجدوا عجلهم المنشود في قطيع من القطعان أكرموا صاحب القطيع

إكرامًا عظيمًا، كما كانوا يجازون من يعثر على مثل هذا العجل بمكافأة ضخمة (موسوعة الأديان مجلد١ ص ٥٠٧: Animals).

وورد في مصدر آخر أنه كان عجلاً مقدسًا وكان المصريون القدامى يعبدونه. كانوا يحتفلون بيوم ميلاده كعيد قومي، وكان يوم موته يوم مأتم قومي، وكانوا يستمرون في إقامة المآتم لــه إلى أن يعثروا على عجل جديد فيه كل تلك المواصفات التي تدل في زعمهم على كونه مظهرًا لله تعالى.

(New Standard Dictionary, v. 1 : Apis)

فبما أن عبادة العجل كانت شائعة بين قوم فرعون فكانت الأفكار الوثنية هذه قد تسربت في بني إسرائيل أيضًا بحكم كونهم خاضعين لحكم المصريين. فاستغل السامري غياب موسى عن قومه، ودفعهم إلى الشرك، فشرعوا ينظرون إلى العجل نظرة إجلال وتعظيم. كان السامري كافرًا في الحقيقة، فاستغل ضعف إيمان قومه، وقال لهم أعطوني حليكم أصنع بها وبما عندي من الذهب عجلاً لكم كعجل المصريين. فابتهجوا باقتراحه، لأنهم ورثوا تعظيم العجل من المصريين. والثابت تاريخيًّا أن العجل أكبر صنم في مصر، كما أنه من الثابت تاريخيًّا أن أهل البلاد الزراعية كانوا يعتبرون البقر إلهًا.

يخبرنا الله تعالى هنا أن السامري قد ركّب العجل تركيبًا يحدث منه صوت لا معنى لــه. ويبدو أنه صنعه بحيث كان الهواء يمر من خلفه ويخرج من فمه محدثًا صوتًا كالصفارة. فانخدع به اليهود السذج، الذين كانوا عبيدًا لقوم فرعون ومتأثرين بدينهم، فظنوا أن موسى، الذي كان يقول إن الله يكلمه، كان عنده عجل كهذا في الواقع، فكان يتفاءل بصوته.

يتضح أن هارون عليه السلام لم يشترك مع القوم في الشرك، بل قد منعهم منه بكل صرامة. ولكن التوراة تزعم أنه كان شريكًا معهم في هذا الشرك. فقد جاء فيها:

"وَلَمَّا رَأَى الشَّعْبُ أَنَّ مُوسَى أَبْطَأَ فِي النُّزُولِ مِنَ الْجَبَلِ، اجْتَمَعَ الشَّعْبُ عَلَى هَارُونَ وَقَالُوا لَهُ: قُمِ اصْنَعْ لَنَا آلِهَةً تَسِيرُ أَمَامَنَا، لأَنَّ هذَا مُوسَى الرَّجُلَ الَّذِي أَصْعَدَنَا

مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، لاَ نَعْلَمُ مَاذَا أَصَابَهُ. فَقَالَ لَهُمْ هَارُونُ: انْزِعُوا أَقْرَاطَ الذَّهَبِ الَّتِي فِي آذَانِ نِسَائِكُمْ وَبَنِيكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَاتُونِي بِهَا. فَنَزَعَ كُلُّ الشَّعْبِ أَقْرَاطَ الذَّهَبِ الَّتِي فِي آذَانِهِمْ وَأَتَوْا بِهَا إِلَى هَارُونَ. فَأَخَذَ ذلِكَ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَصَوَّرَهُ بِالإِزْمِيلِ، وَصَنَعَهُ عِجْلاً مَسْبُوكًا. فَقَالُوا: هذِهِ آلِهَتُكَ يَا إِسْرَائِيلُ الَّتِي أَصْعَدَتْكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ" (الخروج ٣٢: ١-٤).

ثم تقول التوراة إن هارون جعل للعجل مذبحًا، واعتبره إلهًا لبني إسرائيل، حيث ورد: "فَلَمَّا نَظَرَ هَارُونُ بَنَى مَذْبَحًا أَمَامَهُ، وَنَادَى هَارُونُ وَقَالَ: غَدًا عِيدٌ لِلرَّبِّ. فَبَكَّرُوا فِي الْغَدِ وَأَصْعَدُوا مُحْرَقَاتٍ وَقَدَّمُوا ذَبَائِحَ سَلاَمَةٍ. وَجَلَسَ الشَّعْبُ لِلأَكْلِ وَالشُّرْبِ ثُمَّ قَامُوا لِلَّعِبِ" (المرجع السابق: ٥-٦).

إن كل إنسان عنده مسحة من العقل ليدرك أن مَن يكلّمه الله تعالى يستحيل أن يتخذ العجل إلهًا. فمثلاً هل يمكن لشخص يكلّم أخاه يوميًا أن يعتبر ابن آوى أخًا لـــه؟ ولكن الغريب أن التوراة، التي يقال عنها أنها نزلت على موسى، تقول أن هارون اشترك مع قومه في هذا العمل الوثني؟

لقد تبين من ذلك أنه لا ينبغي لنا أن نستهين بالفتن الداخلية أبدًا، بل يجب التصدي لها بكل ما أوتينا من قوة، لأنها هي الفتن المدمرة. فمهما يكن القوم قلة فإن العدو لا يقدر على القضاء عليهم إذا لم تكن بينهم فتنة داخلية. ولكن إذا ما نشبت الفتنة الداخلية صار القوم عرضة للهلاك.

...ذكر هارون عليه السلام عذره الحقيقي لموسى عليه السلام فقال لـــه لقد نهيت القوم بشدة عن عبادة العجل، ولكني لم أشدد عليهم مخافة أن يتمردوا أو أن تتهمني أنت بأني قد شتتتُ شمل القوم حيث لم أنتظر أوامرك، أو لم أرعَ وصيتك بالحفاظ على الأمن والسلام.

سأل موسى السامريَّ: لماذا فعلت هكذا؟ قال يا موسى إن قومك أغبياء، وأنا ذكي. إنهم لم يروا فيك ما رأيته.. أي أنهم قد آمنوا بك ولكني لم أؤمن بك في الحقيقة، بل آمنت ببعض وكفرت ببعض لكي ينخدع القوم ويتخذوني زعيمًا لهم.

ثم لما رأيت أن إيمانهم قد تزعزع بعد غيابك على الجبل رميت ما آمنتُ به من تعليمك عرض الحائط. لقد سوّلتْ لي نفسي من قبل أن أؤمن ببعض تعليمك فآمنت، ثم سولت لي أن أكفر به فكفرت، فلما رأيت قومك مائلين إلى الشرك صنعت لهم عجلاً لكي يتخذوني سيدًا عليهم.

فقال لـــه موسى لقد فعلت هذا لتنال العزة والسيادة، وليس جزاؤك الآن إلا أن تلقى الخزي والهوان بين القوم. فعقابك أن تنادي بين بني إسرائيل كلما مررت بهم: لا يمسَسْني أحد لأن موسى قد نهاكم عن الارتباط بي كلية. واعلم أن عقابك هذا سيستمر طيلة حياتك. وهذا عقابك في الدنيا، وهناك عقاب آخر أيضًا ولا بد أن ينالك.

لقد أعلن القرآن الكريم هنا أن التفصيل الذي ذكرناه لهذه الواقعة هو الحق، وأن التفصيل الذي ورد في الإسرائيليات هو الباطل، فإن الله تعالى هو الذي قد أنزل القرآن، وهو العليم بكل شيء.

لقد ذكر المفسرون هذا الحدث بناء على الإسرائيليات وقالوا أن الرسول المذكور في قوله تعالى ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ (طه: ٩٧) هو جبرائيل وليس موسى، وأن لفظ الأثر هنا إنما هو بمعنى أثر الأقدام (الدر المنثور)، وليس الأثر هنا بمعنى الحديث كما ورد في القواميس؛ فقال السامري لموسى كنتُ أرى جبرائيل حين يأتيك، ولكن قومك لم يروه، وذات يوم أخذت التراب من تحت قدمي جبريل، وحينما صنعت العجل أذبتُ الذهب وخلطتُه بهذا التراب؛ فبدأ العجل يتكلم.

إن هذه القصة خاطئة وباطلة بالبداهة لعدة أسباب وهي: أولاً، لو صح هذا الزعم فما كانت هناك حاجة لأن يقول الله تعالى لرسوله الكريم ﷺ هكذا نقص عليك من أخبار الماضي، ونفصّل لك الحقيقة من عندنا؟ ما دامت الحقائق كلها مذكورة في الكتب السابقة، كما يريد أن يؤكد المفسرون بتصرفهم هذا، فما الداعي لمثل هذا الإعلان الرباني.

وثانيًا، إن المفسرين السذج عندنا هم الذين يمكنهم أن يصدّقوا أن كبار المؤمنين بموسى لم يتمكنوا من رؤية جبريل، في حين أن السامري الكافر قدر على رؤيته.

وثالثًا، إنه من السذاجة بمكان القول أن العجل بدأ يتكلم حين خُلط الذهب بتراب قدمي جبرائيل! الحق أن الصواغين البسطاء أيضًا يدركون أنه لو كان التمثال فارغًا من الداخل، وكان به ثقبان، ثقبٌ في فمه وثقب في خلفه، وتكون في الثقب الأمامي ستائر خشبية كما تكون في الناي، فإذا دخل الهواء من خلفه صوّت من ثقبه الأمامي، كما هو الحال في الناي والصفارة.

فالحق أن الأمر الواقع هو ما ذكرناه، وهو مطابق للكلمات القرآنية. أما المفسرون فقد أخطأوا، حيث صدّقوا الإسرائيليات أولاً، ولم يتدبروا في اللغة ثانيًا. ولو أنهم تدبروا اللغة لأدركوا أن الأثر يعني الحديث أيضًا، وأن الرسول هنا هو نفس الرسول الذي سبق ذكره، وليس جبريل.

مواعدة الله ﷻ لموسى عليه السلام:

﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىَ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجلَ مِن بَعدِهِ وَأَنتُم ظَالِمونَ﴾ (البقرة: ٥٢).

تذكر هذه الآية إحسانًا إلهيًا آخر تنكّر له بنو إسرائيل في زمن موسى عليه السلام، ولم يألوا جهدًا في تبديله من إحسان إلى عذاب. أمر الله تعالى موسى أن يخلو للعبادة في جبل كان في طريقهم إلى كنعان، ويتلقى بعض توجيهات منه تعالى. فذهب إلى الجبل. ولكن بني إسرائيل أحسوا بعد أيام أن غيبته طالت عليهم وظنوا أنه مات أو تعرض لمكروه. فصنعوا تمثال عجل من حلي كانت معهم، وقالوا هذا إلهنا، وعكفوا على عبادته. وأخبر الله تعالى موسى بما فعل قومه وأمره أن يسرع إليهم.

يبين القرآن سبب قلق بني إسرائيل، ويذكر أن موسى كان قد أُمر في البداية بالخلوة على الجبل لمدة ثلاثين ليلة، ولا بد أنه يكون قد أخبر قومه بهذه المدة، ثم زاد

الله تعالى عشر ليالٍ أخرى تكميلاً للإحسان إلى موسى، إذ أن عدد الأربعين يدل على الكمال في العالَم الروحاني، وبسبب هذه الزيادة في الليالي أصاب قومه القلق، ولعل بعضهم ظن أنه قد مات، أو خذلهم هروبًا من تحمل مشاق السفر ومخاوف الطريق. ونظرًا لحداثة عهدهم بالإيمان تأثروا بمن حولهم من الأقوام الوثنية وصنعوا صنمًا يعبدونه. ولكن التوراة لا تبين سبب ما أصابهم من قلق.

يصرح القرآن أن هارون عليه السلام لم يقع في هذا الشرك، وإنما هم الذين ارتكبوه، وحاول هارون بكل جهد منعهم منه. أما التوراة فهي لا تكتفي بتوريط هارون النبي في هذا العمل الوثني، بل تقول إنه قَبِلَ طلبهم بلا تردد، ولم يصنع العجل لهم فحسب، وإنما حرّضهم ودعاهم إلى عبادته. فلا حول ولا قوة إلا بالله!. إن رواية التوراة هذه مخالفة للمنطق بحيث لا يمكن أن يقبله أي عاقل ولا للحظة واحدة ..لأن معنى ما تقوله التوراة أن النبي الذي تعود على سماع كلام الله تعالى ألّه تمثالاً بلا حياة، لا يضر ولا ينفع، وعبده بنفسه وحث قومه على عبادته! ومن يقبل مثل هذا الهراء السخيف سوى قساوسة النصارى وأحبار اليهود ..الذين ختموا بالرصاص على آذان عقولهم لتصديق كل ما ورد في أسفارهم من رطب ويابس؟!.ويبدو أن السامري الذي صنع هذا التمثال كان مشركًا بقلبه، وكان حريصًا على أن يرتد بنو إسرائيل إلى حمأة الشرك، ولعله كان صائغًا فصاغ بنفسه أو مستعينًا بمن على شاكلته من الصائغين تمثالاً عاديًا...

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ﴾ (البقرة: ٥٦).

من عادة المتعنتين أنهم عندما يعجزن أمام الأدلة والبراهين يشترطون شروطًا سخيفة لا يقصدون بها إلا التهرب من مواجهة الحقيقة. في أيامنا هذه أيضًا هناك الكثيرون الذين إذا أثبت لهم وجود الله تعالى بالبراهين قالوا: لن نؤمن به ما لم نره بأعين رؤوسنا. لقد طالبت طائفة من بني إسرائيل سيدنا موسى بمثل هذه المطالبة. ولقد سكتت التوراة عن ذكرها ولكنها مطالبة عامة تصدر من معارضي الحق في

كل زمن، وهذه حقيقة لا يمكن أن يذكرها مخالفو القرآن المجيد. ولما كان القرآن يدعي بكونه وحيًا إلهيًا فليس ضروريًا أن يتقيد بما ذكرته التوراة ولا يضيف إليه جديدًا.

وهناك تساؤل: عندما طالب بنو إسرائيل برؤية الله تعالى جهرة أخذهم الصاعقة، ولكن موسى قد سبق وطالب: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ (الأعراف: ١٤٤)، فلم ينزل عليه غضب الله...لماذا؟

والجواب أن موسى طلب ذلك عن حُب شديد، أما بنو إسرائيل فقد طالبوا بذلك كشرط لطاعتهم، وقالوا: ما لم نره عيانًا فلن نؤمن لك. وهذه مطالبة صدرت عن وقاحة وسوء أدب وشر، ولذلك عوقبوا. ولو أنهم سألوا ذلك بعد قبول الحق، كما فعل موسى، ما نزل بهم العقاب.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (البقرة: ٥٦). الصاعقة هي العذاب لغة. ويدل التأمل العميق في هذه الكلمة على أنها تطلق على عذاب مصحوب بصوت شديد جدًا كعذاب الزلازل والرعود والعواصف. وأحيانًا تعني الصاعقة الموت والإغماء لأنهما مصاحبتان لهذه الكوارث عادة، ولكن المعنى الأصلي للكلمة هو ما ذكر. وقد استُعملت الصاعقة في القرآن في أكثر الأحيان بمعنى العذاب. وفي هذه الآية أيضًا وردت بمعنى العذاب.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون﴾ (البقرة: ٥٧).

وذلك يعني، في ضوء ما سبق من الكلام، أننا نهضنا بكم بعد ذلتكم وهوانكم وجعلناكم معززين مكرمين؛ لأن قوله تعالى في الآية السابقة: (وأنتم تنظرون) يدل على أنهم لم يموتوا بمعنى نهاية حياتهم، بل ماتوا معنويًا. فالآية تعني: لقد أزلنا عنكم عذابنا، وتوجهنا إليكم بفضلنا ورحمتنا، وبدّلنا حالة الموت التي كنتم فيها بسبب عذابنا إلى حياة طيبة ماديًا وروحيًا.

لقد ذهب بعض المفسرين إلى أن الموت هنا يعني مفارقة الروح للجسد لبعض الوقت لا موتًا حقيقيًا. فقد كتب القرطبي عن المفسر المعروف قتادة: ماتوا وذهبت

أرواحهم ثم رُدّوا لاستيفاء آجالهم. وقد ذكر ابن كثير نفس القول عن ربيع بن أنس. وقال غيره: ماتوا موت همود يعتبر به الغير ثم أُرسلوا. وقال البعض: معناه علمناكم من بعد جهلكم (تفسير القرطبي)..أي أن روحانيتكم ماتت بسؤالكم رؤية الله جهرة فترل عليكم سخطه، ثم عفا عنكم، ووهبك هداية روحانية، فعادت إليكم الحياة الروحانية، وهذا المعنى الأخير قريب جدًا مما ذهبنا إليه.

بركات الله ﷻ لبني إسرائيل:

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمْ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (البقرة: ٥٨).

ورد في التوراة: (وَمَتَى ارْتَفَعَت السَّحَابَةُ عَنِ الْخَيْمَة كَانَ بَعْدَ ذلكَ بَنُو إِسْرَائيلَ يَرْتَحلُونَ، وَفي الْمَكَان حَيْثُ حَلَّت السَّحَابَةُ هُنَاكَ كَانَ بَنُو إِسْرَائيلَ يَنْزلُونَ. حَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ كَانَ بَنُو إِسْرَائيلَ يَرْتَحلُونَ، وَحَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ كَانُوا يَنْزلُونَ. جَميعَ أَيَّام حُلُول السَّحَابَة عَلَى الْمَسْكَنِ كَانُوا يَنْزلُونَ. وَإِذَا تَمَادَت السَّحَابَةُ عَلَى الْمَسْكَنِ أَيَّامًا كَثيرَةً كَانَ بَنُو إِسْرَائيلَ يَحْرُسُونَ حرَاسَةَ الرَّبِّ وَلاَ يَرْتَحلُونَ. وَإِذَا كَانَت السَّحَابَةُ أَيَّامًا قَليلَةً عَلَى الْمَسْكَنِ، فَحَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ كَانُوا يَنْزلُونَ، وَحَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ كَانُوا يَرْتَحلُونَ. وَإِذَا كَانَت السَّحَابَةُ منَ الْمَسَاء إِلَى الصَّبَاحِ، ثُمَّ ارْتَفَعَت السَّحَابَةُ في الصَّبَاحِ، كَانُوا يَرْتَحلُونَ. أَوْ يَوْمًا وَلَيْلَةً ثُمَّ ارْتَفَعَت السَّحَابَةُ كَانُوا يَرْتَحلُونَ. أَوْ يَوْمَيْنِ أَوْ شَهْرًا أَوْ سَنَةً، مَتَى تَمَادَت السَّحَابَةُ عَلَى الْمَسْكَنِ حَالَّةً عَلَيْه، كَانَ بَنُو إِسْرَائيلَ يَنْزلُونَ وَلاَ يَرْتَحلُونَ. وَمَتَى ارْتَفَعَتْ كَانُوا يَرْتَحلُونَ. ٢٣حَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ كَانُوا يَنْزلُونَ، وَحَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ كَانُوا يَرْتَحلُونَ" (الْعَدَد ٩ : ١٧-٢٣).

يتبين من هذه الفقرة أن السُّحب كانت تُظل مكانًا يريد الله تعالى أن يترلوا فيه أثناء عبورهم سيناء، وإذا أراد سفرهم أظلّتهم مرة أخرى في السفر. ولكن سياق القرآن وكلماته تبين أن المراد من ظلال الغمام هو المطر..لأن السحب الداكنة المظلمة ممطرة عمومًا. وبيان القرآن، كما هي عادته، تصحيح لبيان التوراة، لأن

وصف التوراة للسُحب غير ضروري وغير معقول. فأي داع لإحاطة بني إسرائيل بالسحب لتوجيههم إلى المكان المناسب لإقامتهم؟ كان يكفي أن يوحى الله تعالى لموسى ويخبره بذلك.

لقد ذكر القرآن إلى جانب الغمام المنّ والسلوى، ومن هذا يتبين أن تلك الفيافي المجدبة كان يعوزها الطعام والماء. فكان الله تعالى يطفئ عطشهم بالسحب الداكنة الممطرة، ويزيل جوعهم بالمن والسلوى. إن من عادة الله المستمرة أنه يَمُنُّ على عباده ببركات خاصة ليدرأ عنهم الأذى ويهيء لهم الراحة. وما فعل الله هذا في الماضي فقط بل يفعله اليوم أيضًا مع عباده الصالحين. فلا يصح أن يراد بظلال الغمام أن الله تعالى كان يأمر السحاب لتتحرك معهم لتظلهم دائمًا حيثما حلوا وارتحلوا ..إذ أن ظلال السحب المستمر نقمة لا نعمة.

ورد في التوراة: (وَفِي الصَّبَاحِ كَانَ سَقِيطُ النَّدَى حَوَالَي الْمَحَلَّة. وَلَمَّا ارْتَفَعَ سَقِيطُ النَّدَى إذَا عَلَى وَجْه الْبَرِّيَّة شَيْءٌ دَقيقٌ مثْلُ قُشُور. دَقيقٌ كَالْجَليد عَلَى الأَرْض. فَلَمَّا رَأَى بَنُو إسْرَائيلَ قَالُوا بَعْضُهُمْ لبَعْض: مَنْ هُوَ؟ لأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرفُوا مَا هُوَ. فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: هُوَ الْخُبْزُ الَّذي أَعْطَاكُمُ الرَّبُّ لتَأْكُلُوا" (اَلْخُرُوجُ ١٦ : ١٣-١٥).

أما السلوى فيه أيضًا خاص وعام كالمّن. فالعام منها كل ما يسليك، والخاص طير يشبه السماني، والعسل أيضًا. ورد في التوراة: (فَخَرَجَتْ ريحٌ منْ قبَلِ الرَّبِّ وَسَاقَتْ سَلْوَى منَ الْبَحْر وَأَلْقَتْهَا عَلَى الْمَحَلَّة، نَحْوَ مَسيرَة يَوْمٍ منْ هُنَا وَمَسيرَة يَوْمٍ منْ هُنَاكَ، حَوَالَي الْمَحَلَّة، وَنَحْوَ ذرَاعَيْنِ فَوْقَ وَجْه الأَرْض. فَقَامَ الشَّعْبُ كُلَّ ذلكَ النَّهَار، وَكُلَّ اللَّيْلِ وَكُلَّ يَوْمِ الْغَد وَجَمَعُوا السَّلْوَى. الَّذي قَلَّلَ جَمَعَ عَشَرَةَ حَوَامرَ. وَسَطَّحُوهَا لَهُمْ مَسَاطحَ حَوَالَي الْمَحَلَّة. وَإذْ كَانَ اللَّحْمُ بَعْدُ بَيْنَ أَسْنَانهِمْ قَبْلَ أَنْ يَنْقَطعَ، حَميَ غَضَبُ الرَّبِّ عَلَى الشَّعْب، وَضَرَبَ الرَّبُّ الشَّعْبَ ضَرْبَةً عَظيمَةً جدًّا. فَدُعيَ اسْمُ ذلكَ الْمَوْضعِ «قَبْرُوتَ هَتَّأَوَة» لأَنَّهُمْ هُنَاكَ دَفَنُوا الْقَوْمَ الَّذينَ اشْتَهَوْا"(اَلْعَدَد ١١ : ٣١-٣٤).

كان بنو إسرائيل قد عاشوا عبيدًا تحت الفراعنة لمدة طويلة، فأراد الله تعالى أن يعيشوا في البرية أحرارا لزرع أخلاق الجرأة والشجاعة فيهم. فبدلاً من أن يُبلغهم كنعان في وقت قصير تركهم مُدّةً في صحراء سيناء وما حولها من الأماكن، وهيأ لهم هناك أغذية بدون جهد وتعب من جانبهم، منها ما هو حلو ومنها ما هو مالح ومنها ما هو صلب ومنها ما هو ليّن ومنها ما يُطهى ومنها ما يؤكل نيئًا..في تنوع يرضي شتى الأذواق، ويسد الجوع، ويغذي الجسم، ويحفظ الصحة. فبالغمام هيأ الله تعالى لبني إسرائيل الماء، وبالمن وفّر لهم غذاء من الفاكهة والخضر، وبالسلوى زودهم باللحم والعسل وغيرها من المأكولات التي تسلي القلب.

وكلمة ﴿أنزلنا﴾ جديرة بالتأمل. فلا يعني هذا أن الله تعالى أنزل المن والسلوى من السماء، وإنما كانت مما ينمو على الأرض. واستخدم لها كلمة: (أنزلنا) لأنه تعالى هيأها لبني إسرائيل في ظروف غير عادية. فالنزول يدل على الإعزاز والإكرام، أو توفير شيء في أحوال صعبة. وعلى الذين يقعون بسبب كلمة (النزول) في أنواع الأخطاء في مسألة نزول المسيح المنتظر أن يتدبروا وينتبهوا إلى هذه الأساليب القرآنية. فإذا كان إطلاق كلمة النزول على المنّ والسلوى وهما من نتاج الأرض ممكنًا فكيف لايجوز استخدام النزول لمجيء المسيح المنتظر الذي خُلِقَ على الأرض. الحق أن ظهور نفس طاهرة مُصلحة في مثل هذا الزمن المشحون بأنواع الفسق والفجور ..يسمى نزولاً في الاصطلاح الإلهي، وقد ورد للمسيح الموعود أيضًا بنفس المعنى.

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ يشير إلى أن هذه الأغذية بالغة الفائدة لكم في هذه الظروف، وسوف تسد حاجاتكم من الطعام والشراء. فالطيب يعني اللذيذ، الطاهر، الحسن، الحلو، الممتاز.. وهذا يعني أن ما رزقناكم به من غذاء يكفل لكم لذة الطعم، ويساعد على صلاح أخلاقكم، وهو حسن حلو ممتاز في قيمته ومنافعه، فكلوا منه، وتخلقوا بمحاسن الأخلاق، واستعدوا للمهمة الجليلة التي تنتظركم.

ولا يعني قوله تعالى أن الطيبات التي نزلت على موسى وقومه من المن والسلوى هي الطيبات فقط، بل إن كل كلمة، مدحًا كانت أو ذمًا، تعطي معنى نسبيًا؛ فالشيء الذي يكون في وقت مفيدًا، أو لشخص مفيدًا.. فإنه يكون ضارًا في وقت أو لشخص آخر، والعكس صحيح أيضًا. فالأشياء التي أُعطيت لبني إسرائيل، وإن كانت من الطيبات بوجه عام، ولكنها نظرا لظروفهم عندئذ كانت طيبات لهم بوجه خاص، واستبدال أغذية أخرى بها لم يكن ليحقق الغرض الذي من أجله تركهم الله تعالى في صحراء سيناء.

ويبدو من عبارة التوراة التي أوردناه سابقا (عدد١١:٣١ إلى ٣٤) أن قدوم طير السماني كان بمثابة عذاب لبني إسرائيل، لأن غضب الله نزل عليهم قبل أن يمضغوا أول لقمة من لحمه. ولكن القرآن الكريم يقول على عكس ذلك.. بأن هذا الطير جاء نعمة وإحسانًا لهم. والحق أن ما يقوله القرآن هو الصواب، لأن توفير الغذاء في البيداء، ثم إنزال العذاب بسبب جمعه وأكله يُعدُّ ظلمًا. فلو كان الله تعالى نبّههم من قبل بأن طيور السماني ستأتيكم فلا تأكلوها لكان هناك مبرر للغضب عليهم، أو إذا كان السماني حرامًا أكله على بني إسرائيل لاستحقوا العقاب؛ ولكن لم يكن عندهم أي حرمة لها. فإذا كانوا وجدوا شيئًا حلالاً وأرادوا أكله فأي مبرر للغضب والعذاب الذي ملأ الأرض بقبورهم؟ إنه لظلم عظيم، والله ليس بظلام للعبيد.

والحق أن التوراة في موضع أخرى نَفَتْ كون طيور السماني نقمة وقالت: (فَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائلاً: سَمِعْتُ تَذَمُّرَ بَني إسْرَائيلَ. كَلِّمْهُمْ قَائلاً: في الْعَشيَّة تَأْكُلُونَ لَحْمًا، وَفي الصَّبَاحِ تَشْبَعُونَ خُبْزًا، وَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ إلَهُكُمْ. فَكَانَ في الْمَسَاءِ أَنَّ السَّلْوَى صَعدَتْ وَغَطَّت الْمَحَلَّةَ. وَفي الصَّبَاحِ كَانَ سَقيطُ النَّدَى حَوَالَي الْمَحَلَّة. وَلَمَّا ارْتَفَعَ سَقيطُ النَّدَى إذَا عَلَى وَجْه الْبَرِّيَّة شَيْءٌ دَقيقٌ مثْلُ قُشُورٍ. دَقيقٌ كَالْجَليد عَلَى الأَرْضِ" (اَلْخُرُوجُ ١٦ : ١١-١٤). وتبين هذه العبارة أن طيور السماني جاءت بحسب بشارة الله تعالى، وأمر الله موسى أن يأكلوها نعمة وفضلاً منه تعالى، وبأكلها سيعرفون أني أنا الرب إلههم.

كما ذكرت التوراة نعمة السماني مع نعمة المن، و لم تذكر المن في أي مكان إلا بوصفه نعمة لا عذابًا. فيبدوا أن ما ورد في (عدد١١) هو نموذج لحمق كاتب جاهل من كتّاب التوراة.. أدخل فيها أفكاره الخاطئة، وإلا فالحق ما ذكره القرآن بأن المن كان إنعامًا كما كان السلوى أيضًا إنعامًا.

﴿وَإِذْ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (البقرة: ٦١).

تتحدث هذه الآية عن نكران بني إسرائيل لنعمة أُخرى. لقد كانوا بحاجة إلى الماء في موضع كان نزول المطر فيه شحيحًا. فدعا موسى عليه السلام للسقيا. فأمره الله تعالى أن يضرب حجرًا معينًا. وعندما ضربه تفجرت منه اثنتا عشر عينًا. ووجدت كل جماعة منهم ماءً وعينت لها موردًا.

يعترض القساوسة على هذه الآية ويقولون عن التوراة لم تذكر مثل هذا الحادث، وهذا عندهم دليل على جهل صاحب القرآن! ولكن كما أسلفت، لا اعتبار بما إذا ذكرت التوراة حادثًا أو لم تذكر. لا شك أن المؤرخ مضطر للتقيد بسرد أحداث عن بني إسرائيل كما ذُكرت في التوراة أو في كتب التاريخ الأُخرى، ولكن القرآن الذي يعلن أنه وحي الله تعالى، لا حاجة له ليلتزم فقط بما جاء في تلك الكتب. أفلم تقع أحداث في الدنيا سوى ما ذكرته التوراة وكتب التاريخ؟ وهل هناك خطرٌ على الله جلَّ وعلا ألاّ يذكر إلا ما جاء فيها؟ إن القرآن المجيد كلام الله تعالى، وأنى لعلم المؤرخ أن يبلغ شأن العلم الإلهي؟ من حق منكر القرآن أن يطالبنا بإثبات أنه كلام الله حقًا، فإذا أثبتنا أنه كذلك فلا بد من أن تعتبر شهادة القرآن هي الأوثق والأقوى من شهادة مؤرخ وشهادة كتاب منسوخ أو ممسوخ. ولكن لا يجوز لنا أن نُلبس كلمات القرآن معاني معارضة للقرآن نفسه، أو للعقل الذي خلقه الله تعالى، أو للغة.

وأرى من الضروري هنا ذكر أن المستشرق سيل (Sale)، قد كتب في ترجمته للقرآن الكريم أن سائحًا في القرن الخامس عشر ذكر أنه وجد آثارًا لاثنتي عشرة عينًا في صخرة بجبل حوريب وإن كانت بعضها قد جفت. (القرآن،سيل).

ثم نجد في التوراة الأمر الإلهي لموسى بضرب صخرة في جبل حوريب، ولكن لا نجد هناك ذكر اثنتي عشرة (خروج ٦:١٧) وفي موضع آخر نجد ذكر اثنتي عشرة عينًا في مكان آخر، و لم يذكر هناك الضرب بالعصا (خروج ٢٧:١٥).

لقد أخطأ بعض المفسرين أيضًا في فهم هذه الآية.. فظنوا أن موسى كان يحمل معه حجرًا، وكلما احتاج بنو إسرائيل للماء يضربه بالعصا ويفجر منه اثنتي عشرة عينًا! الحق إن هذا القول لا يصف معجزة إلهية وإنما يعبر عن مهزلة عقلية. فإذا كان الله تعالى هيأ في بعض المناطق الماء لبني إسرائيل بإنزال المطر من الغمام كمعجزة، لزم أن تكون معجزة تدفق الماء من الحجر بضرب العصا أيضًا خاضعة لسنن الله الكونية. إن المعنى الحقيقي للآية هو أن الله تعالى أمر موسى بضرب حجر بعصاة فانفجرت منه بالضرب اثنتا عشرة عينًا. والذين تيسر لهم زيارة الأماكن الجبلية يعرفون أنه عندما ينصهر الجليد فوق قمم الجبال يرتفع مستوى الماء الباطني الجاري تحت وجه الأرض، ويمكن أن يخرج متدفقًا بمجرد الضرب من عصا. ومثل هذه العيون توجد أيضًا في البراري...وتحدث طبقًا لسنن كونية معروفة. وتكثر مثل هذه المواقع في صحراء الجزيرة العربية حيث الواحات ذات عيون الماء والنخيل.

لقد وجَّه الله تعالى موسى بالوحي إلى موضع كهذا، وكان الماء قريبًا من سطح الأرض، وكان عليه حجر، فأمره الله تعالى أن يحركه بالعصا ليتدفق الماء من ورائه، ففعل. ليست المعجزة أن الماء خرج من الحجر، كما ليست المعجزة أن الماء تولّد فجأة في باطن الحجر وخرج منه، وإنما المعجزة أن الله تعالى دلّه بالوحي على وجود الماء وراء حجر معين يسد جريانه. ولا مبرر لنكران مثل هذه المعجزة، كما لا داعي أيضًا لتصويرها بصورة مخالفة لسنّة الله في الكون.

ويبدو أن الحجر لم يكن كبيرًا ولا عميقًا فتشقق بالضرب بالعصا، وخرج الماء من اثني عشر موضعًا من هذه الشقوق. ومن خبرَ هذه الجبال يعرف أن العديد من العيون تتدفق من موضع واحد أحيانًا. وقد شاهدت بنفسي في موضع جبلي بكشمير عيونًا كثيرة تفيض من مساحة صغيرة لا تتجاوز أمتارًا، وربما كان عددها اثنتي عشرة عينًا.

ويبدو أن الغرض من عدد اثني عشر أن بني إسرائيل كانوا قبائل عديدة كثيرة الشجار فيما بينها، وهكذا هيأ الله تعالى لكل منها موضع شرب على حدة.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ (البقرة: ٦١)، لا يعني أن الله تعالى عين لكل قبيلة موضع شرب لهم، وإنما القوم أنفسهم اتخذوا مواضع شرب لهم. الماء كان يتدفق بوفرة ومن مواضع متفرقة ليتيسر لبني إسرائيل الحصول على كفايتهم منه بدون مشقة، فلا يقع بينهم خصومة أو شجار.

..لقد هيأ الله تعالى لكم في كل موضع كفايتكم من الطعام والشراب، فاشكروا صنيعه وتوكلوا عليه ولا تتكالبوا على الأسباب. إن كل فساد في الدنيا يرجع إلى الاعتماد على الأسباب. فيظن الإنسان أنه إن لم يجد أرضًا كذا أو مسكنًا كذا أو دابةً كذا لأصابه الضرر والخسران.. فيتخاصم مع أخيه وتستمر سلسلة لا تنتهي من الفساد والفتنة. يقول الله تعالى هنا لبني إسرائيل: انظروا كيف حررناكم من كل هذه المتاعب من بحث عن طعام وشراب وغير ذلك، فإذا كنا نسد كل حاجاتكم فلا داعي للفساد والتباغض والشجار مع الجار.

يجب ألا تفسدوا على الأقل في هذه الأيام، كما يجب أن تتجنبوا الفساد في المستقبل تذكرًا لهذه النعم...

لقد عاش بنو إسرائيل على طعام المن والسلوى لمدة طويلة، ومن حين لآخر كانوا يدخلون بعض المدن ويمكثون فيها للتمتع بما فيها من طعام وشراب. ولكنهم لم يستطيعوا الصبر على طعام واحد في البراري، وإن لم يكن واحدًا بل كان متنوعًا. كانوا معتادين على العيش في مدن مصر عيشة مدنية، مولعين بالمشويات والمقليات

وغيرها من لذائذ الطعام الذي يأكله أهل الحضر، فتبرموا من أكل الأغذية البرية. وهكذا لم يقدروا الحكمة وراء هذه المعيشة والأغذية. وبلغ بهم الضيق أن قالوا لموسى لن نصبر عن طعام واحد. إذا كنت تصبر أنت عليه ولا ترى حاجة إلى استبداله، فعلى الأقل ادْعُ الله لأجلنا كي يخرج لنا من الأرض أنواع الخضروات والبقول.. أي يسمح لنا بالإقامة والاستقرار في مكان نستطيع فيه الزراعة وإنتاج هذه المحاصيل من غلال وبقول وخضار. فأجابهم الله تعالى: أتطلبون الطعام الأقل نفعًا لكم وتتخلون عن الأجود والأنسب؟

لقد اختلف المفسرون في معنى خير وأدنى، فقال البعض أن المراد من (خير) اللحم ومن (أدنى) الخضار. ولكن هذا خطأ. فالخضار خير واللحم أيضًا خير. و لم يأمر الله تعالى في الشرع أنه إذا وُجد طعام جيد فلا تأكلوا غيره. فالنفس البشرية أحيانًا تشتهي العدس مع تيسر لحم طير، وليس في هذا ما يثير سخط الله.

الحق أن في كلمتي (خير،وأدنى) مقارنة بين ما كانوا يجدونه في البرية من أغذية بدون جهد وتعب، وبين ما يحصل عليه أهل المدن بعد سعي ومشقة. لقد تركهم الله تعالى في هذه البرية لكي يزيل عنهم أثر العبودية ويطهرهم من المعاصي وسيء العادات التي ترسخت في نفوسهم بصحبة المصريين، ولكي لا تثور فيهم نزعات الشرك نتيجة مخالطتهم بالأمم الأخرى أراد الله تعالى لهم أن يظلوا في صحبة موسى باستمرار ليرسخ فيهم عقيدة التوحيد. وقد وفَّر الله لهم كل ما يتيسر في البادية من أطعمة.. أما الخضروات والأطعمة الشهية فلا تتيسر إلا في المدن والقرى.

وقوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ (البقرة: ٦٢)، لأنهم فضلوا الزراعة على عيش يؤهلهم للحكم والسلطان في الأرض المقدسة التي وُعدوا بها.. ألزمهم الله الذل والهوان. ومن عجيب قدرة الله تعالى أن بني إسرائيل وإن كانوا قد نالوا الملك بحسب البشارات الإلهية إلا أن إخلافهم المتكرر لعهودهم مع الله تعالى صار وبالاً عليهم حتى حُرموا من الملك فيما بعد لأكثر من عشرين قرنًا و لم يبق لهم إلا أعمال التجارة والزراعة.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ٦٤).

المراد من قوله تعالى ﴿أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾: الوصايا العشر وما نزل معها من تعاليم أُخرى على موسى عند جبل سيناء. وتقول الآية لبني إسرائيل: تذكروا تلك الوصايا التي أُوتيتموها وأنت واقفون عن سفح الجبل، والتي أعرضتم عن سماعها قائلين: لا نريد سماعها حتى لا نهلك.

وفي قوله تعالى (ميثاقكم) أُضيف الميثاق إلى بني إسرائيل لأنه كان ذا شهرة وأهمية كبيرة لديهم، لقد وُضع فيه الأساس لعلاقات كان ستنشأ بين الله تعالى وبينهم. وفي نفس الميثاق وبسبب معاصيهم المتكررة، قدَّر الله تعالى أن النبي الموعود صاحب الشرع الجديد لن يظهر في بني إسحاق، بل سيظهر في بني إسماعيل. وكأن إضافة الميثاق إليهم تذكرة لبني إسرائيل بأهمية هذا العهد، ولا يعني هذا أنه لم يكن لبني إسرائيل عهود أُخرى مع الله تعالى.

قوله تعالى ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ﴾: الطور في العبرانية يعني الجبل أيًا كان (قاموس العهد القديم). ومن معاني الطور في العربية أيضًا الجبل. ولكن العرب عندما سمعوا من اليهود أن الله تعالى تكلم مع موسى على الطور أي الجبل، ظنوا أن الطور بالعبرانية يعني ذلك الجبل الخاص في سيناء، فسموه (جبل الطور). واستخدم القرآن الكريم كلمة الطور بمعنى الجبل فقط. قال الله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾ (المؤمنون: ٢١). وقال: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ﴾ (التين: ٢-٣).

لقد انخدع البعض من قوله تعالى: (ورفعنا فوقكم الطور) وظنوا أن الله تعالى رفع الجبل وجعله كالمظلة فوق رؤوس بني إسرائيل. وقد استغل المستشرق رُدْوِل Rodwell هذا الخطأ من بعض المفسرين وطعن به في الإسلام وقال: لقد أخطأ اليهود في فهم عبارة واردة في التوراة ونقل القرآن عنهم هذا الخطأ.

لقد انخدع المفسرون بكلمتي (رفع) و (فوق) مع أنهما تدلان أيضًا على مجرد الارتفاع. جاء في حديث الهجرة النبوية أن أبا بكر قال بصدد اشتداد الحر وقت

الظهيرة: (فَرُفِعَتْ لَنَا صَخْرَةٌ طَوِيلَةٌ لَهَا ظِلٌّ لَمْ تَأْتِ عَلَيْهِ الشَّمْسُ) (البخاري، كتاب المناقب)، يعني رأينا في صخرة مرتفعة قريبًا منا لها ظل فأوينا إليها. وورد في القرآن الكريم: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا﴾ (الأحزاب: ١١-١٢). أي أنهم جاءوكم من الناحتين المرتفعة والمنخفضة من الأرض.

فالمعنى الصحيح للآية أن اليهود كانوا واقفين بالقرب من الطور عندما أعطاهم الله تعالى بعض الوصايا وأخذ منهم العهد للعمل بها. فقد ورد في التوراة: (وَحَدَثَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ لَمَّا كَانَ الصَّبَاحُ أَنَّهُ صَارَتْ رُعُودٌ وَبُرُوقٌ وَسَحَابٌ ثَقِيلٌ عَلَى الْجَبَلِ، وَصَوْتُ بُوقٍ شَدِيدٌ جِدًّا. فَارْتَعَدَ كُلُّ الشَّعْبِ الَّذِي فِي الْمَحَلَّةِ. وَأَخْرَجَ مُوسَى الشَّعْبَ مِنَ الْمَحَلَّةِ لِمُلاَقَاةِ اللهِ، فَوَقَفُوا فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ. وَكَانَ جَبَلُ سِينَاءَ كُلُّهُ يُدَخِّنُ مِنْ أَجْلِ أَنَّ الرَّبَّ نَزَلَ عَلَيْهِ بِالنَّارِ، وَصَعِدَ دُخَانُهُ كَدُخَانِ الأَتُونِ، وَارْتَجَفَ كُلُّ الْجَبَلِ جِدًّا. فَكَانَ صَوْتُ الْبُوقِ يَزْدَادُ اشْتِدَادًا جِدًّا، وَمُوسَى يَتَكَلَّمُ وَاللهُ يُجِيبُهُ بِصَوْتٍ. وَنَزَلَ الرَّبُّ عَلَى جَبَلِ سِينَاءَ، إِلَى رَأْسِ الْجَبَلِ، وَدَعَا اللهُ مُوسَى إِلَى رَأْسِ الْجَبَلِ. فَصَعِدَ مُوسَى. فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: انْحَدِرْ حَذِّرِ الشَّعْبَ لِئَلاَّ يَقْتَحِمُوا إِلَى الرَّبِّ لِيَنْظُرُوا، فَيَسْقُطَ مِنْهُمْ كَثِيرُونَ. وَلْيَتَقَدَّسْ أَيْضًا الْكَهَنَةُ الَّذِينَ يَقْتَرِبُونَ إِلَى الرَّبِّ لِئَلاَّ يَبْطِشَ بِهِمِ الرَّبُّ"(اَلْخُرُوجُ ١٩ : ١٦-٢٢).

وقد نُسب رفعُ الطور إلى الله تعالى في قوله (ورفعنا فوقكم الطور) لأنه هو الذي أوصاهم بالمكث أسفل الجبل كما هو وارد أيضًا في التوراة.

واستخدام كلمة (رفعنا) و (فوق) إشارة إلى أن ميثاق الطور هذا له صفة الدوام، إذ أن هذا العهد قد أُخذ عند الطور وليس هذا فحسب، وإنما يشير أيضًا بطريق المجاز اللطيف إلى أن الطور سيبقى دائمًا محلقًا فوق رؤوسهم يذكرهم بهذا العهد. وليس العهد ليوم أو يومين، وإنما له ارتباط دائم بالحياة القومية لبني إسرائيل.

لقد وضع الله اللبنة الأولى للشريعة الموسوية على جبل في برية سيناء وقد ذُكر هذا في (سفر خروج ١٩،٢٠). ويتبين من قول التوراة: (اَلرَّبُّ إِلهُنَا قَطَعَ مَعَنَا عَهْدًا فِي حُورِيبَ"(اَلتَّثْنِيَة ٥ : ٢)، أن موسى تلقى الوصايا العشر إلى جانب تعاليم أُخرى على صخرة حوريب، وهناك أُخذ من بني إسرائيل الميثاق بالعمل بها. وتؤكد آيتنا هذه بأن على بني إسرائيل أن يذكروا دائمًا ذلك العهد الذي أخذ الله منهم عندئذ، ويتمسكوا به بقوة، ويعملوا به بصدق، لكي ينجوا من المصائب جميعًا.

وقد ورد هذا التأكيد في التوراة كالآتي: (وَدَعَا مُوسَى جَمِيعَ إِسْرَائِيلَ وَقَالَ لَهُمْ: اسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ الْفَرَائِضَ وَالأَحْكَامَ الَّتِي أَتَكَلَّمُ بِهَا فِي مَسَامِعِكُمُ الْيَوْمَ، وَتَعَلَّمُوهَا وَاحْتَرِزُوا لِتَعْمَلُوهَا" (تثنية٥:١).

جاء في التوراة: (وَكَانَ جَمِيعُ الشَّعْبِ يَرَوْنَ الرُّعُودَ وَالْبُرُوقَ وَصَوْتَ الْبُوق، وَالْجَبَلَ يُدَخِّنُ. وَلَمَّا رَأَى الشَّعْبُ ارْتَعَدُوا وَوَقَفُوا مِنْ بَعِيد، وَقَالُوا لِمُوسَى: تَكَلَّمْ أَنْتَ مَعَنَا فَنَسْمَعَ. وَلاَ يَتَكَلَّمْ مَعَنَا اللهُ لِئَلاَّ نَمُوتَ"(اَلْخُرُوجُ ٢٠ : ١٨-١٩). وجاء فيها أيضًا: (وَجْهًا لِوَجْه تَكَلَّمَ الرَّبُّ مَعَنَا فِي الْجَبَلِ مِنْ وَسَطِ النَّار. أَنَا كُنْتُ وَاقِفًا بَيْنَ الرَّبِّ وَبَيْنَكُمْ فِي ذلِكَ الْوَقْتِ لِكَيْ أُخْبِرَكُمْ بِكَلاَمِ الرَّبِّ، لأَنَّكُمْ خِفْتُمْ مِنْ أَجْلِ النَّارِ، وَلَمْ تَصْعَدُوا إِلَى الْجَبَلِ"(اَلتَّثْنِيَة ٥ : ٤-٥).

يتضح من هذه العبارة أن الله تعالى حين دعا بني إسرائيل ليشرفهم بكلامه مشافهة خافوا بسبب الزلزال. فيعني قوله تعالى (ثم توليتم) أنهم فروا من هناك مدبرين، و لم يريدوا سماع كلام الله تعالى. ويقول عز وجل بأنه إن لم يُحطْكُمْ فضله ورحمته لعاقبكم، ولمحا اسمكم من أُمة رسوله وأصبحتم من الخاسرين.

وكما ورد في التوراة (تثنية١٨:١٨) قدر الله تعالى بسبب رفضهم سماع كلامه أن يكون النبي الموعود المثيل لموسى من خارج بني إسرائيل، من إخوتهم بني إسماعيل.

قصة ذبح البقرة:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (البقرة: ٦٨)

كان بنو إسرائيل يعيشون في مصر. وكان المصريون يعظمون البقرة كثيرًا، لذلك استولت عظمتها على قلوب بني إسرائيل أيضًا. وكذلك يتبين مما سبق في الآيات، ومما جاء في التوراة أن بني إسرائيل عندما اتخذوا الصنم إلهًا كان على صورة العجل، مما يدل على أن تعظيم البقرة في قلوبهم وصل إلى حد تأليهها. ولما كان الهدف الأساسي للأنبياء القضاء على الشرك وإظهار جلال الإله الواحد الأحد، الخالق المالك لكل مخلوق.. فكان ضروريًا أن يتضمن شريعة موسى من التعاليم ما يستأصل من قلوب بني إسرائيل تعظيم البقرة، ولولا ذلك لمالوا بعد مدة إلى عبادتها كرّة أُخرى. ولذلك أمرت شريعة موسى في عدة مناسبات بذبح البقر. ومن الواضح أن الذين يذبحون حيوانًا مرة بعد أخرى لا يمكن أن يخلعوا عليه صفات الألوهية.

تشير هذه الآية أن موسى ؈ أمر قومه بذبح بقرة، فأرادوا مماطلته، ولكنهم في النهاية اضطروا كارهين إلى الامتثال بأمره. وذكر الله تعالى هنا نكرانًا آخر للجميل ارتكبه بنو إسرائيل. فبعد عبادة العجل وتلقّي عقوبات شديدة، وبعد توبة وخجل.. لم يكن متوقعا من هذا الجيل نفسه أن يسقطوا في وحلة الشرك مرة أُخرى. ولكنهم لم يتخذوا من كل ذلك عبرة، بل مالوا إلى الشرك. ويبدو أنه، لسوء حظهم، وُلد عندهم عجل جميل بشكل غير عادي.. كان يشبه العجل الذي يعبده المصريون، فهفت قلوبهم إلى تعظيمه. فأمر الله موسى أن يقيم سنّة ذبح البقر لكي يقتلع من قلوبهم هذه الميول الشركية. ولما كاد المريب يقول خذوني، فقد أحسّوا أن هذا الأمر يخص عجلهم الجميل المحبوب، وتداولوا فيما بينهم حول هذا الأمر، وبدلاً من أن يبادروا إلى ذبح أي بقرة حتى يتم تنفيذ الأمر الإلهي بدون هتك سترهم، انهالوا على موسى بوابل من الأسئلة حول صفات وعلامات تلك البقرة، ظنًا منهم أن الله تعالى يريد بقرة خاصة. وكانت نتيجة هذا النقاش أن الله تعالى أعطاهم علامات دقيقة

تنطبق على عجلهم الجميل الذي بدأ تعظيمه يتولد في قلوبهم. فاضطروا آخر الأمر إلى ذبحه، ووقفوا موقف الخجل والإحراج.

ويدلنا تاريخ المصريين القديم أنهم عبدوا حيوانات كثيرة، ولكن أهمها العجل الذى كانوا يختارونه بمواصفات خاصة، ويقيمون له التماثيل، وشيدوا له المعابد، ووضعوا صوره على جدرانها ومن هذه العجول (عجل أبيس). اتخذوا يوم ميلاده عطلة وعيدًا ويوم وفاته مأتما وحزنا. وكانوا يحنّطونه ويدفنونه في مقابر خاصة، ويبحثون بعده عن عجل مثله. وكانوا يعتبرونه مظهرًا لإله الشمس. وكانوا لا يجيزون أكل هذه الحيوانات. وقد استمرت هذه العادة فيهم إلى رعمسيس الثاني أيضًا...

وكان بنو إسرائيل متأثرين بهذه العقائد المصرية، وعندما رأوا هذا العجل الجميل الذي تميز بمواصفات خاصة مالوا إلى الشرك.

لقد اختار القرآن كلمة (بقرة)، ولكنها تستعمل للمؤنث والمذكر. ولا تذكر التوراة هذا الحادث بمثل تفصيل القرآن له، ولكن كما سبق أن ذكرت أن ذكر حادث تاريخي في التوراة أو عدمه لا يعني شيئًا إزاء كتاب سماوي محفوظ. ومع ذلك فقد جاء في التوراة ذكر تضحية عجل بعلامات كالتي ذكرت في القرآن حيث قيل إن الله تعالى قال لموسى: (كَلِّمْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَأْخُذُوا إِلَيْكَ بَقَرَةً حَمْرَاءَ صَحِيحَةً لاَ عَيْبَ فِيهَا، وَلَمْ يَعْلُ عَلَيْهَا نِيرٌ، فَتُعْطُونَهَا لأَلِعَازَارَ الْكَاهِنِ، فَتُخْرَجُ إِلَى خَارِجِ الْمَحَلَّةِ وَتُذْبَحُ قُدَّامَهُ. وَيَأْخُذُ أَلِعَازَارُ الْكَاهِنُ مِنْ دَمِهَا بِإِصْبَعِهِ وَيَنْضِحُ مِنْ دَمِهَا إِلَى جِهَةِ وَجْهِ خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ سَبْعَ مَرَّاتٍ. وَتُحْرَقُ الْبَقَرَةُ أَمَامَ عَيْنَيْهِ. يُحْرَقُ جِلْدُهَا وَلَحْمُهَا وَدَمُهَا مَعَ فَرْثِهَا. وَيَأْخُذُ الْكَاهِنُ خَشَبَ أَرْزٍ وَزُوفًا وَقِرْمِزًا وَيَطْرَحُهُنَّ فِي وَسَطِ حَرِيقِ الْبَقَرَةِ، ثُمَّ يَغْسِلُ الْكَاهِنُ ثِيَابَهُ وَيَرْحَضُ جَسَدَهُ بِمَاءٍ، وَبَعْدَ ذلِكَ يَدْخُلُ الْمَحَلَّةَ. وَيَكُونُ الْكَاهِنُ نَجِسًا إِلَى الْمَسَاءِ. وَالَّذِي أَحْرَقَهَا يَغْسِلُ ثِيَابَهُ بِمَاءٍ وَيَرْحَضُ جَسَدَهُ بِمَاءٍ وَيَكُونُ نَجِسًا إِلَى الْمَسَاءِ. وَيَجْمَعُ رَجُلٌ طَاهِرٌ رَمَادَ الْبَقَرَةِ وَيَضَعُهُ

خَارِجَ الْمَحَلَّة فِي مَكَان طَاهِرٍ، فَتَكُونُ لِجَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي حِفْظٍ، مَاءَ نَجَاسَةٍ. إِنَّهَا ذَبِيحَةُ خَطِيَّةٍ" (اَلْعَدَد ١٩ : ٢-٩)).

لا تذكر هذه العبارة ما دار بين موسى وبينهم من أسئلة وأجوبة كما ذكر القرآن، ولكن يدرك الإنسان بتأمل قليل أن التوراة ذكرت هذا الحادث كحادث عادي. والحكمة في ذبح مثل هذه البقرة هي إزالة الشرك من قلوب بني إسرائيل، ووقايتهم من تأثير الأمم الأُخرى، وربما لهذه الحكمة سُمِّي الماء الذي خُلط به دماء البقرة ماء نجاسة.. أي غُسل به نجاسة الشرك وحُفظوا منه. فلو أنهم استمروا في ذبح مثل هذه العجول والبقر التي كان يعبدها المصريون لزال من قلوبهم نجس الشرك.

لقد جاء في كتب الحديث اليهودية هذا الحادث بتفصيل أكثر مما جاء في التوراة. فقد ورد في (مثنا) باب كامل عن الحادث. ووردت رواية عن الربِّي (نسيس) أنه لم يوجد بعد موسى عليه السلام بقرة بتلك المواصفات (موسوعة الكتاب المقدس). وفي هذا البيان من أحاديث اليهود تصديق كامل لما ورد في القرآن من أن الله تعالى أمرهم بذبح بقرة خاصة تتميز بجمال غير عادي وبعلامات معينة لا تتوفر في كل الأزمنة.

أمرهم الله تعالى بذبح بقرة أيةً كانت، فبدأ اليهود يسألون عن علاماتها، لأن قلبهم كان يخشى على عجلهم المحبوب. فقال الله تعالى: ﴿بَقَرَةٌ لاَ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ (البقرة: ٦٩)..أي لا تعرضوا أنفسكم للإحراج والإذلال بكثرة السؤال. لكن اليهود لم يمتنعوا.

رغم الإشارة الإلهية بأننا نستر عليكم فلا تهتكوا ستركم بالأسئلة فلم تنفكوا عنها بل مضيتم تسألون. فقلنا إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين.

لم يتوقف اليهود عن السؤال، وطلبوا علامات أُخرى للبقرة. ولما كانوا يشكون أن الله تعالى يريد بقرتهم المعظمة، قرروا في نفوسهم أنهم إذا أُمروا بذبحها فسيذبحون...

بعد سلسلة من أسئلة لا داعي لها لدليل واضح على أن أفكار الشرك بصدد عجل معين كانت تولدت في نفوسهم. ثم إن اتخاذهم العجل إلهًا عند ذهاب موسى إلى

الجبل دليل آخر يؤكد ذلك. ومن الثابت في تاريخ المصريين أنهم كانوا يعبدون العجل الحي ويعبدون تمثاله أيضًا. وكذلك بنو إسرائيل عبدوا العجل تمثالاً ثم أضمروا عبادته حيًّا...

وقوله تعالى ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ (البقرة: ٧٢) أي كادوا لا يذبحون ذلك العجل لشدة حبهم له.. لأنهم تحت تأثير المصريين ظنوا أنه متصف بقدر من الألوهية.

ما أكثر أحكام الله تعالى حكمة! لقد أباح الله تعالى للمسلمين ذبح البقرة كغيرها من الماشية للقضاء على الشرك المتعلق بها والموجود في بعض بلاد العالم حتى اليوم. وللأسف أن بعض المسلمين في البلاد التي تقدس فيها البقرة، كالهند مثلا، يبدون على استعداد للتخلي عن هذا الحق المشروع بدون أي نفع ديني، وهناك غيرهم الذين يخرجون بهذه الحيوانات المعدة للذبح في احتفال يجرح شعور جيرانهم من أتباع دين آخر. وكلا العملين باطل غير جائز. على المؤمن إصلاح نفسه، ولا يجوز له إيذاء جاره. ما أنصف ما قدمه مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية من اقتراح إلى الجيران من أتباع الديانات الأُخرى كالهندوس.. يقول في كتابه (رسالة صلح): بأننا نعتبر صلحاء الهندوس (كرشنا) و (رام شندرجي) من أنبياء الله تعالى بحسب تعاليم القرآن الكريم. ولو أن الهندوس احترموا رسولنا محمدًا ﷺ لضحينا لهم مقابل ذلك وامتنعنا عن ذبح البقر في بلادهم. ولكن الأسف أن الهندوس لم يقبلوا هذا العرض المنصف.

قصة قتل النفس:

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (البقرة: ٧٣)

قوله (نفسًا) يعني نفسًا عظيمة أو نفسًا غير معروفة، لأن التنوين يفيد المعنيين. وتخاطب الآية قوم اليهود وتقول تذكروا:

(١) عندما قتلتم نفسًا عظيمة أو أردتم قتلها.

(٢) أو عندما عاونتم على قتل أو محاولة قتل إنسان عظيم وساعدتم غيركم على هذه الجريمة.

(٣) أو عندما قتلتم أو أردتم قتل إنسان ما. ثم أخذتم تتنصّلون من الجريمة ورمى بعضكم بعضا بارتكابها، أو أنكرتم معرفتكم بالقتل والقاتل.

وأضعف هذه المعاني قتل إنسان مجهول، لأن اليهود كقوم ما كان لهم مأرب في قتل إنسان لا أهمية له، ولا معنى لأن يختلفوا في قتله. فيبدو أن المراد من (نفسًا) شخص عظيم لم يذكر اسمه لأنه بنفسه متبادر إلى الذهن.

سوف يهتك الله تعالى سر القاتل ومن تآمر على قتله، ويمكن أن يعني أيضًا أن الله تعالى سوف يظهر العناد والبغض المكتوم في صدور القاتلين الذى دفعهم إلى جريمتهم.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ٧٤).

يعني بادىء النظر: هكذا يُحي الله الموتى الحقيقيين ويرجعهم إلى الحياة الدنيا. ولكن هذا المعنى خلاف للقرآن، ولذلك فهو غير مقبول؛ لأنه يقول بأن الموتى الحقيقيين لا يرجعون إلى الدنيا.

ويمكن أن يعني: كذلك يُحي الله الذين يشبهون الموتى، أو كذلك يقيم الله كرامة الموتى ويحفظها، أو كذلك يحفظ الله الناس من الهلاك. والمعنيان الأخيران يصدقهما القرآن أيضًا حيث قال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة: ١٨٠).. أي أيها العقلاء إذا عاقبتم القاتل بعقوبة مناسبة لقلّت جرائم القتل في المستقبل، وأُنقذت أرواح كثيرة من الهلاك. وبحسب هذه المحاورة القرآنية يعني إحياء الموتى هو إنقاذ من يحتمل قتله. وفي القصاص حياة بمعنى أن كرامة القتيل لا تضيع وإنما تبقى قائمة محفوظة تزيل من قلوب أهله البغض والشحناء، لأنهم يرون بدون قصاص أن فقيدهم أُهين وأُذل. وهذا الأسلوب موجود عند العرب. قال الشاعر الحارث بن حِلِّزة من أصحاب المعلقات:

إنْ نبشتم ما بين ملْحَةَ فالصَّا ... قِبِ فيها الأمواتُ والأحياءُ

يريد.. أيها الأعداء، لو نبشتم بين ملحة والصاقب لوجدتم هناك أمواتًا وأحياء. أي نحن قوم أهل شجاعة وحمية، كلما قتلتم منا قتيلاً أحييناه بأخذ ثأره منكم. أما قتلاكم فهم أموات لأنكم لم تستطيعوا أخذ ثأرهم منا.

وبناء على هذا يعني قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ أنه ﷻ يُحي من يموت في سبيله بأخذ ثأره من القاتل.

أما المعنى الأول بأنه يُحي من يكون حاله كحال الموتى فهو كثير في الأساليب المستخدمة في الحياة اليومية. فنطلق اسم الشيء على شبيه له. فمثلاً إذا أُصيب أحد بجرح كبير وتألم كثير يقول: لقد مِتُّ، والمعنى أني قد صرت كالميت من الألم والتعب. فيمكن أن يكون معنى الآية: هكذا يُحي الله الذين يكونون كالموتى، ولم يبق أمل في حياتهم، تجزم العلوم الدنيوية بهلاكهم ولكن الله تعالى ينقذهم بفضله.

والحادث المذكور في هذه الآية والتي قبلها يتعلق عند المفسرين بقتيل من بني إسرائيل. وبيان هذا أن شخصًا قتله أخوه أو ابن أخيه. فأمر الله تعالى بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة، وقد مرّ ذكر ذبحها، ثم أمر بضرب القتيل ببعض أجزائها، وقد اختلف المفسرون كثيرًا في هذا البعض، وعندما ضربوه بجزء منها قام القتيل حيًا وأخبر عن قاتله (تفسير فتح البيان).

ولا نرى داعيًا للدخول في التفاصيل المختلفة التي أوردها المفسرون حول اسم القاتل والمقتول وسبب القتل وأين وجدت الجثة وما إلى ذلك، لأنها كلها من اجتهاد المفسرين ولا أساس لها من القرآن والحديث. ومن أجل ذلك، وبعد ذكر هذه الراويات قال ابن الأثير: (والظاهر أنها مأخوذة من كتب بني إسرائيل، وهي مما يجوز نقلها ولكن لا تصدَّق ولا تكذَّب. فلهذا لا يعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا)(تفسير ابن كثير) وقد قال صاحب (فتح البيان) عند ذكر أجزاء هذه البقرة: (ولا حاجة إلى ذلك مع ما فيه من القول بغير علم ويكفينا أن نقول: أمرهم الله تعالى أن يضربوه ببعضها).

الحق أن القرآن صريح، وتعاليم الإسلام لا تقبل هذه الروايات وإن كانت منسوبة إلى بعض الصحابة. يقول المفسرون أن الله تعالى أمر بذبح البقرة بعد حادث قتل النفس للعثور على القاتل، ولكن القرآن ذكر حادث ذبح البقرة أولاً، ثم ذكر حادث قتل النفس بعده. والقرآن الكريم كتاب الله تعالى، وهو يفوق كل المعايير الإنسانية للفصاحة والبلاغة. وليس هناك إنسان، وإن كان بسيط العقل.. يقبل الحادث بالترتيب الذي يقول به المفسرون. فلو أن أحدًا ذكر الحادث لقال: أُذكروا عندما قتلتم نفسا واختلفتم في قتلها فأمرناكم بذبح بقرة وضرب القتيل بشيء منها، وعندما فعلتم ذلك قام القتيل حيًّا. ولكن القرآن الكريم ذكر الحادث بترتيب معاكس. فلماذا يقول المفسرون أن البقرة ذبحت للتعرف على القتيل؟ إن مثل هذا الترتيب المعكوس لا يليق بكتاب من صنع البشر، فما بالك بكتاب هو من وحي الله تعالى.. وهو القمة في الفصاحة والبلاغة؟!

فمجرد القول بالتأخير والتقديم بدون ذكر حكمة قول غير كاف ولا يعتد به؛ وإلاَّ لزم بأن هذا الجزء من القرآن خال من الحكمة.. إذ قدّم وأخّر بلا مبرر. إن حادث ذبح البقرة أهم من حادث القتل وكان لا بد من هذا الترتيب، وهذا ما فعله القرآن الكريم. فثبت أن حادث ذبح البقرة منفصل تمامًا عن حادث قتل النفس.

ثم إن القرآن قد استأنف حادث ذبح البقرة بقوله: (إذ)، وكذلك بدأ ذكر حادث قتل النفس أيضًا بقوله (إذ)، كما فعل في بداية ذكر كل حادث مرّ ذكره في الآيات السابقة، وكلها أحداث مستقلة منفصلة عن بعضها. وهذا دليل بيّن على أن هاتين الحادثتين منفصلتان.

ومما يؤيد رأيي أيضًا أنه لا معنى لضرب القتيل لإحيائه بجزء من جسم البقرة، فلو أراد الله تعالى إحياء القتيل كمعجزة ما كان هناك داع لذبح بقرة وضرب القتيل ببعضها، وإنما كان يمكن إحياؤه بدعاء موسى.. بمثل ما يظن خطأ عامة المسلمين أن عيسى كان يُحيي الموتى بدعائه. وإذا قيل إن هناك أثراً طِبيًّا في لحم البقر يساعد على إحياء الموتى فنتساءل لماذا لا يظهر هذا الأثر الآن. وإذا قيل إن هذا الأثر الطبي كان

في ذلك النوع الخاص من البقر فنسأل: لماذا أمر الله تعالى أولاً بذبح أي بقرة؟ و لم لم يأمر بذبح البقرة المطلوبة منذ البداية؟ ثم إنه ليس من الصعب العثور على مثل هذه البقرة ليجربوا عليها بحسب عقيدهم؟

وما دام هذا المعنى الذي يسوقه المفسرون يعارض العقل، ويخالف ما ورد في التوراة، ويخل بالترتيب القرآني اللطيف، ويتعارض مع تعاليم القرآن الصريحة، ولا يسانده قول من رسول الله ﷺ. فلم يبق لنا إلا طريق وحيد.. ألا وهو الفصل بين الحادثين ونبذ قول المفسرين هذا والنظر في تفسير الآية من منظور آخر.

ولو أننا سلمنا بآراء المفسرين جدلاً، فأيضًا لا نستطيع تفسير الآية بأن القتيل عاد إلى الحياة بضربه بجزء من جسم البقرة ثم أخبر باسم القاتل، وإنما نقول بأنه حدث هنالك شيء عند ضرب القتيل عُرف به القاتل. وهذه حيلة علّمها الله تعالى للعثور على القاتل.

وهذا ما ذكره سيدنا المهدي والمسيح الموعود ؑ، في كتابه (إزالة أوهام). ولكن كما يبدو من السياق فإنه ذكر هذا المعنى استدراجًا للمعارض من طريق قريب، و لم يسلم معه بإحياء الموتى موتًا حقيقيًا لأن الآية لا تذكر ذلك، بل قال: إذا قبلنا قولك جدلاً فإنما تعني الآية فقط أنه بضرب القتيل حدث شيء عُرف به القاتل.

أقول: في بلادنا أيضًا يضع الناس صبغا أسود على شيء داخل غرفة، ويطلبون من المشتبه فيهم أن يدخلوا ويلمسوا هذا الشيء. فمن التصقت يده بذلك الشيء فهو السارق. ويفعل ذلك الجميع ما عدا السارق فإن يدخل ولا يلمسه، ومن ثم لا يكون الصبغُ الأسود على يده، فيُعرف. بمثل هذه الحيلة مع البسطاء يمكن اكتشاف الجاني. ولعل موسى ؑ اتبع حيلة كهذه بتوجيه من الله لاكتشاف القاتل؛ أو أنه عندما ضرب القتيل بجزء من البقرة أخذت الرعدة القاتلَ خوفا فعُرف. أو أن القتيل عندما ضرب تحرك جسده فظن أن القاتل أنه سينهض حيًّا فغُشي عليه خوفًا أو اعترف بنفسه. ومع ذلك لا يعني هذا أن القتيل بالفعل قام حيًّا وأخبر بالقاتل، وإنما

أخذنا بهذا المعنى على سبيل الافتراض لنجنِّب القرآن الاعتراض والتناقض. وإلا فإني أرى أن هذه الآية تتحدث عن موضوع منفصل مستقل عن الآية السابقة.

...أرى أن آيتنا هذه .. تقول: إنكم صنعتم ما صنعتم من المعاصي والجرائم في زمن موسى، واليوم عندما هيأ الله لكم فرصة أُخرى للتقرب إليه. إذا بكم تصرون على شروركم الماضية، وتتآمرون لقتل نفس عظيمة، ثم ترفضون تحمل مسئولية هذه الجريمة وتحاولون التنصل منها؛ ولكن مكائدكم هذه لن تغنيكم من الله شيئًا، لأنه يعلم رؤوس الشر والفتنة وسيهتك سرهم.. أي علم الله تعالى أن كعب بن الأشرف هو الذي يتولى كِبْرَ هذه الفتنة، ولسوف يهييء الأسباب لينال العقاب على بعض جرائمه.

قال الله تعالى ﴿قتلتم نفسًا﴾، ولكن الأحداث التي ذكرتها تبين أنهم أرادوا قتل الرسول ﷺ ولم يقتلوه فعلاً! وسبب ذلك أن كلمة القتل لا تعني فقط القتل الفعلي بل تعني أيضًا إرادة القتل ومحاولته والتدبير له.. فالقتل هنا بمعنى إرادة المصريين لقتل موسى عليه السلام، وهو المراد في آيتنا هذه.. لأنهم قد حرضوا على قتل هذه النفس العظيمة، ودبروا لذلك بطريقة كأنهم أوشكوا على قتله فعلا. ثم إنهم كانوا فعلا قد قتلوا نفسًا مسلمة.. وإن كانت نفس واحد من عامة المسلمين، ولكن الغرض الحقيقي من قتلها أن تثور فتنة حتى يتمكنوا من قتل نبينا محمد ﷺ.

بعد هذا التمهيد نفصل تفسير الآية الكريمة. المخاطبون في قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ (البقرة: ٧٣)، هم اليهود. والمراد بالنفس هو الرسول ﷺ أو الشخص أو الأشخاص الذين قتلهم اليهود تمهيدًا لقتل الرسول ﷺ. ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ أي أنكرتم تآمركم وتخطيطكم لإغتيال النبي ﷺ أو اختلفتم في قتل المسلم الذي قتلته جماعة منكم ثم أنكر كل واحد منها مسئولية القتل.

إن الذي حرضكم على قتل هذا المسلم أو على قتل النبي ﷺ سوف يفضحه الله تعالى؛ أو أنكم في الظاهر تشببون بالمسلمات وتنتهكون حرمتهن وتهاجمون المسلمين، ولكن هدفكم الأبعد هو قتل النبي ﷺ ولسوف يظهر الله تعالى هذه الخطة الشريرة

التي تدبروهما. فإن كنتم اليوم تحاولون إخفاء وإنكار خطتكم هذه، وتتهربون من القرائن الدالة عليها. فلسوف تكشف الأحداث عن ذلك كشفا تاما.

وبالفعل كشفت الأحداث فيما بعد عن نوايا السوء هذه لليهود. فقد دعا يهود بني النضير النبيَّ ﷺ مرة للحديث معه في بعض المسائل الدينية، وكان خطتهم أن يغتالوه عندما تسنح فرصة لذلك، ولكن الله تعالى حماه من ذلك حيث أطلعه على تدبيرهم. فغادر موقعه الذي كان سيلقون عليه صخرة من أعلى الجدار (أبو داود، كتاب الخراج، باب خبر بني النضير).

ثم إن يهودية من خيبر دعته للطعام، وقدمت له كتف شاه مسمومة. وما أن تناول النبي ﷺ منه لقمة حتى أخبره الوحي بذلك، فلفظها. وكان معه مسلم آخر أكل منها لقمة فمات (السيرة النبوية لابن هشام، المسير إلى خيبر).

وهكذا يتضمن قوله تعالى نبأ غيبيًّا بأهم لن ينفكوا في تآمرهم وسوف يفضحهم الله ويكشفهم متلبسين.

قوله تعالى ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ (البقرة: ٧٤) أي قلنا هاجموا بالسيف هذا الذي يريد قتل محمد ﷺ أو يمهد لقتله بقتل أحد المسلمين، واقتلوه بسبب بعض جرائمه. لأن عقوبة جرائم كعب بن الأشرف لا تتم في هذه الدنيا، ولا يغطي قتله كل العقوبة، بل إنه ليستحق على جرائمه عذابًا في الآخرة أيضًا..لأن القرآن الكريم يصف عقوبة جريمة القتل العمد قائلاً: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ (النساء: ٩٤).

ومن الثابت أيضًا في القرآن الكريم أن القاتل يُقتل أيضًا. فالقاتل إذًا له عقوبتان: الإعدام في الدنيا وعذاب جهنم في الآخرة. فكأن الله يقول هنا: عاقبوه عقاب الدنيا بقتله، أما بقية عقابه فسيكون بعد موته. وأما قولنا بأن قوله تعالى ﴿ببعضها﴾ تقديره ببعض جرائمه.

وقوله تعالى ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ (البقرة: ٧٤) يعني أن الأعداء يريدون إهلاك أنبيائه وجماعاتهم، لكنه تعالى بحسب وعده مع الإنبياء يحفظهم منهم، وعندما

يكونون في نظر العدو في عداد الموتى يكتب الله لهم حياة جديدة. فمن سنّة الله المستمرة أنه لا يسمح للعدو بالنجاح في قتل النبي الأول والنبي الأخير في سلسلة النبوة للأُمة، لأنهما النموذج الحقيقي للإحياء القومي. فقد كان موسى هو الحلقة الأولى من سلسلة النبوة للأُمة الموسوية، وكان عيسى الحلقة الأخيرة منها، والإحياء القومي الذي تم لبني إسرائيل على أيدي هذين النبيين لم يتم مثله على يد سائر أنبيائهم. ثم إن قوله تعالى إشارة إلى الإحياء العام الذي يتم في العالم بالنبي الأول والنبي الأخير من أية سلسلة، وتخبر الآية أن أعداءهما يبادون لأنهم لو لم يهلكوا لا يتم إحياء الدنيا. ومن ثم فلا اعتراض على هلاك الأعداء وقتلهم، بل الاعتراض على بقائهم.

إسراء موسى عليه السلام:

لقد اختلف المفسرون في الواقعة المذكورة هنا. فقال أكثرهم -كما ورد في بعض روايات الحديث أيضًا- أن هذه الآيات تتحدث عن أخبار سفر قام به موسى عليه السلام للقاء رجل اسمه الخَضِر.

ثم اختلفوا في بيان دواعي هذا السفر، فقال بعضهم إن موسى عليه السلام قال لله يومًا: هل يوجد رجل أعلم منه. قال سبحانه وتعالى: نعم، يوجد الرجل الفلاني. فذهب موسى عليه السلام لملاقاته. وفي رواية أن موسى سُئل مرة: هل يوجد رجل أعلم منك؟ فقال لا أعلم. فأوحى الله إليه وأخبره عن مكان الرجل الذي كان أعلم منه، فذهب لزيارته. (الكشاف والقرطبي والطبري، والبخاري: كتاب التفسير سورة الكهف).

الحق أن الناس قد أخطأوا في فهم هذا الحادث. ذلك أن سورة بني إسرائيل أنبأت عن هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ونتائجها على شكل إسراء، حيث أخبرت عما سيحققه المسلمون من الرقي والازدهار، وعما سيحيق بهم خلال هذه الترقيات من الأخطار المتمثلة في المعارضة الشديدة من قبل اليهود والنصارى. وكان من أكبر هذه الأخطار الخطر الآتي من إحدى طائفتي الأمة الموسوية وهي طائفة النصارى - علمًا أن النصارى هم، عند الله تعالى، من أُمة موسى وإن كانوا لا يعدّون أنفسهم منها.

فأخبر الله تعالى أن هؤلاء سيُلحقون بالمسلمين في آخر الزمان ضررًا كبيرًا جدًّا. وقد ذَكرَ الله تعالى إسراء موسى ﷺ عقبَ إسراء محمد ﷺ ليؤكد أن العاقبة لمحمد ﷺ ولأُمته، وأن هذه الطائفة الثانية من أُمة موسى، أي المسيحيين، لن يبقوا غالبين.

كان أستاذي المكرم المولوي نور الدين ﷺ يرى أن هذه الواقعة كانت كشفًا من كشوف موسى ﷺ، وأنها لم تقع بالجسم المادي. وبعد التدبر في الأمر توصلت إلى أنه ﷺ كان مصيبًا في رأيه هذا. وإليكم الأدلة على ذلك:

الأول: أنه لا يوجد في التوراة أي ذكر لهذا السفر، مما يدل على أن هذا الحادث لم يقع في العالم المادي. كان من الممكن أن يختلف العهد القديم والقرآن الكريم لحد ما في بيان تفاصيل هذا السفر، أما أن يخلو العهد القديم عن ذكره أصلاً فهو أمر جد غريب...

الثاني: لم يثبت لموسى ﷺ قبل بعثته إلى بني إسرائيل إلا سفر واحد، وهو سفره إلى مَدْيَنَ، وقد ذكره القرآن الكريم في أكثر من موضع. وقد أجمع القرآن والعهد القديم على أنه لم يكن مع موسى في ذلك السفر أحدٌ (سورة القصص: ٢٢- ٢٤، وسفر الخروج ٢: ١٥، ١٦). بينما نجد في السفر المشار إليه هنا رفيقًا لموسى تابعًا له على ما يبدو، لأن لفظ "فتى" إذا ورد مضافًا إلى أحد فيعني ابنَه أو خادِمَه. إذًا فكلمات هذه الآية لا تنطبق على السفر الذي قام به موسى إلى مَدْيَن. وبما أنه لم يثبت لموسى ﷺ سفر غيره فثبت أن السفر المشار إليه لم يكن إلا كشفًا.

الثالث: لم يثبت لموسى ﷺ حتى بعد بعثته سفرٌ فارقَ لأجله قومَه. ولقد سجّل العهد القديم أحداث حياة موسى من الأول إلى الآخر بترتيبها الواقعي، ولكن لا نجد فيها أيضًا ذكرًا لهذا السفر، وهذا يدل على أن هذا السفر لم يكن حادثًا ماديًّا.

الرابع: لما ذهب موسى ﷺ لسماع كلام الله إلى الجبل الذي كان يقع على بعد بضعة أميال فقط من قومه، وبقي هناك أربعين ليلة، اتخذ بنو إسرائيل في غيابه العجلَ إلهًا (الأعراف: ١٤٣-١٤٩). فإذا كانت غيبته لمجرد أربعين يومًا أدّت إلى

مثل هذا الفساد في قومه، فماذا عسى أن يقع فيهم أثناء غيابه الطويل عنهم بسبب هذا السفر الطويل؟ ولكننا نعرف أنه لم يقع أي فساد بين بني إسرائيل نتيجة هذا السفر، إذ لا تشير التوراة إلى أي فساد آخر غير الذي حصل باتخاذهم العجل إلهًا. كما أنه لم يكن من الحكمة أن يذهب موسى في مثل هذا السفر الطويل بعد ما شاهدَ من فساد قومه ما شاهدَ.

الخامس: عندما ذهب موسى إلى الجبل لميقات ربه أربعين ليلة استخلف أخاه هارون على قومه، ولكن لم يثبت أن موسى الطّيّلاً استخلف أحدًا -هارونَ أو غيره- خلال هذا السفر. إذ ليس من المعقول أن يذهب موسى الطّيّلاً لهذا السفر الطويل من دون أن يستخلف على قومه أحدًا. فعدم ذكره في الكتاب المقدس يدل على أن هذا السفر لم يكن بالجسد المادي.

السادس: أنه مما يتعارض مع سنة الأنبياء أن يفارقوا قومهم لأمد طويل بعد أن يبعثهم الله تعالى، حيث لا نجد بين الأنبياء الذين يذكرهم التاريخ نبيًّا واحدًا فعَل ذلك. وهناك أمثلة كثيرة حيث قام الأنبياء برحلات تبليغية بين قومهم، لكن سفر موسى الطّيّلاً هذا لم يكن من أجل التبليغ، كما لم يسافر في منطقة قومه، وإنما فارقَ قومه لمجرد أن يتعرف على الرجل الذي كان أعلم منه.

السابع: قال ابن عباس ﷺ في تفسير الكنـــز المذكور في هذا الحادث: "ما كان الكنـــز إلا علمًا" (ابن كثير، قوله تعالى: ذلك تأويلُ ما لم تَسْطِعْ عليه صبرًا). والجلي أن ما قاله ابن عباس تعبيرٌ، والتعبير لا يكون إلا للكشوف والرؤى. ولما كان الكنـــز علمًا فثبت أن الجدار الذي أقامه موسى ورفيقُه لم يكن جدارًا ماديًّا كذلك، كما أن الطعام الذي طلباه من أهل القرية لم يكن طعامًا ماديًّا. فإذا كان هذا الجزء من الواقعة كشفًا فلا شك في كون الواقعة كلها كشفًا من الكشوف.

الثامن: أن الشهادة النابعة من الحادث نفسه أيضًا تؤكد أنه لم يكن حادثًا ماديًّا. خُذْ مثلاً حادثة خرق السفينة، حيث قيل إنما خرَقها صاحبُ موسى كيلا يأخذها الملِكُ غصبًا. ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا: هل تعطلت السفينة

من ذلك الخرق أم لا؟ وإذا كانت لم تتعطل فلِمَ لم يغصِبْها الملكُ؟. وإذا كانت تعطلت بالمرة فلم لم تغرَق من الخرق الحاصل فيها؟ إذ من المستحيل في العالم المادي أن تسلم من الغرق السفينةُ التي يُنـــزع لوح من ألواحها. ولكن رؤية مثل هذا المنظر في الكشف ممكن تمامًا، ولا يخالف العقل بتاتًا.

كذلك لا يمكن أن تؤخذ حادثة "قتل نفس بغير نفس" من حيث الظاهر، لأن العبد الذي تبعه موسى عليه السلام ليتعلم منه إما أن يكون نبيًّا أو وليًّا مقرَّبًا لدى الله تعالى. ولا يمكن أن يجترئ على قتل نفس بغير نفس حتى المؤمنُ العادي، فهل يرتكبه وليٌّ مقرّب أو نبيٌّ عظيم الشأن.

يقول البعض لإثبات جواز قتل الغلام أنه لو عاش لكان قتّالاً وسفّاكًا. ولكنا نقول: إنه من الظلم العظيم ومما ينافي الشرعَ تمامًا أن يعاقَبُ شخص على جنايةٍ لم يرتكبها بحجة أن الله تعالى كان يعلم أنه سيرتكبها في المستقبل؟ لو كان مثل هذا العقاب جائزًا فلماذا لا يعاقب الله تعالى عباده قبل ارتكابهم الجرائم لمجرد علمه أنهم سيرتكبونها؟ إن القانون الأساسي في الشرع هو أن لا يعاقَب أحدٌ على إثم قبل ارتكابه، وإن جميع الشرائع على اختلافها متفقة على هذا الأصل.

وقد قال البعض إن ذلك الغلام كان يقتل بالفعل خفيةً ولكن لم يظهر على أمره أحد (زاد المسير لابن الجوزي). ولكنه قولٌ سخيفٌ، إذ لو كان الأمر كذلك لذكره القرآن المجيد ليعلَم الناس ويطمئنوا بأن قتل الغلام لم يكن بلا سبب.

والحادث الأخير في هذا السفر هو إقامة الجدار، وهو أيضًا لا يمكن أن يؤخذ على ظاهره، إذ لا يُعقَل أن نبيًّا جليلاً كريمًا كموسى عليه السلام يلوم رفيقه على إقامة جدار اليتيمين لأن أهل القرية أبوا أن يضيّفوهما، وبخاصة أنه لم يكن لليتيمين البريئين دخلٌ في هذا، بل كان الذنب ذنب أهل القرية. ثم إنه بعيدٌ عن مروءة ونبل موسى عليه السلام أن يعترض على رفيقه لعدم اتخاذه أجرًا على إقامة جدار اليتيمين.

إذًا فأحداث هذا السفر تشهد بنفسها على أنه لم يكن سفرًا بالجسد المادي، بل كان كشفًا من الكشوف.

التاسع: إن هذه الواقعة بمجملها تؤكد أنها كانت كشفًا، لأن الأمور الثلاثة - الصادرة من عبد الله هذا الذي اتّبعه موسى عليه السلام- إذا حُملت على ظاهرها فهي ليست من الأهمية بحيث يسافر من أجل تعلُّمِها مؤمن عادي بَلْهَ أن يُرسل الله تعالى موسى ليتعلّمها. هل راح موسى عليه السلام ليتعلم كيف تُخرَق السفن، ويُقتَل الناس، وتقام الجدران المتهدّمة، وهل يؤخذ الأجر على إقامة الجدار أم لا؟ كلا، لن يسافر لتعلُّم مثل هذه الأمور حتى بدوي جاهل. إذًا فليس في هذه الأمور ما يجيز العقل اعتباره أمرًا ماديًّا هامًّا حتى يسافر من أجله نبيٌّ جليل الشأن كموسى الذي كان من أُولي العزم من الرسل عليهم السلام.

العاشر: روى الماوردي أن الذي ذهب موسى للقائه كان مَلَكًا (ابن كثير). وهذا يعني أنه لا بد من اعتبار هذه الواقعة كشفًا، إذ لا يُعقل أن يتكبد موسى عليه السلام عناء السفر المادي لزيارة ملاك قادر على أن يأتي إلى موسى في لمح البصر.

الحادي عشر: ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: "وَدِدْنا أن موسى كان صبَر حتى يقصّ الله علينا من خبرهما" (البخاري: كتاب التفسير، باب قوله تعالى وإذ قال موسى لفتاه). فإذا حُملت هذه الأمور على ظاهرها فلا أجد أنا في نفسي أدنى رغبة في معرفة هذه التوافه، كما لا أتصور أن أيّ عاقل سيتمنى ذلك؛ فكيف برسول الله ﷺ الذي شأنه أسمى من إدراك البشر؟ فثبت أن هذه الأُمور كانت أنباءً تتعلق بزمن نبينا ﷺ وتجلّتْ على موسى عليه السلام على صورة كشف. وبما أنها تشتمل على الغيب وتنبئ عن أحوال الأُمة المحمدية لذلك تمنى رسول الله ﷺ أن يظل موسى صامتًا حتى تنكشف أُمور أُخرى أيضًا. فثبت من كل هذه الأدلة أن هذا الحادث كان كشفًا من الكشوف.

مما لا شك فيه أن هذا الحادث غير مذكور في العهد القديم، بيد أن كتب الروايات اليهودية تشير إليه. كما يتضح من المصادر الإسلامية أن مثل هذه الروايات كانت شائعةً بين اليهود في أوائل الإسلام، وإلا من أين أخذها المسلمون؟

غير أن الروايات اليهودية لا يمكن أن تؤثر على بحثنا، ولسنا مكلفين بقبولها ما لم يصدّقها القرآن والعقل والمشاهدة، بل إن قبولها من دون هذه الشروط لا يخلو من المزالق.

وملخص القول إن العقل والنقل كلاهما يقرّران كون هذه الواقعة مشهدًا من الكشوف الروحانية.

وهناك سؤال: من هو ذلك العبد من عباد الله الذي ذهب موسى عليه السلام في إسرائه ليتعلّم منه؟ كان أستاذي المكرّم حضرة المولوي نور الدّين رضي الله عنه يرى أن رسول الله ﷺ هو الذي تمثل لموسى. وقد تبين لي صواب رأيه بعد التدبر في الأمر، وأيقنت أن سيدنا محمدًا ﷺ هو الذي تمثل لموسى عليه السلام، ومن أجل ذلك تمنّى النبي ﷺ قائلاً: ليت موسى سكتَ حتى نزداد علمًا بالأُمور التي تتعلق بمستقبلنا.

وأرى -ورأيي هذا لا يتأسس على فهمي فحسب- أن موسى لما تلقى النبأ عن ظهور محمد ﷺ عند جبل سيناء (تثنية ١٨: ١٨)، وعلِم أن نبيًّا عظيمًا سيظهر بعده، تمنى أن يشاهد ذلك التجلي العظيم الذي يظهر به اللهُ على ذلك النبي، فلم يتمالك نفسَه وقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أنظُرْ إليك﴾؟ فأجابه الله تعالى: ﴿لن تراني﴾، لأن كلّ واحد يرى التجلي الإلهي اللائق به.

ومما يؤيد رأيي هذا أن موسى عليه السلام كان سبق أن شاهد التجلي الإلهي قبل هذا السؤال حيث قال الله تعالى لــه: ﴿إني أنا ربّك فاخلَعْ نَعلَيك إنك بالواد المقدَّس طُوًى﴾ (طه: ١٣). فرغم مشاهدته التجليَّ الإلهيَّ من قبل لِمَ قال موسى مرة أخرى: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إليك﴾؟

وقد يقال هنا: التجلي الذي شاهده من قبل كان روحانيًا، فأراد هذه المرة رؤية الله تعالى في صورته الأصلية. ولكن هذا القول تسفيةٌ لنبيّ الله موسى، ونعوذ بالله من ذلك، لأن طلب رؤية الله تعالى جهرةً في جسد هو غاية السفاهة والجهالة، ولا يجوز عزوها لموسى عليه السلام. فثبت أن طلبه هذا لم يكن إلا للرؤية الروحانية. وبما أن التجلّي الإلهي كان حصل لموسى عليه السلام من قبل، فلا بد أن يكون طلبه هذه المرة

لرؤية تجلٍّ من نوع آخر؛ وبما أنه الطَّيْلا سأل التجلي الإلهي هذه المرة بعد تلقّي بشارة ظهور محمد ﷺ مباشرة، لذا أستنتج من ذلك أنه سأل هذه المرة رؤيةَ التجلّي الإلهي الذي سينكشف على محمد ﷺ. فردّ الله عليه ﴿لن تراني﴾.. أي ليس بوسعك أن تراني بالصورة التي يراني بها محمد ﷺ، لأن رؤية ذلك التجلي تتطلب من الرائي أن يكون حائزًا على المرتبة المحمدية التي لم تَحُزْها أنت. وبالفعل لما تجلّى الله للجبل خرّ موسى صعقًا، وعرَف أنه لم يكن بوسعه تحمل ذلك التجلّي العظيم.

فأرى أن الله تعالى أراد بهذا الكشف أن يُرِيَ موسى الطَّيْلا سُموَّ مكانة النبي ﷺ إذ لم يكن الخضرُ في الكشف إلا حبيبي محمد ﷺ الذي لم يكن موسى الطَّيْلا قادرًا على السير معه. اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد وبارِكْ وسلّم إنك حميد مجيد.

أما قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾ (الكهف: ٦١) فقد ورد في الروايات أن ذلك الفتى هو يوشع بن نون (الكشاف). ولا غرابة في أن يكون موسى قد رأى معه في الكشف يوشع، ولكني أرى أن هذا الفتى هو في الحقيقة عيسى الطَّيْلا الذي كان من المقدر أن يُبعَث في آخر الأُمة الموسوية لهداية بني إسرائيل؛ وكأن سفر موسى هذا ما كان ليبلغ نهايته إلا مع عيسى عليهما السلام.

والحق أن الآية ... تدعم رأيي بأن هذا الفتى هو عيسى الطَّيْلا، إذ لم تذكر أن موسى أخذ معه فتاه حين خروجه من البيت، بل إنها لا تشير حتى إلى بداية سفره هذا. كل ما ورد فيها هو أن موسى الطَّيْلا وجد نفسه في حالة السفر مع فتى، فقال لفتاه: سأظل أمشي حتى أبلُغَ مجمَعَ البحرينِ أو أمضيَ حُقُبًا. وإن اللفظ الذي استعمل لبيان مدة هذا السفر هو حُقُب وهو جمع الحَقْب الذي معناه ثمانون سنة أو أكثر منها. والحق أن هذا اللفظ في اللغة العربية يقوم مقام القرن أي مائة سنة، وقد يُستعمل بمعنى سنة أو عدة سنين أيضًا. وإذا أخذنا المعنى الأخير فقوله ﴿أو أمضيَ حُقُبًا﴾ يعني أن أمشي سنين أو عشرات السنين. والظاهر أن مفارقة نبي لقومه لسنوات يتنافى مع العقل، بل يؤدي إلى التشكيك في ضرورة النبوة نفسها. إن

رسول الله ﷺ لما وجد نفسه مضطرًا للهجرة إلى المدينة أمَر أصحابه بالهجرة إليها قبل أن يهاجر هو نفسُه، كما كان في المدينة نفسها جماعةٌ من المؤمنين المخلصين تنتظرهم. إذًا فلو كان موسى عليه السلام يعني بقوله: ﴿أَو أمضيَ حُقُبًا﴾ أنه سيظل يمشي لسنوات فهذا أيضًا يدل على كون هذه الواقعة كشفًا. أما إذا أراد به أنه سيظل يمشي لقرون -وهو الأصح عندي- فقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الله تعالى قد أجرى هذه الكلمات على لسان موسى للدلالة على أن سفره الروحاني -أي زمن أُمته- سيمتد إلى قرون طويلة.

وعندي أن في ورود هذه الجملة في هذا المقام حكمةً أُخرى، وهي أنه كان من المقدر – لدى تلك المرحلة من السفر الموسوي التي سيُرافقه فيها فتاه – أن تعتقد طائفة من أُمّة موسى خطأً بانتهاء سفره وبداية سفر فتاه عيسى؛ بمعنى أنها ستظن أن زمن الشريعة الموسوية قد انقضى، وأن عيسى قد جاء بدين جديد؛ لذلك دحض الله عز وجل هذه الشُّبهة بهذه الجملة على لسان موسى وبيّن أن سفر موسى لم ينته بلقاء فتاه بل سينتهي عند مجمع البحرين، أي لدى بعثة محمد ﷺ. وكأنه تعالى يقرر هنا أن عيسى لن يأتي بدين جديد، بل يكون تابعًا ومؤيِّدًا لدين موسى، ولن يُنهي سفرَ موسى بل سيكمِّله كنائب عنه. وهذا الأمر قد أكده عيسى عليه السلام نفسُه حين قال: "لا تظنوا أني جئتُ لأنقُضَ الناموسَ والأنبياء. ما جئتُ لأنقض بل لأُكمِّلَ" (متى ١٥: ١٦).

يظهر من هذا الكشف أن موسى إما بدأ سفره هكذا بأن وجد نفسه وكأنه على سفر مع فتاه، وأنه متحيّر لعدم الوصول إلى غايته المنشودة؛ وإما أن هذا الكشف كان طويلاً، فلم ير القرآن المجيد حاجة إلى ذكر بدايته التي اشتملت على أحداث لا علاقة لها بالموضوع. ذلك أنه لا يقول أحد: ﴿لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ (الكهف: ٦١) إلا إذا كان قد ضلّ الطريق لفترة طويلة، فتأخذه الحيرة فيقول: أين غايتي المنشودة؟

واعلم أن لفظ (مجمع البحرين) أيضًا يؤكد كون هذه الواقعة كشفًا، إذ ليس ثمة مقام معروف بمجمع البحرين. هناك ثلاثة أماكن هي أقرب المواضع إلى المقام الذي سكن فيه موسى عليه السلام بعد الهجرة يلتقي فيها بحران، وهي:

١ - مضيق باب المندب حيث يلتقي البحر الأحمر والمحيط الهندي.

٢ - مضيق الدردنيل حيث يلتقي بحر الروم وبحر مَرْمَرَة.

٣ - مضيق البحرين حيث يلتقي الخليج الفارسي والمحيط الهندي.

كل من هذه الأماكن الثلاثة يبعد عن وطن موسى عليه السلام نحو ألف ميل، ونظرًا لحالات ذلك الزمان كان السفر إليه يستغرق سنة تقريبًا. وكما هو بيّنٌ من الكشف أن موسى سافر ماشيًا على ساحل البحر، وفي حال اعتباره سفرًا ماديًّا فليس مجمع البحرين هذا إلا مضيق الدردنيل لأنه هو المكان الوحيد من بين هذه الأماكن الثلاثة الذي يمكن أن يصل إليه المرء من مسكن موسى عليه السلام عبر ساحل البحر. ولكن هذا الطريق يمر بأرض كنعان التي لم يستطع موسى عليه السلام أن يدخلها أبدًا في حياته، كما يشهد عليه العهد القديم (تثنية ٣٤: ٥). وهذا دليلٌ آخر على كون هذه الواقعة كشفًا.

فالحقيقة أن مجمع البحرين ليس اسم مقام ماديّ خاص، بل هو اسم يتطلب تعبيرًا، حيث ورد عن البحر: "يدلّ في المنام على مَلك قويٍّ هائل مهاب عادل شفيقٍ يحتاج إليه الخلائقُ." ثم يقول: "وربما دلَّ البَحرَ على التسبيح والتهليل" (تعطير الأنام: كلمة البحر).

وكأن هذا التعبير القرآني الأخير يومئ إلى قول الله تعالى في مستهل سورة الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ (الإسراء: ٢). فالمراد من مجمع البحرين الزمن الذي انتهى فيه عهد موسى عليه السلام وابتدأ عهد محمد ﷺ.. أي أن الساعة التي تلقى فيها سيدنا محمد رسول الله ﷺ أوّل وحي النبوة كانت مجمع البحرين، حيث انتهت الحدود الزمنية لُملك موسى عليه السلام الذي كان حاكمًا روحانيًّا عادلاً شفيقًا لا غنى للخلق عنه، وابتدأت الحدود الزمنية لُملك محمد رسول الله ﷺ الذي كان أكبر

البحار أي الملوك الرّوحانيين. فكأن الله تعالى أراد بإراءة موسى عليه السلام مجمعَ البحرين أن يدله على زمن ينتهي فيه عهد أُمّته ليبدأ من هناك بحر آخر أي زمنُ نبي جديد، وأنه لن ينال بعد ذلك أحدٌ أسباب الحياة الروحانية إلا الذي يغوص في هذا البحر الجديد.

هذا، وتتضمن هذه الرؤيا أيضًا الإشارةَ إلى أن السلسلة الموسوية كانت إرهاصًا للسلسلة المحمدية، وأن البحر الموسوي سيلتقي في نهاية المطاف بالبحر المحمدي؛ والدليل على ذلك هو مجيء جبريل عليه السلام بنفسه إلى رسول الله ﷺ في الإسراء، بينما نجد موسى عليه السلام في كشفه يخرج بنفسه مع فتاه إلى مجمع البحرين حيث انتهى سفره (الدر المنثور، ودلائل النبوة للبيهقي: باب الإسراء).

اعلم أنه قد ورد في كُتب علم التعبير عن الحوت: "ربما دلّت رؤيتُه على معبد الصالحين ومسجد المتعبدين" (تعطير الأنام: كلمة الحوت).

يتضح من هذه الآية والآيتين التاليتين أن علامة مجمع البحرين التي أُوتِيَها موسى عليه السلام هي غياب الحوت عند وصوله إلى المجمع. فالمراد من قوله تعالى ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ (الكهف: ٦٢) أن المقام الذي تخرج عنده معابدُ الصالحين ومساجد العابدين مِن أيدي هؤلاء هو مجمع البحرين.. أي المقام الذي تنتهي إليه السلسلة الموسوية وتبتدئ منه السلسلة المحمدية.

كم هو واضح وجليٌّ هذا المعنى، أعني عند ظهور نبيّ جديد يُنـــزع الصلاح والعبادة الحقيقية من الأمة القديمة، وينتقلان إلى قوم النبيّ الجديد. وإلى هذا يشير هذا الكشف، حيث أخبر الله تعالى أنه بعد ظهور محمد رسول الله ﷺ إنما تُقبَل العبادات من الأُمة المحمدية وحدها، ولن تحظى عباداتُ بني إسرائيل أُمّةِ موسى بالقبول عند الله تعالى، وستندثر آثار العبادة الحقيقية والصلاح والورع في أفراد الأمة الموسوية.

فقوله تعالى ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ يعني أن الأُمّة الإسرائيلية الخالصة -أي قوم موسى- ستخلو من العبادة الحقيقية والتقوى الحقيقية قبل مجيء مجمع البحرين بزمن

طويل، ولن تبقى العبادة والصلاح إلا في أُمّة يمكن أن تدعى قومًا لموسى ولفتاه معًا، أو بتعبير آخر: عند ظهور المسيح الطَيْكِلاً ستوجد العبادة الحقيقية في المسيحيين فحسب، بينما سيُحرَم منها باقي بني إسرائيل.

ولكن بما أن عيسى هو أحد أنبياء السلسلة الموسوية، فحُوته بالتالي هو حوت موسى، لذا فقولـــه تعالى ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ تتضمن أيضًا الإشارةَ إلى أنه حتى النصارى-وهم الذين ينتمون إلى هذين النبيين معًا- سينسون حوتهم عند مجمع البحرين.. أي سيُحرمون هم الآخرون من العبادة الحقيقية والتقوى عند ذلك المقام.

هذه الآية أيضًا تؤكد كون هذا السفر كشفًا، لأن مجمع البحرين المادي ليس من الصعب معرفته عند المرور به، ولا يمكن أن يتجاوزه المارُّ دون أن ينتبه له، كما أن معرفته لا تحتاج إلى علامة من حوت أو غيره. فلا شك إذن أن مجمع البحرين هذا روحاني يُعرَف بالآثار والعلامات إذ لا يوجد له علامة مادية يُعرف بها، بل وإن الناس في ذلك الوقت يكونون معارضين ومكذبين، ولا يقبَلون أن مجمع البحرين قد أتى.. أي لا يقبَلون أن عهد النبيّ السابق قد انتهى وعهد النبيّ الجديد قد ابتدأ. إن العلامة التي يُعرَف بها هذا الأمر هي فقدان العبادة والصلاح في قوم النبيّ السابق. عندما يرى أُولو الألباب هذا الفرق البيّن أعني حين يرون أن الله تعالى لا يقيم لعبادات القوم الأول وزنًا، ويقبل عبادات القوم الثاني ويستجيب أدعيتهم، يدركون أن مجمع البحرين قد جاء.

وبناء على هذه الآية أرى أن هذا السفر الروحاني لموسى الطَيْكِلاً كان مذكورًا في التوراة، ولكن اليهود كدأبهم محوا أثره لكونه ضربة قاضية عليهم. ولكن بقي ذكره في روايتهم السماعية، فنجده مسجَّلاً في كتبهم الأُخرى بصورة مشوهة.

كما يتضح أيضًا من الآية... أن السلسلة الموسوية كانت بمثابة حلقة للسلسلة المحمدية، لأن فقدان علامة مجمع البحرين في العالم الظاهري يدل على أن هذين البحرين كانا سيلتقيان بحيث لا يبدو للرائي أنهما بحران، بل يبدو البحر الثاني جزءاً

من البحر الأول، وكأن ماء البحر الأول دخل في البحر الثاني بشكل لم يعودا معه بَحرين متقابلين حتى يُعرَف مجمع بينهما بعلامة معينة.

اعلم أنه ليس من الضروري أن نؤول كل جزء من أجزاء الكشف، إذ قد يرى الإنسان في الكشف أُمورًا تكمل مشاهده ولكنها ليست بحاجة لتأويل وتعبير. مثلاً إذا رأى المرء في الرؤيا منظر الموت، ورأى معه مكانًا ما، فلا يحتاج ذلك المكان إلى تعبير، إنما المنظر الذي يُستدل منه على موت أحد يقتضي التعبيرَ. ومع ذلك فإن تعبير مثل هذه الأماكن قد يساعد على فهم الموضوع، لذلك أريد أن أفسر الغداء المذكور هنا أيضًا حسب علم التعبير.

إن طلب الغداء في الرؤيا يدل على التعب والنصب حيث ورد: "مَن رأى أنه يطلب غداءً فإنه يتعَب" (تعطير الأنام: الغداء). فتعني الآية أنه لما يأتي مجمع البحرين أي يأتي زمنُ رسول الله ﷺ..فلا تنتفع منه أمة موسى وعيسى عليهما السلام – علمًا أن موسى وعيسى في هذا الكشف إنما يمثّلان أمتهما، إذ لم يجدا زمن محمد ﷺ- بل ستستمر في كفرها ولا تبرح مسافرة، دون أن تقبل أن زمن دينها قد انتهى؛ ثم بعد سفر طويل تشعر بتعب شديد، وتقول في حيرة بالغة: لِمَ لم يظهر النبيّ الكامل الذي وُعدنا بظهوره؟ ثم بعد عنائها الطويل تقول في نفسها: ألسنا على خطأ؟ فلعل ذلك النبيّ يكون قد ظهر، ولكنا حُرمنا الإيمانَ به!؟

ونظرًا إلى تأويل الصخرة فإن قوله ﴿إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾ (الكهف: ٦٤) سيعني أننا لما ابتُلينا بالفسق والفجور.. والمراد أن الذين ينتسبون لكلا النبيين موسى وعيسى عليهما السلام –وهم النصارى– حين يقعون في هوة الفسق والفجور، فذاك هو زمان مجمع البحرين.. أي الزمن الذي سيظهر فيه محمد رسول الله ﷺ، لأن الأنبياء لا يرسَلون إلا عند تفشّي الفسق والفجور بين الناس.

فتأويل المنظر المذكور أنه بالرغم من أن الزمن الذي سيعمّ فيه الفساد والفجور بين الأُمّة المسيحية هو زمن ظهور محمد رسول الله ﷺ، إلا أن النصارى لن يدركوا

ذلك إلا بعد زمن طويل، وبعد نَصَبِهم في السفر المضني، وإخفاقهم في جهودهم؛ فيتأسفون على فوات الأوان.

ويزداد هذا المفهوم جلاءً بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ﴾ (الكهف: ٦٤)... أي سيقول المسيحيون في أنفسهم: ما حَرَمَنا من معرفة محمد ﷺ إلا وساوس الشيطان وهواجسه، إذ ما دمنا قد رأينا أن عباداتنا لم تعد تؤتي ثمارها، وأننا قد انغمسنا في الفسق والفجور، فلِمَ لم ندرك حينها أن مقام مجمع البحرين قد جاء، وأن الله تعالى قد خذَلنا، وأن عهد النبيّ الموعود قد بدأ؟ ذلك أن قوله ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ (الكهف: ٦٤) إشارة إلى عجبهم من خَطَئهم، وأنه كيف خرَج الحوت من أيديهم ودخَل في البحر الثاني، أي كيف انتقلت ثمرات العبادة إلى المسلمين، وبقينا محرومين منها.

هذا المنظر أيضًا يدل على كون هذه الواقعة كشفًا، وإلا لم تكن هناك حاجة لجعل الحوت الحقيقي علامة لمعرفة مجمع البحرين الظاهري. وإن قلنا أنهما كانا يمشيان ناظرَين إلى الحوت الظاهري، فلم يكن لنسيانهما إياه مجال. هل رأيتم في الدنيا مثلاً أن رجلاً يسافر في سيارة، ثم بعد قطع مسافة طويلة ينسى أنه يركب سيارة، ويبدأ السفر على الأقدام دون أن يدري، ثم يتذكر بعد برهة من الزمان أنه كان يسافر في سيارة؟! إذًا فما داما يمشيان ناظرَين إلى الحوت فلم يكن لهما أن يخطُوَا خطوة واحدة من دون النظر إليه، وبالتالي يستحيل أن ينسياه.

أي أنهم سيدركون في تلك المرحلة أنهم قد أخطأوا إذ ما برحوا في سفرهم منفردين، مع أنهم قد تركوا مجمع البحرين وراءهم.

كما أن النبيّ ﷺ هو المقصود أيضًا في قوله تعالى ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ (الكهف: ٦٦)، حيث يخاطبه الله تعالى في موضع آخر من القرآن الكريم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٨).

كما تكشف لنا هذه الآيات البونَ الشاسع بين طبيعة محمد وطبيعة موسى عليهما السلام. ففي حين نجد موسى ﵇ يستعجل في السؤال، نجد رسول الله ﷺ يلزم الصمت التامّ حتى يكشف الله عليه كل أمر من عنده.

كما أن إدراك العلوم المحمديَّة يكون صعبًا في الحقيقة على أتباع السلسلة الموسوية، لأن هذا الدين سيأتي بكثير من القضايا الجديدة، والحق أن قبول كل أمرٍ جديد يصعب جدًّا على من يزعم أنه من أهل العلم، ولذلك نجد الكفارَ، الذين كانت قلوبهم بمثابة لوح خال من الكتابة، آمنوا به بسرعة، ولكن اليهود والنصارى، الذين كان عندهم الكتاب، حُرموا من الإيمان؛ لأن كلَّ أمر خالف فيه الإسلامُ شرعَهم تسبب في نفاد صبرهم، فكانوا يقعون في الابتلاء. ولهذا السبب نفسه حُرمت اليهود من الهدى في عهد المسيح ﵇ أيضًا، بينما دخلت الأقوام الأُخرى في دينه تباعًا.

الغريب أن موسى ﵇ الذي أُخذ منه العهد بعدم السؤال لم ينفك يوجه سؤالاً تلوَ سؤال، ولكن محمدًا رسول الله ﷺ الذي لم يأخذ منه جبريل ﵇ عهدًا كهذا، لما تمثل لــه الشيطان والدنيا خلال الإسراء، ونهاه جبريل عن السؤال أطاعه طاعة كاملة ولم يسأله عن شيء (ابن جرير: سورة الإسراء). وهذا أيضًا يكشف لنا البونَ الشاسع بين مكانة النبيَّين عليهما السلام.

من هنا تبدأ واقعة إسراء موسى ﵇، حيث عُقدت المقارنة بين أحوال الأُمة المحمدية وأحوال الأُمة الموسوية. كان أستاذي المكرم حضرة المولوي نور الدين ﵁ يقول: إن الفرق بين إسراء رسول الله وبين إسراء موسى عليهما السلام يتمثل في أن نبينا ﷺ اجتنب السؤال، ولكن موسى ﵇ لم يستطع الصبر ولم يمسك عن السؤال؛ وكان هذا إشارة إلى أن أمة محمد ﷺ ستتمسك بالدين صابرةً، ولكن أُمة موسى ستتخلى عن الدين لقلة صبرها. ولا شك أن هذه إشارة لطيفة، وقد أكدتها الأحداث.

وكان حضرته يقول أيضًا: لقد رأى رسول الله ﷺ في الإسراء ثلاثة أمور، كذلك رأى موسى أيضًا في الإسراء ثلاث واقعات.

وأقول: ومما فتح الله عليّ من علمه هو أن هذين الإسراءين لا يتشابهان في عدد الواقعات الحاصلة فيهما فقط، بل أيضًا في تفسير هذه الواقعات. ورغم اختلافهما من حيث اللغة التمثيلية، فإن الحقيقة واحدة. وكان هذا ضروريًّا، لأن إسراء موسى عليه السلام كان يتضمن النبأ عن ظهور محمد ﷺ، فكان لزامًا أن تتم فيه الإشارة إلى واقعات الإسراء المحمدي.

أما "السفينة" فلا أتذكر الآن تفسير أستاذي المكرم لها، ولكنني أفسرها بمعنى المال، وأرى أن هذا هو المراد في هذا الكشف، لأن القرآن أيضًا يؤكد ذلك حيث يقول ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾(الإسراء: ٦٧). والمراد من "الفضل" هنا المال والثروة. وركوبهما السفينة يعني أنه سيأتي على الأُمّتين الموسوية والمحمدية زمان تُرزَقان فيه الثروة المادية رغدًا.

بعدها تقول القصة إنهما لما ركبا السفينةَ خرَقها صاحب موسى عليهما السلام.. أي أخرجَ ألواحها وجعَلها قِطَعًا، حيث يقال خرَق الثوب أي مزّقه وجعَله قطعًا. فاعترض عليه موسى -وبتعبير آخر اعترض قومُه- وقال: أتريد بذلك أن تُغرق أهل السفينة؟ لقد جئتَ أمرًا منكَرًا.

وخرقُ السفينة عندي يعني أن محمدًا ﷺ قام بخرق في دنيا أُمّته من خلال كثرة الأحكام الشرعية المتعلقة بالمال. فمثلاً أمرهم أوّلاً بأداء الزكاة التي تتسبب في نقصان المال في الظاهر. ثم أمرهم بالصدقات. ثم أصاب في أموالهم إذ منعهم من أخذ الربا، ثم قام بتوزيع أموالهم بأحكام الإرث، وهكذا حالَ دون تكدس الأموال. وكأنه ﷺ دمّر حياتهم الدنيوية في نظر أهل الدنيا، أما في نظر أهل الصلاح والتقوى فإنه ﷺ صان قومه من التأثير السيئ لحُب الدنيا ووقاهم من عبودية أهل الثراء.

إن هذا التعليم يصعب جدًّا قبولُه على أتباع السلسلة الموسوية، اليهودِ والنصارى. مما لا شك فيه أن النصارى يقولون بأفواههم إن "مرور جَمَلٍ مِن ثقبِ إبرةٍ أيسرُ مِن أن يدخل غنيٌّ في ملكوت السماوات" (مرقس ١٠: ٢٥)، ولكنهم يعملون خلاف ذلك. إن جميع القوانين في بلادهم تساعد على تراكم ثروة الأغنياء. ليس عندهم أي أمر بوجوب أداء الزكاة. كما أن لهم حرية تامة للتعامل الربوي. ولعبُ الميسر غير محرم عندهم. ولا يوجد في بلادهم قانون ينص على تقسيم تركة الميت بين الوَرَثة الكثيرين؛ بل يمنح معظم أغنيائهم ثروتهم أكبرَ أبنائهم لتزداد العشيرة الواحدة ثراءً. وكذلك لم يحفظ شرعُهم حقوق العُمّال، في حين إن الإسلام قد سنّ قوانين عديدة لحماية حقوقهم كيلا يحتكر حفنةٌ من الأثرياء الأموالَ ويستعبدوا الفقراء. هذه هي الأحكام الإسلامية التي بسببها يخاف اليهود والنصارى من الدخول في دين الإسلام ظانين أنها بمثابة غرق القوم ودمارهم.

هذا هو الدرس الأول الذي تلقاه موسى عليه السلام في إسرائه. وهكذا حصل تمامًا مع النبي ﷺ ليلة الإسراء حيث رأى في أول الأمر امرأة عجوزًا، ثم عُرضت عليه كأس الماء. وقد عبَّر جبريل عليه السلام العجوزَ بالدنيا والماءَ بالمال، وقال للنبي ﷺ: لو شربتَ الماء لغرَقتَ أنت وأُمّتُك، أي لشغلت أمورُ الدنيا أُمتَك، وضعُفتْ علاقتُها بالله تعالى.

لاحظِ البونَ الشاسع بين أفكار قوم موسى وقوم نبينا الكريم عليهما السلام! فجبريل عليه السلام يقول للرسول ﷺ: لو شربتَ الماء لغرَقتْ أُمتك، وكأنه يعتبر السفينةَ الصالحة -أي الانشغال بالحياة المادية- غرقًا، ولكن موسى عليه السلام أي قومه يعدُّ السفينةَ المخروقة -أي تطبيقَ أحكام الزكاة وغيرها التي تحول دون احتكار الأموال الدنيوية في أيدي البعض- غرقًا. فكيف يمكن إذًا أن يتعاون الفريقان في العمل مع هذا الاختلاف الشديد في الآراء، وإلى متى يمكن أن يتحمل أحدهما الآخر كرفيق؟

واعلم أن هذه الآية أيضًا تؤكد كون هذه الواقعة كشفًا، وإلا لغرقت السفينة حين خرَقها العبد.

أي لقد قلت لك منذ البداية إن ما بين تعليمي وتعليمك ما بين السماء والأرض، ولا يمكن أن ترافقني في سفري إلا إذا قتلتَ أهواء نفسك تمامًا.

طلَب موسى عليه السلام من ذلك العبد أن يعفو عنه هذه المرة، وأنه لن يعود لمثل هذا أبدًا.

أما قوله تعالى ﴿حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاَمًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ (الكهف: ٧٥)، وعندي أن قتل الغلام هنا يناظر المنظرَ الثاني الذي رآه رسول الله ﷺ في إسرائه شكلاً ومضمونًا. لقد رأى رسول الله ﷺ في إسرائه أن رجلاً يناديه من ورائه ولكنه ﷺ لم يجبه؛ ثم عُرض عليه ﷺ كأس الخمر، ولكنه أبى أن يشربها. وقد عبر جبريل الرجلَ بالشيطان، وعبّر كأسَ الخمر بالغواية التي هي من عمل الشيطان. وكان المنظر الثاني في إسراء موسى عليه السلام أنه رأى غلامًا قتَله العبدُ الصالح أي الجمالُ المحمدي. وإذا رجعنا إلى كتب تعبير الرؤيا وجدناها تقول إن رؤية الشاب في المنام تدل -فيما تدل- على الحركة والقوة وغلبة الجهل (تعطير الأنام). والحق أن هذه الأُمور الثلاثة -أي القوة والرغبة في اللهو والجهل الشديد بالعلم الروحاني- إذا اجتمعت في شخص اتبع خطوات الشيطان.

وكان في منظر قتلِ الغلام واعتراضِ موسى على قتله إشارةٌ إلى التعليم الإسلامي الثاني الذي يحرّم الخمر وينهى عن اللغو واللهو، والذي يعترض عليه أتباع السلسلة الموسوية، وخاصة النصارى منهم -وقد ذكرتُ سابقًا أن فتى موسى هو المسيح، وأن أُمّة موسى الموجودة عند مجمع البحرين هي أتباع المسيح، وإن كان اليهود يندرجون فيها ولكن بدرجة أقلّ- لقد أخبر الله تعالى بذلك أن هؤلاء سيعترضون على الإسلام بأنه يقتل الشباب أي يحرم الإنسان من التمتع بملذات الحياة، ويرون أن هذا ظلم عظيم، معتبرين أن الله تعالى قد منحه هذه القوى لكي يتلذذ بها، لا أن يهدرها ويهلكها.

وبالفعل تجدون المسيحيين يكرهون الإسلام عمومًا لأنه منعهم عن الإتيان بمثل هذه الأعمال الشيطانية ويظنون أن الإسلام قد قتل الشباب جراء هذا التعليم. هذه الآية أيضًا تدل على أن هذه الواقعة كانت كشفًا لأن قتل أحدٍ في حالة اليقظة من دون سببٍ حرامٌ قطعًا.

وكان فيه أيضًا رسالة إلى أن اليهود والنصارى سينقضون المعاهدات التي ستتم بينهم وبين المسلمين مرة بعد أُخرى، وتغلب عليهم عداوة الإسلام التي تمكنت من قلوبهم.

اعلم أن أهل القرية يعني القوم، لأن الأقوام تُرى في المنام على صورة القرى. وأما الضيافة فتأويلها التعاون حيث ورد أن الضيافة في المنام اجتماع على خير (تعطير الأنام: كلمة الضيافة). فتأويل قوله تعالى ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ (الكهف: ٧٨)، هو أنهما التمسا من ذلك القوم أن يعاونوهما، ولكنهم رفضوا طلبهما.

أما قولـــه تعالى ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ (الكهف: ٧٨) فقد ورد عن الجدار: "من رأى حيطانَ بناءٍ قائمةً محتاجةً إلى مَرَمّةٍ فإنه رجل عالم أو إمام ذهبتْ دولتُه. فإن رأى أقوامًا يرمّمونها فالمراد أن أُموره سيتم إصلاحها" (تعطير الأنام: كلمة الحائط، الهامش). وإذا رأى أنه لم يُرمَّمْ فمعناه دمارُ عمله. وورد في كتاب التعبير للإمام ابن سيرين أن إصلاح الفساد في حصة من الجدار تأويلُه تعيينُ والٍ جديد مكانَ الوالي الأول.

فيعني هذا المنظر كله -نظرًا لهذه التأويلات- أن موسى وعبدًا من عباد الله الذي صاحَبَه في السفر سيلتمسان التعاون من قوم، ولكنهم سيأبون التعاون معهما. ثم سيشاهدان أنَّ عمل رجل صالح كاد أن يفسد، فيسكت موسى ولكن صاحبه -عليهما السلام- سيُصلح ما فسد من عمل ذلك الرجل الصالح. فيقول موسى لذلك العبد: كان الأولى بك أن تتخذ عليه أجرًا، فيغضب صاحبُه من قوله هذا ويفارقه. أو المراد أنه سيُستخدَم على ذلك القوم والٍ آخرُ.

وعندي أن الجزء الأول من هذا المنظر يدل على أن المراد من القرية هنا عالَمُ اليهودية والنصرانية، حيث رفض التعاونَ حين دُعي إليه. أما الجدار فالمراد منه قِدِّيسو اليهود والنصارى، والمراد من قرب انقضاض هذا الجدار زوالُ أثر هؤلاء القديسين. والمراد من إصلاح الجدار تمكين تعليمهم مرة أُخرى وتعيُين والٍ أو حاكمٍ جديد بينهم.

وأما قول موسى الطَّيْلا ﴿لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ (الكهف: ٧٨)، ففيه إشارة إلى أن قومه سيزداد طمعهم التجاري، فلا يأتون بعمل إلا من منظور المنفعة المادية، وسيصعب عليهم جدًّا القيام بعمل خالصًا لوجه الله. وهذا ما نشاهده اليوم بأم أعيننا حيث إن المسيحيين -الذين هم آخر حلقة للسلسلة الموسوية- لا يخلو تعليمهم من الأغراض المادية، ولا تكون مواساتهم إلا للمكاسب الدنيوية، حتى إن تبشيرهم أيضًا لا يخلو من الأهداف السياسية والمكاسب المادية. ويكاد ينعدم فيهم العمل الخالص لوجه الله تعالى، الذي لا تشوبه فكرة الكسب المادي.

وأما رفض أهل الكتاب التعاونَ فمثاله في حياة موسى الطَّيْلا أنه خرج بقومه من مصر واعدًا إياهم بأن الله تعالى سيؤتيهم ملك كنعان، وبعد أن حاربوا وهزموا عديدًا من الأقوام الصغيرة، أمرهم بالهجوم على أهل كنعان، ولكنهم لم يستجيبوا لـــه. يسجل القرآن الكريم هذا الأمر ويخبر أنهم: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (المائدة: ٢٥).. أي حين قال موسى لقومه: إنه قد آن الأوان أن تهاجموا عدوكم، فتنـــزعوا منهم الأرض الموعودة لكم، رَدّ عليه قومه وقالوا: هذا الوعد منك أو من ربك؟ لماذا نـــزهق نحن أرواحنا عبثًا في سبيل تحقيقه؟ فاذهب أنت وربك فقاتلا، أما نحن فلن نحرك ساكنًا، ولن ندخل الأرض إلا بعد أن تقوما بفتحها!

يتضح من هذا جليًّا أنه في الوقت الذي كاد أن يوفيهم الله وعده أبى قوم موسى الطَّيْلا التعاون معه بعذر باطل ناسين أن من سنّته تعالى أنه يوفي بعض وعوده

بواسطة عباده، ومن واجب العباد أن يتعاونوا مع أنبيائهم لتحقيق مثل هذه الوعود الإلهية.

أما عدم تعاونهم مع رسول الله ﷺ فمثاله ما ذكره القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٥).. أي يا محمد قُلْ لأهل الكتاب، سواء كانوا هودًا أو نصارى، أن يتركوا العناد ويتعاونوا مع المسلمين في أمر واحد ألا وهو نشر التوحيد، فلا يعبدوا إلا الله، ولا يشركوا به من حيث العقيدة شيئًا، ولا ينحازوا إلى أحد ظلمًا، بل يعملوا في العالم بالعدل والإنصاف كما يريد الله تعالى. وكأنه ﷺ أُمر هنا أن يلتمس منهم التعاون من أجل توطيد التصالح مع العباد وكذلك مع الله تعالى. ثم ينصح الله تعالى المسلمين: قولوا لليهود والنصارى، إن رفضوا هذا الالتماس العادل، ولم يرضوا بالتعاون في هذا العمل المشترَك، إذا كنتم لا تلبّون دعوة التعاون هذه فشأنكم، أما نحن فنتعاون معه ﷺ امتثالاً لأمر الله تعالى.

والحق أننا إذا أمعنا النظر وجدنا أن قوم المسيح لم يتعاونوا أيضًا معه عليه السلام حيث فرّوا جميعًا وخذلوه لدى واقعة الصليب.

لما رأى هذا العبد الصالح أن صاحبه لا يمتنع عن الاعتراض قال لـــه: الآن لا بد لنا من الفراق.

وكان هذا إشارة إلى أن أهل الكتاب حين يرفضون دعوة الاتحاد على التوحيد ولا يمتنعون عن الإشراك بالله، سيقطع محمد رسول الله ﷺ علاقته عنهم، لتبدأ المواجهة بينه وبينهم.

واعلموا أن الرائي قد يعبّر في الرؤيا نفسها الأحداثَ التي يراها فيها، وقد يكون ذلك التعبير واضحًا تمامًا، وقد ينكشف تأويلها جزئيًّا بحيث تحتاج إلى تعبير آخر في اليقظة كما هو الحال في هذا المقام. مما لا شك فيه أن التأويل الذي ذكره العبد

الصالح للأحداث يكشف الحقيقة لحد ما، ولكنه ليس بتأويل واضح، بل لا تزال الأحداث بحاجة إلى تأويل آخر طبقًا لمبادئ عالم اليقظة.

قبل كل شيء قام العبد الصالح بتأويل حادث السفينة فقال ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (الكهف: ٨٠).

لقد سبق أن ذكرتُ تأويلَ جميع الأحداث ما عدا المساكينَ والمَلِكَ. فاعلم أن المراد من المساكين هنا أناس منكسرة متواضعة قلوبهم، لا تمنعهم أموالهم ولا منجزاتهم المادية عن مواساة الفقراء والعطف عليهم والتعايش معهم. أما الملِك فتأويله حب الدنيا، لأن الملوك الماديين مظهر من مظاهر الدنيا. وبما أن الآية تذكر هنا أن الملك كان يأخذ السفينة غصبًا فالمعنى أن الأغنياء الذين ليس لديهم حب الدين ولا ينفقون جزءًا كافيًا من أموالهم على الفقراء والأعمال الخيرية الأُخرى، تستولي عليهم محبة الدنيا وتصير أموالهم تحت تصرف الشيطان. لذلك أوصى النبي ﷺ أُمّتَه، بأمر الله تعالى، أن يخرقوا سفينتهم، أي أن ينفقوا أموالهم في سبيل الدين وخدمة الإنسانية، كيلا يطغى حبُّ الدنيا على قلوبهم، ولكيلا تصير أموالهم للدنيا الدنيّة، بدل أن تكون لله تعالى وحده.

وجدير بالذكر هنا أن الدنيا ظهرتْ لرسول الله ﷺ في الإسراء على شكل عجوز، بينما ظهرت لموسى عليه السلام في إسرائه على صورة ملِك غاشم. وهذا، في رأيي، إشارة إلى أن هجوم الدنيا على الأُمة المحمدية يكون ضعيفًا جدًّا حيث كانت صولتها على المسلمين بقوة امرأة عجوز، ولكن صولتها على أُمّة موسى تكون على أشدها حيث رآها على صورة ملِك غاصب.

لقد ذكرت سابقًا أن رؤية الغلام في المنام تأويلها الحركة والقوّة وغلبة الجهل، والتفسير الذي بيّنه هذا العبد الصالح في هذا المقام يوافق هذا التعبير تمامًا؛ حيث قال عن قتل الغلام: كان أبواه مؤمنَين فخشِينا أن يُرهقهما طغيانًا وكفرًا.. أي قتلتُه مخافة أن يتسبب في طغيانهما وكفرهما.

وقولـــه تعالى ﴿خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ (الكهف: ٨٢) فاعلم أن الزكاة تعني الطهارة والنماء، وأن الرُّحم هو الرِّقة والتلطف (الأقرب). فالآية تعني أن الولد الجديد سيكون برًّا بهما ومطيعًا لهما وسببًا لرقيهما وطهارتهما. بمعنى أن القوى الإنسانيةَ غير المكبوحة إذا قُتلتْ بحُسام الشرع وكُبِّلتْ حُرِّيتُها الهمجية بقيود الأحكام الإلهية، استجابت لأوامر الجسم والروح وساعدت على تطورهما وطهارتهما.

ولكن الأُمة الموسوية -كما ذكرتُ من قبل- لم تستوعب هذا الأمر، بل انغمست في اللهو والملذات والخلاعة والمجون، ولأجل ذلك نشاهد في أعمالهم سرعةً، وفي قواهم حِدّةً، وفي سلوكهم تجاسرًا؛ ومن جانب آخر تزيدهم هذه القوى طغيانًا وكفرًا، وتنحرف بهم عن الخير والتقوى، ولا تميل طبائعهم إلى قبول ما يمليه الدينُ والعقل اللذان يمثِّلان الروحَ والجسدَ.

قال هذا العبد الصالح لموسى: بَقِيَ الآن أن أُجيبَ على أمر اختلفنا فيه. أنت لا تفهم لماذا أصلحتُ الجدار الذي كان يريد أن ينقض من دون أن آخذ عليه أجرًا؟ فاعلم أنني أصلحت الجدار لأنه كان يحفظ تحته كنـــزًا لغلامَين يتيمَين في المدينة كان أبوهما صالحًا.

لقد ذكرتُ سابقًا أن الجدار معناه هنا الصالحون من أجداد اليهود والنصارى، والمراد منهم في هذا المقام موسى وعيسى وأبوهما سيدنا إبراهيم الذي قال الله تعالى عنه في القرآن المجيد: ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (البقرة: ١٣١). أما الكنـــز فهو الكنـــز العلمي الروحاني الذي حفِظه تعليمُ موسى وعيسى، ولكن نفوذهما الروحاني الذي كان يحمي ذلك الكنـــز بعد موتهما كان قد ضعُف ووهَن جراءَ تغافُلِ اليهود والنصارى عن الدين وابتعادهم عنه. فجاء محمد ﷺ وأصلحَ ذلك الجدار من جديد، أي حفِظ من خلال شريعته الجديدة تلك الحقائقَ التي كانت توجد في شرع موسى وعيسى. ولا سيما تلك الأنباءَ الغيبية التي كانت تخبر عن ظهور الإسلام وبعثة محمد رسول الله ﷺ قد حُفظت بين دفتي القرآن الكريم

كي يمكن لليهود والنصارى -عندما يعودون إلى صوابهم- أن يهتدوا للإيمان بمحمد رسول الله ﷺ ويصلحوا حالهم بالاطلاع على نبوءات صلحائهم.

وأما قوله ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ (الكهف: ٨٣) فهو إشارة إلى أن الجدار الجديد هو الجدار القرآني، حيث جُمع ذلك الكنـــزُ في القرآن الكريم، الذي هو أمرُ الله الخالصُ، ولا دَخْلَ فيه لمحمد ﷺ، كما قال الله تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ (النجم: ٤).

ثم قال العبد الصالح ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (الكهف: ٨٣).. أي يا موسى هذه هي الحقيقة التي لم تستطع عليها صبرًا.

اعلَمْ أن هذا الجزء الأخير من كشف موسى يشبه الجزءَ الأخير من إسراء نبينا عليهما السلام. كان الجزء الأخير من إسراء النبي ﷺ أن إبراهيم وموسى وعيسى أهدَوا لـــه السلامَ - عليهم الصلاة والسلام جميعًا. وهذا يعني أنه لما انكشفت على هؤلاء الأنبياء حقيقة المساعدة التي قدّمها رسول الله ﷺ لأولاد إبراهيم وأتباع موسى وعيسى عليهم السلام -والتي أُشيرَ إليها في الجزء الأخير من كشف موسى- تقدموا إلى النبي ﷺ يشكرونه لما شرّف بقدومه بيتَ المقدس. لا جَرَمَ أن موسى عليه السلام لم يستوعب حقيقة هذا الأمر تمامًا أثناء إسرائه وبدأ يعترض عليه، ولكن الله تعالى لما كشف عليه الحقيقة فلم يتقدم موسى وحده للقاء محمد ﷺ، بل جاءه أيضًا إبراهيم وعيسى عليهم السلام جميعا معربين لـــه عن امتنانهم وشكرهم. أما إبراهيم فلأن النبي ﷺ سعى لنجاة أولاد ابنيه إسماعيل وإسحاق عليهم السلام أجمعين، حيث هاجرَ بنفسه إلى المدينة لنجاة نسل أحد الابنين، بينما تقدَّمَ قومه ﷺ إلى بيت المقدس فعلاً لنجاة نسل الابن الآخر.

وأما موسى فلما علِم أن الجدار الذي اعترض على إقامته لم يكن يعني إلا نفسه هو، وأن الكنـــز الموجود تحت الجدار لم يكن إلا تعليمه الذي صانه الرسول ﷺ من الضياع.. جاء لاستقباله ﷺ كفّارةً عن اعتراضه، آخذًا معه فتاه عيسى الذي لم يكن أقلَّ منه امتنانًا لمحمد ﷺ. وكأنهما أرادا بذلك أن يقولا للنبي ﷺ: لقد حملنا

خدمتك على محمل غير حسن، ولكن الله قد كشف علينا الحقيقة الآن. فالسلام عليك يا محمد ﷺ. تعال وبارِكْ لنا بيوتنا، واعملْ على نجاة أُممنا.

ملخص إسراء موسى عليه السلام:

بعد الاطلاع على هذه الأحداث وشرحها لن يصعب على المرء أن يدرك أن إسراء موسى عليه السلام قد ذُكر في هذا المقام من القرآن الكريم للدلالة على الأمور التالية:

١ - أن ظهور محمد رسول الله ﷺ كان مقدَّرًا بعد فساد قوم المسيح الناصري عليه السلام الذين كانوا الجزء الأخير من الأُمة الموسوية.

٢ - بعد انقضاء دور التوحيد إثر تطرُّق الفساد إلى المسيحيين كان ظهور محمد ﷺ ضروريًّا.

٣ — أن شرع الإسلام يحتوي على قوانين ومبادئ يخالفها التعليم الموسوي في بعض المقامات اختلافًا شديدًا، ولذلك من الصعب على الأُمتين الموسوية والمسيحية التعاون مع الإسلام، ولكن لا نجاة لهم من دون العمل بشرع الإسلام.

٤ - أن اليهود والنصارى لن يؤمنوا بمحمد رسول الله ﷺ وقت ظهوره، بل سيقبلون دعوتَه كقوم بعد زمن طويل يستمرّون خلاله في سفرهم الروحاني على حدة.

٥ - وأهم سيشعرون بالتعب والملل في نهاية المطاف بعد أن ظلوا مسافرين لأمد مديد، وسيستولي عليهم اليأس من الحصول على الأمن والاطمئنان بمساعيهم المنفردة؛ وعندها سيفكرون فيما آلوا إليه ليدركوا أنهم ما زالوا مسافرين دونما غاية، لأن زمن سفرهم الانفرادي كان قد انتهى قبل ذلك بكثير.

٦ - أن الأنباء الغيبية التي وردت في كتبهم المقدسة عن ظهور محمد ﷺ وشرعه، والتي حفظها القرآن بين دفتيه، ستكون سببًا لهدايتهم حينذاك.

٧ - وأنهم سيستعدون حينئذ لقبول تلك الشرائع والحدود التي ما كانوا ليقبلوها من قبل، وعندها سيتحلَّون بالرغبات الطيّعة الخالصة لله تعالى قاضين على ميولهم

الهمجية الوحشية. فتتداركُهم رحمةُ الله، فيدخلون في بحر من رحمته تعالى لا شاطئ لـــه، ولا بحر بعده، إلا الذي يتفرع منه ويكون جزءًا منه.

قصة سليمان عليه السلام

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالاَ الْحَمْدُ لِلَّه الَّذي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِه الْمُؤْمِنِينَ* وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ (النمل: ١٦-١٧).

ما هو منطق الطير:

وقد قال المفسرون عن قول سليمان: ﴿عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ أنه كان يفهم لغة الطيور من حمام وسمان وحجل وعصافير وغيرها كما يفهم الإنسان كلام إنسان آخر. وقالوا أن سليمان عليه السلام رأى ذات يوم بلبلاً على غصن يغرد ويحرك رأسه وذنبه، فقال لمن حوله: أتدرون ما يقول هذا البلبل؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال إنه يقول: أكلتُ نصف تمرة فعلى الدنيا العَفاء. ثم ناحت حمامة، فقال سليمان إنها تقول: ليت هذه الخلائق لم تُخلق.

ويقول المفسرون أيضًا أن سليمان عليه السلام كان يقول إن الحمام يقول: لِدُوا للموت وابنُوا للخراب، ويقول الطاووس: مهما تفعل تُجزَ به. ويقول الهدهد: من يرحم الناس يرحمه الله تعالى. وتقول الأبابيل من العصافير: قدِّموا الأعمال الصالحة تجدوها عند الله. وتقول الحمامة: سبحان ربي الأعلى ملْءَ سمائه وأرضه. وتقول القطة: من يسكت يسلم. وتقول الببغاء: ويل لمن الدنيا همُّه. ويقول الديك: أيها الغافل اذكر الله. ويقول الضفدع: سبحان ربي القدوس. ويقول العصفور: استغفروا أيها الآثمون. وتقول الحدأة: كل شيء هالك إلا وجهه. (القرطبي)

إذًا، فقد بذل المفسرون جهدهم ليثبتوا أن سليمان ﷺ كان يفهم منطق الطير جيدًا، وقد ضموا الضفدع إلى الطيور أثناء محاولتهم هذه. والحق أنهم قد وقعوا في هذا الخطأ لعدم فهمهم هذا الكلام الذي هو من قبيل الاستعارة والمجاز، مع أنه يماثل قول الله ﷻ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ (البقرة: ١٨٨).. أي أن وقت السحور في ليالي رمضان ينتهي عندما يتضح الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر. ولكن بعض الفلاحين البسطاء من بلادنا "البنجاب" يضعون عندهم في ليالي رمضان خيطًا أبيض وخيطًا أسود، وبما أن الخيط لا يُرى إلا في الضوء الكافي، فلا يبرحون يأكلون بعد طلوع الفجر أيضًا في انتظار أن يتبين لهم الخيط الأبيض من الخيط الأسود. كذلك حال هؤلاء القوم الذين لا يفهمون التشبيه والاستعارة، فإذا قرأوا في القرآن أن لله يدًا يقولون -والعياذ بالله- إن يده ﷻ أيضًا من اللحم والدم مثل أيدينا. وإذا قيل لهم إن المراد من يد الله ﷻ قوته وقدرته قالوا لا يحق لكم التأويل فإن الله ﷻ نفسه قال إن له يدًا. وإذا قرأوا قول الله ﷻ عن نفسه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ (الأعراف: ٥٥) فلا يبرحون حتى يقولوا أن الله ﷻ جالس على عرش من الرخام... وكما تكثر الاستعارة والمجاز في كل لغة من لغات العالم كذلك ترد الاستعارات في الصحف السماوية أيضًا، ولكن الذين لا يفهمون الحقيقة يتمسكون بظاهر الكلمات فيَضلّون ويُضلّون.

وهذا هو حال قول سليمان ﷺ: ﴿عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾، فلما رأى المفسرون كلمة ﴿الطير﴾ هنا ظنوا أن من خصوصيات سليمان أن الله ﷻ علّمه لغة السمان والحجل وغيرها من الطيور.

ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا: ما الفائدة من تعليم منطق الطيور؟ فهل تعلَم الطيور معارف وعلومًا عظيمة حتى نقول أن سليمان ﷺ عُلّم منطقها لكي لا يظل محرومًا من معارفها وعلومها. كلا، بل الواقع أن الطيور لا تملك من العقل ما يملكه أغبى وأجهل إنسان في العالم، فماذا عسى أن يتعلم منها نبي الله سليمان ﷺ؟ وإذا كانت الطيور تبلغ من العقل والذكاء بحيث إن نبيًا عظيمًا كسليمان كان بحاجة

ليتعلم منها العلوم والمعارف فلماذا أحلّ الشرع ذبحها؟ فتحريم ذبح الإنسان وإباحة ذبح الطيور والحيوانات يشكّل دليلاً بيّنًا على أن الله تعالى قد جعل هذا الفرق بسبب فارق العقل إذ لا يبلغ دماغ الطيور والحيوانات نصف الدماغ الإنساني. فلأي حكمة عُلّم سليمان منطق الطير إذًا؟

ثم إن المفسرين لم يكتفوا بقولهم أن سليمان عليه السلام عُلّم منطق الطيور كلها فحسب، بل قالوا أن طير الهدهد قد بلغ من الذكاء والفطنة أنه فهم كلام ملكة قوم "سبأ" وكلام حاشيتها وكلام سليمان عليه السلام، بينما لم يستطع أحد فهم كلام الهدهد إلا سليمان (الرازي). وهذا يعني أن هذا الطير كان أكثر ذكاءً من جميع الأمراء والوزراء والعلماء والحكماء الذين كانوا في بلاط سليمان، إذ كان يفهم كلامهم ولكنهم كانوا لا يفهمون كلامه، وكان هناك شخص واحد يفهم كلامه وهو سليمان، وكأن سليمان وحده كان يساوي طير الهدهد هذا عقلاً وذكاءً. إنها فكرة لا يرضى بها أي إنسان عاقل، لأن التسليم بها يعني أن الطيور أفضل من الإنسان فلا يجوز ذبحها، بل يجب ذبح الإنسان مكانها لأنه أقل منها عقلاً - والعياذ بالله. فثبت أن هذه فكرة فوضوية لا يمكن أن يقبلها كل ذي عقل سليم.

الحق أن قول سليمان: ﴿عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ هو من قبيل الاستعارة والمجاز كما بينتُ من قبل، ولكن هؤلاء القوم لم يفهموه فوقعوا في نقاش لا طائل وراءه. الواقع أن الطير في العربية هو كل ما يطير، ويُطلق استعارةً على عباد الله المختارين المقربين الذين يحلّقون عاليًا في أجواء السماء الروحانية. وهناك إلهام باللغة الأردية تلقاه سيدنا المسيح الموعود عليه السلام يسلط الضوء على معنى الطير وهو: "أن آلاف الناس تحت أجنحتك".(تذكرة (أردو)، ص ٧٠٣، تاريخ الإلهام: ٩ مارس ١٩٠٧)

ومن البديهي أن الأجنحة تكون للطيور فقط، والطيور هي التي تجلس تحت أجنحة الطير. إذًا، فإن الله تعالى قد سمى المسيح الموعود عليه السلام في هذا الوحي طيرًا وأخبره أن الذين يستفيدون من صحبته هم أيضًا طيور العالم الروحاني. فهذا الوحي قد شرح هذه الآية القرآنية وبين أن الطير لا يعني هنا طيورًا مادية، بل يعني عباد الله

الذين يطيرون إليه ﷻ. وسبب إطلاق ﴿الطير﴾ عليهم استعارة هو أن الطيور تطير في جو السماء، والعلوم الروحانية أيضًا تنـــزل من السماء، ومن الواضح أن الشيء الذي ينـــزل من فوق سيتلقاه أوّلاً مَن يطير إلى فوق؛ فسُمي عباد الله الذين يطيرون في أجواء العالم الروحاني ﴿طيرًا﴾ لأنهم يتلقون علوم السماء وأسرار الغيب النازلة من عند الله ﷻ عبر الوحي والرؤى والكشوف، وهم الذين يُنعم الله ﷻ عليهم بفيوضه قبل غيرهم، ثم يتمتع بها الذين هم في صحبتهم.. كُلٌّ بقدر إخلاصه ودرجته.

إذًا، فالمراد من قول سليمان عليه السلام: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ أنه قد عُلِّمَ اللغة التي يُعلَّمها الذين يطيرون في سماء الروحانية عاليًا، أي أنه قد أُعطي المعارف والحقائق التي تُعطى للأنبياء.

وقد أكد القرآن الكريم هذا الأمر لأن اليهود والنصارى لا يعتبرون سليمان عليه السلام نبيًا وإنما يعدّونه مَلكًا دنيويًا فقط، ومن أجل ذلك تجد الكتاب المقدس لا يذكره أبدًا كنبي بل يعتبره أحد الفلاسفة والعلماء فحسب، حيث ورد فيها:

"وأعطى الله سليمانَ حكمةً وفهمًا كثيرًا جدًا ورحبةَ قلبٍ كالرمل الذي على شاطئ البحر. وفاقت حكمةُ سليمان حكمةَ جميع بني المشرق وكلَّ حكمةِ مصر." (الملوك الأول ٤: ٢٩-٣٠)

وكذلك ورد فيها عن سليمان عليه السلام:

"وتكلَّمَ بثلاثة آلاف مثل، وكانت نشائده ألفًا وخمسًا. وتكلَّمَ عن الأشجار من الأَرْز الذي في لبنان إلى الزُوْفَا النابت في الحائط. وتكلّمَ عن البهائم وعن الطير وعن الدبيب وعن السمك. وكانوا يأتون من جميع الشعوب ليسمعوا حكمةَ سليمان من جميع ملوك الأرض الذين سمعوا بحكمته." (المرجع السابق: ٣٢-٣٤)

وليس هذا فحسب بل إن الكتاب المقدس يتهم سليمان عليه السلام فيقول:

"وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أَمَلْنَ قلبه وراءَ آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه." (الملوك الأول ١١: ٤)

إذًا، فإن الله تعالى قد فنّد بهذه الآية القرآنية موقفَ اليهود والنصارى من سليمان عليه السلام، وبيّن أنه كان نبيًا وأن الله تعالى قد أعطاه نفس العلوم والمعارف التي قد أعطاها لعباده المختارين الذين يطيرون إليه ويتبوأون من قربه درجة عالية.

ثم يقول سليمان عليه السلام: ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾. واعلم أن هذا لا يعني أنه أُوتي كل شيء في العالم، بل المراد أن الله أعطاه كل ما كان بحاجة إليه؛ ذلك أن القرآن الكريم قد نقل في هذه السورة قول الهدهد عن ملكة "سبأ" أيضًا: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الآية: ٢٤).. مع أنها لم تكن تحكم إلا على منطقة صغيرة جدًا. فلو كان المراد من قول سليمان أنه قد أُعطي كل شيء في العالم لكان معنى ذلك أنه أُعطي ملك ملكة "سبأ" وعرشها أيضًا، ولكان المراد من قول الهدهد أن ملكة "سبأ" كانت تحكم على سليمان وتملك جنوده أيضًا؛ مع أن كلا الأمرين باطل بالبداهة.

الحق أن كلمة ﴿كل﴾ في العربية لا تعني بالضرورة جميع أفراد جنس ما، بل يُراد بها فقط كل ما هو ضروري. فمثلاً يقول الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٤٥).. أي أن الذين خلوا من قبلكم لما نسوا ما ذُكّروا به فتحنا عليهم أبواب الرقي بكل أنواعها، ثم أنـــزلنا عليهم العذاب. وهنا أيضًا لا يُراد من لفظ ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ أنهم أُعطوا نعم الدنيا كلها، بل المراد أنهم أُعطوا نصيبًا من النعم العظيمة المتوافرة في عصرهم وبلادهم.

كذلك يقول الله تعالى عن أهل مكة: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ (القصص: ٥٨). وليس المراد من كلمة ﴿ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ثمرات العالم كلها، بل المراد كثيرًا من الثمرات التي هي ضرورية لأهل مكة.

ثم يقول الله تعالى للنحل: ﴿كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ (النحل: ٧٠)، مع أنها لا تأكل من كافة ثمرات العالم، بل من بعضها فقط.

إذًا، فليس المراد من قول سليمان عليه السلام: ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أنه أُعطي كل شيء في الدنيا، بل أُعطي كل ما كان بحاجة إليه، أي أن الله تعالى سدّ له عليه السلام كل

حاجة كما هيأ لملكة سبأ كل ما كانت بحاجة إليه في زمنها، ولذلك يقول سليمان عليه السلام بعد هذه الدعوى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾.. أي أن حاجات الإنسان لا تُسد إلا بفضل خاص من عند الله تعالى.

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (النمل: ١٨)

يبدو من هذه الآية أن سليمان عليه السلام كان يتأهب عندئذ لمحاربة بعض البلاد، فجُمع له جنوده كلهم بمن فيهم جند الجن وجند الإنس وجند الطيور.

إن المفسرين بمجرد أن يقرأوا لفظ "الجن" هنا يظنون أن الجن كائنات غير مرئية كانت تحت إمرة سليمان عليه السلام. مع أنهم لو تدبروا القرآن الكريم لم يلجأوا إلى هذا التأويل الذي لا طائل منه.

ولفهم حقيقة الجن علينا أن نرى أوّلاً وقبل كل شيء ما إذا كان القرآن يذكر أن الجن كانوا يحضرون إلى سليمان فقط، أم أنه ذكر أنهم حضروا إلى غيره من الأنبياء الآخرين أيضًا. وعندما نفحص القرآن نقرأ فيه قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الأحقاف: ٣٠-٣٢).. أي اذكُرْ، يا محمد، حين أتيناك بنفرٍ من الجن راغبين في سماع القرآن الكريم، فلما حضروا مجلسك قال بعضهم لبعض: اسكتوا لنسمع صوته جيدًا. فلما انتهت تلاوة القرآن الكريم رجعوا إلى قومهم منذرين وقالوا: يا قومنا إنّا سمعنا تلاوة كتاب أُنـزل من بعد موسى، وهو يصدق كل الصحف السابقة له، ويدعو إلى الحق ويهدي إلى طريق مستقيم. يا قومَنا، لَبُّوا نداء منادي الله تعالى وآمِنوا به، يغفر لكم الله ذنوبكم وينجكم من عذاب أليم.

لقد ثبت من هنا أن الجن قد آمنوا بما نــزل على موسى عليه السلام من التوراة وما نــزل على النبي ﷺ. وعليه فلم يكن سليمان عليه السلام هو النبي الوحيد الذي آمن به الجن، بل قد آمنوا بموسى عليه السلام وآمنوا بالنبي ﷺ بحسب القرآن الكريم. ولكن المؤسف أن المفسرين يذكرون قصصًا غريبة عن الجن الذين كانوا تحت قبضة سليمان عليه السلام. فيقولون مثلاً أنه كان يجلس على بساط، فكان الجن يمسكون بأطرافه ويطيرون به إلى السماوات. أما الجن الذين آمنوا بالنبي ﷺ في زمنه فلا يذكر المفسرون -ولو برواية ضعيفة جدًا- أنهم قدموا مثل هذه المساعدة له ﷺ أيضًا، مع أن النبي ﷺ وأصحابه قد تكبدوا عناء السفر مرارًا إذ لم يجدوا ما يركبون، ففي مرات كثيرة أتوه يبكون ويسألونه أن يعطيهم ما يركبونه ليخرجوا معه، ولكنه لم يجد لهم ما يركبون. فخرجوا معه ﷺ مرات كثيرةٍ حُفاةً في أسفار طويلة شاقة (التوبة:٩٢، والبخاري: كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع)، ولكن هؤلاء الجن لم تلن قلوبهم القاسية رغم رؤية ما تعرض له النبي ﷺ وصحابته من آلام. كانوا يحملون سليمان عليه السلام وجنوده من مكان إلى مكان، ولكن الغريب أنهم لم يحملوا ولو عشرين من فقراء المهاجرين إلى ساحة القتال!

يقول البعض أن الجن كائنات من غير جنس الإنسان، وقد آمن هؤلاء بنبينا وبموسى وسليمان – عليهم السلام (الدر المنثور). ولكن علينا أن نرى ما إذا كان القرآن يصدق هذا المعنى أم لا؟ إذا كان الكلام عن الجن استعارة فلا بد أن القرآن الكريم قد بيّن مراده منها، وإذا لم نعتبر هذا الكلام من قبيل الاستعارة وقع التناقض بين آيتين من القرآن الكريم وحصل فيه الاختلاف. فعلينا أن نرى ما إذا كان اعتبار هذا الكلام استعارة يؤدي إلى الاختلاف في القرآن الكريم أم العكس هو الذي يؤدي إلى الاختلاف فيه؟

وليكن معلومًا أن الذين لا يعتبرون هذه الآية استعارة ويقولون أن الجن كائنات غير مرئية مثل الشيطان، وكما أن الشيطان كائن منفصل عن الإنس فالجن أيضًا كائنات غير الإنس (الرازي).

والجواب أن هناك إجماعًا لدى المفسرين على أن الشياطين المذكورين في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ هم اليهود ورؤساؤهم (القرطبي)؛ فإذا كان الإنس يمكن أن يسمَّوا شياطين فلماذا لا يسمَّون جنًّا أيضًا؟

كذلك قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (الأنعام: ١١٣).. أي قد جعلنا لكل نبي أعداء من شياطين الإنس ومن شياطين الجن الذين يحرّضون الناس على النبي وجماعته. لقد صرح الله هنا أن الشياطين يكونون من الناس أيضًا. فإذا أمكن أن يكون هناك شياطين الإنس فكيف لا يكون هناك جنّ الإنس؟ بمعنى أنه كما يمكن أن يولد من الناس من يسمون شياطين فكيف لا يمكن أن لا يكون من الناس من يسمّون جنًّا؟

لقد ثبت مما سبق بيانه أن الجن لم يكونوا في قبضة سليمان فحسب بل لقد آمنوا بموسى وبنبيّنا ﷺ أيضًا.

والآن نرى إلى من بُعث النبي ﷺ؟

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً﴾ (النساء: ٨٠). فلو كانت كائنات خفية تسمى جنًّا قد آمنت بالنبي ﷺ فكان من المفروض أن يُقال: "وأرسلناك للناس والجن رسولاً". وإذا كان النبي ﷺ مبعوثًا إلى الناس فثبت أن الجن الذين قيل هنا إنهم آمنوا به ﷺ إنما كانوا من جن الإنس، وليس كائنات غريبة خفية يتصورها الناس.

كذلك ورد في الحديث عن جابر بن عبد الله ؓ أن النبي ﷺ قال: أُعطيتُ خمسَ خصال لم يُعْطَهَا نبي قبلي، وإحداهن: "كان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس عامة." (البخاري: كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ جُعلتْ لي الأرض مسجدًا وطهورًا)

لقد صرح النبي ﷺ هنا بشكل حاسم أنه لم يوجد بين الأنبياء السابقين نبي واحد بُعث إلى أحد سوى قومه. ولكن هؤلاء المفسرين يقولون أن سليمان ؑ قد بُعث

إلى الجن والطيور والنمل أيضًا. ولو كان هذا صحيحًا لصار سليمان أفضل من النبي ﷺ -والعياذ بالله- إذ كان مبعوثًا إلى الإنس وغيرهم أيضًا، بينما كان نبينا ﷺ مبعوثًا إلى الإنس فقط.

ثم إذا كان هؤلاء الجن من غير الإنس فكيف قال الله ﷻ في القرآن الكريم: ﴿يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإِنْسِ﴾ (الأنعام: ١٢٩).

لقد تعبنا بحثًا عن هؤلاء الجن الذين يتحدث عنهم الناس ولا نجدهم، ومع ذلك يعلن القرآن الكريم هنا أن الجن قد جعلوا معظم الناس في قبضتهم. الواقع أن المؤمنين بمثل هؤلاء الجن يرهقون أنفسهم بكثرة الاعتكافات والتأملات والأوراد، فيصابون في عقلهم حتى يتخيلون أصواتًا، فيقولون: ها قد جاءنا الجن. والواقع أنه لا يأتيهم أي من الجن، وإنما يفقدون حواسهم ويصابون بنوع من الجنون. أما الإنسان الذي يكون عقله متوازنًا فلا يأتيه الجن أبدًا.

على أية حال، سيقول الله تعالى للجن يوم الحشر أنهم جعلوا كثيرًا من الناس تحت قبضتهم واستغلوهم كثيرًا، ومن ناحية أخرى نقرأ في القرآن الكريم قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ (الأنعام: ١٢٩).. أي سيقول أصدقاؤهم من الناس لربهم ربنا انتفعَ بعضنا ببعض. ولكن الأمر الواقع أنك إذا سألتَ أهل قريتك ما إذا كان خمسون بالمئة منهم جلبوا أي نفع من الجن، فلن تجد ولا واحدًا منهم يقول إنه قد انتفع من الجن وأنه على صلة بهم. فثبت أنه ليس المراد من الجن هنا أي كائنات غريبة دون الإنسان، بل المراد من الجن بعض من الناس أنفسهم. وبالفعل ترى بين جنّ الإنس صداقات كثيرة.

فمن الخطأ تمامًا الظن أن هؤلاء الجن كائنات غير مرئية غريبة عن الإنسان. كلا بل إن الجن الذين آمنوا بالنبي ﷺ كانوا أيضًا أُناسًا، وقد نصروه كما نصره غيرهم من الناس. أما إذا اعتبرناهم كائنات غير إنسانية فالسؤال الذي يفرض نفسه هنا والذي يجب أن يجيب عليه القائلون بالجن هو: لماذا لم ينصر هؤلاء الجن رسولنا ﷺ رغم إيمانهم به، ورغم أن الله تعالى أمر بنصرته ﷺ؟

الأمر الواقع أن فئة من الناس يكونون في غاية الإباء والتمرد فلا ينقادون لأحد، ولكنهم عندما يأتون الأنبياءَ يتغير حالهم رأسًا على عقب فجأة. وخير مثال على ذلك هو عمر ﷺ، فكان في البداية لا يتحمل سماع كلمة عن الإسلام حتى استشاط غضبًا ذات مرة، فامتشق حسامه وخرج بنية قتل النبي ﷺ. ولكنه لما أتاه أخذ يرتعد هيبةً له ﷺ. (السيرة الحلبية: المجلد الثاني، باب الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة)

فثبت من هنا أن هناك أناسًا من ذوي الطبائع النارية، ولكنهم عندما يأتون الأنبياءَ تخمد نارهم وتهدأ حدّتهم، وهؤلاء أيضًا يسمَّون في اللغة العربية جنًّا.

كما يراد بالجن عِليةُ القوم الذين يقيمون في القصور وراء حراسة شديدة فلا يصل أحد إلى أبوابهم بسهولة، فقد ورد في القواميس: جنُّ الناس: معظمهم.

إذًا، فكلمة الجن في قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ قد أُطلقت على فرقة خاصة لسليمان عليه السلام، إذ كان رجالها من أسر عريقة، وكانوا معتادين على الإقامة في القصور وراء حراسة مشددة، وبالتالي استحقوا أن يُسمَّوا جنًّا أي الذين لا يراهم الناس عادة كونهم يعيشون بعيدًا عن أنظار القوم. فقد ورد في القاموس أن الجن يُطلق على "كل ما استتر عن الحواس" (الأقرب).. أي هم القوم الذين لا تسمع آذان الناس أصواتهم ولا ترى عيونهم أشخاصهم وكأنهم يعيشون منعزلين عن العالم، وبتعبير آخر، هم عِلية القوم وأمراؤهم؛ وقد ورد هذا المعنى أيضًا في القواميس بكل وضوح.

إذًا، كان قوام جنود سليمان عليه السلام فرقًا ثلاثًا: فرقة الحرس الخاص من عِلية القوم، وفرقة عامة الناس، وفرقة الرجال الروحانيين.

هل عُلِّم سليمان عليه السلام منطق النمل أيضا؟

﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (النمل: ١٩-٢٠)

إن المفسرين -كما بالغوا في تفسيرهم عن الجن والطير- قد بالغوا أيضًا حول وادي النمل، وقالوا أنه كان واديًا للنمل -هذه الحشرات المعروفة- وأن سليمان لما خرج بجنوده مر بهذا الوادي، فتكلمت نملة، ففهم سليمان قولها حيث كان يعلم منطق الطير. (تفسير حسيني ،أردو)

ولكن كيف علِم المفسرين أن النمل من جنس الطير يا ترى؟ يقول الله تعالى إنه علّم سليمان منطق الطير، ولكنهم يقولون أنه عُلّم منطق النمل أيضًا!

منطق النمل:

ويقولون أن المطر انقطع مرة في عهد سليمان عليه السلام فقال للناس تعالوا نخرج من البلد ونصلّ صلاة الاستسقاء. فلما خرج بهم رأى نملةً تدعو الله تعالى رافعةً رجليها ووجهها إلى السماء وتقول: رب، نحن أيضًا مِن خلقك، فلا تحرمنا من المطر! فلما سمعها سليمان قال للناس: تعالوا نرجع، لا حاجة الآن لصلاة الاستسقاء لأن دعاء النملة يكفينا، ولسوف ينــزل المطر بدعائها! (ابن كثير)

و لم يكتف المفسرون بهذا القدر من الغوص في التفاصيل، بل قالوا أن النمل تكون شعوبًا وقبائل كما عند الناس قبائل من مغول وراجبوت وأفغان وغيرها. وقد ذكروا لفائدتنا أن اسم إحدى قبائلها "بنو الشيصان"، وأن النملة التي تكلمت كانت تنتمي إلى هذه القبيلة. وقد تمكن المفسرون بعد بحث مضن من معرفة اسم تلك النملة أيضًا، وإن لم يتفقوا على اسم واحد لها للأسف. فمن أسمائها التي ذكروها: منذرة، وطافية، ولافية، وخومي. ثم علموا أنها كانت عرجاء. كما ذكروا قامتها أيضًا فقال بعضهم أنها كانت بقدر الديك، وقال بعضهم أنها كانت بقدر الضأن، وبعضهم قال أنها كانت بقدر الذئب. كما اكتشفوا أنه كانت مع هذه النملة أربعون ألف نملة من النقباء، ومع كل نقيب أربعون ألف نملة من المحاربين. (ابن كثير وتفسير حسيني)

والحق أن النملة هنا لا تعني الحشرة المعروفة، وأول دليل على ذلك هو أن الله تعالى يخبر هنا أن سليمان عليه السلام عُلِّم منطق الطير، بينما يقدم المفسرون أول دليل على معرفته بمنطق الطير أنه فهم كلام النملة مع صاحباتها! مع أن المفروض أن يقدموا

على صدق هذه الدعوى مثال طير لا نملة، إذ لو كان المراد من النملة هنا الحشرة المعروفة أصبح الدليل غير معقول تمامًا، لأن القرآن الكريم يقول إن سليمان عُلّم منطق الطير وكان يفهم لغتها، ولكنهم يقولون أن سليمان فهم كلام النملة مع صاحباتها. لذا فينبغي أن نفهم المراد من النملة هنا أوّلاً.

والأمر الثاني الذي يستلفت النظر هنا هو قوله تعالى: ﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾. وإن المفسرين عادةً يفسرون قول النملة ﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ بأن لا يدوسَنَّكم سليمان وجنوده تحت أقدامهم. وتفسير الحطم بهذا المعنى ليس صحيحًا، بل يعني الحطم الكسر والهجوم على أحد من شدة الغضب، فقد سُمّيتْ نار جهنم ﴿الْحُطَمَة﴾ (الهُمَزة: ٥) لأنها تحرق، ولا يقول أحد أن لجهنم أرجلاً تدوس بها الناس؛ كما يُسمى القحط حاطومًا إذ يكسر قوة أهل الأرض (الأقرب). إذًا، فالمراد من قوله تعالى: ﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾.. لا يكسرنّكم سليمان وجنوده، أو لا يهاجمنّكم غاضبين ويدمرونكم.

ثم هناك سؤال يفرض نفسه هنا وهو: كيف يُتوقع من نبي عظيم كسليمان عليه السلام الذي كان يملك جنودًا من الجن والإنس والطير أن يستشيط غضبًا على النمل ويحاول الهجوم على تلك الحشرات المسكينة؟ لو أخذنا بالمعنى الحقيقي للفظ "الحطم" لكان معنى الآية أن نملة قالت لصاحباتها: ادخلْنَ مساكنكن مخافة أن يأتي سليمان وجنوده بالمعاول والفؤوس ويحفروا مساكننا ويخرجوا منها الغلال وبالتالي يكسروا قوتنا! فهل من عاقل يرضى بهذا المعنى؟

والدليل الثالث الذي هو في منتهى الوضوح هو أن الصيغ التي استعملها الله تعالى هنا هي كلها لذوي العقول، مثل ﴿ادْخُلُوا﴾ و﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾، مع أنه لو كان الحديث عن حشرات النمل لقيل "ادْخُلْنَ" و "لا يَحطِمنّكُنَّ". فثبت أن الكلام هنا ليس عن حشرات النمل وإنما عن البشر.

ثم إن قول النملة: ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ أيضًا يبين أنها لم تكن حشرات النمل لأنها يمكن أن تُداس تحت قدم نبي دَعْك عن أقدام جنود. لو كانت النملة هنا بمعنى تلك

الحشرة المعروفة لأصبح قول الله ﷻ: ﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ لغوًا وعبثًا، فمتى ورد في أي كتاب سماوي -سواء في الإسلام أو قبله- أن الأنبياء كانوا يمشون ناظرين إلى الأرض كيلا تداس النمل تحت أقدامهم؟

الحق أن وادي النمل ليس واديًا للحشرة المعروفة، بل هو واد كان يُقيم فيه البشر، حيث ورد في القاموس الشهير "تاج العروس" أن واد النمل يقع بين جِبْرين وعسقلان. أما عسقلان فهي مدينة كبيرة ساحلية تقع في فلسطين على مسافة اثني عشر ميلاً بين ميناء غزة في المنطقة المجاورة لسيناء وجِبْرين. أما "جِبْرين" فهي مدينة شمالية في ولاية دمشق. (معجم البلدان لياقوت الحموي، باب الباء والياء وما يليه)

إذًا، فوادي النمل واد حقيقي يقع إلى جنوب من دمشق بحوالي مئة ميل على البحر المتوسط إزاء بيت المقدس أو قريبًا من ذلك، على الطريق المؤدي من دمشق إلى الحجاز. وكانت كثير من قبائل مدين وغيرها من القبائل العربية مقيمة بهذا الوادي إلى زمن سليمان عليه السلام. أما لفظ النملة فقد ورد عنه: "والأَبْرَقةُ مِن مياه نَمْلة." (القاموس المحيط: كلمة البرق)

إذًا، فقد وجدنا بمساعدة القاموس وكتب الجغرافيا قومًا باسم نملة وواديًا باسم النمل، كما علمنا أن هذه المنطقة كانت في الشام قريبًا من مملكة سليمان عليه السلام.

والغريب أن مثل هذه الأسماء كانت متداولة بكثرة في الزمن القديم. ففي جنوب أمريكا قبائل أسماؤها "الذئب" و"الحية" و"العقرب" و"أم الأربعين" وغيرها. بل يوجد في بلادنا أيضًا قوم اسمهم "كادها" أي النمل، وكان هناك في لاهور شخص شهير اسمه نور الدين "كادها" أي النملة. وهناك قوم باسم "كيري" أي الديدان، وقوم آخرون باسم "مكوري" أي الحشرات. وفي كشمير قبيلة اسمها "هابت" أي الدب (تواريخ أقوام كشمير (أردو) ص ٣٠٠). وهذه هي حقيقة نمل سليمان عليه السلام أيضًا، فإنه لما خرج للهجوم على ملكة "سبأ" باليمن مرَّ على واد لقبيلة اسمها النمل، ولكن المفسرين ظنوا أنه مَرَّ بواد لحشرات النمل. ثم قال القرآن إن سليمان عليه السلام لما بلغ هذا الوادي قالت "نملة" أي ملكةُ قبيلة النمل: أيها الناس ادخلوا في مساكنكم مخافة

أن يظن سليمان وجنوده أنكم تريدون حربهم فيحطموكم. فأيقن المفسرون من هذا أنه كلام النملة الحشرة، مع أن تعبير "الحطم" تعبير واضح حيث يراد به إغارة قوم على قوم وإلحاق هزيمة نكراء بهم، ولكن المفسرين لم ينتبهوا لذلك. ولو أنهم راجعوا القواميس لوجدوا أن الحطم يعني الكسر. وعليه فالمراد من هذه الفقرة القرآنية أن ملكة قوم النمل قالت لهم: ادخلوا مساكنكم كي لا يكسر سليمان وجنوده قوتكم وشوكتكم.

لماذا تبسم سليمان عليه السلام ضاحكا من قول النملة؟

ثم يقول الله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا﴾، وهنا أيضًا قد جاء المفسرون بالعجب العُجاب، فمع أن الله تعالى يعلن أنه علّم سليمان منطق الطير، إلا أن المفسرين يقولون أنه كان يعلم منطق النمل أيضًا! حيث فهم قول ملكة النمل فورًا، فتبسم ضاحكًا بأن حشرات النمل أيضًا تعلم بأني إنسان عادل ولا يمكن أن أدوسها تحت قدمي إلا خطأً ولكن لن أدوسها عمدًا (الطبرسي). والحق أن كل إنسان شريف -دعك عن نبي- لا يدوس حشرات النمل عمدًا، فقد رأينا كثيرًا من الشرفاء أنهم يمشون على الأرض بحذر عندما تخرج النمل بكثرة في موسم الأمطار كيلا يدوسوها. فثبت أن هذا المعنى باطل.

كل ما في الأمر هو أن سليمان عليه السلام لما علِم أن ملكة قوم النمل قد أمرتهم بدخول بيوتهم وعدم مقاومة جنوده بأي طريق -مخافة أن يثوروا ويهجموا عليهم دون أن يدروا أنها قد أمرتهم بالاستسلام والانقياد- تبسّمَ ضاحكًا بأن الله تعالى قد أذاع صيته الحسن، فالناس يعرفون أنه ليس من الملوك الظالمين بل إنه يعامل أضعف الشعوب أيضًا بالعدل والإنصاف.

الحق أن ملكة النمل قد أمرت قومها بدخول البيوت وإغلاق الأبواب عليهم طبقًا للعادة القديمة خلال الحروب إذ كان المراد منه قبول الهزيمة والاستسلام، فمثلاً قد أعلن النبي ﷺ أيضًا يوم فتح مكة أن من يدخل بيته ويغلق بابه فهو آمن (السيرة النبوية لابن هشام: ذكر الأسباب الموجبة للسير إلى مكة وذكر فتح مكة في شهر

رمضان سنة ثمان). ووفقًا لهذه العادة قالت ملكة قوم النمل أيضًا بأن يدخلوا مساكنهم ويغلقوا أبوابهم كي يعلم سليمان أنهم لا يريدون حربه، أما إذا بقوا خارج بيوتهم فربما يُغير عليهم. فلما بلغ سليمانَ عليه السلام إعلانُها تبسّمَ ضاحكًا، وشكر الله تعالى بأنه قد أشاع خبر صلاحه وورعه في الأقطار البعيدة، حيث علم هؤلاء القوم أيضًا أن سليمان لا يحارب أحدًا ظلمًا وأنهم إذا أغلقوا أبوابهم فلن يتعرض لهم، مع أن من عادة الشعوب الغازية السلب والنهب أثناء الحرب. فدعا ربه وقال: يا رب إن هذا الصيت الحسن ما هو إلا بفضلك، فوَفِّقْني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل على الدوام أعمالاً صالحة ترضاها.. أي كما قد اعترفتْ ملكة قوم النمل بأن سليمان وجنوده قد يضرون قومها خطأً ولكن لن يضروهم ظلمًا واعتداءً، فوفِّقْني وجنودي في المستقبل أيضًا أن نتحلى بالأخلاق الفاضلة حتى يشهد الناس أن هؤلاء القوم لا يعتدون على أحد عمدًا، وأدخِلْني برحمتك في عبادك الصالحين.

سليمان عليه السلام والهدهد:

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ* لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ (النمل: ٢١-٢٢).

أمر سليمان عليه السلام قادته وجنوده بالمثول أمامه، فلما تفقّدَهم وجد أحد قادة كتيبة العلماء غائبًا وكان اسمه "الهُدهُد". فثار سليمان غضبًا لغياب قائده في ذلك الوقت الحرج الذي كان يتأهب فيه لمحاربة بلد آخر. فظن أن هناك مؤامرة تحاك ضده، فقال: ما لي لا أرى الهدهد أم أنه قد غاب وهرب؟ فإني سأعاقبه عقابًا شديدًا أو سأقتله إلا إذا أتاني بعذر واضح يبرر غيابه.

يظن المفسرون أنه كانت في جيش سليمان عليه السلام كتائب طيور حقيقية، وكان الهدهد -هذا الطير الذي يصيده الأطفال بالنبلة- أحد القادة. وبهذا الجيش القوي خرج سليمان لفتح بلاد اليمن (معالم التنـــزيل، والطبري)

فأولاً: كل إنسان عاقل يدرك أن ما يقوله المفسرون لا يدل على كون الهدهد قائدًا، بل يؤكد غباء سليمان -والعياذ بالله- مع أن أنبياء الله تعالى لا يكونون أغبياء. فمن المستحيل أن يخرج إنسان عاقل لفتح بلاد اليمن بجيش من الحمائم والزغاليل والعصافير والهداهد والسمان والحجل. والحق أن التغلب على مثل هذا الجيش لا يتطلب جيشًا بل عند وصول خبره إلى البلدة سيخرج الأطفال بالنبال إلى الشوارع، ويجعلون اليوم يوم عيد لأهلها كلهم إذ يهيئون لهم شواءً لذيذًا من لحوم الطيور. أفستكون هذه حربًا أم مسابقةً لصيد العصافير والطيور؟ بقراءة هذه القصص الخرافية التي ذكرها المفسرون في تفاسيرهم يضطر المرء لتصديق ما قاله تيمورلنك بأن فرقة العلماء ينبغي وضعها في مؤخرة الجيش، إذ يستهينون بالحرب بهذا الشكل المخزي.

والأغرب من ذلك أن سليمان عليه السلام -الذي قالوا عنه أنه لم يرضَ أن يدوس نملة واحدة تحت قدمه عمدًا- يمتلئ غيظًا ليهدّد الهدهد الذي لا عقل له وحجمُه بحجم العصفور. فمن المحال أن يتوقع نبي من الطيور ما يتوقعه المرء من أذكياء الناس. إن القرآن الكريم بين أيدينا، فمتى ورد فيه أن الطيور تبلغ من الذكاء والعقل بحيث إن بعضها إذا ارتكب خطأً فعلى المرء أن يستلّ سيفه ويقول له: سأضرب عنقك أو لتأتيني بعذر مقبول؟ أو هل رأيتَ أحدًا من جيرانك قابضًا على الهدهد وهو يضربه بالعصا ويقول له: لماذا أكلتَ غلالي؟ وإذا رأيت شخصًا كهذا أتعدّه من العقلاء أم من المجانين؟ فثبت أن المفسرين الذين قالوا أن سليمان قال هذا الكلام لطير الهدهد إنما نسبوا الغباء إلى سليمان عليه السلام، إذ يقول هنا صراحة ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾، وهذا يعني أن طير الهدهد هذا كان يعرف الأدلة والبراهين مثل سقراط وأبيقراط وأفلاطون، ولذلك توقع منه سليمان أن يقدم أدلته على براءته.

ثانيًا: يخبرنا القرآن الكريم أن سليمان كان يملك جنود الجن والإنس والطيور، ولكن الغريب أنه لا يفكر إلا في الهدهد من بين كل الجيش، فيقول: ما لي لا أرى

الهدهد؟ إن الدول في الدنيا لا تقبل عند التعبئة أي إنسان قامته أقل من خمسة أقدام، ولكن سليمان عليه السلام يقوم بتعبئة عجيبة حيث يقبل طير الهدهد في جيوشه! والأغرب من ذلك أنه لم تكن في جيشه أي كتيبة خاصة بالهداهد بل فيه هدهد واحد فقط! فما الحكمة من اصطحابه؟ وما هو العمل الذي سينجزه؟

وثالثًا: يعلن القرآن الكريم أن الهدهد قال كذا وكذا، مع أنه يتحدث هنا عن معرفة سليمان منطق الطير، فكان المفروض أن تُذكر هنا معجزة سليمان عليه السلام، ولكنهم يذكرون هنا معجزة الهدهد التي هي في الحقيقة أكبر من معجزته عليه السلام.

ورابعًا: أن الهدهد ليس من الطيور السريعة الطيران حتى يقال أنه طار كل تلك المسافة الطويلة، بل الحق أنه عادةً يموت في المنطقة التي يولد فيها. بينما يتضح من القرآن أن الهدهد طار من الشام إلى مُلك "سبأ" لأكثر من ثمانمئة ميل دون انقطاع، ثم عاد إلى سليمان بخبرهم. وهذا يعني أنه كان أسرع من الطائرات، وأن المعجزة هي للهدهد لا لسليمان، مع أن المفسرين يريدون هنا بيان معجزة سليمان عليه السلام.

خامسًا: وقد أرى الهدهد معجزة أخرى حيث كان يعلم من دقائق الشرك والتوحيد ما لا يعلمه اليوم المشايخ أيضًا. فانظر كيف يبين أسرار التوحيد العالي إذ يقول ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ﴾ (النمل: ٢٥).

ثم إن مشايخ اليوم يرون جيرانهم يأتون أعمالاً وثنية ولا ينهونهم، ولكن انظر إلى غيرة الهدهد الدينية حيث يطير في كل حدب وصوب ليخبر سليمان بما يأتيه الناس من أعمال الشرك وعبادة الأصنام.

سادسًا: ثم إن الهدهد خبير بالأمور السياسية أيضًا حيث يقول لسليمان عليه السلام: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾.. أي أن عند ملكة "سبأ" كل ما يحتاج إليه الملك. وهذا يعني أن الهدهد قام بفحص خزائنها ومؤسساتها، فلذلك ذكر في تقريره أنها تملك كل ما هو ضروري للحكم.

سابعًا: ثم إن الهدهد يعلم جيدًا الشيطان ومكائده إذ يقول من كان الشيطان وليه نشأت في قلبه أفكار سيئة. بل الحق أن الهدهد يعلم النتائج الوخيمة للأفكار السيئة أيضًا حيث يقول: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾.. أي أن الشيطان قد صدّهم وأبعدهم عن سبل قرب الله ﷻ من جراء أفكارهم السيئة. إذًا، فإن الهدهد لم يكن مجرد طير بل كان عالمًا كبيرًا. يا ليتنا نجد هدهدًا واحدًا مثله لنطرد جميع المشايخ من وظائفهم ونعينه مفتيًا للبلاد.

ثامنًا: إن الهدهد كان يعلم جيدًا كيف يجب أن يكون عرش الملوك حيث يقول لسليمان عليه السلام: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾.. أي أن ملكة سبأ تملك عرشًا عظيمًا ولكنك لا تملك مثله. وكأنه يُغريه بذلك بالهجوم على الملكة.

إن هذه الأمور كلها تدل دلالة واضحة على أن هذا الهدهد لم يكن طيرًا، بل كان إنسانًا. ذلك لأن القرآن يعلن صراحة أن أمانة الشرع لم تحملها الملائكة ولا السماوات ولا الأرض، إنما حملها الإنسان وحده وأنه وحده الذي يعلم أسرار شريعة الله تعالى. إن الملائكة تعلم جانبًا واحدًا من الأشياء وهو جانب الخير، أما الإنسان فيعلم الجانبين، جانب الخير والشر، وينظر إلى الأمور كلها. وما دام هذا الهدهد واقفًا على أسرار الشريعة فثبت أنه كان إنسانًا لا طيرًا، لقوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ﴾ حيث بين تعالى صراحة أن لا أحد من الخلائق يحمل أسرار الشرع سوى الإنسان.

ومن الناس من يقول: إذا كان الهدهد إنسانًا لا طيرًا، فلماذا قال سليمان عليه السلام لأذبحنه؟

فاعلم أن الذبح في العربية يعني القتل والفتك أيضًا (تاج العروس). كما قال الله تعالى في القرآن الكريم عن فرعون: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ (القصص: ٥).. أي أنه كان يقتل أبناء بني إسرائيل. فلو جاز للمفسرين اعتبار الهدهد طيرًا لورود لفظ الذبح في حقه، فلم لا يجوز اعتبار أبناء بني إسرائيل طيورًا لورود الذبح في حقهم أيضًا؟

ثم اعلم أنهم إذا أطلقوا اسم شيء على شيء لمشابهة بينهما وصفوا المشبَّه بكلمات تناسب المشبَّه به، وهو مما يفضي على الكلام جمالاً وبهاءً. فمثلاً إذا شبّهتَ إنسانًا بالأسد، فتقول إنه يزأر كالأسد، ولا تقول إنه يغنّي كالأسد. وبالمثل لما استعمل القرآن الكريم لفظ الهدهد لهذا الإنسان استعمل له كلمة الذبح أيضًا تزيينًا للكلام، وإن كان هذا قائد جيش.

الاسم: هُدْهُدْ

وهناك سؤال آخر يثار هنا: لماذا سمى القرآن الكريم هذا الشخص هدهدًا؟

عندما نتصفح كتب بني إسرائيل لمعرفة ماهية الهدهد ولنرى ما إذا كان فيهم إنسان بهذا الاسم، نكتشف أنه كان في اليهود في زمن سليمان عليه السلام أناس كثيرون اسمهم "هُدَد". والحق أن الاسم العبراني "هُدَد" تحوَّلَ إلى الهدهد في العربية شأنه شأن أبرهام الذي صار إبراهيم، ويسوع الذي صار عيسى، وموشي الذي صار موسى في العربية. ولا غرابة في ذلك مطلقًا، وبالمثل إن القرآن الذي نـــزل بالعربية عندما ذكر اسم "هُدَد" العبري جعله الهدهد.

والتاريخ يبين لنا أن "هُدَد" كان اسم العديد من الملوك الأدوميين، ومعناه: الجلبة الكبيرة. والهدُّ في اللغة العربية أيضًا يعني الصوت الغليظ (الأقرب). ويبدو أن بني إسرائيل كانوا يسمون الطفل الغليظ الصوت هُدَدًا أو هُدهُدًا. وقد أُطلق اسم "هُدَد" على الملك الأدومي الثالث الذي ألحقَ الهزيمة بقوم مَدْين، وأيضًا على الملك الأدومي الأخير (الموسوعة اليهودية، تحت: Hadad). وكان الهدهد اسم أحد أبناء إسماعيل عليه السلام أيضًا[*].

وقد ذكر الكتاب المقدس (في الملوك الأول ١١: ١٤) أحد أمراء الأسرة الأدومية وكان اسمه هُدَد، وكان قد فرّ إلى مصر خوفًا من القتل العام الذي أمر به يوآب.

---

[*] لم نعثر على هذا الاسم. (المترجم)

وورد في الموسوعة اليهودية أن لفظ "هُدَد" إذا ورد في العهد القديم خاليًا من أي صفة أو فعلٍ فيعني أحد أفراد الأسرة الأدومية. (تحت كلمة: Hadad)

باختصار، إن الهدهد تعريب للكلمة العبرية "هُدَد".

ثم يقول المفسرون أن ما دل سليمان عليه السلام على غياب الهدهد هو أنه كان في سفر في برية لا ماء فيها، فحان وقت الصلاة، فأراد الوضوء فلم يجد ماء، فقال لأصحابه: أين الهدهد؟ اطلبوا منه أن يبحث عن الماء. ذلك لأن الهدهد هو الذي كان يدلهم على الماء كلما احتاجوا إليه. فبحثوا عن الهدهد و لم يجدوه. فاستشاط سليمان عليه السلام غضبًا وقال: حينما يأتي الهدهد ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ (النمل: ٢٢). (روح المعاني)

ولكن البعض الآخر قد اختلف مع هؤلاء المفسرين وقال إن الواقع أن سليمان عليه السلام كلما سافر أظلته أسراب الطيور، وفي أحد الأيام وصلت الشمس إليه من خلال ثغرة كانت في هذا الظل، فرفع بصره وعلم سبب الثغرة وهو أن الهدهد كان قد ترك مكانه. (القرطبي)

إذًا، فمن عادة المفسرين نقل حكايات خرافية في تفاسيرهم. مع أن كل ما في الأمر هو أن لفظ الهدهد الوارد في القرآن الكريم تعريب لاسم "هُدَد" العبري، والمراد منه أحد أمراء الأسرة الأدومية الذي كان قائدًا في جيش سليمان عليه السلام. كانت الأسرة الأدومية من أعداء سليمان وكانت تعيش خاضعة لمُلكه، فلما فقد سليمان قائده الهدهد ظن أنه ربما خانه وذهب إلى الأعداء للتآمر عليه، فأعرب سليمان عليه السلام عن قلقه وغضبه.

وقد يكون الهدهد رئيس قبيلة عربية، إذ يخبرنا الكتاب المقدس أن أحد أبناء إسماعيل عليه السلام كان يسمى الهدهد. ومن الثابت تاريخيًا أن القبائل العربية كانت مقيمة في الطريق المؤدي من فلسطين إلى اليمن. وكان العرب واليهود يعادون بعضهم بعضًا، ورغم أن العرب خضعوا لملك سليمان إلا أن العداء لم يزُل من القلوب، فلما وجد سليمان عليه السلام أحد الرؤساء العرب غائبًا أوجس منه خِيفة فثار

وغضب. وبما أن منطقة اليمن التي كان سليمان ﷺ قد خرج بنيّة الهجوم عليها كانت بلدًا عربيًا فالأقرب إلى القياس أن الهدهد كان أحد الرؤساء العرب.

الاستطلاع الذي قام به الهدهد:

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ * أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (النمل: ٢٣-٢٧)

أي لم يمكث سليمان ﷺ في ذلك المكان طويلاً حتى رجع إليه ذلك الرئيس العربي الغائب، وقال له: كنتَ تريد الإغارة على مُلك "سبأ" الذي هو منطقة من بلادي، فسبقتُك إليه للاستطلاع، إذ لم تكن هذه المهمة صعبة علي لكوني من العرب وأعرف لغتهم. لقد علمتُ علم اليقين أن امرأة تحكم تلك البلاد حُكمًا رائعًا، وهي تملك كل نوع من الأسباب، وملكها عظيم... وربما أراد الهدهد بقوله هذا تخويف سليمان ﷺ كي لا يستولي على بلاد قومه، ولكن ما قاله بعد ذلك دفع سليمان أكثر للهجوم على تلك البلاد، وهو قوله إن هؤلاء يعبدون الشمس من دون الله، وأن الشيطان قد زيّن لهم أعمالهم وأضلّهم عن سبيل التوحيد، وأنهم مصرّون على ألا يسجدوا لله الذي يعلم أسرار السموات والأرض كلها، والذي لم يجعل الشمس والقمر إلا كخادمين له، والذي وهب أنبياءه العلوم المادية والروحانية، والذي هو رب عباده الموحدين، والذي مُلكه أعظم من مُلك هذه الملِكة، وسيكون مُلكه غالبًا على كل مُلك آخر.

وهكذا حاول الهدهد استرضاء سليمان ﷺ، وبيّن له أنه لم يغِبْ بدون سبب بل رأى هذا الاستطلاع ضروريًا لمصلحة البلاد.

حملُ الهدهد رسالة سليمان الطَّيْكِلاْ إلى سبأ:

﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ* اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ (النمل: ٢٨-٢٩)

فقال سليمان الطَّيْكِلاْ سنذهب إلى هناك ونرى ما إذا كنت صادقًا في ما قلت أم كنت من الكاذبين. اذهبْ بكتابي هذا إلى هؤلاء القوم وضَعْه أمامهم، ثم تأخر قليلا في انتظار الجواب.

انظرْ هنا أيضًا ما ينصح به سليمان الطَّيْكِلاْ طيرًا من الطيور! إننا نعرف أن الناس يعلقون في عنق الحمام رسالة، ولكن المفسرين قد جعلوا الهدهد ساعي بريد فعلاً. ثم انظر إلى الأدب واللباقة التي يعلّمها سليمان الطَّيْكِلاْ طيرًا لا عقل له، حيث يقول: لا تضع هذه الرسالة في يد الملكة مباشرة لأنه يُعَدّ من سوء الأدب، بل ضعْها أمام حاشيتها ليعرضوها عليها بأنفسهم، فهذا من الآداب السلطانية. ثم لا تتسرع في طلب الجواب -وهذا يعني أن سليمان الطَّيْكِلاْ لم يكن وحده يعلم منطق الطير بل كانت ملكة "سبأ" أيضًا تعلمه- وانتظرْ حتى يعطوك الجواب، ثم ارجعْ به إلي.

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (النمل: ٣٠-٣٢)

لقد تبين من هنا أن سليمان الطَّيْكِلاْ لم يتوجه إلى بلدهم لمحاربتهم بدون مبرر، بل كان هؤلاء قد تمرّدوا عليه، فذهب لإخماد ثورقم، حيث يقول: ﴿أَلا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.. أي إذا جئتموني منقادين فسأعفو عما سلف منكم.

قالت الملكة أيها الرؤساء، أشيروا عليّ في هذه المعضلة، فإني لا أَبُتُّ في أمر إلا بعد أن تحضروني وتقدموا مشورتكم.

وهذا يدل أن الديموقراطية كانت سائدة في ذلك الزمن أيضًا، وكانت حقوق الملوك محدودة.

فقال الرؤساء للملكة -وقد رأوا أن أحد قادة جيش سليمان هو طير بقدر عصفور!- أيتها الملكة، إنّا قوم بواسل خبراء بالحرب، فماذا عسى أن يضرنا جيش

من الطيور؟ سيصيدها أولادنا في دقائق ويأكلونها. بيد أن القرار في يدك على أية حال، ونحن تحت أمرك. فإن قررتِ أن يخرج قادة جيشك وراء هذه العصافير والطيور على متون خيولهم فسوف ننفذ أمرك، وإن قررت صيد هذا الجيش من العصافير والطيور لنعمل منها شواءً لذيذًا فعلى الرأس والعين!

فقالت الملكة: إن الملوك إذا دخلوا بجيوشهم قرية عاثوا فيها الفساد وجعلوا أعزة أهلها أذلة، وكذلك يفعلون دائمًا.

والواقع أنك لو تصفحتَ تاريخ العالم لوجدت أن كل قوم قاموا بغزو بلد صبّوا على أهله المهزومين أبشع المظالم مغرورين بانتصارهم وخوفًا من تمردهم عليهم ثانية إذا لم يقوموا بقمعهم إذ لا تطمئن قلوبهم من قِبَلهم. إن تاريخ العالم محفوظ منذ آلاف السنين، وستجد في هذا التاريخ كله أن كل شعب منتصر قد ارتكب الفظائع البشعة على الشعب المهزوم إلا محمد ﷺ وأتباعه، وواحد أو اثنان من الملوك الآخرين.

فمثلاً لو قرأت الكتاب المقدس وجدته يأمر أتباعه تجاه أعدائهم المهزومين أنه متى "دفَعهم الربُّ إلهُك أمامَك وضربتَهم، فإنك تحرّمهم. لا تقطَعْ لهم عهدًا، ولا تشفق عليهم... تهدِمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم، وتقطعون سواريهم وتحرقون تماثيلهم بالنار." (التثنية ٧: ٢-٥)

فثبت أن جميع الغزاة عبر التاريخ إذا دخلوا قرية أفسدوها، وإلى هذه الحقيقة نفسها تُشير ملكة سبأ وتقول: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾.. أي أن القاعدة المستمرة منذ القدم أنه كلما احتل ملك بلدًا آخر جعل عِلية القوم فيه أذلاء مهانين. هذه هي سنة الملوك المستمرة، إلا إذا لم يكن الفاتح مَلكًا ماديًّا مثل رسولنا ﷺ أو خلفائه، إذ كانوا ملوكًا روحانيين لا ملوكًا ماديين. وهناك ثلاثة أو أربعة آخرون أيضًا من ملوك العالم الذين هم استثناء من هذه القاعدة العامة، إذ لم يكونوا ملوكًا ماديين في الواقع بل كانوا عباد الله الصالحين مع كونهم ملوكًا. وهناك في كل التاريخ الغربي مثال واحد فقط حيث عامل القائد المنتصر

أعداءه بالعفو، ولكن أعداءه لم يكونوا من شعب آخر بل كانوا قومه هو، وهذا المثال هو أبراهام لنكولن الذي كان أحد الرؤساء الأميركيين. فقد حصلت ثورة في عهده في الولايات الأمريكية حيث تمردت ولايات الجنوب على ولايات الشمال، فكانت الغلبة للشمال. فلما أراد لنكولن أن يدخل المدينة التي بها قائد الثوار أعدّ قادة لنكولن عُدّهم لاحتفال كبير بالنصر، وأرادوا أن يدخلوا المدينة عازفين الموسيقى العسكرية، ولكن لنكولن لما رأى استعدادات الاحتفال زجر قادته وقال: أيليق بنا أن نفرح على قتل الأميركيين للأميركيين؟ لقد خضنا هذه الحرب مضطرين وإلا فإن سفك دماء رجال قومنا ليس بأمر مستحسن. ثم قال لقادته: ابقوا بأماكنكم، سأدخل المدينة وحدي. ثم دخلها وحده، ولما دخل في مكتب قائد الثوار جلس أمامه مطأطئًا رأسه على طاولته، ثم قام بعد قليل وقد اغرورقت عيناه بالدموع نتيجة اشتغاله بالدعاء.

هذا هو المثال الوحيد في كل التاريخ الغربي حيث لم يسعَ الغالب لإذلال المغلوب...

إذًا، فإن ملكة "سبأ" لما استشارت أكابر قومها بعد استلام رسالة سليمان عليه السلام قالوا إنا مستعدون للتضحية في سبيل بلادنا فَأْمُرينا بما تريدين. فقالت لهم ما الجدوى من موتنا إذا لم ينفع وطننا؟ ليست القضية ما إذا كنا مستعدين للحرب أم لا، إنما القضية هي: ما إذا كان موتنا ينفع بلادنا أم لا. ينبغي أن نرى ما إذا كانت حياتنا وخضوعنا لملك سليمان أنفعَ لنا أم أن نحاربه ونموت ليخلو الملك له. إذ ليس أمامنا إلا خياران: إما أن يبقى الملك بأيدينا وتكون العظمة والمجد لسليمان الذي ندفع له الجزية، أو نهلك في الحرب ليأخذ سليمان ملكنا. وقالت لهم الملكة بعد مداولة الرأي: واعلموا أن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزَّةَ أهلها أذلّةً.

واعلم أن قولها هذا لا يعني ما يُفهَم منه عادة بأنه كلما تأتي في البلاد حكومة جديدة تجعل كبار القوم أصاغرهم وأصاغرهم أكابرهم، ذلك لأن البلاد لا تتضرر في هذه الحالة وإن صار الصغار كبارًا والكبار صغارًا، إنما يتحدث القرآن هنا عن

الضرر الذي يلحق بالبلاد عندما يحتلّها ملكٌ أجنبي، حيث يجعل الملك الجديد الغريب كبار أهلها أذلة، ويجعل أذلّتها أكثر ذلاً وهوانًا. بتعبير آخر إن الشعب الأجنبي الغالب يعيّن على البلاد حكّامًا جددًا ورؤساء جددًا، فتفرض عليها قوانينها ونظامها ومسؤوليها وحكامها. إذًا، فكل قوة أجنبية تُحدث في البلاد تغييرًا جذريًا وتقيم نظامًا جديدًا بالقضاء على النظام القديم كي لا يتمكن أهلها من التمرد عليهم ثانية...

هدية سبأ إلى سليمان عليه السلام التي حملها الهدهد:

لما فرغت حاشية ملكة "سبأ" من تقديم مشورتها لها قالت: لقد ارتأيتُ بعد دراسة الأمور كلها أن أُرسل إلى سليمان هدية وأنتظر الجواب الذي يردّ به على رجالي. فسلّمت الهديةَ إلى الهدهد. فلما رأى سليمان عليه السلام هديتها قال إن هؤلاء القوم يريدون أن يمدّوني بمال. ويمكن للقراء الأفاضل تصوُّر الهدية الكريمة التي حملها طير الهدهد في منقاره. فإن الهدهد ربما لم يستطع أن يأخذ في منقاره عُشر الجنيه الواحد، فكيف، يا تُرى، أيقن برؤية هذه الهدية الحقيرة أن الملكة قد ﴿أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾؟

على أية حال، فلما وضعها أمام سليمان عليه السلام قال ما هذا الشيء الحقير الذي جئت به؟ فإن ما آتاني الله خير مما عندهم. ولا يمكن أن يفرح بهذه الهدية إلا أُناس أذلاء مثلهم! ثم قال للهدهد ارجِعْ إليهم، فالآن سنأتيهم بجنود لا طاقة لهم بمواجهتها -ولا تنس أن هذا الجيش قوامه الهداهد والعصافير الصغيرة منها والكبيرة- وسأطرد أهل سبأ من بلدهم مهانين صاغرين، وسيعيشون تحت سيطرة هذا الجيش في خزي طويل. علمًا أن ﴿صاغرون﴾ اسم فاعل وفيه معنى الدوام.

لقد غضب سليمان عليه السلام لأن الملوك كانوا يسترضون الملوك الأقوياء بتقديم الهدايا والأموال لهم كرشوة. فلما وصلت هدايا الملكة "بِلقيس" إلى سليمان ظن أنها تعتبره من الملوك الفاسدين المرتشين، فاستنكر فعلتها.

من يأتيني بعرشها؟

ثم قال سليمان ؏ لرجاله يا أيها الملأ مَن منكم يأتيني بعرش الملكة قبل أن يأتوني مطيعين؟ فقال رئيس من فرقة الحرس الخاص: سآتيك بعرشها قبل أن تخرج للهجوم عليهم. لقد كان أحد قادة الجيش فكان يعلم المدة التي سيقيم فيها الجيش في ذلك المكان، ففكر في نفسه أنه سيرعب الملكة ويأتي بعرشها في تلك المدة، وأضاف أنه ذو قوة ولا يقدر جيش الملكة الصغير على مقاومته. ثم إنه مطيع له فلن يخون عند نقل هذه الثروة إليه.

فنهض شخص آخر عنده علمُ الدين وقال لسليمان: سآتيك بعرشها ﴿قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾. أي السرعة، حيث يقول الرجل إذا أراد التعبير عن فعل شيء بسرعة: سأقوم به بلمح البصر. وعليه فالمراد أن ذلك العالم اليهودي وعد سليمان ؏ بإحضار عرش الملكة قبل أن يُحضره الشخص الآخر الذي كان رئيسًا يهوديًا أو أدوميًا أو عربيًا.. وكان يعني أنه سيصنع عرشًا جديدًا فخمًا مثل عرش الملكة ويُحضره إلى سليمان ؏ بسرعة. ذلك لأن البلد بلد اليهود، فكان هذا العالم اليهودي موقنًا أنه سيصنع العرش بسرعة بمساعدة الحرفيين اليهود، فوعد بإحضاره قبل أن يُحضره هذا العفريت. فلما جيء سليمان ؏ بالعرش ورآه قال: إن هذا من فضل ربي.. أي أنه تعالى أعطاني مسؤولين نشيطين أذكياء وحقق لي كل ما أتمناه، لينظر أأكون عبدًا شاكرًا له أم ناكرًا لنعمه؟ وحيث أعلن القرآن الكريم في سورة البقرة: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾(الآية: ١٠٣)، موضحًا أن سليمان ؏ أصبح بهذه النعم عبدًا شاكرًا لله تعالى لا كافرًا به.

ثم قال: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾.. أي أن الشكر ينفع الإنسان نفسه وأن الكفر لا يضر الله شيئًا لأنه تعالى كامل في ذاته ولا يحتاج إلى أحد.

وبعد أن أعرب سليمان ؏ عن مشاعر شكره لله تعالى عاد إلى الموضوع الأساس وقال: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ﴾..

أي لا بأس بهذا العرش، ولكني أريد أن يكون أروع من هذا أيضًا حتى يبدو عرش الملكة أمامه نكرةً أي حقيرًا، لأني أريد أن أرى ما إذا كانت تعترف بأن الله تعالى أكثر نعمةً عليّ أم أنها تظل مغرورة بما عندها.

لما جاءت الملكة قيل لها أعرشك كمثل عرش ملكنا؟ فأخذتها العزة فلم تعترف بفضله بل قالت: كأنه مثل عرشي. ثم قالت ولا داعي لمثل هذه الأمور فإننا قد سمعنا عن دين سليمان وعلمنا أنه على الحق وقد دخلنا في طاعته. وعندها أراد سليمان أن يمنعها من عبادة ما سوى الله تعالى، فقام بوعظها إذ كانت من قوم كافرين.

هدف بناء القصر الممرد بالقوارير:

يقول المفسرون أن سليمان عليه السلام كان يريد الزواج من الملكة بلقيس، ولكن الجن أخبروه أن ساقها مغطاة بالشعر كالماعز، فأراد تحري الأمر، فبنى قصرًا في فنائه حوضٌ كبيرٌ مفروشٌ سطحه بالزجاج يجري فيه الماء فينخدع الرائي ويظن أن الماء يجري في أرضية الفناء. فدعا الملكةَ للإقامة في القصر، فلما مرّت في الفناء ظنت أن فيه ماءً يجري، فرفعت ثيابها فزعًا، فانكشفت ساقها، فعلم سليمان عليه السلام أنها مغطاة بالشعر فعلاً، فأمر بإعداد النورة لإزالة شعرها. (ابن كثير)

ويقول البعض أن سليمان عليه السلام لم يبنِ القصر الممرد بالقوارير ليرى شعر ساقها، وإنما الواقع أنه وجد في إحضار عرشها إساءةً له، فأمر ببناء القصر إظهارًا لعظمته.

ولكن هل من عاقل في الدنيا يقول أن هذه الأمور تبلغ من الأهمية بحيث يذكرها الله تعالى في وحيه الذي هو آخر شريعة للإنسانية. الحق أن هذه الأفعال التافهة لا تمتّ إلى الدين ولا إلى المعرفة بصلة، كما أن أنبياء الله تعالى لا يأتونها. كل ما في الأمر أن ملكة سبأ كانت مشركة تعبد الشمس، وأراد سليمان عليه السلام منعها من الشرك، فقام بنصحها بالكلام أولاً، ثم أراد كشف خطأ عقيدتها عليها بشكل عملي، فأمر بإقامتها في قصر أرضيته زجاجية يجري تحتها الماء، فلما همت بالمرور عليها ظنتها ماءً فرفعت ثيابها عن ساقيها بسرعة، أو المعنى أنها خافت خوفًا شديدًا – لأن الكشف عن الساق يعطي كلا المفهومين– فهدّأ سليمان عليه السلام من روعها وقال:

لا تنخدعي فإن ما تظنينه ماءً إنما هو أرضية زجاجية يجري من تحتها الماء. لقد كشف عليها سليمان بطلان الشرك بالأدلة من قبل، فأوضح لها الآن حقيقته بمثال عملي وبيّن أنها كما رأت الماء من خلال الزجاج وظنته ماءً كذلك فإن نور الله هو الذي يتجلى في الأجرام السماوية. فاقتنعت بهذا الدليل وقالت من فورها: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.. أي يا رب لقد ظلمت نفسي بالشرك، وها إني أؤمن مع سليمان، أي بحسب دينه، بالله الذي هو رب العالمين، والذي تستفيض الشمس والقمر من فيوضه.

جريان الريح بأمر سليمان:

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨١-٨٢)..أي أنعمنا على سليمان بالرياح التي كانت تجري بأسطوله البحري في مختلف الجهات بما فيها مناطق الشام وفلسطين.

يتضح من الموسوعة التوراتية أن سليمان عليه السلام كان يبعث أسطوله من خليج العقبة إلى شرق الجزيرة العربية لجلب الذهب، وكان ينتفع به انتفاعًا عظيمًا (مجلد ٤ ص ٤٦٨٥)

وليكن معلومًا أن ضمير الغائب في قوله تعالى ﴿تجري بأمره﴾ يمكن أن يعود إلى الله تعالى وإلى سليمان عليه السلام كذلك. وإذا كان عائدًا إلى سليمان فقوله (بأمره) لا يعني أنها كانت تجري بأمر من سليمان، بل المعنى أنها كانت تجري من أجل أعماله ومنافعه.

هل كفر سليمان عليه السلام؟ وما قصة هاروت وماروت؟

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا

يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لمنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ ما شَرَوْا به أَنْفُسَهُم لَوْ كانوا يَعْلَمونَ﴾ (البقرة: ١٠٣).

إن هذه الآية تتناول ذكر بعض ما واجه سليمان من صعوبات وأخطار. ورغم أن معناها واضح وصريح... إلا أن المفسرين القدامى قد عانوا كثيرا في تفسيرها. وقالوا في آخر الأمر إن الآية تشير إلى حادثين تم فيهما تعليم الناس السحر.

الحادث الأول وقع في زمن سليمان.. حيث اختلط الشياطين بالناس وعايشوهم وعلموهم السحر. والثاني حدث في بابل حيث أنزل الله ملكين -هاروت وماروت- كانا يعلمان الناس السحر قائلين: إنما نحن فتنة وامتحان لكم. كما كانا يقولان للذين يعلمانهم: أن تعلم السحر كفر، وسوف نعلمكم هذا الكفر إذا أردتم.

وقد نسج خيال هؤلاء قصصا غريبة جدا حول الحادثة شاعت بين العوام، وكنا نستمع إليها في الصغر. فحكوا أنه كان بحوزة سليمان خاتم "الخاتم السليماني".. يدبر بفضله كل الأمور؛ فسلبه الشيطان من سليمان، فحرمه عرشه واضطره أن يهيم على وجهه، واستولى على ملكه وقد أُلقي عليه شبهه. وبعد مدة مديدة عثر شخص على الخاتم وسلمه لسليمان، فاستعاد عرشه.

أما عن قصة هاروت وماروت فزعموا أنهما كانا ملَكَيْن فسقا عن أمر ربهما، وقالا إن الأيام قد صدّقت قول الملائكة عند خلق آدم (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء).. وبطلت دعوى الله تعالى" إني أعلم ما لا تعلمون".. إذ استولى الشيطان على ذرية آدم في الأرض؛ ولو كنا نحن الملائكة فيها ما ظهر هذا الفساد. فأرسل الله تعالى هاروت وماروت إلى الأرض قائلا: حسنا، اذهبا أنتما ننظر كيف تعملان. فجاءا إلى الدنيا وتعايشا مع الناس، وكانا يُعلمان اسم الله الأعظم والسحر. فجعلا يعلمان الناس السحر، ويدعيان أمام الله تعالى أن الناس بأنفسهم يكفرون. وكانا ينبهان الناس وقت تعليم السحر أن تعلمه حرام يؤدي إلى الكفر، ويخيرانهم يتعلمون أو لا يتعلمون، ولكن الناس رغم ذلك كانوا يتعلمون.

كما تحكي القصة أنهما كانا يعلمانه الرجال فقط، مما كان يؤدي إلى التفريق بين الرجال ونسائهم. وفي أثناء هذا جاءت بغي اسمها (زهرة) لتتعلم الاسم الأعظم فعشقاها. وفي يوم من الأيام سقتهما الخمر فزنيا بها. فخيرهما الله بين أمرين: إما أن يمكثا في الأرض معلقين من أقدامهما في البئر، وإما أن يعذبا في الآخرة.. ففضّلا عذاب الدنيا على الآخرة لعلمهما بشدة عذاب الآخرة، فعلقا من أقدامهما في بئر قديمة ببابل، ولا يزالان بها. أما (زهرة) التي تعلمت منهما الاسم الأعظم فصعدت وتحولت إلى نجم مشرق يعرفه القوم باسم (الزهرة) (تفسير محاسن التأويل للقاسمي).
وقد بالغ أهل كشمير وقالوا: إن هاروت وماروت في كشمير، وكأنهما فرا من بابل إلى بلدهم!

وبعد سرد هذه القصة والأقوال الخرافية.. يقولون إن الملائكة أصابوا في اعتراضهم، حيث إن الله تعالى بعث آدم أولا ولكن نسله فسدوا، ثم أرسل هذين الملكين ولكنهما أيضًا تأثرا من الناس وفسدا. وهذا غير صحيح، لأن الله تعالى يقول في صراحة إن الملائكة كلهم مجبولون على الطاعة والصلاح وأنهم ﴿لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحريم: ٧)، أما الناس فمنهم الأبرار ومنهم الأشرار. إذا كان الناس قد فسدوا فالملائكة أيضًا فسدوا كما يزعم هؤلاء المفسرون.. وهذا لا يدفع الاعتراض وإنما يقويه ويزيد الطين بلة، لأن قصتهم تقول إن الملائكة قد فسدوا، مع أن الله تعالى صرح أنهم لن يفسدوا.. وقد عصوا الله عصيانا صريحا، فعلقوا في بئر عقابا لهم.. حتى حكي أن البعض قد رآهم معلقين في البئر ببابل!

وعندي أن قولهم هذا خطأ تماما. فالزعم بأن ملكين كانا يعلمان السحر، وأن سليمان أيضًا كان يمارس السحر ويعلمه الناس يعرض الملائكة والأنبياء للطعن، كما أن شهادة التاريخ تكذبه تكذيبا. فلا وجود إطلاقا لما يسمى سحرا بأن ينفخ الساحر ويوجد شيئا في لمح البصر. أما التنويم المغناطيسي فشيء آخر تماما.

الأمر الواقع أن هذه الآية تذكر بعض ما دبر اليهود المعاصرون للنبي من مكائد ومؤامرات ضده، وتبين أنهم في عدائهم له ﷺ اتبعوا الطرق التي سلكها أعداء سليمان للقضاء على ملكه. كما تنبه اليهود إلى أنهم لن يفلحوا أبدا في نواياهم الخبيثة.

وإذا افترضنا صحة ما ذكره المفسرون من قصص.. وقد توخيت الإيجاز الشديد في سردها.. لم يبق أي علاقة لهذه الآية بما قبلها. ولكن المعنى الذي علمني الله بفضله لا يدع أي خلل في ربط الآيات من ناحية، ولا يجعل الملائكة هدفا للاعتراض من ناحية أخرى، ثم إنه لا ينافي تاريخ سليمان من ناحية ثالثة، كما يشكل برهانا عظيما على صدق النبي ﷺ من ناحية رابعة.

والآن أبين لكم معنى الآية تفصيلا. ولكي لا يصعب فهم المعنى.. أتوخى في الشرح التعامل الفكري الطبعي الذي يوصل إلى هذه النتيجة.

يتبين من الآية أنها تتكلم:

أولا: عن حدوث فعل ثلاث مرات في مختلف العصور.

وثانيا: أن هذا الفعل الحادث ثلاث مرات تعلق بجمعية سرية، أو بمؤامرة خفية.

وثالثا: أنه حدث في المرات الثلاث التالية:

-في عصر سليمان: (واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان).

-في بابل: (وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت).

-في عهد النبي ﷺ: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ (البقرة: ١٠٣)، وقال في موضع آخر في هذا المعنى نفسه ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:١٠٤).

ورابعا- أن هذا الحادث المتكرر ثلاث مرات صدر عن اليهود.

وإذا فهذه الأمور الأربعة سوف تحدد معنى الآية، وكل معنى لا يتوفر فيه هذه الشروط الأربعة كلها أو بعضها يكون مردودا.

وإذا فحصنا القصص التي ذكرها المفسرون وجدناها ينقصها واحد من هذه الشروط: إما لكونها لا تخص اليهود، أو لكونها لم تقع ثلاث مرات، أو لم تحدث في هذه العصور الثلاثة، أو لا تكون لها علاقة بالجمعيات السرية والمؤامرات الخفية.

وإذا أمعنا النظر في هذه الشروط أو الأصول الأربعة وجدنا أن أوضحها هو كون هذا الحادث مرتبطا بالجمعيات السرية والمؤامرات الخفية التي تفرق بين الرجال والنساء.. أي لا تكون المرأة عضوا فيها. فهذا الأصل يسهل ويضمن لنا المضي في التحقيق في اتجاه سليم. هلموا الآن نر هل هناك أي جمعية تفرق بين الرجل والمرأة، ولها صلة بهذه العصور.

إذا ألقينا نظرة فاحصة على تاريخ العالم كله لم نجد فيه إلا جمعية واحدة تفرق بين الرجل والمرأة، وما زالت آثارها موجودة في عصر النبي ﷺ، بل لم تزل موجودة حتى قبل عشر أو عشرين سنة.. ألا وهي الجمعية الماسونية، وهي جمعية سرية، لا تضم في عضويتها النساء.

هذا، مع العلم بأنه لا علاقة للماسونية الحالية بهذه الأحداث، وإنما تتعلق هذه الأحداث بتلك الجمعية الماسونية السرية التي كان لها علاقة بهذه العصور الثلاثة، وشواهد التاريخ تؤيد ذلك. كما أن الجمعية الماسونية لم تكن موجودة وجودا متصلا إلى الآن.. وإنما تأسست بهذا الاسم عدة جمعيات في مختلف العصور.. عاش بعضها أربعمائة سنة، ثم جاءت أخرى وعاشت لخمسمائة سنة، وبعضها حتى القرن الخامس عشر الميلادي، ثم تأسست أخرى في القرن الثامن عشر وانمحت في نفس القرن، وتأسست من جديد في القرن التاسع عشر. لذلك لا نستطيع تخصيص إحدى هذه الجمعيات الماسونية، ولكن إذا وجدنا لإحداها علاقة باليهود وصلنا إلى الهدف، لأن الشروط الثلاثة الأخرى أيضًا تخص اليهود.

ثم إن من البراهين على صلة الماسونية باليهود أن أسماء الشهور والأعوام القمرية التي تستخدمها الجمعية الماسونية الأسكتلندية هي نفس الشهور والأعوام التي كان اليهود الأوائل يستخدمونها. ولكن صاحب دائرة المعارف اليهودية يعلق على ذلك

قائلا: من يدري.. لعل هذه الأسماء راجت فيهم عن طريق المسيحيين؟ ثم يذكر المؤلف قائمة لهذه الأسماء المتداولة في الماسونية التي يبلغ عددها ما بين ثلاثين وأربعين اسما.

وهناك رواية تؤكد وجود جمعية سرية في عهد سليمان، كانت تعمل ضده. وهذه الرواية كانت شهيرة في قدامى الماسون، وتقول إن سليمان كان ...يحسد ويحقد على حورام لِما أوتي من ذكاء عال ونفوذ كبير، فحاول سليمان قتله سرا، وألقاه في حوض به زيت مغلي، ولكن روح جده 'قابيل' أنقذته، إلا أنها أخبرته أن عدوه سوف ينتصر عليه آخر الأمر. وتم ذلك حيث أغرى سليمان بعض حساد حورام بالمال لقتل ثلاثة بنائين، كان حورام أحدهم. ويقولون إن حورام هذا كان قد اخترع رموزا وإشارات سرية ليتفاهم بها مع أصحابه، فكانوا باستخدامها يجتمعون على الفور.

وإذًا فقد تبين من ذلك كله أنه كان هناك في زمن سليمان جمعيات سرية تعاديه وتتآمر عليه، فقتل سليمانُ زعيمها. وكان بعض أتباع هذا الزعيم يقدسونه لدرجة أنهم ظنوا أنه لم يقتل وإنما رفع إلى السماء. وكان هؤلاء من اليهود حيث وجدت في هذه الجمعيات آثار وطقوس يهودية تنسب إلى حورام.

ثم نرجع إلى التوراة لنجد فيها أيضًا ذكرا لجمعيات معادية لسليمان. وبرغم أن التوراة لم تذكر حورام إلا أنها تؤكد عدواة اليهود لسليمان واتهامهم إياه بالكفر والشرك، وهذا ما ذكره القرآن ههنا.

فأولا_ جاء اتهامهم سليمان بالكفر والشرك في التوراة هكذا:

(وكانت له سبعمائة من النساء السيدات ثلاثمائة من السراري. فأمالت نساؤه قلبه. وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملا مع الرب إلهه كقلب داود أبيه.. فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين. وأوصاه في هذا الأمر أن لا يتبع آلهة أخرى. فلم يحفظ ما أوصى به الرب) (الملوك الأول ١١:٣، ٤، ٩، ١٠).

مما يبين أن اليهود كانوا يتهمونه بالكفر والشرك بالله، كما كانوا يقومون بنشر هذه التهم بين الناس. ويشير أيضًا قول الله في القرآن (على ملك سليمان) أن تكفيره كان شغلا شاغلا بين الناس.

وثانيا- يتضح مما سبق أن الذين كانوا تحته في الظاهر هم الذين كانوا يتآمرون عليه. وبحسب التوراة فإن سليمان صار مشركا بالله..

يتضح من هذا أنه صار لسليمان أعداء كثيرون من داخل ملكه يتآمرون عليه. تقول التوراة: (ولما سمع يربعام بن نباط وهو في مصر حيث هرب من وجه سليمان الملك رجع يربعام من مصر. فأرسلوا ودعوه. فأتى يربعام وكل إسرائيل وكلموا رحبعام قائلين. إن أباك قسّى نيرنا، فالآن خفف من عبودية أبيك القاسية ومن نيره الثقيل الذي جعله علينا، فنخدمك)(أخبار الأيام الثاني ١٠:٢-٤).

مما يدل على أنه ما أن مات سليمان إلا أرسل بنو إسرائيل إلى أكبر أعدائه يربعام في مصر. وقبل أن يجلس ابن سليمان رحبعام على العرش جعلوا يطالبونه بقبول بعض شروطهم إن أراد كسب طاعتهم.

وبالاختصار فإن قول الله تعالى (واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر..) كأنما يتحدث عن المؤامرات السرية التي قام بها اليهود ضد سليمان عليه السلام، كما يبين أن اليهود المعاصرين للنبي ﷺ أيضًا كانوا يكيدون له كيدا مثلهم، ولكنهم سوف يفشلون في مراميهم الخبيثة.

والحادث الثاني الذي يذكره القرآن هنا حدث ببابل، فهناك لجأ بنو إسرائيل إلى تشكيل جمعيات سرية، ولكن كان زعماؤها حينئذ اثنين من أنبياء الله تعالى، حاولا تحرير اليهود بأمر من الله تعالى، وذلك بكسر شوكة عدوهم وتشتيت شمله، كانا يستميلان الناس لتحقيق هدفهما قائلين: إنما نحن فتنة.. إذ سوف يختبركم الله تعالى ليميز الأبرار من الأشرار، فلا تكفروا ولا ترفضوا ما ندعوكم إليه. وكانا يخفيان خطتهما عن النساء ولا يشركانهن في نشاطهما.. شأن الجمعيات السرية منذ القدم،

حيث لا تقبل المرأة عضوا بها. كما كان هذان النبيان -اللذان سميا هنا هاروت وماروت- لا يضرون نشاطهما السري هذا إلا الذين أمرهما الله بالكيد لهم.

والآن بقي أن نرى ما حدث في ببابل.

ليكن معلوما أنه بعد سليمان ببضع سنين قام نبوخذنصر ملك بابل بغزو أورشليم وأسر عشر قبائل من اليهود وذهب بهم إلى بابل، وترك في فلسطين قبيلتين منهم فقط (الملوك الثاني ٢٥:١-١٣). وانتشرت هذه القبائل اليهودية العشر واستوطنوا ما بين كشمير وغيرها من الأماكن. وقد تم أسرهم وإجلاؤهم هذا بحسب نبأ للنبي إرمياء الذي أنذرهم قائلا: إن لم تعطوا يوم السبت حرمته تدمرون (إرمياء ١٧:٢٧).

ثم طال مُكثهم في منفاهم ببابل، و لم يجدوا سبيلا إلى النجاة.. حتى أنبأ الله على لسان أنبيائهم أنه تعالى سوف يعيدهم إلى وطنهم ومركزهم. وتحقق هذا بعد سبعين سنة عندما جلس على عرش ميديا وفارس ملك اسمه "كورش"، وشاء الله تعالى أن تنشب بينه وبين ملك بابل حرب لما رأى هذا وغيره من الملوك نجم كورش في صعود، ولكنه كان أدهى منهم، فأخذ يقضي عليهم واحدا واحد إلى أن شن الهجوم على بابل نفسها. وتمت بين كورش وبين النبييْن اليهودييْن "هاروت وماروت " اتفاقية سرية تقضي بأن يناصره اليهود مِن داخل المدينة نظير السماح لهم بالعودة إلى وطنهم؛ بل وعدهم كورش بدعم مالي لإعادة بناء المعبد. وبالفعل احتل المدينة من داخلها بمساندة اليهود، ووفى لهم بوعده، فسمح لهم بالعودة إلى الوطن، وأمدهم بمال كثير وخشب لبناء المعبد، فعمرت أورشليم من جديد في عهد النبي عزرا (تأريخ المؤرخين للعالم ج٢ ص٢٦ Historians History of the World).

فهاروت وماروت إذاً نبيان إسرائيليان قاما بأمر الله بإرجاع شعبهما إلى الوطن، وذلك بمساندة كورش ملك ميديا وفارس. وقد أطلق القرآن على أحدهما اسم 'هاروت' أي كثير التمزيق، وعلى الآخر اسم 'ماروت' أي كثير الكسر.. لِما كانا يقومان به من كسر شوكة بابل وإضعاف قوتها وتمزيق وحدتها وتشتيت شملها.

وبالنظر في التوراة يمكن القول إنهما النبي حجي و النبي زكريا بن عِدّو.. فقد ورد أن النبيين حجي وزكريا هما اللذان سعيا لتحرير اليهود بمساندة كورش سرا (عزرا ٥). وإلى هذا أشار القرآن بقوله: (..وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت، وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر. فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه، وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله).

الآن ننظر إلى الأصل الثالث، ألا وهو: هل يوجد أي أثر لمثل هذه النشاطات من جانب اليهود في عهد النبي ﷺ؟

والجواب: نعم، تذكر كتب التاريخ أن اليهود تآمروا على النبي، وتزعمهم كعب بن الاشراف الذي طاف الجزيرة العربية، وأشعل نار العدواة، وأوغر صدور العرب ضد النبي ﷺ، وبلغت به الوقاحة أن هجا نساء المسلمين، وتناول نساء بيت النبوة أيضًا بهجوه الفاحش (السيرة النبوية لابن هشام، مقتل كعب بن الأشرف). ولما رأى اليهود أن دولة الإسلام في تقدم مستمر وازدهار متزايد رغم عواصف المعارضة هذه.. تآمروا مع دول أخرى للقضاء عليه.

كان لليهود قبل بعث النبي ﷺ علاقات قوية بملك الفرس، وتذكر كتب التاريخ أن اليهود مالوا إلى ملك الفرس بسبب اضطهاد المسيحيين الرومان لهم. كانت في ذلك الزمن دولتان عظيمتان: الدولة الفارسية المجوسية والدولة الرومانية المسيحية؛ ولما كان الفرس يعادون الرومان، وكان اليهود أيضًا يعادونهم بسبب مسيحيتهم واضطهادهم الشديد لليهود في دولتهم.. لذا مالوا إلى الفرس طمعا في مساندتهم لهم، وأنشئوا معهم علاقات قوية حتى صار لهم نفوذ في نفوس الفرس. وأيضًا فر بعض اليهود من اضطهاد الدولة المسيحية إلى بلاد فارس، وتمتعوا بالحرية الدينية تحت حكم الفرس. وهناك أعدوا كتابهم (التلمود)، ونبع هناك أحبار كبار منهم نالوا إكراما وتعظيما خاصا لدى ملوك الفرس، وخاصة لما اشتدت وطأة التعذيب المسيحي على اليهود في عهد جستنتين (٥٢٧-٥٦٧م)، لم يجدوا ملجأ لهم إلا في فارس، حتى تحول

مركزهم الديني من يهوذا أو أورشليم إلى ببيلونيا (هتشنسن–تاريخ الأمم ٥٥٠، ودائرة معارف التوراة).

وصار بهم في عهد النبي ﷺ أن ضيَّق قيصر الروم عليهم الخناق، وكان لا يدخر وسعا في القضاء عليهم، وكان لا يكتفي بتعذيبهم.. بل يكرههم على الارتداد عن دينهم، وينفيهم من البلاد. وإذا فقد كانت الدولة الفارسية هي الوحيدة التي يمكن أن يستعين بها اليهود لما كان يتمتع به دينهم ورهبانهم من احترام ونفوذ كبيرين في نفوس الفرس، حتى أن الملوك كانوا يقربونهم إليهم.

والآن، إذا ثبت وجود أي مؤامرة فارسية للقضاء على الإسلام فلا بد لنا من عزوها إلى اليهود.. لأن مشركي العرب لم يكونوا على علاقة طيبة مع الفرس، وإنما كان اليهود هم المقربون إليهم.

والذين أرجعوا ثورة كسرى إلى كتاب النبي.. هم أنفسهم قد اعترفوا آخر الأمر أنه لم يصدر هذا الأمر بمشورة عربية لأنه لم يكن له أي نفوذ على العرب، وإنما قام بما قام بإثارة خارجية.. أصحابها هم اليهود الذين أرادوا القضاء على دولة المدينة بمساندة ملك الفرس، كما قضوا من قبل على دولة بابل بنفس الطريقة.

وقد اعترف بالمؤامرة اليهودية هذه سير وليم موير فقال: إن رجال كسرى توجهوا بأوامره قبل أن يصله كتاب النبي ﷺ. وأن اليهود كانوا يثيرون كسرى على النبي. أما العرب فلم يكن لهم شأن عند كسرى، وأما النصارى فكانوا أعداء له (المرجع السابق).

تبين مما سبق من البحث ما يلي:

أولا– أن الجمعيات السرية كانت بدايتها من اليهود.

ثانيا– أن هؤلاء كانوا من أعداء سليمان.

ثالثا– أنهم دبروا نشاطات سرية ثلاث مرات: مرة ضد سليمان، وثانية ضد ملك بابل، وثالثة ضد النبي ﷺ.

وما دمنا قد رأينا أن حلقات هذه الأحداث قد اتصلت بعضها ببعض.. فتحقق أن هذه الآية تتحدث عن أعداء سليمان، ثم عمّا حدث بين الملك الفارسي كورش وبين ملك بابل، ثم كل ما دبره اليهود من محاولات لقتل محمد ﷺ.

وعلى ضوء هذه الأحداث..يكون معنى الآية كما يلي:

إن هؤلاء اليهود يتبعون ما كان الشياطين –أي رؤساء الشر والفساد– يأتونه في زمن حكم سليمان عليه السلام.. حيث كانوا يتهمونه بالكفر والشرك والإلحاد، وكانوا يشيعون عنه الإشاعات بأن النساء قد مَلَكْن قلبه ودفعنه إلى عبادة آلهة غير الله أو أن يأمر بما ينافي الدين. والحق أن سليمان كان مرسلا من ربه؛ ولم يكفر ولم يشرك قط، وإنما أولئك الشياطين.. رؤوس الفتنة والشر هم الذين كفروا...

وقد بيّن الله بذكر هذه الأحداث أن اليهود المعارضين للنبي ﷺ هم أيضًا يكيدون له كما الشياطين –رؤساء الشر– يكيدون لسليمان، ويتبعون نفس الطريق الذي اختاره هاروت وماروت بأمر من الله تعالى، ولكنهم لا يفكرون أن الذين تآمروا على سليمان كانوا أهل شر وسوء، في حين أن هاروت وماروت قاما بتلك النشاطات بأمر الله لإنقاذ بني إسرائيل من ربقة ملك بابل.. وكانا يقولان للناس: هلموا انضموا إلينا ولا ترفضوا ولا ترتدوا كافرين. تعالوا نحارب من داخل المدينة سرا.. عندما يهاجمها كورش بجيش من الخارج، ولا تخبروا بذلك نساءكم لأن فيهن ضعفا وجبنا ولا يستطعن كتمان السر. فهناك بون شاسع بين ما يقومون به وبين ما قام به هاروت وماروت من نشاط خفي.. فهل يمكن أن يدَّعوا بأن ما يفعلون بمحمد ﷺ يفعلونه بأمر الله ولإرضائه تعالى؟ هل يعد كافرا من يرفض الانضمام إليهم؟ وما داموا لا يمكنهم قول ذلك فإنهم يشبهون الثائرين على ملك سليمان، وليسوا كثائرين على ملك بابل.

ويبيّن قوله تعالى: (وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله) أن الثوار المشبَّهين بالملائكة لم يكونوا يغرون أحدا إلا بوحي من الله تعالى.. فهل يدعي اليهود أن الله يوحي إليهم أن يعادوا محمدا ﷺ؟ وبرغم أنهم لم يتلقوا أي وحي كهذا.. فهم عندما

يقال لهم: لا تكيدوا هذه المكائد.. يقولون: لقد سمح الله لنا بذلك.. وقد قمنا بمثل هذه النشاطات في بابل أيضًا. فيرد الله عليهم أن الأحوال والأسباب قد تغيرت الآن تماما.. لأنكم الآن تحاربون رسولي الذي تلقى الوحي مني.. ولستم إلا مثل أعداء سليمان. كما كان أعداؤه يتهمونه بالكفر فأنتم أيضًا تتهمون محمدا بالكفر؛ وكما أشاعوا ضده الإشاعات فأنتم أيضًا تشيعون الأقاويل ضد هذا النبي، وصرتم من الذين يحرفون الكلم عن مواضعه.

وقوله (ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم) يشير إلى حقيقة أن اليهود يحسبون أنهم كما تحرروا من ربقة ملك بابل بمساندة ملك الفرس.. فسوف يتحررون الآن أيضًا من حكم رسول الله محمد ﷺ بالتآمر عليه من دولة خارجية؛ وهذا لن يحدث أبدا. ذلك لأن نجاح هاروت وماروت يكمن في أنهما فعلا ما فعلا بأمر الله تعالى، ولكن هؤلاء يخالفون الله عن أمره، فلن ينفعهم. فاتهامهم النبي ﷺ بالكفر كاتهام أعداء سليمان إياه وتآمُرُهم عليه مع كسرى، ومقاومتهم له بمساندة خارجية، كما حدث في غزوة خيبر، كل ذلك لن يغني عنهم شيئا، وإنما مصيرهم الهلاك ولن يضروا محمدا شيئا.

وكأن الله تعالى ببيان هذين الحادثين يوعدهم، ويدعوهم للمقارنة بين ما فعلوا في زمن سليمان وما فعلوا في بابل حتى يعرفوا مصيرهم، حيث أدت مؤامرتهم ضد سليمان إلى إضعاف قوة إسرائيل وانحطاطهم وهوانهم فأسرهم ملك بابل وأجلاهم عن وطنهم، حتى أن أكبر أعداء سليمان يربعام أيضًا لم يجد بدا من الهروب إلى مصر (الملوك الأول ١١:٤٠). ولكنهم لما قاموا بالنشاط السري بأمر من الله تعالى وتحت قيادة نبيين قضوا على عدوهم وعادوا إلى وطنهم من جديد.

فكأن في ذلك نبأً أنهم لتآمرهم مع الفرس سوف يُطْرَدون من المدينة ثم من خيبر أيضًا حتى تطهُر أرض العرب من نجسهم.. وعندئذ يتبين جليا أنهم كاذبون. وبالفعل أدّت مؤامرتهم هذه إلى هلاك كسرى، ثم إلى نفيهم من الجزيرة العربية، تماما كما حدث بالمتآمرين على سليمان عليه السلام.

قصة أيوب عليه السلام

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٤-٨٥)

بعد داود وسليمان عليهما السلام ذكر الله تعالى أيوب عليه السلام الذي قضى كل عمره في المحن. ولربما يكون عليّ رضي الله عنه أشبه الناس بأيوب في العصر النبوي...

أما أحوال أيوب عليه السلام فقد ألقت عليها الضوء طوائف مختلفة: المسلمون والنصارى وكذلك المؤرخون اليهود الذين يكتبون التاريخ على ضوء الدين... ويقول المؤرخون المسلمون إن الله تعالى قد بسط الدنيا لأيوب، وكانت أراضي الشام والبلاد المجاورة لها ملكًا لــه، وكان لــه من الإبل والبقر والغنم والخيل والحمير ما لا يُعَدّ ولا يحصى. وكان لــه خمسُ مائة فدان يتبَعها خمسُ مائة عبد. وكان الله تعالى قد أعطاه أهلاً وولدًا بكثرة. ومع ذلك كان بارًّا تقيًّا، رحيمًا بالمساكين يُطعمهم، ويكفل الأيتام والأرامل، ويكرم الضيف. وقد فشل الشيطان في محاولاته لإغوائه. لقد آمن به ثلاثة من أهل اليمن. وكان إبليس في زمنه يسترق أخبار السماء -علمًا أن المفسرين عندنا يقولون هذا عن كل نبي- وفي أحد الأيام صلى أيوب على نبينا ﷺ بكل حرارة وإخلاص، فردت عليه الملائكة بالصلاة؛ وأثنى الله عليه ثناء كبيرًا. فحسده إبليس فحضر وقال لله تعالى إلهي إن عبدك أيوب بارٌّ لأنك وهبت لــه نعمًا كثيرة، ولو ابتليتَه وأخذتَ منه ما أعطيته من النعم لخرج من طاعتك. فقال الله لــه انطلقْ فقد سلّطتُك على ماله. فهلك كل ما لدى أيوب من المال، فحمد أيوب ربه أيضًا. فذهب الشيطان إلى ربه وقال إنه شاكر لك لأنك

أعطيته الصحّة. فقال الله تعالى انطلق فقد سلّطتُك على جسده أيضًا، ولكن ليس لك سلطان على لسانه وقلبه وعقله. فأُصيبَ أيوب بحكّة شديدة، وتغير جسمه وأنتن وتولدت الديدان في جروحه. فأخرجه أهل القرية منها، فاتخذ لــه عريشًا حيث خدمته زوجته واسمها رحمة. وإن الثلاثة الذين آمنوا به أيضًا خذلوه. ولبث في هذه المحن ثماني عشرة سنة عند البعض، وثلاث سنوات عند البعض الآخر، وسبع سنوات عند الآخرين. ولم يقترب منه في تلك الفترة إلا زوجته التي كانت تحضر لــه الطعام. فكانت تشترك مع زوجها في ذكر الله تعالى. فتضايق الشيطان وقال في نفسه إن زوجة آدم أيضًا قد أُغويت، فلم لا أغوي زوجة أيوب. فذهب إليها، فآتاها ولد شاة وقال لها ليذبحْ أيوب هذا باسمي ليُشفَى. فذكرتْ ذلك لزوجها، فنهرها وقال كيف انخدعتِ بعدو الله هذا؟ لقد تمتعنا بنعم الله طويلاً، فهلا صبرنا على المصائب بضع سنين؟ ثم حلف وقال والله لئن شفاني الله لأجلدنّكِ مئة جلدة. ثم طرد زوجته من عنده وقال لن أذبح باسم أحد سوى الله تعالى. ثم دعا ربه ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٤)، فقال لــه ربه يا أيوب لقد استجبنا لك. فقم واركُل الأرض برجلك، فركلها برجله، فنبعت عين ماء، فاغتسل منها، فزال مرضه نهائيًّا، وعاد إليه شبابه وجماله. ثم ضرب برجله ثانية، فنبعت عين ماء أخرى، فشرب منها، فلم يبق في جوفه داء. ثم إن امرأته قالت في نفسها لا بأس إن كان زوجي قد طردني على خطئي. عليّ أن أرجع إليه وإلا فسيموت جوعًا. فرجعت ولم تجده في مكانه. فجعلت تبكي وتبحث عنه في كل مكان حتى وجدته. وأبرّ أيوب يمينه بأن أخذ ضغثًا فيه مئة عود، فضرب به زوجته ضربة واحدة (انظر تفسير الخازن).

لقد أُعجب الناس بهذه القصة إعجابًا شديدًا حتى نجدها في تاريخ الهندوس أيضًا بالإضافة إلى تاريخ اليهود، وإن كانوا قد غيّروا الأسماء في بعض الأماكن.

هناك كتاب مستقل لأيوب في العهد القديم، لـــه ٢٤ إصحاحًا. وقد ورد في هامشه أن أيوب جاء قبل المسيح بحوالي ١٥٢٠ عامًا.. أي قبل موسى بقرنين تقريبًا...

على كل حال، قد ورد في سفر أيوب إصحاح ١ أنه كان في أرض عَوصَ رجلٌ اسمه أيوب. وكان بارًّا وتقيًّا جدًّا. وكان لـــه سبعة بنين وثلاث بنات. وكانت عنده سبعة آلاف من الغنم، وثلاثة آلاف من الإبل، وخمس مئة زوج من البقر، وخمس مئة من الأتان، وخدم كثيرون. ولم يكن مثله في الشرق مالاً. وكان بنوه أيضًا أثرياء جدًّا. ولما شبّ بنوه قدّم القرابين عن بنيه لكي يُغفر لهم إن كانت لهم بعض الخطايا.

وذات يوم حضرت الملائكة أمام ربهم، وجاء الشيطان أيضًا في وسطهم. فقال الله تعالى للشيطان: من أين جئتَ؟ وهل رأيت عبدي أيوب؟ قال جئتُ بعد أن كنتُ أتجول وأتمشى في الأرض، وقد رأيتُ عبدك أيوب أيضًا. صحيح أن أيوب بارّ، ولكن هل مجّانًا يتقى ربَّه؟ إنما يتقيك لأنك قد أسبغتَ عليه النعم. انزعْ منه النعم ثم انظر كيف يجدّف عليك؟ فقال الله للشيطان دَمِّرْ مالَه كله كما شئتَ، ولكن لا تمسّ جسمه.

ثم حدث أن أعداءه شنّوا الغارة على خدمه وقتلوهم. ثم سقط البرق من السماء وأحرق غلمانه وماله... فمزّق أيوبُ جبّتَه وأخذ يبكي، ثم سجد وقال: عريانًا خرجتُ من بطن أمي وعريانًا أعود إلى هناك. ولكنه رغم كل هذه المصائب لم يتهم الله بشيء.

أما الإصحاح الثاني فقد ورد فيه أن الشيطان جاء ثانية وسط الملائكة للمثول بين يدي الله تعالى، فقال تعالى ألم تر أن عبدي أيوب لا يزال جد شاكرٍ لي؟ فقال الشيطان إن الإنسان يضحي لنفسه بكل ما يملك، ولكن ينبغي أن تضره في جسمه وعظامه، ثم انظر هل يشكرك بعد ذلك؟ قال الله تعالى لـــه: لك أن تصيبه في صحته، ولكن لا تهلكه. فأصاب الشيطان أيوب بمرض في جلده، فخرجت البثور

على جسده من أخمص قدمه إلى قمة رأسه. فقالت لـــه زوجته: اتركْ هذا الشكرَ وجدِّفْ على الله تعالى، ومُتْ. فرفض أيوب قولها وقال كيف يصح أن نتلقى من الله تعالى نعمه ولا نبذل في سبيله شيئًا. ثم جاءه مريدوه الثلاثة من الأماكن النائية وأخذوا يبكون بكاء شديدًا.

وورد في الإصحاح الثالث أن أيوب لما رأى أن هناك مؤامرة لكي ينحرف هو إلى السيئة لعن يوم ولادته.

وجاء في الإصحاح الرابع أن أحدًا من مريديه قال لـــه إن عذاب الله إنما ينـــزل بأعدائه وليس بالصالحين، فلا بد أن تكون فيك سيئة ما.

وجاء في الإصحاح الخامس أنه رد على مريده هذا أن العقاب ينـــزل نتيجة السيئات، وعلى الإنسان أن يسلم نفسه لله تعالى وقت العقاب.

وورد في الإصحاح السادس أن أيوب دعا الله تعالى أن الموت خير له.

وورد في الإصحاح السابع أن أيوب ندم بعد ذلك وتأسف على أنه تمنى الموت.

وجاء في الإصحاح الثامن أن أحد مريديه الذي كان يدعى بِلْدَدُ قال له أن الله تعالى يعاقب المجرمين دائمًا.

وجاء في الإصحاح التاسع أن أيوب رد على من اعترضوا عليه أني لا أدّعي بأني بار، ولا أقول إن الله ليس عادلاً. إن الله عادل حتمًا، ولكن الموت والهلاك يأتي على كل واحد. بيد أنه تعالى يعاقب البريء اختبارًا. ثم قال إن الأرض فيها حكام أشرار، وأرى أن عمري ينقضي بسرعة. ولا جدوى من قولي بأني سأصبر حق الصبر لأنكم ستعتبرونني مذنبًا حيث توقنون أن الله تعالى لا يعاقب إلا شريرًا، أما أنا فأوقن أن الله تعالى يبتلي البريء أيضًا بالمحن.

وفي الإصحاح العاشر قد أنهى العهد القديم قصة أيوب بأن تلاميذه الذين كانوا يحاجّونه أوحى الله إليهم وأمرهم أن يأتوه بالعجول والأكباش، ليقدم القربان كفارة لذنوبهم. ثم ورد أن أصدقاءه وأهله وأولادهم كلهم رجعوا إليه، وتضاعفت أمواله، ورُزق عمرًا طويلاً.

... توجد في الهند أيضًا قصة كهذه، واسم صاحبها هريش تشندر عند الهندوس، وهي مماثلة لقصة أيوب تقريبًا. إذ قد ورد فيها أيضًا أن الشيطان دخل على الله تعالى مع الآلهة، فلما رأى اللهُ تعالى يثني على هريش تشندر، قال لله تعالى بأن يأذن له بتدمير ماله. بيد أن هريش تشندر ظل متمسكًا بالصدق والسداد. لقد تعرض لتجارب كثيرة ولكن لم تزلّ قدمه.

وهناك في العهد القديم ما يشير إلى أن قصة أيوب قد جاءت من الهند، وأن أيوب -على الأغلب- ترجمة لاسم صاحب هذه الواقعة، وأنه سمي به على سبيل الاستعارة. وتلك الإشارة هي أن العهد القديم يذكر عن صاحب هذه الواقعة أنه لم يوجد مثله في الشرق مالاً. هذا يؤكد بكل وضوح أن هذه القصة جاءت من الشرق أي الهند، وأُدخلت في العهد القديم. لقد سجلنا فيما أعلاه ما ذكره المفسرون وما ورد في العهد القديم من روايات بهذا الصدد، ويتضح بالجمع بينها أن المفسرين قد نقلوا عن اليهود، لأن ما ذكروه يتفق مع ما ذكره العهد القديم في كثير من الأمور، كما يختلف معه في بعضها. إن هذا الاتفاق والاختلاف في الوقت نفسه لدليل على أن مصدر المعلومات واحد، ولكن لا يمكن الاعتماد عليه تمامًا.

أما القرآن الكريم الذي هو منـــزه عن مثل هذه المهازل كلها، فقد حذف من القصة كل ما هو لغو. وإن الوقائع التي قد ذكرها القرآن إنما تبين أن أيوب عليه السلام كان يملك أموالاً طائلة، وكانت لـــه عائلة كبيرة. وكان يسكن في بلد وثني، وكان ملكُه ظالمًا. والدليل على كون الملِك ظالمًا هو قولُ الله تعالى ﴿إذ نادى ربَّه أنّي مَسَّنِي الشيطانُ بنُصْبٍ وعذابٍ﴾ (ص:٤٢). والشيطان في اللغة العربية هو المتمرد والطاغي (الأقرب)، فالمراد من هذه الآية أن الملك الطاغية قد أصابني بأذى وتعب وعذاب. أي بسبب عدوان هذا الطاغية قد اضطررتُ للهجرة من مكان إلى آخر، وقد ألحق الضرر بمالي وعائلتي، وهكذا آذاني. والدليل على قولي بأن أيوب كان اضطر للهجرة جراء ظلم ذلك الطاغية هو قوله تعالى ﴿ارْكُضْ برِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ (ص: ٤٣)، وأيضًا قوله تعالى ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلاَ

تَحْنَثْ﴾ (ص: ٤٥).. أي ارْكُضْ بدابتك، واضْرِبْها أيضًا بغصن شجرة لكي تحثّها على السير بسرعة، وعندما تفعل ذلك ستجد أمامك عين ماء تغتسل به وتشرب منه أيضًا.

يتضح من هذه الآية أيضًا أن أيوب كان يسكن في منطقة جبلية. وبإمكان الذين قد زاروا منطقة كشمير استيعاب هذا المشهد جيدًا. فإن أهل كشمير عندما ينـــزلون من المناطق الجبلية على صهوات خيولهم يركضونها ركضًا، كما يضربونها بأغصان الشجر أيضًا من أجل السرعة. كما توجد في كشمير عيون المياه الباردة.

إذًا فإن كل ما يتضح لنا من رواية القرآن الكريم إنما هو أن أيوب ﷺ قد هاجر بأمر الله تعالى من بلده، الذي كان منطقة جبلية ذات عيون ماء، وأنه ركض بفرسه خلال السفر -وليس أنه ركل الأرض برجله وفجّر عين ماء- كما كان يضرب حصانه بغصن كثير العُود ليحثّه على السير بسرعة؛ وليس أن زوجته دعته إلى الشرك بالله تعالى، فحلف بأن سيضربها مئة سوط، ثم احتال وأن أخذ ضغثًا فيه مئة عود وضربها به إبرارًا ليمينه. لقد انخدع المفسرون بكلمة (ولا تحنث) التي تعني ولا تُخلف يمينك، وقالوا إن الله تعالى أمر أيوب ﷺ أن لا يخلف يمينه، بل عليه أن يضرب زوجته بضغث فيه مئة عود. مع أن الله تعالى لم يذكر مئة سوط، ولا الضرب بمئة عود. إن الضغث إنما يعني الغصن الذي فيه أعواد جافة وخضراء أيضًا، ومثل هذا الغصن هو الذي يستخدمونه عادةً لضرب الفرس، حيث يكون رخصًا لخضرته، كما يؤلم جلد الفرس بجفافه عند الضرب.

ثم إن الحنث يعني الميل إلى الباطل، وعليه فكان من واجب المفسرين، بدلاً من أن ينسجوا تلك القصة غير المعقولة، أن يفسروا الآية بأن الله تعالى أمر أيوب ﷺ بالهجرة عن أرض ذلك الملِك الظالم، لأن القرآن يقول إن الله تعالى أمره بأن يركب حصانه ويركضه ويضربه بغصن شجرة، ويخرج عن ذلك البلد بسرعة، ويبتعد عن المشركين بدون تأخير، وأن لا يميل إلى المشركين.. أي لا يعيش بينهم. ذلك لأن الحنث لا يعني هنا الميل إلى الباطل بالقلب، بل يعني الميل إلى الحنث بالجسد الذي

معناه هنا الجوار. وهكذا قد أمره الله تعالى أن يخرج من منطقة الشرك بسرعة، غير مكترث لما يصيبه بركوب الفرس من نصب وتعب. إذ ليس هناك من علاج للنصب الذي يصيبك من قبل الملِك، ولكن نصب الركوب فعلاجه ممكن، وهو أن أمامك عين ماء، فاغتسلْ فيه، واَشرب منه، ولا تتأسف على ترك ذلك البلد لأننا سنوصل إليك أقاربك كلهم، بل نعطيك مثلهم أيضًا.. أي سيكون لك في البلد الجديد أيضًا محبّون مخلصون.

ونجد هنا نوعًا من التشابه بين النبي ﷺ وأيوب ؑ. لقد اضطر النبي ﷺ للفرار من بلد الشرك الذي لم يكن به ماء. ثم بعد ذلك أوصل الله تعالى بفضله زوجتيه ﷺ اللتين ترَكهما في مكة وقت هجرته إلى المدينة، كما آتاه الله تعالى في المدينة مزيدًا من الأزواج المطهرات الصالحات مثلهما. وهذا ما وعد الله به أيوب هنا فقال لــه، اخرُجْ مِن مُلك هذا الملِك المشرك، وهاجِرْ إلى بلد آخر، وسنفرّج عنك كروبك هناك، وسنُلحق بك أقارِبك، بل نَهب لك المزيد مثلهم؛ كما نمدّك بالماء الوفير للغسل والشرب.

قصة يونس عليه السلام

﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ (يونس: ٩٩)

إن الآية تحتوي على الكثير مما يساعد الإنسانَ المتدبر المتفكر على إدراك عظمة رحمة الله الواسعة. ما أشدَّ كلماتها دلالةً على الرغبة الإلهية الملحّة في أن تؤمن الدنيا كلها، وكم تنمّ ألفاظها عن الأسف البالغ لعدم وجود أمم أخرى كقوم يونس عليه السلام، الذين عندما جاءهم العذاب تابوا كلهم توبةً صادقة نصوحًا لدرجة أن الله تفضَّلَ بقبولها ونجّاهم من العذاب المحقّق.

لقد سردت التوراة أحداث النبي يونان كالآتي: أمر الرب يونان قائلاً: قُم، اذهبْ إلى نينوى المدينة العظيمة، وناد عليها، لأنه قد عظم شرها. فخاف يونان أن يتوب أهلها وينجوا من العذاب الذي أنذرهم به، فبدلاً من أن يتجه إلى نينوى هرب إلى يافا، وركب من هناك سفينة ذاهبة إلى ترشيش. ولكن حاصرت رياح شديدة السفينةَ فجأةً. فخاف الملاّحون وصرخوا أمام آلهتم بدون جدوى. وأخيرًا ألقوا القرعة ليعرفوا من هو السبب في هذه البلبلة. فوقعت القرعة على يونان. فسألوه عن حاله، فقال: لقد فررتُ من طاعة أوامر ربي، فَاطْرَحوني في البحر، فيسكن البحر عنكم. فطرحوه فيه، فتوقف عن هيجانه. وأمر الرب حوتًا عظيمًا ليبتلعه، فكان في جوفه ثلاثة أيام وثلاث ليال. وأمر الرب الحوت فقذفه إلى البر. ولما استرد صحته قام وذهب إلى نينوى، وأنذر أهلها بأنهم سيصيبهم الدمار بعد أربعين يومًا. فتاب أهلها عن المعاصي وآمنوا، فرفع الله عنهم العذاب. فشق ذلك على يونان فخرج إلى البرية. فأنبت الله هناك يقطينةً فارتاح إليها يونان. ثم أرسل الله دودةً، فأكلت الشجرة

فيبست. فتأذى يونان من حرارة الشمس وتضايق. فأوحى الله إليه: أنت أشفقتَ على اليقطينة التي لم تتعب في إنباتها، أفلا أشفق أنا على عبادي الذين يبلغون عشرات الآلاف وقد خلقتُهم. (ملخص من سفر يونان).

يبدو من دراسة القرآن الكريم أن بيان التوراة هذا ليس بصحيح مائة بالمائة، وأن القرآن يرفضه لعدة وجوه منها:

أولاً: إن القرآن ينفي بكل شدة وصرامة أن يخالف نبي من أنبياء الله تعالى صريحَ الوحي، وإلا لرُفع الأمان كليةً. والله تعالى يعلن في القرآن الكريم صراحةً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (النساء: ٦٥)، ويأمر نبيه ﷺ باتباع الرسل قائلاً ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (الأنعام: ٩١).. أي على الإنسان أن يقتدي بهدي الرسل كافة، وأن يسعى لتكون أعماله مصطبغة بنفس الصبغة والروح المتجلية في أعمالهم. فلو كان الأنبياء أنفسهم مصابين -والعياذ بالله- بهذه الأمراض الخطيرة ويعصون أوامر الله فكيف يأمرنا باتباعهم؟

ثانيًا: يبدو من بيان القرآن أن سيدنا يونس أُرسل إلى قومه، ولكن يبدو من الروايات اليهودية أنه كان يهودي الأصل، ولكنه بُعث إلى أمة غير يهودية، هم الأشوريون أهل نينوى التي كانت حينئذ عاصمة المملكة الأشورية...

وباختصار فإنه وفق بيان القرآن لم يكن سيدنا يونس من بني إسرائيل، أو إذ كان منهم فإنه لم يبعث إلى نينوى، بل إلى قبيلة من القبائل الإسرائيلية. ولقد تضاربت آراء المستشرقين أيضًا فيما إذا كان حضرته إسرائيليًا أم لا؟

ويستطيع كل عاقل أن يدرك بأدنى تدبر أن موقف القرآن الكريم في الأمرين كليهما أقرب إلى العقل والمنطق، على عكس ما تذكره التوراة.

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ* فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٨-٨٩)

نتعلم من دعاء يونس عليه السلام سرًّا لقبولية الدعاء يجب أن نضعه في الحسبان عند الدعاء دائمًا، وهو أنه ينبغي للمرء أن يقوم بتسبيح الله وتحميده في الدعاء قبل أن يسأله تعالى ما يريد. فترى أن يونس عليه السلام قال في مطلع دعائه ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ﴾.. أي يا رب أنت الذي تستحق الحمد الكامل، ولا إله يستحق العبادة سواك، ثم إنك مبرأ من النقائص والعيوب كلها. وبعد هذا التسبيح والتحميد عرض مطلبه على الله تعالى، واستعان به على كربته. هذا هو الأسلوب الذي ينبغي على كل مؤمن أن يتبعه، فيجعل التسبيح والتحميد في مقدمة الدعاء. ففي الدنيا أيضًا حينما يذهب سائل إلى دار، يمدح أولاً أهله، ويتغنى بمحاسنهم، ثم في الأخير يعرض عليهم مطلبه، موقنًا بأن مجيئه إليهم لن يذهب الآن سدى. هذا هو الطريق الذي يجب اتباعه في الدعاء، فعلينا أن نقرّ أوّلاً بقدرة الله وعظمته وجبروته، ثم نحمده ونسبحه، وفي الأخير نعرض عليه تعالى سؤالنا.

قصة زكريا عليه السلام ويحيى عليه السلام

إن سورة مريم في القرآن الكريم تتحدث عن المسيحية، وتفنّد عقائدها... ولكن لماذا استهلّ الله تعالى هذه السورة بذكر زكريا عليه السلام، وما الحكمة في الحديث عنه قبل التطرق إلى المسيحية؟ هذه مسألة هامة يجب توضيحها؟

اعلم أن زكريا عليه السلام هذا هو غير زكريا صاحب الكتاب الموجود في التوراة، والذي جاء في عام ٤٨٧ قبل الميلاد. إن زكريا هذا الذي جاء قبيل المسيح عليهما السلام، والذي كفَل أُمَّه، فكان أيضًا نبيًّا بحسب القرآن الكريم، بينما تذكره الأناجيل بصفة كاهن فحسب، وليس كنبيّ... ويبدو أن الكتاب المقدس كان يسمّي النبيَ الذي يُبعث لتكميل مهمة نبي آخر كاهنًا...

ولكن التدبر في التوراة يكشف لنا أن الله تعالى كان يبعث رسله حتى في المناطق الصغيرة جدًّا نظرًا إلى حالة اليهود، حتى بُعث أحيانًا مئات الأنبياء في وقت واحد (الملوك الأول ٢٢: ٦)، بل جاء بعض الأنبياء الكبار في زمن واحد... على كل حال، فزكريا كاهن عند الإنجيل، ولكن القرآن الكريم يسميه نبيًّا، وزكريا عليه السلام المذكور هنا هو ذلك الذي كان كفيلاً لأم المسيح عليه السلام والذي بُعث في زمن قريب جدًّا من ظهور المسيح.

إن السبب الأول لورود اسم زكريا في القرآن قبل الحديث المسهب عن المسيحية هو وجود النبوءة الشائعة بين اليهود أنه لا بد من نزول إيليا قبل ظهور المسيح؛ وبما أنه كان من المقدر أن يرزق زكريا ابنَه يحيى الذي كان إرهاصًا للمسيح.. بمعنى أنه جاء ليمهّد لمجيء المسيح، وبتعبير آخر جاء ليذكّر اليهودَ بمجيء المسيح ويعرّفهم عليه.. فلذلك قد ذكر الله تعالى زكريا قبل الحديث عن المسيح. فإننا نقرأ في التوراة

نبوءة ملاخي النبي التالية: "هأنذا أُرسلُ إليكم إيليّا النبيَّ قبل مجيء يوم الرب، اليومِ العظيم والمخوف" (ملاخي ٤: ٥).

علمًا أن المراد من "يوم الرب، اليوم العظيم المخوف" هو مجيء المسيح الناصري، فإنه عليه السلام لما أعلن دعواه سأله اليهود السؤال نفسه وقالوا: أين إيليّا المزمَعُ نـــزوله؟ فأوضح لهم أنه لم يكن المراد من نـــزول إيليا إلا مجيء يوحنا وقال: "وإن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليّا المزمَعُ أن يأتي" (متى ١١: ١٤).

فبما أن المسيح عليه السلام ما كان ليُبعث ما لم يأت يحيى -الذي يدعى يوحنا في الإنجيل، والذي كان بُروزًا وظلاً لإيليا- فكان لزامًا ذكرُه قبل ذكر ميلاد المسيح عليهما السلام، إشارةً إلى أن نبوءة ملاخي النبي قد تحققت، وأن إيليا الذي نبّأ ملاخيٌّ بنـــزوله قد جاء، وأن المسيح أيضًا قد ظهر.

والسبب الثاني لورود قصة زكريا هنا، بحسب ما يتضح من القرآن الكريم، هو أن مريم كانت سببًا لولادة يحيى عليهما السلام، حيث قال الله تعالى ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (آل عمران: ٣٨-٣٩). أي أن زكريا الذي كفل مريم، والذي لم يكن قد رُزِق أولادًا بعد، ذهب مرة إلى مكان عبادته، فوجد عند مريم، الصبية الصغيرة في رعايته، طعامًا، فسألها كما يسأل الكبارُ الصغارَ لطفًا ومداعبة: يا ابنتي من أين لك هذا الطعام؟ قالت: هو من عند الله.

يقول المفسرون أن الله تعالى كان يُنـــزل لمريم الطعام من السماء (الرازي). ولكن لا ذكر للسماء هنا. إنما الواقع أنها أجابت بهذا الجواب نتيجة التربية الحسنة التي تلقّتْها. فنحن أيضًا نعلّم صغارنا أنه إذا سألهم أحد من أعطاكم هذا الشيء فقولوا: الله تعالى. فلما سمع زكريا من صبية، عمرها ثلاث أو أربع سنوات، أن الله تعالى هو الذي يمنحها كل نعمة، وهو الذي أعطاني هذه النعم كلها، تأثر من جوابها تأثرًا كبيرًا. فقال في نفسه ما دام الله تعالى هو الذي يعطي كل شيء في الواقع، حتى

إن هذه البنت الصغيرة أيضًا تدرك ذلك، فما لي، وأنا إنسان عاقل مجرب، لا أوقن بأن الله تعالى هو الذي يمنح كل شيء. ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ (آل عمران: ٣٩).. أي أنه لدى سماع جوابها فكر وقال في نفسه: عندي أيضًا حاجة، لم لا أسأل الله إياها؟ ليس عندي أي أولاد. لو كان عندي ولد مثل مريم، وسألته، أنّى لك هذا يا بُنيّ، فقال: هذا من عند الله، لأدخلَ في قلبي السرور كما سرّتني مريم بجوابها.

إذًا فكانت مريم حافزًا دفَع زكريا الطَّيْلا إلى الدعاء لولادة يحيى، وهكذا فكما أن يحيى بُعث إرهاصًا للمسيح صارت مريمُ والدةُ المسيح -بطريق غير مباشر- إرهاصًا لولادة يحيى، حيث سُمع دعاء زكريا فوُلد عنده يحيى.

لقد قال الله تعالى هنا ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ (مريم: ٣) ولم يقل "ذكرُ رحمةِ ربِّك زكريا". ذلك لأن فيه حكمة بالغة سأذكرها لاحقًا. إنه من مزايا القرآن الكريم أنه ينتقي الكلمات بحيث تأتي كل كلمة بحسب الحاجة، ولا تكون زائدة بلا فائدة. ففي هذه الآية أيضًا استخدم القرآن كلمة (ذِكرُ) التي تقديرها "هذا ذِكرُ"، وهي لا تعني سرد واقعة فحسب، بل تعني أيضًا التذكير بها، بمعنى أن الواقعة التي يسردها القرآن هنا تبلغ من الأهمية بحيث يجب أن يتذكرها الجميع ويؤمنوا بعظمة الله وقدرته ﷻ.

ثم قال الله تعالى ﴿رحمة ربِّك﴾.. أي أن هذه القصة آيةُ رحمة من ربِّك.

وهنا ينشأ سؤال وهو أن هذه الواقعة كانت دليلاً على رحمة الله بزكريا وعلى ربوبيته لمريم، فلمَ قال الله تعالى ﴿رحمة ربِّك﴾ بدلاً من أن يقول (رحمة الرب)؟

والجواب أن ضمير الخطاب في ﴿رحمة ربِّك﴾ يدل صراحة على أن هذا ذكرٌ لربوبية الله لمحمد ﷺ. ذلك أننا لو أمعنّا النظر لوجدنا أن يحيى كما كان إرهاصًا لعيسى عليهما السلام كان عيسى إرهاصًا لمحمد رسول الله ﷺ. وبيان ذلك أن ولادة المسيح من غير أب كانت إيذانًا بانتهاء الدور الموسوي وابتداء الدور الذي يتحقق فيه الوعد الذي قطعه الله تعالى مع إبراهيم في حق ابنه إسماعيل إذ قال: "ها

أنا أباركه وأُثمره وأكثّره كثيرًا جدًّا. اثني عشر رئيسًا يَلِدُ، وأجعله أمّةً كبيرة" (التكوين ١٧: ٢٠، ٢١: ١٨)؛ كما يتحقق فيه الوعد الذي تم على لسان موسى حيث ورد: "يقيم لك الربُّ إلهُك نبيًّا مِن وسطك مِن إخوتك مثلي. لــه تسمعون" (التثنية ١٨: ١٥).

فلما كانت واقعة زكريا الطِّيْلا حلقةً من سلسلة طويلة الحلقات قال الله تعالى هنا ﴿رحمة ربك﴾، ليخبر نبيه محمدًا ﷺ أنه من آيات رحمة ربه أنه تعالى قد بدأ يجهّز الناسَ لتصديقه منذ زمن طويل، إذ خلق يحيى أولاً ليكون إرهاصًا لعيسى، ثم خلق عيسى ليمهّد من أجله.

ثم أضاف الله تعالى هنا كلمة ﴿عبدَه﴾، مع أن الجملة كانت كاملة بدون هذه الزيادة أيضًا! والحكمة في ذلك أن رحمة الله نوعان: رحمة عامة ورحمة خاصة.. أعني أن هناك رحمة تنبع من صفة الله "الرحمن" حيث تشمل المؤمنَ والكافر كليهما؛ وهناك رحمة أُخرى مصدرها صفة الله "الرحيم"، وتنــزل فقط على عباده الذين هم من خدّامه من الطراز الأول جزاءً لهم. وقوله تعالى ﴿رحمةِ ربِّك﴾ لم يكشف ما إذا كانت هذه الرحمة نابعة من مصدر "الرحمانية" أم "الرحيمية"، فجاءت كلمة ﴿عبدَه﴾ لتكشف أن تلك الرحمة ليست من منبع الرحمانية والتي هي عامة وتنــزل بدون أي عمل ولا خدمة، بل هي من منبع الرحيمية.. أي أنها نــزلت نتيجة عمل، إذ كان عبدنا زكريا صالحًا وقام بخدمات جسيمة. وهذه المعاني كلها قد بيّنها الله تعالى بإشارات صرفية ونحوية بسيطة.

وقد علِمنا من ذلك أيضًا أن من الداعين من يستحق رحمة الله تعالى ومنهم من لا يستحقها. ولكن صفة الرحمة الإلهية أيضًا لا تتجلى تلقائيًّا، بل لا بد لإثارتها من بعض الأسباب. فتارةً المصائب، وأُخرى اضطهاد العدو، ومرّةً عجز الإنسان وعدم حيلته، يُحدث في قلب المرء هيجانًا غير عادي للدعاء الذي يستنــزل رحمة الله من السماء. وهذا يعني أن صفات الله تعالى إنما تظهر نتيجة بعض الحوافز المعينة. وأما الحافز الذي كان وراء نــزول رحمة الله على زكريا فقد ذُكر في الآية التالية حيث

قال الله تعالى ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ (مريم: ٤).. أي أن نداء زكريا ربَّه هو الذي جلب لــــه الرحمة الإلهية التي لا تنـــزل إلا على الخدام المخلصين.

... علمًا أن الدعاء نوعان: أولهما الدعاء الذي يُشرك فيه المرءُ الآخرين أيضًا، فيردد لذلك كلمات الدعاء بصوت عال؛ والثاني الدعاء الذي يقوم به الإنسان على انفراد، ولا يريد أن يُشرك فيه غيره، فيدعو بصوت خافت حتى لا يسمعه غيره. فيكون مثلاً في حالة اضطرار شديد، فيخاف أن يسمع الناس صوته لو تضرع في الدعاء أمامهم، فيدعو على الانفراد حتى لا يطّلع أحد على اضطرابه وابتهاله. فالله تعالى يخبرنا هنا أن زكريا ﴿نادى ربَّه نداء خفيًّا﴾.. أي دعاه ﷻ بصوت خافت، فلم يحب أن يُشرك غيره في دعائه.

لِمَ لم يرد زكريا ؑ أن يُشرك غيرَه في دعائه؟ نعرف سبب ذلك مما ورد في سورة آل عمران، كما نجد هنا أيضًا الإشارة إلى ذلك السبب، وهو أن المرء عندما يعلم، من خلال بعض الإشارات الإلهية، أن الفيض الرباني سينتقل من شعبه إلى غيره فلا بد أن يتألم لهذا الخبر وإن كان هو لا يزال مهبطًا لأنوار الله تعالى. ذلك لأنه لا يريد أن ينتهي هذا الفيض وهذا النور على يده، بل يتمنى أن تتأخر عنه هذه النهاية قليلاً، فلا يكون هو السراج الأخير الذي لا ينـــزل بعده على قومه نور من السماء.

يتضح لنا من سورة آل عمران أنه برؤية الحالة الروحانية العظيمة لمريم عليها السلام تنبه زكريا ؑ للخطر القادم، وأدرك أن ذلك الشخص الموعود لبني إسرائيل ربما سيولد من بطنها. فمن ناحية تلقى من الله تعالى إشارات بكفالة مريم ورعايتها. كما أخذت مريم نفسها تأتي، رغم سنّها الصغيرة، بأمور تدل على صلاحها وتقواها وحب الله لها. كما أن الله تعالى بدأ يُظهر لها آيات، وجعَل الناس يعظمّونها لصلاحها وتقواها؛ فكانوا يأتون لها بالهدايا من طعام وثمار وما إلى ذلك. فمن ناحية رأى زكريا أن مريم الصبية زاهدةٌ في الدنيا، وأنها رغم صغر سنها تدرك أن هذه النعم والهدايا إنما هي من عند الله تعالى، ولم تأت إلا نتيجة لفضل الله ومنّته.

فبرؤية هذه الأمور والإمارات كلها أدرك زكريا أن ذلك الموعود الذي تنتهي عليه النبوة من بيت بني إسرائيل سيولد من بطن مريم.

هذا من جهة، ومن جهة أُخرى كان ينظر إلى نبوءات ملاخي والأنبياء الآخرين التي كانت تنذر باقتراب موعد انقطاع النبوة عن بني إسرائيل؛ ففهم زكريا أن فيضان النبوة من بني إسرائيل على وشك الانتهاء. فدعا ربه بالدعاء المذكور في هذه الآيات من القرآن الكريم، وقال: يا رب، كانت لي بُغية لم أزل أربّيها في قلبي منذ زمن طويل، وها إني أبوح لك بسريرة قلبي بعد ما غمرني الحزن العميق بسماع قول مريم هذا.

هذا هو معنى قوله تعالى ﴿إذ نادى ربَّه نداءً خفيًّا﴾. إنه بثّ إلى الله تعالى همّه المكنون وعرض عليه ﷺ أمنيته الغالية التي لم يذكرها لــــه من قبل، وذلك بعد أن تألم قلبه وتهيّجَ للدعاء بسماع قول مريم. مما لا شك فيه أن الله تعالى لا تخفى عليه خافية، ولكن الدعاء الذي يخفيه المرء في نفسه ولا يدعو به يُعتبر سرًّا مكنونًا في المصطلح. وبهذا المعنى نفسه يقول سيدنا المسيح الموعود عليه السلام لربه في بيت شعر لــــه ما تعريبه: ربِّ أعطِني ما في قلبي، فلساني لا ينطلق خجلاً وحياءً.

إن العظام في الكبر تصبح رِخوةً هشّةً قابلة للانكسار بسرعة، ومن أجل ذلك نجد أن عظم الشباب يُجبَر بسرعة، ولكن عظم الشيوخ لا يقبل الجبر بسهولة. فقول زكريا ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ (مريم: ٥) يعني أن عظامه قد ضعفت، فلا يقدر الآن على الصبر والاحتمال لشدة الضعف.

ثم قال ﴿واشتعلَ الرأسُ شيبًا﴾.. ذلك لأن شَعر المرء لا يصاب بالبياض دفعة واحدة، بل عندما يفقد الشعر سواده يميل إلى الاصفرار، ثم إلى البياض، بيد أن ذلك البياض يكون خفيفًا غير بارز. أما إذا أصبح الإنسان شيخًا هرمًا اشتد بياض شعره جدًّا. وعن هذه الحالة نفسها عبّر زكريا عليه السلام بقوله ﴿واشتعل الرأس شيبًا﴾.

أما قوله ﴿و لم أَكُنْ بدعائك رَبِّ شقيًّا﴾ فلفظ (بدعائك) يمكن أن يفسر كالآتي: "بدعائي إياك"، والمراد أني لم أر الشقاوة والفشل قط بسبب دعائي إياك، أو بسبب الأدعية التي دعوتك بها.

وبالنظر إلى أن زكريا نبيّ فيمكن تفسير لفظ (بدعائك) بطريق آخر، وهو "بدعائك إياي".. أي لأنك، يا ربِّ، دعوتَني أي خصصتَني بنعمتك وجعلتَني من أنبيائك المقربين الذين تكلّمهم، فلم أر الشقاوة في حياتي، و لم أفشل في مقصدي قط، بل كان النجاح حليفي في جميع مقاصدي دائمًا أبدًا. ذلك أن الشقاوة ضدُّ السعادة، والمراد من السعادة أن تكون نصرة الله حليفةً للإنسان يحرز بها الخير المنشود. لقد عبّر زكريا عليه السلام في دعائه هذا عن ضرورته الحقّة. إنه لم يكن من أهل المال والثراء، إنما كان نبيًّا، فما كان يخاف بعده على مال ولا ثروة، بل كان يخاف على تعليمه. لقد كان عليه السلام من عائلة يعمل أفرادها كأحبار، حيث كان أقاربه أيضًا أحبارًا في معبد سليمان في بيت المقدس وغيره من المعابد (لوقا ١: ٥). فقال لربه إن هؤلاء الأقارب قد صاروا متكالبين على الدنيا بحيث لا يحركون ساكنًا لإنقاذ دينهم اليهودية. يبدو أن المناصب الدينية عند اليهود حينذاك أصبحت كالإرث الذي ينتقل من الأب إلى الابن، كما حصل بالمسلمين، فإذا مات واحد من أولياء الله تعالى جعلوا ابنه مكانه مهما كان فاسدًا وغافلاً عن الدين، وإذا لم يكن لــه ابن فأخاه. فكانت حالتهم كحالة المتصوفة المسلمين اليوم، الذين يُلقَّبون بالأولياء، ولكنهم، من الناحية العملية، بعيدون عن الدين بعد الأرض من السماء.

على أية حال، فكان اليهود مصابين بمرض البُعد عن الدين مثل ما حصل اليوم بالمسلمين، فإذا كان فيهم رجل صالح تبوأ أولاده مكانه مهما كانوا فاسدين وغافلين عن الدين. وإن زكريا عليه السلام يشير في دعائه إلى هذا الأمر نفسه ويقول لربه ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾ (مريم: ٦).. أي أنني يا رب، أخاف أقاربي بعدي لأني أراهم غير مبالين بالدين.

ثم قال ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ (مريم: ٦) ..أي أن زوجتي أصبحت غير قادرة على أن تلد. لو كانت شابة، أو لو كنتُ أنا شابًّا، لكانت هناك إمكانية لأن يكون عندنا أولاد. ذلك لأن المرأة الشابة يمكن أن تلد من رجل كبير السن، كما قد تلد المرأة التي قاربت سن الكبر إذا تزوجت من شاب. فيقول زكريا عليه السلام لربه إن الأسباب المادية لولادة الابن غير متوفرة فيَّ أنا ولا في زوجتي. ﴿فهَبْ لي من لدنك وليًّا﴾.. أي أعطِني يا رب، بمحض فضلك ولدًا يحفظ أفراد أسرتنا من الضياع ويثبّتهم على الدين. ﴿يرثني ويرِث من آل يعقوب﴾.. أي يرِث ابني هذا مني الحماسَ لخدمة القوم ونصرة الدين، كما يأخذ أيضًا إرثَ المحاسن والصالحات كلها التي وُجدت في بني إسرائيل منذ موسى وهارون وداود وسليمان وغيرهم من الأنبياء. ﴿واجعلْه رَبِّ رضيًّا﴾.. أي اجعَلْه من المقبولين في حضرتك في الآخرة يا ربِّ.

فيا لـــه من دعاء رائع وجامع! ولو أننا بيّنّاه بكلماتنا فهو كالآتي: ربِّ، لقد اضمحلّت قُواي من الداخل، كما قد تشوّهَ منظري أيضًا. بيد أني معتاد على مِننك وألطافك التي لا نهاية لها، فلم أر فشلاً ولا شقاء طيلة حياتي، فصرت بسبب عنايتك أتدلل وأتفاخر بك. إن أقاربي فاسدون ومع ذلك يريدون أن يتبوأوا منصبي الروحاني. أما زوجتي فغير قادرة لأن تلد. ومع كل هذا جئتك للسؤال. وما أريده منك هو أن تَهَب لي ولدًا، يكون وليًّا لي وشبيهًا بي تمامًا. ولدًا يحيا بعدي، ويحمي أسرتي. ولدًا يتخلق بأخلاقي وأخلاق آل يعقوب.. فلا يخلّد اسمي فقط بل اسم أجداده. ثم لا يكون مقبولاً في الناس فحسب، بل يكون أيضًا مرضيًّا عندك يا رب.

سبحان الله! ما ألطَفَه من دعاء! يقول: لقد فسد جسدي من الداخل، كما تشوه منظري من الخارج. أما زوجتي فأصبحت بلا جدوى. وأما أقاربي فقد عمّهم الفساد. ومع ذلك أسألك أن تعطيني ابنًا. ولا أسألك، رغم شيخوختي، ابنًا عاديًا، بل ابنًا يتحلى بما فيَّ وفي أجداده من مزايا ومحاسن، ولا يكون مرضيًّا عندي فحسب، بل يكون مقبولاً ومحبوبًا لديك أيضًا. هذا هو الدعاء الذي دعا به زكريا عليه السلام.

فلا شك أنه الطَّيْلا كان يعرف، بناء على النبوءات السابقة، أن نور النبوة على وشك أن يُنـــزع من بني إسرائيل، وأن بعثة النبي الذي ستنتهي به النبوة فيهم موشكة، ولكنه فكر أنه قد يكون هناك سبيل لنجاة قومه من الهلاك والدمار، فدعا الله ﷻ أن يهب لـــه ابنًا خاصًا -وهو يحيى الطَّيْلا- ليجهز قومه للإيمان بذلك النبي الموعود لينصروه ويعزّروه كي ينجوا من العذاب الذي ينتظرهم، فيبقى فيهم نور الله، أي النبوة، لمدة أطول.

يتضح من أحوال يحيى المذكورة في الإنجيل أن الغاية الأساسية لمجيئه إنما هي أن يُعدّ القوم للإيمان بالمسيح عليهما السلام. حيث ورد في الإنجيل قول يحيى: "أنا أعمّدكم بماءٍ للتوبة، ولكن الذي يأتي بعدي هو أقوى مني، ولستُ أهلاً أن أحمل حذاءه. هو سيعمّدكم بالروح القدس ونارٍ" (متى ٣: ١١).

فالأمر الذي ركّز عليه يحيى الطَّيْلا وبذل جهوده كلها من أجله إنما هو أنه ليس هو الغاية، بل قد جاء هو لنصرة المسيح. كما نجد أن زكريا الطَّيْلا أيضًا دعا ربه أن يمهّد ابنُه الطريق للنبي الموعود لبني إسرائيل، علّه يتمكن من إقناعهم بتصديق المسيح، حتى يُلغَى العذاب الذي قد اقترب.

هذه هي الخلفية لدعاء زكريا الطَّيْلا، ولو درسنا المسيحية على ضوئها لم تبقَ المسيحيةُ ذات قيمة. ذلك لأنها تدّعي بأنها الأساس، بينما تؤكد هذه الخلفية أن المسيحية لم تكن إلا آخر لبنة في ذلك البناء. إذ لم تكن الغاية من المسيحية تأسيس دين جديد وشرع جديد، وإنما كانت إيذانًا من الله تعالى بانتهاء نعمة النبوة والوحي والإلهام المستمرة في بني إسرائيل من زمن طويل.

لقد حاول زكريا الطَّيْلا أن يستمر نـــزول هذا النور في قومه لفترة أطول، فدعا ربه ﷻ أن يهب لـــه ولدًا يبذل كل ما في وسعه لكيلا يرفض بنو إسرائيل المسيح. فاستجاب الله دعاءه، وبعث يحيى، الذي لم يدّخر وسعًا في أن يجهز قومه للإيمان بالمسيح، ولكن قدر الله غلَب، وحلّ قضاؤه وحكمه تعالى.

وبالمثل كان ما حصل بزكريا الطَّيْكِلاً، فلما هاجمه الهم والحزن بأن قومه على وشك الهلاك فكر أنه قد أصبح شيخًا هرمًا، ولا يستطيع حمل هذا العبء الثقيل أكثر، فلو أن الله تعالى وهب له ابنًا نبيًّا يمهّد الطريق للشخص الموعود لبني إسرائيل، ويدعو الناسَ إلى الإيمان به، فقد يزول العذاب المحدق بقومه، ويبقى نور النبوة فيهم لفترة أطول. فقال الله لـــه: حسنًا، سنهب لك الابن، وسنجعله نبيًّا أيضًا، ولكن قدرنا يكون هو الغالب، فإن اليهود لن يؤمنوا رغم ذلك، بل سيقتلون ابنك هذا في السجن.

لقد رأيتم أن الذي دعا كان من المصطفَين الأخيار، فدعا دعاء كاملا، فانظروا الآن إلى المستجيب الذي يملك الكمال كله حيث قال الله تعالى لـــه: يا زكريا، إنا نبشرك بابن سيبلغ الكهولة ولكنه لن يرى الشيخوخة.

أما قول الله تعالى ﴿اسمه يحيى﴾.. فاعلم أن الأولاد لما كانوا يُسمَّون بعد الولادة لا قبلها، فالمراد من هذه الجملة أنه إذا وُلد لك هذا الابن فسمِّه يحيى. وليس المراد منها أن الله تعالى قال لزكريا إن ولدك سيبدأ بترديد "اسمي يحيى" بمجرد أن يولد.

وليكن معلومًا أن القرآن الكريم قد سمى الولد يحيى، ولكن جاء اسمه في النسخة الأردية للكتاب المقدس يوحنا، أما في النسخ العبرية واليونانية والإنجليزية فجاء اسمه كالآتي: yohanan, Joannes, و John.

وإني لا أعلم معنى يوحنا في العبرية، ولكن الاسم العربي "يحيى" له معنى ومغزى ويعني الشخص الذي يعيش. إذاً فكان في قوله تعالى ﴿اسمه يحيى﴾ إشارة إلى أن هذا الولد سيعيش وعليك أن تسميه يحيى. أو المعنى أن هذا الولد صفتُه "يحيى" وسيُكتب لـــه الخلود. ويتضح من القرآن الكريم أن الشهداء يعيشون إلى الأبد، إذاً فكأن في اسم "يحيى" إشارة إلى أن هذا الولد سيُستشهد في سبيل الله تعالى، وينال مقامًا عاليًا في الروحانية بحيث يُكتب له الخلود إلى الأبد. والبديهي أن نبيًّا مثل المسيح لا يمكن أن يموت أبدًا، إذاً فكيف يمكن أن يموت النبي الذي نبوته منوطة بالمسيح. إن المسيح لا يمكن أن يموت لأنه إرهاص لنبي لا يمكن أن يموت أعني نبينَا محمدًا رسول الله ﷺ،

وإن يوحنا لا يمكن أن يموت لأنه إرهاص للمسيح الذي لا يمكن أن يموت. وهذا ما قد حصل فعلاً، حيث ترون أن نبينا ﷺ قد أخبرنا أنه قد جاء قبله مائةُ ألف وأربعةٌ وعشرون ألفًا من الرسل (مسند أحمد، باقي مسند الأنصار رقم الحديث ٢١٢٥٧)، ولكنا لا نعرف حتى أسماء مائة منهم. فثبت أن الأنبياء الآخرين قد ماتوا، وأنه ليس بالضرورة أن يعيش كل نبي للأبد، بل إن بعضًا منهم قد كُتب لهم الخلود، وبعضهم قد ماتوا. وكان يحيى عليه السلام من بين الأنبياء الذين كتب لهم الخلود، لأن نبوته منوطة بالمسيح الذي بدوره خالدٌ، لكون نبوته منوطة بمحمد رسول الله ﷺ الذي هو نبي خالد إلى الأبد.

ثم قال الله تعالى ﴿لم نجعَلْ لــه مِن قبل سميًّا﴾، والسميّ لــه معنيان: الأول: مَن كان اسمه كاسمك؛ والثاني: مَن كان نظيرَك. لقد ظن المفسرون خطأً أن السميّ هنا جاء بالمعنى الأول، أي لم يوجد قبل يحيى عليه السلام أحد اسمه يحيى (البحر المحيط). وهذا خطأ. فقد ذكرت التوراة نفسها عدة أشخاص كانوا يُدْعَون يوحنا. فكان أحد أسياد اليهود يسمى يوحنا (الملوك الثاني ٢٥: ٢٣). كما كان أحد أحفاد سليمان عليه السلام يدعى يوحنا (أخبار الأيام الأول ٣: ١٥)، وكان واحد من الذين رجعوا من إيران مع عزرا النبي لتعمير أورشليم يدعى يوحنا (عزرا ٨: ١٢). فمن الخطأ القول أنه لم يوجد أحد بهذا الاسم قبل يحيى عليه السلام مطلقًا، لأنه خلاف الواقع.

والمسيحيون الذين هم دائمًا بالمرصاد للطعن في الإسلام وجدوا في رأي المفسرين هذا فرصة سانحة للاعتراض على القرآن الكريم، فأخرجوا من التوراة أسماء هؤلاء، ثم راحوا يؤيدون اعتراضهم بقولهم أن محمدًا -والعياذ بالله- سمع من بعض القوم شيئًا مما ورد في الإنجيل. فكان مما سمعه أن زكريا صار أبكمَ لا يتكلم قبل ولادة يحيى، فلما جاءه أقاربه في اليوم الثامن ليختنوا ابنه، واقترحوا أن يكون اسمه زكريا مثل أبيه، قالت أم الولد: لا، بل يسمى يوحنا. فقالوا لها: "ليس في عشيرتك أحدٌ تَسمَّى بهذا الاسم". فأشاروا إلى أبيه الأبكم وقالوا: ماذا يريد أن يسمَّى الابن، فطلب لوحًا وكتب قائلا: اسمه يوحنا. وفي الحال انطلق لسان زكريا وتَكلّمَ (انظر

لوقا ١: ٥٧-٦٤). فانخدع محمد بقولهم: "ليس في عشيرتك أحدٌ تَسمَّى بهذا الاسم"، حيث لم يستوعبه محمد ﷺ جيدًا، فظن أنه لم يوجد في الدنيا من قبل أحد باسم يوحنا مطلقًا، مع أن ما قال الأقارب لزكريا إنما هو أنه لم يوجد في أقاربه أحد بهذا الاسم. فكتب محمد في القرآن أنه لم يوجد في الدنيا أحد بهذا الاسم قبل يوحنا. (تفسير القرآن لـــ "ويري").

إن القرآن الكريم لم يقل هذا أبدًا. إن كلمات القرآن واضحة تمامًا، وإنما المفسرون هم الذين أخطأوا في تفسيرهم. إن كل ما أعلنه القرآن الكريم إنما هـــو ﴿لم نجعَلْ لـــه مِن قبل سميًّا﴾.. أي لم نجعل من قبل أحدًا سميًّا لـــه. فالسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: هل الله تعالى يسمي أولاد الناس أم أن آباءهم هم الذين يسمونهم؟ افحصوا عادات المسيحيين أو الهندوس أو المسلمين؟ الجميع يعرف أن آباءهم هم الذين يسمونهم. ولكن الله تعالى يعلن هنا ﴿لم نجعَلْ لـــه من قبل سميًّا﴾.. أي لم نُسمِّ أحدًا يوحنا قبل ذلك. فلو ثبت بعد ذلك وجود آلاف الملايين من الناس باسم يوحنا في الدنيا قبل يحيى، فلن يقدح ذلك في القرآن الكريم أبدًا؛ ذلك لأن القضية لا تتعلق بوجود أشخاص باسم هذا الاسم قبل يحيى، وإنما السؤال: هل وُجد قبله أحد سماه الله نفسه بهذا الاسم؟ فمثلاً يوجد في بلادنا الملايين الذين أسماؤهم محمد، أو عبد الله، أو عبد الرحمن، أو عبد الرحيم، وكل هؤلاء قد سمّاهم آباؤهم ولم يسمهم الله تعالى بهذا الاسم. فلو أن الله تعالى قال بعد ذلك لأحد بالإلهام: لقد سمّينا مولودك القادم عبد الرحمن، فسَمِّه به، ولم نسمِّ أحدًا بهذا الاسم من قبل؛ فسمّى هذا ولده عبد الرحمن، فهل يجوز لأحد بعد ذلك أن يقول له: كلا، أنت كاذب، فهناك الملايين الذين اسمهم عبد الرحمن؟ أفلا يقول هذا الأب: إنهم ليسوا كابني، لأنهم قد سماهم آباؤهم، أما ابني فقد سَمَّاه الله بنفسه. فثبت أن لا اعتراض على قول القرآن هذا. إنما يصح الاعتراض لو قال الله تعالى أنه لم يوجد قبل يوحنا أحد دُعي بهذا الاسم. ولكن ما يعلنه القرآن هو أن الله تعالى قال إنه لم يسم أحدًا بذلك الاسم. وهذا صحيح تمامًا، لأن كل أولئك الذين يشير إليهم هؤلاء المسيحيون

إنما سماهم آباؤهم، بينما يعلن القرآن الكريم هنا أن الله تعالى هو الذي أطلق ذلك الاسم على ذلك المولود. فلا وجه للاعتراض.

هذا، وإن كلمة "السميّ" تعني النظير أيضًا في اللغة العربية، وعليه فقوله تعالى ﴿لم نجعَلْ لــه مِن قبل سميًّا﴾ يمكن أن يعني: أننا لم نجعل لــه نظيرًا ولا مثيلاً.. أي أن الله تعالى يشير هنا إلى كون يحيى إنسانًا منقطع النظير.

ولو سُئلنا: كيف صار يحيى منقطع النظير؟ ألم يكن موسى نظيرًا لــه؟ لقلنا: إن الإنسان يمكن أن يكون منقطع النظير في مجاله الخاص. فمثلاً نقول: فلان فارسٌ منقطع النظير، وفلان خطاط لا نظير لــه، وإن فلانًا رسام لا مثيل له، وإن فلانًا مفسر عديم المثال. وهذا لا يعني أن الذي هو منقطع النظير في الفروسية هو بالضرورة عديم المثال في الرسم أيضًا؛ أو أن الذي لا نظير لــه في التفسير هو خطاط منقطع النظير أيضًا. فثبت أن كون أحد عديم المثال في مجال ما لا يعني بالضرورة أن يكون منقطع النظير في كل المزايا والمجالات. تعالوا الآن لنرى المجال الذي فيه كان يحيى عليه السلام عديم النظير.

يكشف لنا التدبر في الأمر أن يحيى عليه السلام هو أول نبي جاء حاملاً اسم نبي آخر وصفاته أعني إلياس عليه السلام؛ أي أنه أول الأنبياء الذين جُعلوا إرهاصًا، إذ لا نجد بين جميع الأنبياء السابقين له أحدًا بُعث إرهاصًا لنبي آخر. أما بعد يحيى فجاء عيسى إرهاصًا لنبينا محمد رسول الله ﷺ. ثم جاء حضرة سيد أحمد البريلوي* إرهاصًا لسيدنا أحمد المسيح الموعود عليه السلام.

* وُلد حضرة سيد أحمد البريلوي – رحمه الله – عام ١٢٠١ الهجري الموافق عام ١٧٨٦ الميلادي في "رائي بريلي" بالهند. كان من أولياء الله الكبار. خرج، بناء على إشارة سماوية، لمحاربة السيخ الحاكمين الذين منعوا المسلمين من القيام بأداء شعائرهم الدينية، وساموهم سوء العذاب. فدارت بين الفريقين معارك ضارية. وأُصيب حضرته في إحدى المعارك بجراح تسببت في استشهاده يوم ٢٤ من ذي القعدة ١٢٤٦ الهجري الموافق ٦ مايو ١٨٣١الميلادي. ودُفن في

إذن فإن قوله تعالى ﴿لم نجعل لـــه سميًّا﴾ يعني أنه تعالى لم يجعل من قبل أحدًا مثيلاً ليحيى، بمعنى أنه أول نبي جاء مثيلاً لنبي آخر. وبالفعل ترون أنه بعد بعثة سيدنا المسيح الموعود ؑ لا بد لنا من ذكر اسم يحيى ؑ مرة بعد أخرى؛ ذلك لأن الأنباء تؤكد أن المسيح الموعود سينـــزل من السماء، وعندما يسألنا المعارضون أين المسيح المزمع نـــزوله من السماء نرد عليهم ونقول: لقد سُئل المسيح الناصري ؑ السؤال نفسه عندما أعلن دعواه حيث قال لـــه القوم: لقد وُعدنا في كتاب ملاخي النبي بنـــزول إيليّا ثانية، وأنه سينـــزل قبل ظهور المسيح، فأين إيليا المزمع نـــزوله؟ فأجاب المسيح: إن يوحنا هو إيليّا، فاقبلوا أو لا تقبلوا (انظر متى ١١: ١٤). كذلك تمامًا لقد بعث الله تعالى في الأمة المحمدية شخصًا آخر باسم المسيح الناصري المزمع نـــزوله من السماء. وهكذا فلا بد لجماعتنا من إحياء اسم يحيى ؑ على هذا النحو لأن قضية المشابهة لا تنحل إلا بواسطة يحيى.

باختصار إن قوله تعالى ﴿لم نجعَلْ لـــه مِن قبل سميًّا﴾ يعني أننا لم نجعل لـــه مثيلاً من قبل. وهذه خصوصية لم توجد في أي نبي قبل يوحنا. فليدلّنا أحد على نبي قبل يوحنا جُعل مثيلاً لإيليا. وما دام اليـــهود والنصـــارى أنفسهم يعتقدون أنه لم يسبق ليحيى ؑ مثيل في هذا المجال فثبت صدق القـــرآن الكريم. وإن كون المرء عديم المثال، كما بينتُ، لا يعني كونه عديم المثال في كل مجال، بل يكفيه أن يكون منقطع النظير في مجال واحد. وكما ذكرنا المجال الذي كان يحيى عديم المثال فيه، فقد يكون فيه خصوصيات أُخرى أيضًا جعلته منقطع النظير. وإن الإنجيل أيضًا قد أشاد به بسبب تلك الخصوصية نفسها، حيث قال المسيح: "أقـــول لكم إنه بين المولودين من النساء ليس نبي أعظمَ من يوحنا المعمـــدان" (لوقا ٧: ٢٨).

"بالا كوت". لقد اعتبره سيدنا المسيح الموعود ؑ إرهاصًا لـــه ومجددًا للقرن الثالث عشر، وقد انضم بعض مريديه إلى جماعته ؑ. *(المترجم)*.

وهذا يعني أن الإنجيل أيضًا يعدّه منقطع النظير. بيد أن المثال الذي يذكره الإنجيل هنا غلط. إذ يقول: ليس نبيٌّ أعظمَ من يوحنا؟ فمتى كان يوحنا أعظم من موسى مع أنه تابع لـــه؟ وهل كان أعظم من إبراهيم رغم أنه كان تابعًا لـــه أيضًا؟ فثبت جليًّا أن هذا المثال غلط، لأن موسى وإبراهيم وغيرهما من الأنبياء الكثيرين -عليهم السلام- كانوا أعظم من يوحنا.

إذن فقد وجدنا من الإنجيل الدليل على كون يحيى عديم المثال، كما وجدنا البرهان على كون الإنجيل باطلاً مزيفًا. وهذا الأمر يماثل قصة المنافقين في القرآن الكريم، حيث يخبر الله تعالى رسولَه ﷺ أن المنافقين يأتونك فيحلفون لك أنك رسول الله، والله يعلم إنك لرسوله، ولكن المنافقين كاذبون (المنافقون: ٢). فقد ثبت من هذه الفقرة الإنجيلية -من جهة- أن القرآن الكريم محق في إعلانه بكون يحيى عديم النظير، وأن الإنجيل نفسه يقرّ بذلك، كما ثبت أيضًا أن السبب الذي ذكره الإنجيل بهذا الصدد يؤكد صدق القرآن وبطلان الإنجيل، لأنه يتنافى مع معتقدات المسيحيين أنفسهم حيث لا يعتقدون بأن يوحنا كان أفضل من جميع الأنبياء والرسل.

أحوال النبي يحيى عليه السلام:

أما الآن فأخبركم عن أحوال يوحنا، أي يحيى، كما وردت في الإنجيل.

يقول الإنجيل إن زكريا الكاهن وامرأته أَليصاباتُ كانا عجوزين. وكانت أليصابات عاقرًا، ولم يكن لـــهما ولد. وكانا صالحينِ بارّين. وذات يوم ذهب زكريا ليبخّر البخور في الهيكل. فظهر لـــه ملاك، وقال لـــه: "لا تَخَفْ يا زكريا لأن طِلْبَتَك قد سُمعتْ، وامرأتُك أليصاباتُ ستلد لك ابنًا، وتسمّيه يوحنا. ويكون لك فرح وابتهاج، وكثيرون سيفرحون بولادته، لأنه يكون عظيمًا أمام الرب، وخمرًا ومسكرًا لا يشرب. ومن بطن أمه يمتلئ من الروح القدس. ويردّ كثيرين من بني إسرائيل إلى الرب إلههم. ويتقدم أمامه بروحِ إيليّا وقوّته" (لوقا ١: ٥-١٧).

ثم ورد أن هذا الملاك هو جبريل، وأن زكريا شك في قول الملاك، فصار أبكمَ لا يتكلم إلى أن وُلد يوحنا وتم ختانه.. أي ظل زكريا بدون كلام قرابةَ عشرة شهور.

وهذا الأمر يخالف بيان القرآن الكريم، والبديهي أن ما يقول القرآن هو الأقرب إلى الصواب لكونه لائقًا بمكانة زكريا الذي كان نبيًّا، أما ما يذكره الإنجيل فلا يليق بمكانة نبي. وثمة فروق أُخرى بين بيان الإنجيل وبيان القرآن الكريم، وهي:

الأول: يقول القرآن إن الحافز الذي دفع زكريا عليه السلام للدعاء هو ذلك الكلام البريء الذي تكلمت به مريم. ولكن الإنجيل ساكتٌ بهذا الصدد، غير أن سكوته لا يرادف إنكارَه لهذه الواقعة. إذ ذكر في سياق تلقِّي زكريا بشارةَ الابن أنه كان يدعو الله تعالى من أجل الابن، حيث ورد أن الملاك قال لــه إن "طلْبَتَك قد سُمعتْ" (لوقا ١: ١٣). بيد أن الإنجيل لم يذكر الحافز على هذا الدعاء. أما القرآن فقد بدأ هذه القصة بذكر هذا الأمر نفسه وقال إن زكريا لما تكلم مع مريم الصبية امتلأ قلبُه حماسًا للدعاء بسماع كلامها البريء، فدعا ربه من أجل الابن (آل عمران: ٣٨-٣٩). وهذا يعني أن الإنجيل لم يذكر الحافز الأساسي للحدث، وإنما ذكر الجزء الأخير منه، وهذا دليل على نقص الإنجيل.

ودليلنا على صحة بيان القرآن هو أن يحيى وُلد عند زكريا في أواخر عمره، وهذا باعتراف الإنجيل نفسه، إذ ورد فيه أن الملاك لما بشّره بالولد قال: "كيف أعلم هذا لأني أنا شيخ وامرأتي متقدمة في أيامها" (لوقا ١: ١٩). والسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: لماذا لم يقم زكريا بهذا الدعاء من قبل؟ إن دعاءه في أواخر عمره لدليل واضح أنه كان وراء دعائه حافز جديد، وما هو إلا أن مريم كانت قد وُلدت في تلك الأيام من عمره، فكان كلامها البريء هو الحافز الجديد الدافع لــه إلى الدعاء. إن هذه القرينة لدليل على أن بيان القرآن هو الصحيح...

الثاني: يقول الإنجيل إن الملاك هو الذي بشّر زكريا بالولد، أما القرآن فيخبر أن الله تعالى هو الذي بشره به. ولكن هذا ليس اختلافًا في الحقيقة، لأن الملائكة هي التي تأتي برسالات الله عادةً، ولأنها لا تتكلم بالغيب من عندها، وإلا لزم اعتبارها آلهةً. فلو سلّمنا أن الملاك هو الذي قد بشره بالابن فإنما بشره من عند الله تعالى. لذا فيمكننا أن نقول إن الملاك قال كذا، كما يجوز لنا أن نقول إن الله تعالى قال كذا.

فإذا كان الإنجيل يخبرنا أن الملاك قال لـــه إن "طِلبتَك سُمعتْ" فهذا يعني أن الله تعالى أخبر الملاك أنه قد استجاب دعاء زكريا. فكان قول الملاك نيابة عن الله تعالى. ومثاله كمثل شخص يرى ثمرة المانجو في المنام، وتعبيره أنه سيُرزق ابنًا؛ ثم بعد فترة يُرزق ابنًا بالفعل، فيقول للناس: لقد أخبرني الله تعالى سلفًا بولادة الابن عندي؛ فهل من عاقل في الدنيا يقول لـــه: إنك كاذب؛ متى أخبرك الله بذلك، إنما رأيت في المنام المانجو فحسب. وكل من يقول مثل هذا الكلام سيعتبره القوم مجنونًا، إذ كان الرجل قد أُخبر بذلك من عند الله تعالى ولو على شكل رؤية المانجو في الرؤيا.

فيمكننا القول إن الملاك أخبر زكريا بولادة الابن، كما يمكننا القول إن الله تعالى أخبره به؛ لأن الملائكة لا تبشّر من عندها وإنما من عند الله تعالى. وهذا هو الثابت في موضع آخر من القرآن الكريم حيث سرد الله الحدث نفسه وقال ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾ (آل عمران: ٤٠). فترى أن هذه الآية لا تذكر كلام الله تعالى مع زكريا، بل كلام الملائكة معه. فثبت أن ما ورد في سورة مريم بأن الله تعالى قال لزكريا لا يعني أنه تعالى كلّمه مباشرة، بل المراد أنه تعالى كلّمه من خلال الملائكة أي سيّدهم جبريل كما صرّح بذلك في سورة آل عمران. فليس هنا أي اختلاف، بل هو مزيد من الشرح اللطيف، حيث بين الله تعالى أن كلام الملاك إنما هو كلامه تعالى في الواقع. فيمكن أن نقول إن الله قال كذا، كما يمكن تمامًا القول إن الملاك قال كذا...

الثالث: ورد في الإنجيل أن يوحنا كان إرهاصًا للمسيح عليهما السلام، ولكن القرآن الكريم لا يذكر ذلك. وهذا الأمر أيضًا من الاختلافات التي يثيرها المسيحيون.

والجواب أن القرآن الكريم لم يذكر هذا الأمر هنا في سورة مريم، ولكنه يقول في وصف يحيى في سورة آل عمران ﴿مصدِّقًا بكلمة من الله﴾ (آل عمران: ٤٠). فليس ثمة اختلاف في الحقيقة. ذلك أن الإنجيل ينبئ أن يوحنا سيسير أمام المسيح بروح إيليّا وقوته (لوقا ١: ١٧)، ويقول القرآن الكريم أنه سيحقق بمجيئه نبوءة وردت في

الصحف السابقة. والظاهر أن سرد قصة ما كاملةً في موضع واحد ليس ضروريًّا، فإن الكتاب المقدس أيضًا قد ذكر جزءًا في مكان وآخرَ في مكان آخر.

الرابع: ورد في القرآن الكريم أن زكريا أُعطيَ آيةَ عدم الكلام ثلاثة أيام -سواء أكان توقّفَ عن الكلام قصدًا، أم أن الله تعالى جعل لسانه لا ينطق- بينما يقول الإنجيل إن لسانه توقف عن الكلام عقابًا من الله تعالى، فظل أبكمَ منذ تلقى البشارة إلى أن وُلد يحيى وجاء يوم ختانه، فسئل عن اسم الولد، فكتب على لوح أن اسمه يحيى، فانفتح لسانه وتكلم (لوقا ١: ٢٠ و٥٧-٦٤).

لا شك أن ثمة اختلاف في بيان القرآن الكريم والإنجيل، وعلى المرء أن يسائل عقله وضميره ليعرف أي البيانين حقٌّ وصدق. فهناك كاهن بحسب الإنجيل -والكاهن يماثل المحدَّث عندنا نحن المسلمين- يمنحه الله تعالى الإنعام الإبراهيمي، أعني أن إبراهيم عليه السلام كما وُعد في شيخوخته بابن من عند الله تعالى كذلك وُعد زكريا العجوز بابن كان موعودًا من قِبل جميع الأنبياء في رأي المسيح، وكانت ولادته ضروريّة وإلا لم يأت المسيح أيضًا؛ ومع ذلك عندما قال زكريا: أنّى يكون لي ولد وأنا شيخ عجوز وامرأتي عاقر، عاقبه الله تعالى بعذاب، وصيّره أبكم لا يتكلم حوالي عشرة أشهر. وذلك بالرغم أن الفعل نفسه قد صدر عن سارة زوجة إبراهيم، حيث ورد: "فضحكت سارة في باطنها قائلةً: أَبَعْدَ فنائي يكون لي تنعُّمٌ وسيدي قد شاخ" (التكوين ١٨: ١٢)، ولكن ما نزل بها أي عذاب، ولم يجعلها الله تعالى بكماء ليوم واحد. إذا كان هذا الفعل جناية كان لزامًا أن تعاقَب عليه سارة أيضًا كما عوقب زكريا للسبب نفسه بالبكم لعشرة أشهر.

ثم يتضح من الإنجيل أن زكريا ما قال ذلك إنكارًا، بل عجبًا واستغرابًا من قدرة الله تعالى بدليل قول الملاك: "لا تخَفْ يا زكريا لأن طِلْبتَك قد سُمعتْ"(لوقا ١: ١٣).. أي أن دعاءك قد استُجيب. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: هل صار زكريا وزوجته عجوزين في ذلك اليوم بالتحديد؟ لا بد أنهما قد شاخا قبل ذلك بفترة. فإذا كانت ولادة الابن أمرًا مستحيلاً في رأي زكريا فلماذا دعا إذًا من أجل

الابن؟ إن دعاءه هذا، ثم قول الملاك هذا، يؤكدان إيمانَه بأن الله قادر كل القدرة على أن يهب له الولد. كان زكريا يدرك أنه عجوز، وأن زوجته أيضًا عجوز، ولكنه على يقين أن الله تعالى يملك القدرة المُطْلَقة، ومن أجل ذلك كان يواظب على الدعاء من أجل الابن. فلما تلقى الخبر باستجابة دعائه هذا استولت عليه الحيرة وقال في نفسه مستغربًا: سبحان الله، كيف استُجيب هذا الدعاء غير العادي؟ ولكنه لم يكن منكرًا لقدرة الله على ذلك. والبديهي أن العقاب إنما ينـــزل بالمنكِر المتردد، أما المتحير المستغرب فلا يعاقَب، بل يعطى الصلات والجوائز.

إذن فإن هذه الشهادة من الإنجيل نفسه لتدعم بيان القرآن الكريم بأن زكريا طلب من الله تعالى آية على ولادة الابن، ولكنه لم ينكر قدرة الله. فثبت أن الإنجيل قد أخطأ حين قال أن زكريا عوقب، فظل أبكمَ لا يقدر على الكلام قرابة عشرة أشهر، وأن القرآن كان على حق حين قال إن سكوت زكريا استمر ثلاثة أيام فقط، وأن هذا السكوت لم يكن عقابًا من الله تعالى، وإنما لكي يذكر الله تعالى في تلك الأيام بكثرة. يقول الله تعالى ﴿آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ (آل عمران: ٤٢). أي أن زكريا مُنع من الحديث مع الناس في تلك الأيام حتى يذكر الله فيها كثيرًا، من غير أن يكون به أي عيب ولا مرض كالعي والخرس كما اتهمه الإنجيل. ومن أجل ذلك قال الله تعالى ﴿آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ (مريم: ١١).. أي أن علامة ذلك أنك لن تتكلم ثلاث ليال، ولكنك تكون (سويًّا) أي بريئًا من أي مرض وعيب. فما أصدقَ ما يقوله القرآن الكريم! فإن الله تعالى لما استجاب دعاء زكريا قال: دَعْني يا رب أشكرك الآن. قال: فاعتكفْ في المسجد ثلاثة أيام منشغلاً بذكري، وهذا سيكون آية على شكرك لي. أما ما يقوله الإنجيل فغلطٌ عقلاً ونقلاً...

الخامس: ورد في الإنجيل أن مريم لما حملتْ وذهبتْ لزيارة أم يوحنا، امتلأت أم يوحنا بالروح القدس فقالت: "فمن أين لي هذا أنْ تأتيَ أُمُّ ربي إليّ. فهوذا حين صار صوتُ سلامكِ في أذنيّ ارتكض الجنينُ بابتهاج في بطني" (لوقا ١: ٤٣-٤٤). ولكن

القرآن الكريم يقول في صفة يحيى ﴿وآتيناه الحُكمَ صبيًّا﴾ (مريم: ١٣)، ويقول إنه كان ﴿سيِّدًا وحَصورًا﴾ (آل عمران: ٤٠).. أي أن الله تعالى قد منحه منذ صغره القوة الروحانية والحكمة الروحانية والحكومة الروحانية، وأنه كان سيدًا وبريئًا من كل عيب ومنقصة.

فالمسيحيون يقولون إن كتابهم يعدّ يحيى عبدًا للمسيح، فكيف يعدّه القرآن سيدًا وأنه قد أُعطي السيادة منذ نعومة أظفاره؟

والرد على قولهم هذا هو أن فقرات أُخرى من الإنجيل تؤكد أن الإنجيلي لوقا قد زاد هذا القول من عنده في إنجيله على سبيل المبالغة فحسب، إذ لا يمتّ إلى الحقيقة بصلة. لو كان يحيى مجرد خادم للمسيح، كما يزعم لوقا، فما الذي دفع المسيح ليكون تلميذًا ليحيى؟ إن كتّاب الأناجيل قد ظلموا هنا سيدهم المسيح ظلمًا عظيمًا في محاولتهم لأن يرفعوه أكثر من مكانته الحقيقية. فمثلاً يقول متّى في إنجيله إن المسيح جاء إلى يوحنا ليتعمد منه، ولكن يوحنا منعه قائلاً: أنا محتاج أن أتعمد منك وأنت تأتي إليّ؟ (متى ٣: ١٣-١٤).. أي أنك يا سيدي وأستاذي وأنا تلميذك، فكيف أعمّدك؟ ثم نسبوا إلى المسيح أنه قال ليوحنا: "اسمحِ الآن لأنه هكذا يليق بنا أن نكمّل كل برٍّ" (المرجع السابق: ١٥).. أي صحيح أنني أعظم منك، ولكن ما دام الأنبياء قد تنبأوا بذلك فلا بد لنا أن نحقق نبأهم. كم هو غير معقول هذا الجواب! ذلك أن المسيح إذا كان أسمى من أن يكون تلميذًا ليوحنا فلماذا تنبأ الأنبياء بذلك أصلاً، ولماذا قدر الله تعالى هكذا. أليس غريبًا أن المسيح يذهب إلى يوحنا ليبايع على يده، ولكن يوحنا يقول لـه: كيف آخذ منك البيعة وأنت أعظم مني؟ فيجيبه المسيح: لقد أخطأ الأنبياء إذ تنبأوا بأنك ستعمدني. لا شك أنني أعظم منك ولكن ماذا نفعل الآن؟ علينا أن نعمل كما قالوا. ثم إن لوقا أيضًا لم يذكر هذا الحوار، بيد أنه ذكر قصة تتلمذ المسيح على يد يوحنا.

أما يوحنا فلم يذكر في إنجيله أصلاً أن المسيح قد تعمد على يد يوحنا. ولكن هذا لن يجديه شيئًا، لأن الأناجيل الثلاثة تنصّ على أن يوحنا قد عمّد المسيح، أي صار أستاذًا لـــه.

إذن فمن الخطأ والعبث القول أن يوحنا، وهو في بطن أمه، قد اعترف بعظمة المسيح. إذا كان الأمر كما يقولون فلماذا أمره الله تعالى أن يعمّد المسيحَ. علمًا أن القسيس "ويري" قد استشاط غضبًا على قول الله تعالى في القرآن ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ (آل عمران: ٤٠)، فقال كيف اعتبر القرآن يوحنا مصدقًا للمسيح مع أنه أدنى منه شأنًا (تفسير القرآن لـــ"ويري" مجلد ٢ ص ١٦-١٧). والحق أن قول القسيس "ويري" هذا إنما يدل على غبائه هو، لأن الإنجيل نفسه يؤكد ما قاله القرآن.. أي كان يوحنا إرهاصًا للمسيح عليهما السلام.

السادس: يقول القرآن الكريم إن الرزق كان يأتي مريمَ بكرةً وعشيًّا، ولكن الإنجيل لم يذكر ذلك. وهذا الاختلاف ليس بشيء. إن حب الناس للصغار شيء طبيعي. أما إذا كان الأطفال ممن قد نذرهم آباؤهم في سبيل الله تعالى فيبدون نحوهم مزيد الحب وكبير الاحترام، كما يُهْدونهم الهدايا لمعرفتهم بمكانتهم السامية. أما الذين يجهلون المقام السامي لهؤلاء الأولاد فيعطونهم الصدقات. فكان القوم يأتون مريم بشتى الهدايا حبًّا واحترامًا لها. وقد سجل ميور وآرنولد أيضًا في كتبهما روايات مسيحية بهذا المعنى، وقدموها كمعجزة للمسيح (المرجع السابق).

ولقد انطوت كلمة (غلام) على البشارة إلى الأمور التالية: الأول أن المولود سيكون ذَكرًا، والثاني أنه سيبلغ سن الكهولة، والثالث أن زكريا سيرى الأيام السارّة من حياة ابنه. فدُهش زكريا عليه السلام من عظمة البشارة وقال مستغربًا: لقد أصبحتُ شيخًا هرمًا، وزوجتي عقيم لا تلد، ومع ذلك يبشرني ربي بابن، وبأني سأعيش أيامًا بعد ولادته وسأقوم بتربيته؟ فما هذا الوحي الغريب المفعم بالعجائب؟

قال الله تعالى ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾... (خلقتُك) لا يشير هنا إلى الخلق المادّيّ، إذ لا خصوصية لزكريا في هذا الخلق، وإلا لقال الله تعالى "وقد خلقتُ

الكون كله من قبل و لم يك شيئًا". فما دام الله تعالى يوجه الخطاب هنا إلى زكريا خاصة، فثبت أن الحديث هنا لا يدور عن الخلق المادي، وإنما يشير في الواقع إلى أمر آخر، وهو -عندي- ما ذُكر في قوله تعالى ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ (مريم: ٨). فولادة ابن عند زكريا أولاً، ثم كون الابن يعيش ثانيًا، ثم كونه ابنًا غير عادي منقطع النظير في مجالات معينة ثالثًا كانت أمورًا محيرة حقًّا. فأجاب الله على الأمرين الأولين بقوله ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾. بينما أجاب على الأمر الثالث بقوله ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾.. أي لم يكن لك يا زكريا من قبلُ شأن يُذكَر، ثم وهبنا لك العلوم والمعارف، كذلك نحن قادرون القدرة كلها على أن نمنح ابنك أيضًا هذه الحقائق والمعارف.

لقد استخدم القرآن في مواضع كثيرة كلمة "الآية" بمعنى الأمر والحكم، ولذلك تُسمَّى جُمل القرآن آيات لكونها تحتوي على أوامر الله تعالى وأحكامه. فقول زكريا ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ (آل عمران: ٤٢) يعني ربِّ مُرْني بشيء أقوم به.. أي لقد أنعمت عليّ بنعمة عظيمة أريد أن أشكرك عليها، فأرجوك أن تأمرني بأمر يكون علامة ظاهرة على شكري إياك، فأقوم به وأفرح بأني قد نفذّتُ أمر ربي.

يتضح من التوراة أن الله تعالى جعل لبني إسرائيل بعض العلامات بصدد الأنباء المستقبلية. فكانت بعضها علامات سماوية، وبعضها عبادات فقط. فقد ورد في التوراة أن الله تعالى عهد إلى نوح عليه السلام وأولاده أنه لن يأتي بعد ذلك بطوفان عالمي في المستقبل، وقد جعل قوس قزح علامةً على ذلك...

لا شك أن هذه الرواية مشوهة، إلا أنها تخبرنا بكل تأكيد بعادات اليهود وتقاليدهم، مبيّنةً أن الله تعالى إذا عهد إليهم عهدًا جعل على تحقيقه علامة ظاهرة من عنده. وأحيانًا جعل الله لذلك أمرًا كان على العباد القيام به. فقد ورد في التوراة: "قال الله لإبراهيم: وأما أنت فتحفظ عهدي، أنت ونسلُك من بعدك في أجيالهم. هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك: يُختَن

منكم كلُّ ذَكَرٍ. فتُختَنون في لحم غُرْلَتِكم. فيكون علامةَ عهدٍ بيني وبينكم." (التكوين ١٧: ٩- ١١).

فاتضح من هذه الفقرات أن القيام ببعض الحسنات قد جُعل علامة ظاهرة على تحقق بعض الأنباء عند بني إسرائيل. وعلى هذا النحو نفسه دعا زكريا ربَّه فقال: ﴿ربِّ اجْعَلْ لي آيةً﴾.. أي مُرْني بشيء أعمله حتى يصبح وعدك أمرًا مفعولاً. ذلك أن العبد إذا وفى بوعده أنجز الله وعده حتمًا كما وعد تمامًا، و لم يبدّله بشكل آخر.

ثم تقول الآية: ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ (مريم: ١١).. أي قال الله تعالى إني آمرك، كعلامة على شكرك لي، أن لا تكلّم الناسَ ثلاث ليال وأنت سليم معافى لا مرض بك ولا عيب، وذلك لكي تتمكن من التركيز على ذكر الله في هذه الأيام خاصة.

لقد اشترط الله تعالى هنا إنجاز وعده بأمر من أوامره، والحكمة في ذلك أن العبد لو نفذ أمر الله تعالى فلا بد أن يتحقق ذلك الوعد ولا يلغى أبدًا.

لما أُمر زكريا بالسكوت ثلاث ليال مع نهارها ليذكر الله خلالها كثيرًا، قرّر العملَ بأمر الله تعالى. فخرج من غرفته أو محراب مسجده، وكلّم أصحابه بكلام خافت لم يُسمعه غيرهم. وهذا أيضًا يؤكد أنه لم يفقد القدرة على الكلام بتاتًا، بل يعني قوله تعالى ﴿فأوحى إليهم﴾ أنه تكلم معهم بحيث لم يسمع غيرهم.

وفي سورة آل عمران قال الله تعالى ﴿آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا﴾ (آل عمران: ٤٢) بدلاً من ﴿أوحى إليهم﴾. وبما أن كلمة الرمز تعني الإشارة عمومًا، فقد فسرها المفسرون هنا بمعنى الإشارة متأثرين من بيان الإنجيل (تفسير ابن كثير). ولكن تذكر القواميس أن من معاني الرمز الإيماء بالشفتين أو العينين أو الحاجبين (الأقرب). والظاهر أن الإنسان لا يشير بالشفاه وإنما يتكلم بها كلامًا خافتًا. فالمراد من الإيماء بالشفاه أن يتكلم الإنسان بحيث لا يرتفع صوته، كقولنا لمن يكون بحنجرته التهاب: تكلّمْ بحيث لا يرتفع صوتك. بل يقول الثعالبي الإمام في

اللغة عن لفظ الرمز: "هو مختص بالشفة"* ("فقهُ اللغة" للثعالبي: فصلٌ في تفصيل تحريكات مختلفة).. أي هو مختص بالكلام الخافت بالشفة دون الحنجرة. وهذا المعنى مطابق تمامًا لقوله تعالى ﴿فأوحى إليهم﴾.. بمعنى أن زكريا مُنع من الكلام بصوت عال، وأُمر بالكلام بالشفاه أي بصوت خافت. ذلك لأنه كان لزامًا عليه أن يبلّغ أصحابه القريبين بما أمره الله به، فقال لهم بصوت منخفض جدًّا: سوف أركّز على ذكر الله تعالى في الأيام الثلاثة التالية خاصة، فاذكروا الله أنتم أيضًا بكرة وعشيًّا. ولأن البكرة يطلق على الصباح إلى الظهر، ويطلق العشي على ما بعد زوال الشمس إلى الليل، فالمراد أنني سأقضي كل هذه الأيام في ذكر الله وعبادته، فعليكم أيضًا أن تركّزوا فيها على العبادة والذكر.

نستنبط من هذا أن التوراة وصُحفها لم تكن قد أصبحت منسوخة حتى ذلك الوقت. ذلك لأن يحيى عليه السلام لم ينــزل عليه أي كتاب جديد بحسب عقيدة المسلمين والمسيحيين أيضًا. فالمراد من الكتاب الذي أُمر يحيى بأخذه بقوة هو التوراة.

الغريب أنه قد جاء في ذلك الزمن نبيّان الواحدُ بعد الآخر، وقد استخدم القرآن لكل واحد منهما كلمة ﴿صبيًّا﴾. يخبرنا الله تعالى أن أمّ عيسى عليه السلام لما جاءت به قومَها قال لها اليهود ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ (مريم: ٣٠). وهذا يعني أن الناس سموا عيسى صبيًّا، وأما يحيى فسماه الله صبيًّا. وذلك ليشير إلى أنه إذا كان كلام عيسى عليه السلام في صغره معجزة فإن يحيى أيضًا كان موصوفًا بهذا الوصف حيث قال الله عنه ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ (مريم: ١٣).

إذًا فالله تعالى قد فنّد في هذه السورة مزاعم المسيحيين بذكر كل الأمور التي يستدلون بها على أفضلية المسيح. وإليك بيانها:

---

* لم نعثر على هذه العبارة في النسخة المتوفرة لدينا للمصدر المشار إليه. بيد أنه ورد فيه: "رَمَزَ بِشفته" ("فقهُ اللغة" للثعالبي: فصلٌ في تقسيم الإشارات) *(المترجم)*

أولاً: يقال أن المسيح كان حليم القلب ورؤوفًا ومحبًا للجميع. فردّ الله تعالى عليهم بقوله إن يحيى أيضًا كان حليم القلب ورؤوفًا ومحبًا للجميع.

ثانيًا: يقال أن المسيح قد أتى بشرع جديد، فيقول الله تعالى لقد أمرنا يحيى هو الآخر بأخذِ الكتاب بقوة.

ثالثًا: يقال أن المسيح تكلم وهو صغير، وهذا دليل على أفضليته، فيقول الله تعالى إننا جعلنا يحيى مأمورًا من عندنا وهو صغير، وبعثناه إلى الناس.

رابعًا: يقال أن المسيح كان بريئًا من الذنوب، فيقول الله تعالى إن يحيى أيضًا كان مبرأً من الذنوب حيث قال ﴿وزكاةً﴾.. أي منحناه الطهر والقدس.

لقد وصف الله تعالى يحيى هنا بكل الخصوصيات التي تعزى إلى المسيح ليقيم الحجة على المسيحيين، وقال إذا كنتم تفضلون المسيح على الأنبياء الآخرين بسبب هذه الأمور فلم لا تؤمنون بأفضلية يحيى الذي كان هو الآخر مخصوصًا بها.

وبعد أن وصف الله تعالى يحيى بأنه آتاه ﴿زكاةً﴾ قال الآن ﴿وكان تقيًّا﴾.. أي كان صاحب تقوى وورع... وقوله تعالى آتيناه ﴿زكاة﴾ يعني غير ما يعنيه قوله تعالى ﴿وكان تقيًّا﴾. ذلك أن الزكاة في العربية تعني إزالة العيوب الباطنة، أما التقوى فيعني إزالة العيوب الخارجية. فالآية تعني أننا منحناه من عندنا الحلم والرفق، وجعلنا أفكاره المختلجة بداخله طاهرة، كما وهبنا لــه القوة ضد المساوئ التي تهاجم من الخارج.

لقد أخبر الله تعالى بقوله ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ أن يحيى كان مطيعًا كاملاً لوالديه. كان متخلقًا بالأخلاق التي يحبّانها، ومتجنبًا لجميع المساوئ التي كانا يكرهانها.

ثم قال الله تعالى ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾. لقد وصف الله تعالى يحيى بهذه الصفات خاصة ليفنّد مزاعم النصارى الذين يقدمون بكل زهو وتباه التعليمَ التالي للمسيح: "مَن لطَمك على خدّك الأيمن فحَوِّلْ لــه الآخرَ أيضًا" (متى ٥: ٣٩).

فيردّ الله تعالى عليهم ويقول إن يحيى أيضًا لم يكن جبّارًا، وأنه هو الآخر قد دعا الناس إلى ترك الظلم والعدوان.

إذن فقد وهب الله تعالى ليحيى كل المحاسن التي تُعزى إلى المسيح الطَّيْكِلاَ. لا شك أن المسيح كان أعظم درجة من يحيى عليهما السلام، ولكن الحديث هنا لا يدور عن الدرجة والمقام، وإنما يخبر الله تعالى هنا أن المسيح لم تكن فيه خصوصية خارقة للعادة. ذلك لأن المسيحيين يبالغون جدًّا في تعظيم المسيح الطَّيْكِلاَ زاعمين أنه قد وُجدت فيه صفات خارقة، ولذلك رد الله تعالى على مزاعمهم هذه، مؤكدًا أن يحيى أيضًا كان متحليًّا بتلك المزايا والمحاسن؛ فإذا كنتم تبالغون في تعظيم المسيح بسببها فلم لا تفعلون ذلك بحق يحيى أيضًا.

معنى السلام على يحيى الطَّيْكِلاَ:

يظن البعض أن السلام المشار إليه في الآية هو السلام المادي، ولأن السلام كان مقدرًا ليحيى الطَّيْكِلاَ يوم موته أيضًا فثبت أنه لم يُستشهد.

ولكني أقول إذا كان السلام يعني سلامته من القتل، فما هو المراد إذن من السلام عليه يوم القيامة؟ فهل سيحاول عدو من أعدائه اغتياله يوم القيامة حتى وعده الله بالسلام في ذلك اليوم أيضًا؟ إذا كان هذا هو مفهوم السلام فسيكون معنى الآية كلها كالآتي: أن يحيى سيسلَم من القتل يوم يولد، وسيسلَم من القتل يوم يموت، وسيسلم من القتل حين يُبعث حيًّا يوم القيامة!

الحق أن الله تعالى قد أشار هنا إلى ثلاثة أدوار مختلفة، ولكن أصحاب الرأي المذكور أعلاه قد أخطأوا في فهم هذه الآية. الواقع أن حياة الإنسان ثلاث. فتبدأ الحياة الأولى بولادة الإنسان وتنتهي بموته. وأما الثانية فتبدأ بموت الإنسان وتستمر إلى يوم القيامة، وتسمى الحياة البرزخية. وأما الثالثة التي تُسمَّى يوم البعث في القرآن الكريم، فتبدأ بدخول أهل الجنة الجنةَ وأهل النار النارَ بشكل كامل. فالولادة بداية للحياة الدنيا، والموت بداية للحياة البرزخية، ويوم القيامة بداية للحياة الآخرة. ويخبرنا الله تعالى هنا أن سلامنا سيشمل يحيى في كل هذه الفترات من الحياة؛

فسينـــزل عليه السلام منا عند ولادته، وسيظل متمتعًا بها في حياته الدنيا كلها. ثم يشمله السلام منا حين يموت، وسيظل في سلام خلال حياته البرزخية. ثم يكون في سلام يوم القيامة، وسيظل موردًا لفضل الله ورحمته في حياته الآخرة.

وباختصار فلا ذكر للقتل في هذه الآية، وإنما يدور الحديث هنا عن الأنواع الثلاثة من الحياة، حيث أخبر الله تعالى أن يحيى سيكون موردًا لسلام الله تعالى في كل فترة من فترات حياته الثلاث.

الحق أن لكلمة السلام مفاهيم واسعة. لا شك أنها تعني تارةً العصمة من القتل بيد العدو أيضًا، ولكنها تعني السلامة من المرض حينًا؛ وتعني الحماية من الفشل حينًا آخر. إذن فلا يصح أبدًا تحديد مفهوم لكلمة ذات مدلولات عديدة بغير قرينة قوية ولاسيما إذا كان ذلك المفهوم مخالفًا لوقائع التاريخ.

فثبت أن السلام هنا ليس سلامًا ماديًّا، إذ لا يمكن في هذه الحالة تفسير السلام وقت الموت، لأن الإنسان لا يموت إلا جراء مرض أو حادث، فأين السلام إذن؟ مما يدل دلالة واضحة أن السلام هنا لا يعني السلام المادي، وإنما السلام الروحاني. والمراد من السلام على يحيى يوم ولادته أنه سيولد بريئًا من كل النقائص العقلية والنفسية، والمراد من السلام عليه يوم موته أنه سيظل مبرَّأً من جميع الأمراض الروحانية، وأن الله سيشمله بفضله ورحمته أيضًا يوم يُبعث حيًّا.

لقد جاءت هذه الآية أيضًا لإبطال خصوصية تُعزى إلى المسيح عليه السلام. إذ يزعم البعض أنه لم يسلَم من مسّ الشيطان أحد من البشر إلا عيسى وأمه. وهذا لم يقل به المسيحيون بل قاله المسلمون منّةً على المسيحيين (تفسير ابن كثير: قوله تعالى وإني أُعيذها بك وذريّتَها من الشيطان الرجيم). فكان الله تعالى يعلم أنه سيأتي على الناس زمان سيقول فيه المسلمون أن المسيح معصوم من مس الشيطان، وهذه خصوصية ينفرد بها المسيح وحده؛ فرد الله تبارك وتعالى على زعمهم فقال عن يحيى عليه السلام ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ﴾.. أي لقد كان يحيى تحت ظل سلام الله تعالى منذ يوم ولادته. فإذا كان الشيطان يمس كل إنسان عند ولادته فكيف يمكن أن يقول أحد: كم كان مليئًا

بالسلام والرحمة اليومُ الذي وُلد فيه يحيى ومَسَّه فيه الشيطان! إن كل عاقل يدرك أن الشيطان ما دام يمسّ كل واحد من البشر عند ولادته فلا يمكن القول عن يحيى أن يوم ولادته كان يوم سلام وبركة. إنما يصح هذا القول إذا كان الشيطان لم يمسه عند ولادته.

وباختصار فإن الله تعالى قد نبّه المسلمين هنا أن عليهم لدى الجدال مع أهل الكتاب أن ينظروا في أحوال يوحنا، وسيجدون أن الأمور التي تُعزى إلى المسيح توجد كلها في يوحنا أيضًا. فما خصوصية المسيح في ذلك إذن؟ فبدأً من قوله ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ حتى آخر هذه السورة قد ساق الله تعالى البراهين على بطلان المسيحية منبهًا المسلمين أنهم حين يذكرون أخلاق نبيهم ﷺ العالية فلن يقبلها المسيحيون. وها نحن نخبرهم بطريق الجدال مع هؤلاء القوم. عليهم أن يقروا في الإنجيل أحوال يوحنا، وسيجدون فيها كل ما يعزوه المسيحيون إلى المسيح. فليقولوا للمسيحيين: ليس للمسيح خصوصية فيما تذكرون حتى تؤلهوه أو تتخذوه ابنًا لله تعالى.

قصة عيسى عليه السلام

لقد استهلّ الله تعالى *سورة مريم* بقصة زكريا وذكَر خلالها ولادة يحيى لأن الأنباء كانت تؤكد أن ولادته تكون إرهاصًا للمسيح، وما كان المسيح ليظهر في الدنيا ما لم يظهر قبله الشخص الذي يكون بروزًا ومَظهرًا لإيليّا.

والآن ذكر الله تعالى قصة مريم بعد قصة يحيى، ذلك لأن ظهور يحيى كما كان ضروريًّا قبل المسيح لكونه آية وعلامة على ظهوره، كذلك كانت ولادة المسيح من غير أب آيةً عظيمة لليهود. فقد حذرهم الله بها أن النبوة ستنقطع الآن عن بني إسرائيل، وأن هذه النعمة ستُحوَّل الآن إلى إخوانهم الآخرين.

لقد سمعنا من سيدنا المسيح الموعود عليه السلام عشرات المرات أن ولادة المسيح عليه السلام من غير أب كانت إشارةً من الله تعالى لليهود أنه قد أعرض عنهم وأن النبوة ستنتقل الآن عن بني إسرائيل إلى أمة أُخرى بسبب معاصيهم. ذلك أن نَسَب المرء إنما يُعرف من قبل أبيه، فخلق الله المسيحَ من غير أب لينبه اليهودَ أنه لم يبق بينهم ذَكَرٌ يصلح أحد من أولاده للنبوة. ومن أجل ذلك فإن الذي نجعله الآن نبيًّا مولود من غير أب، وهو إسرائيلي من قبل الأم فقط. ولكن النبي القادم لن يكون إسرائيليا حتى من قبل الأم أيضًا لأن الله تعالى قد قرر أن يقطع كل صلاته عن بني إسرائيل.

لقد بين سيدنا المسيح الموعود عليه السلام هذا الأمر مرارًا وتكرارًا في كتبه منها مثلاً كتابه "مواهب الرحمن" وغيره (انظر مواهب الرحمن ص ٢٩٠-٢٩١). وكما قلت فقد سمعنا ذلك من لسانه عليه السلام مباشرة عشرات المرات، حيث بيّن أن مريم كانت علامة تحذير رباني أنه قد حان أن تنتقل النبوة من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل، وآن

الأوان لأن تتحقق نبوءة موسى التي قال فيها: "يقيم لك الربُّ إلـــهُك نبيًّا مِن وسطك مِن إخوتك مثلي"(أي من بني إسماعيل) (التثنية ١٨: ١٥).

فلأن السيدة مريم أيضًا كانت آيةً من آيات الله تعالى فعلينا أن نفحص جيدًا لنعرف ماذا قال القرآن والكتاب المقدس في وصفها.

أحوال مريم والمسيح عليهما السلام:

إن الإنجيل صامتٌ كلية فيما يتعلق بأحوال مريم قبل ولادة المسيح عليه السلام. فكل ما نعلمه من إنجيل متى ١: ١٨ هو أن مريم العذراء لما حملت بالمسيح أراد خطيبها يوسف أن يطلقها، ولكن الملاك نهاه عن ذلك، معتبرًا إياها زوجة ليوسف، وأمره أن يأخذها إلى بيته (متى ١: ١٨-٢٠). ولكن هذا الإنجيل لم يذكر شيئًا عن أحوال مريم قبل هذا الحادث.

أما مرقس فلم يذكر في إنجيله معجزة ولادة المسيح بتاتًا.

أما لوقا فقد سجل في إنجيله معجزة ولادة المسيح، ولكنه لم يبدأ الحديث عن مريم إلا بعد أن بشّرها الملاك بالحمل بالمسيح. فقد ورد فيه أن مريم كانت عذراء، ومخطوبة إلى يوسف، ولكن قبل أن تُزَفّ إليه جاءها الملاك وبشّرها بالحمل فحملت (لوقا ١: ٢٧-٣٥). ولكن لوقا لا يسلط أي ضوء على أحوالها قبل الحمل. إنه صامت كلية عن أحوال والديها وعن صغرها. إن كل ما قاله هو أن مريم كانت من أقارب زوجة زكريا، وكانت تتردد إلى بيتها من حين لآخر.

أما يوحنا فهو صامت تمامًا بهذا الشأن.

أما القرآن الكريم فقد تحدث عن عائلة مريم وعن أمّها أيضًا، كما سجل حدث ولادتها الذي ينطوي على إشارة إلى ولادة المسيح أيضًا (آل عمران: ٣٧). من أجل هذه المعجزة العظيمة كان لزامًا وجود مؤشرات ابتدائية، وإن القرآن الكريم هو الذي ذكر تلك المؤشرات، أما الإنجيل فلم يذكرها أبدًا.

يقول الله تعالى في سورة آل عمران إن امرأة من عائلة عمران (أي من عائلة موسى عليه السلام) شعرت في قلبها بأن الدين في انحطاط وفساد، وأن هناك حاجة ماسة

إلى الذين يقفون حياهم لإصلاح الدين، فقررت في نفسها أن الله تعالى لو آتاها ولدًا فستَنذره في سبيله. فقطعت مع ربّها وعدًا بذلك قائلةً رَبِّ تَقبَّلْ مني هذا النذر وبارِكْ فيه. فلما وضعتِ المولود وجدتْ أنه ليس ذَكرًا، بل هي أنثى. فأصيبت بخيبة الأمل، لأن البنت لن تقدر على تحقيق الهدف الذي من أجله نذرت مولودها. فدعتْ ربَّها ثانية في حزن عميق وقالت: رَبِّ ماذا أفعل الآن، فإني قد وضعتُ بنتًا، مع أن الله تعالى كان على علم أن الذَّكَر الذي كانت تتمناه لا يمكن أن يفعل ما ستفعله تلك الأنثى.

الواقع أن الصالحين في ذلك العصر كانوا يشعرون في أنفسهم بالفساد الذي قد استشرى، ولكن ما كانوا يعرفون الموعد الصحيح لزوال ذلك الفساد. كان الناس يرون الفساد المتفشي، وكان محبّو الدين منهم، ذكورًا وإناثًا، متحمسين لإصلاحه. ففكرت النساء أن ينذرن أولادهن لخدمة الدين، ولكن ما يدريهن بالموعد المناسب لإصلاحه. فلو أن الله تعالى استجاب دعاء أم مريم عندئذ لوُلد المسيح قبل الموعد المناسب بعشرين سنة؛ في حين كان لزامًا أن يولد يحيى قبله ليكون إرهاصًا لــه. لذلك فاستجاب الله دعاءها بطريق آخر، فأعطاها بنتًا ستلد فيما بعد ولدًا عظيمًا بدلاً من أن يهبها ولدًا يخدم الدين. وهكذا استجيب دعاؤها من جهة، ومن جهة أُخرى لم يتغير الموعد المقدر من الله تعالى لإصلاح ذلك العصر. فلو أن الله العليم بالظروف استجاب دعاء أم مريم في حينه ما قدر ابنها على القيام بالخدمة الدينية التي كانت تريدها. فوهب لها البنتَ بدل الابن محققًا الأنباء القديمة بأن عذراء ستلد ابنًا غير عادي يتسبب في نجاة اليهود (إشعياء ٧: ١٤). كما استُجيب دعاء أم مريم أيضًا حيث ولدت بنتُها هذه ابنًا تسبب في نجاة اليهود.

وباختصار فبما أن أم مريم نذرتْ مولودها في سبيل الله تعالى فوضعتها تحت رعاية العلماء والأحبار. ولكن لا لتترهب وتعيش بدون الزواج، وإنما لكي تتعلم منهم الدين. وقد قلتُ ذلك لأن دعاء أم مريم ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (آل عمران: ٣٧) يوضح جليًّا أنها فكرت أنها لو وضعتْ بنتها

مريم تحت رعاية العلماء لربّوها تربية دينية جيدة، فتتمكن هي الأُخرى من تربية أولادها على ما يرام، فسلّمتها للأحبار والزهّاد العابدين؛ ومع ذلك كانت تريد لبنتها أن تتزوج فيكون لديها أولاد تربيهم تربية جيدة، والدليل على ذلك هو دعاؤها لمريم ولأولادها أيضًا بأن يحميهم الله تعالى من الشيطان الرجيم.

فاستجاب الله دعاء الأم فكان فضل الله على مريم عظيمًا حيث كفّلها زكريا الحبر، كما تربّت على يد الأحبار الآخرين، وأُولعت بالدين ولعًا كبيرًا، حتى أيقنت في صغرها أن كل ما يناله المرء إنما يناله من عند الله تعالى.

وإن يقينها هذا هو الذي أثر في زكريا بشدة، فدعا ربه أن يرزقه ولدًا، فوُلد يحيى. وهكذا تسببت أم عيسى في ولادة النبي الذي كان بدوره إرهاصًا لعيسى، وبالتالي أوجدت الحلَّ لأكبر معضلة واجهت ابنها فيما بعد. ذلك أن صدق دعوى المسيح ما كان ليتحقق إلا بمجيء إيليا، فتسبب تصرفٌ بريء من أم المسيح في ولادة يحيى الذي صار مثيلاً لإيليا.

أما أحوال مريم الأُخرى فهي بحسب الإنجيل كالآتي:

جاء يوسف بمريم إلى بيته بعد أن حملت بالمسيح (متى ١: ٢٤)، ولكن لم يذكر الإنجيل أي شيء عن زواجهما. وهذا يوضح أن الخِطبة كانت تُعتبر بمنـــزلة الزفاف عند اليهود. ولم يمسّ يوسف مريمَ حتى ولادة المسيح. أما بعد ولادته فمَسَّها يوسف، فولدت أولادها الآخرين (متى ١: ٢٥).

وورد أن يسوع كان يكنّ نفورًا تجاه أبويه، وعندما أعلن دعواه لم تؤمن به أمُّه، بل كانت تتعجب منه.

وورد أيضًا: "وفيما هو يكلّم الجموعَ إذا أُمُّه وإخوته وقفوا خارجًا طالبين أن يكلّموه، فقال لـــه واحد: هوذا أمُّك وإخوتك واقفون خارجًا طالبين أن يكلّموك. فأجاب وقال للقائل لـــه: مَن هي أمّي، ومَن هم إخوتي؟ ثم مدَّ يدَه نحو تلاميذه وقال: ها أمّي وإخوتي، لأن من يصنع مشيئةَ أبي الذي في السماوات هو أخي وأختي وأمي" (متى ١٢: ٤٦-٥٠).

فثبت من ذلك أن المسيح لم يعدّ أُمَّه ولا إخوته من المؤمنين. وهذا يعني أن السيدة مريم كانت بحسب الإنجيل منكرة كافرة بالمسيح.

علمًا أن مرقس ولوقا قد أكدا هذا الأمر نفسه في إنجيليهما (مرقس ٣: ٣١-٣٥، ولوقا ٨: ١٩-٢١). أما يوحنا فقد لزم في إنجيله السكوت تجاه ذلك.

أما الإنجيلي متّى فزاد الأمر جلاء حيث أخبر أن الناس كانوا يقولون: أليس أم المسيح وإخوته وأخواته كلهن معنا؟ أي قال اليهود إذا كان المسيح صادقًا فلم لم تؤمن به أمه وإخوته وأخواته؟ فقال لهم المسيح: "ليس نبي بلا كرامة إلا في وطنه وفي بيته" (متى ١٣: ٥٥-٥٧). أي أن ذلّتي بين أهل وطني وعشيرتي ليس دليلاً على كذبي، لأن جميع الأنبياء قد عارضهم أهلهم دائمًا.

وليس هذا فحسب، بل يتضح من إنجيل مرقس أن أقارب المسيح كانوا يعدّونه مجنونًا حيث ورد: "ولما سمع أقرباؤه خرجوا ليُمسكوه لأنهم قالوا إنه مختلّ" (مرقس ٣: ٢١).. أي أنهم بدلاً من أن يؤمنوا به اعتبروه مجنونًا مختلَّ الحواسّ، وأرادوا أن يمسكوه حتى لا يهيم على وجهه هنا وهناك.

لقد اتضح من هذه الأحداث بكل وضوح وجلاء أن مريم وأولادها الآخرين وكذلك يوسف الذي يُدعى أبًا للمسيح، لم يؤمنوا به، فكان يقابلهم بغلظة وجفاء. حتى إن الإنجيل يقول إنه لم يلتفت إلى أمه حين كان معلقًا على الصليب. كان قلب الأم يقاسي آلامًا شديدة، فجاءت لترى ابنها المعلق على الصليب، ولكنه لم يتكلم مع أمه بلطف ومحبة حتى في ذلك الوقت العصيب أيضًا، بل لما رآها واقفة قال لتلميذه "توما" مشيرًا إليها: هذه أمُّك، وقال لها: "يا امرأةُ، هُوَذا ابنكِ" (يوحنا ١٩: ٢٦-٢٧). وكأن المسيح، بحسب الإنجيل، أبغض أمه بغضًا شديدًا جعَله يخاطبها في ذلك الوقت العصيب أيضًا بقوله: "يا امراةُ" عوضًا عن أن يقول لها: يا أماه، أو يا مريم. وهكذا أدى المسيح واجبه الأخلاقي وأخبر أمه بالمأوى الذي تعيش فيه بعده، كما أوصى تلميذه "توما" بخدمتها وعنايتها، ولكن مشاعره تجاه أمه كانت جارحة

لدرجة أنه في تلك الساعة الخطيرة التي كان فيها معلقًا على الصليب لم يبد نحوها أي حب، و لم ينادها قائلاً: يا أمي، بل قال "يا امرأة"!

وقد ازداد المسيح جفاء لأمه، بحسب الإنجيل، لدرجة أنه في إحدى المرات قالت امرأة وقد تأثرت من خطاب المسيح: "طوبى للبطن الذي حمَلك والثديين اللذين رضعتَهما"، فكان من المفروض أن يكظم المسيح غيظه نحو أمه في تلك المناسبة على الأقل، ولكنه لم يملك نفسه حينما سمع ثناءً على أمه من فم هذه السيدة، فقال من فوره: "بل طوبى للذين يسمعون كلام الله ويحفَظونه" (انظر لوقا ١١: ٢٧-٢٨).. أي أن الأم التي حملتني في بطنها ليست مباركة، وأن الثديين اللذين رضعتُهما ليسا مباركين، إنما المبارك من يسمع كلام الله ويعمل به. فيبدو من الإنجيل أن المسيح كان لا يملك نفسه لدى سماع مدح أمه حتى من لسان الآخرين، وبدا وكأنه عدوّ لدود لأمه، ولا يعتبرها مؤمنة!

ولكن القرآن يخبرنا أن المسيح عليه السلام نفسه قال ﴿وَبَرًّا بوالدتي﴾ (مريم: ٣٣).. أي أن الله تعالى قد جعلني مطيعًا لأمي رءوفًا بها ومحبًّا لها. وللمرء أن يحكم بنفسه أي المصدرينِ يسرد التاريخ سردًا صحيحًا.

يقول الإنجيل، من ناحية، إن الملاك بشّر مريمَ وقال: "قد وجدتِ نعمةً عند الله، وها أنتِ ستَحبَلين وتلدين ابنًا، وتسمّينه يسوع. هذا يكون عظيمًا وابنَ العليِّ يُدعى" (لوقا ١: ٣٠-٣٢). وبالرغم أن بشارة الملاك هذه كانت مستحيلة بالنظر إلى الظروف الظاهرة، وبالرغم أن الله قد حقق هذا المستحيل، وبالرغم أن مريم قد شاهدت بنفسها هذه الآية العظيمة، إلا أنها ما زالت، بحسب بيان الإنجيل، تعتبر المسيح مجنونًا و لم تؤمن به.

الحق لو أن امرأة رأت في المنام أنها تلد ابنًا، ثم ولدت ابنًا بحسب الرؤيا فعلاً، فلا شك أن ولادته تكون آية، بيد أن ذلك لا يمكن مقارنته بمعجزة ولادة المسيح. ولو أن امرأة ولدت ابنًا بعد بشارة في الرؤيا، ثم كان الابن بارًّا أيضًا، فمن الممكن أن تسخط عليه أمُّه حينًا وتقول لــه إنك لم تؤد حق خدمتي. ولكن المعجزة التي رأتها

مريم لم تكن معجزة عادية. فإن الملاك يأتي عذراءَ، ويبشّرها بأنها ستلد ولدًا متصفًا بصفات محددة، فتحمل به بالفعل، ثم تلد ابنًا ينال عزًّا وصيتًا غير عاديين في الدنيا. فهل من عاقل يمكن أن يصدّق بعد هذا الحدث العظيم أن أم ذلك الابن ستعدّه مجنونًا أو كاذبًا في دعواه؟ كلا، إن التي شاهدت تلك الآية العظيمة على قدرة الله تعالى لا يبقى أمامها مجال للكفر والإنكار. إذن فإن بيان الإنجيل بأن المسيح كان عاصيًا لأمه مرفوض كليةً من حيث العقل أيضًا، أما القرآن الكريم الذي يخبر أن المسيح عليه السلام نفسه قال إن الله قد جعلني ﴿برًّا بوالدتي﴾ فهو على الحق والصواب.

ثم يقول الإنجيل أن مريم كانت كافرة، ولكن القرآن الكريم يعلن عنها ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ (آل عمران: ٣٨).. أي أن الله تعالى قد استجاب دعاء أم مريم، فثبَّتَ مريمَ على الخير، وكتب لها رقيًّا وعظمة غير عاديين. إذًا فالقرآن الكريم يعلن أن مريم كانت من المؤمنين الصالحين من الطراز الأول، أما الإنجيل، الذي يعلن أن مريم هي أم الإله، فيعدّها كافرة غير مؤمنة.

ثم ورد في القرآن الكريم قول الملائكة لمريم ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾(آل عمران: ٤٣). فالقرآن الكريم يقول ما تقوله الفطرة، أما الإنجيل فيقول ما ترفضه الفطرة؛ إذ لا يمكن أن تكون مريم منكرة للمسيح رغم رؤية هذه الآية العظيمة. فثبت أن موقف القرآن هو الصحيح.

لقد قال الأعداء إن محمدًا ﷺ كان جاهلاً بالوقائع الصحيحة، فسجل في القرآن ما يخالف الواقع. ونحن نقول لهم: أيها الأغبياء، هلمّوا بأصحابكم الذين دوّنوا في رأيكم ذلك التاريخ بدقة وصحة، وقارِنوا بيانهم مع بيان القرآن الكريم. فإن الذي ترمونه بالجهل بالتاريخ يذكر الحقائق الثابتة، وأما الذين زعمتم أنهم كانوا يعرفون التاريخ الصحيح فيذكرون الأباطيل. أليس ذلك برهانًا عظيمًا على صدق محمد رسول الله ﷺ؟

لقد قال الله تعالى هنا ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٤٣). ذلك لأن الإنجيل قد ذكَر نسوةً كثيراتٍ باسم مريم، مشيدًا بصلاحهن وطهارتهن، أما مريم

التي كانت والدة المسيح فقد عرضها المسيحيون أمام العالم كعدو ومعارض للمسيح. فرد الله على زعمهم هذا، وقال إنكم تفضّلون مريم المجدلية وغيرها من النساء على مريم التي هي أمُّ عيسى، مع أن لا قيمة لتلك المريمات اللواتي تشيدون بهن إزاءها. إن مريم التي كانت أفضلهن وأقدسهن هي تلك التي كانت أمًّا للمسيح.

ثم يقول الله تعالى ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (آل عمران: ٤٤). والراكع هو من أنعم الله عليه نعمة الإيمان الخالص. فالمعنى: يا مريم كوني مطيعة لله تعالى، وعابدة لــه، وانضمّي إلى جماعة المؤمنين المخلصين. وهذا يعني أن القرآن يصرح أن مريم كانت من المؤمنين من الطراز الأول، أما الإنجيل فيعدّ تلك النسوة الخاطئات اللواتي كنّ يَدْهَنَّ رأس المسيح بالزيت مؤمناتٍ (لوقا ٧: ٣٧-٣٨)، بينما يعتبر مريمَ التي رأت معجزة ولادة المسيح العظيمة غير مؤمنة!

والبديهي أن كل هذه الحقائق أمور عادية وليست من الغيب الخفي عن أعين الناس، ومع ذلك يقول الله تعالى بعد ذكرها ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ (آل عمران: ٤٥).. أي أن هذه الأمور التي تبدو عادية قد أخفاها الإنجيل فصارت في طي الأخبار الغيبية المجهولة. يقول الإنجيل أن مريم كانت كافرة، واعتبرت المسيح مجنونًا، ولكنّا نخبرك أن كل هذا كذب وهراء. لقد كانت مريم مؤمنة قانتة ومصدّقة بالمسيح.

الواقع أنه يتضح من بيان الإنجيل أن الحواريين لم يرتدعوا عن اتهام أمّ إلههم لكي يثبتوا أنهم كانوا من المقربين لدى المسيح. لقد ظلم متّى ومرقس ولوقا ويوحنا وتوما والدةَ المسيح ظلمًا عظيمًا إذ عرضوها على العالم كامرأة كافرة لا إيمان لها، ولم يفعلوا ذلك إلا لهدف واحد بأن يتظاهروا بقربهم من المسيح. ولكن القرآن قد كشف عن زيفهم مبينًا أن مريم كانت مؤمنة بارّة قانتة، وأن كل ما ورد في الإنجيل خلاف ذلك كذب وافتراء ليس إلا...

ثم يقول الله تعالى ﴿إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ (مريم: ١٧). إن وطن مريم وزوجِها هو مدينة "الناصرة" بحسب الإنجيل (لوقا ١: ٢٦- ٢٧). ويخبرنا

القـــرآن -لا الإنجيل- أن المعبد الذي تعلمت فيه مريم الدين كان في أورشليم. لقد تركتها أمها عند زكريا في أورشليم ليرعاها ويربّيها، بيد أننا نعرف من القرآن الكريم أن أمها لم تتركها هناك لتكون راهبة تبقى في المعبد دائمًا. ذلك لأن أم مريم قد دعت لمريم بأولاد صالحين متقين؛ وهذا يدل أنها أرادت لبنتها أن تتزوج لا أن تترهب. ويبدو أنها لما وصلت سن البلوغ والشباب أخذها أمُّها إلى مدينتها الناصرة. إذًا فالمراد من أهلها المذكورين في قوله تعالى ﴿إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ (مريم: ١٧) أهلُها في الناصرة، وليس أهل أورشليم. فذهبت من عند أقاربها في الناصرة إلى مكان في جهة الشرق.

ما هو هذا المكان الشرقي؟ قال المفسرون أن مريم حين رأت مشهد الملاك كانت في مدينة من المدن الشرقية (تفسير ترجمان القرآن). ويقول الإنجيل أنها شاهدت ذلك المشهد وهي مقيمة في الناصرة التي هي وطنها ووطن زوجها يوسف (لوقا ١: ٢٦-٢٧). والناصرة تقع في جهة الشمال من أورشليم لا في جهة الشرق. فلا يمكن أن يراد هنا أن مريم ذهبت من أورشليم إلى الناصرة، بل يتحدث القرآن هنا عن حدث وقع معها وهي في الناصرة. ولكن فيما يتعلق بالتاريخ المذكور في الإنجيل فإن مريم لم تذهب إلى أي مكان شرقي، بل بقيت في مدينتها الواقعة شماليّ أورشليم...

وبقي الآن سؤال آخر وهو أن القرآن الكريم لا يذكر إلا ما هو مهمٌّ، فهو ليس كتاب قصص حتى يخوض التفاصيل التي لا داعي لها، وإنما يذكر الأمور الهامة فحسب. فالسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: لماذا قال الله تعالى هنا إن مريم ذهبت إلى مكان شرقي؟ يجب أن يكون في المكان الشرقي خصوصية تتعلق بحادث مريم، وإلا أصبح بيان القرآن لغوًا لا طائل تحته.

فليكن معلومًا أن للشرق أهمية كبيرة عند اليهود. لقد ورد في التوراة: "وغرس الربُّ الإلهُ جنةً في عدن شرقًا، ووضَع هناك آدمَ الذي جبَله" (التكوين ٢: ٨). فثبت أن هناك صلة وثيقة بين الشرق والجنة وبداية الخلق الإنساني بحسب التوراة...

لا شك أن هذا المصدر يرجع إلى ما بعد المسيح، ولكن ما أريد تأكيده هنا هو أن الشرق كان يحظى باحترام خاص لدى اليهود والنصارى، فكانوا يجعلون أبواب معابدهم نحو الشرق، بل كان بعضهم يعبدون متجهين إلى الشرق. فيكون مفهوم هذه الآية أن مريم ذهبت للعبادة إلى معبد كان وجهه ناحية الشرق لكي تكون الجنة الأولى والبشارات العظيمة نُصبَ عينها.

فالمراد من هذه الآية أن مريم لما شبّتْ خلق الله في قلبها حماسًا شديدًا للدعاء، فذهبت من بيتها إلى معبد جُعل وجهه نحو الشرق تذكارًا بالجنة الأولى وببداية الخلق الإنساني اللذين لهما صلة بالشرق.

أي أن مريم ألقت سترًا على الباب من أجل الدعاء في خلوة وانفراد. علمًا أنه في هذه الأيام تُتّخذ للغرف أبواب يمكن إغلاقها بسهولة، ولكن في ذلك الزمن القديم لم يكن لمثل هذه الأبواب رواج، وإنما كانوا يضعون الستائر مكان الأبواب، حتى إن القصور الملكية كانت بدون أبواب حتى الزمن العباسي. ويتضح من المباني التي بُنيت في عهد الملوك المغول أنهم كانوا يلقون الستائر على أبواب الحجرات من أجل الخلوة والانفراد. لذا فقوله تعالى ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ (مريم: ١٨) لا يعني أن مريم ابتعدت عن القوم لتفعل شيئًا لا يمكنها أن تفعله إلا وراء الحجاب والخفاء، وإنما المراد أنها أرادت أن تعبد الله تعالى وتدعوه بهدوء في خلوة، فألقت من دونها سترًا حتى لا يراها الناس في عبادتها ودعائها.

تلقي البشارة بالولد:

لقد كان زكريا عليه السلام في المعبد حين تلقى البشارة بالولد، وكانت مريم أيضًا في المعبد حين تلقت من الله البشارة بالولد، حيث يقول الله تعالى إنها كانت في عبادتها وابتهالها في خلوة ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ (مريم: ١٨).. أي جاءها الملاك متمثلاً كإنسان سليم الصحة. ومثله كما يرى المرء في المنام أنه يذبح كبشًا ويكون تأويله موت ابن لــه أو بنت أو قريب. أو يرى فأرًا وتعبيره شخص منافق. أو يرى أن سارقًا قد اقتحم بيته وتأويله الحمو والنسيب. وبالرغم أننا لا نجد

في الظاهر أي علاقة بين المنام والتأويل إلا أن هذا هو الأمر الواقع كما يعرف الجميع، لأن الله تعالى يريهم هذه الأحداث بلغة التمثل والصورة. وهنا أيضًا يشير الله تعالى إلى هذا الأمر، ويخبرنا أن الملاك تمثَّلَ لها على شكل إنسان كامل الصحة. وبتعبير آخر إن هذه الكلمات تصور لنا كيفية نـــزول الوحي على السيدة مريم. لقد قيل لرسولنا الكريم ﷺ ذات مرة: يا رسول الله، كيف ينـــزل عليك الوحي؟ فقال: أحيانًا ينـــزل عليّ كصوت الجرس، أي أشعر برنّة جرس، ثم بعده يبدأ الوحي في النـــزول؛ وأحيانًا يأتيني ملاك من ملائكة الله تعالى في شكل إنسان، ويكلّمني، وتارة يأتيني الملاك في شكل آخر. (البخاري: باب كيف كان بدء الوحي).

وقد مرّت مريم أيضًا بتجربة مماثلة، حيث تمثل لها كلام الله تعالى بشرًا سويًّا واقفًا أمامها. وهذا الأمر يكشف لنا حقيقة حملها أيضًا بأنه لم يكن إلا مثالاً لقول الله تعالى ﴿كُنْ فيكون﴾، وليس أن ملاكًا أو روحًا دخل فيها...

يخبرنا الله تعالى هنا أن مريم استخدمت كلمة ﴿الرحمن﴾ عندما استعاذت به، وإن إخبار الله تعالى هو الحق يقينًا. ولكن الغريب أن المسيحية تنكر صفة الله "الرحمن" أصلاً، وإنما أساس المسيحية هو أن الله ليس برحمن. ذلك لأن الله لو كان رحمانًا لغفر الذنوب، ولكن المسيحية تزعم أن الله لا يقدر على أن يغفر لأحد، فهذا يخالف عدله. وكأن الفعل الذي يقوم به كل إنسان في الدنيا، فيمدحه الناس بسببه ولا يذمّونه، فإن الله تعالى لا يمكنه القيام به. ولكنهم يعودون فيقولون أن رحمة الله اقتضت أن يغفر لعباده، فأرسل ابنَه إلى الدنيا، فصُلب عوضًا عن ذنوبهم. فلأنه حمل بنفسه ذنوب الناس كلها، وصار فداء لهم، فلا حاجة لهم إلى القيام بأي عمل آخر، لأنهم ينالون النجاة نتيجة إيمانهم بالمسيح. فثبت أن المسيحية مبنية تمامًا على أن الله تعالى ليس برحمن. ولكن القرآن الكريم يعلن أن مريم لما رأت الملاك في هذا المشهد قالت له ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ (مريم: ١٩). والرحمن هو من يُنعم عليك بدون أي عمل منك.

إن هذه الكلمات جاءت لبيان حالة قلب مريم وقت الحدث، حيث أخبر الله تعالى أنها خافت من هذا المشهد لدرجة أنها قالت للملاك إنْ كان فيك ورع وتقوى فإني أبتهل إلى الرحمن أن يحميني من شرك. والرحمن مَن يتفضل على المرء من دون مقابل مِن عملٍ أو جهد. وهذا يعني أن الخوف قد بلغ من مريم كل مبلغ حتى توسلت إلى الله تعالى قائلةً يا رب، لا تنظر إلى أعمالي، ولا تنظر هل فعلتُ شيئًا لمرضاتك أم لا، وإنما أتوسل إليك برحمانيتك أن تحميني من شرّه. لو أنها توسلت إلى الله تعالى بصفته "الرحيم" لكان مرادها يا رب قد قمت ببعض الأعمال الصالحة، فارحمني جزاء عليها. ولكنها لم تتوسل برحيمية الله تعالى، وإنما توسلت برحمانيته تعبيرًا عن كربها الشديد، وكأنها تقول يا رب، ليس بيدي أي عمل، فارحمني رغم ذلك، وادفعْ عني كربتي وبلائي.

قال الملاك لمريم لا تخافي، إنما جئتك من عند الله تعالى لأمنحك ولدًا زكيًّا.

إن كلمة ﴿رسول﴾ تبطل مزاعم الذين يظنون أن الذي تمثل لمريم هو في الحقيقة زوجها أو زوجًا اختاره الله لها (روح المعاني). ذلك لأنه لا يقول إني جئت لأفعل بك شيئًا، بل يخبرها أني مجرد رسول من عند الله تعالى لأهب لك غلامًا زكيًّا.

قد يظنّ البعض أن قوله ﴿لِأَهَبَ﴾، الذي فيه معنى العطاء، يعني أنه جاء لإقامة علاقة جنسية معها. ولكنه أيضًا ظن باطل، لأن من أساليب القرآن الكريم أنه يبين الأخبار القطعية اليقينية بكلمات يقينية كيلا يحوم حولها شك. فمثلا إذا نبّأ عن حدث سيقع في المستقبل ذكَره بصيغة الماضي وكأنه يقول اعتبِروا هذا الخبر كالحدث الذي قد وقع في الماضي. وهنا أيضًا قد أكد القرآن خبر ولادة الابن عندها بقوله ﴿لأهَب﴾.. أي لأعطي أي كُوني على يقين بولادة الابن فكأني قد أعطيتكِ إياه. والجميع يعرف أن الله تعالى هو الذي يهب الولدَ لا الملاكُ. فثبت أن كلمة ﴿لأهَب﴾ إنما تفيد خبر ولادة الابن عندها، وليس إعطاءها الابن. إن النبأ الإلهي يكون خبر يقين، لذا فقد عُدَّ كشيء قد وُهب سلفًا، فقال جئتك بحسب وحي الله

تعالى ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ (مريم: ٢٠).. أي جئتكِ لأخبرك بولادة ابن عندك، وثِقِي بقطعية هذا الكشف وكأنك قد أُعطيتِ المولود الموعود.

إن مريم أيضًا استغربت من البشارة مثل ما استغرب زكريا ببشارة ولادة الابن عنده فقالت ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾؟ (مريم: ٢١)

لا شك أن الغلام يعني الكهل والشاب أيضًا، ولكنه يعني هنا الولد، لأن هذا من كلام مريم، وإن ولادة الولد عندها هو الأمر الذي جعلها تتحير. فقالت كيف ألد ولدًا و لم يمسَسْني بشرٌ ولستُ امرأة فاجرة؟

ولو أننا قلنا إنها استغربت بسبب ظاهر أحوالها، وقلنا إن مشاعرها في الرؤيا كانت كمشاعرها في الظاهر، فيكون المعنى أن ولادة الابن عندها كان أمرًا مستحيلاً في الظاهر فاستغربت من هذا الخبر خلال الرؤيا أيضًا. ذلك أن المنام نوعان: فأحيانًا يكون المشهد والكلام وحدهما تحت تأثير تأويل الرؤيا، أما الأحاسيس القلبية فلا تكون تحت تأثيره. ومثاله أن يرى المرء في المنام أن ابنه قد قُتل، وأنه فرحان بقتله، مع أنه لا يفرح بقتله في الظاهر، بل يبكي ويحزن؛ ففرحته على قتل ابنه يعني أن مشاعره أيضًا كانت تحت تأثير تأويل الرؤيا لأن تأويل قتله أنه سيكون صالحًا، وسيقف حياته على خدمة الدين، وإلا لبكى و لم يفرح. وأحيانًا يرى في المنام أن ابنه قُتل وأنه يبكي عليه، مع أنه كان ينبغي عليه أن يفرح بهذا المشهد، ولكن بكاءه في الرؤيا يدل على أن مشاعره لم تكن تحت تأثير تأويل الرؤيا، بل كانت تحت تأثير ظاهر الأحوال. إذن فمشاعر القلب أحيانًا تكون تحت تأثير تأويل الرؤيا وأحيانًا لا تكون كذلك.

فلو فهمنا من قولها هذا أنها قالته بتأثير ظاهر أحوالها لكان المراد أنها قالت هكذا لأن التفوه بمثل هذه الأمور أمر منكر غير مستحب، فكأنها قالت لــه: يا ويلتي، ماذا تقول؟ متى تلد النساء بدون الرجال؟

أما لو اعتبرنا قولها هذا خاضعًا لتأثير تأويل الرؤيا لكان المراد أنها قالت هذا في دهشة واستغراب: هل بالفعل سيعاملني الله تعالى بهذا اللطف والكرم؟

وباختصار، لقد ثبت من هذه الآية بكل جلاء أن السيدة مريم قد فهمت من ذلك أنها ستلد ولدًا بدون زواج وقبل الزواج، لأن قولها ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ يدل أنها قد فهمتْ من هذه الرؤيا أنها ستُرزق الولد بعد هذه الرؤيا وقبل الزواج، وإلا فلا معنى لأن تنفي مريم أية علاقة جنسية في الماضي.

ثم إن قولها ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ أيضًا يدعم هذا المعنى حيث إنها تنفي به أي علاقات غير شرعية مع أحد في الماضي، بينما كان قولها ﴿و لم يمسَسْني بشرٌ﴾ كان نفيًا لعلاقة شرعية في الماضي؛ وليس في قولها أي ذكر للزواج أو عدمه في المستقبل. وهذا يدل أنها لم تنفِ ولادة الابن عندها في المستقبل لكونها منذورة في سبيل الله تعالى، وإنما نفت ولادة الابن عندها نظرًا إلى ماضيها الذي كان من المحال أن تُرزق فيه الولد. لو كان المستقبل في نظرها لقالت إن زواجي مستحيل فكيف أرزق الولد، أو لم تتعجب إطلاقًا من وعد الولد لأن احتمال زواجها كان أمرًا واردًا.

وليس المراد من قوله تعالى ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ (مريم: ٢٢) أن هذا الأمر صعب على الناس ولكنه سهل لي؛ ذلك لأن الأمر المشار إليه ليس صعبًا على الناس فحسب بل هو مستحيل تمامًا. إذن فليس هنا أي مقارنة بين قدرة الله وقدرة البشر، وإنما هذا إعلام من الله تعالى بأنه إذا أراد شيئًا فكل شيء هيّنٌ وسهلٌ عليه.

أما قوله تعالى ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ (مريم: ٢٢) فاعلم أن اللام في ﴿ولِنجعَله﴾ للعاقبة، والمراد أننا فاعلون ذلك حتمًا، فيصبح هذا الولد آية ورحمة للناس من قِبلنا. أي أننا حين نخلقه من دون أب سيكون ذلك علامة على أننا على وشك أن ننقل النور الإبراهيمي من بني إسحاق إلى بني إسماعيل، ويكون هذا ﴿رحمة منا﴾.

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا: إذا كانت النبوة قد انقطعت عن بني إسرائيل من خلال المسيح، فكيف صار هو رحمة للناس.

وجواب ذلك (أولاً) أن قوله تعالى ﴿ورحمة منا﴾ إشارة إلى تعليم المسيح، حيث أخبر الله تعالى أن الخشونة والقسوة الموجودة في اليهود ستُزال بواسطة المسيح الذي

سيدعو الناس إلى المحبة والرفق، ويعمل جاهدًا على نشر الرحمة، وهكذا سيكون ظهوره مدعاة رحمة للدنيا.

وثانيًا، أن نبي آخر الزمان ﷺ ما كان ليولد إلا بانتقال النبوة من بني إسحاق إلى بني إسماعيل. فبما أن المسيح كان سببًا لظهور من هو رحمة للعالمين ﷺ وجاء ليمهّد لنـــزول تعليم الرحمة فقال الله تعالى إننا جعلناه ﴿رحمة منا﴾.. أي جعلناه سببًا لتحقق تلك النبوءة العظيمة المتعلقة بظهور نبي آخر الزمان ﷺ. وكأن المسيح كان مفتاحًا للباب الذي كان من المقدر أن تنـــزل بانفتاحه رحمة عظيمة من الله تعالى.

ما أعظم هذا الكلام دليلاً على كمال القرآن! فبالرغم من أن المسيح عليه السلام سيدٌ للنصارى، إلا أن الإنجيل حين تحدث عن نبوءة ولادته لم يذكر أنه سيعمل على نشر المحبة بين الناس. ولكن القرآن الكريم حين ذكر نبوءة ولادته ذكر أيضًا أن الله تعالى كان قد أخبر مريم قبل ولادته أنه سينشر تعليم المحبة. إن هذا الأمر إذا كان يشكل برهانًا عظيمًا على صدق القرآن وكماله وعدله، فإنه أيضًا دليل على كون الإنجيل ناقصًا. إن أكبر مزايا المسيح عليه السلام تعليمه الداعي إلى الرحمة، ولكن الإنجيل لم يذكر ذلك، ولو تلميحًا، حين ذكر نبوءة ولادته، أما القرآن الكريم فسجل هذا الأمر.

ولا يعزُبَنّ عن البال أن كل نبي كان في حد ذاته آيةً من آيات الله تعالى، ولكن من دأب المسيحيين استغلال بعض الكلمات بطريق خاطئ. فمثلاً لا شك أن قوله تعالى ﴿ولنجعَله آيةً للناس ورحمةً منّا﴾ دليل على عظمة المسيح عليه السلام، ونحن المسلمين أيضًا نعترف بعظمته، ولكن المسيحيين يستغلّون مثل هذه الكلمات فيُطْرون المسيح إطراء كبيرًا. إننا لا نقلّل من عظمة المسيح، كلا، بل إننا نعتقد أنه نبي عظيم ورسول كريم، ولكنا لا نؤمن بأنه كان يملك من الكمالات ما لا يوجد في غيره من الأنبياء، أو أنه كان أكثر كمالاً من رسولنا الكريم ﷺ. يستنتج المسيحيون من قوله تعالى ﴿ولنجعلَه آيةً للناس﴾ أن هذا اعتراف من القرآن بأهمية خارقة للمسيح. ولكنه استنتاج غير سليم، إذ يتضح من دراسة القرآن الكريم أنه قد استخدم هذا اللفظ في حق الأنبياء الآخرين أيضًا. فمثلاً قد سرد تعالى في القرآن رؤيا لأحد من الأنبياء ثم

قال له ﴿لِنجعلَك آيةً للناس﴾ (البقرة: ٢٦٠). وقد قال ذلك للنبي حزقيال الذي كان أدنى درجة من موسى وداود عليهم السلام.

بل لقد قال الله تعالى عن يحيى ما لم يقل عن المسيح إذ بيّن أنه قد أعطاه هذا الحنان أو الرحمة من عنده ﷻ، بينما قال عن المسيح إنه جعله للناس رحمة، فالله تعالى قد نسب الرحمة هنا إلى نفسه لا إلى المسيح. فكان يحيى رحمة متجسدة، أما المسيح فبُعث إلى الناس كآية رحمة فقط. والظاهر أن الرحمة المتجسدة شيء عظيم.

ثم إن رسولنا الكريم ﷺ لم يُسمَّ رحمة فحسب، بل قال الله تعالى لــه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٨). وهذا يعني أن عيسى عليه السلام لم يُسمَّ رحمةً، بل سمي آية رحمة، وأما يحيى فسُمِّي رحمة من لدن الله تعالى، وأما رسولنا الكريم فلم يُجعَل رحمة مختصة بقوم أو بزمان، بل جُعل رحمة لكل العالم ولكل الأزمان إلى يوم القيامة. وكأن النبي ﷺ (١) جُعل رحمة، وليس أنه بُعث رحمةً بالناس؛ (٢) وأنه لم يُجعل رحمة مختصة بقوم معين أو زمان معين، بل جُعل رحمة للعالمين...

أما قول الله تعالى ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ (مريم: ٢٢) أي إذا أراد الله تعالى أن يخلق أحدًا من غير أب فهو أمر سهل بالنسبة لله تعالى، لذا يخبر الآن أن ولادة الابن عند مريم من غير أب كان قضاء الله تعالى لكي تنقطع النبوة عن بني إسرائيل وتنتقل إلى بني إسماعيل. وكان أمرًا مبرمًا لا يمكن إلغاؤه أبدًا، بل أصدر الله ﷻ الأوامر بتنفيذه وإمضائه.

كيف حملت مريم، هذا سرٌّ إلهيٌّ أسمى من القانون الطبيعي، أو إذا كان ضمن القوانين الطبيعية فإنه لا يزال حتى الآن سرًّا مكنونًا بالنسبة للإنسان. وهناك الكثير من أسرار القوانين الطبيعية التي لم يتمكن الإنسان بعد من الاطلاع عليها. خذوا القنبلة الذرية مثلاً، فلم يكن للإنسان أي علم بها، ولكن الإنسان اكتشفها الآن؟ وبالمثل هناك أسرار كثيرة في خلق الله تعالى التي لم يكتشفها الإنسان بعد، ومنها الولادة من غير أب. إن الله الذي خلَق كل الكون بقوله ﴿كُنْ﴾ لقادر على أن

يحدث في الأنثى تغييرات غير مسبوقة. غير أننا نجد في التاريخ أيضًا شهادات تؤكد ولادة أولاد آخرين من غير أب.

وقد وردت في الموسوعة البريطانية أحداث مماثلة كثيرة. والغريب في الأمر أن أمهات كل هؤلاء المواليد الذين وُلدوا هذه الولادة العجيبة قد رأين الرؤى قبل ولادتهم (موسوعة الأديان مجلد ١٢: Virgin Birth). لذا فلا يمكننا أن نتهمهن بالفاحشة أو الكذب. إذًا فلا غرابة في ولادة المسيح ﷺ من غير أب، إذ نجد في التاريخ ذكر ولادات عديدة مماثلة لولادته.

أما قوله تعالى ﴿فحملتْه﴾ فالمراد من الحمل هنا الحمل الذي تم نتيجة هذه الرؤيا. وهذا ما قال به سيدنا المسيح الموعود عليه الصلاة والسلام. فقد قال في كتابه "مواهب الرحمن" بكل وضوح وجلاء إن من عقائدنا أن المسيح قد وُلد من غير أب (مواهب الرحمن ص ٢٩٥). وكان حضرته ﷺ يصرّح أنه ليس أمامنا إلا خياران اثنان: فإما أن نسلّم بأن المسيح ﷺ قد وُلد بأمر الله تعالى، وإما أن نقول أنه وُلد ولادة غير شرعية.

أما قوله تعالى ﴿فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ (مريم: ٢٣) فيدل على أن مريم اضطرت خلال حملها للذهاب إلى مكان بعيد. وحين نفحص الإنجيل بهذا الصدد نجد فيه تفصيل هذا الحادث إلى حد ما، ولا بد لنا من التسليم بهذا التفصيل طالما لا نجد ما يدل على بطلانه. فقد ورد في الإنجيل:

"وفي تلك الأيام صدر أمرٌ من أوغسطسَ قيصرَ بأن يُكتَتب كلُّ المسكونة. وهذا الاكتتابُ الأولُ جرى إذ كان كيرينيوسُ واليَ سوريةَ. فذهب الجميع ليُكتَتبوا.. كلٌّ واحد إلى مدينته. فصعد يوسفُ أيضًا من الجليل من مدينة الناصرة إلى اليهودية إلى مدينة داود التي تدعى بيت لحم لكونه من بيت داود وعشيرته ليُكتتب مع مريمَ امرأته المخطوبة وهي حُبلى" (لوقا ٢: ١-٥).

فثبت من هذه الفقرة الإنجيلية أن مريم أيضًا ذهبت مع يوسف إلى بيت لحم للإحصاء. ولكن يقول الإنجيل بعد ذلك إن الناس جاءوا بكثرة للإحصاء فلم يجدا

مكانًا للمبيت في السراي، فباتا في الخارج، وهنالك بدأت مريم تشعر آلام المخاض، فوضعت الوليد (المرجع السابق: ٧).

إن لجوء مريم إلى النخلة دليل على أنها لم تكن في بيتها. وقد سبق أن بيّنتُ أن مريم وزوجها لم يجدا المكان في النــزل بحسب الإنجيل، فاضطرا للمبيت في العراء، ويبدو أنها وجدت هناك نخلةً فذهبت إليها.

يقول المفسرون عندنا أنها ذهبت إلى النخلة لتستند إليها تخفيفًا لآلامها (مجمع البيان). ولكنهم قد اخترعوا عذر الاستناد خوفًا من الروايات المسيحية كما سأبين لاحقًا. فما دامت كل الأشجار تهيئ الظل والسند أيضًا في وقت واحد، فلماذا، يا ترى، قالوا إنها ذهبت إلى جذع النخلة لتستند إليها؟ إن سببه في الواقع هو أن فكرة الانسجام مع الروايات المسيحية كانت غالبة على أذهانهم. لا شك أن الإنسان يكون بحاجة إلى السند أيضًا وقت الآلام، فالنسوة ذوات الخبرة يضعن أيديهن في يد المرأة عند الولادة وينصحنها أن تضغط علي أيديهن بكل قوة، وعندما تفعل ذلك تجد بعض الراحة من آلامها، كما تسهل الولادة أيضًا. فلا غرو أن المرأة تحتاج إلى شيء تستند إليه وقت الآلام، غير أني أرى أن السبب الذي ذكره المفسرون هنا ليس صحيحًا.

أما قوله تعالى ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾ (مريم: ٢٤) فقال البعض أنها قالت ذلك خوفًا من طعن الناس لأن الولد كان من غير أب (تفسير ابن كثير). ولكني أرى أن هذا غلط، فإن أهل الخبرة يعرفون أن المرأة عند ولادة مولودها الأول تعاني على الدوام آلامًا شديدة حتى تقول من تلقائها يا ليتني مِتُّ قبل هذا. لقد لاحظتُ هذا الأمر في بيتي مع زوجاتي وبناتي أيضًا. مما لا شك فيه أن ولادة مولود عند عذراء أمر غير عادي، ولكن هكذا تقول النساء دائمًا عندما يقاسين آلامًا شديدة عند وضعهن لمولودهن البِكر. فلا غرابة في ذلك أبدًا.

لقد انتقلت أذهان المفسرين من قول الله تعالى ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ (مريم: ٢٥) إلى التحت الذي يكون تحت قدم المرء. فيقولون لأن عيسى كان تحت

مريم عند ولادته فهو الذي ناداها من تحتها (روح المعاني)، بينما قال البعض إن الملاك ناداها من جهة أرجلها (الدر المنثور).

مما لا شك فيه أن المنادي هو الملاك، ولكن من الغباء القول أن الملاك ناداها من الجهة التحتانية من جسدها. إنما المراد أن الملاك ناداها من جهة منحدر الأرض وأخبرها أن هنا ماء. ذلك أن المكان الذي وُلد فيه عيسى كان في سفح جبل وكانت في الأرض المنخفضة هناك عين ماء، حيث تتضح لنا من الإنجيل أن مريم ولدت ابنها في بيت لحم التي تقع على رأس جبل يبلغ ارتفاعه ٢٣٥٠ قدمًا من سطح البحر. وهناك وديان خضراء حولها، وهي أكثرُ الأماكن خضرةً في منطقة يهوذا كلها، وأن بها ثلاثة عيون للماء وتسمى عيون سليمان. وهذه العيون تمد مدينة بيت لحم بالماء. وهذا يعني أن لا ماء في المدينة، وإنما تُجلب المياه من عين سليمان عبر الأنابيب. وهناك عين ماء في الجهة الشرقية الجنوبية من المدينة عند السفح على بعد نصف ميل (قاموس الكتاب المقدس للدكتور جورج).

فالمراد من قوله تعالى ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ (مريم: ٢٥) أن مريم سمعت الصوت من الناحية التي فيها عين ماء. ذلك أن المرء يعرف المكان من جهة الصوت أيضًا. فمثلاً لو ناداك أحد من شمالك لعرفت على الفور أن الصوت قادم من جهة الشمال وليس من جهة اليمين. فلكي يدل مريمَ على مكان الماء ناداها الملاك من منحدر الجبل. وليس المراد أنه ناداها من تحت جسدها. والتاريخ الجغرافي لهذه المنطقة أيضًا يدل على وجود عيون ماء فيها.

الواقع أن الإنجيل يخبرنا أن مريم لما ذهبت إلى بيت لحم لم تجد مكانًا للمبيت داخل المدينة، فباتت خارجها. كما يضيف الإنجيل أنها باتت في المكان الذي كان الرعاة يرعون فيه مواشيهم (لوقا ٢: ٨). ومن المعروف أن الرعاة يرعون المواشي على مسافة من المدن. ومن أجل ذلك ورد في الإنجيل أنهما أضجعا الوليد في مذود. فثبت أنهما باتا في مكان بين المدينة والعيون. وربما فكرت مريم أنها لو أقامت في المدينة لقال الناس لمن هذا الوليد، فالأفضل أن يقيما خارج المدينة. فأقامت على بعد

منها حيث العيون التي لم يكن لها علم بوجودها لكونها غريبة في تلك المنطقة، فأخبرها الله تعالى بواسطة الملاك أن هناك عين ماء في الجهة الفلانية.

ولربما أراد الله تعالى بذلك إثبات مماثلة بين المسيح وإسماعيل عليهما السلام، فإن الأخير أيضًا لما تُرك في أرض مكة نادى الملاك أُمَّه أن الله تعالى قد فجّر عينًا تحت رجلي ولدك.

ثم في الآية التالية يقول الله تعالى ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ (مريم: ٢٧). فبما أن الله تعالى قد ذكر النخلة من قبل، فالمراد كلي الآن من ثمر النخلة، واشربي من عين الماء، ونظفي به الثياب والمولود وافرحي. وهذا يدل بكل وضوح أنه ليس في لفظ ﴿سريًّا﴾ ما يدل على رفعة المسيح، بل يفيد وجود العين. كانت عند منحدر الجبل عين ماء، فقال الله لها كلي من ثمر النخل، واشربي من ماء العين، وقرّي عينًا.

تاريخ ولادة المسيح عليه السلام:

هنا نواجه معضلة كبيرة لا بد لنا من حلها. إن التاريخ المسيحي يقول لنا أن المسيح عليه السلام وُلد في ٢٥ ديسمبر، ويقول لوقا إن أوغسطسَ قيصرَ كان قد أصدر في تلك الأيام أمرًا بإحصاء سكان مملكته، فذهب يوسف مع مريم من الناصرة إلى بيت لحم من أجل التسجيل، وهنالك وُلد المسيح (لوقا ٢: ١-٥). وهذا يعني أن المسيح وُلد في بيت لحم أيام الإحصاء الأول في ٢٥ ديسمبر. ولكن القرآن الكريم يعلن أن المسيح قد وُلد في الأيام التي تثمر فيها النخل. والنخل لا تثمر في شهر ديسمبر إلا نادرًا، وتثمر في شهرَي يوليو وأغسطس بكثرة. وعندما نجمع بين هذا وبين إخبار الله تعالى لمريم بعين ماء لتنظف به ثيابها وتغسل مولودها، لتبين لنا أن الولادة تمت في الحقيقة في يوليو أو أغسطس، لا في ديسمبر. ذلك أن غسل الوليد الجديد بماء العين في شهر البرد القارس، وخاصة على جبل واقع في شمال الجزيرة العربية لأمرٌ مخالف للعقل تمامًا. ولكن التاريخ المسيحي ينص على أن ولادة المسيح في شهر ديسمبر. فهناك تعارض واضح بما ورد في تاريخهم وما يعلنه القرآن الكريم بأن الملاك قال لمريم ﴿وهُزِّي إليكِ بجذعِ النخلة تساقطْ عليكِ رُطَبًا جنيًّا﴾ (مريم: ٢٦)، مع أن الرطب

لا توجد في شهر ديسمبر إلا نادرًا، وتوجد بكثرة في شهري يوليو وأغسطس. فإذا كان صحيحًا أن المسيح قد وُلد في ديسمبر فالسؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا ذكر القرآن الرطب مع أنها لا توجد في ذلك الموسم؟

وخوفًا من هذا الاعتراض نفسه قال المفسرون عندنا أن مريم ذهبت إلى جذع النخلة لتستند إليه أثناء الوضع. لقد فكروا أن المسيحيين يقولون أن المسيح قد وُلد في ديسمبر، والنخل لا تحمل الرطبَ في ذلك الشهر إلا قليلا؛ فلماذا ذهبت إلى النخلة التي لم يكن بها ثمر؟ فأجابوا على ذلك أنها ذهبت إلى جذع النخلة لتستند إليه، غاضّين الطرف عما قال الله تعالى بعد ذلك في القرآن الكريم ﴿وهُزِّي إليكِ بجذعِ النخلة تُساقِطْ عليكِ رُطَبًا جنيًّا﴾! فلأن المفسرين سمعوا من المسيحيين أن المسيح وُلد في ديسمبر، ولأن النخل لا تثمر الرطب في ديسمبر إلا قليلا، فقالوا أن مريم ذهبت إلى جذع النخلة التي جف ثمرها لتستند إليه.

بيد أن بعض المفسرين فكروا فقالوا أن ذلك معجزة. فكانت مريم تهزّ النخلة التي لا ثمر بها، فكانت تساقط عليها رطبًا جنيًّا! (تفسير الرازي، وأضواء البيان).

والمشكلة الثانية التي نواجهها هي أن هذا الحادث وقع في منطقة يهوذا. والقرآن الكريم يذكر هنا النخل، ولكن تاريخ التوراة يذكر الزيتون واللوز والعنب بين مزروعات منطقة يهوذا، ولا ذكرَ فيها للنخل (قاموس الكتاب: تحت بيت لحم ص ١٦٦). والأغرب من ذلك أن العنب واللوز والزيتون لا تثمر في ديسمبر. وهذا يعني أن القرآن الكريم يذكر الرطب، وهي لا تكون في ديسمبر إلا قليلا؛ أما تاريخ التوراة فيذكر الزيتون واللوز والعنب كمزروعات منطقة يهوذا، ولا تذكر النخل من بينها، ثم إن هذه الثلاثة أيضًا لا توجد في ديسمبر.

والآن أخبركم بما يدل على أن بيان القرآن هو الحق.

الأمر الواقع أن السيدة مريم حملت من غير زوج، فأثار خطيبها ضجة أن الحمل ليس منه. فأمره الله تعالى في الرؤيا أن يأخذ مريم إلى بيته، لأن ما تقوله هي صدق وحق. فاطمأن صاحب الرؤيا بأن خطيبته لم ترتكب أي فاحشة، ولكن أهل المدينة

لا يمكن أن يطمئنوا، بل كل من يسمع بولادة المولود سيقول إنه ولد الحرام. وليس بوسع أي زوج أن يتحمل اتهام الناس لزوجته بالفاحشة. فلأنه كان يخاف العار، فمكث في بيته مع مريم ثلاثة أو أربعة أشهر أمكن فيها إخفاء الحمل، فلما رأى أن كتمانه مستحيل، ذهب بمريم إلى منطقة بعيدة عن مدينته، حيث وُلد المولود.

أما المشكلة التي واجهت لوقا في بيان هذه الحقيقة فهي كالآتي: لم ير لوقا معجزة كافية في ظهور الملاك لمريم وتبشيره إياها بالحمل، فأراد أن يضيف إلى ذلك بعض معجزات المسيح أيضًا، ليعطي انطباعًا أن مريم ما إن حملتْ بالمسيح حتى أخذت معجزات ربِّهم في الظهور بدون توقف. فإذا كانت معجزات المسيح أخذت في الظهور من حين الحمل فما الحاجة إلى إخفاء الحمل يا تُرى؟ ولكن الأحداث الحقيقية كانت تؤكد أن يوسف ومريم مكثا خارج مدينتهما لفترة طويلة. لا شك أن رؤيا يوسف برّأت ساحة مريم عنده، ولكن هذه الرؤيا ما كانت لتدفع عنه اللوم الذي كان سيلقاه من قبل القوم. ومن أجل ذلك أقام مع مريم طالما أمكن إخفاء الحمل، ولما رأى أن إخفاء حملها أصبح أمرًا مستحيلاً أخذها إلى مكان بعيد، لكي لا يتعرض للوم القوم ولكي يولد الوليد خارج المدينة. ولكن لوقا كان يهدف التأكيد على ألوهية المسيح، فراح يعزو إليه المعجزات منذ أن حملته مريم، وقال أن زوجة زكريا قالت لمريم الحامل حين جاءت إليها ها قد جاءتني أم ربي، بل قال إن يوحنا نفسه بدأ يركض فرحًا وهو في بطن أمه. فظن لوقا أنه إذا ثبت ذهاب مريم بعيدًا عن أهلها بسبب الحمل لقال الناس أن مريم وزوجها خافا لومة اللائمين رغم مشاهدتهما كل هذه الآيات والمعجزات؛ ولكن ما كان بوسعه، من ناحية أخرى، أن ينكر ذهابهما بعيدًا عن أهلهما؛ فكان عليه أن يرد على سؤال هام وهو: إذا كان الحمل معجزة من الله تعالى، وإذا كانت معجزات المسيح قد بدأت تظهر منذ لحظة الحمل، فما الداعي لإخفاء ذلك الحمل؟ وإذا لم يكن هناك داع لإخفائه فلماذا ذهبا بعيدًا عن أهلهما؟ فلكي يتفادى لوقا هذا الاعتراضَ أوجد من عنده مبررًا لسفرهما إلى بيت لحم، فربَط سفرهما بحادث الإحصاء الذي تم في الواقع بعد سبع سنوات من

ولادة المسيح، فأوهم الناسَ أهما لم يذهبا إلى بيت لحم إخفاءً للحمل، وإنما من أجل الإحصاء الذي لم يكن لهما بد من السفر من أجله.

فبناءً على التاريخ الرومي، يمكننا القول إن لوقا حاول كتمان الحق، إذ لم يجر ذلك الإحصاء في ذلك العام، ولم يسافر يوسف ومريم عندئذ من أجل التسجيل، وإنما ذهبا إخفاءً للولادة. وهذا هو الأمر الواقع أيضًا. فإن يوسف قد أتى بمريم إلى بيته بناءً على أمر الله تعالى، ولكنه لما رأى أن إخفاء الحمل أصبح مستحيلاً، وأنه سيتعرض الآن للخزي والعار، خرج بها بعيدًا عن المدينة بحجة ما. والظاهر أنه لو رجع إلى مدينته بعد ولادة المولود فورًا للامه القوم قائلين: أنى لك هذا المولود ولم تمض على زواجك خمسة أشهر فقط؟ ولو أنه رجع بمريم ومولودها بعد تسعة أشهر بالضبط من الحمل لعرف القوم أنه ليس بمولود جديد، بل هو ابن خمسة أشهر. ولم يكن ثمة سبيل لإخفاء الأمر إلا أن يظل بعيدًا عن مدينته عدة سنوات لأن الصبي الكبير لا يمكن معرفة عمره بالتحديد. والواقع أن يوسف قد اضطر بالفعل للمكوث بعيدًا عن مدينته سنوات عديدة. وعندي أن فترة مكوثه خارج المدينة تتراوح ما بين ثمانية أو تسعة أعوام.

كما كتب Bishop Georns:

ليس هناك شهادة قطعية على أن ٢٥ ديسمبر هو يوم ميلاد المسيح. ولو أننا سلّمنا بقصة ولادة المسيح كما ذكرها لوقا بأن الرعاة كانوا يحرسون قطعانهم في العراء في منطقة بيت لحم في تلك الأيام، لثبت أن ميلاد المسيح لم يكن في فصل الشتاء، حين تنخفض درجة الحرارة جدًّا حتى يصبح سقوط الثلج على منطقة يهوذا الجبلية أمرًا عاديًا. يبدو أن عيد الميلاد عندنا قد تم تحديده في حوالي عام ٣٠٠ الميلادي وبعد نقاشات طويلة (Rise Of Christianity p. 79).

فثبت من هذه الأقوال أن ولادة المسيح عليه السلام لم تكن في شهر ديسمبر.

بهذا الشرح، وهو شرح هام جدًّا، ومدعم بالأحداث المذكورة في التاريخ الرومي، ومؤيد بضوء روايات الإنجيل نفسه، تنحل قضية ذكر النخلة وثمرها في القرآن الكريم لدى حادث ولادة المسيح.

أحوال المسيح بعد الولادة:

يقول المفسرون أن مريم لما فرغت من الولادة وقويت على المشي جاءت قومَها محتضنة ابنها، فقالوا لها متّهمين إياها: ما هذه الفعلة الشنيعة التي فعلتها؟ فقالت: لا تسألوني، بل اسألوا هذا المولود. فتكلم المسيح وقال: أنا عبد الله ونبيه (ابن كثير).

وهذا يعني أن المسيح قد كذب في أول معجزة تُنسب إليه. ذلك أنه لم يكن نبيًّا آنئذ، ومع ذلك قال إنني نبي الله. قال إن الله تعالى أوصاني بالصلاة، مع أنه كان لا يصلي، وإنما كان عندئذ يبول ويتبرز في أسماله وينجسها. فكأن المسيح، بحسب المفسرين، بدأ يتدرب على قول الكذب وهو في حضن أمه، ففي السن الذي لم تفرض عليه الصلاة قال إني أصلي، وفي الوقت الذي كان لا يزال ناقص الوعي والإدراك قال إني قد بُعثتُ نبيًّا من الله تعالى. وحجة المفسرين على قولهم هذا هو قول الله تعالى ﴿تحملُه﴾ وقوله تعالى ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ (آل عمران ٤٧).

ويتضح من إنجيل متى أن المسيح قد زار أورشليم، التي كانت مدينته الأُمّ في المناطق المجاورة لها، مرتين؛ مرةً وهو في الثانية عشرة من عمره، وثانيةً وهو في الثاني والثلاثين من عمره (متى ٢١). ولا بد أن هذه المكالمة التي تمّتْ بينه وبين أقارب أمه قد حصلت في إحدى هاتين الزيارتين. ولكن لم يُذكَر عن المسيح حدثٌ ذو بال لدى زيارته الأولى حين كان سنّه اثني عشر، سوى أنه كان يصغي إلى حديث الكبار ويعاف اللعب واللهو. لذا يبدو أن هذه المكالمة التي جرت بينه وأهله كانت لدى سفره الثاني لأورشليم -التي كان أقاربه ساكنين في ضواحيها- حين زارها لنشر دعوته فيها، وقد زارها في حوالي السنة الثالثة من بعثته، حيث كان قد أعلن دعواه قبل ذلك بعامين (انظر متى ٢١). وإن هذه الكلمات التي عزاها القرآن إلى

المسيح تبدو ملائمة تمامًا بتلك المناسبة، ولكنها لا تنسجم إطلاقًا مع زيارته الأولى حين كان لا يزال صبيًّا.

فثبت أن قوله تعالى ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ (مريم: ٢٨) إشارة إلى تلك الحقبة من الزمن حين كان المسيح قد بلغ الثالثة والثلاثين من عمره، وكان قد أعلن دعواه. وهنا يطرح سؤال نفسه: ما هو المراد إذن من لفظ (تحمِله)؟ فإن الأم إنما تحمل طفلها حين يكون صغيرًا.

الجواب أنه مما لا شك فيه أن لفظ الحمل يعني احتضان المولود، ولكنه يعني المساندة والتأييد والنصرة أيضًا بدليل قوله تعالى في القرآن الكريم ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ (الجمعة: ٦).. فترى أن الله تعالى يقول هنا ﴿حُمّلوا التوراة﴾، ولكن هذا لا يعني أنه تعالى وضع التوراة على رؤوسهم، وإنما المعنى أنه أمرهم بتأييدها وتوقيرها. ثم يقول الله تعالى ﴿ثم لم يحمِلوها﴾.. وليس معناه أن كل يهودي نبذ التوراة من يده، إنما المراد أنهم تركوا تبليغ رسالة التوراة وتأييدها. فثبت أن الحمل يعني أحيانًا النصرة والتأييد والتشجيع ورفع المعنويات أيضًا. فالإنجيل يقول أن أم المسيح لم تؤمن به (مرقس ٣: ٣١-٣٥)، فالقرآن يفنّد بقوله تعالى ﴿فأتَتْ به قومَها تحمله﴾ التهمةَ التي قد ألصقها الإنجيل بأُمّ المسيح عليه السلام، وأخبر أنها جاءت مع المسيح تصدقه وتؤيده وتقول للناس: كيف تسمونه ولد الحرام؟ هل أولاد الحرام يكونون كمثل هذا الولد. تَكلّموا معه لتعرفوا أولدُ حرام هو أم ولد حلال؟

ثم يخبر الله تعالى أنهم ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ (مريم: ٢٨).. أي لقد ارتكبتِ فعلاً نجسًا، ولذلك بدأ ابنُك أيضًا يكذِب على الله تعالى. وكأنهم قالوا لها: لأنه ولد الحرام فلذلك يتكلم بمثل هذا الكلام.

بيد أني أرى أن هذه الآية تنطوي على مفهوم آخر أيضًا يدل على أنهم قد سموا مريم أخت هارون تعييرا بها وسخرية. ذلك لأن هارون كانت له شقيقة لم تكن

أختًا حقيقية لموسى. ويرى بعض المؤرخين أنها لم تكن أختًا غير شقيقة لموسى، بل كانت أختًا لزوجة موسى، وكانت تُدعى أيضًا مريم.

فأرى أن قول اليهود للسيدة مريم ﴿يا أختَ هارونَ﴾ كان على سبيل التعيير والسخرية، فقالوا يا مريم لقد ارتكبتِ جريمة بشعة تستحقين عليها عقابًا كالجذام مثل أخت هارون. فقد أثرتِ فتنة كالتي أثارتها مريمُ أختُ هارون. إنها اتهمتْ موسى بالفاحشة، وأما أنت فقد ارتكبت الفاحشة، مع أن أباك لم يكن من الأشرار، كما لم تكن أمك من المومسات. فما هذا الشر الذي أثرتِه؟

ولكن هناك نوع من المعجزات التي تقع لتقوية إيمان المؤمنين فحسب، وليس من الضروري إقناع الناس بها. إنها تظهر لزيادة إيمان المؤمنين فحسب، وتقع بحيث يصدقها المؤمن ولكن الكافر لا يقتنع بها.

ولما جاءت مريم مع المسيح إلى قومها قالوا يا مريم، كيف ارتكبت الفاحشة مع أنك من عائلة شريفة؟ فأومأت إلى المسيح. وهذا يعني أن مريم كانت تعرف أن المسيح سيرد عليهم حتمًا. وهذه الجملة أيضًا تفنّد موقف أولئك الذين يزعمون أن المسيح قد تكلم عندئذ كمعجزة. إذ كيف عرفت مريم أنه سيتكلم عندئذ؟ فقوله تعالى ﴿فأشارت إليه﴾ يدل بكل وضوح أن المسيح كان يتكلم من قبل أيضًا، ولذلك عرفت مريم أنه سيتكلم في تلك المناسبة أيضًا.

ولو قيل هنا أن مريم كانت قد أُخبرتْ سلفًا أنه ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً﴾ (آل عمران: ٤٧).. ولذلك أشارت إليه، فالجواب أن هذا الوحي الذي تلقته مريم عن كلام مولودها لا يحدّد المناسبة التي سيتكلم فيها الوليد، وإنما يخبر إنه سيكلّم الناس فقط. فلو كان هناك وعد إلهي لمريم بأن وليدها سيكلّم الناسَ دائمًا خلال فترة رضاعته لفهمنا أنه كان يكلم من قبل ولذلك أشارت إليه مريم في تلك المناسبة أيضًا. ولكن لا أحد يقول بكلام المسيح في زمن رضاعته قبل ذلك الحادث ولا بعده، فلا يمكن أن يكون الوعد الإلهي المذكور في سورة آل عمران هو الذي جعل مريم تشير إلى وليدها ليتكلم. بل الواقع أنها أشارت إلى وليدها دحضًا لطعن

اليهود الذين اتهموها بارتكاب الفاحشة وجلب العار على عائلتها وقومها؛ فردت على طعنهم بأن أشارت إلى ولدها وقالت يمكن أن تكلموه لتعرفوا هل هو حصيلة الفاحشة. لو صح ظنكم فكيف جاء هذا الطفل العظيم نتيجة الفاحشة؟ إن هذا الصبي في حد ذاته يمثل ردًّا مفحمًا على شبهاتكم ووساوسكم، ويبرئ ساحتي من تهمتكم.

أما قوله تعالى ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ (مريم: ٣٠)، فيقدَّم كدليل على كلام المسيح عليه السلام في بداية طفولته.

فليكن معلومًا بهذا الصدد أن المهد يُطلَق على زمن التحضير والإعداد أيضًا. يقول الله تعالى في القرآن الكريم ﴿ومهّدتُ لـــه تمهيدًا﴾ (المدّثّر: ١٥).. أي آتيتُ الكافر مالاً وثراء، وهيأت لرقيه وتقدُّمه أسبابًا كثيرة. فثبت أن كلمة المهد تُستعمل أيضًا لفترة التحضير والإعداد، وهو زمن الشباب، لأن الإنسان يستجمع فيه شتى القوى ليستهلكها في المستقبل. وهنا أيضًا قد استعمل القرآن لفظ ﴿المهد﴾ على سبيل الاستعارة بمعنى زمن الشباب. وإن كبار القوم يذكرون عمومًا شبابهم بمثل هذه الألفاظ، ولا يعنون بذلك أنهم لا يزالون في المهد والأرجوحة، وإنما المراد أنهم لا يزالون صغارًا جدًّا مقارنة بهم. فمثلاً كان عمر النبي ﷺ قرابة ستين سنة وقت صلح الحديبية، وكان قد دخل في الشيخوخة، ومع ذلك لما جاءه أحد رؤساء مكة الكافرين للتفاوض خاطب نبيَّنا ﷺ مرة بعد أخرى: يا ابني أنصحك أن ترضى بقولي. ذلك لأن هذا الرئيس كان يبلغ من العمر حوالي ثمانين سنة. فلا غرابة لو قال كبار القوم عن أحد: كيف نكلّمه وهو وليد الأمس. فاستنتاج بعض المسلمين بأنه كان بمثابة نبأ من الله تعالى بأن المسيح عليه السلام سيتكلّم في صغره وفي مهده المادي استنتاج خاطئ. ذلك لأن الله تعالى قد أضاف مع المهد ﴿كهلا﴾ أيضًا. فإذا كان كلام المسيح في المهد معجزة فهل كان كلامه في كهولته أيضًا معجزة؟ ألا يتكلم الناس في سنّ الكهولة.. أي ما بين ٣٣ إلى ٥٠ عامًا؟ هل يُعتبر كلام الكهل أيضًا من كبار المعجزات؟ إذًا فوجود لفظ ﴿كهلاً﴾ مع ﴿المهد﴾ يدل أن هذه الآية لا تشير

إلى معجزة كلامه في موعد خاص، وإنما إلى معجزة نوعية كلامه. لو كان المراد هنا كلامه في عمر معين لما أُضيف هنا كلمة ﴿كهلاً﴾. إذا كان الكلام في الكهولة يُعَدّ معجزة، فيمكن أن يعد الكلام في المهد أيضًا معجزة؛ أما إذا كان الكلام في الكهولة أمرًا عاديًا، فلا بد أن يراد بالمهد هنا ذلك السن الذي يتكلم فيه عامة الأولاد.

والجواب هو نفس ما ذكرته أعلاه بأن الكلام يكون في حد ذاته معجزة أيضًا بغض النظر عن العمر. فمثلا إن القرآن الكريم لمعجزة عظيمة جدًّا، ولكن هل نـــزل القرآن على النبي ﷺ وعمره شهرانِ أم أربعون عامًا؟ لقد بدأ نـــزوله على النبي ﷺ في سن الأربعين، واستمر نـــزوله حتى سن الثالثة والستين، ومع ذلك نعد هذا الكلام معجزة؟ فهل نعتبره معجزة لأنه نـــزل عليه ﷺ وسنُّه شهران وثلاثة أشهر؟ كلا، بل نعدّه معجزة لنوعية هذا الكلام؟ فإننا نؤمن بأن القرآن كلام عظيم منقطع النظير حتى إن العالم كله لعاجز عن أن يأتي بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا.

فالمراد أن المسيح سيتكلم كلامًا إعجازيًّا في زمن شبابه وإعداده، وكذلك في زمن كهولته. والحق أن الأنبياء كلهم يتكلمون بمثل هذا الكلام، لكونهم من المحبوبين المقربين لدى الله تعالى. فهذا هو رسولنا الكريم ﷺ الذي لم يزل يتكلم بكلام لا يبلغ شأوَه كلامُ المسيح ولا كلام موسى عليهما السلام؛ إذ لا قيمة للتوراة والإنجيل إزاء القرآن الكريم؟ مع أنه ﷺ قد تكلم بهذا الكلام منذ سن الأربعين. فالله تعالى وحده الذي كان قادرًا على أن يخبر إذّاك أن المسيح سيتكلم بمثل هذا الكلام العظيم. إذًا فالمعجزة لا تكمن في أن يتكلم ولد سنه شهران، وإنما تكمن في المزايا والمحاسن التي يتسم بها هذا الكلام. فلا داعي لتفسير لفظ ﴿في المهد﴾ بأن المسيح تكلم في صغره، بل إذا كان قد تكلم في شبابه بما ليس في وسع الإنسان العادي أن يتفوه به فكان ذلك أيضًا معجزة. شأنه شأن رسولنا الكريم ﷺ الذي تكلم بالقرآن في سن الأربعين، ومع ذلك كان كلامه معجزة منقطعة النظير. فكما أن كلام النبي ﷺ وموسى وغيرهما من الأنبياء في السن المتقدمة كلامًا إعجازيًّا، وكان الله تعالى وحده القادر على التنبؤ بنوعية كلامهم، كذلك الحال بالنسبة لكلام المسيح. فثبت أن الله

تعالى ما أنبأ عن كلام المسيح لأنه سيتكلم في المهد، وإنما أنبأ بذلك نظرًا إلى نوعية كلامه إذ سيكون متحلّيًا بصفة الإعجاز، ومن أجل ذلك ذكر الله تعالى مع المهد كلمة الكهل أيضًا؛ ذلك لأن الكلام الخاص كما يكون إعجازيًّا في الشباب يكون إعجازيًّا في الكهولة والشيخوخة أيضًا.

ثم إن كل ما قاله يصبح كذبًا وزورًا. يقول إني عبد الله، وأؤدي الصلاة، مع أنه لم يكن يقوم عندئذ بأي عبادة، بل لو أنه بدأ الصلاة وفق ادعائه هذا، لرمَتْه أُمُّه بعيدًا وذهبت، ليظل ملطخًا بنجاساته طوال النهار.

ثم يقول ﴿آتاني الكتابَ﴾. وأي كتاب أعطاه الله في ذلك الوقت، يا ترى؟

ثم يقول ﴿وجعلني نبيًّا﴾، مع أن هذا كذب، لأنه لم يكن قد بُعث نبيًّا في ذلك الوقت.

ثم يقول ﴿وجعلني مباركًا أينما كنتُ﴾ (مريم: ٣٢). كان لا يستطيع المشي أيضًا، بل كانت أمه تحتضنه هنا وهناك، ومع ذلك يقول إن بركة الله معي أينما ذهبتُ!

ثم يقول ﴿وأوصاني بالصلاة﴾، مع أنه كان لا يقدر على أن يتطهر من نجاسته، بل كان الآخرون يقومون بتنظيفه وتطهيره. ثم إنه كان لا يعرف عندها كيف يصلي؟

ثم قال وأوصاني الله بـ ﴿الزكاة﴾. كانت أمه هي التي تصنع له الخِرَق والأسمال، ومع ذلك يقول إن الله تعالى أمرني بأداء الزكاة.

وثم قال ﴿وبَرًّا بوالدتي﴾.. أي جعلني الله مطيعًا لأمي. متى كان بوسعه عندها أن يطيع أُمَّه؟ بل بالعكس كانت تسقيه لبنها، وتحمله هنا وهناك؛ وتبيت لياليها ساهرةً على راحته.

ثم قال ﴿ولم يجعَلْني جبّارًا شقيًّا﴾. كان يبكي لو قرصه أحد قرصة بيده، فأنّى له أن يكون عندئذ جبارًا شقيًّا. إذًا فلو سلّمنا بأنه قد تكلم بهذا الكلام في صغره لعُدَّ كلامه هذا كله كذبًا وزورًا.

الحقيقة أن السيدة مريم ظلت مقيمة في مكان خارج مدينتها بعد ولادة المسيح لمدة طويلة، ولما بلغ الثلاثين من عمره (لوقا ٣: ٢٣) وشرفه الله تعالى بالنبوة رجعت معه إلى قومها. ويبدو أن أقاربها المشاكسين ظلوا متربصين بها، فلم ينفعها غيابها عن المدينة، واطلع هؤلاء على السر الذي حاولت كتمانه، أو أن الله تعالى نفسه أراد أن يفشو سرها لتزداد المعجزة جلاء وعيانًا... فلما رجعت ورأوا معها مولودها المشهور الخبر عيّروها به. فما استطاعت الرد عليهم خجلاً، بل ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ (مريم: ٣٠). ولكن الولد أصبح الآن شابًّا، وقد صار نبيًّا، فرد عليهم وقال: ما هذا الهراء الذي تهذون به. ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ (مريم: ٣١).. أي أنني إنسان متخلق بأخلاق الله، وإن صفاته تعالى تنعكس في أعمالي وتصرفاتي. وقد أعطاني الله الكتاب، وبعثني نبيًّا. فهل مثلي يكون من أولاد الحرام؟

ثم قال ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (مريم: ٣٢). فلو قلنا أنه قد نطق بهذا الكلام وهو طفل رضيع، فهذا يعني أنه كان في أيام رضاعته يتجول في المدينة هنا وهناك، ويؤدي الصلوات، ويؤتي الزكاة، مع أنه أمر لا يعتقد به أي من المسلمين ولا النصارى.

ولكن المسيح عليه السلام لو لم يتفوه بكل "هذه الأباطيل"، وإنما اكتفى بقوله: يا عم، لِمَ تظلم أُمّي، وما هذا الهراء الذي تهذي به ضدها، لهرب عنه أحبار اليهود ورهبانهم. إذاً فإن هذه الدعاوى العريضة لا تترك هذا الحدث معجزة أبدًا، وإنما تجعله كذبًا صريحًا لا يمكن أن يقتنع منه العدو أبدًا.

فليس المراد من ﴿المهد﴾ هنا زمن الطفولة والصغر، وإنما قد تكلم المسيح بهذا الكلام فيما بعد حين بلغ ثلاثين سنة أي قبل الكهولة التي هي ما بين سن الثلاثين إلى الخمسين حيث تبدأ بعده الشيخوخة. لقد بُعث المسيح نبيًّا في سن الثلاثين، وبقي في وطنه حتى الثالثة والثلاثين من عمره. فتكلم مع أهل وطنه في المهد والكهولة، أما في الشيخوخة فتكلم مع أهل البلاد الأُخرى.

مقارنة بين الإنجيل والقرآن الكريم:

والواقع أننا عندما نقرأ الإنجيل بإمعان وتدبر نجد أن عقائد المسيحيين إنما هي حصيلة سوء الفهم، وأن ما يقوله القرآن الكريم هو الحق والصواب، وإليك بيان ذلك.

الأمر الأول: إن أول ما نسبه القرآن الكريم هنا إلى المسيح هو قوله ﴿إني عبد الله﴾. فلو أن الإنجيل قال أيضًا إن المسيح عبد الله لثبت أن القرآن على الحق. فنتوجه أولاً إلى هذا الأمر ونقدم على صدق بيان القرآن العبارة التالية من الإنجيل:

"ثم أُصعِد يسوع إلى البرية من الروح ليجرَّب من إبليس. فبعد ما صام أربعين نهارًا وأربعين ليلة جاعَ أخيرًا، فتقدَّمَ إليه المجرِّب وقال لــه: إن كنتَ ابن الله فقُلْ أن تصير هذه الحجارة خبزًا؟ فأجاب وقال: مكتوب ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة تخرُج من فم الله. ثم أخذه إبليسُ إلى المدينة المقدسة وأوقفه على جناح الهيكل وقال لــه: إن كنتَ ابن الله فاطرَحْ نفسك إلى أسفل لأنه مكتوب أنه يوصي ملائكته بك، فعلى أياديهم يحملونك لكي لا تصدم بحجر رِجلَك. قال لــه يسوع: مكتوب أيضًا: لا تجرّب الربَّ إلهَك. ثم أخذه أيضًا إبليسُ إلى جبل عال جدًّا وأراه جميع ممالك العالم ومجدها وقال لــه: أُعطيك هذه جميعَها إنْ خررَتَ وسجدتَ لي. حينئذ قال لــه يسوع: اذهبْ يا شيطانُ، لأنه مكتوب: للرب إلهِك تسجد، وإياه وحده تعبد.

(أقول: إن هذه الفقرة تبين أنه بالرغم أن المسيح لم يسجد للشيطان إلا أن أُمّته سيسجدون للشيطان في آخر المطاف، لأن الإنجيل يخبر أن مُلك الدنيا يتيسر نتيجة السجود للشيطان).

ثم تركه إبليس، وإذا ملائكة قد جاءت، فصارت تخدمه" (متى ٤: ١- ١١).

كم هي مفصلة وصريحة هذه الفقرة في دلالتها على كون المسيح واحدًا من البشر! فإن أول ما ورد هنا أن الشيطان جاء لاختباره، ولا أحد من العقلاء يمكن أن يصدق أن الشيطان الذي جاء لاختبار المسيح كان لا يعرف من هو الإله، وما هي

صفاته، وما قدرته. فحيثما ذُكر الشيطان في الكتاب المقدس نعرف منه أن الشيطان كائن متمرد، لم تتيسر له معرفة الله تعالى كاملةً، ولكنا نعرف من بيان الكتاب المقدس أيضًا أن الشيطان كان يعرف من هو الإله، وما هي صفاته وقدراته. فذهاب الشيطان إلى المسيح لاختباره، رغم معرفته أن اختبار الله تعالى محال، يكشف بجلاء أن الشيطان كان يعلم أن المسيح ليس بإله، وإلا فما الحاجة لأن يذهب لاختبار الإله؟ ثم ورد أن المسيح: "بعد ما صام أربعين نهارًا وأربعين ليلة جاعَ أخيرًا". فلو كان المراد من صيامه أربعين نهارًا وليلة أنه لم يأكل في كل هذه المدة فلا غرابة في ذلك، فإن السيد "غاندي"* كان يصوم شهرين متتابعين.

ثم إن الإنجيل يذكر هنا فقط جوعه دون العطش، وهذا يعني أن صيام المسيح كان عبارة عن الامتناع عن أكل الطعام دون الشراب، كما كان السيد "غاندي" يفعل حيث كان لا يأكل الطعام خلال صيامه، ولكن كان يشرب الماء وعصير الفواكه!

على أية حال، إن الإنجيل يخبرنا أنه لما انتهى صوم المسيح جاع، وجوعه يدل على أنه كان إنسانًا، وليس إلهًا لأن الجوع إنما يصيب الإنسانَ وليس الإلهَ. يقول المسيحيون على ذلك أن المسيح كان في الجسد الإنساني لذا كان بحاجة إلى الحوائج البشرية.

ولكنا نحن المسلمين نرى أن جسد المسيح كان جسدَ بشرٍ كما أن روحه أيضًا كانت روحَ بشرٍ. ونقول للمسيحيين: لقد أقررتم على الأقلِّ بكون جسد المسيح جسدًا بشريًّا. وبقي الآن السؤال: هل كان في المسيح روح بشر أم روح إله؟ والجملة التالية تجيب على ذلك حيث ورد أن الشيطان قال له: "إن كنتَ ابن الله فقُلْ أن تصير هذه الحجارة خبزًا؟ فأجاب وقال: مكتوب ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة تخرُج من فم الله."

---

* زعيم سياسي هندوسي شهير. *(المترجم)*

والبيّن أن تحويل الحجارة إلى خبز هو في قدرة الله وليس في مقدرة الإنسان. ولذلك قال الشيطان ليسوع: ما دمتَ تدعي أنك ابن الله، والناس أيضًا يظنون أنك كائن خارق، فحوِّلْ هذه الحجارة خبزًا. ولكن المسيح لم يقدر على ذلك. وهذا يدل على أنه لم يملك أي قدرة كقدرة الله تعالى.

ويقول المسيحيون على ذلك: إن عدم تحويله الحجارةَ إلى خبز ليس دليلاً على أنه لم يملك أي قدرة كقدرة الله تعالى، لأن الأمر كان يتوقف على مشيئة المسيح. فإنه لو شاء لحوّل الحجارة خبزًا، ولكن لم يرد ذلك، فلم تتحول الحجارة خبزًا. فإذا كان المسيح لم يُرِ معجزة تحويل الحجارة خبزًا فليس في ذلك دليل على عجزه، وإنما المراد منه أنه لما رأى جسارة الشيطان ووقاحته رفض طلبه قائلا: من أنت حتى تأمرني بهذه الأوامر. فاخسأْ عني، فإني لن أحوّل الحجارة خبزًا.

والأغرب من ذلك أن المشايخ يقولون أن الشيطان لم يمس المسيح عندما كان وليدًا، بينما يعلن الإنجيل أن المسيح كان يسير مع الشيطان حتى بعد بلوغه سن الرشد والعقل، وليس لدقيقة أو دقيقين، بل أربعين يومًا بدون انقطاع.

ثم إن من أكبر صفات الإله معرفة علم الغيب، ولا بد لمدعي الألوهية من أن يعلم الغيب. ولكن المسيح يقول: "وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد، ولا الملائكة الذين في السماء، ولا الابن، إلا الآبُ" (مرقس ١٣: ٣٢).

وكذلك ورد في الإنجيل: "وفيما هو خارج إلى الطريق ركَض واحد وجثا له وسأله: أيها المعلِّم الصالح، ماذا أعمل لأرِث الحياةَ الأبدية؟ فقال له يسوع: لماذا تدعوني صالحًا. ليس أحد صالحًا إلا واحد وهو الله." (مرقس ١٠: ١٧-١٨).

لقد قام المسيح عليه السلام هنا باثنين من الدعاوى:

أولهما: ليس أحد صالحًا إلا الله. والثانية: أن المسيح ليس صالحًا؛ والنتيجة الحتمية لذلك واحدة وهي أن المسيح لم يكن إلهًا. فسواء أن استعملتم الكلية الصغرى للمنطق أم الكلية الكبرى فلن تتوصلوا إلا إلى هذه النتيجة. فثبت جليًّا أن المسيح عليه السلام يعترف هنا بكونه إنسانًا.

كذلك ورد في الإنجيل أن الناس جاءوه بامرأة وقالوا لقد أمسكها القوم وهي تزني، وعقاب الزانية هو الرجم بحسب شرع موسى، وقد جئناك بها، فماذا ترى أنت؟ فقال لهم المسيح: من كان منكم بلا إثم فليتقدم وليَرْمِها قبل الجميع. فلما سمعوا هربوا جميعًا. فقال المسيح للمرأة: أين هؤلاء الذين أدانوكِ. قالت: لقد هربوا. قال: اذهبي، فأنا أيضًا لا أدينك.

فترى أن الكتبة والفريسيين يقولون إن شريعة موسى تأمر برجم مثل هذه المرأة، ولكن المسيح يقول لهم: يجب أن يرجمها أولاً من ليس لـــه خطيئة. فلما فر الجميع من هناك قال المسيح لها: أنا الآخر لا أدينك. وهذا يعني أنه يعلن هنا أنه هو الآخر ليس مبرأً من الإثم. فثبت أن المسيح اعترف بكونه غير مبرّأ من الإثم، وبتعبير آخر، بكونه عبدًا من عباد الله تعالى.

الأمر الثاني: والأمر الثاني الذي عزاه القرآن الكريم هنا إلى المسيح عليه السلام أنه قال لقومه إن الله تعالى قد ﴿آتانِيَ الكتابَ﴾. ونقرأ في الإنجيل قول المسيح: "لستُ أفعل شيئًا من نفسي، بل أتكلم بهذا كما علّمني أبي" (يوحنا ٨: ٢٨). فثبت بذلك أن المسيح عليه السلام لم يعرض على الناس أي تعليم من عند نفسه، بل كل ما عرضه عليهم كان مما علمّه الله تعالى، حيث يقول إنني لا أقول شيئًا من عندي، بل أقول لكم ما علمني أبي؛ إذ لا يحق لي أن أقول من عند نفسي شيئًا.

ويقول المسيح عليه السلام أيضًا: "لا تظنوا أني جئتُ لأنقُض الناموسَ أو الأنبياء. ما جئتُ لأنقُض بل لأكمِّل. فإني الحقَّ أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكلُّ" (متى ٥: ١٧-١٨). هذه الفقرة تكشف جليًّا أن المسيح عليه السلام قد بُعث إلى اليهود لترويج التوراة بينهم. فثبت أن ما عزاه القرآن إلى المسيح بأنه قال إن الله تعالى ﴿آتانِي الكتابَ﴾ صدق وحق تمامًا. لقد قال عليه السلام ﴿آتانِي الكتابَ﴾ لأنه كان مأمورًا بالعمل بكتاب نبي سابق ودعوة الآخرين إلى العمل به، وأيضًا لأنه كان يتعلم التفسير الصحيح لذلك الكتاب السابق من خلال وحي الله تعالى. هذان الأمران كلاهما ثابتان من

الإنجيل، فقد أعلن المسيح الطَّيِّلاِ أنه لم يأت إلا لترويج التوراة ودعوة الناس إلى العمل بها، كما أكد أنه لا يعرض على الناس شيئًا من عنده، وإنما يقول لهم ما يعلّمه الله تعالى.

الأمر الثالث: ثم يعلن القرآن الكريم أن المسيح الطَّيِّلاِ قال ﴿وجعَلني نبيًّا﴾.. أي أنه أخبر الناس أنه نبي من عند الله تعالى. وهذا أيضًا ثابت من الإنجيل حيث ورد فيه قول المسيح: "والذي أرسلني هو معي، ولم يتركني الآبُ وحدي، لأني في كل حين أفعل ما يرضيه" (يوحنا ٨: ٢٩). ثم ورد في الإنجيل أن الفريسيين لما قالوا للمسيح: "لنا أب واحد هو الله. فقال لهم يسوع: لو كان الله أباكم لكنتم تحبّونني لأني خرجتُ من قِبل الله وأتيتُ، لأني لم آتِ من نفسي، بل ذاك أرسلني." (يوحنا ٨: ٤١-٤٢).

إن قوله الطَّيِّلاِ "ذاك أرسلني" لبرهان ساطع على نبوّته ورسالته. إذًا فقد ثبت من هذه الفقرة أيضًا أن ليس في تسمية المسيح الطَّيِّلاِ نفسَه "ابن الله" أي دليل على ألوهيته، لأن اليهود أيضًا كانوا يسمّون أنفسهم أبناء الله تعالى حيث يقول الفريسيون هنا: "لنا أب واحد هو الله." فلم يكن للمسيح أي خصوصية في كونه ابن الله، إذ كان هذا التعبير شائعًا بكثرة بين اليهود حتى سموا أنفسهم أبناء الله تعالى. ولا غرابة في شيوع مثل هذه التعابير بينهم، لأن الذين في قلوبهم حب صادق لله تعالى، والذين لا يتهافتون على المتع المادية، بل يرغبون في الوصال بالله تعالى رغبة صادقة، فإنهم يرون الله تعالى على صورة الأم والأب عند استيلاء مشاعر الحب الإلهي عليهم؛ بل إن الله تعالى نفسه يتجلى أحيانًا لعباده المصطفين الأخيار في رؤاهم وكشوفهم على صورة الأم أو الأب. لقد كتب سيدنا المسيح الموعود الطَّيِّلاِ أني رأيت الله تعالى على صورة أبي (جريدة "الحَكَم" عدد ١٩٠٢/٥/١٠ ص ٧). وأنا أيضًا قد رأيت الله تعالى ذات مرة على صورة أمي - رضي الله تعالى عنها. فعباد الله الذين يخلصون حبهم لله تعالى يرون ربهم كالأب والأم عند فورة مشاعر الحب الإلهي. كما أن الله تعالى حينما يبدي لهم حبه من خلال الكشوف والرؤى فإنما

يتجلى عليهم عادةً على صورة الأب والأم. أما السؤال: متى يتجلى في صورة الأب ومتى يظهر في صورة الأم فهو سر دقيق من الأسرار الروحانية. إن كل واحد من الأبوين يُعَدّ رمزًا للحب، غير أن هناك فرقًا بين حبهما، فحب الأُمّ له لون، ولحب الأب لون آخر، كما أن مسئوليات الأم مختلفة عن واجبات الأب. فإذا أراد الله تعالى أن يلفت نظر الإنسان إلى حب كحب الأم ومسؤوليات كمسؤولياتها فإنه يتجلى عليه على شكل أمه؛ وإذا أراد ﷻ لفت أنظار الإنسان إلى محبة كمحبة الأب وواجبات كواجباته فإنه يظهر عليه على شكل أبيه. ولما كان الأتباع والمؤمنون يسمعون من أنبيائهم أن الله تعالى يحبهم كحب الأمهات والآباء، فيستخدم هؤلاء أي الأتباع أيضًا مثل هذه الكلمات تقليدًا بأنبيائهم. وهذا ما حدث باليهود أيضًا. فلما بُعث فيهم الأنبياء، وأكثروا أمامهم من ذكر حب الله لهم ولطفه بهم، وقالوا إن الله تعالى يحبنا كحبّ الأم لابنها أو كحبّ الأب لابنه، جعل اليهود أيضًا يسمون الله أبًا لهم. وقد استخدم المسيح عليه السلام أيضًا التعبير نفسه، فقال إن الله أبي.

ثم قال المسيح عليه السلام: "لأني لم آتِ من نفسي، بل ذاك أرسلني." وهذا دليل بيّن على أن المسيح لما قال إني ابن الله فإنما قاله بمعنى أنه مرسل من عند الله تعالى.

أما النبوءة التي قد أشار إليها المسيح عليه السلام هنا فقد قال فيها إشعياء النبي: "روحُ السيّدِ الربِّ عليَّ، لأن الربَّ مسَحني، لأبشّر المساكينَ. أرسَلني لأعصِبَ منكسري القلبِ، لأنادي للمَسْبيِّين بالعتق وللمأسورين بالإطلاق. لأنادي بسَنة مقبولة للرب وبيوم انتقامٍ لإلهنا. لأعزّيَ كلَّ النائحين، لأَجعَلَ لنائحي صِهْيَون، لأعطيهم جمالاً عوضًا عن الرماد، ودُهْنَ فرحٍ عوضًا عن النَّوح، ورداءَ تسبيح عوضًا عن الروح اليائسة، فيُدعَون أشجارَ البرِّ غَرْسَ الربِّ للتمجيد" (إشعياء ٦١: ١-٣).

فيرى المسيحيون أن نبوءة إشعياء النبي هذه تنطبق على المسيح عليه السلام. فإذا صحّ ذلك فقد ثبت أن الموعود في هذه النبوءة ليس بإله بل إنسان، كما تدل على ذلك كلمة "أرسلني" التي ترادف ما ذكره القرآن على لسان المسيح ﴿وجعَلني نبيًّا﴾.

ثم ورد في إنجيل متى: "ولما دخل أورشليمَ ارتجّت المدينة كلُّها قائلةً: مَن هذا؟ فقالت الجموع: هذا يسوع النبي الذي من ناصرة الجليلِ" (متى ٢١: ١٠-١١).

ويقول يوحنا في إنجيله إن المسيح الطَّيْكِلاَ ذهب ذات يوم إلى الهيكل وأخذ يعلّم القومَ، فتعجب اليهود وقالوا: كيف صار عالمًا بدون أن يتعلم. فقال المسيح لهم: "تعليمي ليس لي، بل للذي أرسلني" (يوحنا ٧: ١٤-١٦).

فهنا أيضًا قد أعلن المسيح الطَّيْكِلاَ أنه رسول من الله تعالى. ذلك أن كمال الله تعالى كمال ذاتي، ولو كان المسيح إلهًا أو ابن الإله فكان لزامًا أن يتصف بهذه المعارف ككمال ذاتي؛ ولكنه يقر هنا بأنه ليس فيه أي كمال ذاتي، بل إن الله تعالى هو الذي بعثه، وليس هذا التعليم إلا من عنده تعالى.

ثم يضيف المسيح الطَّيْكِلاَ ويقول: "إن شاء أحد أن يعمل مشيئتَه يعرف التعليم: هل هو من الله أم أتكلم أنا من نفسي" (يوحنا ٧: ١٧).. أي أن الباحثين عن الحق بصدق لو فحصوا الأمر لعلموا أن هذا التعليم ليس مني، بل هو من ربي.

وهذا الدليل نفسه يقدمه المسيح الطَّيْكِلاَ هنا ويقول: "وأيضًا في ناموسكم مكتوب أن شهادة رجُلَين حق. أنا هو الشاهد لنفسي، ويشهد لي الآبُ الذي أرسلني". أما إذا ظننا أن قوله "أنا هو الشاهد لنفسي" يعني أنني ما دمتُ أنا أقول إني صادق، فلا شك في صدقي، لاختلت الموازين وعمّت الفوضى. فمتى يحق لشخص متّهَم بجريمة أن يقول للمحكمة: إني صادق لأني أنا الشاهد لنفسي، والشاهد الثاني هو الله تعالى؟ إنه لو قال ذلك لضحك الجميع عليه. فثبت أن المسيح الطَّيْكِلاَ قد قدم هنا الدليل الذي قد صار مثلاً سائرًا أعني قولهم إن الشمس نفسها دليل على طلوعها. إن المسيح الطَّيْكِلاَ لا يقدم شخصه هنا دليلاً على صدقه، وإنما يتحدى القوم بناء على حياته السابقة لدعواه. غير أن هذا يؤكد في كل حال أنه الطَّيْكِلاَ كان عبد الله ورسوله، ولم يدّع الأُلوهية قط.

ثم ورد هذا المعنى نفسه في مكان آخر من الإنجيل حيث جاء: "لأن يسوع نفسه شهد أنه ليس لنبيٍّ كرامةٌ في وطنه" (يوحنا ٤: ٤٤). فترى أن المسيح قد سمى نفسه

هنا نبيًّا بكل صراحة وجلاء، إذ يقول لا يهان النبي إلا في وطنه وبين أقاربه وأهل بيته. وهذا يعني أيضًا أن بعض أقاربه أيضًا كانوا يعارضونه حتمًا.

ويقول الإنجيل أيضًا: "قالت لــه المرأة: يا سيد، أرى أنك نبي" (يوحنا ٤: ١٩). وهذا يعني أن الناس أنفسهم كانوا يسمونه نبيًّا كما كان نفسه يفعل. ولكن المسيحيين اليوم يسمونه إلهًا.

الأمر الرابع: بعد ذلك قال القرآن الكريم هنا على لسان المسيح ﷺ ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ (مريم: ٣٢). وهذه الألفاظ أيضًا تدل على أن المسيح ﷺ كان بشرًا. ذلك لأن الله تعالى صاحبُ البركة في حد ذاته، أما الإنسان فإنما ينال البركة من عند الله تعالى. فالله مبارِك، والإنسان مبارَك. إن أحد أبنائي أيضًا يدعى "مبارَك"، وعندما يناديه أحد بالخطأ "مبارِك" أقوم بتصويب خطئه وأقول لــه: إنه "مبارَك"، وليس مبارِك، لأن الله تعالى هو المبارِك. وهنا يعلن المسيح ﷺ أن الله تعالى قد جعلني مبارَكًا، فالذي يكون مبارَكًا لا بد أن يكون بشرًا، إذ ليس بوسع أحد أن يهب البركةَ لله تعالى. إن قوى الله وقدراتها كلها ذاتية، إذ لا يكتسب ﷻ أي قوة من غيره. فلو ثبت أن المسيح ﷺ كان مبارَكًا.. أي كان لا يهب البركة بل كان يسأل البركة من الله ﷻ.. لثبت أيضًا أنه كان بشرًا.

ثم ورد في الإنجيل أن المسيح ﷺ جاءه ذات مرة زوّار كثيرون، ومعه تلاميذه: "فأمَرهم أن يجعلوا الجميعَ يتّكئون رِفاقًا رِفاقًا على العشب الأخضر. فاتَّكأوا صفوفًا صفوفًا مئةً مئةً وخمسين خمسين. فأخَذ الأرغفةَ الخمسةَ والسمكتين، ورفَع نظرَه نحو السماء وبارك*. ثم كسَّر الأرغفةَ، وأعطى تلاميذَه ليقدّموا إليهم. وقسَّم السمكتين للجميع. فأكل الجميعُ وشبِعوا" (مرقس ٦: ٣٩-٤٢).. أي أن المسيح قد طلب

* علمًا أنهم قد حرفوا الترجمة العربية هنا فقالوا أن المسيح "بارَك"، ولكن قد ورد في النسخ الأردية والإنجليزية أنه *"دعا للبركة" (المترجم).*

البركة من الله تعالى رافعًا وجهه إلى السماء، فأنـــزل الله تعالى البركة في الطعام. فترى أن مرقس قد اعترف هنا أن الله تعالى مبارِك وأن المسيح ﷺ مبارَك.

فترى هنا أيضًا أن المسيح ﷺ سأل البركة ثم كسّر الخبز. علمًا أن هذا الحدث هو الأساس لعبادة العشاء الرباني لدى المسيحيين.

الأمر الخامس: بعد ذلك يقول القرآن الكريم إن المسيح ﷺ قال ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ﴾ (مريم: ٣٢). وهذه الصفة أيضًا تختص بالبشر، إذ ليس هناك من يوصي اللهَ تعالى ويأمره بشيء، كما أنه لا مجال لأن يؤدي الله تعالى الصلاة. ثم إن الإنجيل أيضًا يؤكد أداء المسيح الصلاةَ حيث ورد: "وفيما هو يصلّي على انفراد كان التلاميذ معه، فسألهم قائلا: مَن تقُول الجموعُ أني أنا؟" (لوقا ٩: ١٨).

لقد اتضح من هذه الفقرة جليًّا أن المسيح ﷺ كان معتادًا على الدعاء، وكان يدعو عادةً من أجل رقيه ونجاح دعوته. ذلك لأن قوله: "مَن تقُول الجموع أني أنا؟" يوضح أنه كان دائم التفكير فيما يظن الناس به، فهل يعتبرونه صادقًا أم كاذبًا؟ فثبت أن المسيح ﷺ كان يدعو لنجاح دعوته وانتشار جماعته.

ثم ورد في الإنجيل: "وإذْ كان يصلي في موضع لما فرَغ قال واحد من تلاميذه: يا ربُّ، عَلِّمْنا أن نصلي كما علّم يوحنا أيضًا تلاميذَه. قال لهم: متى صلّيتم فقولوا: أبانا الذي في السماوات، ليتقدسْ اسمُك، ليأت ملكوتُك، لتَكُنْ مشيئتُك كما في السماء كذلك على الأرض. خُبْزَنا كَفافَنا أَعْطنا كل يوم. واغفـــرْ لنا خطايانا لأننا نحن أيضًا نغفر لكل مَن يُذنِب إلينا. ولا تُدخِلْنا في تجربة، لكن نَجِّنا من الشرير" (لوقا ١١: ١-٤).

لقد اتضح من هذا أيضًا أن المسيح ﷺ كان معتادًا على الدعاء. وإن جملة "وإذْ كان يصلي في موضع لما فرغ" تدل على أنه كان يدعو في مكان ما في خلوة، فتأثر أتباعه من بكائه وابتهاله في الدعاء، فسألوه أن يعلّمهم ماذا يقولون في دعائهم. فعلّمهم هذا الدعاء.

فما أعظمَه وأوضحَه من برهان على صدق ما قاله القرآن الكريم على لسان المسيح عليه السلام (وأوصاني بالصلاة). ذلك لأن "أوصاه بكذا" يعني عهِد إليه (الأقرب) أي أمره بالقيام به دائمًا.

والزكاة هو الشيء الثاني المذكور هنا على لسان المسيح عليه السلام: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾(مريم: ٣٢). وليكن معلومًا عن الزكاة أن مهمة الأنبياء إنما هي أن يوزعوا على الناس كل ما حباهم الله تعالى به من النعم. فالحق أن المراد من إخراج الأنبياء للزكاة هو حثُّهم أتباعَهم على أدائها.

ورد في الإنجيل أن الفريسيين جاءوا المسيح عليه السلام وقالوا لـــه: أيجوز أن تُعطَى جزيةٌ لقيصرَ؟ وكان غرضهم من ذلك أنه إذا أجاب بالإيجاب فيثيرون القومَ ضده بحجة أنه يتملق للحكومة ويأمرهم بأداء الجزية لها، أما إذا أجاب بالنفي فيثيرون الضجة بأن المسيح قد تمرد على الحكومة... ففطِن المسيح عليه السلام لنواياهم الخبيثة حيث ورد: "فعلِم يسوعُ خبثهم وقال: لماذا تجرّبونني يا مُراؤون؟ أَرُوني معاملة الجزية. فقدَّموا لـــه دينارًا، فقال لهم: لمن هذه الصورة والكتابة؟ قالوا لـــه: لقيصر. فقال لهم: أَعْطُوا إذًا ما لقيصرَ لقيصرَ وما لله لله. فلما سمعوا تعجّبوا وتركوه ومضوا" (انظر متى ٢٢: ١٨-٢٢). لقد تبينَ من ذلك أن المسيح عليه السلام قد أقرّ بقانون إخراج حق الله تعالى من المال، وهذا هو ما يسمى الزكاة.

بعد ذلك يحكي لنا القرآن الكريم قول المسيح عليه السلام ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ (مريم: ٣٣).. أي لقد جعلني الله تعالى محسنًا إلى أمي. وهذا ما يؤكده الإنجيل أيضًا حيث جاء: "ثم نـــزل معهما (أي مع أمه وزوجها)، وجاء إلى الناصرة، وكان خاضعًا لهما. وكانت أمُّه تحفَظ جميعَ هذه الأمور في قلبها" (لوقا ٢: ٥١). فثبت أن المسيح عليه السلام كان مطيعًا لأمه.

ثم يقول القرآن الكريم على لسان المسيح عليه السلام ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ (مريم: ٣٣). ولفظ "الجبّار" من الأضداد. فمن معانيه إصلاح الشيء المكسور، وأيضًا التعالي بهضم حق الغير وإهانته. فكأن من الناس من ينال الرفعة والعظمة

بطريق مشروع، ومنهم من يحاول الصعود بإسقاط الآخر وإهانته. وهذا يعني أن الله تعالى إذا وُصف بكونه "جبّارًا" فالمعنى أنه تعالى يُصلح ما فسد ويجبر ما كُسر، وحين يوصف الإنسان بكونه جبارًا فالمراد أنه يريد الصعود بظلم الآخرين وإسقاطهم. إذًا فالجبار من الناس من ليس حليمًا ولا رؤوفًا بالناس. وعليه فيعني قول المسيح ﷺ ﴿ولم يجعَلْني جبّارًا شقيًّا﴾ أن الله تعالى قد هذّب أخلاقي وجعلني حليمًا ومحبًّا للناس.

ونجد في الإنجيل بهذا الشأن قول المسيح ﷺ: "احمَلوا نيِري عليكم وتعلَّموا مني، لأني وديعٌ ومتواضع القلب، فتجِدوا راحةً لنفوسكم، لأَن نيري هيِّنٌ، وحملي خفيف" (متى ١١: ٢٩).

والوصف الثاني الذي وُصف به المسيح ﷺ هنا في القرآن الكريم هو عدم الشقاوة. والشقاوة ضدُّ السعادة. علمًا أن هناك من الكلمات التي يتضح مرادها بذاتها، ولكن هنا بعض الكلمات التي لا يتضح مفهومها إلا بأضدادها مثل الشقي والسعيد.

فلنرجع الآن إلى الإنجيل لنعرف موقفه من بيان القرآن هذا. لقد ورد فيه قول المسيح ﷺ: "قد كلّمتُكم بهذا ليكون لكم فيَّ سلام. في العالم سيكون لكم ضيقٌ، ولكن ثِقُوا أنا قد غلبتُ العالَمَ" (يوحنا ١٦: ٣٣). أي ستحل بكم المصائب، حتى سيتمنى الناس أن يسحقوكم، ولكن كونوا على يقين أنني أنا الغالب في آخر المطاف.

إن كل نبي جاء إلى الدنيا قد عرض على العالم الدعوى نفسها، فقال أنا الغالب في نهاية الأمر، وليس لكل من يتصدى لي إلا الفشل. ولكن الغريب أن الناس يثورون غضبًا عندما نقول لهم نحن المسلمين الأحمديين الكلام نفسه، فيقولون كيف يمكنكم أن تقولوا إنكم الغالبون في النهاية. هذا على الرغم أن المدعين الكاذبين أيضًا يعلنون أن الفتح لهم في نهاية المطاف. إن الذي يعِده الله تعالى بالفتح والنصر إذا لم يقل إني أنا الغالب فماذا يقول يا ترى؟ وإن المسيح ﷺ أيضًا يعلن هنا الأمر نفسه

ويقول "ولكن ثِقُوا أنا قد غلبتُ العالَمَ"، وكأنه قد قال هنا نفس ما عزا إليه القرآن الكريم بأنه قال أن الله تعالى لم يجعلني شقيًّا.

فثبت من ذلك أن كل تلك الأمور التي نسبها القرآن الكريم إلى المسيح عليه السلام لموجودةٌ في الإنجيل أيضًا. فزعم المسيحيين أن القرآن قد نسب إلى المسيح ما لم يقله قط يمثّل برهانًا ساطعًا على كذبهم أو على جهلهم بكتبهم.

لقد وصف الله تعالى يحيى عليه السلام أيضًا بهذه المزايا نفسها فقال ﴿وَسَلاَمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ (مريم: ١٦). غير أن ثمة فرقًا، وهو أن الله تعالى نفسه قد شهد بذلك عن يحيى عليه السلام، أما المسيح عليه السلام فيقول بنفسه عن نفسه ﴿وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (مريم: ٣٤).

الحق أنه ليس في هذه الكلمات أي دليل على أن المسيح وحده معصوم من مس الشيطان، وإنما معناها أن الله تعالى قد جعل في المسيح البركة منذ يوم ولادته. ولا خصوصية للمسيح عليه السلام في ذلك، فإن موسى وداود وسليمان وآلاف وآلاف غيرهم من الأنبياء -عليهم السلام- كانوا كلهم مباركين منذ ولادتهم.

وكما قلت سابقًا إن هذه الآية تدل، في بادئ الرأي، على عظمة المسيح عليه السلام، حيث يقول المرء في نفسه كم كان المسيح عظيم الشأن حيث شمله السلام يوم ميلاده ويوم موته ويوم يُبعث بعد الموت؛ ولكن مفهومها الحقيقي هو أن المسيح عليه السلام ليس إلا بشرًا، وليس بإله أبدًا. إذًا فكان من الطبيعي، والحال هذه، أن يطعن المسيحيون في القرآن الكريم ويقولوا إنه قد افترى على المسيح هذه الكلمات لِيُثبت أن إلههم كان مجرد إنسان.

أما عند الصليب حين مات المسيح بالفعل عند المسيحيين واليهود، وحين دخل في حالة شبيهة بالموت عندنا نحن المسلمين، فأيضًا لم يتركه الله تعالى، بل شمله السلام من عنده تعالى. فقد ورد في العهد الجديد: "يسوع الذي من الناصرة كيف مسَحه الله بالروح القدس والقوة، الذي جالَ يصنع خيرًا ويشفي جميعَ المتسلطِ عليهم إبليسُ، لأن الله كان معه" (أعمال الرسل ١٠: ٣٨).

ثم كما ورد في موضع آخر قول المسيح : "منذ الآن يكون ابنُ الإنسان جالسًا عن يمينِ قوةِ الله" (لوقا ٢٢: ٦٩).. أي سيظن العدو بناء على حادث الصليب أنه قد دمّرني، ولكني سأجلس على يمين الله تعالى، وسيتغمدني بفضله ورحمته ﷻ.

إن هذه وعودٌ بنـــزول السلام على المسيح كما وردت في العهد الجديد، وإنها لبرهان حاسم على أن المسيح كان بشرًا، لا إلهًا، لأن الدليل على نـــزول السلام على المسيح هنا هو كون الله تعالى معه، فثبت أن الله تعالى هو الذي كان يهب هذا السلام للمسيح. أما لو كان المسيح إلهًا حقًّا لقال إني إله، وموت الإله محال. ولكنه لم يقل هذا، كما لم يقل أني أتمتع بالسلام بقوتي وقدرتي، بل قال إن الله تعالى معي. فثبت أن المسيح كان بشرًا، لا إلهًا.

وبالإضافة إلى البعث بعد الموت هناك بعثٌ آخر مقدر لكل نبي في هذه الدنيا أيضًا، حيث يظهر في الدنيا ثانية في شخص نبي آخر. وهذا يعني أن من سنة الله تعالى أن يبعث بعد كل نبي صادق نبيًّا آخر يصدّق النبي السابق، وهكذا يُظهر الله على الناس صدق النبي الأول مرة أُخرى، ويُنـــزل عليه السلام ثانية بشهادة النبي الجديد. لقد جاء موسى إلى الدنيا، وقام بإنجازات عظيمة، ولكن بعد انقضاء فترة طويلة على بعثته أخذ الناس يشكّون في صدقه رويدًا رويدًا، فبعث الله تعالى المسيحَ الذي شهد على صدق موسى أمام الناس، وهكذا نال موسى حياة جديدة من خلال المسيح الناصري عليهما السلام. أما يحيى والمسيح فقد نالا الحياة ثانية من خلال محمد رسول الله ﷺ. أما النبي ﷺ فيقول الله بشأنه ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَة منْ رَبِّه وَيَتْلُوهُ شَاهدٌ منْهُ وَمنْ قَبْله كتَابُ مُوسَى إمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئكَ يُؤْمنُونَ به وَمَنْ يَكْفُرْ به منَ الأَحْزَاب فَالنَّارُ مَوْعدُهُ فَلاَ تَكُ في مرْيَة منْهُ إنَّهُ الْحَقُّ منْ رَبِّكَ وَلَكنَّ أَكْثَرَ النَّاس لاَ يُؤْمنُونَ﴾ (هود: ١٨).. أي كيف يمكن أن يكون كاذبًا مَن احتوت حياتُه على آلاف الآيات من عند الله تعالى، بالإضافة إلى الأنباء التي نبّأ بها موسى في حقه ﷺ، كما سنبعث بعد وفاته مأمورًا من عندنا ليعلن أن محمدًا ﷺ كان رسولاً

صادقًا من عند الله تعالى. بتعبير آخر، يعلن الله تعالى هنا أن ذلك ماضي هذا الرسول ﷺ، وهذا حاله، أما فيما يتعلق بمستقبله فإننا لن نــزال نبعث من عندنا من السماء أناسًا سيشهدون أن محمدًا ﷺ كان رسولاً صادقًا من عند الله تعالى. وكأن هذا سيكون بمنــزلة بعثة ثانية لرسولنا الكريم ﷺ. ومن أجل ذلك نجد أن الله تعالى قد عبّر في سورة الجمعة عن مجيء الرسول ﷺ في "الآخَرين" بلفظ البعث إذ قال ﴿هُوَ الَّذي بَعَثَ في الأُمِّيِّينَ رَسُولاً منْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاته وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكتَابَ وَالْحكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا منْ قَبْلُ لَفي ضَلال مُبِين * وَآخَرِينَ منْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكيمُ﴾ (الجمعة: ٣-٤).. أي أن الله تعالى قد قدر لرسولنا ﷺ بعثتين: بعثة في الأوّلين الأُمّيّين، وبعثة في الآخرين. ولقد استخدم المسيح الناصري ؑ في قوله ﴿ويوم أُبعَث حيًّا﴾ كلمة البعث نفسها التي قد وردت بحق نبيّنا ﷺ في سورة الجمعة. فثبت من ذلك أن من أساليب القرآن استعمال كلمة البعث أيضًا بمعنى مجيء نبي يُحيي بشخصه النبيَّ السابقَ لــه، ويكشف صدقه على الدنيا.

وعليه فلا حاجة لتطبيق هذه الآية على يوم القيامة، إذ يمكن مشاهدة نــزول سلام الله على يحيى وعيسى في هذه الدنيا نفسها لدى بعثتهما الثانية.

ثم هناك اختلاف كبير حول حادث الصليب أيضًا. يقول عامة المسلمين أن المسيح لم يعلَّق على الصليب أصلاً، بينما نؤمن نحن المسلمين الأحمديين أنه قد علِّق على الصليب فعلاً، ولكنه لم يمت عليه. ويقول اليهود أنه عُلّق على الصليب ومات عليه، بينما يقول المسيحيون أنه عُلّق على الصليب ومات عليه، ثم أُعيدَ إلى الحياة ثانية. وهذا يعني أن أربعة من الطوائف الكبيرة في العالم لمختلفة في حادث الصليب نفسه اختلافًا كبيرًا. فمن جهة، هناك اختلاف كبير حول المسيح ؑ بين اليهود والنصارى والمسلمين، كما أن هناك اختلافًا كبيرًا حوله بين شتى فرق اليهود، ثم إن الفرق المسيحية نفسها تختلف حوله ؑ.

لقد سُمي المسيح ؑ هنا ﴿عيسى ابن مريم﴾، والمسيحيون يتضايقون من هذه التسمية أيضًا ويقولون: لماذا سمى القرآن مسيحنا "ابن مريم"، مع أنه ابن الله. لم يفعل

القرآن ذلك إلا لإيذائنا وتجريح مشاعرنا، ولكي يرفض كونه إلهًا. والواقع أن الإنجيل نفسه قد سمى المسيح عليه السلام "ابن مريم"، حيث ورد فيه: "أليس هذا هو النجّار ابنُ مريم وأخو يعقوب ويوسى ويهوذا وسمعان؟ أوَليست أَخَواتُه ههنا عندنا. فكانوا يعثُرون به" (مرقس ٦: ٣).. أي أن الناس لما رأوا المسيح قالوا كيف يقوم هذا بدعاوى عريضة بأن الله تعالى قد قطع معي وعودًا عظيمة، وتفضَّلَ عليّ بنعم كثيرة؟ أليس هو ابن مريم؟ أليس هو ذلك النجار الذي كان يصلح لنا الأسرّة والطاولات.

بنوة المسيح عليه السلام:

أما اسم "ابن الله" الذي يطلقه المسيحيون على المسيح عليه السلام، فقد ورد في التوراة بكثرة، فما كان صالحًا لتمييز المسيح عن الآخرين بصورة قطعية، لأن جميع الصالحين الأبرار هم أبناء الله تعالى بحسب التوراة. أما إذا كان المسيحيون يفسرون لفظ ابن الله بمعنى الابن الحقيقي لله تعالى فيجب أن يقدموا على ذلك دلائل ظاهرة، ولكن لا وجود لمثل هذه البراهين.

وغنيٌّ عن البيان أن أحد المفهومين المذكورين أعلاه لا ينطبق هنا.. أي أن قوله تعالى ﴿ما كان لله أن يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾ لا يعني أبدًا أن ليس في الله القدرة على أن يكون لــــه ولد. إذ يمكن أن يعزى مثل هذا القول إلى النساء، ولكن لا يقال هكذا عن الله تعالى. إذًا فإن المعنى الثاني هو الذي ينطبق هنا.. أي أن الله تعالى أسمى من أن يعزى إليه مثل هذا الأمر الدال على الضعف والهوان، فيقال أنه قد اتخذ ولدًا.

فبما أن المسيحيين يدّعون أن المسيح عليه السلام كان ابن الله تعالى فعليهم تقع مسؤولية تقديم الأدلة على صدق دعواهم. وغاية ما يمكن أن يدللوا به هو قولهم أن المسيح قد سُمِّي في الإنجيل "ابن الله" فهو ابن الله عندنا. فلنرجع إلى الإنجيل لنرى هل وردت كلمة "ابن الله" في الإنجيل بالمفهوم الذي يزعمه المسيحيون.

ورد في الإنجيل قول المسيح عليه السلام: "ولكن الذين حُسِبوا أهلاً للحصول على ذلك الدهر والقيامة من الأموات لا يزوِّجون ولا يزوَّجون، إذ لا يستطيعون أن يموتوا أيضًا لأنهم مثل الملائكة، وهم أبناء الله إذ هم أبناء القيامة" (لوقا ٢٠: ٣٥-٣٦).

يوضح المسيح عليه السلام هنا أن بعض الناس ينذرون حياهم في سبيل الله تعالى، وهؤلاء لا يموتون موتًا روحانيًّا أبدًا، ويُسمَّون أبناء الله تعالى. وكأن المسيح عليه السلام يسمي كل الصالحين الأبرار "أبناء الله". ثم ورد في العهد القديم أن الله تعالى قال لإرميا: "لأني صرتُ لإسرائيل أبًا، وأفرايمُ هو بِكري" (إرمياء٣١: ٩). وهنا قد سمى الله تعالى بني إسرائيل كلهم "أبناء الله"، بينما اعتبر أفرايمَ، وهي إحدى القبائل الإسرائيلية، الابنَ البِكرَ لـــه سبحانه وتعالى.

ثم إن المسيح عليه السلام قد اعتبر اللهَ تعالى أبًا للجميع في الدعاء الذي علّمه أتباعَه حيث أمرهم أن يدعوا الله تعالى قائلين "أبانا الذي في السماوات ليتقدّس اسمُك" (متى ٦: ٩).

ثم ورد في الإنجيل قول المسيح عليه السلام: "ولا تخافوا من الذين يقتُلون الجسد، ولكن النفسَ لا يقدرون أن يقتلوها. بل خافوا بالحريِّ من الذي يقدِر أن يُهلك النفسَ والجسدَ كليهما في جهنم. أليس عصفورانِ يُباعان بفلْسٍ، وواحدٌ منهما لا يسقُط على الأرض بدون أبيكم. وأما أنتم فحتى شعور رؤوسكم جميعها محصاةٌ" (متى ١٠: ٢٨-٣٠). ثم ورد في الإنجيل أن اليهود قالوا: "لنا أب واحد وهو الله" (يوحنا ٨: ٤١). وهذا يدل على أن هذا التعبير كان شائعًا بين اليهود، فكانوا يسمون أنفسهم أبناء الله تعالى. كما أن التوراة نفسها أطلقت هذا الاسم على اليهود. ثم إن المسيح عليه السلام نفسه قد سمى الجميع أبناء الله تعالى، ونصحهم أن يدعوا الله تعالى قائلين "أبانا الذي في السماوات ليتقدس اسمُك".

بعد هذه الكلمة التمهيدية أود أن أحيطكم علمًا أنه بالرغم أن التوراة لم تستخدم لفظ "الله" لذات البارئ عز وجل، إلا أن العهد القديم يؤكد كون الله تعالى واحدًا لا شريك لـــه، حيث جاء: "اسمَعْ يا إسرائيلُ، الربُّ إلـــهُنا ربٌّ واحد" (التثنية ٦: ٤). ففي لفظ "رب واحد" دلالة واضحة على كونه تعالى وحده لا شريك لـــه. فثبت بذلك أن التوراة هي الأخرى تؤكد ما أعلنه القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ (مريم: ٣٦).

ثم إن رسائل حواريي المسيح عليه السلام أيضًا تنصّ على ذلك حيث جاء فيها: "للهِ الحكيمِ وَحْدَهُ، بيسوع المسيح، لهُ المجدُ إلى الأبد" (رسالة بولس إلى أهل رومية ١٦: ٢٧).

فترى أن العهد القديم يعلن أن الله تعالى واحد لا شريك لـــه، كما ينصّ عليه العهدُ الجديد أيضًا. فثبت أن التوراة والإنجيل كلاهما يتفقان مع القرآن الكريم، إذ يعلن كلاهما ما يعلّمه القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿ما كان لله أن يتخذ من ولد﴾. ولكن المؤسف أن كلا الفريقين اليهود والنصارى قد اختلقوا الشرك صنوفًا وألوانًا منحرفين عن جادّة الحق. إن دراسة التوراة تكشف لنا أن جميع الأنبياء الذين بُعثوا إلى اليهود قالوا لهم: لقد بذلنا كل ما في وسعنا لنشرح لكم أن الله تعالى واحد لا شريك لـــه، ولكنكم قوم لا يفقهون حديثًا وتعودون إلى الشرك مرة بعد أخرى.

قصة ذي القرنين

مما لا شك فيه أن بعض الكتّاب المعاصرين قد ألقى الضوء على هذا الموضوع ورفض الرأي القائل بأن الإسكندر المقدوني هو ذو القرنين. كما قال البعض الآخر إن ذا القرنين مَلِكٌ اتسع ملكُه في البلاد الشرقية والغربية. وفوق ذلك فإن المستشرق الألماني الدكتور هربيلات مؤلف "Bibelia Oriental" كاد يصيب كبدَ الحقيقة حين قال إن ذا القرنين ملِكٌ من ملوك الفرس الأوائل (تفسير القرآن للقسيس "ويري").

وكان أستاذي المكرّم نور الدين ﷺ يبني بحثه على ما ورد في الكتاب المقدّس ويقول: لقد ورد في الكتاب المقدس رؤيا لدانيال النبي حيث قال: "رأيت في المنام كبشًا ذا قرنين واقفًا عند النهر. رأيت الكبش ينطح غربًا وشمالاً وجنوبًا، فلم يَقِفْ حيوانٌ قُدّامَه، ولا مُنقِذ من يده، وفعَل كما شاء" (دانيال ٨: ٣ و٤). ثم يقول دانيال: لقد أخبرني الله تعالى بتأويلها وقال: أما الكبش الذي رأيتَه ذا القرنين فالمراد منه ملوكُ ميديا وفارس (دانيال ٨: ٢٠). وبناءً على هذه الرؤيا كان أستاذي المحترم يقول إن ذا القرنين هذا هو ملِكٌ من ملوك ميديا وفارس، وأن ذلك الملك هو كيقباد*. (فصل الخطاب لمقدمة أهل الكتاب، ص ٢٠٧ - ٢٠٨)

الحكمة من ورود القصة في سورة الكهف:

---

* علمًا أن حضرة المولوي نور الدين ﷺ قد قال في كتاب لــه آخر إن اسم هذا الملك هو "كورش" و"خورس" (تصديق البراهين الأحمدية ص ٦٦).

أود أن أبيّن هنا الحكمة من ورود قصة ذي القرنين في القرآن وفي سورة الكهف بالتحديد عَقِبَ إسراء موسى العَلَيْهِ.

إن سورة الكهف تتحدث عن الصراع بين الإسلام والمسيحية، ولاسيما ذلك الصراع الذي هو شبهُ دينيٍّ.. بمعنى أنه وإن كان صراعًا دينيًّا فإنه ذو صلة بسياسة الديانتين. فقد حكت لنا هذه السورة أوّلاً قصّةَ أصحاب الكهف لتبين لنا كيف بدأت المسيحية، وكيف دبّ في أهلها الفساد. ثم بعدها تناولت إسراءَ موسى العَلَيْهِ لبيان أن قومه سيحرَمون من الرقي الروحاني بعد الوصول إلى حد معين، فيَظهرَ عندها نبي آخر من عند الله تعالى. كما أوضح إسراؤه أن المراد من قوم موسى في هذا المقام هو القسم الأخير منهم أي الأمة المسيحية، لأن القسم الأول منهم -أي اليهود- كانوا قد ماتوا ميتةً روحانيّةً قبل ذلك بزمان. وبالفعل أكّدت الأحداثُ صدقَ النبأ القرآني بكل قوة وجلاء، حيث انتهى الدور الأول لرقي المسيحية بظهور محمد ﷺ؛ مما زاد المؤمنين إيمانًا على إيمانهم. ذلك أن التنبؤ خلال الفترة المكّيّة الحرجة بغلبة المسلمين على المسيحيين لنبأ عظيم منقطع النظير.

ثم بعد ذكر إسراء موسى العَلَيْهِ ذكرت سورة الكهف قصةَ ذي القرنين إشارةً إلى الدور الثاني لنهضة الأمة المسيحية.

ولو قيل: ما الداعي لاختيار هذا الأسلوب غير العادي؟ لماذا لم يشر القرآن ببساطة إلى الرقي المسيحي بأجمعه مرة واحدة؟ فالجواب أنه مما لا شك فيه أن هذا الأسلوب القرآني يبدو طفيفًا في نظر أهل الدنيا، ولكن الذي يدرك أهمية الدين لا بد أن يعدّه صحيحًا بل ضروريًّا. ذلك أن الأمم -من حيث الدين- أربعٌ وِفقًا للسنة الإلهية الجارية منذ بدء الزمان، وهذه الأقسام هي:

١ـــ الأمم التي تؤمن بنبي زمانها، وتحرز الرقي الديني والمادي متمسكين بالإيمان.

٢ـــ الأمم التي تؤمن بنبيها، ولكنها تقع فيما بعد في المعاصي والشرور، فتبوء بغضب من الله تعالى؛ ورغم ذلك يمكنها أن تُصلح حالها وتستنـــزل فضلَ الله

ورحمته ثانيةً مع انتمائها إلى دينها ومن دون أن تبدِّل هيئتها القومية. كل ما عليها أن تصلح أعمالها، لأنها تؤمن بنبي زمانها، ولكن أعمالها لا تتفق مع إيمانها.

٣ـــ الأقوام التي تجترح السيئات بعد نبيها وتفسد، وحين يظهر نبي آخر زمن فسادها تُحرَم الإيمانَ به. ومهما سعى هؤلاء القوم لإصلاح حالهم، فإن الله تعالى لا يرضى عنهم حتى يبدّلوا هيئتهم القومية ويؤمنوا بالنبي الجديد.

٤ـــ الأقوام التي لا تؤمن بأي نبي، ويكون رقيها كله مادّيًّا محضًا. ولكي تتوطد بينهم وبين الله تعالى علاقة روحانية لا بد لهؤلاء من أن يؤمنوا بنبي الوقت ويعملوا بوصاياه.

بعد استيعاب أقسام الأمم هذه لا يصعب على المرء أن يدرك أن الأمة المسيحية أثناء الفترة الأخيرة من زمن رقيها الأول كانت تندرج في القسم الثاني من هذه الأقسام، إذ كانوا قد ابتعدوا عن الدين بلا شك، ولكن كان بإمكانهم أن يصالحوا الله تعالى من دون أن يبدّلوا هيئتهم القومية أي من دون أن يدخلوا في دين آخر، إذ كانوا مؤمنين بنبي زمانهم المسيحِ عليه السلام. ولكن بعد ظهور محمد رسول الله ﷺ، وفقًا للنبأ الوارد في الإسراء الموسوي، خرج القوم المسيحي من القسم الثاني ودخل في القسم الثالث... إذًا فالترتيب الذي اتبعه القرآن الكريم لبيان فترتي الرقي المسيحي لم يكن ضروريًّا فحسب، بل يشكّل دليلاً على إعجاز القرآن أيضًا.

وأوجز الكلام مرة أخرى فأقول: لقد ذكر الله تعالى أولاً قصة أصحاب الكهف الذين جاءوا في فترة كان المسيحيون فيها صالحين، أو كانوا فاسدين ولكنهم كانوا مؤمنين بنبي زمانهم، ومن ثم لم يكن لزامًا عليهم -من أجل الصلح مع الله تعالى- التخلي عن قوميتهم وسياستهم. ثم ذكر الله إسراءَ موسى الذي نبّأ فيه عن ظهور محمد ﷺ وعن تغيُّر حالة الأمة المسيحية بعد ظهوره ﷺ، حيث بيّن أنهم سيحققون بعدها أيضًا النهضة والازدهار المادي، ولكن سيستحيل عليهم معه أن يكونوا على صلح مع الله تعالى، لأنهم سيتجاوزون نبيَّ زمانهم دون الإيمان به؛ وأن رقيهم سيظل ماديًّا محضًا من دون أن يكون فيه أي نصيب للآخرة حتى يرجعوا على آثارهم

قَصَصًا وينضموا إلى موكب نبي ذلك الزمان. فبما أن الأمة المسيحية في الفترة الثانية تكون مختلفةً عما كان عليه المسيحيون الأوائل دينًا وسياسةً، لذا ذكر القرآن الكريم حالتها في الفترة الثانية منفصلةً عن الفترة الأولى.

وبقي هنا أمر آخر يحتاج الشرح وهو: كان ذو القرنين قبل رسول الله ﷺ، فلماذا ذكر القرآن قصته بين قصة أصحاب الكهف وبين إسراء موسى عليه السلام؟

فجوابه أن الكتب السماوية قد أطلقت على فترتَي الرقيِّ المسيحي اسمين مختلفين، حيث تسمَّى الفترة الأولى بدور أصحاب الكهف.. أي حين كان المسيحيون متحلّين حقًّا بصفات أصحاب الكهف، أو ما كانوا صالحين بالفعل ولكن كانت عندهم الكفاءة لأن يكونوا صالحين مثل أصحاب الكهف. أما الفترة الثانية من الرقي المسيحي فتسمَّى في الكتب السماوية بدور يأجوج ومأجوج.. أي حين لن تبقى فيهم كفاءةُ الصلاح أصلاً، ولن يستطيعوا -بسبب ظهور نبي جديد- الوصالَ إلى الله تعالى إلا بعد التخلي عن هيئتهم القومية. وهذا الدور الثاني من الرقي المسيحي ذو صلة بذي القرنين لأن بعض أعماله تسببت في ظهور هذا الدور. وفيما يلي بيان ذلك. إن يأجوج ومأجوج إسمان للشعوب التي كانت تقطن في شمال آسيا وشرق أوروبا، وكانت تُغِير على البلاد الآسيوية الخصبة (الموسوعة اليهودية كلمة Gog Magog).

ولو أنها نجحت في غاراتها لانتشرت في هذه البلاد وانصهرت في الشعوب الآسيوية الأخرى، واعتنقت الأديانَ المختلفة الموجودة في هذه البلاد، ولم تجتمع على دين واحد كما هي حالها الآن، بل لكان شأنها شأن الشعب الآري الذي هاجر إلى الهند، وانصهر في الأقوام القديمة القاطنة فيها فاقدًا كيانه الخاص. ولكن شاءت الأقدار أن ذا القرنين -وسيأتي ذكره مفصَّلاً بعد قليل- صد بكل شدة وقوة حملاتِ هذه الشعوب الشمالية الغربية، حتى انحصرت في شمال وغرب آسيا وفي شرق أوروبا؛ وذلك بعد أن وضع ذو القرنين سدًّا حال بين هذه الشعوب وبين دخولها آسيا، حتى أصبحوا وكأن آسيا كلها قد فرضت عليهم مقاطعة

كاملة. وكانت النتيجة أن أخذت هذه الشعوب تنتشر في أوروبا. ولما كانت الوثنية سائدة في أوروبا ولم يوجد فيها من الديانات المعروفة إلا المسيحية، دخلت هذه الشعوب كلها في الديانة المسيحية تدريجيًّا، مما شكّل كُتلةً دينية هائلة تواجه العالم كله؛ وهكذا زُرعت بذرةُ العداوة الدينية.

هذا من جهة، ومن جهة أُخرى فإن آسيا -التي كانت حينذاك تحت نفوذ ذي القرنين وعاملةً بحسب إستراتيجيته السياسية- قامت بطرد هذه الشعوب إلى المناطق الشمالية التي كانت أردأ بقاع الأرض في ذلك الزمان؛ مما ولّد في قلوب هؤلاء رغبةً عارمة للدخول في آسيا والبلاد الشرقية، وهذه الرغبة الجامحة قد توارثَها أولادُهم جيلاً عن جيل؛ وهكذا بُذرت بذرةُ العداوة السياسية.

إذًا فإن ذا القرنين كان -على هذا النحو- سببًا في ظهور فتنة يأجوج ومأجوج، أو بتعبير آخر فتنة الدجال، ولذلك أورد الله تعالى هنا قبل ذِكر الدور الثاني للرقي المسيحي قصةَ ذي القرنين، وخاصة إنجازَه الذي هيأ الأساسَ لأن تكون ليأجوج ومأجوج قوميتهما المستقلة وسياستهما الخاصة.

وهناك حكمة أُخرى في ذكر ذي القرنين هنا: بما أن ذا القرنين كان يحكم بلاد ميديا وفارس، فعليه يمكن القول إن رجلاً فارسي الأصل هو الذي تسبب في وجود يأجوج ومأجوج. ومن سنة الله المستمرة في عباده الصالحين أنه إذا أدى عملٌ صالح لأحد منهم إلى نتيجة ثانوية سيئة ولو بغير قصد منه فإنه تعالى يزيل ذلك السوء بواسطة أحد من أولاده أو أبناء وطنه أو مثيل من أمثاله، كيلا يُعزَى إلى هذا العبد الصالح عيبٌ ما ولو من بعيد. وقد جيء بذكر ذي القرنين في هذا المقام للغرض نفسه.. أي للتنبؤ عن ظهور ذي القرنين الآخر، الذي يكون أيضًا فارسي الأصل، وسيصمد في وجه يأجوج ومأجوج ويكسر قوهم؛ وهكذا يدفع عن ذي القرنين الأول ما نُسب إليه من العيب.

وسيُمنَح هذا الشخصُ الموعود لقبَ "ذي القرنين" لسببين: الأول لأن الله تعالى سيجعله وارثًا للقوتين: القوة المهدوية والقوة المسيحية؛ فيسمَّى مهديًّا لكونه وارثًا

لعلوم محمد المصطفى ﷺ، وسيسمَّى مسيحًا لكونه متحليًّا بصفات المسيح ابن مريم عليهما السلام، كما يشير إلى ذلك الحديث الشريف: "لا المهديّ إلا عيسى" (ابن ماجة: كتاب الفتن، باب شدة الزمان).

والسبب الثاني هو أنه يرى قرنين من القرون كما ورد في بعض النبوءات، بمعنى أنه يتلقى الوحي من الله تعالى عند نهاية قرنٍ، ويُتوفى في أوائل القرن الآخر بعد تكميل المهمة التي عُهدت إليه.

وفي بعض الروايات الأُخرى أن بعض الصحابة -رضوان الله عليهم- سأل رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى في القرآن الكــريم ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ (الجمعة: ٤) قائلاً: يا رسول الله، مَن هم هؤلاء الآخرون الذين ستُبعث فيهم وتعلّمهم القرآنَ؟ أي كيف تقوم بعملية تعليمهم وقد تُوفِّيتَ؟ فوضع رسول الله ﷺ يدَه على منكب سلمانَ الفارسي وقال: "والذي نفسي بيده لو كان الإيمان معلَّقًا بالثريا لناله رجالٌ أو رجلٌ من هؤلاء" (البخاري: التفسير، سورة الجمعة). وروى ابن مردويه عن سعد بن عبادة بلفظ "رجالٌ من فارس".

والنظرة الشاملة في هذه الروايات تكشف لنا أن النبي أنبأ عن ظهور موعود خاص من أبناء فارس يعود بالإيمان بعد أن يكون قد ارتفع إلى السماء في آخر الزمان، وأن رجالاً آخرين ذوي أصول فارسية سيؤيدونه في مهمته.

أما السؤال: ما علاقة هذا الموعود بزمن يأجوج ومأجوج؟ فجوابه أن القرآن الكريم والحديث الشريف يؤكدان أن الإسلام سيؤول إلى هذه الحالة في آخر الزمان عند ظهور يأجوج ومأجوج وظهور الدجال؛ وأنهما أهل دين واحد، حيث إن يأجوج ومأجوج لقبٌ يرمز إلى فتنهم السياسية، بينما الدجال لقبٌ يشير إلى فتنهم الدينية.

إذًا فالربط بين هذه الروايات بنوعيها يكشف لنا أن إشاعة الكفر التي ستتم في زمن يأجوج ومأجوج سيقاومها رجل فارسي الأصل، وأن رجالاً آخرين من بني فارس سيساعدونه في ذلك؛ وهكذا بذكر أحوال ذي القرنين بالتفصيل رد الله

تعالى الاعتراض الذي كان يَرِدُ على فعل ذي القرنين الأول الفارسي الأصل. كما أنبأ ﷺ بتسجيل قصته في القرآن أنه سيظهر في آخر الزمان ذو القرنين الآخر الذي سيدفع هجمات يأجوج ومأجوج الدينية ضد الإسلام، مثلما صدَّ ذو القرنين الأول غاراتِهم المادية في الماضي.

والجدير بالذكر هنا أنه كما قيل عن ذي القرنين الثاني بأنه ليس فارسيَ الأصل في الحقيقة حيث نزح آباؤه إلى الأراضي الفارسية من إحدى الولايات الصينية، كذلك ورد في التاريخ أن ذا القرنين الأول كان في الأصل من منطقة ميديا، وإنما سمِّي فارسيًّا لعلاقاته المؤقتة بفارس.

رد شبهة:

هذا، وأود في هذا المقام دفع شبهة أُخرى. يحاول بعض البهائيين عبثًا تطبيق هذه الأنباء على زعيمهم "بهاء الله" لكونه فارسي الأصل؛ ولكنها محاولة باطلة. ذلك أن الأحاديث النبوية تصرح بأن الموعود المذكور هنا سيعلّم القرآن الكريم، وسيكون نائبًا وخليفة لمحمد رسول الله ﷺ، ذلك أن ما قاله رسول الله ﷺ في تفسير آية من سورة الجمعة يؤكد بكل جلاء أن محمدًا ﷺ كما يعلّم الأُمّيّين أي العربَ القرآنَ، كذلك سيعلّمه مرة أخرى قومًا آخرين لم يأتوا بعد. إذًا فإن هذا النبأ لا يمكن أن ينطبق على أحد إلا الذي:

١- يكون فارسي الأصل.

٢- ويعلن أنه تلميذٌ لمحمد رسول الله ﷺ، ولا يعلّم إلا القرآن.

٣- أنه يكون ذا القرنين أي يرى قرنَين من السنين، علمًا أن هذا الأمر مستنبَط بالجمع بين آيات القرآن المختلفة الواردة في هذا الموضوع.

٤- وأنه سيقضي على فتنة يأجوج ومأجوج التي أعظم أُسسها عزوُ صفات الله إلى العباد وتأليههم.

والواضح الجلي أنه لم يتوافر في "بهاء الله" من هذه الشروط إلا كونه من فارس. فلم يكن تلميذاً لمحمد رسول الله ﷺ؛ كما لم يَدْعُ الناسَ إلى القرآن الكريم؛ ولم

يجد زمن قرنين من القرون؛ ولم يقضِ على فتنة يأجوج ومأجوج؛ بل على النقيض شبَّ نارَها وأفحلَ شرَّها بقوله عن نفسه أنه إله...

بحث المصلح الموعود ﷺ الخاص عن ذي القرنين:

لقد ذكرتُ من قبل أنني أرى مع بعض المفسرين السابقين والباحثين الأوروبيين، وكما بيّن أستاذي المكرم المولوي نورُ الدين الخليفةُ الأول لسيدنا المسيح الموعود ؑ، أن ذا القرنين لقبٌ لأحد ملوك الفرس، وكان أستاذي المكرم يرى أن اسم هذا الملك كيقباد.

وقال البعض الآخر إنه كان داريوس الأول. (بيان القرآن مجلد ٢ ص ٨٤٢). وعندي أن علينا أن ننظر قبل كل شيء في صفات ذي القرنين التي ذكرها القرآن الكريم، وهي كالآتي:

١- أنه كان يتلقى الإلهام أو يرى رؤى صادقة من الله تعالى.

٢- أنه خرج من بلاده يفتح الممالك متجهًا إلى الغرب حتى وجد الشمس تغرُب في عينٍ حَمِئَة.

٣- ثم توجّهَ إلى الشرق وفتح الممالك الشرقية.

٤- ثم ذهب إلى منطقة متوسطة حيث كان يأجوج ومأجوج يُغيرون ويهاجمون، فجعل هناك سدًّا.

لا بد لنا أن نرى هل توجد هذه الأمور الأربعة في الرجل الذي نظنه ذا القرنين، ولا سيما فيما إذا كان ملهَمًا من الله تعالى ومقبولاً عنده أم لا؟

مما لا نقاش فيه أن ذا القرنين هذا ملِكٌ من ملوك ميديا وفارس، لأن رؤيا دانيال النبي تدل جليًّا على أنه واحد منهم. إنما بقي علينا أن ننظر أيًّا من هؤلاء الملوك كان يتحلى بهذه الصفات.

لا جَرَمَ أن صفة الإلهام هي أهمّ هذه الصفاتِ. وحين نتصفح التاريخ من هذا المنظور نجد بين ملوك فارس ملكًا كان ملهَمًا من الله تعالى، وقد أثنى عليه الأنبياء الآخرون أيضًا لبِرِّه وتقواه؛ وذلك الملِك هو "كُورش" ويسمى بالإنجليزية

"Cyrus" يقول إشعياء النبي عنه ما نصه: "هكذا يقول الرب لمسيحه لكُورشَ الذي أمسكتُ بيمينه لأدوسَ أمامه أُمـــمًا وأَحْقاءَ ملوك، لأفتح أمامَه المصراعين والأبوابُ لا تُغلَق. أنا أسيرُ قُدّامَك، والهِضابَ أُمهِّدُ. أُكسِّر مِصراعَي النُّحاسِ، ومَغاليقَ الحديدِ أقصِف، وأُعطيك ذخائرَ الظلمة وكنوزَ المخابئِ، لكي تعرِف أني أنا الربُّ الذي يدعوك باسمك إلهُ إسرائيل. لأجلِ عبدي يعقوبَ وإسرائيلَ مختاري دَعَوتُك باسمك. لقّبتُك وأنت لستَ تعرِفني" (إشعياء ٤٥: ١-٥).

يظهر من إلهام إشعياء هذا أن كورشَ ملِكَ ميديا وفارس قد بورك من قبل الله تعالى حيث سمّاه الله ﷻ المسيحَ -مع الملاحظة أنه كما لُقِّب كورش، الذي هو ذو القرنين، بالمسيح، كذلك سُمِّيَ المسيح الموعود ذا القرنين. ويتضح أيضًا من هذا الإلهام أن الله تعالى قد منح كورشَ الحُكمَ بفضل خاص منه. وهذا ما يقوله القرآن أيضًا عن ذي القرنين حيث ورد فيه: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ (الكهف: ٨٥).

كما نقرأ في كلام إشعياء: "أنا أسير قُدّامَك، والهِضابَ أُمهِّدُ." وفيه إشارة إلى كثرة أسفاره كما قال القرآنُ الكريم.

ونقرأ في إلهام إشعياء: "أني أنا الرب الذي يدعوك باسمك، إلهُ إسرائيل." ويماثله قولـــه تعالى في القرآن: ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ (الكهف: ٨٧).. أعني أن الله تعالى دعاه بذكر اسمه "ذي القرنين".

ثم ورد في إلهام إشعياء: "دعوتُك باسمك، لقّبتُك وأنت لستَ تعرِفني." وفيه إشارة إلى أنه ما كان يعبد الله تعالى بأسمائه المذكورة في التوراة بل بأسماء أُخرى. والثابت من التاريخ أن كُورش كان من أتباع زردشت النبي.

والكتب التاريخية كلها تذكُر كُورشَ ذكرًا حسنًا، حتى ورد فيها أن أعداءه أيضًا كانوا يحبّونه، وأنه كلما هاجم بلدًا فتح أهله لـــه الأبواب والتحقوا به ضد ملكهم، وذلك لما سمعوه من برِّه وعدله. وهذا ما يؤكده أيضًا إلهامُ إشعياءَ النبيِّ حيث ورد فيه: "القائل عن كُورشَ راعِيَّ، فكُلَّ مَسرّتي يُتمِّم" (إشعياء ٤٤: ٢٨).

فمما سجّله المؤرخون القدامى عن حسن أخلاقه ما قاله دنيوفين المؤرخ الشهير وتعريبه: ذات مرة تدبرتُ في الفطرة الإنسانية فتوصلت إلى أن من السهل على الإنسان بفطرته أن يحكم على الحيوانات الأُخرى، ولكن من الصعب جدًّا أن يحكم على بني جِلدته. فكم مِن سيدٍ يوجد في بيته قليل أو كثير من الخدَمَ، ولكن ليس بوسعه أن يجعلهم يطيعون طاعة صادقة. فاستنتجتُ من ذلك أنه لا يوجد في الدنيا رجل واحد قادر على أن يحكم على الإنسان، وإن كان كثير منهم يحكمون على الحيوانات الأُخرى. وبينما أنا هائم في تفكيري هذا إذ تذكّرتُ كُورشَ الملِكَ، الذي جعلني أعدِّل رأيي هذا، فقلت: نعم، ليس صعبا أن يحكم أحدٌ الناس، إذ وجدتُ الناس قد قبلوا حكم كورش عليهم عن طواعية، مع أن بعضهم كانوا يسكنون على مسيرة شهرين منه، وبعضهم مسيرة أربعة أشهر؛ وبعضهم لم يروه قط، وبعضهم ما كانوا ليتوقعوا حتى رؤيته.

ثم يستطرد قائلاً: لقد ولّد كورشُ في قلوب الناس رغبةً شديدة في أن يُرضوه، وأن يدوم حكمُه عليهم. لقد حكَم شعوبًا كثيرة يصعب إحصاؤها حيث كان ملكه ممتدًّا من الشرق إلى الغرب.

(Historian's History Of The World: The History of Persia .(Vol. 2p. 596-597)

ثم لخّص هذا الكتاب آراء المؤرخين المعاصرين بما تعريبه: إذا كانت العظمة تعني القتالَ دفاعًا عن العدل وكونَ الإنسان مستعدًّا لفداء النفس في هذا السبيل فلا شك أن كورش كان ملكًا عظيمًا.

ثم يقول: لم يعمل كورش شيئًا خالصًا لنفسه. لما تحالفت حكومات ميديا وبابل ومصر ضده وهاجمته، لم يرفع سيفه خلافهم إلا من أجل الدفاع. وفوق كل شيء إنه كان رحمةً متجسدةً. لم تقع على تُرسه قطرةُ دم سفَكها حرامًا، و لم يصبغ يديه بالانتقام المخيف والاعتساف الغاشم. و لم يحرّق البلاد كما فعل ملِكُ مقدونيا. و لم يكسِر أيدي الملوك المنهزمين وأرجلَهم كما فعل الملوك الفاتحونَ الآخرون، و لم

يسحَبهم على الحيطان كما فعل ملوك اليهود، ولم يشنقهم كما فعلت الروم؛ ولم يسفك الدماء كالإسكندر إله اليونان المجنون.

بالرغم من أنه كان آسيويًّا لكنه كان من أُولئك الرجال الذين يظهرون قبل أوانهم بكثير. كان أكثر الناس حلمًا. سبَق قومه خارجًا على تقاليدهم وعاداتهم؛ وبلغ قمة الرقي الإنساني قبل أن يبلغها أحد بأمد بعيد. كانت مملكته القوية تتأسس على مبدأ رفعِ مستوى الممالك المفتوحة ومنحِ أهلها الحقوقَ على قدم المساواة. لم تستسلم مدينة "تائر" لنبوخذ نصّر ولا للإسكندر إلا بعد مقاومة شديدة وحصار طويل، ولكنها فتحت أبوابها لكُورش عن طيب نفس...

وفوق كل شيء إن الشعب الصغير الذي يسمّى اليهودَ استقبلوه على نهر بابل بحماس لم يستقبلوا به أحدًا من الغابرين... لم يخلُقه الزمان بل إنه خلق الزمانَ وكان أباه. كان، ولا ريب، ملكًا فريدًا لا مثيل لـــه في التاريخ الإنساني.

(Historian's History Of The World: The History of Persia Vol. 2 p. 597-600)

كان ذو القرنين يتلقى الوحي:

والآن أثبت لكم أن كورش كان يدعي تلقّي الرؤى الصادقة من الله تعالى.

نجد في المرجع المذكور أعلاه أنه خرج ذات مرة في مهمة عسكرية، فرأى في المنام أن "داريوس" -الذي كان ابن أخيه- له جناحان أحدهما منبسط على أوروبا والآخر على آسيا. وفي الصباح أرسل كورش إلى أبي داريوس الذي كان يرافقه في السفر، وقال لـــه: يبدو أن ابنك يدبر المؤامرة ضدي. والدليل على ذلك أني رأيت البارحة في المنام كذا وكذا. ومن سنة الله معي أنه تعالى، لشدة حبه إياي، يخبرني سلفًا عن كل حادث لـــه تأثير عميق في ذاتي (المرجع السابق ص ٥٩٤-٥٩٥).

لا شك أن رؤياه كانت صادقة، وإن كان قد أخطأ في تفسيرها حيث فهِم منها أن داريوس يكيد له كيدًا، بينما كان لها في الحقيقة تفسير آخر ظهر في موعده بكل جلاء. ذلك أنه لما مات كورش اعتلى ابنُه العرشَ، فقتَله بعض الناس. فأخذ

داريوس معه بعض رجال العائلة الملكية وقتَل الشخصَ الذي اغتصب المُلكَ. فاتفقوا على اختيار داريوس ملِكًا عليهم. فقام داريوس بغزو قسم كبير من أوروبا وآسيا، وهكذا وسّع رقعة المملكة الفارسية كثيرًا (المرجع السابق ص ٦٠٠-٦٠٩).

كما يتضح من الكتاب المقدس أيضًا أن كورش كان يتلقى الإلهام الإلهي حيث يقول عزرا النبي ما نصه: "وفي السنة الأولى لكُورش ملك فارسَ عند تمام كلام الربِّ بفمِ إرميا نَبَّهَ الربُّ روحَ كورش ملِكَ فارسَ، فأَطلَقَ نداءً في كل مملكته وبالكتابة أيضًا قائلاً: هكذا قال كورشُ ملكُ فارس: جميعُ ممالك الأرض دفَعها لي الربُّ إلهُ السماء، وهو أوصاني أن أبنيَ لــه بيتًا في أورشليم التي في يهوذا. مَن منكم مِن كل شعبه لِيَكُنْ إلهُه معه ويَصعَدْ إلى أورشليم التي في يهوذا، فيبنيَ بيتَ الربِّ إلهِ إسرائيل" (عزرا ١: ١ -٣).

وهذا يعني أن الله تعالى اصطفاه، وآتاه الحكم والبلاد، ثم أمره بإلهام منه ببناء البيت المقدس في أورشليم وإطلاقِ سراح اليهود من بلاد السبي.

والعلامة الثانية التي ذكرها القرآن الكريم لذي القرنين هي أن فتوحاته بدأت أوّلاً إلى المغرب حيث ما برِح يفتح مُلكًا بعد ملك ويمضي قُدُمًا حتى وصل حيث وجَد الشمسَ تغرُب في عين حَمِئة.. أي كان لونُ مائها أسودَ، والمراد منها البحر الأسود الذي اسمه بالإنجليزية (Black sea).

وهذا ما حصل بالضبط مع كورش. فلما مكّنه الله تعالى في الأرض تحالفَ ضده ملوكُ البلاد الغربية وحملوا على مُلكه، وكانت هذه بداية فتوحاته خارج ملكه إلى الجانب الغربي حتى فتَح بابل ونينوى والمستعمرات اليونانية الواقعة في شمال آسيا الصغرى حتى بحر مَرمَرة، وهكذا وصَل كورش إلى العين التي كانت في الجانب الغربي من ملكه، والتي كان ماؤها أسود اللون. والثابت تاريخيًّا أنه فتَح هذه المناطقَ كلها. (Historian's History Of The World: The Persia Vol. History of 2 p. 607-609)

الموسوعة اليهودية مجلد ٤ ص ٤٠٣ كلمة Cyros

والعلامة الثالثة التي يبينها القرآن الكريم هي أن ذا القرنين توجَّهَ إلى الشرق بعد فتح ممالك الغرب. ويؤكد التاريخ أيضًا أن كورش بعد فتح البلاد الغربية قام بغزو البلاد الشرقية حتى وصلت حدود دولته إلى أفغانستان وبُخارى وسمرقند.

(Historian's History Of The World: The History of Persia Vol 2 p. 593).

القبائل التي أطلق عليها اسم يأجوج ومأجوج؟

والعلامة الرابعة المذكورة في القرآن هي أن ذا القرنين توجَّهَ بعد ذلك إلى بعض المناطق المتوسطة، وبنى هناك سدًّا للحيلولة دون حملات يأجوج ومأجوج. والثابت من التاريخ أن كورش حاربَ يأجوج ومأجوج، ليحمي بعض ولايات مملكته من حملاتهم. ولاستيعاب هذا الأمر لا بد أن نعرف أوّلاً: ما هي القبائل التي أُطلق عليها اسم يأجوج ومأجوج؟

إن التوراة تساعدنا في معرفة هذه القبائل حيث ورد فيها وحيُ الله تعالى إلى حزقيال النبي: "يا ابنَ آدم اجعَلْ وجهَك على جُوجٍ أرضِ ماجوجَ رئيسِ رُوشٍ ماشِكَ وتُوبالَ، وتَنبَّأْ عليه" (حزقيال٢:٣٨).

هذا يوضح أن التوراة -وهي أول مصدر عَرَّفَنا عن يأجوج ومأجوج- تطلق على سكّان مناطق الشمال اسمَ يأجوج ومأجوج، وتخبر أن مسكنهم روش (روسيا) وماشك (موسكو) وتوبال (توباسك)؛ وهي كلها مناطق شمالية.

كما يتضح من كتاب حزقيال النبي أن ملِكًا من فارس سيقاوم شعوبَ يأجوج الذين يكون معهم فارسُ وكورش وفوط (حزقيال ٣٨: ٥). وهذا يعني أن يأجوج كانوا مسيطرين على بعض المناطق الفارسية حين الإدلاء بهذا النبأ؟

تعالوا الآن لنرى ماذا تقول الكتب التاريخية في يأجوج ومأجوج؟ يقول يوسيفوس، وهو من المؤرخين القدامى، إن يأجوج ومأجوج اسم لقبائل سيدين "Scythians".

ونجد التوراة تصدّق ما قاله يوسيفوس حيث ذكرتْ بين أسماء بني يافث اسم جومر وماجوج ومادي (تكوين ١٠: ٢).

علمًا أن جومر اسم يطلق على الكِيمَرِيّين (Cimmerian) الذين كانوا يسكنون في الجانب الشرقي لآسيا الصغرى، وأما مادي فهو اسم لأهل ميديا. ويقول جيروم إن مسكن مأجوج هو بجبل القوقاز وراء البحر الأخضر (بحر قزوين). وهذه البقعة أيضًا واقعة في الشمال التي يسكن فيها سيدين. (الموسوعة اليهودية مجلد ٦ ص ١٩)

لقد علمنا من قبل من الكتاب المقدس أن يأجوج ومأجوج استولوا على فارس. فإذا كانوا هم شعب سيدين فتعالوا ننظر هل يؤكد التاريخ أن سيدين استولوا على فارس؟

والجواب: نعم، حيث نقرأ في التاريخ ما تعريبه: وكما قلنا من قبل فإن فارس وقعتْ في أيدي سيدين، أو بلفظ آخر استولى عليها ملكُ ميديا -لأن سيدين كانوا حينذاك حكامًا على ميديا- وهو المَلِك الذي كانت عاصمته أكباتانا (Ecbatana) التي خلّصها من يديه كورشُ الأعظمُ.

(Historian's History Of The World vol. 2 p. 589)

لقد ثبت من هذا أن يأجوج ومأجوج استولوا على فارس، كما ثبت أيضًا أن كورش الملك هو الذي حرّر فارس من قبضتهم. وكذلك يؤكد التاريخ أن يأجوج ومأجوج كانوا يؤذون الشعوب الجنوبية بغاراتهم المتكررة، حيث كتب هيرودوتس بأن سيدين كانوا يشنّون الغارات على بلاد الجنوب من مناطق الشمال من بين جبل القوقاز وبحر قزوين عن طريق دربند. (المرجع السابق).

السد الذي بناه ذو القرنين:

والشق الثاني للعلامة الرابعة الواردة في القرآن الكريم أن ذا القرنين بنى جدارًا يصدّ حملات يأجوج ومأجوج. تعالوا نبحث الآن: هل وُجد في هذه البقعة من الأرض جدار؟

والجواب أنه في نفس المكان الذي يخبر عنه هيرودوتس المؤرخ أنه كان طريقًا لحملات سيدين وُجد جدارٌ يُعرَف بين الناس بجدار دربند. وعندي أنه سمِّي في الأغلب باسم دربند* لأن سيدين كانوا مُنعوا من الغارات بذلك الجدار. ونقرأ في دائرة المعارف البريطانية عن دربند أنه كان فيها جدار بلغ ارتفاعه عند بنائه ٢٩ ذراعًا وعرضُه ١٠ أذرع، وكانت فيه أبواب حديدية وأبراج للرصد والحراسة. كان يمتد من بحر قزوين إلى جبال القوقاز على طول خمسين ميلاً. بناه الإسكندر، ورمّمه قبادُ الملِكُ الساساني. (الموسوعة البريطانية مجلد ٨ ص ٦٤ كلمة Derbend)

ولقد تبيّن من هذه الشهادات أنه كان في هذا المقام جدار، ولكني لم أعثر بعد على شهادة تاريخية تدل على أن كورش الملك هو الذي بنى هذا الجدار. بيد أني أرى من غير المعقول أن يكون الإسكندر هو باني هذا الجدار. ذلك أن الإسكندر، كما يظهر من التاريخ، هزَم داريوس آخرَ مرة في صيف سنة ٣٣٠ قبل الميلاد حيث وقع داريوس صريعًا (الموسوعة البريطانية مجلد ١ ص ٥٦٨-٥٦٩ كلمة Alexander The Great)، ومع ذلك لم يتمكن الإسكندر من الاستيلاء على بلاد فارس كلها، إذ كانت جيوش الولايات الفارسية العديدة جاهزة لمقاومته، لذلك كان عليه أن يتقدم إلى الأمام من دون توقف، وفي أثناء تقدمه حصلت الثورة فيما ترك وراءه من الممالك، فاضطر للعودة. وبعد أن أخمد نار الثورة تقدّمَ الإسكندر إلى كابول حيث بدأت جنوده تتمرد عليه. وفي رأي المؤرخين أنه تقدم إلى الهند في شتاء سنة ٣٢٩ قبل الميلاد. ولقد قام بهذا السفر بسرعة جعلت المؤرخين يشكّون حتى في سفره هذا. وعلى كل حال إنه لمن الثابت المحقق أن الإسكندر لم يتوقف في طريقه، بل لم يزل يحارب ويتقدم إلى أن توجهَ إلى الهند، ورجع منها بطريق البحر في السفن، ووصل إلى إيران في سنة ٣٢٤ قبل

* علمًا أن "دربند" يعني حرفيًّا بابٌ مغلَق (المترجم)

الميلاد. ومكث هناك مدة قليلة اضطر فيها مرة أُخرى لإخماد نار التمرد في جيوشه، ثم توجّهَ عائدًا إلى وطنه، وتُوفِّي وهو في الطريق في ١٣ يونيو عام ٣٢٣ قبل الميلاد. (الموسوعة البريطانية مجلد ١ ص ٥٤٩ كلمة Alexander The Great).

تؤكد هذه الأحداث بكل جلاء أنه ما كان بوسع الإسكندر، والحال هذه، أن يجد وقتًا كافيًا لبناء مثل هذا الجدار الطويل. ويبدو أن قول بعض المفسرين المسلمين أن ذا القرنين هو الإسكندر المقدوني (الكشاف، والقرطبي) جعَل الكُتّابَ المسيحيين ينخدعون، فظنوا أن الإسكندر هو الذي بنى هذا الجدار.

ولكن مجرد الإثبات بأن الإسكندر لم يبن هذا السد ليس بكاف، بل يحتاج الأمر إلى شهادة تؤكد -ولو على الأغلب لا على سبيل اليقين- أن كورش الملِكَ هو الذي بنى هذا الجدار.

وبما أنني لم أجد بعد شهادة من التاريخ تثبت على وجه اليقين أن كورش بنى هذا السد فلذلك لم يبق أمامنا طريق آخر غير القياس. فاستنتجت قياسًا ببعض الوقائع التاريخية بأن كورش كان بانيَ الجدار. وفيما يلي أدلتي:

١- يظهر من التاريخ أن داريوس -الذي اعتلى العرش بعد ابن كورش والذي رأى عنه كورش في الرؤيا أن حكومته ستكون في المشرق والمغرب- كان قد ذهب إلى أوروبا مرورًا باليونان ليهاجم سيدين.

(Historian's History Of The World vol. 2 p. 610).

ومن غير المعقول تمامًا أن يذهب داريوس إلى أوروبا عن طريق اليونان للهجوم على سيدين مع أنهم كانوا قاطنين في جواره في الشمال! هناك تفسير واحد -كما يقضي القياس- لذهابه إلى أوروبا لهذا الغرض، وهو أن طريق دربند كان مسدودًا لأن كورش كان قد أقام هناك الجدار، والهجوم على سيدين بجيش كبير من خلال أبواب الجدار الضيقة لم يكن خاليًا من الخطر، أما هدم الجدار فكان أكثر خطورة، لذلك لم يجد داريوس بدًّا لكسر قوة سيدين إلا الهجوم عليهم من قِبل أوروبا حيث

كان الجدار يقف سدًّا منيعًا أمام سيدين من جهة، بينما كان يزحف داريوس عليهم بجحافله من جهة أُخرى.

٢- إذا لم يكن الجدار موجودًا في دربند قبل داريوس فمن المستحيل أن نتصور عن مَلكٍ عاقلٍ مثله أن يدور لمسافة ألف ميل تقريبًا للهجوم على سيدين تاركًا ملكه مكشوفًا للأعداء، إذ كان في هذه الخطوة خطر أن يخرج سيدين من جواره ويشنّوا الغارة على بلده بحيث ما كان بوسعه أن يحمي ملكه، أو يتلقى أيةَ مساعدة من أهله عند الضرورة. فذهابه إلى أوروبا للهجوم على سيدين مطمئنًا يدل دلالة واضحة على وجود السد في دربند قبل حملته، مما جعل باله مطمئنًا بأنه لا يمكن لسيدين أن يحملوا على مُلكه من تلك الجهة لكون السد يقف حائلاً منيعًا بينهم وبين مُلكه.

وبعد، فأرى أنني قد أثبتُّ على وجه اليقين توافُرَ الأمور الأربعة المذكورة في القرآن عن ذي القرنين بحق كورش الملِك، اللهم إلا أمر بناء الجدار الذي قلتُ عنه قياسًا بوقائع ذلك الزمان -التي لم يصلنا منها إلا القليل- أن كورش الملك هو باني ذلك الجدار بالقرب من دربند، ولا سيما حين نرى أن التاريخ يشهد أن يأجوج ومأجوج كانوا حاكمين على ملكه قبل اعتلائه العرش، وكانوا يشنّون غاراهم من حين لآخر على فارس وعلى مملكته الواسعة، وأن حملات سيدين من جهة دربند كانت انتهت بعد زمن كورش.

(Historian's History Of The World vol. 2 p. 589)

(والموسوعة البريطانية مجلد ١ ص ٥٤٩ كلمة Alexander The Great)

فالخلاصة أنه يبدو أن ذا القرنين المذكور في القرآن الكريم ما هو إلا كورش الملك. وبعد إثبات هذا الأمر أقوم بتفسير الآيات القرآنية كلاً على حدة.

- يعلن الله تعالى: لقد كنّا وهبنا لذي القرنين في الدنيا قوة كبيرة، وهيّأنا له من كل الأسباب.

- لقد أثبتنا فيما مضى بشواهد من الكتاب المقدس وأقوال كورش نفسه أن الله تعالى كان قد وهب له قوة كبيرة بفضله الخاص.

- اعلم أن قوله تعالى ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ (الكهف: ٨٧) لا يعني أنه بلغ الحد الغربي النهائي من الأرض، بل المراد منه الحد الغربي لممالكه المفتوحة أي الحد الغربي الشمالي لآسيا الصغرى.

ولفظ ﴿عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ (الكهف: ٨٧) يعني الماء الممزوج بالطين الأسود حيث يبدو لونه مائلاً إلى السواد بسبب الطين، والمراد منه هنا البحر الأسود؛ وقد سمِّي بذلك لأن لون مائه مائل إلى السواد بسبب عمقه؛ كما أن معنى الحمئة -أي الماء المخلوط بالطين- أيضًا ينطبق على هذا البحر حرفيًّا، إذ يمتاز عن سائر البحار بكون مائه أقل ملوحة. ذلك أن معظم مياهه تأتي من الأنهار والفيضانات المنحدرة إليه من أراضي روسيا وأرمينيا* وبلغاريا؛ مما يجعل ماءه أكثرَ طينًا وأقلَّ ملوحة بالمقارنة بالبحار الأخرى. (الموسوعة البريطانية مجلد ٢ ص ٢٥٨ كلمة: Black sea).

وفي قوله تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ (الكهف: ٨٧) لا يراد بالعين عين ماء عادية، بل بحر واسع جدًّا بحيث لو قام أحد على شاطئه يبدو له كأن الشمس تغرب فيه. وقد سمى البحر عينًا للدلالة على بُعدِ عُمقه، وعلى أن الماء يتفجر من تحت أديم الأرض ويختلط بمائه.

والمراد من القوم في قوله تعالى ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا﴾ (الكهف: ٨٧) الدولة الحاكمة على الساحل الشرقي لآسيا الصغرى، والتي تحالفت مع الحكومات الأُخرى للهجوم على كورش دونما سبب بعد فتح بابل. ثم يبين الله تعالى: قُلْنا

---

* هذا سهو، والصحيح "رومانيا" كما هو مذكور في المرجع المشار إليه في آخر الفقرة (المترجم)

لذي القرنين عن هذه الشعوب: إما أن تعذّبهم على شرورهم، وإما أن تحسن إليهم لاستمالتهم.

هذا جواب كورش الملك على هذا الإلهام حيث قال: إنما أريد العفو عنهم هذه المرة، وسأعذّبهم إن عادوا إلى شرورهم.

وفي قوله ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ﴾ (الكهف: ٨٨) دليل على أن كورش كان يعتنق دينًا يحث على الإيمان بالبعث بعد الموت. ويشهد التاريخ أنه كان من أتباع الديانة الزرادشتية المخلصين، وهي الديانة التي تمتاز -بعد الإسلام- بالتأكيد على البعث بعد الموت من بين جميع الديانات. (الموسوعة اليهودية مجلد ٤ ص ٤٠٤). بهذه الآية يبدأ كلام ذي القرنين، ولا شك أنه دليل على حسن أخلاقه. وقد سبق أن ذكرنا أن كورش كان رحيمًا، وكان يعامل الشعوب التي فتح بلدانها بمنتهى المحبة والرحمة.

ولو قيل هنا: لماذا خيّره الله تعالى بين التعذيب والإحسان وقال: ﴿إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ (الكهف: ٨٧) فالجواب أن هذا أسلوب رباني لطيف لترغيبه في الرفق والرحمة. لقد قدّم الله تعالى ذكر العذاب لبيان أنه يحق لك أن تعذبهم لأنهم ارتكبوا الشر، ثم أعقبه بقوله (وإما أن تتخذ فيهم حُسنًا) أي هناك خيار آخر أمامك وهو أن تترفق بهم؛ وهكذا بأسلوب لطيف أتاح لذي القرنين الفرصة لاكتساب حسنة خالصة. لأنه لو رحمهم بأمر من الله تعالى لم تكن هناك فرصة لإظهار فطرته الحسنة ولقيامه بالخير بطبعه وعن طواعية، ولكن هذا الأسلوب أدى هذا الغرض، فاستحق ذو القرنين ثوابًا أكثر.

تتحدث الآية ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ (الكهف: ٩١) عن سفر ذي القرنين إلى الجانب الشرقي أي أفغانستان. وقد يكون المراد من قوله تعالى أن ذلك القوم لم يكونوا متحضرين، وكانت البيوت والمباني عندهم قليلة، فكانوا يسكنون في الأكواخ أو الخيام. وهكذا كانت حالة القبائل الأفغانية في ذلك الزمان، فلم يكونوا متحضرين بما يكفي.

ولكني أرى أن التدبر في ألفاظ القرآن الكريم يؤدي بنا إلى الاعتقاد أن المنطقة المشار إليها هي بلوجستان، لأن الآية تقول: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ (الكهف: ٩١).. أي أن أشعّة الشمس كانت تقع عليهم رأسًا ولم يكن بينها وبينهم حاجز؛ أي أن الأراضي كانت سهولاً جرداء ليس بها أشجار عالية ولا جبال شامخة. علمًا أن عامة المؤرخين كانوا يونانيين فذكروا على العموم تلك الانتصارات التي حققها ذو القرنين في منطقتهم، أما انتصاراته التي حصلت في بلاد الشرق فلم يتناولوها بالتفصيل، وإنما قالوا بإيجاز شديد إن كورش زحف على أفغانستان تجاه الشرق وفتح تلك البلاد. وبما أن منطقة سيستان كانت جزءًا من الإمبراطورية الفارسية لذلك أرى أن هذه الآية تشير إلى ولاية بلوجستان ذات الصحراء الرملية والتلال. أما إذا اكتفينا ببيان التاريخ فيبدو أنها تشير إلى القوم القاطنين في أرض ذات صحراء وسهول ممتدة لمئات الأميال في الجانب الغربي لهرات وسيستان وفي الجهة الشمالية من دُزداب إلى مشهد من البلاد الفارسية.

أما قوله تعالى ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ (الكهف: ٩٢) فيعني أننا قمنا بحمايته وحراسته في جميع أسفاره، ذلك أن الإحاطة بكل ما لديه خُبرًا لا يعني سوى مراقبة أحواله ورعايته. وفي الآية تشير إلى الرحلة الثالثة لكورش التي قام بها ناحية الشمال من إيران إلى الولاية الواقعة بين بحر قزوين وجبال القوقاز. (الموسوعة البريطانية مجلد ٥ ص ٤١٠ كلمة Cyrus)

لقد سبق أن ذكرنا أن لفظ (كاد) يفيد الإيجاب إذا كان مسبوقًا بحرف النفي، ويفيد النفيَ إذا كان مسبوقًا بحرف الإثبات؛ فتعني الآية أنهم كانوا يفقهون كلام ذي القرنين وقومه ولكن بصعوبة. ويُستنبط من ذلك أن القوم كانوا جيرانًا للفرس يختلطون بهم بكثرة. كانت لغتهم غير لغة كورش ورجاله، ولكنهم كانوا يفقهون كلام أهالي ميديا وفارس لحد ما نتيجة التجاور والتزاور.

وإذا نظرنا إلى الموقع الجغرافي لمنطقة دربند حيث بُني السد أو الجدار وجدنا الوصف القرآني ينطبق عليها تمامًا، لأن أرضها متصلة بأرض ميديا وفارس، بل

صارت فيما بعد جزءًا من فارس، وإن كانت روسيا أدخلتها الآن في مملكتها. أما المراد من (بين السدين) فهو المقام الواقع بين بحر قزوين وجبال القوقاز. وهذان - أي بحر قزوين من جانب وجبال القوقاز من جانب آخر- كانا كسَدَّينِ، وكان المعبر الواقع بينهما يهدد أمن هؤلاء القوم. وبما أن هؤلاء كانوا ساكنين في جوار يأجوج ومأجوج وكانوا هدفًا لغاراتهم بكثرة، فاستدعَوا كورشَ أن يجعل لهم على نفقتهم سدًّا يحميهم من هجمات يأجوج ومأجوج.

قال ذو القرنين: لقد أعطاني الله تعالى علم هذه الأمور، وأستطيع القيام بها على أحسن وجه. سأضع الخطة، وأما أنتم فأعينوني بقوة.. أي أنكم أهل المنطقة وبإمكانكم مساعدتي بالعمال والمهنيين، فأْتوني بهم أَجعلْ بينكم وبين يأجوج ومأجوج جدارًا.

إلى جانب مطلبه بتوفير العمال والمهنيين طلَب ذو القرنين منهم أن يأتوه بالحديد والنحاس. ذلك أن إقامة السد كان ضروريًّا لحمايتهم من هجمات العدو، كما كان لا بد لهم من الأبواب في الجدار كيلا تتضرر تجارتهم وليبقى سبيل القوافل التجارية مفتوحًا. وكان لا بد من الحديد لكي تكون الأبواب صلبة قوية، وكان النحاس ضروريًّا كيلا تصاب الأبواب بالصدأ.

أي بعد اكتمال بناء السد انتهت غارات يأجوج ومأجوج. كان السد عاليًا فصعب عليهم عبوره، كما كان ضخمًا فما استطاعوا خرقه.

ولكن ليس المراد أن هذا السد أو الجدار كان من نوع يستحيل الصعود عليه أو نقبه، بل المراد أن الحرس المقيمين في أبراجه وحصونه كانوا يقومون بحراسته على الدوام مما جعل من المستحيل على يأجوج ومأجوج أن يظهَروه أو ينقبوه، لأن أحدًا لا يقدر على القتال وهو يصعد على الجدار، ولكن الحراس القاعدين في المراصد فوق الجدار يستطيعون منعه بدون صعوبة.

إن قول كورش هذا يدل على عظمة إيمانه بالله تعالى، حيث يؤكد أن المؤمن لا يصاب بالكبر والزهو مهما أتى بأعمال عظيمة، بل ينسب إنجازاته كلها إلى الله تعالى دائمًا.

أما قول كورش ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ (الكهف: ٩٩) فيدل على أن الله تعالى أخبره بالإلهام أن هذه الشعوب ستتقدم إلى الجنوب والشرق في يوم من الأيام مرة أُخرى، وعندها سيصبح هذا السد بلا جدوى؛ هذا هو المراد من قوله تعالى﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾. وفي سورة الأنبياء آياتٌ تنبئ صراحة أن هذه الشعوب ستنتشر في العالم كله عن طريق البحر.

وقد يعني تَهدُّم الجدار انهيارَ حكم المسلمين.

إلى هنا انتهى كلام ذي القرنين، حيث يخبر الله تعالى الآن أنه عندما يحين الميعاد الإلهي الذي أشار إليه ذو القرنين هنا سيبعث الله هؤلاء الأقوام ويمكّنهم في الأرض مرة أخرى، وستتحارب الأمم، وتختلط شعوب الشمال والغرب بشعوب الجنوب والشرق، وهكذا سيجمع الله تعالى العالم كله.. بمعنى أن السفر في ذلك الزمان سيصبح سهلاً بحيث ستكون الدنيا كلها كبلد واحد. والحق أن هذه العلامات تنطبق تمامًا على عصرنا هذا.

لقد أخبر القرآن الكريم في مقام آخر عن انتشار يأجوج ومأجوج بالكلمات التالية: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ* وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٩٧-٩٨). أي عندما نُـــزيل العائق من أمام يأجوج ومأجوج ليقطعوا المسافات الطويلة على متون أمواج البحر، وينتشروا في الدنيا كلها مسرعين، عندها سيتحقق وعدُنا بهلاكهم؛ وسيأخذهم العذاب وهم يقولون في حيرة واستغراب: استمررنا في ظلم العالم ولم نتوقع أن العذاب سيدركنا، فدمارنا اليوم مؤكد.

كما تنبئ هذه الآية أن يأجوج ومأجوج لن يخرجوا من خلال خرق في جدار من الجدران، بل سيأتون عبر البحار. وتنبئ أيضًا أنهم سيستولون على البحار وستمخر سفنهم في بحار العالم كلها، لأن الآية تقول ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ .. أي أنهم سيأتون راكبين أمواج البحار. كذلك تخبرنا هذه الآية أن أسفارهم ستُطوَى بسرعة كبيرة، وفي هذا إشارة إلى اختراع المراكب البحرية التي تجري بطاقة البخار.

ترون كيف تحقَّقَ هذا النبأُ القرآني حرفيًّا! لقد انتشرت هذه الشعوب في الشرق عبر البحار، والسفر في البحار في زمنهم يتم بسرعة لا نظير لها في الأزمنة الغابرة. يخبر هنا الله تعالى: ستكون تلك الأيام كمثل جهنم، حيث يكثُر التشاحن والعداء بين الناس، وتتناحر الدول والبلاد لتستولي بعضها على بعض.

والمعنى الثاني هو أن هذه الشعوب ستصبح لادينية، غافلة عن الله تعالى تمامًا، وستأتي أعمالاً تُدخل صاحبها في نار جهنم.

يخبر الله تعالى هنا أن العبادة ستتلاشى من بينهم كلية. إن هؤلاء القوم الذين تجشموا المشاق الجِسامَ من أجل الله تعالى في بداية رقيهم، سينسَون الله تعالى كلية في الزمن الأخير، وسينسبون كل إنجاز من إنجازاتهم إلى كفاءتهم الذاتية.

وقوله تعالى ﴿وَكَانُوا لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ (الكهف: ١٠٢) يعني أن الرَّين والصدأ الروحاني سيغشى قلوبهم بحيث تخلو تمامًا من أية قوة أو رغبة لسماع كلام الله تعالى. وهذه هي بالضبط حال الشعوب الغربية اليوم. فبدلاً من أن يستمعوا لوحي الله الجديد الذي أنــزله بعد كتابهم، جعلوا كتابهم، الذي يؤمنون به في الظاهر، هدفًا لأقذعِ الطعن وأشنعه. يؤلفون في كل يوم جديد الكتب ليُثبتوا فيها أن المسيح المذكور في العهد الجديد لم يكن إلا شخصية وهمية، ومرة أُخرى أن الكتاب المقدس لم يكن من وحي الله تعالى، بل كان من افتراء البشر.

نظرة إجمالية على البيان السابق:

لقد تحدثت الآيات عن ازدهار الشعوب المسيحية وانتشارها في الدنيا في الزمن الأخير، وإهمالها الدينَ، وتغافُلها عن ذكر الله تعالى. وكذلك أخبر الله تعالى أنه سيهيئ من الأسباب الغيبية ما يبدّل به رقيَّها بالانتكاس والانحطاط، فيأخذها القنوط واليأس، فتتوجه أخيرًا إلى الدين كما يشير إليه الكشف الذي رآه موسى عليه السلام، فتدرك أنها كانت على خطأ، فترجع إلى مجمع البحرين وتميل إلى الإسلام.

وأرى من المناسب أن أذكر في هذا المقام الأنباء المذكورة في التوراة عن مصير يأجوج ومأجوج. ورد في رؤيا يوحنا اللاهوتي: "ثم متى تمّت الألفُ السَّنة يُحرَّر الشيطان من سجنه، ويخرُجِ ليُضِلَّ الأممَ الذين في أربعِ زوايا الأرض جوجَ وماجوجَ، ليجمَعهم للحرب" (رؤيا يوحنا اللاهوتي ٢٠: ٧ و٨).

علمًا أن المراد من "الألف السنة" هنا ألف سنة من العام الهجري، أي أن الشيطان سيتحرر من سجنه بعد ألف سنة من ظهور سيدنا محمد ﷺ. وهكذا وقع، فإن الشعوب الغربية ثبّتت أقدامَها في الهند سنة ١٦١١ الميلادية، وكانت هذه بداية عهد ازدهار يأجوج. (الموسوعة البريطانية مجلد ١١ كلمة India).

وإذا قرأنا معًا ما ورد في رؤيا يوحنا اللاهوتي هذه وما ورد في رؤيا حزقيال الواردة في (حزقيال ٣٨ و٣٩) تبيَّنَ لنا أن رقيهم كان سيبدأ في القرن السادس عشر؛ وأما غلبتهم على العالم كله واستيلاؤهم على جميع البلاد فيكون في الزمن الأخير.

ولقد سبق أن أشرتُ إلى أنه كان من المقدر أن يظهر في آخر الزمان مثيلٌ لذي القرنين في ظروف مشابهة لظروفه، لأن القرآن الكريم قد ذكر هذه الواقعة كنبأ غيبي أيضًا سيتحقق في المستقبل.

تتحدث الآيات عن أولئك الذين يزعمون أن المسيح مخلِّص وابنُ الله، والذين جاء ذكرهم في مستهل هذه السورة. إذًا فقد تبيّنَ من هذه الآية جليًّا أن المذكورين في الآيات السابقة هم المسيحيون ليس إلا.

أي أنهم جعلوا غاية حياتهم القصوى اختراع الأشياء التي تنفع الإنسان في دنياه فقط، ولا يلتفتون إلى الدين، وإنما يعدّونه لغوًا لا جدوى منه. أي لن نبقي لمخترعاتهم أثرًا، ولن نقيم لهم يوم القيامة بسببها وزنًا، لأن كافة أعمالهم كانت من أجل الدنيا لا للآخرة. أي أن عدم إقامة الوزن لأعمالهم يوم القيامة ليس كعقاب، بل هو الجزاء الوِفاق لأعمالهم، لأنهم ما داموا لم يفعلوا لله أي شيء فكيف يمكن أن يرجوا من الله تعالى أيَّ ثواب أُخْرويّ على ما فعلوا.

ولفظ "جهنم" عطفُ بيانٍ لـ "جزاؤهم"، والمعنى أن مرادنا من الجزاء جهنم، وذلك لكفرهم واتخاذهم آياتِ الله ورسله هُزُوًا.. أي أن هذه الشعوب لن تَكنَّ أيَّ احترام تجاه كلام الله تعالى ورسلِه الكرام. سيؤلّهون إنسانًا ليتخذوا جميع الأنبياء سخريةً وهُزُوًا. وهذه هي بالضبط حال المسيحيين كما تشاهدون. اتخذوا المسيح عليه السلام ابنًا لله تعالى، ويسيئون إلى سائر الأنبياء إساءة بالغة، ويعدّونهم لغوًا لا جدوى منهم، كما يعتبرون الشريعة لعنةً.

عندما يحل العذاب على هؤلاء القوم سيبتدئ زمن رقي المؤمنين لينالوا الجزاء على صبرهم، وسيجدون في تقديم التضحيات لله ودينِه متعة عظيمة حتى إنهم لن يريدوا الخروج من هذا الوضع رغم ما يبذلون من تضحيات بالأموال والأرواح؛ وإنما سيشعرون باللذة كلها في هذا السفر راكبين تلك "السفينة المخروقة" ولن يريدوا مغادرتها.

أي أن هؤلاء يُطلقون دعاوي عريضة بأنهم اخترعوا كذا وكذا من المصنوعات، واكتشفوا كيت وكيت من العلوم، وأنهم على وشك أن يدركوا سر الكون كله، لكن قل لهم يا محمد ﷺ، وبكلمات أُخرى قولوا يا أتباعَ محمد الموجودين في ذلك الزمان: إن محاولاتكم لمعرفة سر الكون ستبقى دائمًا كيومها الأول، وستجدون أنفسكم رغم كل المحاولات والجهود واقفين على الدوام حيث بدأتم رحلتكم هذه، ولن تكتشفوا من أسرار الكون وخواص الأشياء التي أودعها الله تعالى خَلْقَه ما

يساوى قطرةً إزاء بحر.كما تتضمن الآية الإشارةَ إلى كون ذلك العصر عصرَ نشر الكتب، وأن هذه الشعوب ستهتم كثيرًا بإخراج مؤلفات علمية.

بعد ذكر هذه الأنباء والعلوم الغيبية يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن قُلْ لهم يا محمد: لقد بيّنت لكم هذا القدر من العلوم السماوية، ومع ذلك لا أقول لكم إني ابن الله أو أني متصف بالصفات الإلهية؛ إنما أنا بشر مثلكم، ولا يميّزني عنكم شيء سوى كوني موردًا لوحي الله تعالى. فإن كنتم راغبين في اقتناء هذه النعم فكونوا موحِّدين مثلي، واعملوا بوصايا الله تعالى، وامتنِعوا عن الإشراك به؛ ثم انظروا كيف يتفضل الله عليكم، ويفتح لكم خزائن الغيب.

وقال رسول الله ﷺ: "مَن قرأ عشرَ آيات من آخر الكهف عُصم من فتنة الدجال" (مسند أحمد: مسند القبائل رقم الحديث ٢٦٢٤٤). وقوله ﷺ هذا أيضًا برهان قوي على أن المراد من الدجال ويأجوج ومأجوج ليس إلا الفتنة المسيحية، لأن هذه الآيات إنما تتحدث عن هؤلاء القوم، كما لا يخفى ذلك على من يقرأها بتدبر وإمعان.

قصة أهل الكهف

إن أصحاب الكهف هم المسيحيون الأوائل الذين تحملوا في سبيل الدين أشد العذاب، فجزاهم الله على تضحياتهم العظيمة هذه في آخر المطاف، وآتاهم ترقيات مادية وروحانية بفضل منه ورحمة. وكان هذا قبل ظهور النبي ﷺ، حيث كان النصارى الموجودون زمن بعثته ﷺ قد ضلّوا صراط الحق، وقد أشار الله تعالى بذكر أصحاب الكهف إلى أن اليهود لما أسخطوا ربهم اختار الله تعالى أصحابَ الكهف، أو بتعبير آخر، المسيحيين الأوائل الذين تمسكوا بالحق والسداد، واختصهم بأفضاله وإنعاماته.

إنه لمن المُضحك المُبكي أن الله تعالى يصرح هنا أن أصحاب الكهف ليسوا من العجائب، بل كانوا آيةً كغيرها من آيات الله ﷻ، ولكن المسلمين يقدّمونهم كأعجوبة من العجائب. اعلم أن الرشد هو الهداية، ولكن الرُّشد يقال في الأمور الدنيوية والأخروية، بينما الرَّشَد يقال في الأمور الأخروية لا غير (الأقرب)، وعليه فدعاؤهم هذا يعني: اللهم افتَحْ لنا طريقَ الخروج من محنتنا وبابَ الفلاح في أمرنا. يقول الله تعالى: منعناهم من سماع أخبار الناس بإبقائهم في الكهف لسنين، فلم يعرفوا حال أهل زمانهم.

من هم أصحاب الكهف؟ وأين كانوا؟ وما هي أحوالهم؟ هذا سؤال بالغ الأهمية، وما زال مثارَ فضول المفسرين على مر القرون. وللإجابة عليه أُسجّل أوّلاً بعض ما ذكره المفسرون القدامى بهذا الصدد من روايات.

مما قيل في أصحاب الكهف:

الرواية الأولى: قال صاحب روح المعاني: نبؤهم حسبما ذكره المؤرخ الشهير ابن إسحاق وغيره أنه لما تفشى الشرك بين المسيحيين وعبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت أزعج ذلك الموحّدين منهم. وكان أحد ملوك المسيحيين -واسمه دقيانوس، وفي رواية دقيوس- يقتل النصارى الموحّدين. فألقى الشرطة القبض على فتية من هؤلاء الموحدين الذين كانوا من عظماء مدينتهم التي اسمها أفسوس، وفي بعض الروايات طرسوس. ولما أحضروهم إلى الملك عنّفهم على عدم سجودهم للأصنام، ولكنهم تمسكوا بالتوحيد. فأمهلهم الملك للمزيد من التفكير والتأمل، فاغتنموا الفرصة وفروا واختفَوا في غار اسمه بنجلوس، واشتغلوا هنالك في العبادة، واختاروا أحدًا منهم، واسمه يمليخا، ليُحضر لهم الطعام من المدينة. فكان يدخل المدينة متنكرًا ويأتي بالطعام. فعلِم في يوم من الأيام أن الملك قد رجع إلى المدينة بعد أن خرج منها لبعض المهام، وأنه أمر بإحضار الفتية. فأسرع هذا إلى أصحابه باكيًا وبلّغهم الخبر. ففزعوا إلى الله تعالى وبكوا، ولما فرغوا من دعائهم ضرب الله على آذانهم وناموا، ونفقتهم ومتاعهم بجنبهم، وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد. فخرج الملك في طلبهم، ولكن لم يستطع أحد من رجاله أن يدخل الكهف. فقال أحد رجاله: أيها الملك، أليس لو قدرتَ عليهم قتلتَهم؟ قال: بلى. قال: ابْنِ على باب الكهف جدارًا وتسدّه، ودَعْهم يموتوا جوعًا وعطشًا. ففعل. ثم كان من شأنهم ما قص الله تعالى في الآيات التالية (انظر روح المعاني).

الرواية الثانية: أخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن وهب بن منبه قال: أن واحدًا من حواريّي المسيح عليه السلام كان في سفر، فجاء إلى مدينة كان مَلِكُها يعبد الأصنام، وكان من أوامره أن لا يدخل المدينة أحد إلا بعد السجود لصنم منصوب على بابها. ولكن الحواري كره أن يدخلها، فأتى حمامًا خارج المدينة وأقام فيه، وأخذ يبشر؛ فصدّقه عديد من الناس. حتى جاء ابن الملك بامرأة فاحشة يدخل بها الحمام، فنصحه الحواري، فرجع في ذلك اليوم. ولكنه عاد مرة أُخرى، فنهره الحواري، فلم يلتفت إليه ودخل الحمام مع المرأة، فباتا في الحمام، ووُجد في الصباح ميتًا. فقيل للملك:

قتَل ابنَك صاحبُ الحمام. فبدأ الملك التحقيق، وفرَّ صاحب الحمام وأصحابه جميعًا مع فتية دخلوا في المسيحية، ومروا على صاحب لهم في زرع لــه وهو على مثل أمرهم، فأخذهم إلى غار حيث اختفوا فيه. ولما بلغ ذلك الملكَ خرج لإلقاء القبض عليهم. وبعدها تقول الرواية نفس ما ورد في الرواية السالفة. (المرجع السابق).

الرواية الثالثة: أخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: غزونا مع معاوية نحو الروم، فمررنا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف. فبعث رجالاً فقال: اذهبوا فادخلوا الكهف، فانظروا. فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحًا فأخرجتْهم (الدر المنثور).

وفي رواية أن ابن عباس قال إنه رأى عظام أصحاب الكهف، وكانت عمرها ثلاث مائة سنة (الدر المنثور)*.

وفيما يتعلق بمصيرهم فقد وردت في التفاسير الروايات التالية:

سلّط الله ﷻ على أصحاب الكهف النوم دهرًا طويلاً، ثم بعَثهم. فأرسلوا أحدًا منهم ليأتي لهم بالطعام. فذهب ودفع إلى صاحب المحل الدرهمَ، فلما رأى الدرهم تحير وأنكره لأنه درهم قديم، ودفعه إلى جاره، فتحيروا جميعًا وظنوا أنها عملة بلد أجنبي. فوصل الخبر إلى الملك الذي اسمه يندوسيس، فلما سمع حكايته ذهب معه إلى الكهف، فسلّم الملك على أصحاب الكهف وعانقَهم، وتكلم معهم لبعض الوقت، ونصحوه. ثم عادوا إلى مضاجعهم وماتوا فورًا (ابن كثير، وروح المعاني).

وفي رواية أنه لما وصل الملك وأصحابه إلى باب الكهف مات أصحاب الكهف جميعًا، فلم يستطيعوا أن يروهم أحياء، وأن الذي ذهب ليأتي بالطعام أيضًا مات بعد وصوله هناك (الدر المنثور، وتفسير ابن أبي حاتم).

---

* ونص الرواية: "غزا ابن عباس مع حبيب بن مَسْلَمة، فمرّوا بالكهف، فإذا فيــه عظــام، فقال رجل: هذه عظام أهل الكهف. فقال ابن عباس: ذهبتْ عظامُهم أكثرَ من ثلاث مائة سنة. وفي رواية: بلِيتْ عظامهم منذ أكثر من ثلاث مائة سنة" (الدر المنثور، وابن كثير).

والحادث الذي جاء فيه اسم "وقيس" في المصادر المسيحية أيضًا. يقول المؤرخ الإنجليزي الشهير "غبن" (Gibbon) إن قصة النائمين السبعة كتبها القس غريغوري (Gregory) من مدينة طورس، وأرى تسجيلها هنا ضروريًّا. كانت هذه القصة شهيرة بين المسيحيين السوريين، وقد أخذها غريغوري منهم. والقصة التي ذكرها "غبن" تشبه لحد كبير الروايةَ التي ذكرها ابن إسحاق، حيث تقول: إن فتيانًا مسيحيين من عظماء مدينة أفسيس تعرضوا لاضطهاد الملك "وقيس"، فاختفوا في الغار، فسد الملك باب الغار، فأنامهم الله لمدة ١٨٠ سنة. ثم إن غلمانًا لــ أيدوليس، وهو صاحب المنطقة التي فيها الغار، أزالوا الأحجار عن باب الغار لبعض حاجاتهم، ولما دخلت فيه أشعة الشمس أحياهم الله تعالى. فلما انتبهوا ظنوا أنهم لم يناموا إلا ساعات. فأحسوا بالجوع، وأرسلوا أحدًا منهم واسمه جيمبليكس إلى المدينة ليأتي لهم بالطعام. فوجد المدينة قد تغيرت معالمها، ووجد على بابها صليبًا، فأخذت منه الحيرة كل مأخذ. ولما قدّم الدراهم للخباز أنكر هيئته ودراهمه وتحير، وظن أن هذا قد عثر على كنـــز، فأخذه إلى القاضي. فلما سمعوا منه القصة ذهب الملك ثيودوسيس مع حاشيته إلى الكهف، فباركهم أصحابُ الكهف، وقصوا عليهم القصة، ثم ماتوا (ازدهار حكومة روما وسقوطها المجلد الأول ص ١٩٧).

ويقول العلامة أبو حيان: يوجد بالقرب من قرية "لوشة" بالأندلس كهفٌ فيه موتى، ومعهم كلبٌ، ويزعم الناس أنهم أصحاب الكهف. قال ابن عطية: دخلتُ إليهم فرأيتهم منذ أربع وخمس مائة عام وهم بهذه الحالة (البحر المحيط).

ويضيف قائلاً: وعلى مقربة من غرناطة آثارُ مدينةٍ قديمة يقال لـــها مدينة "دقيوس"، وجدنا في آثارها غرائب من قبور ونحوها (المرجع السابق).

وقد ذكر المفسرون أسماء أصحاب الكهف مروية عن ابن عباس كالآتي: مكسلمينا ويمليخا ومرطونس وكسطونس وبيرونس ودنيموس ويطبونس وقالوش (ابن كثير).

وهناك روايات شتى عن الرقيم أيضًا. فقال البعض: الرقيم لوحٌ من رصاص أو حَجر كُتبتْ فيه أسماؤهم. بينما قال الآخرون: الرقيم هو شرعهم؛ هو مدينتهم؛ هو كلبهم؛ هو درهمهم؛ هو واديهم؛ هو الصخرة التي على الكهف (القرطبي).

كما نقل المفسرون روايات كثيرة أُخرى تتحدث عن أحوال كلبهم، حتى قيل: ليس في الجنة دواب سوى كلب أصحاب الكهف وحمار بلعم. وبعد نقل مثل هذه الروايات يكتب صاحب "فتح البيان": "ولا أدري أي تعلق لهذا التدقيق والتحقيق بتفسير الكتاب العزيز، وما الذي حَملهم على هذا الفضول الذي لا مستند لـــه في السمع ولا في العقل" (فتح البيان).

لقد ثبت من هذه الروايات الواردة في كتب المسلمين والمسيحيين أن قصصًا مماثلة لقصة أصحاب الكهف كانت شائعة بين الناس قبل بعث النبي ﷺ، ولكنها، كما يعلن القرآن الكريم، تختلف وتتضارب لدرجة لا يمكن معها الاعتماد عليها، إذ قد اختلط فيها الغث مع السمين.

رأي الخليفة الأول نور الدين رضي الله عنه في أصحاب الكهف:

بعد نقل آراء المفسرين القدامى أسجل الآن البحث الذي قام به حضرةُ المولوي نور الدين رضي الله عنه الخليفةُ الأول لمؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام. يرى حضرته أن أصحاب الكهف هم جماعةٌ من النصارى الأوائل الموحدين. وقد سافر هؤلاء إلى بلد آخر فرارًا من الشرك المتفشي في وطنهم، وعاشوا هنالك خاملي الذكر لمدة طويلة، حتى كتب الله لهم الازدهار، ونشرهم في العالم. وهذا الحادث إشارة إلى السفر الذي قام به يوسف آرميتيا مع أصحابه إلى إنجلترا، حيث بنى أول كنيسة مسيحية. (حقائق الفرقان مجلد ٣ ص ٤٠٣)

ويشير حضرته رضي الله عنه هنا بالتحديد إلى الرواية الشهيرة في إنجلترا منذ قرون والتي تقول بأن الحواري فيليب بعث يوسف آرميتيا مع أشخاص آخرين إلى إنجلترا لتبليغ دينهم. فبنَوا هنالك كنسية في مكان اسمه Glastonbury، وبدأوا بالتبشير بالمسيحية. (الموسوعة البريطانية الطبعة الحادية عشرة كلمة Glastonbury).

هذه القصة مسجلة في كتاب "تاريخ كنيسة Glastonbury" الذي ألفه عامَ ١١٢٥ الميلادي William القاطن في منطقة Malmesbury. ولكن القصة لا توجد في النسخة التي كتبها William بيده، بل كل ما قال فيه هو أنه يتضح من الروايات الموثوق بها أن البابا بعث في عام ١٦٦ الميلادي إلى إنجلترا بعض المبشرين بناءً على طلب من الملك الإنجليزي Lucuis، وأن هؤلاء بنوا هذه الكنيسة. ويضيف William أن تاريخ هذه الكنيسة أقدم من ذلك بحسب إحدى الروايات، ولكني لا أستطيع تصديقها.

وبعد وفاة William لما أُعدت نسخة أُخرى لكتابه هذا أُلحقَت به القصة المذكورة من قبل. وهذا يعني أن القصة ملفقة أضيفت إلى الكتاب الأصلي فيما بعد من قِبل شخص آخر من دون أن يذكر لها سندًا.

أما الكهف فكان المراد منه في رأي حضرة المولوي نور الدين ﷺ ذلك الرأس (Cape) الموجود على الساحل على مقربة من Glastonbury. ولكني لا أتفق مع رأي حضرته لأن هذه الكلمة الإنجليزية مأخوذة من الكلمة الفرنسية Cap واللاتينية (Caput)، التي تعني الرأس. ولكن كلمة الكهف العربية تعني الغار الواسع في الجبل أو الأرض الحجرية، ولا علاقة لها بـــ (Cape) التي يذكرها الجغرافيون، والتي تعني الرأس، كالرأس الشهير بالهند باسم "رأس كماري".

أما ما قاله ﷺ إن أصحاب الكهف هم يوسف آرميتيا وأصحابه الذين سافروا إلى إنجلترا فلا أتفق معه أيضًا، لأن قصة سفر يوسف آرميتيا ملفقة حيث اشتهرت في إنجلترا بعد الميلاد بأحد عشر قرنًا وربع قرن بعد أن أُلحقتْ أول مرة بكتاب William بعد وفاته من قبل شخص مجهول. والسكوت في مثل هذه الأمور يبعث على الشك والريبة، فما بالك عن هذه القصة التي لا نجد عنها أية رواية إلا بعد مرور أكثر من ألف عام. فلو أن شخصًا قام اليوم وعزا إلى النبي ﷺ -بناء على ما سمع من الناس- روايةً جديدةً لم ترد في أي مصدر من كتب الحديث أو التاريخ،

فلن يصدّقه أحد ما لم يقدّم الشواهد التاريخية التي تضع هذه الرواية في سلسلة الوقائع الثابتة الأخرى بحيث لا يسع أحدًا إنكارها.

ثم إن رواية كهذه يجب أن تكون مفخرة لأهل إنجلترا، وإن تصديق مثل هذه الروايات الملفقة ينفعهم، ولكننا نجدهم اعتبروا هذا الأمر غلطًا بعد التحري والبحث. فقد عثروا بعد وفاة وليم هذا على مستندات قديمة عن هذه الكنيسة توصلوا بقراءتها إلى أن الكنيسة بُنيت قبل وليم بثلاث مائة وخمسين سنة على الأكثر أي في حدود القرن الثامن الميلادي على أسخى تقدير. ثم إن هذه المستندات أيضًا لا تتضمن أية إشارة إلى تلك الرواية. ومن أجل ذلك قال المؤرخون الإنجليز عن مضمون هذه الرواية: "إنه ليس حدثًا تاريخيًّا، بل هو ضرب من خيال الشعراء." (الموسوعة البريطانية الطبعة الرابعة عشرة كلمة Josef of Artmathia) بعد الإشارة إلى هذه الاختلافات البسيطة المتعلقة بتحديد الأفراد والمكان لا أملك إلا أن أعترف أن التحقيق الذي قدمه حضرة مولانا نور الدين ﷺ حول الصلة بين أصحاب الكهف والأحداث التاريخية لأمرٌ لا يقدَّر بثمن، وإنه نبراس للهداية، وبدون الضوء الذي سلّطه حضرته على هذا الموضوع يستحيل حل هذا الجزء من القرآن الكريم من الناحية التاريخية. جزاه الله أحسن الجزاء.

رأي المصلح الموعود ﷺ بأصحاب الكهف:

والتفسير الذي سأقوم به مبني، إلى حد ما، على التحقيق الذي قام به حضرته ﷺ ما عدا بعضَ الاختلافات الجزئية المتعلقة بالمكان والزمان والشعب. غير أن هناك أمرًا لم يرد في بحثه ﷺ، ولكنه وثيق الصلة بالهدف الأساسي لهذه الآيات، وقد لفت إليه انتباهَنا سيدُنا المسيح الموعود عليه السلام. هذا الأمر هو أن هذه الآيات تتضمن النبأ عن نـــزول المسيح الموعود حيث أخبر الله تعالى فيها أنه سيأتي على جماعة من المسلمين ما أتى على أصحاب الكهف (الملفوظات مجلد ٧ ص ٤٠٣).

بعد هذه الأمور التمهيدية أسجل فيما يلي بحثي حول أصحاب الكهف.

لما رأيت أن الحكاية عن سفر يوسف آرميتيا لا تخرج عن كونها قصة باطلة بدأت المزيد من البحث. وأثناء بحثي هذا جاءني نسيبـــي المرحوم الدكتور خليفة رشيد الدين بكتاب، وقال: إن الأحداث المذكورة في هذا الكتاب تشبه أحوال أصحاب الكهف. واسم الكتاب هو "سراديب الموتى بروما" (Catacombs of Rome). ولما قرأته رأيت أننا نستطيع أن نستفيد منه كثيرًا في بحثنا عن أصحاب الكهف. وفيما يلي ملخص محتوياته:

لم يكن المسيحيون الأوائل مشركين، والدليل عليه تلك السراديب التي عثروا عليها بالقرب من روما حيث كان المسيحيون الأوائل يختفون فيها فارين من اضطهاد الحكومة الرومانية. لقد عثروا في هذه السراديب على كثير من اللوحات التي دُوّنت فيها أحوال ذلك الزمن. ويتضح منها أن المسيحية في بدايتها كانت خالية من أي أثر من الشرك، وأن هؤلاء آمنوا بالمسيح عليه السلام بصفته نبيًّا مخلِّصًا فحسب. واستمر الاضطهاد الروماني، طبقًا لهذا الكتاب، لقرون، وكان هؤلاء يلوذون بهذه السراديب كلما تشتد وطأة الاضطهاد حيث كانوا يخزّنون فيها المؤن خفية ويعيشون عليها، وفي بعض الأحيان ظلوا مختفين داخل تلك السراديب لسنوات عديدة. وفي الأخير وبعد مرور ثلاثة قرون لما اعتنق أحد الملوك الرومان المسيحية زالت هذه المظالم عن هؤلاء المسيحيين. ثم إن شعب "غاث" هاجموا مدينة روما ودمروا هذه السراديب بعد أن سلبوا ما فيها، فانمحى ذكر هذه السراديب شيئًا فشيئًا، ولكن بعض علماء الآثار عثروا عليها خلال بحثهم عن أنقاض مدينة روما؛ وهكذا حصل العالم على هذه المادة التاريخية الخفية مرة أُخرى بعد ألف سنة.

وبقراءة هذا الكتاب أدركت أن تفاسيرنا قد حوت دونما شك الكثيرَ من الغث والسمين، ولكن نظرًا إلى الأحداث المذكورة في هذا الكتاب لا يجوز لنا القول إن كل ما ورد في التفاسير لا يمت إلى الحادث الحقيقي بصلة.

ولما أعدت النظر في ما ورد في التفاسير وجدت أن الروايات الثلاثة التي سجلتها آنفًا -إحداها من ابن إسحاق والاثنتان من كتب الحديث- تنطوي على بذرة

الصدق والحق. ولو أن القارئ أعاد قراءة هذه الروايات مرة لأدرك أنها تحوي الأمور التالية:

١- أن هذا الحادث وقع بالأمة المسيحية.

٢- أن هذه المظالم صُبّت عليهم من قبل الرومان.

٣- تقول إحدى هذه الروايات إن هذا الحادث وقع لما وصل أحد الحواريين إلى عاصمة المَلِك الروماني.

٤- بينما تقول رواية أُخرى أن حادث أصحاب الكهف وقع في زمن الملك دقيوس الشهير عند العرب والهنود باسم دقيانوس والذي اسمه اللاتيني Decuis؛ وأن بعض المسيحيين لاذوا بالغار خوفًا من بطشه.

٥- وكل الروايات متفقة على أن الأمة الظالمة كانت وثنية.

٦- وتقول رواية -لم أسجلها هنا- إن ملوك ذلك البلد أكرهوا الناس على السجود أمام أصنام لهم وعلى تقديم القرابين لها.

٧- وورد في رواية عن ابن عباس إن هذا الحادث حصل قبل زمنه بثلاث مائة عام.

٨- تقول رواية إن أصحاب الكهف خرجوا في زمن الملك الروماني يندوسيس، الذي اسمه اللاتيني Theodosis.

والواقع أنه بعد مطالعة تاريخ هذه السراديب ندرك أن هذه الروايات الإسلامية تهدينا إلى صلب الحقيقة بدلاً من أن تشوش أفكارنا. ذلك أننا نعرف من تاريخ الكنيسة وهذه السراديب أن الاضطهاد الفردي للمسيحيين كان بدأ بعد حادث الصليب مباشرة، ولكن الاضطهاد الجماعي بدأ في روما في زمن الملك نيرون. كان هذا الملك معاصرًا للحواريين حيث كان عهده ما بين ٥٤ إلى ٦٨ بعد الميلاد (الموسوعة البريطانية الطبعة الحادية عشرة كلمة Neru). وكان النصارى القدامى يعتقدون أن بطرس صُلب في زمن هذا الملك. مما لا شك فيه أن نُقّاد التاريخ المعاصرين-الذين يحاولون جاهدين التشكيك في كل حادث تاريخي- قد سعوا

ليشككوا في هذا الأمر أيضًا، ولكنهم رغم جهودهم المضنية ما استطاعوا إبطال ذهاب بطرس إلى روما وموته هنالك (الموسوعة التوراتية مجلد ٤ كلمة Peter 1).

وثمة مستند في الكتابات المسيحية القديمة كتبه الأسقف Dionysius ويرجع إلى عام ١٧٧ بعد حادث الصليب، ويخبرنا عن ذهاب بطرس إلى روما. وبما أن بطرس عمِّر بعد حادث الصليب لحوالي ٦٧ أو ٨٠ عامًا لذا فإن هذا المستند تمت كتابته بعد وفاة بطرس بحوالي ١٠٠ عام. ولا يمكن الاستهانة بمثل هذه الشهادة التي هي قريبة العهد من زمنهم، خصوصًا وأن كاتبها أسقف كبير من الكنيسة (الموسوعة التوراتية مجلد ٤ كلمة Simon Peter).

كما جاء أنه من الثابت تاريخيًّا أن قبر بطرس في روما أصبح مزارًا للناس بعد حادث الصليب بقرنين، وأن عظامه نُقلت إلى سراديب الموتى عام ٢٥٨.

أما السؤال: هل كان ذلك القبر وتلك العظام لبطرس فعلاً، فتردّ عليه الموسوعة البريطانية: ليس بيدنا ما نستطيع به الجزم بذلك. (الموسوعة البريطانية طبعة ١٩٥١ كلمة Peter 1).

وليس خفيًّا أن الشروط التي يجزمون بها على القضايا الأخرى متوفرة في هذه القضية أيضًا، حيث إن الرواة هم قريبو العهد من الحادث، كما أن هناك شهادة تاريخية من زمن لا يبعد عن وفاة بطرس بـــ ١٢٥ عامًا، وهذه الشهادة هي كون قبره مزارًا للناس في روما. فسواء أكان الملك نيرون قتَل بطرسَ أم لا فمن الثابت تاريخيًّا أن بطرس ذهب إلى روما، ومات هناك، وأن المسيحيين تعرضوا للاضطهاد حينذاك، وأنهم كانوا يفرون بحياتهم هنا وهناك.

ثم إننا نعرف من التاريخ أن الاضطهاد الروماني للمسيحيين بلغ ذروته في زمن ديسيس أو دقيانوس. كانوا يعذبونهم بسن القوانين، وكل من لم يسجد للأوثان كان يُعتبر مسيحيًّا فيُسجَن أو يُقتَل. وكان حكم ديسيس من ٢٤٩ إلى ٢٥١ الميلادي، وفي عامي ٢٥٠ و٢٥١ قام بسنِّ قوانين غاشمة ضد المسيحيين. (الموسوعة البريطانية طبعة ١٩١١ كلمة Decius، تاريخ الكنيسة).

ويخبرنا التاريخ أن الملك غاليريوس Galerius ألغى قبل موته في ٣١١ الميلادي القوانينَ القاسية ضد النصارى.

(The Historians History of the World v. 7 p. 439)

ثم في عام ٣٣٧ اعتنق الملك قسطنطين المسيحية، وفي زمن الملك Theodosis انتشرت المسيحية على نطاق واسع، وتمتعَ النصارى بالأمان من قبل عامة الناس أيضًا (الموسوعة البريطانية طبع ١٩٥١ كلمة Constantine).

لقد اتضح من هذه الشواهد التاريخية أن المسيحيين الأوائل تعرضوا للاضطهاد في فلسطين منذ زمن هيرودوتس وفي روما بدءًا من عهد الملك نيرون حتى ٣١١ الميلادي، وأنهم كانوا يفرون ويختفون في الكهوف هنا وهناك أيام الاضطهاد.

بالتدبر في هذه الأحداث من السهل أن ندرك أن أصحاب الكهف هم المسيحيون الأوائل الرومان، وأنهم تعرضوا للظلم الذي بدأ في عهد أحد حواريي المسيح مئاتِ السنين. لقد بلغ اضطهادهم ذروته في زمن ديسيس، وعفي عنهم في عهد الملك Galerius؛ وتم إيقاف الاضطهاد بسن القانون في عهد قسطنطين؛ وحققوا ازدهارًا واسعًا في عهد الملك Theodosis.

وعلى ضوء هذه الأحداث لو تدبرنا الآن في روايات المفسرين -غاضين الطرف عن المبالغات التي أُضيفت إليها حتمًا من قبل الرواة المسيحيين واليهود- لوجدنا أن هذه الروايات تدلنا على أصحاب الكهف دلالة صحيحة. والحق أن هذه الروايات خالية من الاختلاف أيضًا. لقد رأى الناس في هذه الروايات اختلافًا لأنهم ظنوا قصص الاضطهاد هذه من زمن واحد، وأن هذا هو تاريخ الاضطهاد كله، مع أن الاضطهاد وقع على فئات عديدة وفي أزمنة مختلفة. لقد حصل هذا في زمن الملك نيرون حين كان بطرس موجودًا في روما، وإلى ذلك يشير ما رواه ابن إسحاق. كما حصل الاضطهاد في عهد الملك ديسيس، وإليه تشير رواية ابن المنذر على ما يبدو.

إن فترة هذا الاضطهاد امتدت إلى ثلاثة قرون، وكلما اشتدت وطأته عاش المسيحيون المضطهَدون في الكهوف، فاشتهرت بين القوم قصص شتى عن

تضحياتهم. فمنهم من سمع ما حدث ببطرس، فظن أن تاريخ أصحاب الكهف ينحصر فيما حصل ببطرس فحسب. ومنهم من سمع ما حصل في زمن الملك ديسيس، فظن أن هذه هي قصة الاضطهاد فقط. ولكن إذا اعتبرنا هذه القصص أحداثًا من عصور شتى، غاضين الطرف عما ورد فيها من المبالغات التي تجد طريقها إلى مثل هذه الأمور عمومًا، فكل هذه الروايات تبدو صحيحة، وترسم لنا مشهدًا موجزًا للاضطهاد المريع الذي تعرض لـــه المسيحيون الأوائل.

بعض الحقائق المتعلقة بالكهوف:

وأوجز لكم الآن بعض الحقائق المتعلقة بالكهوف. وكما قلت من قبل إن المراد من الكهوف هنا سراديب الموتى، وهي مغارات تحت الأرض. كان من عادة الرومان واليهود أن يضعوا موتاهم في الغرف تحت الأرض. وكانت هناك خارج المدن الكبيرة في الإمبراطورية الرومانية أماكن مخصصة لهذا الغرض، وتسمى سراديب الموتى. لما تعرض المسيحيون للاضطهاد فروا بحياتهم ولاذوا بهذه المقابر. وقد فعلوا ذلك لسببين: الأول أن هذه السراديب كانت تساعدهم على الاختفاء والجلوس والمبيت والاحتماء من الطقس بكل سهولة. والثاني أن الناس يخافون القبور عمومًا، فكان في اختفائهم فيها ضمان أن يظلوا بعيدين عن أعين الناس.

يقول السيد Benjamin Scot في كتابه "سراديب روما": "وعندي أنه حتى في ذلك الزمن البدائي -الذي ذهب فيه بولس إلى روما- كان المسيحيون يلجأون إلى هذه الغرف الأرضية فرارًا بحياتهم من غيظ الناس واضطهاد اليهود والحكومة الرومانية."

ثم يضيف: "لا جرمَ أنهم كانوا فعلاً مضطرين للاختفاء في هذه المغارات والكهوف الأرضية" (The Catacombs at Rome p. 65- 164).

والجدير بالذكر أن المؤلف قد استخدم لهذه الغرف الأرضية كلمة (Cave)، وهي صورة مشوهة للفظ العربي "كهف"؛ وكأن هذا المؤلف الإنجليزي قد استخدم نفس الكلمة التي وردت في القرآن الكريم.

وأما قوله إن المسيحيين كانوا مضطرين للاختفاء في هذه الكهوف فهو ثابت بشهادة المؤرخ الرومي تاقيطس (Tacitus) حيث يقول: كان الملكُ نيرون يسُرُّ جماهيرَه بإحراق النصارى أحياءً، وكان يلقيهم أمام الكلاب الضارية، ويصلبهم بطرق شتى؛ وقد خصص حديقته الملكية لتنفيذ هذه العقوبات.

(Tacitus.. The Annals and The Histories p.257-258) فالقوم الذين تَعرَّضوا للاضطهاد الشديد على هذا النطاق الواسع لم يكن أمامهم مناص إلا الاختفاء هنا وهناك فرارًا بحياتهم.

وأيام لجوئهم إلى هذه السراديب بدأ النصارى يبنون فيها غرفًا أُخرى ليزدادوا تحصنًا. كما كانوا يأتون بجثث شهدائهم إلى السراديب ويدفنونها فيها مخافة أن تتعرض للإساءة. وبما أن الاضطهاد استمر لثلاثة قرون فكثرت الغرف الإضافية داخل السراديب حتى امتدت تحت الأرض لحوالي ١٥ ميلاً في رأي البعض. (The Catacombs at Rome p. 65 To 164)

وبما أن الظلم لا يكون عمومًا على منوال واحد في كل الأيام حيث كان بعض الملوك أقل قسوة، لذلك كان المسيحيون يرجعون إلى المدن حين تخفّ وطأة الظلم، ويرجعون إلى الكهوف ثانية حين تشتد وطأته، ويبدو أنهم كانوا يضطرون للعيش فيها لشهور وسنين، حيث توجد داخل السراديب غرف للمدارس والكنائس أيضًا.

لهذه السراديب ثلاثة طوابق، ولقد رأيتها بأم عيني أثناء مروري بروما حين سافرت إلى إنجلترا عام ١٩٢٤. يستطيع الإنسان زيارة غرف الطابق العلوي بدون صعوبة كبيرة، ولكنه يشعر بضيق التنفس أثناء زيارة غرف الطابق الثاني، أما غرف الطابق الأخير فزيارتها شبه مستحيلة لشدة الرطوبة والظلام. ولقد وجدت أن المسيحيين قد حولوا هذه الغرف إلى متاهات، واتخذوا للتحصن التدابير التالية:

أولاً، كانوا يربطون الكلاب على أبواب السراديب لتدلّهم بنباحها على قدوم شخص أجنبي.

ثانياً، كانوا لا يبنون السلالم الطينية للنـــزول من سطح الأرض إلى الغرف الأرضية، بل كانوا يستخدمون لهذا الغرض السلالم الخشبية التي كانوا يزيلونها بعد استخدامها، كيلا يتمكن العدو الداهم من الوصول فورًا إلى الغرف الأرضية التي كانوا يعيشون فيها.

ثالثًا، أما إذا وصل العدو إلى غرفة عيشهم بالقفز أو بالسلالم التي أتى بها معه، فكان الطريق لحماية أنفسهم منه أنهم جعلوا في كل غرفة أربعة أبواب كان الواحد منها فقط يؤدي إلى الغرفة التالية بينما كانت الأبواب الثلاثة الباقية تؤدي إلى أنفاق مسدودة. فكانوا يلوذون على الفور إلى الغرفة المجاورة لمعرفتهم بالباب الحقيقي، بينما كان العدو المطارد يدخل الباب الخاطئ ثم يرجع القهقرى حين يجد الطريق أمامه مسدودًا، وهكذا كان العدو يضيع في بحثه عن الباب الأصلي وقتًا كثيرًا، وبالتالي كان يتأخر كثيرًا عن النصارى الفارّين من بطشه. وكانت هذه المطاردة المرهقة تثبّط من همم رجال الشرطة فكانوا يتركون ملاحقتهم.

رابعًا، أما إذا استمروا في الملاحقة فكان النصارى ينـــزلون إلى الطابق الثاني من الغرف الأرضية التي كانت أكثر ضيقًا وظلامًا وتعقيدًا.

خامسًا، ولو افترضنا أن الشرطة استمرت في ملاحقتهم هنا أيضًا فكان هناك غرف الطابق الثالث التي كان النصارى لا ينـــزلون إليها إلا لفترة قصيرة أثناء مطاردة الشرطة فقط على ما يبدو. ذلك أننا لم نقدر أثناء زيارتنا لها على المكوث فيها أكثر من ثلاث أو أربع دقائق، وإن كان أحد أسبابه أن الرطوبة فيها قد أصبحت الآن عالية جدًّا. إنها غرف موحشة تمامًا. وبما أن طول كل هذه الطرق داخل السراديب يبلغ عدة مئات من الأميال فلم يكن القبض على النصارى فيها بالأمر الهيّن. ولكن لا قبل للإنسان بالحكومات، فكانت الشرطة تنجح في القبض عليهم أحيانًا، وتقتلهم في مكانهم على الفور. ولقد شاهدت بنفسي هناك عددًا من قبور أولئك الشهداء. وقد قرأ علينا أحد القسيسين، بطلب منا، بعضًا من لوحات تلك القبور، فوجدناها تحكي قصصًا مؤلمة لاستشهاد أولئك الناس.

ولقد اكتشفوا في الفترة الأخيرة المزيد من اللوحات والقبور التي بعضها لأولئك القوم الذين أقام بطرس عندهم، أو الذين ورد ذكرهم في الكتاب المقدس. (الموسوعة البريطانية الطبعة الرابعة عشرة كلمة Catacombs). في عهد الملك ديسيس سُنّ القانون لإجبار النصارى على السجود للأصنام، فصُبّت عليهم المصائب في زمنه صبًّا، فقضوا كل هذه الفترة تقريبًا في السراديب، إلا الذين ارتدوا منهم في الظاهر عن دينهم. إذًا فإن أصحاب الكهف قد ضربوا في تلك الفترة مثالاً رائعًا للتضحية والفداء في سبيل الله تعالى. ويتضح من اللوحات التي عُثر عليها في السراديب أنه لم يكن عند نصارى ذلك العصر أثر للشرك والوثنية، حيث لا توجد في هذه اللوحات كلمة واحدة تدل على الشرك. لم يقدَّم فيها المسيح كابن لله تعالى، بل على صورة راعٍ فحسب. كما تدلّ هذه اللوحات على تعظيمه غير العادي لوالدته. إن معظم هذه اللوحات تركز على إبراز حادث النبي يونس وعلى إبراز الحدث الأخير لدى حادث طوفان نوح حيث جاءت حمامة بخبر انكشاف وجه الأرض. مما يدل على أن هؤلاء لم يتركوا العمل بالعهد القديم، وكانوا يؤمنون بالمسيح كنبي وراعٍ روحاني فحسب (انظر المرجع السابق، The Catacombs at Rome by B. Scott وكتاب الدكتور Meat Land)

فالخلاصة أن الله تعالى قد ذكر من خلال حادث أصحاب الكهف أحوالَ المسيحيين الأوائل، مشيرًا إلى بداية الأمة المسيحية حيث كانوا يحاربون الوثنية والشرك، وقدَّموا في سبيل ذلك تضحيات جسيمة لقرون طويلة؛ أما اليوم فلا يوجد فيهم أي أثر لدينهم الأصلي.

يبين الله تعالى: نحن نروي لك أحداثهم كما وقعت. وهذا يعني أنه كانت هناك قصص شائعة بين القوم عن أصحاب الكهف، وأن تلك القصص القديمة عارية عن الصحة.

يقول الله تعالى ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ (الكهف: ١٤) أي جماعة من الشرفاء أو الأسخياء أو الشباب الذين آمنوا بربهم، ذلك أن الفتى يعني السخي الكريم أو

الشابّ (الأقرب). والحق أن الشباب أكثر إسهامًا في الخدمات الدينية على العموم، حيث نجد أن كل من آمنوا بالرسول ﷺ كانوا أصغر منه سنًّا إلا قليلاً منهم.

وقد تكون كلمة "فتية" إشارة إلى فئة معينة من النصارى اللاجئين في هذه الكهوف كانت أكثرهم تضحية. وقد يكون مفهومها عامًا يشمل جميع النصارى الشرفاء الذين تمسكوا بدينهم وقدموا التضحيات طيلةَ هذه الفترة الممتدة إلى ثلاثة قرون. وأنا شخصيًّا أفضل المفهوم الأخير.

أما قول الله تعالى ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ (الكهف: ١٤). فيعني أننا زدناهم إيمانًا على إيمانهم بسبب تضحياتهم. يبين الله تعالى بالرغم أن الملِك والجماهير كلهم كانوا يعارضونهم إلا أنه تعالى قوّى قلوبهم وصبّرهم، فقاموا وأعلنوا عن عقيدتهم غير خائفين.

كما يتضح من قول الله هذا أن هذه الفئة من عباد الله الموحِّدين لم تكن عبارة عن فتيان متشتتين متفرقين، بل كانوا متمسكين بدين واحد، يتزاورون فيما بينهم. ذلك أن مضمون هذه الآية يدل على أنهم كانوا يديرون هذه الحوارات فيما بينهم على انفراد.

لقد عرّفوا كلمة "الكهف" في قولهم: ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾ (الكهف: ١٧) وهذا يدل على أنهم عنَوا به كهفًا معيّنًا شهيرًا في منطقتهم، وكان كل واحد منهم يعرفه. ولو كان المراد به أي كهف لقالوا "فأْوُوا إلى كهفٍ".

وقد اشتهر هذا الكهف من قبل لأن العبيد كانوا يفرون ويختفون فيه لدى تعرضهم للظلم الشديد على أيدي أسيادهم الرومان. مما لا شك فيه أنهم قاموا بتوسيع هذا الكهف كثيرًا، ولكنه كان واسعًا من قبل أيضًا.

كما يتضح من هذه الآية أن أصحاب الكهف كانوا هدفًا للاضطهاد منذ فترة طويلة قبل لجوئهم إلى كهفهم. ذلك أن قولهم ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ (الكهف: ١٧) يدل على أن قومهم قد قاموا بمقاطعتهم اجتماعيًّا، فكانوا يعيشون في مجموعة منفصلة عن باقي القوم. فقرروا بالتشاور أنهم سيفعلون ما فعل العبيد من قبل،

وسيختفون في الكهف حين تشتد وطأة الظلم ويصبح العيش بين القوم ضارًّا بدينهم...

وقولــه تعالى ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ (الكهف: ١٨) يدل على وجود مساحة واسعة داخل الكهف. وهذا ما تؤكده تلك السراديب لأنها واسعة جدًّا من داخلها، وقد قدّر البعض الطولَ الإجمالي لشوارعها وغرفها المبنية في الطوابق الثلاثة بحوالي ٨٧٠ ميلاً! كما كان ضوء الشمس لا يصل داخل تلك السراديب إلا قليلاً، ولولا ذلك لأُلقي القبض على أهلها. لقد حُفرت السراديبُ حفرًا يوصل إليها الهواء، من دون أن يدخُل إليها الضوء الذي يدل على وجودهم. قال St Jerome في القرن الرابع الميلادي: إن هذه الغرف مظلمة لدرجة مذهلة، ولا يمكن أن يصل إليها ضوء الشمس إلا إذا كان هناك تصدّعٌ أو تشقّقٌ في المبنى. (الموسوعة البريطانية طبعة ١١- ١٩١٠ كلمة Catacombs of Rome).

والحق أنه ببيان موقعهم الجغرافي قد نبّه الله تعالى المسلمين أن لهم عدوًّا في الشمال فليأخذوا منه حذرهم، ولكن المسلمين للأسف لم ينتبهوا لذلك.

يقول الله تعالى بعد ذلك ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ (الكهف: ١٨).. أي لقد أشرنا ولكن لن يفهم إشارتنا إلا المهتدون.. بمعنى أن المسلمين الذين يوالون هذه الشعوب يهلكون، أما المسلمون الذين يكونون على اتفاق واتحاد فيما بينهم يفلحون. ولكن الأسف أن المسلمين تحاربوا فيما بينهم، بينما تصالحوا مع ملوك الروم، اللهم إلا المسلمين الأوائل. ورد في التاريخ أن ملك الروم لما سمع عن الحرب الدائرة بين سيدنا علي ومعاوية رضي الله عنهما أراد الهجوم على الدولة الإسلامية، فكتب معاوية إلى ملك الروم: حذارِ أن تغترّ بالنـــزاع بيننا. فوالله، لو هاجمت عليًّا لسوف أكون أولَ قائد يخرج لمحاربتك من قِبله ﵁.*

* ونص الرواية كالآتي: "فلما رأى ملكُ الروم اشتغالَ معاوية بحرب عليٍّ تدانَى إلى بعـــض البلاد في جنود عظيمة وطمِع فيه. فكتب معاوية إليه: والله لئن لم تنته وترجع إلى بـــلادك يـــا

ولكن لما انحرف المسلمون عن الإسلام تصالحَ ملوكُ بغداد مع الحكومة الرومانية الشرقية الشهيرة بالبيزنطية وذلك لضرب الدولة الإسلامية بإسبانيا. أما الملوك المسلمون بإسبانيا فأرسلوا الهدايا إلى بابا روما وتصالحوا معه، وذلك لضرب الدولة الإسلامية ببغداد. إنا لله وإنا إليه راجعون...

أرى أن هذه الآية لا تتحدث عن الأيام الأوائل لأصحاب الكهف، بل تبين حالة هذه الشعوب زمنَ نـــزول القرآن. يخبر الله تعالى: أنكم تظنون أن هذه الشعوب الشمالية أيقاظٌ، كلا، بل هي نيام، وستستيقظ في المستقبل. وكأنه تعالى يقول: يجب أن تعتبروهم نيامًا بالنظر إلى ما سيكونون عليه في المستقبل.

وكان هذا تنبيهًا إلهيًا للمسلمين أنهم لو كسَروا شوكةَ هؤلاء القوم الآن لصاروا في مأمن من شرهم في المستقبل. ولكن الأسف أن المسلمين بعد زمن سيدنا عثمان ﷺ تهاونوا في التصدي لهؤلاء القوم، ولو أنهم استمروا في زحفهم على الحكومة البيزنطية وقضوا عليها لكانت خريطة العالم غير التي نراها اليوم.

علمًا أنه كان للمسلمين كل الحق للهجوم على تلك الحكومة لأنها هي التي بدأت بالعدوان على المسلمين.

أما قولـــه تعالى ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ فأخبر فيه أنه تعالى سينشرهم في العالم، وذلك الوقت هو بمثابة موعد استيقاظهم؛ فليأخذ المسلمون قبل حلوله التدابيرَ اللازمة لحمايتهم.

وأما قوله تعالى ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ فهو إشارة إلى الحكومة البيزنطية التي تقوم بحماية أوروبا من جانبي بحر مَرْمَرة، حيث يبدو هذا البحر وكأنه كلب يقوم بالحراسة باسطًا ذراعيه إلى اليمين والشمال. لا شك أن الأتراك قاموا بفتح هذه المنطقة، ولكنه كان بعد فوات الأوان، حيث قويت وقتئذ شوكةُ القوى

لعينُ، لأصطلحنّ أنا وابنُ عمي عليك، ولأُخرجنَّك من جميع بلادك، ولأُضيقنّ عليك الأرضَ بما رحبتْ" (البداية والنهاية مجلد ٧ ص ١١٩).

الشمالية، ولم يعد الأتراك قادرين على مقاومتها. فلو أن الدولة البغدادية والدولة الإسبانية تحالفتا وبسطتا نفوذهما على بلاد الشمال لكانت فرصة ذهبية، إذ لو أن الإسلام انتشر في تلك البقاع في ذلك الوقت لما رأينا الآن هذه الأيام الحالكة.

وقد يكون قوله تعالى ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ نبأً عن اقتناء هذه الشعوب الكلابَ بكثرة. وبالفعل ترون الأوروبيين يربّون الكلاب بكثرة من أجل الحراسة، وكل من يزور بيوتهم يخاف كلابَهم أولاً وقبل كل شيء.

قد يقال هنا: كيف كان رد هذا الخطر ممكنًا مع أنه قدر مقدور من الله تعالى؟ الحق أن أصحاب هذا الاعتراض لا يدركون حقيقة الأنباء الإلهية، لأن من سنن الله تعالى إلغاء الأنباء التحذيرية. ولو أن المسلمين عملوا بحسب الإنذار الإلهي لما كان الإسلام في هذا الضعف والاضمحلال الذي هو فيه اليوم، بل لوجدنا في أوروبا أنصارًا يتعاطفون معه ويخففون من شدة الحملة المسيحية على الإسلام.

أما قوله تعالى ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ فهو أيضًا نبأ يتعلق بزمن انتشار هذه الشعوب من مناطق الشمال إلى الجنوب. وبالفعل ترون كيف استولى رعب هذه القوى الشمالية على العالم كله؛ وكل دولة، أيًّا كانت، مرهونة برحمة هذه الشعوب.

واعلم أن الخطاب في قوله تعالى ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ (الكهف: ١٩). لا يمكن أن يكون موجَّهًا إلى النبي ﷺ، بل هو موجَّه إلى الذين يعاصرون هذه الشعوب بعد أن يقلّبهم الله تعالى ذات اليمين وذات الشمال. وبالفعل رأيتم كيف أن الدنيا كلها قد مُلئت رعبًا من هذه الشعوب خاصة قبل فترة قليلة، ولكن الله تعالى قد خفّف رعبها عن الدنيا بخلق أسباب هلاكها، أما قبل ذلك فكان رعبها مستوليًا على الناس لدرجة أن الناس كانوا يخافون حتى من السفر في عربات الدرجتين الأولى والثانية للقطار،* ويهابون الأوروبيين بمجرد رؤيتهم.

---

* ذلك أن الأوروبيين كانوا يسافرون عمومًا في هاتين الدرجتين من القطار. (المترجم)

لا تتحدث هذه الآية عن أولئك الذين كانوا يختفون في الكهوف في الزمن القديم، بل تتحدث عن الزمن الذي يقلّب الله ﷻ هذه الشعوب فيه ذات اليمين وذات الشمال. كما أن قوله تعالى ﴿بَعَثْناهم﴾ أيضًا يشير إلى التقدم الذي ستُحرزه في المستقبل شعوبُ الشمال التي تكون قد تنصرت حينذاك. علمًا أن من أساليب القرآن أن يستخدم صيغة الماضي بكثرة للإدلاء بالأنباء المستقبلية، لأن صيغة الماضي هي بمثابة التأكيد على وقوع تلك الأنباء حتمًا؛ ومثاله قوله تعالى ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ (النحل: ٢). ولقد اتبع القرآن هذا الأسلوب هنا أيضًا فقال ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾.

إذًا فالله تعالى قد أخبر هنا أنه سيوقظ هذه الأمم التي هي كقوم نائمين حاليًّا، فيتساءلون فيما بينهم: كم لبثنا في حالة النوم؟ بمعنى أنه يجب علينا أن نستيقظ الآن. وبالفعل أفاقت هذه الشعوب من سباتها زمن الحروب الصليبية، فتحالفت ضد الإسلام للهجوم على البلاد الإسلامية.

أما قولهم ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ فليس المراد به أنهم كانوا في شك فيما لو كانوا نائمين يومًا أو بعض يوم، بل هذا أسلوب يعبَّر به عن فترة طويلة غير محددة؛ ومثاله في القرآن الكريم قول الله تعالى للكفار يوم القيامة ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾، فيقولون ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ (المؤمنون: ١١٣-١١٤). والواضح من أسلوب هذا السؤال والجواب أن الكفار يعنون أنهم مكثوا فترة غير معينة. وهذا هو المراد من قول هذه الشعوب، إنهم ظلوا نيامًا لفترة غير محددة. وقد ذكر القرآن في موضع آخر أن فترة مكوث هذه الشعوب هي ألف سنة، حيث يقول الله تعالى ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا﴾ (طه: ١٠٣-١٠٤). أي حين يُنفَخ في الصور فسوف نهيّج ونبعث المجرمين الروم ذوي العيون الزرقاء، فيقولون فيما بينهم بصوت خافض: لم نمكث إلا عشرًا أي عشرة قرون وهي ألف سنة.

علمًا أنني قد فسّرتُ كلمة "زُرْقًا" بمعنى ذوي العيون الزرقاء التي هي صفة الشعوب الأوروبية لبياض لونهم. ذلك أن العرب كانوا يطلقون هذه التسمية على الروم لوجود العداوة الشديدة بينهم. فقد ورد في القاموس كلمة "الأزرق": "وقيل: معناه الشديدُ العداوةِ لأن زُرْقة العيون غالبةٌ في الروم والديلم وبينهم وبين العرب عداوة شديدة، ثم لما كَثُر ذكرُهم إياهم بهذه الصفة سمي كل عدو بذلك وإن لم يكن أزرقَ العين" (الأقرب).

إذًا فليس المراد أنهم كانوا في شك أنهم ربما لبثوا في حالة الغفلة قليلاً، بل المعنى أنهم لبثوا في تلك الحالة لفترة طويلة غير محددة. وقد أخبرتْ سورة طه أن طول هذه الفترة ألف سنة، كما بيّنتُ. وإذا جمعنا ألف سنة إلى السنة التي أعلن فيها النبي ﷺ دعواه كان المجموع ١٦١١: حيث كان مولده الشريف في عام ٥٧٠ الميلادي بحسب ما يراه السير وليم ميور (حياة محمد ص ٥)؛ وقد أعلن ﷺ دعواه وهو في سن الأربعين أي في عام ٦١١ الميلادي، وإذا جمعنا إليه ألف سنة كان المجموع ١٦١١ أو ١٦١٢ أي العام ١٦١١ الميلادي. وهو نفس العام الذي ثبّت فيه الإنجليز أقدامهم في الهند حيث سمح لهم الملوكُ المغول بالهند بالعمل في خليج البنغال عام ١٦١١، ثم منحوا لهم الرخصة لإنشاء مصنع في "سورت" عام ١٦١٢.

(The March Of Man, Comparative Time Chart Of Universal History From 1451 to 1675, Section 4, Under; "British Colonies And Dominions Overseas")

وتعرف الدنيا كلها أن هذه الخطوة هي التي هيّأت الأساس لرقي أهل أوروبا وانتشارهم في العالم كله، حيث ازدهر الأوروبيون باتباع خطوات الإنجليز هذه والاعتماد عليهم. ذلك أن تقدُّم الإنجليز راجع إلى دخولهم في الهند، حيث لم يتمكنوا من الاستيلاء على الأقطار الأُخرى من آسيا وأفريقيا إلا بعد أن ثبّتوا أقدامهم في الهند. ثم إن استيلاء الإنجليز على زمام البلاد المختلفة ساعد على تقدم الشعوب الأوروبية الأخرى.

ورب قائل يقول هنا: القرآن يتحدث هنا عن الروم، فما علاقة الإنجليز بهذا الموضوع؟ والجواب أن الحضارة الأوروبية إنما هي نتاج الحضارة الرومانية، والحق أن أوروبا كلها هي بمثابة تلميذ للرومان وتذكار للحضارة الرومانية؛ ثم إن المسيحية لم تنتشر في أوروبا إلا بواسطة الرومان. ومن أجل ذلك كله ذكر القرآن الأصلَ الذي خرجت منه هذه الفروع.

أما قوله تعالى ﴿أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾ فيعني: أيُّ الأطعمة أصلَحُ وأطيبُ. والحق أن أكبر سبب لانتشار الشعوب الغربية في العالم هو أن بلادها لم تكن تنتج من الغلال ما فيه الكفاية، فكانوا يستوردون الغلال والتوابل ويشترونها من آسيا بواسطة العرب، ولكنهم لما اطلعوا على الطريق البحري المؤدي إلى الهند أخذوا تجارة هذه السلع بأيديهم مباشرة، ثم استولوا بالتدريج على تجارة الأشياء الأخرى. علمًا أن "طعامًا" لا يعني هنا الطبيخ، لأنه يُطلَق في اللغة العربية على كل ما يؤكل، وخاصة على القمح. والواقع أنه ما زالت الهند تسدّ حاجة أوروبا إلى القمح لقرنين، إلى أن حاولت أمريكا زرع القمح محليًّا قبل زمن قريب.

إذًا فقولهم (فلينظُرْ أيها أزكى طعامًا) يعني أن أصحاب الكهف قالوا لزميلهم أن يبحث عن أفضل الغلال، لأن عليهم أن يدخروه لمدة طويلة.

أما قولهم ﴿وَلْيتلطَّفْ﴾ فاعلم أن هذه هي صفة الشعوب الغربية، حيث يأمرون المسؤولين الذين يبعثونهم إلى الخارج خاصة أن يتحدثوا دائمًا بلطف ورفق. كما أن تجّارهم أيضًا يتكلمون بأسلوب ليّن معسول حتى لا يثور الزبائن عليهم.

وأما قولهم "فابعَثوا أحدَكم ... إلى قولهم ولا يُشعِرنَّ بكم أحدًا" فاعلم أنه بالرغم من قولهم ﴿أَحَدَكم﴾ وبالرغم من ورود ضمائر المفرد بعد ذلك، أرى أن هذا لا يعني بالضرورة أنهم بعثوا شخصًا واحدًا فقط للطعام. والدليل على ذلك أن القرآن الكريم ذكَر في سياق قصة آدم عليه السلام إبليسَ أحيانًا بضمير المفرد فقط مما يوحي وكأن كل الكلام موجه إلى إبليس وحده، مع أنه، في أماكن أخرى وفي

سياق قصة آدم نفسها، ذكَر مع إبليسَ جماعته أيضًا فقال ﴿بعضُكم لبعض عدو﴾، كما ذكر مع إبليس ذريته أيضًا في أحيان أخرى. كذلك الأمر هنا، فمع أنهم قالوا هنا: ﴿فابعَثوا أَحَدَكم﴾ إلا أن المراد أن ابْعَثوا بعضًا منكم لشراء هذه الحاجيات. وعندي أن كلمة ﴿أحدكم﴾ قد استُخدمت هنا إشارةً إلى النظام الواحد.. أي فليذهب هؤلاء البعض جميعًا تحت نظام واحد بحيث يكون الشخص الواحد منهم مسؤولاً عمن معه.

أما قولهم ﴿ولا يُشعِرنَّ بكم أحدًا﴾ فيعني يجب أن تعملوا هنالك بحيث لا يحس ولا يدرك أحد أنكم تريدون بثّ نفوذكم في تلك البلاد، بل ينبغي أن تعاملوا أهلها بحيث يبقون غافلين عن أهدافكم الحقيقية.

لقد استخدم القرآن لهؤلاء المشيرين والمشار عليهم صيغَ الجمع، وعندي أن في ذلك إشارة إلى أن هذا الوفد التجاري سيُبعَث مِن قِبل شركة مؤلفة من أناس كثيرين لا مِن قِبل مَلِكٍ واحد. وبالفعل نجد أن الوفود التجارية الإنجليزية أو الفرنسية التي جاءت إلى الهند لهذا الغرض قد بعثتها الشركات التجارية، لا مَلِكٌ من الملوك.

قالوا: هذه الشعوب التي تبعثون إليها وفودكم لو اطلع أهلها على أسراركم أو نازعوكم وحاربوكم، قبل تثبيت أقدامكم في بلادهم، لطردوكم منها -علمًا أن من معاني الرجم الطرد أيضًا (الأقرب)- أو أكرهوكم على الدخول في دينهم إذا لم يطردوكم. وفي كلتا الحالتين سوف تُكسَر شوكتكم، ولن تزدهروا بعد ذلك أبدًا. وبالفعل ترون كيف أن الدول الأوروبية تساعد المسيحية من أجل المصالح السياسية، وتتخذ كل نوع من التدابير للحيلولة دون انتشار أفكار الشعوب الأخرى بين الأوروبيين.

لقد بين الله تعالى هنا أن هذه الشعوب التي ظلت منعزلةً عن باقي العالم لزمن طويل اتصلت هكذا بالعالم الخارجي مرة أخرى، وبالتالي علمت الدنيا أن النبأ

الذي أدلينا به عن غلبة الشعوب المسيحية في آخر الزمن كان نبأً صادقًا تمامًا، وأن الساعة الموعودة التي خوّفناكم منها آتية دونما شك.

أما قولــه تعالى ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ...﴾ فعرّج به مرة أخرى على الحالة الأولى لأصحاب الكهف، حيث ذكر إحدى علاماهم، وقال: إن من عادهم منذ البداية أهم يبنون المساجد أي المعابد باسم موتاهم.. بمعنى أهم يبنون الكنائس تذكارًا لصلحائهم. وبالفعل تجدون الأمة المسيحية وحدها تبني الكنائس باسم صلحائها. لا يفعل ذلك المسلمون ولا اليهودُ، بينما يوجد عند النصارى آلاف الكنائس المبنية باسم صلحائهم، بل يدفنون فيها موتاهم. فثمة في سراديب الموتى كنائس كثيرة بُنيت تذكارًا لأصحاب الكهف الأوائل (الموسوعة البريطانية طبعة ١٩٥١ كلمة Catacombs).

أعداد أصحاب الكهف:

... يعلن الله تعالى أن الناس مختلفون في عددهم، فمنهم من يقول إهم ثلاثة، ومنهم من يقول إهم أربعة، ومنهم من يقول إهم خمسة، ومنهم من يقول إهم سبعة ثامنهم كلبهم؛ ولكنها أقوال ظنية فحسب.

ومن المفسرين من استنتج بأسلوب القرآن هذا أن عددهم سبعة في الواقع، محتجين أن كلمة ﴿رجمًا بالغيب﴾ ما وردت بعد هذا العدد بينما وردت مع الأعداد السابقة.

ولكن هذا الاستنتاج غير سليم، لأن الله تعالى لم يُسند عدد السبعة إلى نفسه، وإنما نسبه إلى الآخرين، ثم أردفه بقوله ﴿قُلْ ربي أعلَمُ بعِدّتهم﴾. فالحق أن الله قد أكّد خطأ أصحاب هذا الرأي أيضًا، لأن أصحاب الكهف لم يكونوا خمسة أو سبعة، بل كانوا آلافًا، واختفَوا في الكهوف في عصور مختلفة. فالحق أن لا أحد يعرف عددهم إلا الله تعالى.

أما قولـــه تعالى ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ فليس معناه أن بعض الناس يعلمون عدد أصحاب الكهف، بل يمكن تفسير هذه الجملة بوجهين: الأول: أن لا أحد يعلم عددهم؛ ذلك أن لفظ "قليل" في العربية يعني النفيَ المطلق مثل كلمة Few في اللغة الإنجليزية، فيقال: "قليل من الرجال يقول ذلك.. أي لا يقول به أحد" (الأقرب). والوجه الثاني هو: لا يعلم حقيقة أصحاب الكهف إلا قليل؛ ذلك أن الله تعالى لم يقل هنا ما يعلم عددهم إلا قليل"، بل قال ﴿ما يعلَمهم إلا قليل﴾، إذن فالمعنى أنه لا يعلَم حقيقتهم إلا قليل من الناس الذين هم ملمّون بالتاريخ الصحيح؛ فهم يعرفون أن أصحاب الكهف هم المسيحيون الأوائل الذين كانوا يختفون في السراديب؛ وأما غيرهم فانخدعوا بشتى القصص الشائعة عن هؤلاء القوم. وبالفعل فقد انكشفت حقيقة أصحاب الكهف في النهاية بفضل علم هؤلاء القلّة.

ثم يقول الله سبحانه وتعالى ﴿فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (الكهف: ٢٣).. أي لا تتحدث عنهم إلا حديثًا مبدئيًّا دون الخوض في التفاصيل إذ لا أحد في الدنيا يعلم جميع التفاصيل. وفي ذلك إشارة ربانية إلى أن هذا الجزء من التاريخ قد اندثر، فلا أحد يعرف تفاصيل هذا الحادث، لذلك لو حاولتم معرفة التفاصيل فستخطئون. والأسف أنه برغم هذا النصح القرآني خاض المسلمون في التفاصيل لدرجة أهم حاولوا أن يسألوا اليهودَ والنصارى حتى عن لون كلب أصحاب الكهف وطوله، وبالتالي ملأوا التفاسير بروايات خاطئة يندب ويبكي الإنسان لدى قراءهما. لقد ساق الله تعالى هنا نبأً آخرَ يتعلق بزمن غلبة هذه الشعوب فقال: لدى مواجهتهم لا تقل أبدًا إننا سنقضي عليهم غدًا إلا أن يخبرك الله ﷻ بوحيه أنه فاعل بهم كذا وكذا.

لقد قال البعض بأن الخطاب هنا موجه إلى رسول الله ﷺ حيث يأمره الله تعالى أن لا يَعِد بفعل شيء من دون أن يقول إن شاء الله، وقد نقلوا بهذا الصدد شتى الروايات السخيفة التي تمثّل إساءة صريحة إلى الرسول الكريم ﷺ (ابن كثير، والقرطبي). وذلك بالرغم أنه ليس في كلمات الآية ما يدل على أنها تأمره ﷺ بقول

إن شاء الله، وإلا لكانت الآية كالآتي: "ولا تقولَنّ لشيء إني فاعلٌ ذلك غدًا إلا أن تقول إن شاء الله" بدلاً من ﴿..... إلا أن يشاء الله﴾. كلا، بل الرسالة التي تحملها هذه الآية للمسلمين هي أنهم لن يقدروا بقوتهم على مقاومة هذه الأمة، وإنما سيتمكن من ذلك مَن سيُقيمه الله بمشيئته لهذا الغرض.

الحق أن هذه الآية إشارة إلى ما سيفعله المسلمون إبان غلبة هذه الشعوب، حيث تخبرنا أنه سيأخذهم الحماس لدى رؤية غلبة هذه الأمة، وسيحاولون مقاومتها بالقوة، ولكنهم لن يفلحوا في ذلك أبدًا.

كما أن هذه الآية تكشف حالة المسلمين في ذلك الزمن حيث إنهم سيعقدون الآمال على الغد بدلاً من العمل الجاد، وسيقولون دائمًا سنفعل ذلك غدًا. سيُطلقون التهديدات بكثرة، ولكن لن تبقى فيهم قوة للعمل. سيرددون كلمة الغد دومًا، ولكن هذا الغد لن يأتي أبدًا. وبالفعل ترون الشعوب الإسلامية تكشف بعملها في هذا الزمن صدق النبأ القرآني بكل جلاء، مما يبعث على الحيرة والأسف في وقت واحد.

ونصح بقولـــه تعالى ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ (الكهف: ٢٥) المسلمين أنه إذا دفعتهم الحمية للتفكير في مقاومة هذه الشعوب فعليهم أن يتذكروا الوعود الإلهية بهذا الصدد، لأن الله تعالى قد وعدهم أنه سيُنقذهم من هجمات هذه الأمم في يوم من الأيام، وسيهيئ من الغيب الأسباب لنجاتهم، لذا يجب عليهم أن ينفُضوا من رؤوسهم فكرةَ اتخاذ التدابير الأخرى غير التدبير الإلهي.

أما قولـــه تعالى ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ (الكهف: ٢٥) فهو أيضًا إعلان رباني أنكم لن تستطيعوا بتدابيركم المادية التغلب على هذه الشعوب في مئات السنين، ولكن الله تعالى سيهيئ بفضله الخاص الأسبابَ المفاجئة لحمايتكم من هذه الفتن.

من المؤسف أن المسلمين لم ينتفعوا بهذا النصح الإلهي، فأعلنوا الجهاد ضد الشعوب الأوروبية مرة بعد أخرى مما قلل من رعب الإسلام؛ بل لما نهاهم الناصحون

عن مثل هذه التصرفات اعتبروهم أعداء للإسلام، و لم يفكروا أن من يدعوهم إلى العمل بتعليم القرآن لا يمكن أن يكون عدوًّا للإسلام، إنما أعداؤه الذين يتبعون الطريق الخاطئ رغم نهي القرآن عنه.

يخبرنا الله تعالى هنا عن طول فترة المصائب التي حلّت بأصحاب الكهف والتي اضطروا خلالها للاختفاء في كهوفهم مرة بعد أخرى. لقد امتدت تلك الفترة لثلاث مائة وتسع سنين. وهذا ما يؤكده التاريخ أيضًا، حيث بدأت هذه المظالم لدى حادث تعليق المسيح عليه السلام على الصليب، وانتهت تمامًا حين تنصَّر الملِكُ قسطنطينُ - مؤسسُ مدينة القسطنطينية - عام ٣٣٧ الميلادي كما أسلفنا (انظر الموسوعة البريطانية طبعة ١٩٥١ كلمة Church History).

وهذا التاريخ يبدو مخالفًا لما ذكره القرآن الكريم من طول فترة مصائب أصحاب الكهف، ولكنه ليس كذلك، لأننا إذا فحصنا تاريخ المسيحية وجدنا أن قسطنطين لم يتنصّر في الحقيقة عام ٣٣٧ الميلادي، بل بعد ٣٠٩ عامًا من حادث الصليب. والدليل على ذلك هو اعتراف الجغرافيين المسيحيين أنفسهم بوجود خطأ في التقويم الميلادي، حيث أثبت كل من المطران Ushers والدكتور Kitto في كتابه أن العام المذكور لحادث الصليب في التقويم الميلادي غلط... إذ الواقع أن المسيح وُلد قبل بداية التقويم الميلادي الحالي بأربعة أو ستة أعوام، وعُلِّقَ على الصليب وسنُّه ثلاثة وثلاثين عامًا...

هذه الآية نصح إلهي لنا نحن المسلمين بأن لا نضيق ذرعًا بطول فترة المصائب. لقد أُوذيت جماعة المسيحيين قبلنا لمدة ٣٠٩ سنين، ولكنهم صبروا، وفي آخر الأمر أكلوا الثمار الحلوة لصبرهم. فلا تتعجلوا، بل ثابِروا على العمل وتحمُّلِ المشاقّ بهمة وثبات.

لقد أخبر بقولـــه تعالى ﴿قُلِ اللهُ أعلمُ بما لبثوا﴾ أن تواريخ المسيحيين ستتعارض مع بيان القرآن هذا -كما سبق ذكره- فلا تثقوا بقولهم، لأن الله تعالى يعلم أنهم على خطأ. وبالفعل أكدت البحوث فيما بعد خطأهم.

ورب قائل يقول هنا: إن قوله تعالى ﴿قُلِ اللهُ أعلمُ بما لبِثوا﴾ يوهم أن البيان السابق خطأ؟ والجواب: لو كان البيان السابق مما قاله الكفار لكان هذا الاعتراض في محله، ولكن الله تعالى لم ينسبه إلى الكفار، فثبت أن البيان السابق هو من الله تعالى وأن الجملة التالية جاءت تأكيدًا لـــه، والمراد أن الناس سيختلفون في مدة مكوث أصحاب الكهف، ولكنهم سيكونون على خطأ والصحيح ما ذكرناه آنفًا. كما أن قولـــه تعالى ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ ولاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ (الكهف: ٢٧) يعني أن الله تعالى أعلم بأحوال الناس، فإنه ينصرهم ما تنـــزّهوا عن رجس الشرك، أما إذا وقعوا في الشرك حُرموا من نصرته ﷻ.

لقد صرّح الله تعالى هنا لرسوله أنه لا يروي لـــه هذا الحادث كقصة فحسب، بل إن هذا ما سيأتي على أمته أيضًا، وأن ما ذكر ﷻ يحتوي على أخبار صادقة من الماضي، كما ينطوي أيضًا على أنباء غيبية ستقع في المستقبل. هذا المعنى يُفهم من قوله تعالى ﴿لاَ مُبَدِّلَ لكَلمَاته﴾، إذ لو لم يكن في ذلك أي نبأ عن المستقبل لما قال الله تعالى ﴿لاَ مُبَدِّلَ لِكَلمَاته﴾، حيث لا مجال لتبديل أحداث الماضي. فهذه الجملة إذًا تؤكد ما ذهبت إليه في تفسيري هذا. مما يعني أن الذين اعتبروا الآيات السابقة قصةً من الماضي فحسب كانوا على خطأ، والحق أن بعضها تروي لنا أحداث الماضي، وبعضها تنطوي على أنباء مستقبلية تتعلق بالذين سيكونون أمثال أصحاب الكهف في المستقبل.

وهناك دليل آخر على أن هذه الآيات تنطوي على أنباء المستقبل، وأن الغاية من ذكر هذه القصة هي التنبؤ بأن جماعة من المسلمين ستمرّ بأحوال مماثلة، بمعنى أنهم أيضًا سيتعرضون للاضطهاد لإيمانهم بكلام الله تعالى. فقد ورد في رواية: أخرج ابن مردويه "عن ابن عباس ﷺ قال، قال رسول الله ﷺ: "أصحاب الكهف أعوانُ المهدي" (الدر المنثور: سورة الكهف). وهذا لا ينفي وجود أصحاب الكهف في الماضي، لأنه سبق أن أخبرنا ابنُ عباس ﷺ نفسُه في رواية سجّلناها من قبل أنه رأى

عظامَ أصحاب الكهف، إنما المراد من ذلك أنه سيأتي على أتباع المهدي ما أتى على أصحاب الكهف، وأنهم سيؤذَون مثلهم لإيمانهم بكلام الله تعالى.

فالحق أن الخطاب هنا موجه بالتأكيد إلى مسلمي ذلك العصر الذين سيرون أن الإسلام لن ينهض ثانيةً إلا بالأخذ بالأسباب المادية، فالله تعالى يأمرهم أن لا يقعوا في مثل هذا التفكير الخاطئ، بل عليهم أن ينضموا إلى جماعة تكون قائمة على الإسلام إبّانَ غلبة الشعوب المسيحية، ويصلّي أفرادها لربهم بالغداة والعشي، يرجون فضله بالدعاء والابتهال، ليجعلهم غالبين على الأعداء.

ثم يقول ﴿وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي لا تصرِفوا، أيها المسلمون، أنظارَكم عن هذه الجماعة العابدة إلى غيرها. لا شك أنكم ستجدون فرص رقي الدنيا وزينتها خارج هذه الجماعة، لكن لن تظفروا برضوان الله تعالى إذًا. فلا تحتقرُنّ هذه الجماعة المتواضعة في الظاهر من أجل المطامع الدنيوية، ولا تتّبعُنّ خطواتِ الذين يكونون غافلين عن ذكر الله والتبليغ، ويريدون إصلاح الناس بالقوة، ويكونون مصابين بمرض الإفراط والتفريط وهوى السياسة.

كما نبّه الله تعالى هنا إلى أن المصائب ستحل بالمسلمين في ذلك العصر لأسباب ثلاثة: الأول غفلتُهم عن العبادات؛ والثاني الحبُّ المفرِط لأموال الدنيا؛ والثالث الانغماس في الملذات. فعلى المؤمن في ذلك الوقت الانشغال بالعبادة، والرغبة عن المال، والإنفاق في سبيل نشر الدين بعد قضاء حاجاته الضرورية.

قصة الإسراء والمعراج

﴿سُبْحَانَ الَّذي أَسْرَى بعَبْده لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجد الْحَرَام إِلَى الْمَسْجد الأَقْصَى الَّذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لنُرِيَهُ منْ آيَاتنَا إِنَّهُ هُوَ السَّميعُ البَصيرُ*﴾

إن هذه الآية هي من تلك الآيات الهامة التي تضاربت الآراء في تفسيرها تضاربًا كبيرًا، وتقول الأغلبية العظمى من المفسرين والعلماء، القدامى منهم والمعاصرين، بأنها تتكلم عن حادثة المعراج النبوي، وإن كانت الروايات حول تفاصيل المعراج تختلف فيما بينها اختلافًا كبيرًا. وقد بلغت هذه القضية، بسبب تضارُب الأحاديث والروايات، من التعقيد والإشكال بحيث إنني سأضطر لتقسيمها إلى عدة أجزاء حتى تتضح الحقيقة.

ذكر المعراج في سورة النجم:

فأولاً وقبل كل شيء أوضح لكم أن حادث المعراج مذكور في مكان آخر من القرآن الكريم أيضًا، وذلك في سورة النجم حيث قال الله تعالى ﴿إِنْ هُوَ إلا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَديدُ الْقُوَى* ذُو مرَّة فَاسْتَوَى * وهو بالأُفُق الأعلَى* ثُمَّ دَنَا فتَدَلَّى * فكان قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى* فَأَوْحَى إِلَى عبده ما أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى* أَفَتُمَارُونَهُ على ما يَرَى * ولقد رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عندَ سدْرَة الْمُنْتَهَى * عندها جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى* لَقَدْ رَأَى منْ آيات رَبِّه الكبرى﴾ (النجم:٥ - ١٩)

تشير هذه الآيات إلى المعراج النبوي الشريف، والدليل على ذلك هو أن كل ما ورد فيها يتعلق بحادث المعراج. ويُستخلص من هذه الآيات ما يلي:

١- وصولُ النبي ﷺ إلى سدرة المنتهى.

٢- غشيانُ شيءٍ ما سدرةَ المنتهى أثناء ذلك.
٣- رؤيتُه ﷺ الجنةَ عندها.
٤- وصولُه ﷺ إلى حالة وصفها قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾.
٥- رؤيتُه ﷺ البارئ تعالى.
٦- نـــزولُ الوحي عليه ﷺ.

وكل هذه الأمور مذكورة في الروايات التي تصف حادث المعراج. وإليكم بيانها:

١- وصول النبي ﷺ إلى سدرة المنتهى: فهناك رواية عن أبي هريرة ﷺ وقد سجلها كل من هؤلاء المحدثين الستة في كتبهم: ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبزّار، وأبو يَعلى، والبيهقي. وقد ورد فيها أن النبي بعد أن وصل إلى السماء ليلة المعراج وقابلَ الأنبياء انتهى إلى السدرة. (الخصائص الكبرى ج ١ باب خصوصيته ﷺ). وهناك رواية أخرى عن أبي سعيد الخدري قد نقلها كل من ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي وابن العساكر، وتؤكد هذه الرواية ذهاب النبي ﷺ إلى السماء، ولقائه بالأنبياء هناك، ثم وصولِه إلى سدرة المنتهى. (المرجع السابق)

وفي رواية أخرى عن مالك ابن صعصعة: "ثم رُفعتُ إلى سدرة المنتهى". (البخاري: كتاب بدءُ الخلق، باب ذِكر الملائكة؛ مسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله؛ مسند أحمد: مسند الأنصار، وابن جرير)

ثم هناك رواية في البخاري عن أبي ذرٍّ تذكر ذهابَه ﷺ إلى السماء ولقاءَه الأنبياءَ، ووصولَه إلى سدرة المنتهى. (البخاري: كتاب الصلاة، باب كيف فُرضت الصلاة)

٢- غشيانُ شيء ما السدرةَ حينذاك: وهذا أيضًا مسجَّل في أحاديث المعراج. فقد ورد في الرواية المشار إليها أعلاه أن النبي ﷺ قال: "فغَشيَها نورُ الخلّاق ﷻ" (الخصائص الكبرى). كما ورد: "فلما غشيها مِن أمر الله ما غشي تغيرتْ، فما أحدٌ

من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها" (مسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ).

٣- رؤية النبي ﷺ الجنةَ عند سدرة المنتهى: وهذا أيضًا مذكور في أحاديث المعراج حيث ورد في رواية لأبي سعيد الخدري نقلها العديد من المحدثين أنه ﷺ قال: "ثم إني رُفعتُ إلى الجنة"، وذلك بعد لقائه بالأنبياء الآخرين. (الخصائص الكبرى ص ١٦٥).

٤- برؤية هذه المشاهد طرأت على النبي ﷺ حالة وصفها الله بقوله ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾. وروايات المعراج تؤكد هذا الأمر أيضًا، فورد في رواية أبي سعيد الخدري المذكورة أعلاه أن النبي ﷺ قال: بعد وصولي إلى سدرة المنتهى "كان بيني وبينه قابَ قوسين أو أدنى". (المرجع السابق ص ١٦٩)

٥- رؤية النبيِّ ﷺ البارئ تعالى، كما يشير إلى ذلك قولـــه تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾. وقد ورد هذا المعنى في روايات عديدة عن المعراج، حيث نقل ابن مردويه عن أسماء بنت أبي بكر ﵄: "سمعتُ رسولَ الله ﷺ وهو يصف سدرة المنتهى... فقلت: يا رسول الله، ما رأيتَ عندها؟ قال: رأيتُ عندها يعني ربَّه." (المرجع السابق ص ١٧٧).

وقال ابن عباس في قوله تعالى ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾: "رآه بفؤاده مرتين". (مسلم: كتاب الإيمان، باب معنى قوله تعالى مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى)

٦- كلام الله تعالى مع النبي ﷺ عند سدرة المنتهى كما هو ظاهر من قوله تعالى ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾، وهذا أيضًا مسجّل في أحاديث المعراج، فقد نقلنا آنفًا رواية عن أبي هريرة تقول إن النبي ﷺ لما بلغ سدرة المنتهى "فكلّمه الله تعالى عند ذلك" (الخصائص الكبرى ص ١٥٥). كذلك نقل ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك قول الرسول ﷺ إني لما وصلت إلى سدرة المنتهى "قال الله لي: يا محمد". (المرجع السابق ص ١٥٥)

لقد ثبت بذلك أن الحادث الذي تشير إليه سورةُ النجم إنما هو حادث المعراج نفسه.

والآن أُورد الأدلة على أن سورة النجم قد نـــزلت بعد السنة الخامسة من النبوة أو قبل ذلك بقليل. فهناك حادث شهير ذو صلة وثيقة بهذه السورة يحدد زمن نـــزولها بما لا يدع مجالاً للشك، وذلك أن النبي ﷺ لما رأى أن اضطهاد الكفار المكيين لأصحابه قد بلغ المنتهى أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة، حيث قال لهم مشيرًا إلى جهة الغرب: هناك بلد لا يُظلَم فيه أحد. فخرج بعض صحابته قاصدين الحبشة في شهر رجب من السنة الخامسة من النبوة، وكان فيهم سيدنا عثمان بزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ (الطبقات الكبرى: هجرة الحبشة). ولما علمت قريش بذلك خرجت على آثار الصحابة، ولكنهم ركبوا السفن قبل أن يدركهم الكافرون، وعبروا البحر إلى أرض الحبشة، وعاشوا هناك بأمان. ولما بلغ الكفارَ ذلك بعثوا إلى النجاشي ملكِ الحبشة وفدًا مكونًا من عمرو بن العاص وعبد الله بن ربيعة ليسألاه تسليم المسلمين اللاجئين للمكيين، ولكن الملك رفض طلبهم، فرجع الوفد خائبًا خاسرًا.

وأعود الآن إلى ما كنت بصدده فأقول: إنه لم يمضِ على هجرة هؤلاء المسلمين إلى الحبشة ثلاثةُ أشهر حتى سمعوا خبر إسلام المكيين، فعاد بعضهم إلى مكة (المرجع السابق). وقد سجلتْ كتبُ التاريخ والحديث كلها هذا الحادث، مما يشكّل دليلاً قاطعًا على أن سورة النجم قد نـــزلت قبل شهر شوال من السنة الخامسة النبوية، وبما أن حادث المعراج مسجل في هذه السورة فثبت أن المعراج أيضًا كان قد وقع قبل شوال من السنة الخامسة النبوية.

وقت حدوث الإسراء:

أما الآن فأعود إلى حادث الإسراء المذكور في هذه السورة التي نحن بصدد تفسيرها. لقد ورد في التاريخ أن الإسراء وقع في ربيع الأول أو الثاني أو رجب أو

شعبان من السنة الحادية عشرة النبوية (شرح الزرقاني على المواهب اللدنية: وقتُ الإسراء).

أما المستشرقون المسيحيون فأيضًا يعترفون أن الإسراء وقع في السنة الثانية عشرة النبوية. (حياة محمد للسير وليم ميور ص ١٢٥)

كما أن روايات كتب الحديث أيضًا تحدد حادث الإسراء في زمن قريب من ذلك، حيث أخرج ابن مردويه عن عبد الله بن عمر ﷺ قال: "أُسريَ بالنبي ﷺ ليلةَ سبعَ عشرَة من شهر ربيع الأول قبل الهجرة بسنة" (الخصائص الكبرى ص ١٦١). كما أخرج البيهقي عن ابن شهاب قال: أُسريَ بالنبي ﷺ إلى بيت المقدس قبل خروجه إلى المدينة بسنة (المرجع السابق ص ١٦٢). وأيضًا أخرج البيهقي عن السدي أنه أُسريَ بالنبي ﷺ قبل مُهاجَره بحوالي ستة أشهر. كما نقل ابن سعد عن أم سلمة أن حادث الإسراء وقع قبل الهجرة بسنة في السابعة عشرة من شهر ربيع الأول. إذن فكل هذه الروايات تجزم بأن الإسراء وقع قبل الهجرة بستة أشهر أو سنة.

وهناك دليل آخر على وقوع الإسراء بعد خروج النبي ﷺ من شعب أبي طالب -علمًا أن الكافرين حاصروا النبيَّ ﷺ وأصحابه في شعب أبي طالب في السنة السابعة، ورفعوا هذا الحصار في السنة العاشرة (الطبقات الكبرى لابن سعد: ذكرُ حصر قريشٍ رسولَ الله ﷺ وبني هاشم في الشعب)- هناك شاهد واحد للإسراء وهو أم هانئ بنت عم النبي أبي طالب، فهي تقول: لقد بات النبي ﷺ في بيتها ليلة أُسريَ به. وقد وثّق قولها هذا كثير من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين (الخصائص الكبرى ص ١٧٧). والبديهي أن النبي ﷺ ما كان ليبيت في بيت أم هانئ في حياة خديجة أو حياة أبي طالب، مما يعني أن حادث الإسراء حصل بعد وفاة خديجة وأبي طالب. ويخبرنا التاريخ أنهما تُوفّيا بعد السنة العاشرة النبوية (السيرة النبوية لابن هشام: وفاة أبي طالب). فهذه شهادة تاريخية أخرى على صحة رأيي؟

فخلاصة الكلام أن التاريخ والحديث والعقل كل أولئك تؤكد أن حادث الإسراء قد وقع بعد السنة الحادية أو الثانية عشرة النبوية. وأما حادث المعراج فقد أثبتُّ قبل قليل أنه حصل بعد السنة الخامسة النبوية. فما دام الحادثان تفصلهما فترة زمنية لا تقل عن ست أو سبع سنوات فكيف يمكن اعتبارهما حادثًا واحدًا؟ إذن فإن المعراج غيرُ الإسراء الذي زار فيه النبي ﷺ بيت المقدس.

وبالإضافة إلى الشواهد التاريخية هناك أمر آخر يؤيد استنتاجي هذا، وهو أن الروايات تؤكد أن الصلوات قد فُرضت في المعراج. فلو ظننا أن المعراج والإسراء حادث واحد لاضطررنا إلى القول أن الصلوات الخمس لم تُفرض إلا بعد السنة الحادية أو الثانية عشرة من البعثة، وهو قول باطل بالبداهة، لأنها فُرضت في أوائل البعثة، وذلك بحسب إجماع المسلمين كافةً (البخاري: كتاب الصلاة، باب كيف فُرضت الصلاة في الإسراء). فثبت من ذلك أيضًا أن المعراج تم في أوائل البعثة، بينما وقع الإسراء في السنة الحادية أو الثانية عشرة بعد البعثة.

بل أقول إن القرآن قد أشار إلى معراجين اثنين، ليدل على أن المعراج المذكور في سورة النجم هو ثاني المعراجين. والحق أن المعراج الأول كان في أوائل البعثة النبوية أو بعده بقليل، وفيه فُرضت الصلوات. فقد نقل ابن جرير في تفسيره حادث المعراج في رواية تقول: "جاءه ثلاثةُ نَفَرٍ قبل أن يوحى إليه." (البخاري: التوحيد). وتحكي الرواية نفس الأحداث التي وقعت في المعراج، ولكنها لا تذكر ذهاب النبي ﷺ إلى القدس بل إلى السماء رأسًا، وأخيرًا تذكر حادث فرضية الصلوات. ويتبين من هذا الحديث أن حادث المعراج حصل قبيل مبعث النبي ﷺ أو لدى بعثته، ومعظم المحققين ذهبوا إلى أن ذلك الحادث لم يقع قبل البعثة بل حصل لدى البعثة، وأن الراوي أخطأ بسبب قرب الزمن. وأنا أيضًا أؤيد رأي هؤلاء المحققين، لأن الصلوات فُرضت في بداية الإسلام، إذ لم تمض سنة واحدة في الإسلام لم تكن فيها الصلاة، كما أن فرضية الصلوات قبل البعثة أمر مخالف للعقل.

وأوجز القول مرة أخرى فأقول: إن الإسراء والمعراج حادثان منفصلان، وأن المعراج تم مرتين كما هو ظاهر من آيات سورة النجم، وكما تؤكد الأحاديث أيضًا، حيث ورد فيها أن أول المعراجين حصل في أوائل البعثة، ويمكن أن نقول إنه في ذلك المعراج نفسه وُضع الأساس للنبوة التشريعية أي التي فيها أحكام وأوامر، حيث فُرضت فيه الصلوات. أما المعراج الثاني فتم في السنة الخامسة بعد البعثة، أو يمكن أن نقول إن المعراج الثاني أيضًا حصل قبل ذلك ولكنه ذُكر في سورة النجم. وأما الإسراء فهو حادث منفصل تمامًا عن المعراج حيث وقع في السنة الحادية أو الثانية عشرة بعد البعثة حين كانت زوجة النبي السيدة خديجة رضي الله عنها قد تُوفيت، وكان النبي ﷺ يبيت في بيت أم هانئ بنت أبي طالب، كما هو ثابت من الأحاديث المتواترة والروايات التاريخية.

الشهادات الواقعية على أن الإسراء والمعراج حادثين منفصلين:

بعد سرد الأدلة المسجلة في كتب التاريخ أتناول الآن الشهادات الواقعية التي تدل على كون الإسراء والمعراج حادثين منفصلين.

الشهادة الأولى- وهي من القرآن الكريم نفسه الذي سجل حادث المعراج في سورة النجم، ولكن دون أي إشارة إلى ذهاب النبي ﷺ إلى بيت المقدس. وعلى النقيض قد ذكر القرآن في سورة الإسراء صراحةً ذهاب النبي ﷺ إلى القدس، ولكن دون الإشارة إلى صعوده إلى السماء. مما يوضح جليًّا أن الحادثين منفصلان، ولذلك لم ير القرآن أية حاجة إلى ذكرهما معًا. وإلا أفليس عجيبًا أن يسجل القرآن في المرة الأولى الجزء الأخير من الحادث الواحد، ثم بعد مضيّ ست سنوات يذكر الجزءَ الأول من الحادث نفسه!؟

الشهادة الثانية – إن أول شاهد على حادث الإسراء هو أم هانئ حيث بات النبي ﷺ في بيتها ليلة أُسريَ به. وتقول أم هانئ إن النبي ﷺ أخبرني بحادث إسرائه إلى بيت المقدس قبل أي شخص آخر، "ثم قام ليخرج، فقلتُ: لا تحدّث هذا الناسَ فيكذّبوك ويؤذوك. فقال: والله لأحدّثنهم، فأخبرَهم" (الخصائص الكبرى ص

٢٧٩). وهناك سبعة من المحدثين على الأقل الذين نقلوا قول هذا الشاهد الأول أمّ هانئ، وبرواية عن أربعة أشخاص مختلفين؛ وكل هذه الروايات إنما تشير إلى ذهابه ﷺ إلى القدس ثم رجوعه منها. فلو أن النبي ﷺ كان أخبر أم هانئ عن ذهابه إلى السماء من القدس لتكلمت عن ذلك في مناسبة من المناسبات، ولكنها في كل مرة قالت إن النبي ﷺ أخبرني بأنه ذهب إلى القدس ورجع منها. مما يؤكد أن حادث إسرائه ﷺ إلى القدس مختلف عن حادث معراجه إلى السماء.

الشهادة الثالثة – إن من الرواة من يذكر ذهاب النبي ﷺ إلى السماء مباشرة دون ذهابه إلى القدس، ومنهم من يذكر ذهابه ﷺ أولا إلى القدس ثم من هناك إلى السماء، ومنهم من قال بذهابه إلى القدس دون أي ذكر لصعوده إلى السماء، ولكن عديدًا من الرواة صرحوا أن النبي ﷺ رجع من القدس إلى مكة المكرمة.

والظاهر أن القائلين بصعود النبي ﷺ إلى السماء رأسًا أيضًا قد شهدوا على كون المعراج حادثًا منفصلاً عن الإسراء، لأن القدس لا تقع في الطريق إلى السماء. وأصحاب هذه الرواية هم أنس ومالك بن صعصعة وأبو ذر. مع العلم أن أبا ذر كان من الصحابة الذين أسلموا في أوائل الدعوة، وكان ممن سمع عن هذا الحادث في أول أمره.

أما الذين قالوا بذهابه ﷺ إلى القدس دون أي ذكرٍ لصعوده بعد ذلك إلى السماء فقد أكدوا بشهادتهم هذه أيضًا أنه فيما يتعلق بحادث الإسراء فإن النبي ﷺ لم يذهب فيه إلى السماء، إذ كيف يمكن أن يكون النبي قد صعد في حادث الإسراء إلى السماء وتكلم مع الله وتشرف برؤيته ﷻ، ومع ذلك لا يتحدث هؤلاء عن أبرز وقائعه هذه. وأصحاب هذه الشهادة هم أنس وعبد الله بن مسعود، وهذا الأخير أيضًا من السابقين إلى الإسلام، وكان في صحبة النبي ﷺ على الدوام.

أما أصحاب القول الثالث بأنه ﷺ ذهب إلى القدس ورجع منها فقد شكّلوا دليلاً واضحًا على أنه لم يتم في الإسراء إلى القدس أي صعود إلى السماء، وإنما أُسريَ به ﷺ إلى القدس فقط. وأصحاب هذه الرواية هم عبد الله بن مسعود وابن

عباس وشداد بن أوس وأم هانئ وعائشة وأم سلمة - رضوان الله عليهم أجمعين. ولقد تحدثت آنفًا عن مقام ابن مسعود، وأما عبد الله بن عباس فهو ابن عم النبي ﷺ العباس، وهكذا تصير شهادته من القوة بمكان لكونه فردًا من العائلة النبوية. وأما عائشة وأم سلمة فهما من الزوجات المطهرات، وبالتالي كانتا من أفضل الشاهدين على الحادث. وأما أم هانئ فهي التي وقع حادث الإسراء في بيتها والتي حكى لها النبي ﷺ هذا الحادث قبل أي إنسان آخر. (راجع: البخاري: كتاب الصلاة والمناسك والأنبياء؛ ومسلم: كتاب الإيمان؛ والخصائص الكبرى ص ١٥٤ إلى ١٥٩ و١٧٦ إلى ١٧٩؛ والإصابة: باب الكُنى، حرف الذال والعين). ولا يسع المجال لذكر جميع الروايات في هذا الشأن غير أنني أتناول بعضها فيما يلي:

أولاً- تقول أم هانئ: لما صلّى النبي ﷺ الصبحَ قال لي: "يا أمَّ هانئ، لقد صليتُ معكم العشاء الآخرة كما رأيتِ بهذا الوادي، ثم جئتُ بيتَ المقدس فصليتُ فيه، ثم صليتُ صلاة الغداة معكم الآن كما تَرَين". (الخصائص الكبرى ص ١٧٧)

ثانيًا- تروي السيدة عائشة رضى الله عنها: "لما أُسريَ بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يحدّث الناس بذلك. فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقّوه، وسَعَوا بذلك إلى أبي بكر، فقالوا: هل لك في صاحبك يزعم أنه أُسري به الليلةَ إلى بيت المقدس؟ قال: أَوَ قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: لئن قال ذلك لقد صدَق. قالوا: فتُصدِّقه أنه ذهَب الليلةَ إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم، إني لأصدِّقه بما هو أبعد من ذلك: أصدّقه بخبر السماء في غدوة أو روحة." (المرجع السابق ص ١٧٦)

فهذه الرواية تؤكد أيضًا أن النبي ﷺ لم يذهب إلى السماء في حادث الإسراء، وإلا لما استطاع أبو بكر تقديم الدليل الذي أفحم المعترضين، لأن نـــزول الوحي من السماء ليس أكثر غرابة من صعود أحد إليها وعودته منها. فلو كان النبي ﷺ قد ذهب في الإسراء إلى السماء لرد الكافرون على أبي بكر بأن سيدك يزعم أنه صعد إلى السماء وأنت تتحدث عن نـــزول الوحي منها! ولكنهم لم يردّوا عليه بجواب

كهذا، مما يبين أن النبي ﷺ أخبرهم بذهابه إلى القدس فقط و لم يقل لهم إنه صعد إلى السماء أيضًا.

ثالثًا– أما رواية عبد الله بن مسعود فتذكر صلاة النبي ﷺ بالأنبياء الآخرين في المسجد الأقصى ثم تقول: "ثم انصرفنا فأقبلنا" (المرجع السابق ص ١٦٢).

الشهادة الرابعة: على كون الإسراء غيرَ المعراج هي أن بعض الروايات التي تذكر ذهاب النبي ﷺ إلى القدس أولاً ثم إلى السماء تذكر أيضًا أنه بعد هبوطه من السماء مرّ بالقدس مرة أخرى عائدًا إلى مكة (الخصائص الكبرى، رواية أنس، ص ١٥٤ و١٥٥).

إن العاقل يمكن أن يدرك سبب مرور النبي ﷺ بالقدس وهو في طريقه إلى السماء، لأن الهدف في ذلك أن يصلي في المكان الذي قام أنبياء كثيرون بتبليغ رسالات الله إلى سكانه، ولكن لا يمكن أن يفهم العاقل ضرورة مروره ﷺ بالقدس وهو عائد إلى مكة بعد هبوطه ﷺ من السماء! كان الأمر مفهومًا لو كانت هناك في القدس مهمة من المهام لم يستطع ﷺ القيام بها وقت الذهاب، فيقال: لقد أُتي به مرة أخرى عند العودة لينجز تلك المهمة الباقية، ولكن لم يرد في أي رواية أن النبي ﷺ قام بأي عمل في القدس لدى العودة! فما الداعي إذًا لتكبد مشقة المرور بالقدس مرة أخرى؟ هل الطريق إلى السماء يمر بالقدس فقط؟ وهل هناك في القدس سلّمٌ إلى السماء حتى يقال أن الله تعالى اضطر للذهاب بالنبي ﷺ إلى القدس ليَنـــزل من هناك بذلك السلم؟ كلا، لا أحد من المسلمين يعتقد بهذا، لأن الصعود إلى السماء لا يتم بالسلالم. فثبت أن ذهابه ﷺ إلى القدس أولاً – لدى العودة من السماء – ثم مجيئه من القدس إلى مكة أمرٌ غير معقول.

وأرى أن هناك سبيلاً واحدًا فقط لتأويل هذه الرواية وهو أن أنسًا ؓ ذكر للناس حادثَ الإسراء إلى القدس وحادثَ المعراج إلى السماء، فاختلط الأمر على بعض الرواة، فظنهما حادثًا واحدًا، ولكنه وعى جيدًا أن أنسًا ذكر –لدى الحديث عن حادث الإسراء– أن النبي ﷺ ذهب إلى القدس ورجع منها أيضًا، فظن –أي

السامع من أنس- أنه ﷺ في حادث المعراج نـزل من السماء بالقدس، ومن ثم ذهب إلى مكة.

هنا ينشأ سؤال: كيف يمكن أن يقع هذا الخلط كله؟ وجوابه أن كلمة الإسراء تُطلق في اللغة العربية على السير ليلاً سواء كان السير على سطح الأرض أم إلى السماء (الأقرب). ولأن كلتا الحادثتين، أي الإسراء إلى القدس والمعراج إلى السماء، قد وقعتا بالليل فأطلق عليهما الناس لفظَ "الإسراء".

كما أن هناك عدة أمور مماثلة وقعت في كلا الحادثين، مثل البراق، ولقائه ﷺ بالأنبياء، وصلاته بهم، ورؤيته مشاهد من الجنة والجحيم. إذن فهناك تشابهٌ بين الحادثين من حيث الأسماء والأعمال والمشاهد الروحانية العجيبة، مما أدى إلى خلط الحادثين في أذهان بعض الرواة، فظنوهما حادثًا واحدًا ورووه للآخرين طبقًا لهذا الظن الخاطئ. غير أن ذوي الذاكرة القوية من الرواة عندما تحدثوا عن "المعراج إلى السماء" قالوا: ثم أُسريَ بالنبي ﷺ من بيته إلى السماء، وعندما تحدثوا عن "الإسراء إلى القدس" اكتفوا بقولهم: أُسري به ﷺ إلى القدس، ولم يذكروا بعد ذلك شيئًا عن صعوده إلى السماء.

والدليل على إطلاق الصحابة -رضي الله عنهم- كلمةَ "الإسراء" على الحادثين موجودٌ في الأحاديث الشريفة حيث ورد في رواية: "عن أنس بن مالك أن مالكَ بنَ صَعصَعةَ حدَّثه أن نبيَّ الله ﷺ حدَّثهم عن ليلة أُسْرِيَ به، قال: بَيْنَا أنـا في الحَطيـم -وربما قال قتادةُ: في الحِجْرِ- مضطجعٌ إذ أتاني آت، فجعَل يقول لصاحبه: الأوسَطُ بينَ الثلاثة. قال: فأتاني... فشَقَّ ما بينَ هذه إلَى هذه... من ثُغْرة نَحْره إلى شعْرته... فاستخرَجَ قلبي. فأُتيتُ بطَسْت من ذَهَب مملوءة إيمانا وحكمة. فغُسلَ قلبي ثم حُشيَ ثم أُعيدَ. ثم أُتيتُ بدابَة دُونَ البَغْلِ وفوقَ الحمار... يقَع خَطوُه عند أقصَى طَرْفه. قال: فحُملتُ عليه، فانطَلَقَ بي جبريلُ ﷺ حتى أَتَى بي السماءَ الدنيا..." (مسند أحمد، مسند الشاميين ج ٤ ص ٢٠٨، البخاري: كتاب المناقب باب المعراج؛ ومسلم: كتاب الإيمان باب الإسراء؛ والخصائص الكبرى ص ١٦٥)

وهناك رواية مماثلة عن أنس بأن النبي ﷺ أُسري به من الكعبة إلى السماء رأسًا (البخاري: التوحيد، والخصائص الكبرى ص ١٥٣). فيبدو من ظاهر كلمات الروايتين أنهم يتحدثون فيهما عن حادثة الإسراء، ولكن كل الوقائع المذكورة فيهما هي نفس ما حدث في المعراج إلى السماء، ولا ذكر فيهما لذهابه إلى القدس، وإنما ذُكر ذهابه إلى السماء رأسًا. مما يعني أن الصحابة كانوا يستخدمون أحيانًا كلمة "الإسراء" وهم يقصدون بها حادث المعراج. كما نجدهم يستخدمون كلمة الإسراء نفسها وهم يعنون بها ذهابه ﷺ إلى القدس فقط، وذلك كما حصل في رواية جابر بن عبد الله (البخاري: التفسير؛ ومسلم: الإيمان؛ والخصائص الكبرى ص ١٥٧ و١٥٨).

فثبت من هذه الروايات بنوعيها أن الصحابة كانوا يستعملون كلمة "الإسراء" للحادثين. وبسبب هذا الاستعمال وبسبب اشتراك الحادثين في بعض الأسماء والأمور كان من السهل جدًّا أن يخطئ بعض الرواة فيظنوا الحادثين حادثًا واحدًا، مما أدى إلى الخلط بين روايات الحادثين، فظن الذين أتوا بعدهم أن هذه التفاصيل إنما هي لحادث واحد فقط.

كما أن النظرة الفاحصة في الروايات تؤكد وجود الخلط فيها. فمثلاً ورد في الروايات التي تذكر ذهابه ﷺ إلى السماء مرورًا بالقدس أنه لقي في القدس آدمَ وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام، ولكن هذه الروايات نفسها تقول إنه ﷺ صعد بعد ذلك ورأى هؤلاء الأنبياء في السماوات المختلفة، ولكنه لم يستطع أن يعرفهم! فإذا كان هذان اللقاءان قد حصلا في حادث واحد فكيف وصل هؤلاء إلى السماوات المختلفة قبل النبي ﷺ؟ ثم كيف لم يتمكن النبي من معرفتهم وقد رآهم في القدس قبل قليل؟ إن هذا اللغز سيظل غير مفهوم، إلا إذا قلنا إن اللقاءين حصلا في حادثين مختلفَين بينهما فاصل زمني، لذلك لم يستطع النبي ﷺ أن يعرفهم لدى اللقاء الثاني. إذن فهذه الشهادة الداخلية أيضًا تؤكد أن بعض الرواة خلطوا بين تفاصيل الحادثين المختلفَين.

وإن آراء بعض الأسلاف أيضًا تدعم موقفي هذا حيث ورد: "ذهب كثيرون إلى أن الإسراء وقع مرتين، وجُمع بذلك بين اختلاف الواقع في الأحاديث. وممن اختار هذا القول أبو نصر القشيري وابن العربي والسهيلي." (الخصائص الكبرى: فوائد في تعداد الإسراء ص ١٨٠ و١٨١)

تفصيل الإسراء:

وأتناول الآن حادث الإسراء بشيء من التفصيل. أرى أن رواية أنس التي نقلها ابن جرير في تفسيره ترسم لنا أدقَّ وأصحَّ صورة للإسراء، حيث ورد: "عن أنس بن مالك قال: لما جاء جبرئيل عليه السلام بالبراق إلى رسول الله ﷺ ضربتْ بذنَبها، فقال لها جبرئيل: مَهْ يا براقُ! فوالله إنْ رَكِبَك مثلُه. فسار رسول الله ﷺ فإذا هو بعجوزٍ ناءٍ عن الطريق أي على جنب الطريق، فقال: ما هذه يا جبرئيل؟ قال: سِرْ يا محمد. فسار ما شاء الله أن يسير، فإذا شيء يدعوه متنحِّيًا عن الطريق يقول: هلمَّ يا محمد، قال جبرئيل: سِرْ يا محمد، فسار ما شاء الله أن يسير. قال: ثم لقيه خَلقٌ من الخلائق، فقال أحدهم: السلام عليك يا أولُ، والسلام عليك يا آخر، والسلام عليك يا حاشر! فقال له جبرئيل: ارْدُدِ السلامَ يا محمد. قال: فردَّ السلام. ثم لقيه الثاني، فقال له مثل مقالة الأولين، حتى انتهى إلى بيت المقدس. فعُرض عليه الماءُ واللبنُ والخمرُ، فتناول رسولُ الله ﷺ اللبنَ. فقال له جبرئيل: أصبتَ يا محمد الفطرةَ، ولو شربتَ الماء لغرَقتَ وغرَقتْ أُمّتُك، ولو شربتَ الخمرَ لغَوَيتَ وغَوَتْ أُمّتُك. ثم بُعث له آدمُ فمَن دونه من الأنبياء. فأَمَّهم رسولُ الله ﷺ تلك الليلةَ.

ثم قال له جبرئيل: أما العجوز التي رأيتَ على جانب الطريق فلم يبق من الدنيا إلا بقدر ما بقي من عمر تلك العجوز. وأما الذي أراد أن تميل إليه فذاك عدوُّ الله إبليسُ.. أراد أن تميل إليه. وأما الذي سلّموا عليك فذلك إبراهيم وموسى وعيسى". (تفسير ابن جرير الطبري)

هذه الرواية قد نقلها ابن كثير في تفسيره وعلّق عليها قائلاً: "وهكذا رواه الحافظ البيهقي في دلائل النبوة من حديث ابن وهب. وفي بعض ألفاظه نَكارةٌ

وغرابة. طريقٌ أخرى عن أنس ابن مالك، وفيها غرابة ونكارة جدًّا، وهي في سنن النسائي المجتبى، و لم أرها في الكبير."*

وهذه الرواية لابن جرير يمكن أن تساعدنا على السير في الطريق السليم في هذا البحث، لأنها -عندي- أصدق الروايات وأصحها.

هناك خطأ واحد في هذه الرواية وهو أنها تذكر أنه عُرض على النبي ﷺ أولاً الماء ثم اللبن ثم الخمر، ولكن الترتيب الصحيح هو: الماء ثم الخمر ثم اللبن، كما ذكره ابن كثير في تفسيره؛ وسوف أبيّن بعد قليلٍ أهمية تصحيح هذا الخطأ البسيط، أما الآن فأريد التأكيد أن المراجع الأخرى أيضًا قد سجلت المشروبات بالترتيب الذي أراه صحيحًا. فقد أخرج الطبراني وابن مردويه عن صهيب بن سنان قال: لما عُرض على رسول الله ﷺ ليلةَ أُسريَ به الماءُ ثم الخمرُ ثم اللبنُ أَخَذَ اللبنَ" (الخصائص الكبرى ج ١ باب خصوصيته ﷺ الإسراء، حديث صهيب ص ١٥٩).

إن رواية ابن جرير هي أصح الروايات، لأن محتوياتها تشكل شهادة داخلية على صحتها. اقرأوها مرة أخرى لتجدوا أن كل ما ورد فيها من وقائع وأحداث جاء في تناسق وانسجام، وأن التأويلات التي ذكرها جبريل واضحة تمامًا ومدعَّمةٌ من قِبل القرآن الكريم.

وعلى سبيل المثال، أوّلَ جبريلُ الماءَ بحطام الدنيا، وهذا حق، فإن الماء ينوب عن الدنيا، لأن به الحياة، كما قال الله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء: ٣١).

وقال جبريل: "لو شربتَ الخمرَ لغوَيتَ وغوَتْ أُمَّتُك". وهذا أيضًا حق، لأن الخمر رمز للأعمال الشيطانية لقول الله تعالى ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيسرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة: ٩١).

---

* علمًا أن المراد من "النسائي المجتبى" هو مختصر سنن النسائي، ومن "الكبير" هو "سنن النسائي". (المترجم)

وحين تناول رسول الله ﷺ اللبنَ قال لـــه جبريل: "أصبتَ يا محمد الفطرةَ"، ذلك لأن اللبن يتكون في ثدي الأم، ويكون خالصًا من أية شوائب، لذا يدل على الفطرة الصحيحة.

ثم لاحِظوا روعة الترتيب والتناسق بين ما عُرض على النبي ﷺ من مشروبات وبين مَن قابله في الطريق. فأول من مرّ به النبي ﷺ هي العجوز التي عبّرها جبريل بالدنيا، وكذلك أول ما عُرض عليه هو الماء الذي عبّره جبريل أيضًا بحطام الدنيا، وهذا هو ما يعلنه القرآن الكريم أيضًا في قول الله تعالى ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ﴾ (الكهف: ٤٦).

ثم بعد العجوز رأى النبي ﷺ في طريقه الشيطانَ، وبالترتيب نفسه عُرض عليه ﷺ الخمر بعد الماء، ذلك تبيانًا بأن الخمر تدفع شاربَها إلى الغواية مثل الشيطان.

وآخر ما رآه النبي ﷺ جماعةٌ من الأنبياء الذين سلّموا عليه أي دعوا لـــه بالسلامة، وبالمثل عُرض عليه ﷺ في آخر الأمر اللبنُ، وكان إشارةً إلى أن أمته ﷺ ستحظى دائمًا بالعلوم الروحانية، وستنجو من الدمار.

فكل ما في هذه الرواية من ترتيب جميل محكم وتعبيرات صحيحة رائعة يدل على أن راويها لا بد أن يكون قد سمع هذا الخبر من رسول الله ﷺ.

كان الإسراء كشفا لطيفا:

والآن أبين لكم مغزى الإسراء بناءً على ما فهمتُه من القرآن الكريم والعلوم الروحانية.

إن الإسراء، في رأيي، كان كشفًا من الكشوف اللطيفة، وإليكم أدلتي:

الدليل الأول: هو رواية أنس رضي الله عنه التي أفضّلها على باقي الروايات من حيث التفصيل. فقد جاء فيها أن النبي ﷺ رأى في الطريق عجوزًا، ثم شيئًا يدعوه متنحّيًا عن الطريق، ثم خلقًا من الخلائق، وبعد ذلك عُرض عليه الماء والخمر واللبن، فتناول اللبن، ثم قام جبريل عليه السلام بتأويل هذه الأحداث كلها.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: إذا لم يكن الإسراء كشفًا من الكشوف فلماذا قام جبريل بهذه التأويلات؟ وإذا كان النبي ﷺ قد أُسريَ بجسده المادي فلماذا رأى الدنيا على شكل عجوز؟ وهل في القرآن أو الحديث أن الدنيا امرأة عجوز في الحقيقة؟ فرؤية النبي ﷺ الدنيا على صورة عجوز تدل صراحةً على أن الإسراء كان كشفًا من الكشوف الروحانية اللطيفة، وإلا لقال النبي ﷺ لجبريل على الفور: لماذا تتكلف وتلجأ إلى التأويل، فقد رأيتُ هذه العجوز بأم عيني الجسمانية آنفًا؛ فهل يحتاج ما يُرى بالعين إلى تأويل؟ ولكنا نجد النبي ﷺ قد لزم الصمت على تأويل جبريل لهذه المناظر، مما يوضح أنه اعتبر هذا الحدث كشفًا.

ثم إن فرحة جبريل على رفض النبي ﷺ الماءَ أيضًا تؤكد كون الإسراء كشفًا من الكشوف، إذ لو كانت رحلته هذه بجسده المادي فلماذا تغرق أمته نتيجة شربه ﷺ الماءَ وقد كان يشرب الماء في حياته دائمًا؟ فما الضمان إذًا لنجاة أمته من الغرق وقد شرب الماء آلاف المرات في حياته المادية؟!

الدليل الثاني: إن القرآن الكريم أيضًا قد سمّى هذا الحادث رؤيا كما قال الله تعالى في هذه السورة نفسها: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ (الإسراء: ٦١)، مما حدا بعديد من الصحابة والعلماء الأسلاف على اعتبار الإسراء رؤيا من الرؤى. فقد "أخرج ابنُ إسحاق وابن جرير عن معاوية بن أبي سفيان أنه كان إذا سئل عن مسرى رسول الله ﷺ قال: كانت رؤيا من الله صادقةً" (الدر المنثور). وهو أيضًا مذهب أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها. (السيرة النبوية لابن هشام:* ذكر الإسراء، ومختصر زاد المعاد: فصل في الإسراء ص ٢٠٣)

* ورد في السيرة النبوية لابن هشام: "قال ابن إسحاق: وحدّثني بعض آل أبي بكر أن عائشة زوجَ النبي ﷺ كانت تقول: ما فُقِدَ جسدُ رسول الله ﷺ، ولكن الله أسرى بروحه".(المترجم)

الدليل الثالث: قولُ النبي ﷺ: لما أخبرتُ الناسَ بذهابي إلى القدس سألوني أن أَصِفَها لهم، وكنت لا أعلم من مَعالمها شيئًا، فترددت في وصفها. فلو كان النبي ﷺ قد زار القدس زيارة ظاهرة لما تردد في وصفها. فقد ورد أن النبي ﷺ قال: "لما كذّبتني قريش حين أُسريَ بي إلى بيت المقدس، قمتُ في الحِجر، فجلّى اللهُ لي بيتَ المقدس، فطَفِقْتُ أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه." (البخاري: كتاب التفسير، باب قوله أسرى بعبده ليلاً)

فهذا الحديث أيضًا يؤكد كون الإسراء كشفًا، حيث فكّر النبي ﷺ لدى سؤالهم أن ما رآه من مناظر القدس ربما لا يكون مطابقًا للواقع الظاهر، ولذلك تردد في وصفها، ولكن بما أن موجة المعارضة والاستهزاء من قبل الكفار كانت على أشدها لدى سماعهم هذا الخبر لذلك قرر الله تعالى أن يكشف لنبيّه مَعالم القدس على صورها الظاهرة أيضًا، فرآها النبي مرة أخرى رؤيةَ كشفٍ، فجعل يصفها لهم. فصدّقه من كانوا على معرفة بمعالم القدس. وأقول: قد تكون خريطة القدس متيسرة حينذاك، ولكن هل يوجد بين هؤلاء المتعصبين من يستطيع أن يجيب هكذا على أسئلة الناس عن مدينة من المدن مستعينًا بخرائطها فقط دون أن يزورها؟!

وجدير بالذكر أنه مما لا شك فيه أن القرآن الكريم قد استخدم للإسراء كلمة الرؤيا، ولكن يجب أن لا ينخدع بذلك أحد فيظنها كالأحلام والرؤى العادية. فإن "الرؤيا" بلُغتنا الأردية تطلَق فقط على ما يراه النائم من مناظر ومشاهد، ولكنها في العربية تطلَق على الحلم وكذلك على الكشف الروحاني. والكشف هو غير الحلم العادي، ولا يراه الإنسان في النوم، وإنما يراه ما بين النوم واليقظة.. أي في حالة شبه غيبوبة حين لا يكون نائمًا، وإنما تكون حواسه الظاهرة نشيطة في عملها، بل أحيانًا يرى الإنسان الكشف وهو يحاور صاحبه. وكشوف الأنبياء أكثر لطافة وشفافية من كشوف الآخرين، لأنهم يستطيعون أن يروا بعيونهم الكشفية ما يقع بالضبط في أماكن نائية للغاية.

واعلم أن الكشوف ثلاثة:

١- ما تكون مَناظِرُه مطابقةً للواقع المادي، تمامًا كما يرى الإنسان بالمرقب الأشياء البعيدة.

٢- ما يكون بعض مناظره مطابقًا للواقع المادي، وبعضه يتطلب التأويل.

٣- ما تحتاج كل مناظره إلى التأويل.

وإن ما رآه النبي ﷺ في الإسراء كان من النوع الثاني. فبعض ما رآه من مشاهد كان مطابقًا للواقع المادي، بينما كان بعضه يتطلب التأويل. وقد سبق أن تحدثت بالتفصيل عما كان بحاجة إلى التأويل. أما المناظر التي كانت طبقًا للواقع المادي فمنها -كما ورد في الحديث- أن النبي ﷺ قال للسائلين: مررت عند العودة بقافلة لقريش بمكان كذا وكذا قد أضلوا بَعيرًا لهم. ولما وصلت تلك القافلة مكة أكدوا أنهم بالفعل كانوا ضلوا بعيرًا لهم في ذلك اليوم نفسه وفي المكان نفسه (الخصائص الكبرى: حديث شداد بن أوس ص ١٥٩) علمًا أنني صاحب خبرة بالكشوف، بفضل الله تعالى، و لم أقل ما قلت إلا بناءً على خبراتي الشخصية. وأبيّن الآن الغرض من كشف الإسراء هذا.

الغرض من الإسراء:

أرى أن هذه الرحلة الكشفية إلى القدس كانت تتضمن نبأً عن الهجرة النبوية إلى المدينة، وأن رؤية النبي ﷺ المسجدَ الأقصى كانت إشارة إلى بناء المسجد النبوي الذي قدِّر له أن ينال تعظيمًا وتكريماً أكثر من المسجد الأقصى. وأما صلاته ﷺ بالأنبياء الآخرين إمامًا لهم فكانت بشارةً بأن دعوته لن تبقى منحصرة في العرب وحدهم، بل ستمتد إلى الشعوب الأخرى، وستدخل أمم الأنبياء الآخرين في الإسلام، وأن هذا الانتشار سيتم بعد الهجرة. كما كان هذا نبأ بأن النبي ﷺ سينال الحكم على القدس، حيث ورد في كتب تعبير الرؤى: "وتدلّ رؤيةُ كل مسجد على جهته والتوجه إليها كالمسجد الأقصى والمسجد الحرام ومسجد دمشق ومسجد مصر وما شاكل ذلك. وربما دلت على علماء جهاتهم أو ملوكهم أو نُوّاب ملوكهم". (تعطير الأنام كلمة المسجد).

وسأتناول الآن كلاً من هذه المعاني واحدًا بعد الآخر، لأبين كيف أنها قد تحققت كلها لصالح النبي ﷺ.

المعنى الأول- لقد قلت آنفًا إن المراد من المسجد الأقصى في هذه الرؤيا هو المسجد النبوي، وأن القدس تعني المدينة المنورة، وأن سفره ﷺ إلى القدس يعني هجرته إلى المدينة.

لقد بدأ الله تعالى ذكر هذه الرؤيا بقوله ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بعبده﴾ ليشير إلى أن الهجرة ستُجلّي سبوحية الله أي براءته من العيوب والنقائص كليةً. فكلمة ﴿سبحان﴾ أيضًا تبين أن هذه الرؤيا انطوت على نبأ، ذلك أن رؤية بيت المقدس في الظاهر لا تؤكد سبوحية الله، ولكن الهجرة إلى المدينة ساعدت على قيام الدولة الإسلامية التي حققت كثيرًا من الأنباء الواردة في القرآن الكريم، مما دل على سبوحية الله تعالى. فبقولـــه تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ أشار إلى أنه سيذهب بعبده إلى المسجد الأقصى أي إلى مسجد مماثل لـــه، لكي تتحقق تلك الأنباء التي لا بد لتحقُّقها من الهجرة، فترى الدنيا كيف أنه ﷻ أنجز ما وعد به في القرآن من الأنباء المتعلقة بالجهاد والقتال وقيام الدولة الإسلامية وغيرها مما كان متوقفًا على الهجرة.

ثم إن قولـــه تعالى ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ أيضًا يدل على أن هذه الرؤيا تشير إلى سفر ستتجلى فيه آيات إلهية خاصة. ولا غرو أن الهجرة هي السفر الذي كشف الستار عن مستقبل مشرق للإسلام كان خافيًا على الدنيا من قبل.

كما أن قولـــه تعالى ﴿إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أيضًا يدعم موقفي، لأن رؤية القدس في الكشف وحدها ليست دليلا على كون الله سميعًا بصيرًا، ولكن هجرة المدينة قد جلّت هذا المعنى أيما جلاء. لقد دلت الهجرة على أن الله سميع.. حيث تبيَّن بها أن الله تعالى يسمع ويستجيب دعاء عباده، ودلّت على أنه تعالى بصير.. حيث تحققت للمسلمين الانتصارات التي وُعدوا بها بعد الهجرة. كما دلت حمايةُ الله للمؤمنين إثر الهجرة على أن هناك إلـــهًا يبصر بالعباد ويحفظهم.

وكانت رؤيته ﷺ المسجدَ النبوي على شكل المسجد الأقصى والمدينةَ على صورة القدس تتضمن الإشارةَ إلى أن مسجده ومدينته ﷺ سيبارَك فيهما كما بورك في الأقصى والقدس.

وربما يقال هنا: لماذا لم يُشبَّه المسجد النبوي بالمسجد الحرام بدلاً من الأقصى؟

والجواب أولاً: إن المسجد الحرام ينفرد -دون جميع المساجد حتى المسجد الأقصى والمسجد النبوي- بخصوصيات تتعلق بشعائر الحج. وثانيًا: كان الهدف من رؤية النبي ﷺ المسجدَ الأقصى إعلامَه أن تلك المنطقة ستقع في أيدي المسلمين، وهذا الهدف ما كان ليتحقق برؤيته المسجد الحرام. فبما أن كشف اسم المَهجر النبوي صراحةً لم يكن أمرًا حكيمًا بسبب الأوضاع السياسية السائدة حينذاك فرمَز الله ﷻ لنبيه هنا بالمسجد الأقصى إلى المسجد النبوي وبالقدس إلى المدينة المنورة.

وتحقُّقُ هذا النبأ في حق المسجد النبوي ظاهر مما روي عن أبي هريرة أن النبيّ ﷺ قال: "لا تُشَدُّ الرحالُ إلا إلى ثلاثة مساجدَ: المسجد الحرام ومسجد الرسول ومسجد الأقصى." (البخاري: كتاب الجمعة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة)

فالمسجد الأقصى قد شُبّه هنا بالمسجد النبوي، وبتأسيس المسجد النبوي تحقق نبأ أداء النبي ﷺ الصلاةَ في المسجد الأقصى.

وكان في رؤيا الإسراء نبأ آخر يتعلق ببركة المدينة المنورة، وهو المشار إليه في قولـــه تعالى ﴿الَّذي بَارَكْنَا حَولَه﴾.. و﴿حوله﴾ يعني ما حول الأقصى وهو مدينة القدس. وطبقًا لهذا النبأ بارك الله فيما حول المسجد النبوي أيضًا.. أي في المدينة المنورة. وإليكم الأدلة على ذلك:

١- ورد في الحديث: "عن أنس عن النبي ﷺ قال: اللهم اجعَلْ بالمدينة ضِعفَي ما جعلتَه بمكة من البركة". (البخاري: كتاب فضائل المدينة، باب المدينة تنفي الخَبث)

٢- وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: "اللهم حَبِّبْ إلينا المدينةَ كحبنا مكةَ أو أشدَّ. اللهم بارِكْ لنا في صاعنا ومُدِّنا" (المرجع السابق). وقوله ﷺ: "بارِكْ في صاعِنا ومُدِّنا" يعني أن يبارك الله في زراعة أهل المدينة وتجارتهم.

٣- و"عن زيد بن عاصم أن رسول الله ﷺ قال: إن إبراهيم حرّم مكة ودعا لأهلها، وإني حرّمتُ المدينةَ كما حرّم إبراهيمُ مكة، وإني دعوتُ في صاعها ومُدّها بمثلَي ما دعا به إبراهيم لأهل مكة." (مسلم: كتاب الحج، باب فضل المدينة).

علمًا أن الدعاء للمدينة هنا كان من أجل البركة المادية، أما من حيث البركة الروحانية فإن مكة هي الأفضل بين سائر المدن بدون شك.

لقد تبيَّنَ من هذه الأحاديث كلها أن المسجد الأقصى الذي بورك حوله والذي رآه النبي ﷺ في الرؤيا كان المقصود منه المسجد النبوي، إذ لم تُؤتَ القدسُ حتى عُشْرَ ما أوتيت المدينةُ المنورة من البركة.

وهناك رواية لعائشة رضي الله عنها توضح لنا كيف بارك الله في المدينة بركة ظاهرة حيث قالت: قبلَ مقدم النبي ﷺ إلى المدينة كان وباء الحمى يتفشى فيها بكثرة، ولذلك كانت تسمى "يثرب" أي البكاء والعويل، فنجّاها الله ﷻ من هذا الوباء ببركة دعاء نبيه ﷺ، فسمّاها المدينة (البخاري: فضائل المدينة).

كما ورد في كشف الإسراء أنه ﷺ صلّى بالأنبياء في المسجد الأقصى. وهذا النبأ لم يتحقق إلا بعد هجرته ﷺ إلى المدينة، حيث كانت المدينة نقطة انطلاق دعوة الإسلام إلى كل بقاع العالم؛ بل الواقع أن ازدهار الإسلام لم يتوقف إلا بعد أن نُقلت عاصمة الدولة الإسلامية من المدينة. لقد حقق الإسلام في الثلاثين عامًا -التي كانت فيها مدينة الرسول عاصمة للدولة الإسلامية- من الانتشار والازدهار ما لم يحققه في ثلاثة عشر قرنًا!

وقد يقال هنا أن النبي ﷺ قد خص المدينة بهذه الخصوصيات والبركات من عند نفسه! والجواب: ليس بوسع الإنسان أن يمنح البركات. متى يقدر الإنسان على أن

يدلي بمثل هذه الأنباء ثم يحققها أيضًا؟ الحق أن ما دعا به النبي ﷺ للمدينة كان بمثابة تصديق منه لما نبّأه الله به من قبل.

وجدير بالانتباه أن قوله تعالى ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ يشير إلى أن عبد الله هذا لم يخرج في هذه الرحلة الليلية بخياره، بل الله نفسه قد سيّره. وهذا بالضبط ما حدث في الهجرة أيضًا حين خرج النبي ﷺ من مكة تحت ستار الليل، ولم يغادرها برغبته، وإنما اضطر للخروج منها حين حاصر الكفار بيته لاغتياله. إذن فلم تكن الهجرة برغبته ﷺ، بل إن المشيئة الإلهية هي التي دفعته للهجرة.

ثم كما أن جبريل صاحَبَ النبيَّ ﷺ في إسرائه إلى القدس، كذلك رافق أبو بكر الرسولَ ﷺ أثناء الهجرة، وكان متفانيًا في طاعته كما يطيع جبريل أوامر الله تعالى. وكلمة جبريل تعني "بطلُ اللهِ"، وكذلك كان أبو بكر عبدًا مختارًا لله تعالى، وبطلاً مغوارًا في سبيل دينه.

المعنى الثاني- وقد قلت أيضًا إن رؤية المسجد الأقصى تعني أيضًا مسجد بني إسرائيل (أو المعبد الإسرائيلي) بالقدس، والمراد أن الله تعالى سيجعل نبيه ﷺ غالبًا على ذلك البلد أيضًا. ولقد تحقق هذا النبأ أيضًا حين وقعت القدس في أيدي المسلمين في عهد ثاني خلفاء الرسول ﷺ، واستمر حكمهم عليها ثلاثةَ عشرَ قرنًا. لقد استولى عليها الآن المسيحيون، ولكنه استيلاء مؤقت، وقد تم أيضًا بحسب نبأ من أنباء الله تعالى، وسوف تعود القدس -عاجلاً أو آجلاً- إلى أيدي أتباع الرسول ﷺ مرة أخرى.

ونظرًا إلى هذا المعنى، كان المراد من قوله تعالى ﴿ليلاً﴾ أن فتح القدس لن يتم بقوة الحروب المادية، وإنما ببركة تلك الرؤيا التي رآها النبي ﷺ ليلاً. وهذا ما حدث بالضبط، إذ متى كان جندُ العرب القليلُ العدد والعتاد قادرًا على الصمود أمام جيوش إمبراطور عظيم كقيصر، وإنما هو وحي الله النازل ليلةَ الإسراء الذي جعل جيشَ قيصر العرمرمَ والخبيرَ بفنون الحرب والقتال يفرُّ أمام العرب العديمي العدة والعتاد فرارَ الحمير من الأسد.

وقد يعترض أحد ويقول: لم تُفتَح القدس في زمن النبي ﷺ وإنما في عهد عمر؟ والجواب: أن أتباع النبي أيضًا يكونون مشمولين في الأنباء التي يدلي بها. وهناك أمثلة كثيرة لذلك في الإسلام وفي كتب الأنبياء الذين خلوا من قبل.

المعنى الثالث– لقد أخبرتُ أن رؤية المسجد في المنام تدل على علماء المنطقة التي فيها المسجد. وطبقًا لهذا النبأ نجد أن المسلمين لم يحققوا الغلبة السياسية على القدس فحسب، بل إن معظم سكان تلك البلاد دخلوا في الإسلام، ولم تزل القدس مركزًا لعلماء المسلمين طيلة ثلاثة عشر قرنًا. والظاهر أنه لم يكن بوسع إنسان أن يُحدث هذا الانقلاب، بل إن الله هو الذي فعل ما فعل.

كشف الإسراء يشير إلى رحلة نبوية روحانية أخرى أيضا:

هذا، وأرى أن كشف الإسراء يشير إلى رحلة نبوية روحانية أخرى أيضًا. فقد أخبر الله ﷻ في هذا الكشف أنه سيأتي على أهل الإسلام عصر الظلام، وسيبعث الله عندها رسوله محمدًا ﷺ مرة أخرى في شخص أحد من خدامه المطيعين لــه، ليكون منارًا للهدى في ذلك العصر المظلم كالليل، ولينال المسلمون بواسطته نفسَ البركات التي نالها أنبياء بني إسرائيل وأتباعهم. وقد أشار الله تعالى إلى ذلك في سورة الجمعة أيضًا حيث قال ﴿هُوَ الَّذي بَعَثَ في الأُمِّيِّينَ رَسُولا منْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاته وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكتَابَ وَالْحكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا منْ قَبْلُ لَفي ضَلال مُبِين * وَآخَرِينَ منْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الجمعة: ٣-٤).. أي أن النبي ﷺ سوف يعلِّم الدين جماعةً أخرى لم تلحق بعد بالمسلمين، بل ستظهر في المستقبل. وذلك ليس بمستبعد على الله تعالى، لأنه العزيز الحكيم.. أي أنه لن يدَع أمةَ المصطفى ﷺ لتهلك هكذا، بل لا بد أن يبعثه لإصلاحهم بعثةً روحانيّةً.